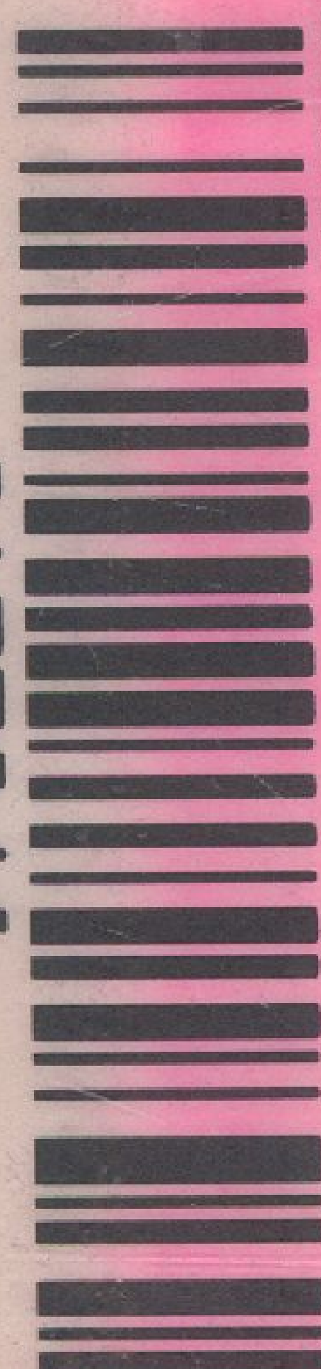
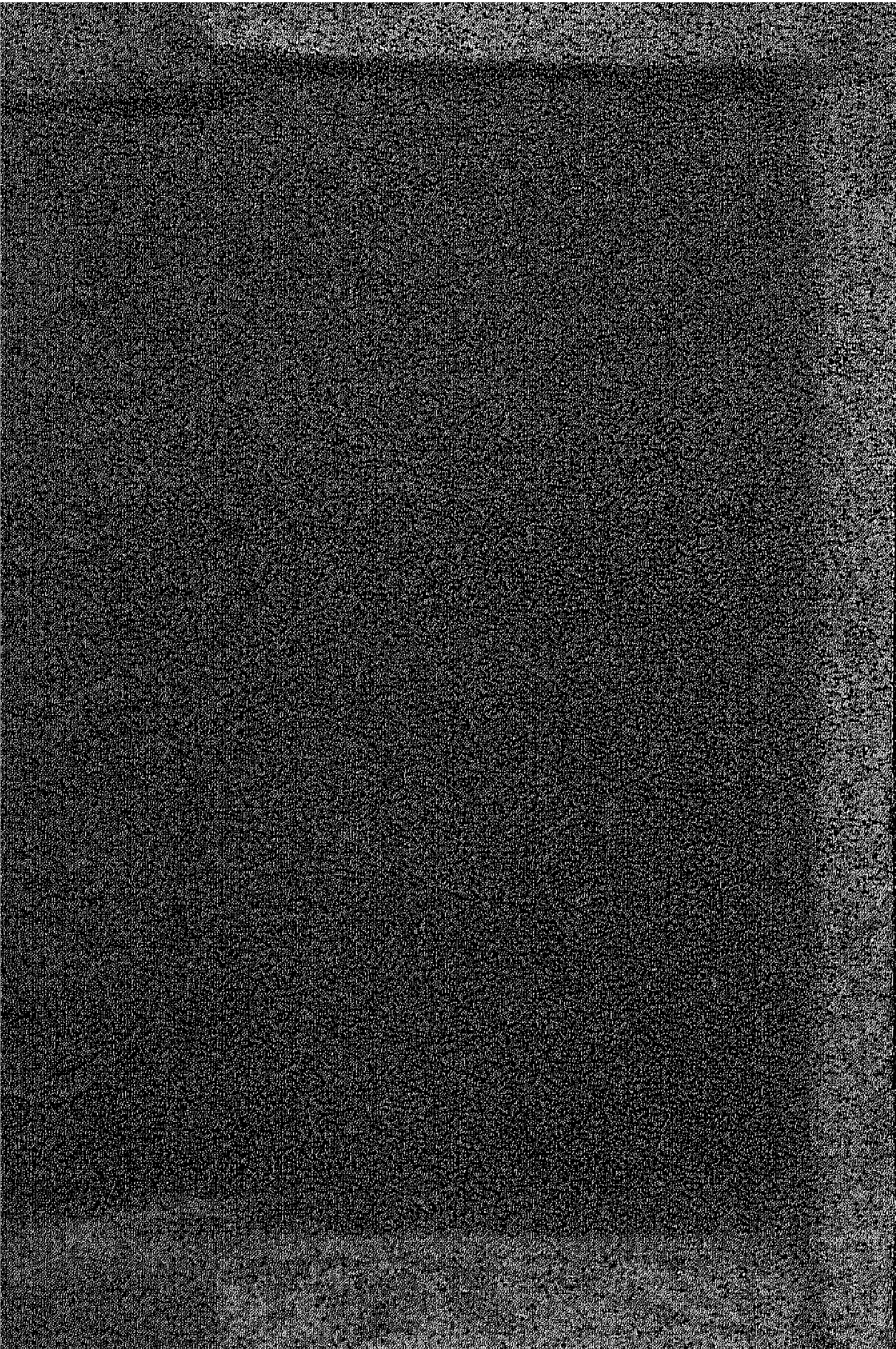
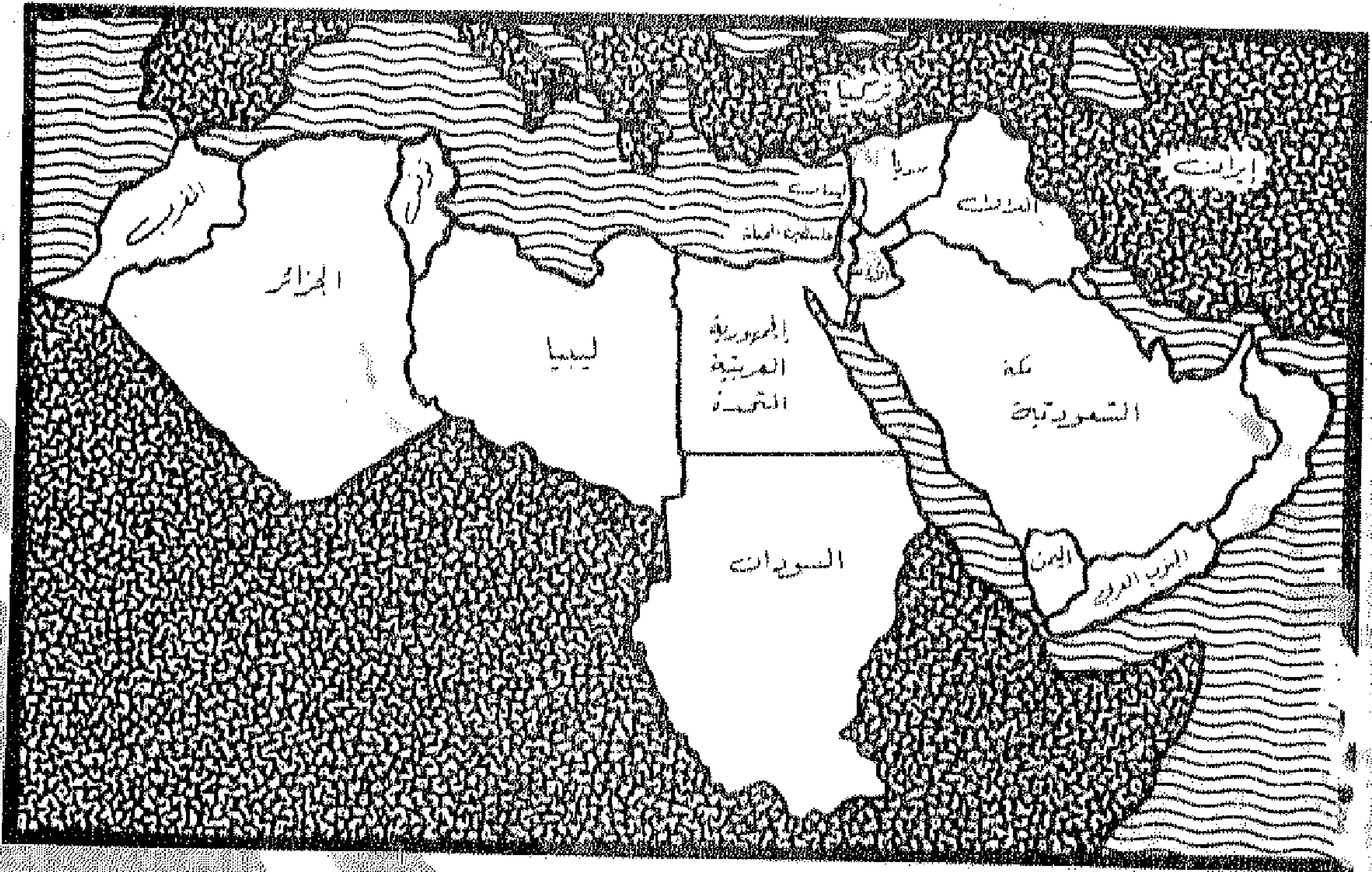







اقرأ

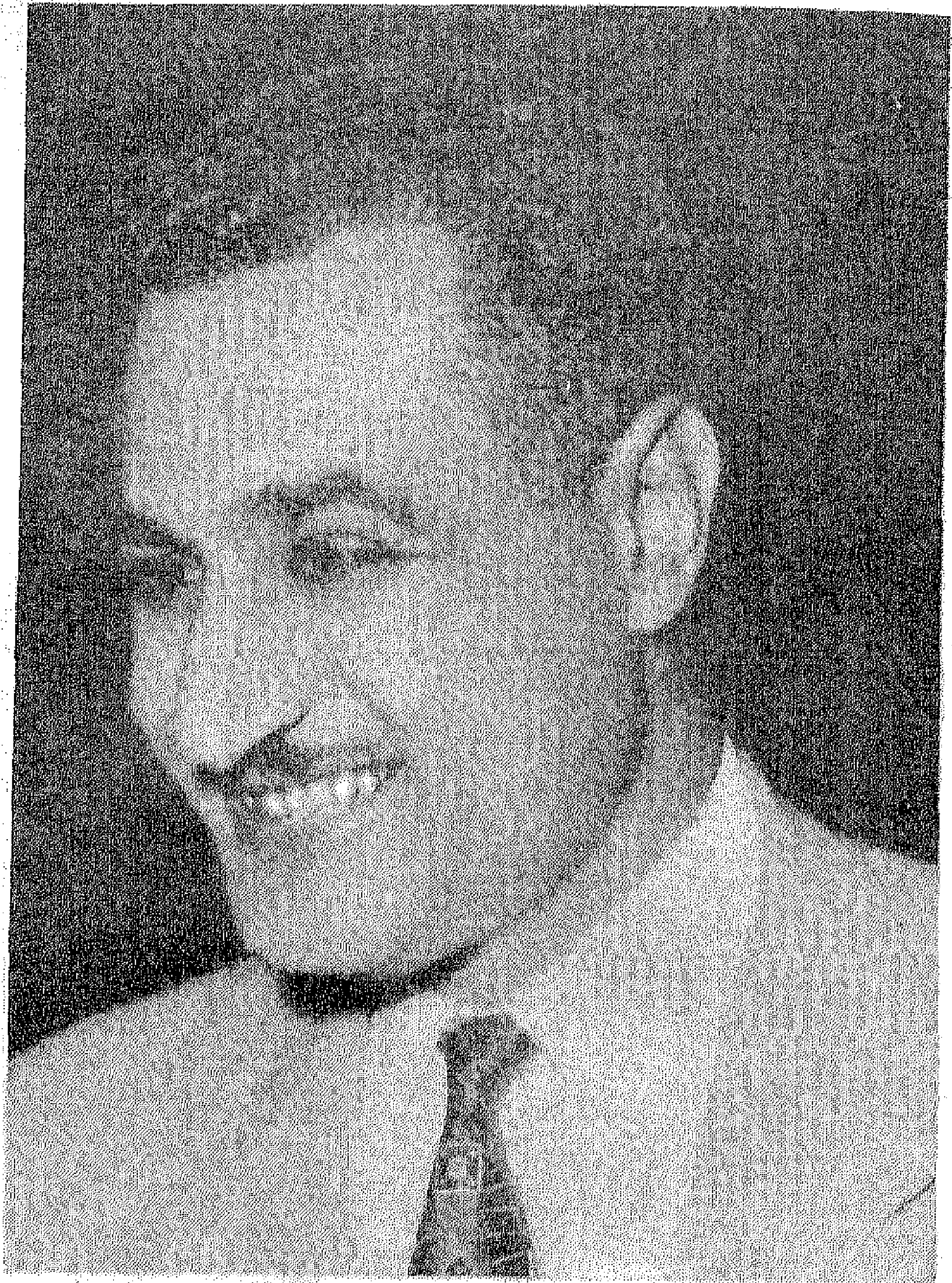
عروبتنا



محمود كامل

دار المعارف بمصر

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٠٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	



الرئيس جمال عبد الناصر



عبد الرحمن الكواكبي

عروبتنا

محمود كامل

عروبتنا

اقرأ ٢٦١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦١ – سبتمبر ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

كلمة المؤلف

العرب هم الجماعة الإنسانية التى تعيش فى المنطقة الممتدة من المحيط الهندى وخط الاستواء جنوباً والخليج العربى وإيران شرقاً وجبال طوروس وساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبى شمالا والمحيط الأطلسى غرباً، وهى مساحة توازى مساحة الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك معاً، ولكنها – لاعتبارات مفتعلة – مقسمة إلى نحو أربعين من الجمهوريات والملكيات والإمارات والسلطنات والمشيخات والمحميات، ومع ذلك فإن الأراضى التى عاش عليها هؤلاء العرب منذ آلاف السنين متلاصقة لا تكاد تفصل بينها حواجز جغرافية، وقد ربطت بينهم منذ فجر التاريخ وشائج من وحدة الثقافة والمصالح الاقتصادية، وجمعت بينهم أشكال مختلفة من الوحدة السياسية، بل إن هذه المنطقة أو الجزء الأكبر منها الذى كان له دور فى الشئون الدولية قد بدا فى أكثر من عهد من عهود التاريخ كدولة واحدة.

وأقدم ذكر للعرب – بهذا الاسم – ثابت فى نقش يعود إلى الملك الأشورى شلمنصر الثالث الذى أراد فى عام ٨٥٤ ق.م أن يضم منطقة دمشق إلى دولته أى العراق فتضمن هذا النقش ذكر الشيخ «العربى» حليف ملك «آرام» أى دمشق، كما ذكر هيرودوتس (٤٨٤ – ٤٢٥ ق.م) أى منذ نحو ألفين وخمسمائة عام أن الأرض العربية هى التى تقع فى أقصى الجنوب.

وقد استخدم هؤلاء العرب فى الكتابة « خطاً » يذهب علماء اللغات إلى أن مصدره الأبجدية السينائية التى عثر على نقوش بها ترجع إلى عام ١٨٥٠ ق.م وهى أبجدية نقلت فكرة التدوين عن الهيروغليفية وتطورت إلى خط السبئيين الذين نشأت دولتهم فى عام ١٣٠٠ ق.م وانتقل هذا الخط إلى مصر فعثر فى الجيزة على كتابة به تعود إلى عهد بطليموس بن بطليموس فى القرن الثالث قبل الميلاد — كما أن هذه الأبجدية السينائية هى أصل الأبجدية الفينيقية التى وجدت نقوش لها تعود إلى عام ٧٠٠ ق.م كما ذكرنا ، وإن كان هناك رأى يذهب إلى أن « المسند » الحميرى مأخوذ من الأبجدية الفينيقية لا من الأبجدية السينائية رأساً . وفى جميع هذه العصور الموغلة فى القدم ظلت هذه المجموعة الإنسانية تتكلم لغة تتضمن عناصر مشتركة سامية وإن اختلفت لهجاتها، وتكتب خطاً يعبر عن معانى هذه اللغة سواء بالصور فى مصر أو بالخط المسمارى والأختام الأسطوانية فى العهد البابلى بالعراق، أو بالحروف بعد تطوير الصور الهيروغليفية إليها كما فى الأبجدية السينائية التى استخدمها العمال العرب فى شبه جزيرة سيناء، أو بالحروف العربية العادية بعد أن أرست الأبجدية الفينيقية السامية قواعدها . وعلى خلاف ما قد يخطر ببال الكثيرين استقر علميا أن اللغة المصرية القديمة — كما يقرر الأستاذان موريه ودافى — بها أوجه شبه رئيسية تبدو واضحة بينها وبين اللغات السامية فى قواعد النحو والصرف والضمير الشخصى وتصريف الأفعال وإنهاء المؤنث المفرد والجمع والمثنى بنفس الطريقة وأمثلة عديدة أخرى . وقد انتهى « موريه » و « دافى »

إلى أن لغة المصريين القدماء وإن احتوت على عنصر إفريقى من الشمال ومن الجنوب ، أى من لغة بربر شمال إفريقيا ولغة الإفريقيين الجنوبيين ، فإنها تحتوى — فوق كل شىء — على عنصر سامى ، وهذا يفسر التطور التاريخى الذى مرت به الأبجدية العربية التى يستخدمها العرب الآن وهم الذين ينتمون إلى :

١ — الجمهورية العربية المتحدة	وسكانها	٢٦,٥٩٣,٠٠٠	نسمة
٢ — جمهورية السودان	وسكانها	١٢,٤٧٠,٠٠٠	»
٣ — المملكة الليبية المتحدة	وسكانها	١,٢٤٤,٠٠٠	»
٤ — الجمهورية التونسية	وسكانها	٤,٢٥٤,٠٠٠	»
٥ — الجمهورية الجزائرية	وسكانها	١١,٠٢٠,٠٠٠	»
٦ — المملكة المغربية	وسكانها	١١,٩٢٥,٠٠٠	»
٧ — المملكة العربية السعودية	وسكانها	٨,٠٠٠,٠٠٠	»
٨ — الجمهورية العربية اليمنية	وسكانها	٥,٠٠٠,٠٠٠	»
٩ — الجمهورية العراقية	وسكانها	٧,٢٦٣,٠٠٠	»
١٠ — المملكة الهاشمية الأردنية	وسكانها	١,٦٩٠,٠٠٠	»
١١ — الجمهورية اللبنانية	وسكانها	١,٨٢٢,٠٠٠	»
١٢ — الجمهورية العربية السورية	وسكانها	٥,٠٦٧,٠٠٠	»
١٣ — دولة الكويت	وسكانها	٣٢٢,٠٠٠	»

وهذه الدول جميعها أعضاء فى الأمم المتحدة كما أنها أعضاء فى جامعة الدول العربية .

١٤ — جمهورية موريتانيا الإسلامية وسكانها ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة

١٥ — اتحاد الجنوب العربى تحت الحماية البريطانية ويضم مستعمرة عدن وثمانى عشرة وحدة من السلطنات والمشيخات والإمارات التى كانت تابعة لمحمية عدن الغربية ومنها العوادل ويافع السفلى وأهل فضل وبيحان والضالع والعوالق العليا ولحج والعوالق السفلى ودثينة ، وسكان الاتحاد ٦٦٠,٠٠٠ نسمة ،وسكان مستعمرة عدن التى انضمت إلى الاتحاد ١٥٨,٠٠٠ نسمة ، وتتبعها جزيرة بريم .

١٦ — محمية عدن الشرقية وهى سلطنات القعيطى والواحدى والمهرة والكثيرى ومشيخات بير على وعرقه وحوره وقشن وسقطو .

١٧ — جزر البحرين ، إمارة تحت الحماية البريطانية ، وسكانها ١٥٦,٠٠٠

١٨ — قطر ، إمارة تحت الحماية البريطانية وسكانها ٤٥,٠٠٠

١٩ — مسقط وعمان ، سلطنة تحت الحماية البريطانية ، وسكانها ٥٥٠,٠٠٠

٢٠ — مشيخات ساحل المهادنة على الخليج العربى : أبو ظبى ، دبى ، الشارقة وكلبة ، رأس الخيمة ، أم القيوين ، عجمان ، الفجيرة ، وسكانها ٨٦,٠٠٠ نسمة ، تحت الحماية البريطانية .

٢١ — سبتة ومليلا وسكانها ١٤٣,٠٠٠ نسمة ، وأفنى وسكانها ٣٨,٠٠٠ نسمة ، والصحراء الإسبانية وتشمل المستعمرتين السابقتين ريوده أورو والساقية الحمراء وسكانها ٣٦,٠٠٠ نسمة ، وكل هذه الأراضى العربية تعدها إسبانيا مقاطعات إسبانية .

وهذه الجماعة الإنسانية التى تسكن الشرق العربى بحدوده الحالية

قد حققوا وحدة هذا الشرق عدة مرات فى التاريخ ، حققوها فى الفترة بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٥٠ ق.م فدامت نحو قرنين ونصف قرن ، ثم حققوها مرة ثانية فى الفترة بين عامى ٦٦٨ و ٥٣٩ ق.م فدامت نحو قرن وربع قرن ، وبعد أن اكتملت مقومات الوحدة الكبرى وذابت الفوارق الفرعية التى كانت تعترض إبرازها تحققت بإنشاء الدولة العربية الكبرى فى ثلاث وستين سنة بين عامى ٦٤٢ و ٧٠٦ ، واستطاعت هذه الدولة أن تقضى على أسطورة الدولة الرومانية الشرقية أى بيزنطة إلى حد أن وصف أوجست بارلى هذا النصر العربى المذهل بأن « العرب تخلصوا من بيزنطة وخسرت بيزنطة بعض أجمل ولاياتها وأغناها ، ويلوح أن عزتها قد ألغيت وأن روحها قد ضعفت ، وخسرت — تحت ما تعانى من غارات متكررة — إيمانها الوحيد الذى يقوم عندها مقام وطنية الرومان ، أى إيمانها بنصرها » ، ورسخت قواعد الوحدة العربية الكبرى على أساس الدين الجديد وتأثرت جميع الأمم التى اتصلت بالعرب بثقافتهم دون أن تقوى على التأثير فيهم .

ولعل ما يفسر يسر الاندماج التام الذى تحقق بين العرب القادمين من الشرق وبربر شمال إفريقيا هو ما استقر — كرأى شائع بين علماء اللغات — من أن حروف الهجاء الليبية ترجع إلى أصل فينيقى سامى كما يقرر « هاليفى » فى كتابه « أصل الأبجدية الليبية » ومن أن هذه الأبجدية الليبية — فى رأى آخر — تتصل بأبجدية أهل ثمود فى الجزيرة العربية .

وهؤلاء العرب هم الذين انتفض إحساسهم بكيانهم القومى وماضيهم التاريخى فى فترات متعاقبة من فترات هذا التاريخ عقب تحقيق الوحدة العربية الكبرى تبينوا فيها أن هناك أكثر من عامل يسوغ وحدتهم — بشكل أو بآخر — ويفرض حتمية هذه الوحدة ، وهداهم وعيهم القومى فى بادئ الأمر إلى أن تتخذ هذه الوحدة شكل وحدة إسلامية أو حركة من حركات التحرر الإسلامى ، ولا شك أن دعوة تقى الدين أحمد بن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » الذى كتبه فى أواخر القرن الثالث عشر إنما كان صرخة فى سبيل هذه الوحدة ، فقد تضمنت هذه الدعوة تنقية الدين من البدع والغلو ، وتوحيد الأحكام الدينية وأن وحدة الجماعة الإسلامية تتضمن استخدام لغة واحدة ، وقد تحمس ابن تيمية للغة العربية لغة القرآن و « شعار الأمة » وأشار إلى خطة المسلمين الأوائل عندما نشروا هذه اللغة فى مناطق كانت تتكلم اليونانية والفارسية والبربرية .

وهذا التضامن الإسلامى بين أفراد الأمة الذى قامت عليه فكرة الدولة الإسلامية على اختلاف المناطق الجغرافية التى تقع فيها أراضيها والأجناس التى ينتمى إليها مواطنوها ، بل اللغات التى يتكلمونها ، والجنسيات السياسية أحياناً وإن تضمنت الدعوة إليها عد اللغة العربية شعاراً للأمة ؛ هذا التضامن الإسلامى كان يمثل — بالتعبير القانونى الحديث — مبدأ من مبادئ القانون العام الداخلى الذى ينظم علاقة المحكوم بالحاكم والمواطن بالدولة التى ينتمى إلى جنسيتها ، وكان يتبلور بوضوح فى رابطة الولاء المشترك بين المسلمين جميعاً على اختلاف جنسياتهم السياسية ولغاتهم

وأجناسهم نحو رمز واحد أو جهاز أعلى من الدول الإسلامية Supra-étatique هو « الخلافة » . ولما بدأت الفرقة بين العرب بانتزاع الأدارسة الشيعة للمغرب (مراكش) والجزائر بعد عام ٧٨٩، وانتزاع الفاطميين الشيعة لتونس بعد عام ٩٠٩، ثم سقوط القاهرة أمام المعز لدين الله الفاطمي في عام ٩٦٩، وبالتالى تعدد الخلفاء أو رؤساء الدول إذا أردنا تقرير الواقع تاريخيا وإن اختلف الفقهاء فى جواز هذا التعدد نظريا — ظل هؤلاء العرب المسلمون — برغم تعدد الجنسيات السياسية — ينطوون تحت لواء جنسية « روحية » واحدة هى الإسلام . ولما زال نفوذ رؤساء الدول الشيعة بحكم الأيوبيين لمصر بعد عام ١١٦٩ استعادت الخلافة — كجهاز أعلى من الدول الإسلامية على اختلافها — دورها كرمز تتبلور حوله الجنسية « الروحية » الإسلامية وإن لم يبد هذا الرمز بما كان له من روعة فى صدر الإسلام بسبب تعدد السلطات السياسية التى كانت تحكم الشرق العربى خاصة والبلاد التى فتحها المسلمون عامة ، وظل هذا التمزق حتى عام ١٢٥٨ عندما سقطت بغداد أمام جيوش التتار وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله بن المستنصر ، وقد ظلت الخلافة شاغرة ثلاثة أعوام إلى أن بويع المستنصر بالله — وهو عم المستعصم بالله — بالخلافة فى عام ١٢٦١ واتخذت القاهرة عاصمة للخلافة العباسية حتى عام ١٥١٧ عندما سقطت أمام السلطان سليم ونقل المتوكل آخر الخلفاء العباسيين إلى الآستانة وانتقلت الخلافة إلى سلاطين آل عثمان ، وقد استعادت الخلافة — بسبب نفوذ الدولة العثمانية واتساع فتوحاتها — هيبتها

« كجهاز فوق الدول » الإسلامية وظل الشرق العربي بأكمله — فيما عدا المغرب (مراكش) خاضعاً للسيادة العثمانية نحو أربعة قرون كانت فيها هذه المجموعة الإنسانية التي عاشت منذ آلاف السنين على أرض هذا الشرق والتي تتكلم العربية تجمعها وحدة الجنسية السياسية كما كانت تربطها في نفس الوقت بباقي الشعوب الإسلامية وحدة الجنسية « الروحية » ووحدة الولاء المشترك لذلك الجهاز الذي يعلو على الدول الإسلامية . وهذه الدعوة إلى التحرر الإسلامي أو الوحدة الإسلامية عن طريق التضامن الإسلامي التي دعا إليها ابن تيمية هي التي تابع الدعوة إليها — بشكل أو بآخر — محمد بن عبد الوهاب في النصف الأول من القرن الثامن عشر ومحمد بن سعود في النصف الثاني من هذا القرن ومحمد بن علي السنوسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر وجمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده في النصف الثاني من هذا القرن ، كما سنحاول إيضاحه في القسم الأول من هذا الكتاب .

فلما انتفضت دولة الخلافة وهي تركيا على فكرة التضامن الإسلامي بالترويج لفكرة الوحدة الطورانية أي الفكرة التي تستند إلى « الجنس » أو « العنصر » كوحدة دون نظر إلى أي اعتبار آخر في أوائل القرن العشرين لتخذت فكرة الوحدة العربية لدى العرب اتجاهاً آخر يستند إلى وحدة التاريخ والثقافة واللغة والكفاح في سبيل مصير تحرري مشترك من السيادة العثمانية ، حتى إذا ما بدأت تظهر الدول العربية المستقلة في أسرة الدول وضح جليا أن عروبة هذه الدول أصبحت قاعدة من قواعد قانون دولي

عربى ينظم علاقات الواحدة منها بالأخرى، كما ظلت هذه الدول — باعتبار أن غالبيتها العظمى من المسلمين — تحتفظ بفكرة التضامن الإسلامى كقاعدة أخرى من قواعد قانون دولى عام إسلامى ينظم علاقاتها بالدول الإسلامية عربية كانت أو غير عربية لا كقاعدة قانون عام داخلى ينظم ولاء العرب المسلمين كمواطنين ينتمون إلى جنسية « روحية » نحو ذلك الجهاز الذى كان يعلو على الدول الإسلامية المختلفة كما سنعود إلى توضيحه ، ولما بدأت الدول العربية المستقلة تنظم علاقاتها الدولية بعضها بالبعض الآخر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى برزت « العروبة » فى المعاهدات التى نظمت تلك العلاقات وتركت طابعها كعقيدة موجبة موجهة على هذه المعاهدات ، ثم أخذت « العروبة » — فى مجال الدعوة النظرية التى روج لها المفكرون — تتأرجح بين الوحدة الشاملة التى تجمع الدول العربية كلها فى دولة واحدة وبين الدولة الاتحادية « الفيدرالية » أو اتحاد الدول « الكونفيدرالية » حتى وقع بروتوكول جامعة الدول العربية فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ فاستقرت فكرة « العروبة » بأن أصبحت قاعدة « مكتوبة » من قواعد القانون العام العربى بعد أن كانت مجرد إحساس قومى مشترك ووعى عام بين العرب جميعاً على اختلاف أديانهم وذلك بالنص فى دساتير هذه الدول العربية على أنها دول عربية وعلى أن شعوبها أجزاء من الأمة العربية .

ولا شك أن التعبير الحاسم عن نضوج « العروبة » وتبلورها وصهرها على نار التجارب فى الخمسينات من هذا القرن الذى نعيش فيه هو

ما قرره الميثاق من :

« إن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها . لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ؛ ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير » .

الفصل الأول

وحدة التاريخ

هؤلاء العرب — كما ذهب المتوفرون على تاريخهم — هم ثمرة الهجرات البشرية التى عبرت البحر الأبيض المتوسط على البرازخ التى كانت تصل فى العصرين الحجرى القديم والحديث شمال إفريقيا بجنوب أوربا عن طريق جبل طارق وصقلية وقد تحولوا إلى ذلك الجنس المستكمل لقوامه الخاص فى خلال سبعة آلاف العام الأخيرة من تاريخ العالم أى منذ الفترة التى تسمى عصر ما قبل الأسرات Predynastic، وهذا الإنسان الذى عاش فى هذه المنطقة التى تتكلم العربية من ذلك العهد البعيد كان يعيش فيها أيضا فى الفترة اللاحقة لانقضاء العصر الجليدى عقب الطور الأخير من هذا العصر الذى يسميه « بنش » Pench بطور ورم الجليدى Wurm Ice Phase وهو طور انحصر فيه الجليد نهائيا ويقدرون مدته بأنه كان منذ أقل من عشرة آلاف سنة، ويذهب العلماء إلى أنه فى هذه الفترة « كانت الصحراء الكبرى وبلاد العرب فيما يظهر تجودهما الأمطار فى الشتاء ويظهر فيهما الكلأ . . . ومن الفروض الوقتية المفيدة القول بظهور الإنسان الحديث فى أثناء هذا الطور من البرد وفى وسط هذه المراعي الواقعة بين ساحل الصحراء الكبرى على المحيط الأطلسى وبين

جبال فارس (١) .

وكان المعتقد أن العصر الحجرى القديم الأعلى الذى يعود إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد يمثل أول دور ظهر فيه الإنسان العاقل ولكن تبين أخيراً أن من الجائز أن يكون ظهور هذا النوع من الإنسان قد سبق ذلك فقد اتضح من الحفائر العميقة فى شمال الدلتا وجود أوان خزفية وطوب مصنوع ، كما وجدت جمجمة فى دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً ، وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤون قد عاشوا هناك من ستة عشر ألف سنة (٢) .

ولما كانت الحفريات فى شبه الجزيرة العربية لم تسفر حتى الآن عن أية آثار بشرية أقدم عهداً من هذا العصر الذى كشفت عنه الحفريات فى وادى النيل فإن العلماء المتوفرين على دراسة تاريخ العرب قد تساءلوا : هل نشأ الجنس العربى فى شمال إفريقيا ثم هاجر إلى شبه الجزيرة العربية ، وعلى وجه أدق إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فأنشأ دويلات الجنوب وهى دويلات المعينيين والقطبانيين والسبئيين والحميريين وهى الدويلات التى نقل عنها المسند الحميرى؟أو أن عرب شبه الجزيرة العربية نزحوا إلى شمال إفريقيا فكانوا أجداد الجنس العربى الذى يعيش فيها الآن ؟

---

(١) J.A. Hammerton, Universal History of the World, Vol. 1, "The Primitive Community. Origins of Races" pp. 194-195.

(٢) Breasted (November 1919). "The Origins of Civilisation"

ولقد أجابوا عن هذا السؤال فقرر فريق أن أقدم وطن للعرب الذين أرسوا قواعد لغتهم السامية هى إفريقيا، ويذهب « بلجريف» Palgrave إلى أن أوجه الشبه الجنسية القوية بين العرب وبربر شمال إفريقيا وخاصة شكل الفك وركبة الساق إلى جانب تشابه اللغة وانسجام التجاوب الاجتماعى تقود إلى النظر بأن الساميين الصميميين فى شبه الجزيرة العربية قد قدموا من أصل إفريقى لا أصل آسيوى[1]. ويقرر «جيرلاند» Girland استناداً إلى أوجه الشبه الجسدية لتكوين الجمجمة وإلى أسس لغوية، أن العرب الآسيويين يعودون فى مبدأ حياتهم إلى مناطق شمال إفريقيا، بل إن «جيرلاند» يقرر وحدة الجنس بين أهل شمال إفريقيا والساميين العرب وهو يرى أن الحاميين والساميين شعب واحد[2]. كما أن «بيرتن» Bertin قد دافع منذ عام ١٨٨٢ عن النظرية التى تقول بأن الساميين والحاميين نشأوا معاً فى إفريقيا وأن الساميين الإفريقيين نزحوا إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق برزخ السويس وأتموا مميزاتهم الجنسية الخاصة فى العربية الحجرية[3] ثم إن «برنتن» Brinton احتضن هذه النظرية منذ عام ١٨٩٠، وحاول أن يحدد بطريقة أكثر دقة المكان الذى نزح منه العرب الساميون فى شمال إفريقيا واستند إلى أن التقاليد الشعبية ودراسة اللغات المقارنة وعلم الأجناس وعلم الآثار والحفريات كلها تشير إلى وديان

---

(١) Article Arabia, Encyc. Brit.

(٢) Article Ethnography, Incongraphic Encyc. Vol. 1.

(٣) Journal of the Anthropological Institute, Vol. XI, p. 431

الأطلس فى المغرب على أنها منبع الهجرات البشرية العربية(١). كما أن «كين Keane» يرى أن موريتانيا فى المغرب هى الوطن الأصلى ومركز التفرق لا للحاميين والساميين فحسب بل لكل الجنس القوقازى، وهو بذلك يقطع بأن العرب من أصل إفريقى، كما أنه يرى أن جنوب شبه الجزيرة العربية هو أول موطن للساميين العرب بعد هجرتهم من الأرض الإفريقية (٢).

وهذه النظرية التى تذهب إلى أن الموطن الأصلى للعرب كان فى إفريقيا لا تتعارض — كما يرى «روبنسن سميث Robinson Smith» — مع النظرية التى تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت أول وطن آسيوى لهم وكانت النقطة التى تفرقوا منها، فإذا كانوا قد نشأوا أصلاً فى إفريقيا فإن النظرية التى تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت مهدهم بعد هجرتهم من القارة المجاورة تدعم وتقوى إلى حد كبير (٣). وأخيراً فإن «ناثانيل شميث Schmidt» قد رأى فى بحث قرأه فى مؤتمر الأديان بباريس عام ١٩٠٠ أن العرب الساميين ربما دخلو شبه الجزيرة العربية عن طريق أرض بونت، الحبشة والصومال، وأنهم عاشوا فى شبه الجزيرة

---

(١) Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, also his Races and Peoples, New York, p. 132.

(٢) Ethnology, Cambridge, 1896, p. 392 also his Man, Past and Present, 1899, p. 490.

(٣) Wright's Comparative Semitic Grammer.

العربية مدة طويلة تكفى لكى يتلقوا مميزاتهم الخاصة (١) .

ويعقب « بارتون » على هذه الحقائق العلمية فيقرر بأن جنوب أوربا قبل نهاية العصر الجليدى كان متصلا بشمال إفريقيا عن طريق جبل طارق أو عن طريق إيطاليا ، صقلية وتونس أو عن طريقهما معاً ، وأن الصحراء الإفريقية ، على الأقل فى جزء منها ، قد غمرتها المياه فانفصل شمال إفريقيا عن جنوبها وظل الانفصال مدة طويلة ولذلك افترقت حياة كل من جزأى القارة الإفريقية عن حياة الآخر ، وأن هذه الحالة انتهت ببدء العصر الثلجى الأخير ، وأن من المحتمل أن الجنس الأبيض المتوسط ، فى ذلك الزمن البعيد وتحت تلك الظروف ، قد تطور وبدأ يستكمل مقوماته (٢) .

وقد استقر الرأى العلمى على حقيقة ثانية هى أن الحضارتين المصرية والعراقية هما أقدم حضارات العالم وأهمها ، وأن ما ظهر من حضارات أو ثقافات أخرى كان أقل منهما شأناً ، واعتمد على إحداهما أو على كلتيهما معاً ، وأن هاتين الحضارتين كانتا تلتقيان فى سورية ؛ ولذلك جعل مؤرخو تينك الحضارتين لدراسة الآثار السورية أهمية كبرى .

ولكن كثر التساؤل بين علماء التاريخ عن أيهما أقدم : حضارة مصر ، حضارة وادى النيل ، أم حضارة العراق ، حضارة ما بين النهرين ؟

---

(١) George Aaaron Barton "A Sketch of Semitic Origin, Social and Religious".

(٢) بارتون — نفس المرجع — ص ١٦ — ١٨ .

وقد أجاب فريق منهم عن ذلك بأن « من الثابت أيضاً — وفقاً لأحدث النتائج التى وصلت إليها أبحاث الأثريين — أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة بعضها ببعض ، وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها و بعض فاتصلت مصر والعراق ، وكانت مصر إذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع فأثمرت هذه الصلة وأخذت مصر عن العراق شيئاً من مظاهر حضارته مثل الأختام الأسطوانية التى عثر عليها فى مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الأختام الأسطوانية كانت معروفة فى العراق فى العصر الذى يطلق عليه الأثريون الآن عصر ما قبيل اختراع الكتابة . ويطلق اسم عصر ما قبل الكتابة أو قبيل اختراع الكتابة Protoliterate period فى بلاد العراق على الفترة بين عامى ٣٧٥٠ و ٣١٠٠ ق . م — ثم يلى ذلك ، أى ابتداء من عام ٣١٠٠ تقريباً فى جنوب العراق ، العصر المسمى عصر الأسرات المبكر Early Dynastic Period وهو يقابل فى مصر الوقت الذى تم فيه توحيد البلاد كلها تحت حكم ملك واحد وبدء الأسرة الأولى ، وليس معنى ذلك أن حضارة مصر أو العراق بدأت فى الألف الرابعة قبل الميلاد فإن الحضارة فى كل من البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة ؛ فالحضارة السومرية بدأت فى شمال العراق حوالى عام ٥٠٠٠ ق. م وذلك فى العصر المسمى عصر حسونة ويقابل فى مصر العصر التاسى نسبة إلى قرية تاسا بمحافظة أسيوط . . . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق فى الفن المصرى

فى ذلك العصر المبكر بعض علماء الآثار على القول باحتمال هجرة كبيرة من بلاد الرافدين إلى النيل . . . وكما عثر فى مصر على آثار من العراق فقد عثر أيضاً فى العراق على آثار من مصر وظهرت فى فنونها تأثيرات مصرية[1]. ومنهم من ذهب إلى أن الحضارة المصرية حضارة مستقلة . . . وأن « التاريخ المصرى استغرق أكثر من أربعة آلاف عام ، وعمرت هذه الحضارة وهى الوحيدة الممثلة لنوعها ، أطول من أية حضارة اتصل بها علمنا ، وهذا على الرغم من أنها على ما يبدو إحدى الحضارتين الوحيدتين اللتين لا تمتان إلى غيرهما من الحضارات بسبب . الحضارة الثانية هى الأندية ، وتاريخها من الألف الرابعة قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادى يمتد فترة تربو على أضعاف عمر الحضارة الغربية ، وقد ولدت الحضارة المصرية — كما ولدت الحضارة السومرية — استجابة لتغير فى المناخ يظن أنه عرا إفريقيا وآسيا بعد زوال العصر المطير ، وهو ما يقابل العصر الثلجى فى أوربا ، فقد غاضت مياه النهرين واستحالت المراعى العشبية التى كانت تشرف على وادى النيل الأدنى إلى صحراء هى الصحراء الليبية فتغلغل الرواد الجريئون فى مستنقعات وادى النيل وأدغاله التى لم تطأها قدم إنسان من قبل كما تغلغل إخوانهم فى الوادى الأدنى

---

(١) أحمد فخرى : « الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم » المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٥٠ ، ص ٦ — ١٠ ، وقد استند على كتاب فرانكفورت Frankfort الذى أسماه The Birth of Civilisation in the Near East

لدجلة والفرات ، واستطاعت جهود الإنسان أن تتحكم فى خصوبة الطبيعة المسرفة ، وكان الإقليم موحشاً خلواً من السكان أشبه الأشياء فى منظره باقليم السدود فى بحرى الجبل والزراف ، وكان لزاماً على أهل مصر أن ينتقلوا لأن موطنهم الذى كان غنياً بالمرعى الطيب كان يتحول إلى صحراء جرداء . . . . وعظمة الاستجابة التى استجاب بها المصريون لصرامة التحدى هى التى تضفى على التاريخ المصرى دلالة الحقيقة »[١] .

ومنهم من ذهب إلى أن أول أرض واتت بحق تقدماً طبيعيا للحضارة ولأشكال من الرقى فى الحياة السياسية والاجتماعية هى الأرض التى مهدها الإنسان خلال بضعة آلاف من السنين فى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط من النيل إلى مابين النهرين ، فهناك ترك انحسار البحر البليوسينى أرضاً جافة تمتد من الأطلس إلى الخليج العربى ، وفى هذه الأرض شقت أنهار النيل والأردن والعاصى والفرات مجاريها وتكونت وديانها كما تخلفت خلجان البحر الأحمر والبحر الميت والخليج العربى الموازية لتلك الأنهار والوديان . وقد تخلفت عن الانفجارات البركانية شبه جزيرة سينا وأحجار البازلت والجرانيت والمعادن فى النوبة وسينا وشبه الجزيرة العربية وعيلام . وأنه برغم البحر العريض الذى يفصل بين مصر والجزيرة العربية الذى

---

(١) جيمس أكوتى : « مكانة مصر فى كتاب توينبى » ترجمة فؤاد أندراوس ، المجلة التاريخية المصرية مايو — أكتوبر ١٩٥٨ ص ١٢٧ — ١٣٠ وقد استند على كتاب Study of History

يتفرع منه خليج السويس الذى لا يزيد عرضه عن سبعين ميلا والذى يفصل بين إفريقيا وآسيا، فإن كل هذه المنطقة التى تم فيها تكوين مصر والعربية وفلسطين وسورية وما بين النهرين وأشوريا تجمع بينها وحدة جيولوجية وطبيعية . . . وبقيت آثار أولئك الناس فى مبانى وموميات ونقوش مصر وكلديا . ولذلك فإن تاريخ الإنسانية يمكن – بل يجب – أن يدرس بين شعوب الشرق العربى القديم مبكراً بضعة آلاف من السنين عن ذلك التاريخ فى أية منطقة أخرى .

وحتى فى تلك المنطقة المحظوظة من شرق البحر المتوسط لم تعدل الطبيعة فى توزيع هباتها عليها ، فقد قلت الأمطار فى ليبيا والعربية وسورية وأصبحت حياة الإنسان مهددة بالخطر ولكن ظلت الظروف مواتية فى وادى النيل والفرات ولذلك نشأت أول حضارتين رئيسيتين بين أهل مصر وكلديا . وبين هذين الواديين تحتل مصر مكان الصدارة لقدمها ولوفرة وجمال آثارها ، ففى مصر لم يظهر الإنسان منذ أقدم العصور فحسب، بل إن تطور جسمه وروحه وآثاره الاجتماعية والسياسية والذهنية والفنية يمكن تتبعه فى تسلسل بدون انقطاع تقريباً إلى يومنا هذا ، وهو أمر تنفرد به الحضارة المصرية وحدها ، ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية وفيها تفضل ملاحظة تقدم تلك الحضارة وإشعاعها إلى مراكز الشرق الثقافية الأخرى[1] .

---

(١) A. Moret & G. Davy : From Tribe to Empire
لندن ، ١٩٢٦ ، ص ١١٥ – ١١٧

وذهب فريق إلى أن المنطقة الآسيوية التى تمتد على البحر الأحمر وخليج العقبة تتسم بطبيعة تعد تكراراً جغرافياً للقارة الإفريقية؛ فالحقيقة أن هذه المنطقة المتشابهة هى امتداد واضح لإفريقيا، وأن آسيا إنما تبدأ فى جبال الأناضول وإيران، وأن البحار الأربعة الكبرى التى تحيط بالمنطقة العربية وهى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى تلطف من جو المناطق الساحلية وتمدها بالرطوبة اللازمة للزراعة، وأن اليمن — العربية السعيدة — ربما كانت لذلك مهداً لحضارة مبكرة . . . وأن الجنس السامى الذى تربطه قرابة وثيقة بالجنس الحامى الذى عاش فى شمال إفريقيا قد تطور فى تلك المنطقة، وأن العناصر العرقية أو « الجنسية » لهذا الجنس السامى ولغة هؤلاء الساميين تقطع بوحدة رائعة بين جميع الشعوب التى نسميها العرب : كنعانيين وفينيقيين وعموريين وكلدانيين وآشوريين، وأن الحفائر العلمية لا تزال قليلة فى هذه المنطقة الشاسعة اللهم إلا بعض الحفائر فى مناطق منعزلة بفلسطين والعراق وعيلام وهى لا تقارن بالحفائر التى أجريت بمصر ولذلك لم يعثر لا فى فلسطين ولا فى كلديا ولا فى أية منطقة من الجزيرة العربية على محطات تعود إلى العصر الحجرى الأعلى « باليوليتى »، لتدل على وجود الإنسان المبكر هناك، وكل ما عثر عليه رواسب قليلة العدد تعود إلى العصر الحجرى الحديث « نيوليتى »؛ وهذا لا يدل على أن الإنسان لم يوجد فى تلك المناطق فى عصر مبكر؛ ففلسطين والعراق وكلديا ومصر لم تتأثر بهجوم الجليد فى العصر الثلجى كما عانت أوربا وشمال آسيا،

وبذلك عاقت هذه الهجمات تقدم تلك المناطق الشمالية وأوقفت تطورها، وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن ظروف الحياة فى فلسطين والعراق قد واتت الإنسان العربى بما يعينه على حياة مجزية ولكننا لا نعرف شيئاً عنها قبل الألف الرابع قبل ميلاد المسيح ، وأننا عرفنا أهل تلك المناطق على الآثار المصرية ، على لوحة تعود إلى عهد الملك « دين » حوالى عام ٣١٧٥ ق.م وعلى رسم يعود إلى عهد الملك « سمرخت » حوالى عام ٣٣١٥ ق .م والملك خوفو حوالى عام ٢٨١٥ ق .م . . . وفى هذا الطراز الإنسانى وتحت هذه الأسماء نتبين البدو المحدثين : العرب الذين ينتمون إلى الجنس السامى الصميم الذين يسكنون الواحات والصحارى العربية سواء فى شبه الجزيرة العربية أو شرق النيل أو جبال سيناء أو الأرض القاحلة بين مصر وفلسطين .

ولقد ساق البدو قطعان مواشيهم من مصر إلى إيران وقادوا القوافل على بحر الصحراء عبر آلاف السنين قبل أن يستقروا، فظهروا أولا فى العراق الأدنى يصحبهم الكنعانيون الذين كانوا قد انتهى بهم المطاف إلى الاستقرار وهناك بدأوا يبنون مدناً عدة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد واستعمروا العراق الأعلى والأراضى المجاورة ، وهذه الأرض هى مهد الآشوريين الذين ظهروا فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تطور نمو الكلدانيين والآشوريين سواء بسبب خصب إمكانياتهم الخاصة أو عن طريق استيعاب عناصر خارجية وهجرات سامية أخرى فى عهد « سارجون » الكبير أى حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م وحمورابى حوالى ٢١٠٠ ق.م وفى

ذلك العصر تكونت القبائل العامورية فى سورية والواحات التى حول دمشق.. ووصل الآراميون إلى منطقة الأردن والواحات التى حول البحر الميت عام ١٤٠٠ ق.م وقد بدأ تاريخ موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط بالفينيقيين فى الشمال والفلسطينيين فى الجنوب حوالى عام ١٢٠٠ ق.م ، أما الجزيرة العربية نفسها فإننا لا نعرف شيئاً عنها إلا من الإشارات الموجزة فى النصوص المصرية والبابلية ، حتى عام ١٠٠٠ ق.م فقط عندما برزت من الظلام على شاطئ اليمن الدول الأربع وهى دول المعينيين والحضرميين والقتبانيين والسبئيين — الحميريين ، وقد بذلت محاولات لتفسير ظهور جماعات سامية متلاحقة مختلفة بأنها من هجرات تكررت فى أوقات دورية . ونقطة البدء فى هذه النظرية أن الجزيرة العربية كانت مهد جميع الساميين ، ففى الواحات والمناطق الساحلية الخصبة ربما تزايد السكان حتى اضطر الجنس السامى أن يفيض فى فترات دورية ربما كانت مرة كل ألف عام كما يفيض الخزان إذا امتلأ حتى حافته، وأن يتخذ ذلك الفيضان شكل تيارات هجرة كبيرة ، وربما كانت أول هجرة للكلدانيين حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م ثم العاموريين الذين أسسوا الدول البابلية حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م وتلاهم الآراميون حوالى عام ١٥٠٠ ق.م ثم الأنباط والعرب الذين نزل الإسلام عليهم .

---

(١) موريه وداق ، نفس المرجع ص ١٨٧ — ١٩٤ وقد استندا على ملخص نظرية Winckler المنشور فى كتاب Clay الذى أسماه The Empire of Amorites المنشور فى « نيوهافن » عام ١٩١٩ .

وقد استند رأى ثالث إلى ما جاء فى كتب المؤرخين المسلمين عن عاد وثمود وأن عاداً كانوا يقطنون اليمن فى أرض سبأ، وأن سد مأرب قد بنى فى عهد ملكهم لقمان بن عاد الذى كان يسمى « ذا النسور » ، وأنه كان يعيش فى شمال الجزيرة العربية بين الحجاز وسوريا قوم ينتمون بصلة القرابة إلى أهل الجنوب هم ثمود ، وأن ثمود قد ذكروا فى كتابات « ديودورس سيكولس » و « بطليموس » ، وأنهم قد عاشوا حتى القرن الخامس الميلادى فى صدد الإشارة إلى جيوش إمبراطورة الدولة البيزنطية ؛ وأن تاريخ الجنوب العربى فيما قبل الإسلام هو تاريخ السبئيين والحميريين الذين ينتسبون إلى سبأ وحمير رئيسى الدولتين اللتين امتدتا من البحر الأحمر إلى الخليج العربى ، وأن سبأ تطلق خطأ على أرض العربية السعيدة كلها بينما الحقيقة أنها إحدى دول عدة قد لا تكون أولها ولا أقواها ذكرت أسماء ملوكها وعواصمها فى الأدب الإغريقى ؛ ومهما زعم من المبالغة فى ثروة السبئيين وعظمتهم فإن من المؤكد أن سبأ كانت دولة تجارية مزدهرة قبل ميلاد المسيح ببضعة قرون ، وقد أتاح اختفاء السبئيين الفرصة لفرع حديث منهم هم الحميريون كانت تقع دولتهم بين دولة سبأ والبحر ، وسرعان ما أصبحوا القوة السائدة فى الجنوب العربى وامتد نفوذهم إلى القبائل الشمالية حتى نهاية القرن الخامس عندما تجمع الشماليون بقيادة كليب بن ربيعة وقد تضاءل نفوذ الحميريين قبل ظهور الإسلام بنحو مئة عام[1] .

---

(١) Reynold Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge ١٩٥٣ ، ص ٢ — ٥ .

واتجه رأى عملى إلى أنه « إلى أن يثبت أن الساميين جاءوا إلى بلاد العرب من بلاد غيرها يلزمنا أن نعتبر جزيرة العرب الوطن الأصلى للساميين. ولعله من الممكن تحديد هذا الوطن فى القسم الجنوبى من هذه الجزيرة(١) ».

وقد ذهب فريق من علماء الأجناس إلى أن هناك ثلاث نتائج من الصلة بين آسيا وإفريقيا ، الأولى ولعلها أكثرها أهمية هى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وهذا البحر نفسه ، فإذا ثبت فى التاريخ القديم أن الإنسان كان يعيش فى حوض هذا البحر فى وقت كانت لا تزال فيه الجسور الأرضية بين أوربا وإفريقيا قائمة — وهو الرأى الذى ينادى به « زاميت » بعد الأبحاث التى قام بها فى مالطة — فإن الفجوة التى تفصل بين آسيا وإفريقيا لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت ، وآسيا تتحكم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، والشريط الضيق الذى شقت فيه قناة السويس فيما بعد يكون وسيلة لانتقال كثير من الشعوب التى تسكن شمال إفريقيا الآن من آسيا إلى إفريقيا . وثانية الصلات بين القارتين فى مضيق باب المندب ، ففى الوقت الحالى قد لا يشجع الجو داخل الجزيرة العربية على الهجرات البشرية إليها ، ولكن من الممكن ، بل أكثر من الممكن ، أنه منذ سكن الإنسان هذه المنطقة كان جوها أقل قسوة ،

---

(١) H. St. J. B. Philby, The Background of Islam, being a sketch of Arabian History in Preislamic times.

الإسكندرية ، ١٩٤٧ ، ص ٨ وقد استند محمد مبروك نافع على هذا الرأى فى كتابه « تاريخ العرب : عصر ما قبل الإسلام » الطبعة الثانية ، ص ١٣ ، ١٤ .

وبعد أن استعرض هذا الفريق من علماء الأجناس رأى إيليت سميث الخاص بتسمية أهل منطقة جنوب غرب آسيا الذين يسكنون شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية وأهل ما بين النهرين وأهل مصر باسم « الجنس الأسمر » استطردوا فقرروا بأن هناك عدة فروع من جنس واحد هو الجنس الذى أسماه إيليت سميث « الجنس الأسمر » ؛ فى الغرب يعرف باسم الجنس الأبيض المتوسط وفى الوسط يعرف باسم « الجنس الأسمر » .

وقرر هذا الفريق من علماء الأجناس أن هناك بينات فى كل منطقة البحر الأبيض المتوسط على أن أهلها الأصليين وثيقو صلة القربى بجنس البحر الأبيض المتوسط الحالى .

وذهب هؤلاء الأنثروبولوجيون إلى أنه من المحتمل أن تكون منطقة البحر الأبيض المتوسط هى مهد الجنس الأبيض المتوسط ، وعاد هؤلاء العلماء فاستندوا إلى رأى « إيليت سميث » القائل بأن المصريين والعرب بل السومريين أقارب ينتمون جميعاً إلى أسرة «الجنس الأسمر» وقد تخصص كل منهم على حدة بالإقامة الطويلة فى وطنه الخاص .

واستطرد العلماء فقرروا أن رجل البحر الأبيض المتوسط قد وجد بوادى الفرات فى تاريخ بدائى قديم ، ومن التاريخ الصحيح أن الغزاة العرب الأول جاءوا من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وأكبر الاحتمال أنهم كانوا من الجنس « طويل الرأس » ، وأن هناك احتمالا آخر بأن أهل ما بين النهرين الأصليين كانوا من الطراز المصرى الصميم طويل الرأس .

وانتهى هؤلاء الأنثروبولوجيون – بعد الإشارة إلى رأى « سيليجمان » Seligman إلى أن العنصر السائد فى أهل الجزيرة العربية هو « الجنس الأسمر » والأرجح أنهم أصل أهل هذه الجزيرة كلها(١) .

وقد قرر « إيليت سميث » فى معرض شرح أصل المصريين أن العلم الحديث المبنى على ما كشف فى مقابر النوبة قد أوضح إيضاحاً كافياً أنه خلال الألف الرابعة قبل الميلاد لابد أنه كانت هناك سلسلة من شعوب تربط بينها وشائج القربى مبعثرة حول النيل وممتدة إلى جنوب مصر بل إلى بلاد الزنوج ، فلما قويت شوكة مصر ، وعظم رخاؤها تحركت تلك المجموعات البشرية الجنوبية صاعدة إلى الشمال واحدة بعد أخرى ، وأقرب هذه المجموعات جغرافيا إلى المصريين هم العرب البدو والسوريون ، ولا شك أن الشبه بين وجوه أهل ما بين النهرين القدماء ووجوه الملكية المصرية كالشبه بين قطرتين من الماء .

ثم مضى هؤلاء العلماء فأشاروا إلى أننا لو توغلنا قليلا فى رغبتنا فى معرفة ما كانت عليه تلك الصورة فى العرب البدو وفى الأقوام التى قد ندرك أنها أثرت فى جنس قدماء المصريين ، فى البجة والبشاريين ، لتبينا أن العرب عديدون فى مصر ، وأنهم بعد فتحها ظلوا العنصر السائد مدى ستة قرون ، ورغم أن المماليك والأتراك اغتصبوا منهم النفوذ السياسى إلا أنهم ظلوا العنصر الرئيسى فى الذكاء والمقدرة فأصبح من الممكن التقرير

---

(١) L/H. Dudley Buxton : The Peoples of Asia ١٩٢٥ ، ص ٣٤ – ١٠٦

بأن مصر كلها عربية . وقد فحص « شانتر » بضع قبائل عربية من بدو مصر فتبين أنهم من الجنس طويل الرأس وأن العربي البدوى المصرى وثيق الصلة والقربى بالفلاحين والأقباط ». وانتهى هذا الفريق إلى أنه إذا كان البدوى يشبه الفلاح والقبطى وهذان الأخيران يشبهان قدماء المصريين فهل نستطيع أن نعد أن هذا الشعب فى الماضى وفى الحاضر إنما يمثل مرحلتين فى تاريخ مجموعة جنسية إفريقية ــ آسيوية عظمى ؟ هل بدو الجزيرة العربية وسورية لا يزالون يسكنون نفس الأرض التى عاش عليها أجدادهم فى عصور ما قبل التاريخ كما يفعل أقباط وفلاحو مصر ؟ إذا أجبنا عن هذا السؤال بالإيجاب فإن علينا أن نقر بأن شعباً ينتمى إلى الجنس طويل القامة طويل الرأس كان يعيش فى نفس الوقت فى زاوية البحر الأبيض المتوسط الشرقية وعلى جانبى البحر الأحمر ؛ أنشأ فريق منه ــ هو الذى سكن وادى النيل ــ الحضارة المصرية بينما احتفظ إخوتهم فى الجنس ــ لأسباب مجهولة ــ بتقاليدهم القديمة ، بل حاربوا إخوتهم فى وادى النيل(١) .

وقد أجمع المؤرخون على أن غارة الهكسوس الذين غزوا مصر حوالى عام ١٧٠٠ ق . م أى فى نهاية الأسرة الثالثة عشرة وهم ينتمون إلى جنس دخيل على الشرق العربى ــ قد عجزوا عن أن يطبعوا الحضارة النيلية بطابعهم وانتهوا سريعاً بالتمصر ، ويقرر البعض من المؤرخين المصريين

(١) Eugène Pittard, Race and History ١٩٢٧ ، ص ٤٢٨ ــ ٤٣١

المتوفرين على دراسة تاريخ شرق الدلتا أن غارة الهكسوس كانت مشجعاً عظيماً على وصول القبائل العربية البدوية إلى مصر وسكناها فى شرق الدلتا بوجه خاص[١] .

ولم يقو الهكسوس على مقاومة الهجمات التى بدأت تهز كيانهم من الجنوب وربما من آشوريا .

واتضح أن الغزاة الآريين من الكاسيين والحيثيين والميتانيين لم يوفقوا فى تنفيذ الخطط الخاصة بإنشاء دولة من الشرق العربى كله وهى الخطط التى سبق أن وضعها العرب وحاول حمورابى إخراجها إلى حيز التنفيذ .

إلا أن سيطرة تلك العناصر الدخيلة على الشرق العربى ، ولو أنها لم تدم طويلا ، قد دفعت ساسة طيبة وبابل العقلاء إلى التفكير فى خير الوسائل لتنظيم دولة أكثر استقراراً .

ومما لا شك فيه أن غزوة الهكسوس قد أيقظت الشعور الوطنى بين المصريين وكشفت خطورة تسلل العناصر الآرية الأجنبية إلى جنوب غرب آسيا ، وأوحت إليهم فكرة إنشاء دولة تجمع الشرق العربى كله ، وهذه العوامل كلها أملت على المصريين سياسة كان يجب لتنفيذها أن تمر فى ثلاث مراحل ، أولاها تحرير وادى النيل من الهكسوس ، وثانيتها ضم سورية ، وأخيراً إنشاء إمبراطورية فى الشرق العربى ؛ أى فى

---

(١) عباس عمار : « المدخل الشرقى لمصر أو أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للهجرات البشرية » ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٤٥ ص ٤٨٨ .



رفاعة رافع الطهطاوى



عمر المختار

شمال شرق إفريقيا وجنوب غرب آسيا .

وفى عهد تحوتمس الأول (حوالى عام ١٥٢٥ ق .م عندما تخلصت مصر نهائياً من الغزو الهكسوسى واستعادت حدودها الجنوبية ، واستردت قواها ، بدأت تتلمس حلا لمشكلة وحدة الشرق العربى .

وإذا كان الهكسوس قد اختفوا من التاريخ بسقوط عاصمتهم أفاريس فإنهم بعد أن امتزجوا بالكنعانيين والعموريين من الفرات إلى برزخ السويس تركوا فى هذه المنطقة من الشرق العربى أثراً باقياً ، ولقد تبينت مصر أنها — لكى تؤمن حدودها الشرقية من غزوات آسيا الصغرى — يجب أن تمتد تلك الحدود إلى فرع الهلال الخصيب الذى يمتد من الفرات إلى برزخ السويس ، وأن تقيم رأس جسر عند نهاية طريق الغزو ، فلم تكد تنتهى من استعادة الحدود النوبية حتى استعدت لتحقيق تلك الوحدة المصرية السورية . وبدأ المصريون يحققون المشروع الضخم الذى وضع الهكسوس خطته وهو إنشاء وحدة تضم الشرق الأدنى كله[١] أو الشرق العربى بتعبير أدق .

وقد عبر تحوتمس الأول الصحراء الشرقية وسورية ووصل إلى ضفة الفرات ، فكان أوسع شكل من أشكال التوسع حققته مصر ، وتحققت وحدة مصر مع أقطار من الشرق العربى لم يكن يتردد عليها من المصريين إلا التجار ورسل الفراعنة ، فاستطاع سفراء حتشبسوت (حوالى ١٥٠٠ ق.م)

---

(١) موريه وداڤى ، نفس المرجع ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ .

أن يحصلوا على طاعة أهل نبط ، أى أهل الدولة المعينية التى كانت تقوم فى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية ، وفى عهد تحوتمس الثانى عاد المصريون إلى تدعيم الوحدة ، مع لوتانو أى سورية ، وعاد تحوتمس الثالث (١٥٠١ — ١٤٤٨ ق . م) إلى مد رقعة الوحدة .

وقد امتدت بذلك تلك الوحدة إلى قادش ومجيدو ، وتابع تحوتمس الثالث سيره إلى لوتانو العليا ، فى وادى العاصى ، وبنى قلعة فى قلب لبنان ، وظل يعود إلى هذه المنطقة الآسيوية من الشرق العربى كل عام حتى العام الثانى والأربعين من حكمه ، حتى شملت الوحدة المراكز الاستراتيجية التى تتحكم فى الهلال الخصيب بأجمعه وضمت الجزء البابلى من العراق الشمالى وآشوريا والجزء الحيثى .

وبذلك لم يكد ينقضى قرن واحد على سقوط أفاريس عاصمة الهكسوس حتى حقق ملوك طيبة وحدة ضمت مصر العظمى والقرن الغربى للهلال الخصيب فى آسيا .

ولم تكسب مصر من جهود تحوتمس الثالث لتحقيق تلك الوحدة الأمن فحسب بل التناسق والانسجام فى الشرق العربى مدى قرن من ١٤٦٠ إلى ١٣٦٠ ق.م وقد ساد ذلك التناسق بدون أن يفرض فرضاً بواسطة تدخل مسلح لأنه استجاب لدواع طبيعية تربط بين شعوب هذا الشرق .

وقد وصلت تلك الوحدة إلى ذروتها فى عهد أمنحتب الثالث وفى بدء عهد أمنحتب الرابع (١٣٨٠ — ١٣٦٢ ق.م وقد كشف ثلثمائة

لوح من الطوب عام ١٨٨٨ عثر عليها فى خرائب تل العمارنة التى كانت عاصمة أمنحتب الرابع « أخناتون » عن أمر عجيب هو أن الحكام المصريين كانوا يخاطبون أمراء سورية باللغة البابلية مكتوبة بالخط المسمارى، أى أن تلك اللغة كانت هى اللغة الدبلوماسية المتعارف عليها فى العالم المتحضر إذ ذاك ، ولم يكن ذلك العالم يعدو الشرق العربى(١) .

وفى نهاية حكم أمنحتب الثالث تحقق أول شكل من أشكال الوحدة بين شعوب الشرق العربى على أوسع نطاق عرف فى التاريخ ؛ إذ تدعمت الصلات بين مصر وبين البابليين العرب والميتانيين والحيثيين ، فلم يعد الاتصال المتبادل مقصوراً على الأفراد كما كان يحدث قبل ذلك بل توثقت العرى بين الملوك وأسرهم وحكامهم ووكلائهم عن طريق الصداقة أو التزاوج ، وربطت بينهم معاهدات تجارية ، واشتركوا فى تنفيذ خطط موحدة للتوسع الحربى والتجارى ، وتبادلوا الأفكار والمشروعات والآراء فى الفنون وغيرها من ميادين النشاط ، وتدفق تيار عظيم من تيارات التجارة والفكر ، ومن التبادل التجارى والاقتصادى بين كل العواصم العربية بابل ونينوى ملتقياً بفروع عديدة من هذا التيار فى دلتا النيل ، ملتقية جميعاً فى الحضارة المصرية ، فانية فيها ، وللمرة الأولى فى تاريخ العالم تنبه الإنسان إلى مزايا السلم العالمى ، وشعر بنفع وضع سياسة عامة مشتركة لشعوب العالم ، وقد خلفت الوثائق الدبلوماسية

---

(١) جون ويلسون ، « الحضارة المصرية » ، ص ٢٨٨ — ٣٠٢ ، ترجمة أحمد فخرى

ما يقطع بالصداقة التى توثقت فى ذلك العصر بين الملوك والشعوب « صداقة تغذيها فكرة واحدة ، وينبض بها قلب واحد » وتمثل إلى حد الكمال تقدم التطور الروحى نحو نوع من التعاون الدولى فأصبحت وحدة الشرق العربى فى عام ١٥٠٠ ق.م حقيقه تاريخية[١] ، وهى الوحدة التى لا تزال تتعثر شبيهتها الأوربية بين أحلام المثاليين من بعض رجال السياسة ومؤامرات البعض الآخر حتى اليوم .

ولما كانت الوحدة السياسية لا يمكن أن تكتمل بدون مثل روحى ودينى أعلى ، فقد انتهى ساسة هذا الشرق العربى — فى ذلك الوقت الذى كانت الآلهة تهيمن فيه على كل ميادين الحياة العامة — إلى أن سلام الشرق يعنى أن آلهة الشعوب المختلفة قد تصالحت وتوادت ، والواقع أن « آمون » و « أوزيريس » كانا يعبدان فى سورية كما كان « سوتيخو » إله الحيثيين الميتانيين فى سورية — يعبد على ضفاف النيل مع غيره من الآلهة الأسيوية ، إلى حد أنه خلال ذلك القرن من السلام لم ينشب أى خلاف دينى بين الشعوب التى ضمتها تلك الوحدة .

ولقد بدا منذ حكم أمنحتب الثالث ، الملك العظيم الذى حقق للشرق العربى وحدته ، نمو فكرة عبادة شكل من أشكال الشمس « آتن » وهو قرص الشمس الذى يذكرنا اسمه بكلمة « أدوناى » . أى « سيد » الساميين ، وقد ارتقى « آتن » فى عهد أمنحتب الرابع إلى مرتبة إله الآلهة ، إن لم يكن الإله الوحيد ، ولم تفلح جهود كهنة آمون — رع

---

(١) موريه ودافى ، نفس المرجع ، ص ٢٩٥ .

بطيبة فى عرقلة ذلك الإصلاح الدينى ، فأخرج الملك الإله آمون من المعابد والكهنة من أعمالهم وغير اسمه وعاصمة ملكه وأطلق على نفسه اسم « أخناتون » « أى ذلك الذى يرضى آتن » وعلى عاصمته اسم « أختاتن » أى « أفتى آتن » فى موضع تل العمارنة الحالى ، ويبدو أن غرض الملك من ذلك الانقلاب الدينى كان أن يقدم إلى المصريين عبادة لا تنتسب إلى مدينة معينة وليست مصرية فى الصميم ، وإنما عبادة تستمد قوامها من الطبيعة ، ولذلك يمكن أن تتسم بطابع العباة العالمية دون تقيد بقطر معين ، واختار « آتن » التى تتمثل فيها الحركة وتشع منها الحرارة والتى تهب الحياة لكل الكائنات بما فيها الأرض والماء والنباتات والحيوانات وأهل مصر والأقطار الأخرى ، وبذلك لم يفرق « أخناتون » بين المصريين وغيرهم من أهل الشرق العربى فالناس سواء أبناء ذلك الإله يجب أن ينظر كل منهم إلى الآخر نظرة الأخ إلى أخيه ، وتعمد واضع السلام الملكى المصرى إذ ذاك أن يذكر النوبيين والسوريين قبل المصريين ، وللمرة الأولى عد الدين كعروة وثقى توحد بين الناس فى الأقطار المختلفة وإن اختلفت لغاتهم وألوانهم[1] .

وفى نفس الوقت الذى شيد فيه عاهل مصر عاصمته « أختاتن » أنشأ فى النوبة مدينة « جيم آتن » — أى تلك التى تجد آتن — كما

---

(١) Alexandre Moret : Rois et Dieux d'Egypte, 3ème éd., Paris, 1922, p. 62.

أنشأ فى فلسطين — ربما فى مكان القدس — مدينة « خيناتيبى » . وقصر العبادة على قرص الشمس يدل على أن أخناتون قد تبين أن شعوب الشرق العربى كانت فى حاجة إلى مثل أعلى مشترك قبل حاجتها إلى تحقيق مصالحها السياسية والتجارية ، ويبدو أنه حاول حقاً بذلك الانقلاب أن يخرج إلى حيز التنفيذ إنشاء إمبراطورية عالمية ضخمة ، وكان فى ذلك يمتاز على العاهلين العربيين سارجون وحمورابى اللذين لم يدركا ما أدركه من مشاكل السياسة الدولية ، ولم تكن إمبراطورية الشرق العربى أقرب إلى التحقيق قبل الإسكندر الأكبر وقياصرة الرومان مما كانت عليه فى عهد أمنحتب الثالث وأخناتون(٢) .

وبذلك دامت وحدة الشرق العربى الأولى نحو قرنين ونصف قرن (١٥٠٠ — ١٢٥٠ ق. م) ولقد اختفت الدولة الحيثية من التاريخ فى المدة من ١٢٥٥ و ١٢٠٠ ق.م واستطاع « توكلتى الأول » الآشورى (١٢٦٠ — ١٢٤٠ ق . م) أن يتغلب على أسرة بابل الحاكمة وأن يستولى على عاصمتها وأن يبدأ إعادة وحدة العرب فيما بين النهرين .

وفى نهاية القرن الرابع عشر كانت شواطئ ليبيا قد تسلط عليها القراصنة الغزاة من شعوب شمال البحر المتوسط ودفعوا أمامهم الإفريقيين الحاميين من أهل البلاد الأصليين الذين تدفقوا على مصر فاستخدمتهم فى قواتها غير النظامية واشتركوا معها فى حروبها ضد الحيثيين ، ولم يستطع رمسيس

---

(١) موريه وداڤى ، نفس المرجع ، ص ٣٠١ .

أن يمنع تدفق الليبين السلمى إلى الدلتا واندماجهم فى المصريين بعد أن استقروا حول ممفيس وهليوبوليس كما استقروا فى الواحات .

وظلت موجات من هجرات الليبين تفيض على حدود مصر الغربية ، وبظهور الأيجيين نرى — للمرة الأولى — أن الأجناس التى نسميها أوربية قد بدأت تدخل مسرح التاريخ .

ولا شك أن تياراً من تيارات الهجرة البشرية من جبال الأطلس فى شمال غرب إفريقيا حاملا معه قبائل البربر إلى مصر قد ظهر فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١) .

وقد ساد الاضطراب فى مصر عقب تلك الفترة ، ولكن العنصر العربى كان يضفى طابعه حتى أثناء ذلك الاضطراب ، فقد تولى الحكم فى مصر أحد الأمراء الكنعانيين ، كما تمكن بعض البابليين من بناء مدينة على مقربة من ممفيس أسموها بابل ، واستطاع بعض الإسرائيليين فى شرق الدلتا أن يفروا فخرجوا من مصر ، ويحدد كثيرون من المؤرخين هذا « الخروج » فى عهد منفتاح . ولكن الآثار التى تدل على وجود الإسرائيليين فى كنعان فى عهد ذلك الملك تؤيد الرأى القائل بأنهم خرجوا فى نهاية عهد الأسرة الثامنة عشرة ، فى الوقت الذى كان الخبيرو « العبريون » الذين أشارت إليهم رسائل تل العمارنة يتعاونون فيه مع الحيثيين على إفناء النفوذ المصرى فى فلسطين .

---

(١) Hall : The Peoples of the Sea. Récueil des Etudes Egyptologiques, 2291.

ولعل هذا هو أول موقف استبان منه تعاون الإسرائيليين الساميين – أحفاد إبراهيم العربى – مع الآريين الأجانب الذين غزوا الجزيرة العربية على أهل هذه الجزيرة العرب .

وعاد العرب أهل شمال الجزيرة يحملون رسالة تحقيق وحدة الشرق العربى .

ففى شمال سورية – وهى التى كانت تسمى فى الآثار المصرية لوتانو العليا – كان قد استقر منذ مدة فريقان من العرب ، فعلى الساحل استقر الفينيقيون (١) وفى الداخل خلف لبنان استقر الآراميون وهم بدو الصحراء السورية الرحل ، وقد تبادلوا الصلات مع المصريين وتجمعوا فى المدن وأنشأوا لتلك المدن حكومات تبادلت علاقات دبلوماسية دولية ، وأصبحت قواعد مصر البحرية السابقة صور وصيدا وجبيل موانئ تجارية لهم .

وفى داخل البلاد – خلف مراعى لبنان – استطاع الآراميون أن يبسطوا سيطرتهم ، أما الوديان – التى شهدت معارك العاموريين والحيثيين والمصريين – فقد أصبحت جنات بفضل ازدهار التجارة

---

(١) حاول M.C. Autran فى البحث الذى أسماه Phœnicians ونشره فى Mémoires et Bulletin de l'Institut Français d̦Archéologie Orientale بالقاهرة ، ١٩٢٠ أن يثبت أن الفينيقيين ليسوا ساميين بل إيجيين أى من جزر بحر إيجة ولكن هذه النظرية رغم ما حشد لها من مراجع لم تنل – كما يقر موريه ودافى فى المرجع المشار إليه فى هذا الكتاب – قبول العلماء .

والزراعة ، وتكونت فيها ثلاث دول هي : دولة حما ودولة زوبا ودولة دمشق ، ومما يدل على قوة تلك الدول الثلاث أنها استطاعت أن تعوق تقدم الآشوريين طيلة ثلاثة قرون .

واستطاع الفينيقيون والآراميون العرب – منذ القرن السابع قبل الميلاد – أن ينتزعوا السيادة التجارية وعمدوا إلى تنفيذ خطة قادة الشرق العربي منذ القدم في تحقيق وحدة هذا الشرق، ولكنهم – هذه المرة – اتجهوا إلى إنشاء دولة تجارية عربية في شرق البحر المتوسط .

أما في جنوب سورية فكانت المنطقة الساحلية في أيدي « الفلسطينيين » أي أبناء قبيلة فيلستيا الإيجية الذين حاولوا أن يستقروا نهائياً في خمس مدن أهمها غزة على الشاطىء وأشدود في الداخل ، ولكن هذا الشعب الإيجي اصطدم بالعبريين « الخبيرو » الذين كانوا قد بدأوا يتسللون إلى أرض شبلاح منذ عهد الملك منفتاح بعد « الخروج » وحاولوا تأسيس جنس خاص لا سند له من التاريخ أطلقوا عليه اسم « إسرائيل » نسبة إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكان الكنعانيون والعاموريون العرب إذ ذاك لا يزالون يتحكمون في تلك الأرض العربية، كما أن الفلسطينيين تقدموا حوالي عام ١١٠٠ ق . م إلى شواطئ الأردن وأخضعوا الإسرائيليين لهم . وقد أوحت تلك الهزيمة للإسرائيليين بتوحيد قبائلهم فأسس شاؤول دولة إسرائيل حوالي عام ١٠٠٠ ق . م وبعد أن قتل شاؤول أثناء قتاله مع الفلسطينيين تولى داود الحكم واتخذ القدس عاصمة الكنعانيين مقرا له ، ولكن ششنق الأول ملك مصر الليبي أعاد القدس إلى الحدود المصرية

عام ٩٢٥ ق . م وساهم فى تمزيق شمل الإسرائيليين .

وكان ملوك نينوى فيما بين النهرين قد استعادوا الأرض التى بين الفرات والعاصى التى تتحكم فى طرق الهلال الخصيب ثم ضموا موانئ الفينيقيين ، وأخيراً ضم تيجلات بيليسر الثالث دمشق عام ٧٣٢ ق.م[1] .

أما الإسرائيليون فعلى العكس ضعف شأنهم بانقسامهم بعد عام ٩٣٠ ق . م إلى دولتين إحداهما إسرائيل فى الشمال « سامريا » والأخرى يهودا فى الجنوب « القدس » وقد سقطت سامريا بعد أن ضمت دمشق إلى الأشوريين الذين استطاعوا بقيادة آسرحدون آشوراخى «الدين »عام ٦٧١ ق . م أن يضموا الدلتا . كما استطاعوا بقيادة آشوريا نيبال عام ٦٦٨ أن يضموا طيبة ، فتحققت وحدة الشرق العربى من كلديا إلى جزيرة ألفنتين فى أقصى الحدود المصرية جنوباً .

وعادت هجرات الساميين التى كانت قد توقفت إلى التدفق نحو حدود الدولة الآشورية العربية ، واحتل الكلدانيون بابل وسميت منذ ذلك الوقت كلديا ، وسقطت نينوى عام ٦٠٦ ق . م فانتهى وجود الآشوريين السياسى وحل الكلدانيون مدى ثلاثة أرباع قرن (٦٠٦ — ٥٣٩ ق . م) محل الآشوريين ، واستعادت بابل — بعد نحو ألف عام — مكانتها كعاصمة

---

(١) من ملوك هذه الدولة العربية سارجون الثانى (٧٢١ — ٧٠٥ ق. م) وقد قرر « فيلبى » عنه أنه فى النقوش التى تعود إلى عهده ذكرت الهدايا التى قدمت إليه من ملك عربى فى عام ٧١٥ ق. م كما تضمنت النقوش التى تعود إلى عهد ابنه سنكريب مثل هذه الإشارة . نفس المرجع ص ٣٠ — ٣١ .

العالم العربى السامى ، واستطاع ملكها بختنصر الثانى أن يحطم القدس عام ٥٩٦ ق . م وأن ينقل أهلها الإسرائيليين إلى بابل . وقد ذهب بعض المؤرخين الذين توفروا على دراسة العهد الإمبراطورى فى تاريخ الآشوريين والبابليين إلى أن الطابع المميز للآشوريين يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة هى «الكفاية» فقد كانوا جادين فى جميع ما زاولوا من شئون ، وما عملوا من عمل إلا بذلوا فيه غاية جهودهم وعنوا حتى بتفاصيله المضنية . وكانت قدرتهم تلك القدرة التى بلغت فيهم حد العبقرية على تحمل الصعاب هى التى أدت إلى نجاحهم فى بناء الإمبراطورية ، ولكن تأسيس الإمبراطورية استنزف فى النهاية قواهم بتشتيت رجالهم فى خارج وطنهم مما سبب زوال دولتهم فى عنفوانها دون أن يخلفوا أية بقية من مجدهم الغابر .

وقد كانت مملكة آشور الشمالية مدينة بالكثير من أسباب حضارتها لإمبراطورية بابل الجنوبية حتى ليتعذر على الذى يوازن بينهما أن يترسم فوارق ظاهرة بين العادات فى البلدين . واندمج معظم تراث الآداب البابلية فى المكتبات الآشورية حتى لكأنه تراثهم من قديم . . وقد بلغت آشور فى خلال النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد أوج عظمتها . . . فاندفع الآشوريون غرباً نحو فينيقية وهناك لبسوا الثياب الأرجوانية التى ابتاعوها من تجار صور وامتطوا متن البحر ومن ثم بلغوا منتهى فتوحهم عند ما وصلوا إلى أبى الهول « مصر » ، ثم خلفتها بابل فى إمبراطوريتها نحو ثلاثة أرباع القرن الواحد كانت فى أثنائها قوة عالمية مرهوبة الجانب ، ثم لعبت بابل دورها الإمبراطورى — فترة من الزمن فى

عهد مليكها نبوبونصر وبختنصر . . . وقد خرت بابل صرعى أمام سلطان الفرس الغلاب سنة ٥٣٩ ق . م ومع ذلك فقد ظلت بها بعض الأسر المتمسكة بأهداب حضارتها وتقاليدها الدارسة تمسكاً تتجلى فيه روح المحافظة الشديدة المأثورة عن البابليين ويفصح بأجلى بيان عن حضارتهم العظيمة التي لم تنشأ طفرة [1] .

وبذلك دامت وحدة الشرق العربي الثانية قرناً وربع قرن تقريباً (٦٦٨ — ٥٣٩ ق. م) عندما غزا الفرس الشرق العربي .

---

(١) ر . كامبل طومسون « حياة نينوى وبابل في عهدها الإمبراطوري » ، تاريخ العالم للسير جون هامرتون ، المجلد الثاني ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ترجمة عبد الحافظ معوض .

الفصل الثانى

وحدة اللغة والثقافة

أوضحنا فى الفصل الأول وحدة التاريخ للجماعة الإنسانية التى عاشت خلال بضعة آلاف من السنين – من قبل التاريخ وفى فجر هذا التاريخ حتى الفتح الإسلامى – فى المنطقة التى تشمل الشرق العربى بأكمله ، كما أوضحنا أن هذه الجماعة الإنسانية ، وقد عاشت تاريخاً واحداً بما كان فى الواقع تاريخ العالم فى تلك الفترة الطويلة لأن بقية الجماعات الإنسانية لم يكن لها إذ ذاك تاريخ معروف ثابت علمياً أو أنها لم تخلف آثاراً حضارية ساهمت فى تطوير تاريخ الإنسان – هذه الجماعة قد وضعت أساس أول أبجدية عرفها الإنسان بحكم الصلات الثقافية التى كانت تربط بينها ، وقد حلل المتوفرون على تاريخ هذه المنطقة القديم ذلك بأنه فى مناجم سينا نرى مثلا آخر من الصلة الثقافية المتبادلة ؛ إذ كانت الدولة المصرية تستغل تلك المناجم وتستخدم فى ذلك عمالا من الآسيويين ، فى وقت قريب من أوائل القرن الخامس عشر ق . م كان الكنعانيون يعملون فى مناجم الفيروز والنحاس فى سرابيط الخادم فى سينا ، ومن المرجح جداً أنهم كانوا من الأسرى الذين كانوا يقيمون فى الدلتا . . . ولكنهم كانوا كنعانيين على شىء من التعلم ، ونحن مدينون لهؤلاء الناس باختراع عظيم : أنهم كتبوا نصوصهم القصيرة البسيطة بأبجدية هيروغليفية ،

فقد تركوا جانباً الطريقة المصرية المعقدة فى الكتابة بعلامات مصورة لا آخر لها، واختاروا علامة واحدة لكل حرف ساكن فى لغتهم؛ فمن كلمة « أليف » أى « ثور » استخدموا رأس ثور للتدليل على الحركة الصوتية السامية المسماة « أليف » ومن كلمة « بيت » أى « منزل » استخدموا صورة منزل لصوت ب؛ وهكذا أصبحت أليف و بيت، وباقى العلامات هى الأصل الذى أمدنا بالأبجدية التى نستعملها فى كتاباتنا بالحروف اللاتينية وغيرها من الأبجديات الحديثة (١) .

وقد وصل العلماء المحدثون إلى هذه النتيجة بعد أن عثروا على كتابات سينائية يعود تاريخها إلى عام ١٨٥٠ ق . م بناحية « سرابيط الخادم » بسينا وعلى كتابات أخرى بناحية جبيل فى لبنان يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، أى أنها أحدث عهداً من كتابة سينا بنحو ستة قرون فقرروا « أن الأبجدية الأولى وليدة الهيروغليفية وأن الذين أوجدوا الأبجدية إنما أخذوها منها . . . فاختزل مبتكرو الأبجدية الهيروغليفية وأوجدوا من المقاطع حروفاً كونت الأبجدية الأولى ، وقد اتجه الرأى فى بادئ الأمر إلى أن الخط الفينيقى مأخوذ من الكتابة الهيروغليفية رأساً ، وأن الفينيقيين الذين كانوا أول من عمم طريقة الكتابة بالحروف الهجائية قد أخذوا أصولها من مصادر مصرية ، إلا أن الهوة التى كانت تفصل بين الكتابتين ظلت كبيرة فكان من الصعب عليهم إيجاد تعليل معقول لوجودها وإيجاد جواب علمى مقنع عن المراحل التى قطعت بين الهيروغليفية

(١) جون ويلسون ، ص ٣١٣ ، نفس المرجع .

والهجائية الفينيقية حتى اكتشفت كتابة سرابيط الخادم بسينا وجبيل فى لبنان(١).

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن العمال الذين كانوا يعملون فى سينا قد ابتكروا أول أبجدية عرفها التاريخ وذلك عن طريق اختزال المقاطع الهيروغليفية والاكتفاء بالحروف الأولى من أسماء الصور ومن مجموعة تلك الحروف الأولى تكونت الأبجدية السينائية من اثنين وعشرين حرفاً(٢).

وفى عام ١٠٠٠ ق . م استطاع الفينيقيون — بواسطة تبسيط اللغة الهيروغليفية — أن ينشئوا أبجدية للكتابة وأغلب الظن أنهم استعانوا بما فعله الكنعانيون الذين ينتمون منهم إلى نفس الأصل السامى من تحويل الهيروغليفية إلى الأبجدية السينائية ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الآراميين العرب قد اقتبسوا من الفينيقيين العرب أبجدية عملية انتشرت بانتشار تجارتهم وغزت — فيما بعد — سائر أقطار الشرق العربى وحلت فيه محل الهيروغليفية والخط المسمارى البابلى(٣) ، كما نشأ « المسند » الحميرى فى جنوب الجزيرة العربية ،

---

(١) جواد على ، « تاريخ العرب قبل الإسلام » ، ج ١ ص ٢٠٣ — وقد استند على بحث A.H. Gardiner الذى أسماه The Egyptian, Origin of the Semitic Alphabet ونشره عام ١٩١٦ فى The Journal of Egyptian Archeology

(٢) شيكاجو، ١٩٣١ Martin Sprengling: The Alphabet, its rise and developement from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931.

(٣) أشار « فيلبى » ، نفس المرجع ص ٤٣ — ٤٤ إلى أن الحفريات فى رأس شمرا بسوريا كشفت نقوشاً باللغة الآرامية مسجلة بالأختام =

وكان ظهور الأبجدية الآرامية والمسند الحميرى فى وقت واحد وهو عام ٨٠٠ ق . م تقريباً ، ولما هاجر الأنباط العرب حوالى عام ٥٠٠ ق. م من وسط الجزيرة العربية إلى شمال شرق سينا وعاشوا فى المنطقة التى تفصل بين بلاد الشام وبلاد العرب وتمتد من الفرات إلى البحر الأحمر كانوا يتكلمون العربية ولكن يكتبون بالآرامية ، وقد طور الأنباط الخط الآرامى فى القرن الثالث الميلادى إلى الخط الذى استخدم فى تدوين اللغة العربية الشمالية ، لغة القرآن الكريم .

وقد نشأت فى القرن السادس قبل الميلاد دولة التدمريين نسبة إلى مدينة « تدمر » شمال شرق دمشق ، وكان التدمريون العرب كالأنباط يتكلمون العربية ويكتبون الآرامية .

ونشأت دولة مناذرة الحيرةفى أواخر القرن الثالث الميلادى ، والحيرة تقع على الفرات على مقربة من بابل وقد استخدم المناذرة العرب — الذين يرجح الرأى العلمى أنهم من عرب الشمال بدليل أن لغة الحيرة تنطبق على العدنانية — الخط النبطى ، وقد ظلت هذه الدولة العربية قائمة حتى عام ٦٣٢ عند ما ضمت إلى الوحدة العربية الكبرى ، وفى عهدها تغلب العرب بقيادة حنظلة بن ثعلبة على الفرس فى المعركة المعروفة بيوم ذى قار التى روى أن النبى « صلعم » قال عندما بلغه انتصار العرب فيها ما معناه : « إن

= الأسطوانية أبجدياً وأن نقوشاً كنعانية أبجدية فى جنوب فلسطين تعود إلى القرن الخامس عشر ق. م وأن الأبجدية السينائية تعود فى رأى « ليونارد وولى » إلى عام ٢٠٠٠ ق . م .

ذلك اليوم هو أول يوم انتصف فيه العرب من العجم »، وقد أدت هذه الدولة خدمة كبيرة للغة العربية بما احتضنت من الشعراء كما أنه كان لها فضل كبير فيما بعد فى تعليم الخط العربى وفى إغناء اللغة العربية بكثير من الألفاظ الفارسية التى تعبر عن أشياء لم يكن العرب يعرفونها (١).

وقد توالى ظهور الدويلات فى شمال الجزيرة العربية فى القرنين السادس والسابع قبل الميلاد ، فنشأ الغساسنة فى الأرض التى تقع شرق نهر العاصى والأردن وتمتد من شمال العراق إلى خليج العقبة ، ونشأ الكنديون فى الأرض التى تضم معظم حدود نجد مما يلى الحجاز شرقاً وتمتد إلى شمال الشام والعراق .

وفى خلال ذينك القرنين السادس والسابع « كانت اللغة العربية التى نسميها الآن الفصحى هى لغة الكلام فى العالم العربى من الأردن إلى الحدود الفارسية ، ومن مكة إلى جبل سنجار فى شمال العراق ، وكانت هذه اللغة للعرب رمز وحدتهم ، وكانت سوق عكاظ السنوية حيث كانت تجرى المباراة الشعرية للعرب بمثابة الألعاب الأولمبية للإغريق »(٢).

وقد مهد لظهور الدولة العربية الكبرى ضم بقية الدويلات فى شمال الجزيرة العربية وهى دويلات التدمريين والمناذرة والغساسنة والكنديين وكانت مكة قد تولت زعامة العرب ، واستقرت تلك الزعامة

---

(١) محمد مبروك نافع ، نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

(٢) ص ٧٧ . Nevil Barbour, Nisi Dominus.

استقرارها التاريخي الخالد واكتسبت مجدها الروحي بنزول الرسالة على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عام ٦١٠ م بمكة ثم بهجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة عام ٦٢٢ .

ولم تكد تنقضي بضعة أعوام حتى برزت إلى الوجود دولة عربية استوعبت جميع الجزيرة العربية فى حياة النبي وخلافة أبي بكر الصديق ثم اتجه المسلمون غرباً إلى مصر فضمت فى عام ٦٤٢ .

وذهب بعض المؤرخين العرب المحدثين الذين توفروا على دراسة تاريخ عمرو بن العاص إلى أنه سلك طريقاً بدوياً يستطيعه البدو واستطاعوه فى قديم الزمن ولا يزال سكانه منذ عرفه التاريخ بدواً يشعرون بعصبية القرابة لهذا الفاتح الجديد . . وأن العرب كانوا يسكنون مدينة قفط قبل الإسلام، وقال سترابون : إن نصف سكانها منهم وربما أخذوا كلمة قبط من النسبة إلى هذه المدينة القديمة فى طريق الحجاز . . . وإن العرب هم أول من تسمى بالمصريين ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها كما أنف الرومان واليونان من قبلهم . . .

وكانت لليشموريين فى شرق الدلتا مواقع استطلاع وعبور ؛ إذ كانوا يسكنون المراعى الواسعة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية الجنوب ، وكانوا عرباً منحدرين على أرجح الأقوال من سلالة العمالقة الأقدمين ، وكانوا يعاونون العرب الفاتحين كما عاونهم عرب الصحراء فى الشام على اختلاف العقيدة والمقام ، وإذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة يشمورية علمنا أن أقسام

البادية العربية لم تتغير كثيراً من قديم الزمن . وأن عمرو بن العاص قصد إلى الفيوم قبل فتح منف على علم بأصول هذه السلالة [(١)] .

ومما له وثيق الصلة بهذا البحث الخاص بمدى شعور المصريين — قبل قدوم العرب المسلمين — بوحدة الثقافة والفكر والروح رغم اختلاف الدين ما قرره هؤلاء المؤرخون بشأن حقيقة شخصية « المقوقس » الذى تكرر ذكره فى جميع الوثائق الخاصة بضم مصر إلى الوحدة العربية الكبرى ؛ إذ قرروا « أن معظم المؤرخين متفقون منذ زمن بعيد على أن المقوقس لم يكن اسم علم ولكنهم حاروا فى الجزم بحقيقته بين أن يكون لقباً أو عنوان منصب من مناصب الدولة ، أما الواقع فيظهر أنه لم يكن هذا ولا ذاك وإنما كان الرجل صاحب عنوان يمكن أن يسمى بالعمدة ويخطئ بعض

---

(١) عباس محمود العقاد « عمرو بن العاص » ص ٧٧ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ؛ وذهب عباس عمار ، نفس المرجع ، إلى أنه « يأتى الإسلام وسيناء ينزل على حدودها و يمتد إلى بعض نواحيها الشرقية قبائل كهلانية من غسان ولخم وجذام فلما امتدت الفتوحات الإسلامية شمالا كان لا بد أن يتفرق النصارى من أولئك العرب ومنهم غالبية غسان فينزل جزء منهم أرض الجفار فى شمالى سينا حتى كان منهم حكام تنيس نفسها ، وقد ذكر مؤرخو الفتح الإسلامى لمصر كيف أن الحصون على طريق الرمل الشمالى فى سينا كرفح والعريش والواردة والبقارة وغيرها قد سكنها قوم من هؤلاء العرب المتنصرة يؤدون المال للمقوقس . كما ذكروا أن النجدة التى أرسلها عمر بن الخطاب عبر وسط سينا لمساعدة عمرو بن العاص قد قابلت جمعاً هائلا يقرب من ثلاثة آلاف سألوهم فإذا هم من عرب غسان ولخم وعاملة » ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ . وقد استند على كتاب « فتوح مصر والإسكندرية » لأبى عبد الله الواقدى .

المؤرخين فيسمونه نائب الملك واسمه الأصيل جرجس بن مينا بركيوبس»[١].

وقد دام حصار حصن «بابليون» سنة وبضعة شهور ، وتقدم العرب إلى منف فى شتاء عام ٦٤٠ ، وجاء فى الروايات العربية أن الزبير بن العوام تسلق سور الحصن الرومانى فدب الذعر فى قلوب الرومانيين وتم التسليم فى ٩ من أبريل عام ٦٤١ وسلمت الإسكندرية فى ١٠ من ديسمبر عام ٦٤١ وقد ثبت تاريخياً أن الأسقف القبطى المصرى فى الإسكندرية أصدر أمره إلى أقباط مصر بألا يقاوموا العرب[٢].

واستقر الأمر لعرب الحجاز فى مصر ، استقروا فى الأرض التى سبقهم إلى الاتصال بها والهجرة إليها ، والوفود عليها والإقامة فيها منذ عصر ما قبل التاريخ ، ثم منذ فجر تاريخ العرب من أكاديين وآشوريين وكلدانيين وعاموريين وهكسوس وعبرانيين — أدوميين وإسرائيليين — وكنعانيين وفينيقيين وأنباط وتدمريين ، ولعل هذا الامتزاج التاريخى الطويل مدى آلاف السنين بين جنوب غرب آسيا وشمال شرق إفريقيا مما جعل أهل المنطقة كلها شعباً واحداً ، يحس بشعور واحد متجاوب ، هو الذى جعل أقباط مصر يستقبلون قدوم العرب بمثل ذلك الترحاب رغم اختلاف الدين ، بينما وقف هؤلاء الأقباط — قبل ذلك

---

(١) عباس العقاد ، المرجع السابق ص ١١٧ . وقد استند على كتاب المؤرخ أ . ل . فشر عن تاريخ الأمة القبطية .

(٢) George E. Kirk : A Short History of the Middle East, London, 1952, p. 16.

بقرنين اثنين- موقفاً عدائياً جباراً من حكام مصر المسيحيين البيزنطيين عقب نفى البطريق المصرى عام ٤٥١ م وموته فى المنفى عام ٤٥٤ وتعيين أحد أعوان البيزنطيين - بروتيريوس - خلفاً له بين عامى ٤٥٢ و ٤٥٧ رئيساً لكرسى الإسكندرية، إذ أن المصريين أبوا الرضوخ لذلك واختاروا مصرياً لتولى الكرسى البطريركى هو تيموثاوس، ولما عزل بالقوة اشتعلت ثورة المصريين وكادوا يجهزون على الإسكندرية ثم اغتالوا « بروتيريوس » صنيعة الغاصب وجروا جثمانه فى طرقات الإسكندرية وأحرقوه وذروا رماده فى الهواء .

وتابع العرب تقدمهم غرباً فانطوت على التوالى برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب ، ولم تكد تنقضى ثلاثة وستون عاماً حتى انهارت أسطورة الدولة الرومانية الشرقية البيزنطية .

وقد أجمع المؤرخون الذين توفروا على دراسة هذه الفترة من تاريخ الشرق العربى على أن وحدة اللغة والثقافة كانت العامل الأول فى تثبيت قواعد تلك الدولة العربية الكبرى التى امتدت من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى بل تجاوزت الشرق العربى بحدوده الحالية شرقاً إلى الهند وشمالا إلى إسبانيا وفرنسا فقرر أحدهم عن بربر شمال إفريقيا الذين سرعان ما اندمجوا فى الوحدة العربية أنهم : « مجموعة بشرية تنتمى إلى الفرع الحامى ذى اللون الأبيض ويرجح أنها كانت فى عصر ما قبل التاريخ من نفس الجنس السامى، ويقرر أن سواد البربر الذين كانوا يسكنون بعيداً عن الشاطئ لم يتأثروا بالحضارة الرومانية أو البيزنطية لأنها حضارة غريبة عن

أولئك الإفريقيين الرحل، وأن الإ سلام قد امتاز بطابع اجتذب البربر، وأن العرب وثقوا صلاتهم بأبناء عمومتهم فتحققت معجزة الإسلام فى استعراب اللغة البربرية وتحويل البربر إلى دين الإسلام ، وأن دم العرب وجد مجارى « بشرية » جديدة صالحة لتغذيته كما وجدت اللغة العربية حقلا واسعاً للامتداد وتمكين الإسلام من قواعد جديدة تعينه على الصعود إلى سيادة العالم »[١] .... « أصبحت العربية التى كانت قبل الإسلام مجرد لغة للشعر ، لغة دين ، ثم أصبحت فى القرن العاشر وسيلة مرنة للتعبير عن الفكر العلمى ونقل الآراء الفلسفية بطريقة رائعة لم يسبق لها مثيل، وفى الوقت نفسه أرست قواعدها كلغة دبلوماسية ولغة تبادل مهذب بين آسيا الوسطى وعبر شمالى إفريقيا بأجمعه إلى إسبانيا، ومنذ ذلك الوقت عبر أهل العراق وسورية وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش عن أفضل أفكارهم بلغة العرب »[٢] .

وقد سبق أن أشرنا فى مقدمة هذا الكتاب إلى أن الرأى المستقر علمياً

---

(١) The Arabs, A Short History

فيليب حتى ، ص ٦١ — ٦٢ ، ١٩٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٨٨ — ٩٣ . وقد أشار إشارة خاصة إلى أنه بعد أن استولى العرب على سمرقند عام ٧٠٤ نقلوا صناعة الورق إلى بغداد فأنشئت أول دار لصناعته بها قبل نهاية القرن الثامن كما أنشئت فى مصر حوالى عام ٩٠٠ وفى مراكش عام ١١٠٠ ص، ١٠٣ .

أن الأبجدية الليبية أى لغة بربر ليبيا تنتسب إلى أصل فينيقى؛ إذ أن العرب الإفريقيين قد اتصلوا من قبل بإفريقيا اتصالا طويلا وتركوا الطابع العربى على أبجدية أهل البلاد[1] وذهب بعض علماء اللغات إلى أن هذه اللغة الليبية تمت بأصل إلى لغة ثمود التى كانت مستخلعة فى جزيرة العرب[2].

وقد سجل أحد المستشرقين عن بربر شمال إفريقيا أنهم « تغيروا تغيراً عظيماً لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم فى أغلب الأحيان، فهم لم يعودوا يذكرون شيئاً عن أصلهم الحقيقى أو لغتهم أو عاداتهم »[3].

وذهب آخر إلى أنه : « فى سورية وفلسطين لم ينقض القرن التاسع حتى اختفت اللغة الآرامية، وفى مصر، فى القرن العاشر، كتب القسس الأقباط بالعربية لكى يفهمهم أقباط مصر. وكان العامل فى انتشار الثقافة العربية بمصر — وهى الثقافة التى تركت طابعها عليها حيث خابت الثقافة اليونانية التى سبقتها فى إدراك نفس الأثر — يعود إلى سابق استقرار العرب الرحل فى أنحاء مصر، فإن بطوناً من قبائل، بل قبائل بأكملها، ارتاحت إلى مزايا الحياة المستقرة، ولذلك طعم أقباط مصر بتيار قوى من الدم العربى. وكان يبدو جلياً أن العرب قدموا فى هجرات ضخمة

(١) J. Halévy, Essai d'Epigraphie Libyque —باريس ، ١٨٧٩ .

(٢) Litmann, L'Origine de l'Alphabet Libyque, La Revue Asiatiqu مجلد ص ج ٤ ، ص ٤٢٢ .

(٣) Yver ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٣ ، ص ٥٠٨ .

وصلت إلى السودان ، واندمج العرب الرحل فى حضارة وادى النيل القديمة وبقيت لهم لغتهم العربية ، فالعرب أصبحوا نيليين ولكن القبط استعربوا »[١] .

ولم يتردد أحد المؤرخين الأمريكيين فى أن يسجل أنه : « إذا نحن نظرنا إلى العلم العربى من وجهة نظر التطور الإنسانى عموماً وجدنا أن الثقافة العربية كانت ذات أهمية بالغة لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب ، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسيا البوذية ، إن الثقافة العربية كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون أخرى ، ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئاً يسيراً ، وإذا نحن سمينا هذه الثقافة إذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب فإننا نكون قد قررنا شيئاً غريباً ، إذ أن تلك الثقافة امتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى ...... وفى أثناء العصور الوسطى كانت اللغة العربية فعلا أكثر اللغات انتشاراً ، ولم تتكلم العربية وتكتب بها شعوب من أمم مختلفة فى الشرق والغرب فحسب ، بل شعوب تدين بأديان متعددة »[٢] .

وقد استقر رأى علماء الأجناس على أن من العسير فى معظم المناطق التى وصل إليها العرب التمييز بين العربى الأصيل والمستعرب[٣] ، واستقرت أسس هذه الدولة العربية ، وذابت فى قوميتها العناصر البشرية التى تعيش

---

(١) كيرك ، نفس المرجع ، ص ٢٣ .

(٢) جورج سارتون ، نفس المرجع ، ص ٣٨ — ٣٩ — ٤٤ — ٤٦ .

(٣) بيتار ، نفس المرجع ، ص ٣٥٢ .

فيها كما انتهى التطور التاريخى الطويل إلى استكمال مقومات لغتها الواحدة على هذا المدى الشاسع بين المحيط الأطلسى الغربى والخليج العربى وحدود إيران شرقاً – كما توحدت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتكونت حولها تيارات فكرية متجانسة وثقافة مشتركة بحكم الاتصال المباشر المتصل عبر شبه جزيرة سينا بين الجزيرة العربية والمغرب العربى .

وقد قرر المؤرخون أن سيناء أصبحت « طوال القرون الإسلامية الأولى طريق مرور فقط تعبرها القبائل بشكل لم تعهده فى فترات التاريخ السابقة . وكان من الأسباب الهامة الدافعة إلى تدفق القبائل إلى مصر عبر شبه الجزيرة مجىء الوالى الجديد الذى كان يرافقه جيش يقرب من ٢٠٠٠٠ مقاتل غالبيتهم من العرب . . . والذى كان وجوده فى الحكم مشجعاً للقبائل التى ينتمى إليها على أن تهاجر إلى مصر كما يدل على ذلك تحليل القبائل المختلفة التى هبطت مصر فى عهود الولاة المتتابعين . . . . . . ويستخلص مما كتبه القلقشندى أن قبائل جذام ولخم وبلى وكثيراً من القبائل القرشية كانت أبرز الهجرات التى عبرت سيناء مع الفتح الإسلامى . ومن الهجرات البارزة التى قطعت سيناء هجرة قيس وعيلان عام ٧٢٨ ميلادية جاءت من أعالى نجد فى ولاية هشام بن عبد الملك إذ نقل منهم نحواً من ٣٠٠٠ . . . وهجرة أولاد الكنز من ربيعة الذين كانوا ينزلون اليمامة أولا ودخلوا مصر أيام المتوكل على الله عام ٨٥٤ فى عدد كبير » (١)

(١) عباس عمار ، نفس المرجع ، ص ١٠٤ ، ١٠٧ – وقد استند على كتاب Macmichael الذى أسماه A History of the Arabs in the Sudan وقد =

ولما بدأت العناصر غير العربية تحكم مصر بعد ذلك ، وبالتالى لم يعد هؤلاء الحكام يحابون العرب كما حدث أثناء حكم أحمد بن طولون (٨٧٠ ــ ٨٨٤ م) بدأت القبائل العربية التى كانت قد هاجرت إلى مصر تهاجر من جديد إلى شمالى إفريقيا وإلى السودان .

ولما تولى الفاطميون حكم مصر عام ٩٧٣ عاد الحكم العربى الصميم إلى مصر ورأى الخلفاء الفاطميون فى القبائل العربية المستقرة بسورية على حدود مصر الشرقية مصدر خطر على حكمهم الجديد فى شمالى وادى النيل فانتهوا إلى تشجيع تلك القبائل على الهجرة إلى مصر ، ولذا نرى العزيز بالله (٩٧٦ ــ ٩٩٦ م) يدعو بطون قيس من بنى سليم وبنى هلال ،ونرى الناصر للدين أبا محمد اليازورى وزير المستنصر (١٠٣٦ ــ ١٠٩٤ م) يدعو بطون طيىء التى كانت تسكن حول غزة فى جنوب فلسطين ويسهل لهم الاستقرار فى مديرية البحيرة ، وقد شجعت هجرة بطون أخرى فتزايد عدد العرب الذين انتقلوا إلى مصر فى عهد الفاطميين . . . . وقد تغير مركز سيناء ابتداء من القرن الرابع عشر ــ كما يقرر المتوفرون على تاريخ هذه المنطقة من المؤرخين المصريين

=أشار عباس عمار فى ص١٠٦ أن المرجع الرئيسى – سيما فى الهجرات التى حدثت منذ أيام الأمويين حتى نهاية حكم الأيوبيين – هو « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»الذى كتبه المقريزى وعثرت عليه الحملة الفرنسية فأخذت النسخة معها ولخص Quatremère ما فيه فى كتابه Mémoire sur les Tribus Arabes établis en Egypte ثم أصبحت هذه الوثيقة عمدة الكتاب الأجانب عن القبائل العربية فى مصر ينقلون عنها نقلا يضكاد يكون حرفياً .

فأصبحت منذ ذلك التاريخ منطقة تلجأ القبائل العربية إليها وتستقر بها بعد أن كانت مجرد قنطرة تعبرها تلك القبائل إلى وادى النيل.

وقرر مؤرخ عربى آخر أن المهاجرين العرب جاءت جموعهم « فى قلة بعد فتح مصر ثم أخذت هذه القلة تتزايد تدريجياً حتى تحولت إلى موجات متلاحقة من الفارين من شمال الوادى وذلك فى القرنين السابع والثامن من الهجرة — الثالث عشر والرابع عشر الميلادى — ويرجع تطور الخروج من شمال الوادى فى موجات من الفارين إلى ما أصاب القوم من اضطهاد وعدوان المماليك الذين تملكوا زمام الحكم فى مصر بعد انتزاعه من العرب أصحاب السلطان أصلا والذين نظر إليهم المماليك ، وبخاصة المماليك البحرية ، كعنصر غير مرغوب فى بقائه فى البلد الذى آلت إليهم مقاليد حكمه وذلك لخوف المماليك وقلقهم من قيام العرب والعربان بإشاعة الفتن والثورات . . . . وجاءت إلى جنوب الوادى فى ركاب هذه الهجرات مختلف العقائد والمذاهب الفكرية مع أتباع الفاطميين من جند وغيرهم . . . . واستطاع المهاجرون المحافظة على تقاليدهم العربية الموروثة بفضل تتابع الهجرات المتلاحقة والتى كانت تحمل دائماً فى ركابها دماً عربياً جديداً [١]. . . . . وكان من اليسير أن يستولى العرب على مشاعر سكان السودان[٢] .

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل ، « معالم تاريخ سودان وادى النيل » ، ١٩٥٥ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ — ٥١ .

وقرر أحد المؤرخين العرب المتوفرين على دراسة تاريخ السودان الشمالى أن هناك ثلاثة طرق سلكها العرب للوصول إلى السودان ، أولها الطريق الشرقى عبر البحر الأحمر . . . فقد كانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبى لجزيرة العرب أكثر من تدفقها من الجزء الشمالى ؛ وذلك لوفرة السكان فى بلاد اليمن من جهة ولصغر مساحة البحر من جهة ثانية ولبراعة السكان فى الملاحة من جهة أخرى ، وثانيها الطريق الشمالى الذى كان أهم الطرق التى سلكتها العناصر القوقازية إلى السودان فى العصور التاريخية القديمة والحديثة ؛ لأن كثيراً من القبائل العربية كانت تهاجر إلى مصر أولا عبر برزخ السويس ثم تصعد إلى الجنوب ، وثالثها الطرق الليبية التى تصل السودان الشمالى الغربى بصحراء ليبيا الواقعة غربى النيل ، وبعض هذه الطرق يشمل القطر المصرى وبرقة ، فهو جزء من الطريق الشمالى ، وبعضها يجىء من تونس وطرابلس وفزان ، وبعضها من الصحراء رأساً . . . . حمل إلى السودان جماعات ليبية فى عصر متأخر مثل الزغاوة والجرعان والبدايات [1].

وقد قسم هذا الفريق من المؤرخين الجماعات العربية فى السودان إلى قسمين : جعليين وجهنيين والأولون يمثلون العرب الشماليين والآخرون الجنوبيين .

وقد أسست — إلى جانب المجموعتين العربيتين الكبيرتين الجعلية والجهنية — ممالك وسلطنات عربية فى السودان الشمالى ، بعد أن توالت

---

(١) محمد عوض محمد : « السودان الشمالى — سكانه وقبائله » ص ٧ — ٨ (١٩٥١) .

هجرات العنصر العربى ، واشتد نفوذه ، واتسع نطاق الثقافة العربية ، فمن الثابت تاريخيًّا أن العرب أنشأوا عام ١٤٧٤ مدينة أربجى على النيل الأزرق ، ولم تكد تنقضى بضعة أعوام حتى قامت مملكة الفنج فى عام ١٥٠٤ . . . . . ومن المهم أن نذكر أن دولة الفنج منذ بدء تأسيسها كانت دولة إسلامية لغتها العربية وليس لها أية لغة أخرى . . . وفى الركن الشمالى الشرقى من مديرية كردفان نشأت مملكة تقلى فى أواسط القرن السادس عشر . . . ولها فى تاريخ العروبة فى السودان شأن خطير ، لأنها مكنت للعناصر العربية من التوغل فى هذا الربع الشمالى من جبال النوبة . . . والظاهر أن أمراء هذه المملكة كانت لهم سياسة مرسومة فى نشر الإسلام والعروبة فى هذه الجبال الوعرة ، وكانت هذه السياسة ترمى إلى تحقيق هدفها عن طريقين : الأول وهو ما يخطر بالبال لأول وهلة ، بنشر الإسلام والثقافة العربية والتزاوج بين القبائل النوباوية ، ولكن الأمراء فى الغالب لم يلبثوا أن رأوا هذه الطريقة لا تفى بالغرض بالسرعة اللازمة ولذلك التجأوا إلى الطريقة الثانية ، وهى تشجيع القبائل العربية على المهاجرة والاستيطان فى هذا الركن من السودان ، فأخذت جماعات من الجعليين تهاجر من الأقاليم النهرية وكذلك جماعات من البديرية والجوامعة ، وبوجه خاص بطون بأجمعها من قبيلة الكواهلة وكنانة ، وبفضل هذه السياسة انتشرت العروبة فى جبال النوبة الشرقية(١) .

وقد انصهرت وحدة اللغة والثقافة فى بوتقة الآلام التى عاناها الشعب

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٣ — ٢٥٤ — ٢٥٨ — ٢٦٠ .

العربى من العدو المشترك الذى توالى عدوانه المنظم على هذا الشعب منذ بدء القرن الحادى عشر ، عدواناً اتخذ — فى الظاهر — أشكالا مختلفة ولكنه فى الواقع التاريخى العلمى لم يكن يستهدف إلا غرضاً واحد هو تفتيت وحدة الشعب العربى .

١ — الحروب الصليبية

وكان أول شكل من أشكال العدوان على الشعب العربى هى الحروب الصليبية التى بدأت أولاها فى عام ١٠٩٦ ووجهت إلى فلسطين ثم إلى لبنان ثم إلى مصر ثم إلى سوريا ثم إلى مكة والمدينة، وقد علق مؤرخو الحروب الصليبية على هذه الحملة بأن «الاستراتيجية العليا لحملات القرن الثالث عشر كانت مهاجمة مصر وهى رأس البلاد الإسلامية وقلبها والعمل منها على إعادة أورشليم وضمها إلى أحضان المسيحية بعد ما فقدتها فى مقابل تسليم ما تستولى عليه من بلدان فى أراضى سلطان مصر . . . وفى الحملتين الرابعة والخامسة كانت الخطة العليا هى الهجوم البحرى على مصر والتهديد بالاستيلاء على قطعة من أراضيها يستعيضون فيما بعد عنها أورشليم وغيرها من الثغور الفلسطينية بشروط صلح يرتضيها المحاربان ، وأهم من ذلك أن الحملة الخامسة مشروع بابوى كامل باركتها الكنيسة الأم فى روما ولذلك كان معظم رجالها ممن استأجرهم رجال البابا من الألمان وولى قيادتها نائب عن البابا وهو بيلاجيوس فلم يقدها ملك من ملوك المسيحية أو أمير كما

كان الحال فى الحملات السابقة[١] .

وفى عام ١٢٦٧ حاول الصليبيون غزو تونس بقيادة لويس التاسع ولكنه أصيب بالطاعون ومات ودفن فى قرطاجة ، وقد قام الصليبيون بعد ذلك بنحو قرن ، أى عام ١٣٩٠ بمحاولة خائبة إذ هاجموا المهدية فى تونس بقيادة لويس ده بوربون .

وقد استقر رأى مدبرى السياسة المسيحية على عقد حلف مع المغول التتر الذين كانوا — رغم بقائهم على الفطرة المتوحشة إذ ذاك — قد امتد نفوذهم وأصبح يهدد الشرق العربى ، وكان ذلك الحلف مع أولئك البرابرة يستهدف القضاء على عرب الشرق الذين كانوا قد تعاهدوا مع الصليبيين على شروط معينة فأرسل البابا أينوسنت الرابع مندوبه جى ده بيانو كا بريني عام ١٢٤٥ — بعد أن فقد الصليبيون القدس — إلى منغوليا للتمهيد لعقد ذلك الحلف ، وبعد ثلاثة أعوام عاد القديس لويس فأرسل مندوباً للتفاوض على عقد ذلك الحلف[٢] ، ولم تسفر تلك المفاوضات عن نتيجة عملية ، إلا أنه فى عام ١٢٥٣ م قام المغول بغزوة قادها « هولاجو » حفيد جنكيز على الشرق العربى ، فاستولى عام ١٢٥٨ على بغداد ونكل بأهلها وقضى

---

(١) Oliver of Paderborn: The Capture of Damietta تعليق عبد الرحمن زكى ، المجلة التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥٠ وهو تعليق على مخطوطة أوليفر بادربون التى نشرتها جامعة بنسلفانيا عام ١٩٤٨ والمخطوطة لرجل من رجال بيلاجيوس اشترك فى الحملة الخامسة تلبية لدعوة البابا أينوسنت الثالث .

(٢) جورج كيرك ، نفس المرجع ، ص ٥٠ .

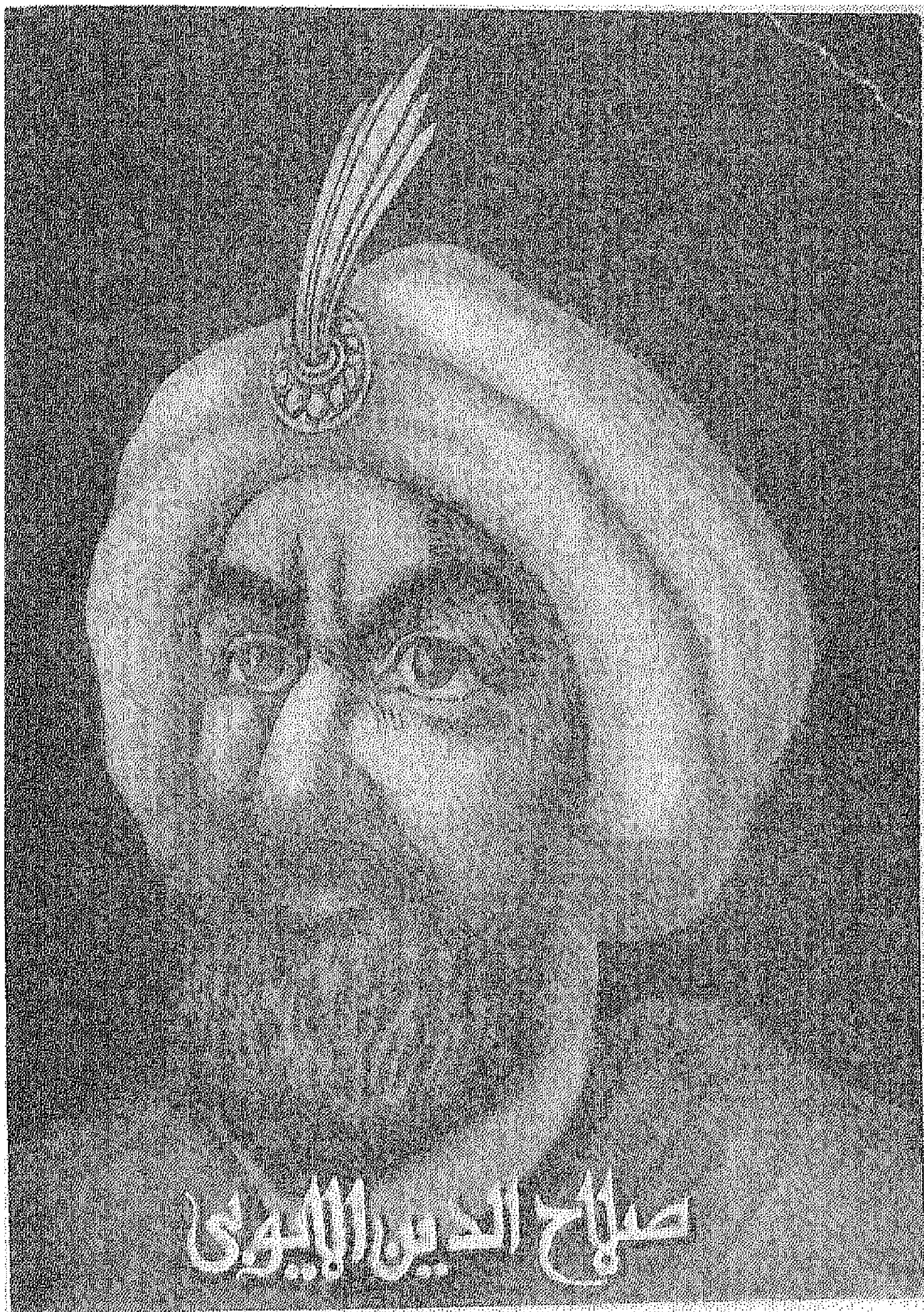
على الخلافة العباسية فيها وقد توغلوا فى سورية وخربوا حلب ولكن المصريين تغلبوا عليهم عام ١٢٦٠ فى عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين دولة المماليك البحرية التى حلت محل الدولة الأيوبية ، وقد تعاون الصليبيون إذ ذاك مع المغول الغزاة إلا أن « بيبرس » بين عامى ١٢٦٥ و ١٢٦٨ م استطاع أن ينتزع يافا والناصرة ، وفى عهد خلفه قلاوون فقد الصليبيون حلب ثم فقدوا بعد عامين عكا وكانت آخر معاقلهم فى الشرق العربى ، وقد تعاون الإسماعيليون مع الصليبيين فأجهز « بيبرس » على نفوذهم واستولى على حصونهم واضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة إلى مصر والفناء فى القومية المصرية .

ب — الاستعمار الأوربى

قبل أن تنقضى بضعة أعوام على محاولة الصليبيين بقيادة لويس ده بوربون غزو تونس فى عام ١٣٩٠ حاول العدو المشترك أن يتستر تحت شكل آخر من أشكال العدوان لتحقيق نفس الغرض وهو تفتيت وحدة الشعب العربى ، وقد سبقت البرتغال غيرها من الدول الأوربية فى ادعاء الرغبة فى كشف شاطئ إفريقيا الغربى فأوفدت هنرى الملاح ، ولكن المؤرخين الأوربيين لم يترددوا فى أن يقرروا أن « هدف هنرى العام كان استمرار الصليبية بواسطة التغلب على دار الإسلام حربيا وتجاريا وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدى المسلمين ، والاتصال — فى جنوبى



الشيخ محمد عبده


صلاح الدين الأيوبي

الصحراء– بجون نجاشى الحبشة للتعاون على مهاجمة المسلمين من الجنوب»(١)

وتوالى تسلل الاستعمار الأوربى إلى الشرق العربى ، فتسللت إسبانيا والبرتغال بين عامى ١٤٠٣ و ١٥١٥ فى مراكش والجزائر وطرابلس فى شمال غرب إفريقيا وفى سقطرة ومسقط والبحرين فى جنوب شرق الجزيرة العربية ، ثم تلتهما تركيا فى عام ١٥١٦ فاحتلت حلب فى شرق البحر الأبيض ومدينة الجزائر فى شمال إفريقيا ثم توالت هجماتها فاحتلت الحجاز واليمن ومصر والأحساء والعسير وبرقة ، وفى ١٥٣٥ حصل فرانسوا الأول ملك فرنسا من سليمان سلطان تركيا على أول معاهدة وصفت بأنها معاهدة « صداقة وتجارة » ولكنها فى الواقع منحت الرعايا الفرنسيين امتيازات انتقصت من سيادة الدولة العثمانية وميزت الأجانب على العرب رعايا تلك الدولة وهذه المعاهدة اتخذت أساساً لباقى المعاهدات التى عقدت بين تركيا والدول الغربية والتى ميزت رعايا هذه الدول الأجانب على العرب أهل البلاد الأصليين ، وفى نفس العام أى عام ١٥٣٥ احتل ملك إسبانيا وإمبراطور ألمانيا تونس ، وتابعت تركيا احتلال بقية الشرق العربى فاستولت على طرابلس والعراق وتونس .

وفى عام ١٦٢٢ اشتركت بريطانيا فى التسلل الاستعمارى فأخرجت البرتغال من البحرين بالتعاون مع إيران ، وفى عام ١٦٨١ ضربت فرنسا شواطىء تونس بالقنابل كما ضربت شواطىء الجزائر فى عام ١٦٨٤ وعادت

(١) جورج كيرك ، نفس المرجع ، ص ٦٣ .

إلى ضرب تونس فى عام ١٧٧٠، وفى ٧ مايو ١٨٣٠ عقدت بين الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا معاهدة وصفت – كالعادة – بأنها معاهدة تجارة وملاحة مع أنها فى الواقع منحت الرعايا الأمريكيين امتيازات على حساب أهل الشرق العربى الذى كانت لتركيا السيادة عليه .

ولم يكد ينتهى القرن الثامن عشر حتى صفيت محاولات التسلل الاستعمارى الأوربى فى الشرق العربى وبرز فى خلال القرن التاسع عشر السباق بين فرنسا وبريطانيا على استعمار هذا الشرق .

فى صيف عام ١٧٨٩ غزت فرنسا مصر بقيادة نابليون بونابرت وقد فطن إلى ما سوف تصادفه قواته فى هذه المنطقة من الشرق العربى فأصدر بمجرد وصوله إلى الإسكندرية منشوراً كان قد طبعه على ظهر الباخرة « أوريان Orient» إحدى بواخر الغزو ، باللغة العربية ذكر فيه

« أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى روما وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين »(١)

ورغم المقاومة العنيدة التى لقيها الجيش الفرنسى من المصريين فإن نابليون ظل يتملق المصريين فدعا إلى انشاء الديوان العام ورأى تأليفه

---

(١) Charles Roux : Bonaparte Governor of Egypt, p. 26.
والنص العربى منشور بالجبرتى ، وقد استبعدنا منه بعض الألفاظ التى ليست عربية .

من ثلاثة من العلماء وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالى عن كل مديرية ومحافظة ، وقد اجتمع ذلك الديوان يوم ٥ من أكتوبر عام ١٧٩٨ وافتتحه نابليون بخطاب قال فيه :

« إن مصر بلاد لا نظير لها وهى أخصب البلاد، وإن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد مصر الأول » .

وقد وجهت الحكومة التركية — بعد نزول القوات الفرنسية فى مصر — إلى ممثلى الدول الأوربية فى القسطنطينية إنذاراً جاء فيه :

« إن مصر باب المدينتين المقدستين مكة والمدينة ولذلك فإن الاعتداء عليها يثير أكبر اهتمام لدى المسلمين ، وطبقاً للتصريحات التى أعلنها الباب العالى من قبل فى هذا الشأن سواء للقائم بأعمال السفارة الفرنسية أو لحكومة " الديريكتوار " بواسطة السفير التركى فى باريس فإن الهجوم الغاشم وغير المتوقع والأعمال العدوانية التى أقدمت عليها فرنسا يجب أن تقابل — طبقاً للقوانين العادلة — بالقوة . . . . ولكى يتم الانتصار على الأعداء وسحقهم قد أصبح واجباً دينياً على كل مسلم أن يخرج للحرب ضد فرنسا »[1] .

---

(١) Joseph Kabarda, Quelques Firmans concernant les relations franco-turques lors de l'expédition de l'Egypte, Paris, Cahiers de la Société Asiatique. ص ١٤ .

وأصدر سلطان تركيا « فرماناً » أعلن فيه الحرب المقدسة ضد فرنسا جاء فيه :

« إن هذا القرار الذى صدر بالإجماع من أعضاء مجلس الدولة وبموافقة شيخ الإسلام يبرره واجب المسلمين المقدس فى استرداد القاهرة من أيدى الخونة وتحرير إخوتنا فى الدين »(١) .

ومن ذلك يتضح بجلاء أن تركيا — وإن كانت دولة غير عربية — إلا أنها تبينت — أن وحدة اللغة ووحدة الثقافة ووحدة المعاناة من الخطر المشترك كفيلة بإثارة الشرق العربى كله ضد ذلك الغزو الفرنسى واستغلت وجود الخلافة فى عاصمتها لكى تدعو العرب — وغالبيتهم العظمى من المسلمين — إلى « الحرب المقدسة » ضد الفرنسيين .

ولكن الظروف التى كان الشرق العربى يعيش فيها لم تسمح — إذ ذاك — بأن يشترك مع المصريين غيرهم من أهل الشرق العربى فى مكافحة الغزاة ، واقتصر هذا الكفاح على المصريين وحدهم الذين ذكر المؤرخون الفرنسيون أنهم من كل طبقة وكل لون قد دافعوا عن أرض مصر ضد الغازى ولم يكونوا يسلمون فى أى شبر من تلك الأرض إلا أمام القوة المتفوقة(٢) .

وصحت نبوّة الكاتب الفرنسى فولنى Volney الذى كتب فى عام ١٧٨٨ — أى قبل الحملة الفرنسية بعشرة أعوام — يقول : « لكى

(١) المرجع السابق — ص ٣٩ .
(٢) « رو » ، نفس المرجع ، ص ٢٤ .

يستقر قرارنا فى مصر يجب أن نشن ثلاث حروب : الأولى ضد إنجلترا والثانية ضد الباب العالى والثالثة — وهى أشد الحروب الثلاثة وأصعبها — ضد المصريين من سكان مصر » واقتنع بونابرت بصحة هذا الرأى بعد أن تم له غزو مصر فكتب يقول : « إن نبوءة فولنى كانت حقة ، فقد تطور موقفنا فى مصر إلى مشكلة عويصة ، فإما أن نجلو وإما أن نسالم الآراء الدينية السائدة فى مصر لئلا نوضع بين أعداء الإسلام ، والتجربة قد أثبتت أنه لا يكفى لكى نوضع بين أصدقاء الإسلام أن نعلن من جانبنا صداقتنا له »(١) .

ولم تطق بريطانيا أن تترك فرنسا تثبت أقدامها فى الشرق العربى فأرسلت إلى مصر عام ١٨٠١ حملتين نزلت إحداهما فى شهر مارس فى أبى قير — بالاتفاق مع الحكومة التركية — ونزلت الأخرى فى يونيو فى القصير .

وفى نفس العام جردت الولايات المتحدة الأمريكية حملة على طرابلس فى شمال إفريقيا .

وشهد القرن التاسع عشر اتساع التسلل الاستعمارى عن طريق معاهدات « الحماية » ، وكان اتجاه بريطانيا فى بدء ذلك القرن إلى الجنوب العربى : البحرين وعدن ومسقط والعراق .

ولما تحالفت تركيا مع فرنسا — كما سبق أن تحالفت مع بريطانيا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ — ٧٣ .

فى عام ١٨٠١ – أسرعت بريطانيا بإنزال قواتها فى الإسكندرية فى عام ١٨٠٦ .

وتوالت فى عام ١٨٢٠ معاهدات الحماية مع حكام الخليج العربى : الشارقة ورأس الخيمة ودبى وأبو ظبى وعجمان وأم القيوين ، كما توالى تنازل تركيا عن حقوق أهل الشرق العربى ، من ذلك الفرمان الذى أصدرته فى عام ١٨٣٤ بالترخيص للبواخر البريطانية بالملاحة والذى استندت إليه بريطانيا فى إنشاء « شركة الملاحة التجارية فى الدجلة والفرات » وبينما كانت بريطانيا موغلة فى التسلل فى الجزيرة العربية اتجهت فرنسا إلى شمال إفريقيا فاحتلت الجزائر فى عام ١٨٣٠ ومراكش فى عام ١٨٤٤ وتقاسمت إسبانيا معها هذه الأرض العربية فى عام ١٨٥٠ عندما اعتدت على مراكش .

وقد قطع الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ بأن الحكام الدخلاء الذين لم يكونوا مشتركين مع أهل الشرق العربى فى وحدة التاريخ أو وحدة اللغة أو الثقافة — وإن اشتركوا مع غالبيتهم فى العقيدة الدينية — لم يتورعوا عن خيانة هذا الشرق العربى وأهله حرصاً على مصالحهم الخاصة .

ولعل التاريخ لم يشهد عاهلا بلغ به فجور الخيانة ما بلغ بتوفيق الذى لم يكد يطمئن إلى دخول الإنجليز حتى أعلن فى الصحيفة الرسمية بياناً لشعبه قرر فيه :

« إن ما حصل من ضرب المدافع من الدونم الإنجليزية على طوابى

إسكندرية وتخريبها إنما كان السبب فيه استمرار الأعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها ، والآن وقد حصلت المكالمة مع الأميرال فأفاد أنه ليس للدولة الإنجليزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عدوان وأن ما حصل إنما هو مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدونتم ، وأنه إذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة الإسكندرية إليها . . . تحقق من هذا أن الدولة الإنجليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية » واستمر بيان توفيق موجهاً القول إلى عرابى . . . . « لذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا وتحضروا حالا إلى سراى رأس التين لأجل إعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب أمرنا هذا وما استقر عليه رأى مجلس النظار »[١] .

واتضحت بجلاء خيانة الخديوى من البرقية التى أرسلها كارترت البريطانى فى ١٦ من يوليو سنة ١٨٨٢ إلى لندن والتى جاء فيها : « أتشرف بأن أخبركم أن الخديوى عزل عرابى باشا من منصب وزير الجهادية وأصدر أمره بمنع جميع المصريين من مساعدته وسيذاع هذا الأمر بكافة الوسائل التى فى متناول سموه »[٢] .

وقد أرسلت هذه البرقية قبل نشر بيان الخديوى فى الوقائع المصرية

---

(١) الوقائع المصرية ، ١٨ من يوليو سنة ١٨٨٢ .

(٢) محمود الخفيف ، « أحمد عرابى : الزعيم المفترى عليه » ص ٣٤٢ .

وقبل استدعاء عرابى وقبل قرار عزله الذى لم يعلن إلا فى ٢٣ من يوليو سنة ١٨٨٢ .

وبعد إعلان عزل عرابى ألف « المجلس العرفى » بالقاهرة من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبار الموظفين لإدارة القتال ضد المعتدى الأجنبى وانعقدت الجمعية العامة أو مجلس العموم فى ١٨ من يوليو سنة ١٨٨٢ وشهدها نحو أربعمائة عضو من خلاصة المصريين الذين قرروا الاستمرار فى مقاومة الاعتداء البريطانى فى الوقت الذى كان الخديوى توفيق يستدعى فيه السير أوكلاند كلفن البريطانى ليطلب إليه أن يستحث حكومته على اتخاذ خطوة جديدة بلا إبطاء وأنه – أى توفيق – يرى أن هذا العمل ضرورى جداً وقد بلغت الضعة بتوفيق عقب الاحتلال البريطانى إلى حد أنه استمر على توجيه البيانات إلى جميع أهالى وسكان القطر المصرى زعم فيها :

« بما أن العساكر الإنجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين . . . . على كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالإكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجون إليه من المؤونة . . فمن فعل ذلك فقد وفى بما يجب عليه من حقوق الوطنية واستوجب رضاء الله ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة ، ومن أبى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التى لا تجديه نفعاً فقد عرض نفسه للتهلكة التى نهى الله عنها وتحققنا أنه من العصبة الباغية فأمره كأمرهم » .

ووجه توفيق أمراً آخر إلى ضباط الجيش وجنوده طالبهم فيه بطاعة القائد البريطانى ولسلى وتنفيذ أوامره « فمن يخضع له فكأنه خضع لنا شخصياً ومن خالفه كان عاصياً لنا ويعامل معاملة العصاة »[١] .

وتوالى تسلل بريطانيا الاستعمارى فى جنوب الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر كما توالى تطلع فرنسا إلى بعض المناطق الإفريقية من هذا الشرق حتى وقع حادث فاشودة فى عام ١٨٩٨ .

وفى ٨ من أبريل عام ١٩٠٤ وقع المركيز لانسدون وزير الخارجية البريطانية ومسيو بول كامبول سفير فرنسا فى لندن بالنيابة عن حكومتيهما سلسلة اتفاقات عرفت باسم « الاتفاق الودى » اتفقت فيهما الحكومتان بالنسبة للشرق العربى على ألا تتعرض إحداهما للأخرى فى منطقة نفوذها ، وقد وصفت هذه الاتفاقات بأنها تحسر القناع عن الأطماع الاستعمارية ، وتظهر بجلاء خشية الدولتين الأوربيتين الاستعماريتين — إنجلترا وفرنسا — من قيام دولة متماسكة الأجزاء تشمل مصر والأقطار العربية وقد تجلت هذه الخشية ، مع مزيد الأسف ، عند ما قسمت بعض الأقطار العربية التى كانت على مدى التاريخ أجزاء من الدولة العربية تقسيماً مرتجلا لم تراع فيه أية اعتبارات تاريخية أو جغرافية أو جنسية[٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٢) محمود كامل « العمل لمصر بعث دولة وإحياء مجد » ١٩٤٥ ، من الفصل الذى جعل عنوانه « مصر والأقطار العربية » ص ١٠٧ — ١٠٨ .

ج ـ الصهيونية

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ الذى شهد تصارع الدول الأوربية على اقتسام الشرق العربى واستعماره ـ ظهر عدو مشترك لأهل هذا الشرق من العرب : هو الصهيونية، وكانت مصر ـ وفلسطين إذ ذاك مندمجة فيها ـ أول ما اتجهت إليها نوايا الصهيونية العدوانية إذ قدم إليها موسى حايم مونتفيور فى عام ١٨٣٨ بعد أن زار فلسطين ولم يجد بها إلا ثمانية آلاف يهودى متفرقين فى القدس وسباط وطبرية والخليل ، وكتب يسجل فى مذكراته :

« من كل المعلومات التى استطعت جمعها اتضح لى أن الأرض المجاورة تبدو أنها صالحة على الخصوص للاستغلال الزراعى . فهنا أحراش من أشجار الزيتون يغلب على ظنى أنها تعود إلى خمسمائة عام وحقول كرم ومراع شاسعة وعدد كبير من الآبار . كما توجد أشجار تين وحقول قمح وشعير غنية فهى فى الحقيقة أرض يمكن أن تنتج أى شىء بكثرة فى مقابل قليل من المهارة والعمل . إننى واثق من أنه لو نجح المشروع الذى أفكر فيه فإنه كفيل بتحقيق السعادة والرخاء للأرض المقدسة . وسأبدأ بأن أطلب من محمد على منحى أرضاً لمدة خمسين عاماً ومائة أو مائتى قرية وسأعطيه ربحاً يتراوح بين عشرة وعشرين فى المائة على أن يكون دفع المبلغ بأجمعه سنوياً فى الإسكندرية بشرط أن تعفى الأرض والقرى التى ستمنح طول المدة من أية ضريبة يفرضها الباشا ـ أى محمد على ـ

أو حاكم المناطق التى ستمنح فيها الأرض ، وبشرط أن أحصل على حرية التصرف فى الحصول فى أية جهة من جهات العالم، فإذا حصلت على المنحة فإننى سأستعين بالله بعد عودتى من إنجلترا وأنشيء شركة تتولى زراعة الأرض وتشجع أبناء ديننا فى أوربا على العودة إلى فلسطين . إن كثيرين من اليهود يهاجرون الآن إلى ويلز الجنوبية الجديدة وكندا ولكنهم يستطيعون فى الأرض المقدسة أن يجدوا فرص النجاح المؤكد . هنا سيجدون الآبار التى تم حفرها ، وأشجار الزيتون والكرم التى تم زرعها ، والأرض الخصبة التى لا يعوزها إلا القليل من السماد . وأننى لآمل أن أوفق تدريجياً إلى إعادة آلاف من أبناء ديننا إلى أرض إسرائيل. كما أننى واثق من أنهم سيكونون سعداء عند ما يتبينون أن ديننا المقدس قد رعى بطريقة يستحيل تحقيقها فى أوربا » .

ولم تقبل مصر منح هذه الأرض إلى سير موسى مونتفيور ، ولكن الأخير استطاع فى عام ١٨٤٠ — أن يحصل من لورد بالمرستون على وعد بأن يعد القناصل الإنجليز فى الشرق أنفسهم حماة لليهود فى الأقطار التركية . ثم وفق سير مونتفيور فى عام ١٨٤٥ إلى الحصول على أرض فى فلسطين عهد باستغلالها إلى خمس وأربعين أسرة يهودية من سباط .

وفى عام ١٨٦٢ نشر موسى هيمى وهو يهودى ألمانى اعتنق المبادئ الاشتراكية وتعشق المدنية الفرنسية كتاباً أسماه « روما والقدس » ذكر فيه أن العصر الذى يتحقق فيه أمل اليهود قد بدأ بالثورة الفرنسية وقرر « أن ما علينا عمله اليوم لإعادة تأسيس وطن اليهود القومى أن نحتفظ دائماً بالأمل فى بعثنا السياسى وأن نوقظ هذا الأمل كلما نام . فإذا مكنتنا

الحوادث التى تتأهب للوقوع فى الشرق من البدء عملياً فى إعادة إنشاء دولة يهودية فإن الخطوة التالية ستكون إنشاء مستعمرات فى أرض الأجداد ، وهو عمل لا شك فى أن فرنسا ستمد له يد العون » .

وفى نفس ذلك الوقت تقريباً أسست جمعية أوسع نطاقاً من اليهود الروس أطلقوا على أنفسهم اسم Hovevei Zion أى « محبو صهيون » وقد نتج عن هذا النشاط المتشعب أن أسست عدة مستعمرات صهيونية كمستعمرة « ريشون لوزيون » على مقربة من يافا و« زيشرون يعقوب » فى سامارية . . . . وكان من زعماء هذه الحركة الصهيونية طبيب يهودى فى مدينة أوديسا يدعى ليون بنسكر Leon Pinsker فلما صدرت « قوانين مايو » أخذ بنسكر يبشر بنظرية تدعو إلى أن يتولى اليهود أنفسهم خطوة نحو تحرير أنفسهم Auto-Emancipation وقرر « أن اليهود يكونون داخل الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها عنصراً له كيانه الخاص ومقوماته الخاصة Heterogeneous بحيث لا يمكن لشعب آخر أن ينسجم معه » وأضاف أن اليهود شعب لا استقلال له ولذلك ينظر إليهم العالم كأنهم « أشباح تجول بين الأحياء » .

ولتحقيق هذا الغرض دعا بنسكر إلى عقد مؤتمر قومى ، وقد أثارت آراء بنسكر اهتماماً كبيراً بين يهود العالم ، ولكنها لم تثمر ثمرة عملية ، واضطر آخر الأمر إلى أن يشترك مع جمعية « محبى صهيون » فى مشروعاتها الخاصة باستعمار فلسطين .

وفى عام ١٨٩٦ ، أى بعد انقضاء أربعة عشر عاماً على إصدار

كتاب ليون بنسكر عن « تحرير اليهود بواسطة اليهود » أصدر صحفى يهودى نمساوى هو تيودور هيرتزيل Theodor Hirzel كتاب « الدولة اليهودية »، وكانت نتيجة صدوره أن تناسقت الجهود المختلفة التى كانت تبذل فى سبيل إنشاء وطن قوى لليهود ، ولم تكد تنقضى بضعة أشهر حتى بدأت حركة جديدة عرفت باسم « الصهيونية السياسية » ، وقد بدأ مؤلف كتاب « الدولة اليهودية » يكون عناصر مشروعة عن إنشاء دولة يهودية فى عام ١٨٩٦.

وقد استطاع هيرتزيل بواسطة مغامر يدعى شيفالييه ده نيولينسكى كانت له صلات بالقسطنطينية أن يقابل السلطان عبد الحميد وأن يقدم إليه التماساً بأن يتنازل لليهود عن فلسطين ، لكى يؤسسوا فيها جمهورية أرستقراطية على نسق جمهورية البندقية ، وقد بحث سلطان تركيا جميع احتمالات هذا الالتماس وما وعد به من مساعدات مالية كان اليهود على أتم استعداد لتقديمها ، ولكنه لم يتردد قط فى رفض فكرة السماح بإقامة دولة يهودية داخل حدود الإمبراطورية التركية .

وفى عام ١٩٠٢ وعندما يئس هيرتزيل من موافقة الحكومة التركية على استعمار الصهيونيين لفلسطين ولى وجهه شطر إنجلترا التى وإن كانت إذ ذاك لا علاقة لها بحكم فلسطين إلا أنها كانت قد احتلت مصر قبل ذلك بعشرين عاماً وقد أشار هيرتزيل فى اقتراحاته على الحكومة البريطانية إلى أن معاونيه وإن كانوا يعارضون فى أن يكون وطن اليهود القومى أرضاً غير فلسطين إلا أنهم قد يوافقون على أن تكون هذه الأرض مجاورة

لفلسطين على اعتبار أن يكون استعمار هذه الأرض المجاورة تمهيد لاستعمار فلسطين نفسها ولذلك اقترح على مستر جوزيف تشامبرليز الذى كان إذ ذاك وزير المستعمرات . أن يسمح للصهيونيين باستعمار قبرص فرفض تشامبرلين ذلك الاقتراح توًّا على أساس أن مجرد عرضه سيثير ثائرة أهالى قبرص اليونانيين والأتراك فاقترح هيرتزيل استعمار الأراضى المجاورة للعريش فى الحدود المصرية المتاخمة لحدود فلسطين ، ولما كان هذا الأمر من اختصاص وزارة الخارجية أحيل هيرتزيل إلى لورد لانسدون وقد أثمرت المفاوضات التى دارت فى وزارة الخارجية البريطانية تأليف لجنة صهيونية أرسلت برضاء سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر لدراسة احتمالات نجاح فكرة الاستعمار فى أراضى العريش ولكن رفضت السماح بذلك الاستعمار (١) .

وانشقت أقلية صهيونية عقب ذلك تزعمها إسرائيل زانجويل ، أطلقت على نفسها اسم « الهيئة اليهودية الاستعمارية » جعلت هدفها البحث عن أرض غير فلسطين لكى تنشىء فيها مركزاً له استقلال ذاتى يضم اليهود الذين لا يستطيعون أن يظلوا فى الدول التى يعيشون فيها أو الذين لا يجب أن يعيشوا فيها وقد فكرت هذه الهيئة فى استعمار برقة ولكنها لم تستطع أن تحقق عمليًّا شيئاً من برنامجها إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

---

(١) « باربر » نفس المرجع ، ص ٥٠ .

ومن مجرد استعراض هذا التاريخ يتضح أن الشرق العربى : فلسطين وشبه جزيرة سيناء و برقة كان هدف الصهيونية التى ركزت برامجها العدوانية عليه بعد أن استبعدت كل الحلول الأخرى التى عرضت إسكان اليهود فى أراض بالأرجنتين وقبرص وكينيا وغيرها .

وفى منتصف مارس عام ١٩١٦ وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقاً حرصت الحكومتان على أن يبقى سريًّا وعرف فيما بعد باسم اتفاق « سايكس — بيكو » نسبة إلى مندوبى الحكومتين اللذين وقعاه وهما مسيو جورج بيكو أحد قناصل فرنسا السابقين فى بيروت وسير مارك سايكس أحد المتوفرين على دراسة الشئون الشرقية ، وقد نص هذا الاتفاق على تقسيم الشرق الأوسط العربى إلى خمس مناطق . . . . . والمنطقة الخامسة سميت « المنطقة السمراء » وتشمل فلسطين فى حدودها الحالية باستثناء بير سبع والنقب وجزء من الخليل . ونص اتفاق « سايكس — بيكو » على أن المتعاقدين يقران بالنسبة لمنطقتى ا ، ب قيام دولة عربية مستقلة أو اتحاد بين دول عربية تحت سيادة حاكم عربى . أما بالنسبة للمنطقة السمراء فقد أرجىء البت فى أمرها نظراً لطبيعتها الدينية الخاصة حتى تتم إدارتها دوليًّا طبقاً لنظام يتفق عليه مع روسيا وشريف مكة ، وقد اعترضت فرنسا فى بادئ الأمر على فكرة الإدارة الدولية المقترحة لفلسطين باعتبار أنها ما دامت جزءاً من سورية فهى جزء من المنطقة التى نص الاتفاق على الاحتفاظ بها لها ، ولكن عندما سافر المندوبان إلى بتروجراد للتشاور مع الحكومة الروسية ادعى سازونوف وزير الخارجية الروسية أن لدولته حقوقاً فى

فلسطين نظراً لكثرة عدد المؤسسات الروسية فى القدس والخليل ونابلس والناصرة وأبدى أنه لذلك يطالب بوضع فلسطين تحت الحماية الروسية، فلما تبينت فرنسا موقف روسيا وخشيت مغبة عواقبه انضمت إلى جانب إنجلترا وأقرت وضع المنطقة السمراء تحت الإدارة الدولية .

وفى ٢ من نوفبر عام ١٩١٧ — وبعد أن مهدت الحكومة البريطانية للغدر بفلسطين — أرسل مستر آرثر جيمس بلفور خطابه الذى عرف فيما بعد باسم وعد بلفور إلى لورد روتشيلد وذكر فيه :

« إن حكومة جلالة الملك تنظر بارتياح إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى وستبذل كل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا الغرض على أن يكون مفهوماً جلياً أنه لن يعمل شىء يضر الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة الآن بفلسطين أو بالحقوق السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى دولة أخرى » .

وفى ديسمبر عام ١٩١٧— وفى نفس الوقت الذى كانت المراسلات مستمرة فيه بين سير ماكماهون والشريف حسين وهى المراسلات التى رأينا أن الحكومة البريطانية كانت تكرر فيها تعهداتها بإعلان حرية الشعوب العربية وتأييد هذه الحرية — نشر اتفاق « سايكس — بيكو » الذى ظل سراً منطوياً على الغدر بفلسطين وغيرها من الأقطار العربية ، وكان نشره وإزاحة الستار عنه مع الاتفاق الثلاثى بين بريطانيا وفرنسا وروسيا عقب تولى الحكومة السوفيتية الحكم فى ديسمبر عام ١٩١٧ ، فأسرع جمال باشا قائد القوات التركية التى كان يحاربها الجنرال أللنبى بإرسال

نسخة من الوثائق التى أذيع سرها إلى الأمير فيصل بالعقبة وطلب من فيصل آن ينضم إلى جانبه فى محاربة عدو مشترك بعد أن انفضحت نوايا هذا العدو واتضح الدليل القاطع على أنه باع العرب وخان ثقتهم . وعرض عليه توقيع صلح عربى تركى ينص فيه على استقلال جميع أجزاء الإمبراطورية العثمانية التى للناطقين باللغة العربية أغلبية فيها[١].

وفى أول مايو عام ١٩١٩ أذيع رسمياً بمدينة نابلس ، وعد بلفور الذى كان قد صدر فى ٢ من نوفبر عام ١٩١٧ وكانت إذاعته على لسان الجنرال لويس بولز ، أى بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على صدوره، إذ أن لورد أللنبي كان قد وعد بإخفاء أمر ذلك الوعد حتى يحين الوقت المناسب لإذاعته .

وفى عام ١٩١٩ أرسل الرئيس « وودرو ويلسون » بلجنة « كنج — كرين » إلى فلسطين وهذه اللجنة مؤلفة من الدكتور هنرى تشرشل كنج رئيس جامعة « أوبرلين » وشارلز كرين أحد رجال الصناعة فى شيكاغو وعضو اللجنة الأمريكية التى أوفدت إلى روسيا عام ١٩١٧ ، وقد كلفت اللجنة بزيارة فلسطين وغيرها من الأراضى العربية فى الشرق الأدنى التى كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية لدراسة أحوالها . وعقب عودتها قررت اللجنة أن « وطناً قومياً للشعب اليهودى لا يعنى إقامة دولة يهودية وأن هذه الدولة لا يمكن إقامتها بدون ارتكاب أخطر أنواع الاغتصاب للحقوق

---

(١) أبكاريوس ، ص ٣٩ — ٤١

Palestine through the Fog of Propaganda

المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية التى تعيش الآن فى فلسطين (١) ».

وقد ظل هذا التقرير هو التقرير الأمريكى الوحيد عن فلسطين حتى عام ١٩٤٦ « ليلينتال » ، ص ٢٧ — ٢٨ . وقد عارضت لجنة « كنج — كرين » فى فرض الانتداب الفرنسى على هذه المنطقة العربية وطالبت بمعاملة سورية كوحدة — وكانت سورية إذ ذاك تشمل سورية ولبنان وفلسطين والأردن — ولم ينشر هذا التقرير حتى عام ١٩٢٢
The Royal Institute of International Affairs : The Middle East, 1955, p. 26-27. وقد استند على Antonius, Arab Awakening ونشر عام ١٩٥٧ القسم الخاص بفلسطين والصهيونية من تقرير هذه اللجنة المؤرخ فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٩١٩ نقلا عن الجزء الثانى من كتاب « الثورة العربية الكبرى » لأمين سعيد وقد جاء فيه :

« لقد اتضح لهذه اللجنة أن الشعور العدائى نحو الصهيونية ليس قاصراً على فلسطين فحسب بل يشمل سكان سورية بوجه عام فإن ٧٢ فى المائة من مجموع العرائض التى تناولتها اللجنة فى سورية مضادة للصهيونية ولم ينل مطلب نسبة أكثر من هذه النسبة سوى الوحدة السورية والاستقلال .

---

(١) National home for the Jewish people is not equivalent to making Palestine a Jewish state. State could not be erected without the gravest trespass upon the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine.

وبعد أن ذكر التقرير أن اللجنة قضت أسبوعاً فى القدس واستفتت رؤساء الطوائف المختلفة وزارت خلاله بيت لحم والخليل وبئر السبع ثم طافت شمالى فلسطين ، واستقبلت الوفود فى رام الله ونابلس وجنين والناصرة وحيفا وعكا واجتمعت بمستعمرة ريشون لوزيون بزعماء عدة مستعمرات يهودية وبأعضاء اللجنة الصهيونية المركزية تناول التقرير مطالب الشعب الفلسطينى على الوجه التالى .

« اجتمعت كلمة المسلمين وهم حسب الإحصاء الإنجليزى الأخير نحو أربعة أخماس السكان على المطالبة باستقلال سورية المتحدة ولم تشذ منهم سوى طائفة معروفة من الموظفين كانت تسير على تيار النفوذ السياسى . وقررت الأحزاب التى اجتمعت فى يافا أن سورية أهل لحكومة مستقلة بلا دولة وصية .

ولم يعر مؤتمر الصلح اهتماماً لقرارات المؤتمر السورى الذى انعقد فى دمشق فى يونيو عام ١٩١٩ ، لتوضيح رغبات الشعب السورى أمام لجنة « كنج — كرين » الأمريكية وهى الرغبات التى عارضت كل فكرة ترمى إلى تقسيم سورية أو إنشاء دولة يهودية بفلسطين . فإنه فى ٢٨ من يونيو ١٩١٩ تم التوقيع بفرساى على ميثاق عصبة الأمم وبعد يومين — أى فى ٣٠ من يونيو — سلمت إدارة فلسطين المدنية إلى هربرت صموئيل كما سبق أن أشرنا .

وقد رد العرب على ذلك بعقد المؤتمر الفلسطينى الأول عام ١٩١٩ بالقدس وهو المؤتمر الذى رفض وعد بلفور والهجرة اليهودية والانتداب

البريطانى وطالب بوحدة سورية وسمى فلسطين «سورية الجنوبية» وبإعلان استقلال سورية — ومنها فلسطين — من شرفة بلدية دمشق فى ٨ من مارس ١٩٢٠ وإعلان قرار المؤتمر السورى الذى يعد فلسطين جزءاً من سورية و «رفض مزاعم الصهيونيين بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود أو محل هجرة لهم».

وفى ديسمبر ١٩٢٠، عقد المؤتمر الفلسطينى الثالث بحيفا — لأن المؤتمر الثانى الذى كانت الجمعيات الإسلامية المسيحية قد دعت إليه منعت السلطات البريطانية عقده — وأكد قرارات المؤتمر الأول وألف «لجنة تنفيذية» لتوجيه الحركة الوطنية.

وفى يونيو ١٩٢١ عقد المؤتمر الفلسطينى الرابع بالقدس وعاد المؤتمر إلى رفض تصريح بلفور وتأكيد الوحدة السورية. وندب المؤتمر وفداً إلى بريطانيا لشرح القضية الفلسطينية وأثمر هذا الجهد؛ إذ أصدر مجلس اللوردات البريطانى فى ٢٠ من يونيو قراراً برفض الموافقة على وثيقة الانتداب البريطانية على فلسطين لمناقضته لوعود بريطانيا السابقة للعرب عام ١٩١٥ (١).

وفى ٣٠ من مارس عام ١٩٣٠ وصل إلى لندن وفد اللجنة التنفيذية لمؤتمر فلسطين العربى واتصل برئيس الوزارة البريطانية مستر مكدونالد. وقد رفضت حكومة العمال طلبات الوفد العربى الخاصة «بوقف الهجرة وسن تشريع لمنع انتقال الأراضى التى يملكها العرب إلى اليهود وتأليف

---

(١) أكرم زعيتر، «القضية الفلسطينية»، ١٩٥٥، ص ٦٨ — ٦٩

حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابى يشترك فيه أهل البلاد بنسبتهم العددية .

وفى ٣ من أغسطس عام ١٩٣١ عقد بنابلس مؤتمر عربى أعلن استنكاره لتسليح اليهود . كما دعت اللجنة التنفيذية العربية أهل البلاد إلى الإضراب العام فى ٢٣ من أغسطس — وفى نفس العام انعقد بالقدس المؤتمر الإسلامى العام الذى اشترك فيه مندوبو البلاد الإسلامية والعربية وأجمعوا على تأييد عروبة فلسطين واستنكار السياسة الإنجليزية الصهيونية .

وفى ٢٥ من أبريل عام ١٩٣٦ أنشئت « اللجنة العربية العليا » لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية . فأعلنت الثورة وأقبل المتطوعون العرب من سورية وشرق الأردن لنجدة إخوانهم الفلسطينيين ومنهم جماعة من العراق بقيادة فوزى القاوقجى . ولكن ملوك العرب — الملك عبد العزيز آل سعود ملك العربية السعودية والملك غازى ملك العراق والإمام يحيى ملك اليمن والأمير عبد الله حاكم شرقى الأردن توسطوا — فى النزاع (١) .

وفى أول أكتوبر ١٩٣٦ أعلنت « اللجنة العربية العليا » هذا النداء ولبته ولكن بعد ذلك — وقبل سفر اللجنة الملكية البريطانية المعروفة باسم لجنة

---

(١) نص النداء الذى وجهه الرؤساء العرب : « إلى أبنائنا عرب فلسطين : لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة فى فلسطين ، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها لتحقيق العدل وثقوا بأننا سنواصل السعى فى سبيل مساعدتكم » .

« بيل » – صرح وزير المستعمرات البريطانى فى ٥ من نوفمبر من نفس العام بأن وقف الهجرة اليهودية أثناء تحقيق اللجنة الملكية لا تبرره أسباب اقتصادية ولا غيرها فبادرت اللجنة العربية العليا إلى إعلان مقاطعة هذه اللجنة. وقد وصف بعض المؤرخين العرب ثورة عام ١٩٣٦ بأنها تمتاز بكونها « موجهة أولا ضد الانتداب البريطانى وبكونها عنيفة وشديدة وباستمرارها وشمولها طبقات الأمة . وباشتراك العرب غير الفلسطينيين فيها اشتراكاً فعلياً »[١] .

وفى ٨ من سبتمبر ١٩٣٧ عقد فى بلودان مؤتمر عربى اشتركت فيه وفود مصر والعراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين وأناب عرب المغرب من يمثلهم لأن السلطات الفرنسية لم تسمح لهم بالسفر وقد قرر ذلك المؤتمر :

١ – إن فلسطين جزء لا ينفصل عن الوطن العربى .

٢ – رفض ومقاومة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها .

٣ – الإصرار على طلب إلغاء الانتداب ووعد بلفور وعقد معاهدة مع بريطانيا تضمن للشعب العربى استقلاله وسيادته ، وأن تكون حكومته دستورية ؛ فيها للأقليات ما للأكثرية من الحقوق وفقاً للمبادئ الدستورية العامة .

٤ – تأييد طلب وقف الهجرة عاجلا وإصدار تشريع يمنع انتقال الأراضى من العرب إلى اليهود .

وفى ٢٦ من سبتمبر ١٩٣٧ اندلعت نار ثورة فلسطينية أخرى ضد

---

(١) أكرم زعيتر ، نفس المرجع ، ص ١٠٥ .

سلطات الانتداب والصهيونيين وعم القطر العربى إضراب عام .

وفى ٧ من فبراير ١٩٣٩ افتتح مؤتمر لندن بين البريطانيين والعرب صباحاً و بين البريطانيين والصهيونيين مساء . وقد اشتركت جميع الحكومات العربية فى هذا المؤتمر الذى ظل منعقداً بضعة أسابيع والذى وصفه فريق من المؤرخين الإنجليز بأنه « أول اعتراف دولى رسمى بمجموعة دول عربية» . (١)

وفى ١٧ من مارس ١٩٣٩ أعلنت الحكومة البريطانية كتابها الأبيض الذى عدلت فيه عن فكرة التقسيم التى كانت قد أوصت بها لجنة « بيل» واعترفت بحق فلسطين فى الاستقلال وخولت مندوبها السامى سلطة منع انتقال الأراضى إلى اليهود وهذا كله نصر للثورة وثمرة للجهاد والتضحيات (٢) .

إلا أن الكتاب الأبيض علق استقلال فلسطين على اشتراك الصهيونيين وهو ما كانوا يرفضونه لأن مطالبهم كانت قد بدأت تتجه إلى إنشاء « دولة يهودية » كما أن العرب رفضوا الكتاب الأبيض لأن إعلان الاستقلال فيه أرجئ إلى ما بعد فترة انتقال حددت بعشرة أعوام ولأسباب أخرى .

وكانت الثورة الجديدة التى بدأت فى ٢٦ من سبتمبر ١٩٣٧ لاتزال مستمرة وظلت مستمرة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ولقد لخص بعض المؤرخين الإنجليز الموقف فى هذه المنطقة العربية بأن «تقسيم العالم العربى بواسطة بريطانيا وفرنسا بموافقة عصبة الأمم ترتب

---

(١) The Royal Institute, The Middle East p. 32. ١٩٥٥ ، ص ٣٢

(٢) أكرم زعيتر ، نفس المرجع ، ص ١٤٢ .

عليه أنه منذ عام ١٩٢٠ أصبحت وحدة هذا العالم العربى فى ظل نظام سياسى مستقل هدفاً رئيسياً للقومية العربية . وقد عبر أكثر من مؤتمر من مؤتمرات التحرر العربى عن هذه الفكرة . وتفرق عدد من قادة الحركة الاستقلالية العربية بين الأقطار العربية المختلفة شاغلين مناصب سياسية هامة فى سورية وفلسطين والعراق ومصر محتفظين بالكثير من ذكريات الزمالة . حريصين على تبادل المشورة وهو ما كانوا قد اعتادوا عليه أثناء جهادهم ضد الإمبراطورية العثمانية وبذلك تجمعت عناصر الوحدة . . . إن مقاومة عرب فلسطين المستمرة للهجرة اليهودية أيقظت عطف وتعاون باقى الشعوب العربية . ونمو فكرة الوطن القومى اليهودى دفع الدول العربية إلى الوحدة لتجابه ما شعر الجميع أنه خطر مشترك[١].

---

(١) المعهد الملكى ، نفس المرجع ، ص ٣١ – ٣٢ .

الفصل الثالث

وحدة الكفاح

انتهينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب من إيجاز العنصر الأول من عناصر « العروبة » : وحدة التاريخ ، وفى الفصل الثانى من إيجاز العنصر الثانى : وحدة اللغة والثقافة وكيف انصهرا فى وحدة المعاناة من العدو المشترك ، وبقى أن نوجز العنصر الثالث : وحدة الكفاح فى سبيل الهدف المشترك .

ولقد مر هذا الكفاح — كما أشرنا فى المقدمة — فى عدة مراحل ، فاتخذ فى بادئ الأمر شكل الكفاح فى سبيل التحرير الإسلامى أو « الوحدة الإسلامية الكبرى » .

ولم تقتصر هذه الدعوة إلى التحرير الإسلامى على الجانب الدينى وإنما تضمنت — منذ البداية — عنصراً سياسياً منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر ، وهذا العنصر السياسى هو الذى وضعها بين الحركات العصرية الكبرى للفكر الاجتماعى ، فدعاة التحرر الإسلامى يريدون أن يستمدوا من التضامن الإسلامى تضامناً سياسياً بين جميع الشعوب الإسلامية يتيح لها أن تعمل عملا مشتركاً لتحريرها ولتنظيم هذه الوحدة فى المستقبل ، ولكن ما سوف يكون عليه شكل هذه الوحدة أو هذا التنظيم بالضبط ؟ أاتحاد «كونفيديرالى» إسلامى ؟ أامبراطورية إسلامية ؟ أيجب أن يسبق

التحرير تكوين هذا التنظيم أم يجب البدء بتنظيم الدول الإسلامية التى تم تحريرها ؟ هذه هى المشكلات الرئيسية التى لم يتوصل دعاة التحرر الإسلامى إلى الإجابة عليها إجابات دقيقة[١] .

وقد تبين المتوفرون على دراسة العالم الإسلامى من المفكرين الأجانب أن المسلم أيًّا كان البلد الذى ينتمىّ إليه يشعر بأنه فى أى بلد إسلامى آخر من التركستان إلى مراكش ومن الترنسفال إلى سيبيريا كأنه فى وطنه ، وفى هذا مايوضح فكرة البعض عن العالم الإسلامى الذى — رغم اختلاف المذاهب والفرق والآراء الفقهية — يحتفظ برابطة وحدة يتجه التطور الحديث إلى تغليب مظهرها الاجتماعى على مظهرها الدينى ، وعندما نذكر أن اللغة العربية يتكلمها ثمانون مليوناً وأنها تعد — كلغة دينية — تدرس فى جميع بلاد العالم حيثما وجد مسجد صغير ، نتبين أن الوحدة الإسلامية ليست طاقة إيجابية يمكن التهوين من شأنها[٢] .

كما تبينوا أن الإسلام تسوده روح المساواة الأخوية بين جميع

---

(١) عبد الرازق السنهورى Le Califat, son évolution vers une société des Nations, Travaux du Seminaire Oriental d'Etudes juridiques et Sociales, Geuthnir.

باريس ، ١٩٢٦ ، ص ٥٠٩ — ٥١١ .

(٢) Magali Boisnard, L'Islam et la Politique des Alliés, adaptation de l'Italien.

المسلمين فالصلف العرقى أو الجنسى لا أثر له فى الإسلام؛ إذ أن كل من آمن بالله أخ لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أو من الملايا أو أوربا[١].

١ — التضامن الإسلامى
أساس القانون الدولى الإسلامى
وأحد مصادر القانون الدولى العربى

(ا) ابن تيمية

لقد اتخذ كفاح الدعوة إلى التحرر الإسلامى شكلا علمياً منظماً فى الربع الأول من القرن الرابع عشر عندما بدأ تقى الدين أحمد بن تيمية ينشر آراءه عن السياسة الشرعية بعد أن درس الفلسفة اليونانية و « مزجها بما درسه من أصول التشريع والفقه الإسلامى ، وكان يغمره شعور بالحزن عميق على ما وصلت إليه الأمة من الضلالة والهوان »[٢].

والذى يهمنا فى هذا الموضوع هو رأى ابن تيمية فى الوحدة الإسلامية ؛

---

(١) Hans Kohn, Western Civilisation in the Near East. ١٩٣٦ ، ص ٤٥ .

(٢) محمد بديع شريف ، « الصراع بين الموالى والعرب » ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٤ .

فإن ابن تيمية كان يرى الوحدة قائمة فى الأصل رغم اختلاف الصحابة فى بعض النقاط ، وقلما وجد بين فقهاء المسلمين من تحمس فى الدعوة إلى وضع سياسة منظمة للاستعراب كابن تيمية؛ فإن العربية هى أحد رموز الإسلام وهو رمز يضفى على الجماعة شخصيتها فهى شعار الأمة ، وفى العدول عن العربية أو إهمالها تتنازل الجماعة عن شخصيتها بينما الواجب الأول على كل شخص وكل جماعة أن ينمى أصالة هذه الشخصية ، وقد أشار إلى ما فعله المسلمون فى صدر الإسلام من فرض اللغة العربية فى سوريا ومصر حيث كانت بعض العناصر تتكلم اليونانية ، وفى العراق وخراسان حيث كانت تستخدم اللغة الفارسية وفى المغرب حيث كانوا يتكلمون البربرية ، ولكن إهمال الأجيال اللاحقة الآثم استخدام العربية فى خراسان لم ينتج عنه إلا اختفاء العربية ، وقد خشى أن يحدث ذلك فى سوريا ومصر اللتين كانت تحكمهما عناصر تركية عندما نشر آراءه ولذلك دعا فى إلحاح إلى وضع سياسة منظمة للاستعراب .

والتضامن الإسلامى عند ابن تيمية — فى رأى بعض المتخصصين من المستشرقين — ليس تضامناً آلياً يستند إلى الاشتراك فى الأرض والعقيدة واللغة وإنما هو تضامن « عضوى » يفترض وجود مقصد أو هدف مشترك ومساهمة كل فرد فى تحقيق هذا الهدف والدولة — طبقاً لما رسمه كتاب « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » — دولة تعاونية تستكمل قوتها وشرعيتها بأن تطلب من جميع أبنائها لا مجرد الطاعة السلبية فحسب ولكن الاشتراك الفعال فى الحياة العامة ، فعقد البيعة

بين الحاكين والمحكومين إنما يتضمن شركة ميثاقها وهدفها الأعلى هو كتاب الله ، وابن تيمية يذكر الجميع ، الأفراد والدول وجميع الذين يتولون الأعمال العامة أو الخاصة بواجب أن يعدوا أنفسهم بناة مصير واحد يعملون جميعاً فى حدود إمكانياتهم على تحقيق نفس الهدف فالجماعة الإسلامية كما تحللها « السياسة الشرعية » لا يمكن أن توصف قانوناً إلا بأنها اتحاد « كونفيديرالى » طبيعى بين الدول (١) .

وقد أوضح ابن تيمية أن لكل فرد فى الجماعة الإسلامية الحق فى الحياة فإذا لم تكفه موارده الخاصة فإن الواجب الحتمى على الجماعة سواء كدولة أو كقطاع خاص أن تكفل له إمكانيات الحياة المادية ، ومن الناحية السياسية لاحظ المستشرقون أن عالمية الإسلام التى أكدها الفارابى والتى تبرز فى كتب الجوينى والغزالى وفخر الدين الرازى كانت تقرر دائماً أن الدولة الإسلامية الكاملة يجب أن تضم كل العالم فجاء فقه ابن تيمية للمرة الأولى فى تاريخ علم الاجتماع الإسلامى يسوغ توزيع السلطة فى الجماعة الإسلامية، إذ أن هذه الجماعة التى كانت متوحدة فى عهد السلف لا يتحتم أن تظل متوحدة سياسياً فأحداث التاريخ قد فرقتها إلى عدد من الإمارات المستقلة ولكن هذه الوحدة أصبحت تبدو فى التضامن العقائدى الذى تشعر أمامه كل دولة بأنها عضو فى جماعة كبرى مع إحساسها باستقلالها الداخلى .

---

(١) Henri Laoust, Le Traité de Droit Public d'Ibn Taimiya, Institut Français de Damas. بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٣٥ .

وقد قرر هؤلاء المؤرخون أن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية قد استند إليهما منذ قرن ونصف قرن لا المنادون بتوحيد المذاهب فحسب ، ولكن جميع الذين يجاهدون بين اتجاهات الآراء المختلفة لبعث حركة جمع وتكتل تقوم على الإيمان بوحدة الأصل والمصير المشترك(١) .

ولا شك أن هذه الآراء التي نادى بها ابن تيمية إنما كانت صدى لما أصاب « وحدة » العرب في التاريخ القريب السابق لمولده وأثناء حياته من تصدع ، ولتسلل العناصر الأجنبية إلى مراكز الحكم الحساسة في الدولة العربية ، ولتوالي ظهور دويلات إسلامية لم تكن تدين بالولاء للخليفة العباسي في بغداد ، كالهوارة الخوارج الإباضية في طرابلس وتونس من عام ٧٥٦ إلى عام ٧٦١ ، والرستمية الخوارج الإباضية في تاهرت بشمال إفريقيا من عام ٧٦١ إلى عام ٩٠٨ والصفرية الإباضية في سلجماسة بشمال إفريقيا في الربع الأخير من القرن الثامن والأدارسة في شمال إفريقيا من عام ٧٩٣ إلى عام ٩٢٣ والدولة الطاهرية في شرق العراق من عام ٨٢٢ إلى عام ٨٢٨ والدولة الفاطمية الشيعية في شمال إفريقيا من عام ٩٠٩ إلى ١١٧١ ، ولحادثين تاريخيين عصفا باستقلال هذه الدولة العربية أولهما توالي الحملات الصليبية منذ عام ١٠٩٦ إلى عام ١٢٦٧ أي إلى ما بعد مولد ابن تيمية في عام ١٢٦٣ ببضعة أعوام عند ما حاول لويس التاسع غزو تونس ، وثانيهما هجوم المغول واستيلاؤهم على بغداد في

---

(٢) لا أوست ، المرجع السابق .

عام ١٢٥٨ أى قبيل مولد ابن تيمية ببضعة أعوام ، ثم لتفشى عشرات الفرق الإسلامية المختلفة وما تركته الخلافات بينها من فجوات فى وحدة المسلمين . وبذلك عاش ابن تيمية فى مجتمع بعيد عن أن تجمعه وحدة أو ما يقاربها فى الجنس والمنزلة الاجتماعية أو فى الدين أو مذاهبه أو فى القضاء والقواعد التى يتحاكم الناس بموجبها أو فى غير ذلك كله مما يجعل لأفراد المجتمع وحدة لها أسسها وأهدافها وغاياتها المشتركة . . .

التقى فى هذا العصر أقوام من أجناس مختلفة : أتراك ومصريون وشاميون وعراقيون وفدوا إلى الشام وبخاصة بعد خراب بغداد وفرنجة ، وتتار وقعوا فى الأسر وأقاموا فى البلاد ، وأرمن وإسرائيليون ؛ هؤلاء جميعاً وآخرون غيرهم عاشوا فى صعيد واحد على اختلافهم فى عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم فكان منهم مجتمع لا يعرف الاستقرار (١).

ولقد تبين ابن تيمية — منذ سبعة قرون — أن المجتمع العربى لم يكن يعترف فيه إلا بطبقتين أولاهما طبقة الأمراء وثانيتهما طبقة العلماء وكبار رجال الدين ولذلك خص بكفاحه طبقة ثالثة « تشمل العامة والشعب من تجار وصناع وزراع وهم الذين عليهم الكد والكدح ولم يكن الواحد منهم يصل إلى ثمرة عمله كله لما كان ينوبهم من مظالم ومكوس مختلفة . . . وكان الشيخ ابن تيمية يعنى كل العناية بهذه الطبقة العاملة فهو عليها حان عاطف ، ولها موجه مرشد ، وكثيراً ما عمل لرفع ما كان ينزل بهم من

---

(١) محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، أعلام العرب ، ٥ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

مظالم على اختلاف ضروبها(١).

وكان كفاح ابن تيمية في سبيل إقرار وحدة الدول الإسلامية يستند بداهة إلى مهاجمة عوامل الفرقة بين العرب المسلمين وفي مقدمتها الفرق الإسلامية التي رأى في مبادئها انحرافاً . ومهاجمة الفساد الذي كان استشرى في أجهزة الحكم ، والدعوة إلى عد الجميع حاكمين ومحكومين بناة مصير واحد، كما أنه كان منطقياً مع أحداث التاريخ ومع الواقع العملي في عدم التمسك بعالمية الدولة الإسلامية أي بعدم جواز تعدد الأئمة، وإن حرص على أن تكون كل دولة — مع إحساسها باستقلالها الداخلي — عضواً في جماعة إسلامية كبرى تشمل العالم الإسلامي وهذا ما حدا بالمستشرقين إلى أن يصفوا دعوته بأنها دعوة إلى إقامة « اتحاد كونفيديرالي » بين الدول الإسلامية ، كما أن ابن تيمية تنبه — منذ ذلك الزمن الطويل — إلى أن هذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق بالاعتماد على الأمراء والعلماء فحسب فعني بعامة الشعب وأصر على أن يساوي بينهم وبين الطبقات الأخرى باعتبار الجميع بناة مصير واحد . وأبرز دور اللغة العربية فجعلها شعار الأمة ورمزاً لأصالة شخصيتها(٢) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٢) Henri Laoust, Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Takei-el-Din Ahmad b. Taimiya, Institut Français d'Archéologie Orientale القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٢٥٢ — ٩

(ب) مذهب التحرر الإسلامى الحديث
محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢)
محمد بن سعود (١٧٣٥ - ١٧٦٦)

وإذا كان ابن تيمية قد استخدم قلمه ولسانه للكفاح فى سبيل التحرر الإسلامى، وتحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى؛ فإن مبادئه التى تضمنتها كتبه العديدة ظلت نحو أربعة قرون مرجعاً للمفكرين الذين شاركوه الحزن على ما وصلت إليه الدول الإسلامية من التصدع والفرقة والتمزق وعلى ما نال المسلمين من أذى بسبب البدع والمفاسد التى أدخلت على الإسلام ظلماً ، وكان محمد بن عبد الوهاب قد دعا إلى ذلك بعد أن أبعد من « العينية » فى نجد عام ١٧٤٠ والتجأ إلى صديقه محمد بن سعود واشترك الاثنان فى الدرعية فى نشر مذهبهما الجديد الذى إن استوحى من مذهب ابن تيمية فإنه افترق عنه فى بعض الأمور ، فنادى الوهابيون بالتضامن العقائدى كما نادى به ابن تيمية الذى لقى قبولا لديهم ولو أنهم اتجهوا بهذا التضامن اتجاهاً « عرقياً » عربياً ولم ينادوا إلا مؤخراً بفكرة التعاون الدولى التى نادى بها ابن تيمية والتى سبق أن ذكرنا أنها كانت ترمى إلى جمع الدول الإسلامية - على اختلاف أجناس المسلمين ولغاتهم - فى شبه اتحاد « كونفيدرالى » ولما انتهى الوهابيون إلى الاقتناع بفكرة التعاون

الدولى سار محمد بن عبد الوهاب شوطاً أبعد من الشوط الذى قطعه ابن تيمية فى المناداة بالمساواة التامة بين المسلمين ، ولما كانت الجماعة الإسلامية – ككل جماعة إنسانية – تنطوى حتماً على خلافات سياسية فإن محمد ابن عبد الوهاب ومن خلفوه من أتباعهساير ابن تيمية فى عدم التعرض مباشرة لمشكلة الخلافة ، فإن عالمية الخلافة النظرية – كجهاز فوق الدول – كان لا يساير اتجاه الوهابيين « العرقى » العربى إذا ذكرنا أن الخلافة إذ ذاك كانت قد انتقلت بتنازل المتوكل على الله منذ عام ١٥١٧ أى قبل ظهور الوهابية بنحو قرنين إلى آل عثمان ، وبانتقال مقر الخلافة إلى القسطنطينية عاصمتهم وهم الذين لم تكن تربطهم بالعرب وحدة التاريخ ولا وحدة اللغة والثقافة ولا وحدة المعاناة من العدو المشترك كما سبق أن أوضحنا ، ولذلك كان معقولاً أن يعد الوهابيون سلاطين آل عثمان غاصبين ولو أنهم لم يستطيعوا أن ينادوا علناً بالثورة ضد أولئك الغاصبين ، كما أن الوهابيين لم يفكروا جدياً فى احتمال استعادة الخلافة ، وكانت الدولة التى نادى ابن تيمية بإنشائها دولة تعاونية يبرز فيها حق كل فرد فى المساهمة فى حياة الجماعة السياسية فجاء الاجتماع السياسى عند الوهابيين يضع ذلك المبدأ على رأس مبادئهم ويدفع به إلى حد أن فكرة التضامن الاجتماعى عندهم غلبت الحرص على وحدة الجماعة الملتزمة بطاعة الإمام طاعة مطلقة والولاء له على حقوق الأفراد ، وقد اتسم كفاح الوهابيين بطابع استخدام القوة المسلحة . وتطورت الدعوة الوهابية فاتخذت شكل توسع سياسي بالإغارة على المناطق المجاورة فى ٢٤ من يناير سنة ١٧٤٦ وهو

موقف لم يرض به بنو خالد من الأحساء وآل المكرمي من نجران . ولما قوي ساعد الدعوة الوهابية أخذ أشراف مكة يتهمون الوهابيين السعوديين بالمروق . واستنجدوا بحكومة الآستانة عام ١٧٤٨ . وتوفي محمد بن سعود عام ١٧٦٦ بعد أن حكم الدولة التي أنشأها ثلاثين عاماً . فخلفه ابنه عبدالعزيز الذي قضى الثلاثين عاماً الأولى من حكمه في محاربة خصوم أبيه بني خالد وآل المكرمي . حتى تمكن عام ١٧٩٥ من دخول الأحساء وقطيف . وثبت أقدام الدولة الناشئة على الخليج العربي إلى حد أن ولاة الدولة العلية في البصرة وبغداد الذين تعاونوا مع خصوم أسرة سعود من العرب قد خابت جهودهم في وقف نمو تلك الدولة العربية السعودية . فلم توفق حملة الشيخ ثويني المنتفق عام ١٧٩٧ ولا حملة كخيا علي باشا عام ١٧٩٨ ، واضطر الوالي التركي في العراق إلى أن يتهادن مع عبدالعزيز ست سنوات كما اضطر غالب شريف مكة أن يتصالح معهم عام ١٧٩٨ وأن يعيد إليهم حقهم في حج بيت الله .

وفي أبريل عام ١٨٠٠ حج سعود بن عبد العزيز إلى بيت الله وانضمت إلى السعوديين قبيلة بني حرب التي كانت تناصر الشريف غالب . وفي ٢١ من أبريل عام ١٨٠٢ هاجم سعود كربلاء للثأر من قبيلة خزاعة الشيعية التي كانت قد اعتدت على قافلة وهابية وهدم أماكن العبادة الشيعية فيها . وفي ١٨ من فبراير عام ١٨٠٣ ضم السعوديون مدينة الطائف إلى دولتهم . كما دخل سعود مكة في ٢٠ من أبريل من نفس العام .

وقد وصف أحد المؤرخين هذه الدولة بأنها دولة إسلامية ذات قوة ضخمة غازية امتدت من حلب إلى اليمن وبأنه فى أول القرن التاسع عشر انتشرت مبادئ الوهابيين فى برما وجزر الهند الهولاندية كما أنها — بفضل الدعاية المدهشة لتطهير الدين من البدع — قد وصلت إلى قبائل النيجر[١].

وذهب أحد رجال السلك السياسى فى بغداد إلى أن « فكرة الغزو قد انتشرت بين جميع الطبقات وذكرى قوة العرب الغابرة أحيت فى قلب أضعف الناس الأمل الحلو فى أن يحكمه أمراء من أهل وطنه .

ولم يكد يقبل عام ١٨٠٨ حتى كان سعود قد أتم غزو شبه الجزيرة العربية فأصبحت مملكته تضم إلى جانب نجد الحجاز والعسير واليمن وحضرموت والأحساء والبحرين والبصرة ، وفى الشمال امتدت سلطته إلى حوران وكانت قواته المعسكرة فى وادى سرحان تهدد دمشق وبغداد فى نفس الوقت وبذلك عادت الجزيرة العربية فاتحدت بين يدى زعيم واحد[٢].

وقد هدد توسع الوهابيين ثلاث دول كانت تطمع فى الشرق العربى : إيران التى دفعت شيعياً إلى قتل عبد العزيز بن محمد بن سعود فى عام ١٨٠٣ ، وإنجلترا التى أرسلت حملة قصفت رأس الخيمة على

---

(١) Robert Montagne, La Civilisation du Désert ١٩٤٧ ، ص ١٦٤ — ١٦٦

(٢) Jean Raymond, Mémoire sur l'Origine des Wahbabis. الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٠٦ ، ص ٩٢٥

الخليج العربى بالقنابل وتركيا التى لضعفها لم تستطع أن تشتبك — مباشرة — فى حرب مع الوهابيين فلجأت إلى مصر [١] .

ولقد حلل أحد المؤرخين العرب كفاح الوهابيين ضد العثمانيين بأنه كان تعبيراً عن الفكرة العربية وأول محاولة جدية فى الزمن الحاضر لتحقيق وحدة العرب فى دولة عظيمة وأن الوهابية قدمت قوة دافعة جديدة للحركة التقليدية الإسلامية العربية والاستعانة على تحقيقها بالكفاح المسلح بحد السيف [٢] .

وأكد البعض أن الحركة الوهابية هى بلا شك أول مرحلة للتحرر الإسلامى الحديث وأن الوهابيين عندما ألقوا بجيوشهم على المدن المقدسة كانوا يحلمون بأن هذه هى الخطوة الأولى نحو الغزوة الكبرى التى يتم بها تطهير الدين من البدع وتوحيد العالم الإسلامى ، ومع أنهم لم يتمكنوا من ذلك فإن الوهابية قد أثارت حركات سياسية عميقة فى مناطق نائية كشمال الهند وأفغانستان فإن هذه الثورات السياسية كانت وثيقة الصلة بالحركة الوهابية ؛ إذ أنها كانت ضد الانحراف السياسى فى الدول السياسية والانحراف الخلقى لبعض رؤساء الدول الإسلامية .

---

(١) ص ٨٤ Benoist-Mechin, Ibn Séoud,

(٢) حسن صعب The Arab Federalists of the Ottoman Empire أمستردام ، ١٩٥٨ ، ص ١٥٧ .

وفى منتصف القرن التاسع عشر تغير الموقف فى العالم الإسلامى تغيراً ساعد على تكتل جبهات الكفاح ضد العدو المشترك ، فقد غزت فرنسا الجزائر واستولت روسيا على بعض المناطق الإسلامية فى آسيا وتمت سيطرة بريطانيا على كل الهند تقريباً فانتهى المفكرون المسلمون إلى أن الإسلام يتعرض لخطر داهم وعندئذ اتجه كفاح الداعين إلى التحرر الإسلامى إلى الدول الغربية الاستعمارية ، وكان هذا الكفاح فى أول الأمر كفاحاً مشتتاً متفرقاً لا تناسق فيه ولو أنه أبرز بطولات كبطولة عبد القادر فى الجزائر وغيره ممن كافحوا الغزاة الأجانب كفاحاً عنيفاً ولكن خشية التوسع الاستعمارى الغربى والسخط على الغزاة أخذا يتفاقمان فلم يكد يقبل عام ١٨٧٠ حتى كانا قد عما العالم الإسلامى بأجمعه (١) .

(حـ) مذهب التحرر الإسلامى المنظم

محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ — ١٨٥٩)

كانت الدعوة التى نادى بها محمد بن على السنوسى الذى ولد فى الجزائر وشهد فى شبابه إعدام أستاذه أثناء الحكم التركى وتنقل بين مراكش ومصر بعد أن استولت فرنسا على الجزائر ثم الحجاز هى أول مراحل التحرر الإسلامى المنظم .

---

(١) Lothrop Stoddard, Le Nouveau Monde de l'Islam.
باريس ، ١٩٢٣ ، ص ٥٠ — ٥١ .

وقد انتهى محمد على السنوسى — بعد إعمال الفكر — إلى نتيجتين هامتين : أولاهما أنه فى حاجة إلى تحصيل علوم أخرى غير العلوم العقلية والنقلية التى تلقاها فى الجزائر وغيرها من بلاد المغرب العربى . وثانيتهما أن العوامل التى عاقت نهضة الإسلام إنما كانت فى اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحكم الفردى. ولذلك انحصرت آماله فى العمل على تحقيق وحدة الشعوب الإسلامية .

وقد قرر بعض المؤرخين العرب الذين توفروا على دراسة السنوسية فى تلك الفترة بعد أن انتشرت تعاليمها فى برقة وطرابلس ، اللتين كانتا تابعتين لتركيا منذ منتصف القرن السادس عشر ، « أن سلطان العثمانيين ما كان يتعدى المنطقة الساحلية بمدنها الكبيرة ذات العدد القليل ، وأن الدولة كانت فى حاجة واضحة إلى يد قوية تستعين بها فى ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات فى داخل البلاد . وما كان لأحد غير السيد الكبير بما ظهر من تعلق العرب به وإصغائهم لنصحه وإرشاده ، أن يتمكن من إسداء هذا المعروف لمصلحة السلم والطمأنينة واجتماع الكلمة ونبذ التنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم .

ولم يكن السيد إلا داعية عظيماً للاتحاد ويقظة العالم الإسلامى . وقد أثمر اعتراف الدولة العثمانية — عن طريق واليها فى طرابلس — بالإمارة الواقعية للسيد السنوسى الكبير خير ثمرة فكان العرب يحترمون أوامره ويطيعون الأتراك بناء على نصائحه ، والسيد كان يرى فى هذه الطاعة فائدة وقوة للمسلمين . ومن جهة أخرى ترك العثمانيون من ذلك الحين حكومة

داخل البلاد فى يد السادة السنوسية ، وهكذا شهد تاريخ السيد الكبير بداية هذه الحركة العظيمة تنتقل من مجرد دعوة إلى الدين الصحيح وإرشاد لاتباع أثر السلف الصالح إلى دعامة من دعامات الحكم فى العالم الإسلامى و إمارة منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية(١) .

وقد بلغ من نجاح السنوسية فى هذه المنطقة العربية من إفريقيا أن اتخذها شريف سلطان « واداى » بالسودان أساساً روحياً للمنطقة التى كان يحكمها . وهى منطقة متاخمة من الغرب لمديرية دارفور العربية السودانية . وفى إيجاز نستطيع أن نقرر — مع مؤرخى السنوسية — أن هذه الإمارة العربية قد قامت على ثلاثة أصول :

أولها : الأصل الدينى وقد سبق أن لخصناه .

وثانيها : الأصل الاجتماعى ، وكان أهم مظهر له إنشاء الزوايا .

ثالثها : الأصل السياسى . وكان يهدف إلى جمع كلمة المسلمين فى إفريقيا داخل نطاق وحدة سياسية كبرى .

وقد توفى السيد محمد بن على السنوسى الكبير فى ٧ من سبتمبر

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، ١٩٤٨ ، ص ٣٠ — ٣١ ، وقد أشار فى ص ٥١ إلى أن اعتراف الأتراك بهذه الإمارة السنوسية « لم يكن أمراً غريباً ، فقد وجدت تركيا من الخير المحافظة على كيانها أن تكون على وفاق مع الإمارات العربية التى لم يكن فى استطاعتها القضاء عليها . ولذلك اعترفت بإمارات آل سعود على نجد وآل رشيد على حائل . وآل الصباح على الكويت . . . ويجمل الحقيقة أن السنوسية بدأت طريقة ثم اشتد أزرها فقويت دعوتها إلى إحياء العالم الإسلامى . . . ولم تلبث أن احتلت مكان الإمارة والصدارة » .

عام ١٨٥٩ ودفن بجغبوب بعد أن بلغ عدد الزوايا التى أنشأها اثنتين وعشرين زاوية .

وقد خلفه ابنه السيد المهدى فزاد فى عهده عدد الزوايا السنوسية ؛ إذ بلغ العدد عام ١٨٨٤ نحو المائة منتشرة بين برقة وطرابلس وفزان وطريق مصر ، وطريق واداى ، وشبه الجزيرة العربية ، والجريد بتونس ، ومراكش.

وقوى نفوذ السنوسية فى إفريقيا العربية . ودعم ذلك النفوذ فى عهد محمد المهدى السنوسى تعليم السنوسيين استعمال الأسلحة التى كانت تهرب من ميناء طبرق .

وأخذ نجاح السنوسية وتغلغها فى إفريقيا العربية يقض مضاجع السياسة الاستعمارية الأوربية ، وخاصة السياسة الفرنسية التى كان سباقها الاستعمارى مع بريطانيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد بلغ أقصى حدته . ولذلك نبه المؤرخون الفرنسيون إلى أن فى السنوسية خطراً عظيماً يهدد المسيحية فى القارة الإفريقية ويعطل مصالح الدول الأوربية التى تريد استعمار شعوب هذه القارة المظلمة وتحرض الأهلين فى الممتلكات الفرنسية وفى بلاد الجزائر خصوصاً على القيام بالثورة . . . وأهم ماعنى هؤلاء الكتاب بإظهاره وتصويره ... أن السنوسية هى أكبر وأنشط الوسائل التى يستطيع عن طريقها دعاة الجامعة الإسلامية تحقيق أهدافهم [1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٦ — ٦٨ — وقد استند على كتاب Duveyrier الذى أسماه La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Ali Es Senoussi وصدر بباريس عام ١٨٨٦ .

وهذه الفكرة ذاتها هي التي دعت هذا الفريق من الكتاب الفرنسيين إلى الاعتقاد بأن أحمد عرابى لم يقدم على الثورة فى مصر عام ١٨٨١ وعلى محاربة بريطانيا عام ١٨٨٢ إلا باتفاق مع السنوسيين . وقد كتب « دوفيرييه » بهذا المعنى إلى « برودلى » المحامى البريطانى الذى دافع عن عرابى وكانت ثورة محمد أحمد المهدى فى السودان معاصرة للثورة العرابية فى مصر . وقد ثبت أن زعيم المهديين قد حاول الاستعانة بالسنوسيين لإخراج الإنجليز من وادى النيل .

وقد دعم نفوذ السنوسية أن اتجهت — بعد انتقال مقر قيادتها إلى الكفرة فى قلب الصحراء — اتجاها سياسيًّا لم يكن خاضعاً على الإطلاق إلى أى تدخل سواء من الحكومة التركية صاحبة السيادة على ليبيا أو من أية حكومة أجنبية أخرى، وقد وصف بعض المؤرخين الإيطاليين هذه الفترة من تاريخ السنوسية أى الفترة التى أعقبت انتقال محمد المهدى ابن مؤسس السنوسية إلى الكفرة بأن هذا الانتقال « قد كشف عن نواياه الصحيحة أو بالأحرى عن الأهداف الزمنية أو الدنيوية السياسية التى صارت الطريقة تبغى تحقيقها وهى إنشاء ملك مستقل كامل السيادة يمتد عبر القارة الإفريقية من الحدود المصرية شرقاً إلى شواطئ الأطلنطى غرباً فيضم بين جوانبه الأقطار الليبية برقة وطرابلس والفزان ثم صحراء الجزائر ومنطقة تشاد ويسيطر على كل طرق التجارة من ساحل البحر الأبيض شمالا إلى السودان جنوباً » .

وتبين محمد المهدى السنوسى أن على دينار سلطان دارفور يشاركه

عداوة فرنسا التى كانت إذ ذلك تتسابق مع بريطانيا على اغتصاب الأراضى السودانية ، فاتفق الاثنان على العمل معاً ضد الخصم المشترك إلى ديسمبر عام ١٩٠١ عندما اتفقت الحكومتان الفرنسية والإيطالية على تحديد منطقتى النفوذ فى إفريقيا ، وهو الاتفاق الذى اختصت إيطاليا فيه بمنطقة برقة وطرابلس . وكانت إيطاليا قد سبق أن حصلت من بريطانيا عام ١٨٩٥ ومن فرنسا عام ١٨٩٩ على الحق فى إطلاق يدها فى منطقة شاطئ البحر الأبيض المتوسط القريبة من شواطئ إيطاليا . وفى ٣ من أكتوبر عام ١٩١١ أطلقت السفن الحربية الإيطالية بقيادة الأميرال فارافيللى مدافعها على قلعة العثمانية عند مدخل ميناء طرابلس وعلى قلعة حميدية عند أقصى شرقى طرابلس وعلى قلعة سلطانه فى غرب الميناء ، وقد ظل إطلاق قذائف المدافع مستمراً حتى ٥ من أكتوبر عندما نزلت القوات الإيطالية إلى هذه الأرض العربية وتم احتلالها بقيادة الجنرال كانيفا .

وفى ١٩ من أكتوبر أطلقت السفن الإيطالية بقيادة الأميرال أوبرى قنابلها على بنغازى وتم احتلالها بقيادة الجنرال بريكولا فى اليوم التالى كما تم احتلال درنة الخمس فى يومى ١٨ و ١٩ من أكتوبر . . . وكان الوعى فى الدول العربية الإسلامية قد سار شوطاً بعيداً نحو النضوج . . . وبلغ عدد المتطوعين فى بدء العام التالى لذلك الاعتداء الآثم ستة عشر ألفاً ، وسارعت مصر بتشكيل لجنة عليا فى ١٤ من أكتوبر عام ١٩١١ ، أى عقب الاعتداء ببضعة أيام ، لجمع التبرعات ، كما شكلت جمعية

الهلال الأحمر المصرية برئاسة المرحوم الشيخ على يوسف صاحب صحيفة « المؤيد » وأوفدت بعثتها الطبية الأولى في ٧ من نوفمبر عامئذ مزودة بمعدات مستشفيات الميدان ، وكان ذلك فى اليوم التالى لإعلان إيطاليا وضع طرابلس و برقة تحت سيادتها .

وذلك الوعى الإسلامى هو الذى حدا بأن تضم قائمة المتطوعين القادمين من مختلف الأقطار العربية الإسلامية أسماء لمعت فيما بعد عندما اتخذ هذا الوعى شكلا آخر ، وهو شكل « مذهب التحرر العربى » .

(د) مركز الانطلاق الثانى للتحرر الإسلامى المنظم

جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ – ١٨٩٧)

يرى بعض المؤرخين أن الحركة التى اتصلت بشخصية جمال الأفغانى تعد مركز الانطلاق الثانى للتحرر الإسلامى الحديث [١] باعتبار أن الوهابية بداية التحرر الإسلامى الحديث والسنوسية أول مرحلة للتحرر الإسلامى المنظم .

وقد أبرز المستشرقون كيف استكمل الكفاح فى سبيل التكتل بين كل الشعوب العربية الإسلامية مقوماته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بصور متعددة فى المغرب وفى الشرقين الأدنى والأوسط وعلى وجه أخص فى مصر مركز التجمع لكل خصوم الاستبداد التركى فى عهد

---

(١) ستودارد ، نفس المرجع ، ص ٦٢ .

عهد الحميد ووطن تجديد اللغة العربية ، فحركة الإصلاح انطلقت من مصر وإلى حد كبير من مصر وسوريا ، إذ أن هذه الحركة قد استفادت من مركز القاهرة الممتاز فى العالم العربى لنشر عدد من الكتب المثيرة المتميزة بطابع خاص على أوسع نطاق ، وأن رائدى هذا الإصلاح الإسلامى المصرى اللذين ذاع صيتهما هما السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده[١] . وقد اشترك الاثنان فى إصدار صحيفة « العروة الوثقى » بالعربية التى صدر العدد الأول منها فى ١٣ من مارس عام ١٨٨٤ ، وهى الصحيفة التى دعت إلى التحرر الإسلامى فمنعت الحكومة البريطانية دخولها إلى جميع الأقطار الإسلامية التى كانت خاضعة لنفوذها . ولم يطل عمر هذه الصحيفة لما لاقته من مقاومة استعمارية جبارة فلم تظهر بعد عددها الذى صدر بتاريخ ١٧ من أكتوبر عام ١٨٨٤ . ويقرر المستشرقون الأوربيون عنها أنها « كان لها شأن عظيم فى إذكاء الآراء الحرة المناهضة للإنجليز فى الأوساط الإسلامية ، بل يمكن أن تعد باكورة الحركات القومية فى الممتلكات الإسلامية التابعة لإنجلترا ، فقد أخذ ساعد هذه الحركات يشتد بفضلها شيئاً فشيئاً وظلت العروة الوثقى حافظة لشأنها إلى يومنا هذا .. وقد كان جمال الدين يثير الخواطر على الإنجليز علناً وفى غير مواربة . إلا أن قادة الساسة الإنجليز قبلوا بواسطة بلنت أن يدخلوا فى مفاوضات

---

(١) Henri Laoust, Le Réformisme musulman dans la littérature arabe contemporaine, Orient.
باريس ، العدد ١٠ ، ص ٨٣ – ٨٤ .

شخصية مع جمال الدين لإخماد حركة المهدى فى السودان ، ولكن هذه المفاوضات لم تنته إلى نتيجة عملية .

وقد لخص بعض المستشرقين أثر جمال الدين فى حركة التحرر الإسلامى بأنه « أثر كبير فى الحركات الحرة والحركات الدستورية التى قامت فى الدول الإسلامية إبان العقود الأخيرة من السنين السوالف ، وكان يرمى من تهييج الخواطر إلى تحرير هذه الدول من النفوذ الأوربى واستغلال الأوربيين ،والنهوض بها نهوضاً ذاتياً من الداخل متوسلا فى ذلك بإدخال النظم الحرة إليها . كما كان يهدف إلى جمع كلمة الدول الإسلامية بما فيها الشيعية تحت راية خلافة واحدة وإقامة إمبراطورية إسلامية قوية تستطيع الوقوف فى وجه التدخل الأوربى . كان جمال الدين بقلمه ولسانه من أكبر الدعاة إلى فكرة الجامعة الإسلامية ومن أشدهم إيماناً بها» (١) .

ورأى أحد المؤرخين العرب المحدثين أن الأفغانى كان ينادى بإقامة اتحاد إسلامى على نسق الاتحاد الألمانى « فيديرالى » وكان مدركاً لصعوبة تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة ولذلك كان ينشر فى كل بلد إسلامى الشعور بأنه جزء من جماعة أكبر ، وكان الأفغانى يدعو إلى هذا الاتحاد الإسلامى على أسس دستورية وإلى تحويل الملكيات الإسلامية إلى دول دستورية(٢) .

---

(١) Goldziher ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٧ ، ص ٩٥ .

(٢) صعب ، نفس المرجع ، ص ١٩٠ – ١٩٢ .

محمد عبده (١٨٩٤ — ١٩٠٥)

برنامج إصلاحي متسم بطابع التحرير الإسلامي

كان من أهم ما عني به المؤرخون لإبراز كفاح جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في سبيل التحرر الإسلامي الحديث المنظم هو مجهود جمعية العروة الوثقى وصحيفتها التي كانت تحمل اسمها ، ويتضمن برنامج هذه الجمعية :

١ — أن تكون خدمة للشرق في بيان واجباته التي كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه ، وتوضيح الطريق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

٢ — تبحث في أصول الأسباب والعلل التي قصرت بهم إلى جانب ذلك التفريط فوقعوا في هذه الحيرة الرابكة التي ضل بها الرشد وعميت فيها عليهم السبل فلا يدرون من أين تفجعهم الطوارئ المزعجة .

٣ — تكشف الغطاء عن الشبهة التي شغلت أوهام المترفين فضلوا مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللهم وشفاء أدوائهم .

٤ — تحاول إشراب الأفهام سهولة الأمر والنجاح في المقاصد إذا عقدت العزائم .

٥ — وتبين للناس أن هذا النجاح مقصود بالتمسك بالأصول التي كان عليها أسلافنا التي هي كفيلة في رد العزة والقوة وقد تمسك بها بعض الدول الأجنبية فقويت وعزت .

٦ — وتنبه على أن الروابط بين الدول يجب أن تكون على أساس التكافؤ بالقوى، وهذا التكافؤ هو الضامن لدوام العلاقات، وإذا فقد التكافؤ فإن الرابطة تكون وسيلة لابتلاع القوى الضعيف .

٧ — تخبر أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة بما يتهمهم به أعداؤهم وتدافع عنهم وتبين لهم ما يدور حولهم من الحوادث الجسام في السياسة .

٨ — تراعي تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها ونصر السياسات القديمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

ومما يدل على طابع الكفاح الدولي في سبيل الدعوة إلى التحرر الإسلامي أن محمد عبده غادر باريس إلى تونس حيث نشر الدعوة إلى « العروة الوثقى » . ولما انقضى بعض الوقت تميز برنامج محمد عبده المتسم بطابع التحرر الإسلامي بالتوفر على الناحية الإصلاحية والعناية باللغة العربية وإعادتها إلى نقاوتها الأولى (١) .

ولعل في تنقل محمد عبده في المنفى بين بيروت ثم تونس ثم بيروت مرة أخرى ، يلقي ضوءاً على ما كان قد بدأ يتجمع في أفق التفكير العربي

---

(١) لا أوست ، الإصلاح الإسلامي ، ص ٨٤ .

من عد هذه المنطقة كلها وطناً واحداً يتنقل فيه العربى ويتبادل الأفكار مع غيره ممن تربطه بهم رابطة اللغة والثقافة وينشر فيه آراءه كما فعل محمد عبده والأفغانى من قبله .

عبد الرحمن الكواكبى
(١٨٤٨ – ١٩٠٢)

العروبة السياسية

مفكر سورى من حلب من أقطاب مذهب التحرر الإسلامى وقد بدأ جهاده بإصدار جريدة « الشهباء » التى عطلتها الحكومة التركية فاستتر وراء آخر وأصدر صحيفة « الاعتدال » ولكن الحكومة التركية عطلتها هى الأخرى فاشتغل بالمحاماة فترة ثم هاجر إلى مصر حيث التقى بزعماء الدعوة إلى مذهب التحرر الإسلامى ومنهم رفيق العظم ورشيد رضا وعلى يوسف صاحب « المؤيد » الذى مكنه من نشر مجموعة المقالات التى أصبحت فيما بعد مادة كتابه « طبائع الاستبداد » .

ويبدو جهده الإيجابى فى سبيل دعوته الإصلاحية على صفحات كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » . وقد نشر الأول مقالات فى بعض الصحف عند ما كان بمصر ثم جمعها فى كتاب(١) . وقد ابتدع كتابه

---

(١) أحمد أمين ، « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ١٩٤٩ ص٢٥٢ .

« أم القرى » على لسان ممثلين للبلاد الإسلامية جميعها وجعلهم على هيئة مؤتمر تعرض فيه أحوال المسلمين وأسباب فتورهم وانهيار قواهم وجعل مكة ، أم القرى ، مركزاً لهذا المؤتمر الذى كان فيه المؤمن الشامى والقدسى والإسكندرى والمصرى واليمنى والبصرى والنجدى والمدنى والمكى والتونسى والفاسى والإنجليزى والرومى والكردى والتبريزى والتاتارى والقازانى والأفغانى والهندى والسندى والصينى .

وقد انتهى إلى أن تأخر المسلمين يعود إلى أسباب ثلاثة : دينية سياسية وأخلاقية ، وأن أصول الأسباب السياسية هى السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية وحصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط ، واعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء ، وتفويض خدمة الدين للجهلاء ، وقلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء ، وإبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار ، وفقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق ، ومراغمة الأمراء السراة الهداة والتنكيل بهم ، وفقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة ، وميل الأمراء للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين ، وأخيراً تخيل أن ذلك المؤتمر الإسلامى قد أصدر القرار التالى :

« حيث كانت الجمعية لا يعنيها غير النهضة الدينية رأت من الضرورى أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها وأهلها ومن يجاوبهم ، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هى خصائص الجزيرة وأهلها العرب عموماً ، وذلك لأجل رفع التعصب السياسى أو الجنسى . ولأجل إيضاح أسباب الجمعية للعرب

فنقول : الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي ، فيها الكعبة المعظمة ، وهي أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسية شرقاً وأقصى إفريقية غرباً ، وهي أسلم الأقاليم من الأخلاط ، جنسية وأدياناً ومذاهب ، وأبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب وأفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعي .

وعرب الجزيرة ، هم ومن يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى إفريقية ، مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم»(١) وقد ذهب مؤرخ عربي إلى أن الكواكبي وقف في منتصف الطريق

---

(١) ذهب بطرس بطرس غالي في دراسة عن « الكواكبي والجامعة الإسلامية » المجلة المصرية للقانون الدولي مجلد ١٣ ، ١٩٥٧ ، ص ٥ . إلى أن الكواكبي في مادة مؤقتة قد اقترح أن يكون المقر الرسمي للجمعية في سنتيها الأوليين في بورسعيد أو الكويت على أن ينقل فيما بعد إلى مكة ، وقد انتهى بطرس بطرس غالي « المرجع السابق » — ص ٢٨ إلى أن أفكار الكواكبي كانت بذرة طيبة أثمرت فيما بعد ومن ثمراتها المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في القاهرة في مارس سنة ١٩٢٦ لدراسة مشكلة الخلافة الإسلامية والمؤتمر الإسلامي الثاني الذي عقد في مكة في يونية ويولية سنة ١٩٢٦ لدراسة شئون الأرض الإسلامية المقدسة والمؤتمر الثالث الذي عقد في القدس فيما بين ٧ و ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ والمؤتمر الرابع الذي وضع أسسه الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود ورئيس وزراء الباكستان السيد محمد علي حين التقوا في مكة أثناء تأدية فريضة الحج في أغسطس سنة ١٩٥٤ وقد عين السيد أنور السادات سكرتيراً عاماً له .

بين مذهب التحرر الإسلامى أو الجامعة الإسلامية ومذهب التحرر العربى أو الوحدة العربية الكبرى وكان — طول حياته — مبشراً بالنظام الدستورى[١] ، وقرر آخر أنه بينما كان الأفغانى يدعو إلى توحيد كل العالم الإسلامى تحت خلافة ما دون تقيد بجنسية الخليفة فإن الكواكبى ميز بين العربى وغير العربى ؛ فبينما كان متمسكاً بوحدة الإسلام كان يدعو إلى إنكار حق سلطان تركيا فى الخلافة وإلى تولية عربى قرشى هذه الخلافة[٢] .

وسجل أحد المستشرقين أن الكواكبى يبدو لنا كأحد الرواد الأول للعروبة السياسية ، فالكواكبى ينتقد بعنف الخلافة العثمانية التى دافع عنها الأفغانى ولم يعترض عليها محمد عبده ، كما أنه فى دعوته إلى الإصلاح فى « أم القرى » كان يرى أن يكون بناء هذا الإصلاح من العرب وأبرز ما اقترحه الكواكبى من إنشاء هيئة دولية مقرها مكة لها فروع فى كل الدول الإسلامية للدفاع عن الإيمان ونشره ولتعليم اللغة العربية واللغات الدارجة فى البلاد العربية[٣] .

وإذا كان شراح القانون الدولى الأمريكيون يرون أن بين خصائص هذا القانون « إرادة إنشاء هيئة دولية على أسس قانونية وإقليمية ثابتة ،

---

(١) صعب ، نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .

(٢) جورج أنطونيوس The Arab Awakening لندن ، ١٩٤٠ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) لا أوست ، الإصلاح الإسلامى ، ص ٨٩ — ٩٠ .

وربما كانت هذه الإرادة أول خطوة تاريخية للقانون الدولى الأمريكى وللمذهب الوحدة الأمريكية الكبرى . . . فهذه الفكرة التى اندمجت — بفضل عصبة الأمم أمس والأمم المتحدة اليوم — فى وعى الإنسانية جمعاء أصلها أمريكى بحت (١) ، فلا شك أن الرد على ذلك أن الكواكبى — قبل إنشاء عصبة الأمم بأكثر من عشرين عاماً — قد دعا إلى إنشاء هذه الهيئة الدولية ، ونشر كتابه « أم القرى » قبل اجتماع المؤتمر الحادى عشر للدول الأمريكية فى المكسيك عام ١٩٠١ — ١٩٠٢ الذى أقر « البروتوكول » الذى استخدم تعبير « القانون الدولى الأمريكى » .

---

(١) M. Yepes, Introduction à l'Etude du Droit International Américain, Rev. Générale de Dr. Intern. Public. باريس ، أكتوبر — ديسمبر ١٩٥٢ ، ص ٢

٢ ــ مذهب التحرر العربى
الهيئات التى عملت خارج حكومات الدول
لتحقيق الاتحاد « الفيدرالى » بين البلاد العربية
طليعة العروبة السياسية
القاهرة مركز العروبة الرئيسى

لخص أحد المفكرين الفترة السابقة على بروز العروبة السياسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بأن جذور القومية العربية المتيقظة القوية تعود إلى العلاقات الثقافية وغنى اللغة العربية ، وذكرى القرون العديدة التى سادت فيها الثقافة العربية حوض البحر الأبيض المتوسط وكذلك الدين الإسلامى ، كل ذلك يكون تقليداً تاريخياً مستمراً ساهم على خلق وعى بين العرب يتجه إلى الوحدة السياسية وإلى الاستقلال (١) .

واستعرض مؤرخ عربى عصرى هذه الفترة فقرر : « هناك أسباب وجيهة لاعتبار عام ١٧٩٨ ــ وهو الذى غزا فيه نابليون مصر ــ نقطة انطلاق العصر الجديد وعلامته البارزة . وما كانت الحقبة التى سيطر فيها نابليون هى بذاتها السبب فى إيقاظ الوعى القومى من سباته العميق فى البلاد العربية ، كما هو شأنها فى أوربا ، ولكنها خلقت الجو لاصطناع

---

(١) محمد عبد العزيز The Origin and Birth of the Arab League المجلة المصرية للقانون الدولى ، ١٩٥٥ ، ص ٤٠ .

الحضارة الغربية مباشرة ، وركزته ، ومنذ ذلك الحين طفق ذلك الجو يلف العالم بأسره ، ويدور حوله ويسود أقطاره ، وكان امتداده بداية سلسلة من الأحداث والأفكار تكونت منها القومية العربية الحديثة .

كانت أولى نتائج غزوة نابليون ، وأهمها ، أن ألهبت العرب عامة وأيقظتهم على واقعهم ، والوعى القومى لا يستطيع أن يخصب ويثمر فى شكله الحديث وسط مجتمع راكد لايتطور . والنتيجة الثانية – وهى تلازم الأولى – انتشار الطباعة التى بعثت الروح فى حركة إحياء التراث العربى الثقافى القديم ، وبالتالى فى انتشار الوعى القومى . والنتيجة الثالثة ، انتشار الفكرة الأوربية فى القومية ، على مدى واسع فى دنيا العرب ، فأضيف الاستياء من تعديات الغرب ، إلى كراهية الحكم التركى ، والاعتزاز بتراث الماضى »[1] .

ويذهب بعض المؤرخين الأوربيين إلى أن « الأميريكيين لعبوا أكبر دور فى إحياء اللغة العربية كلغة أدب بعد أن أهملت ثلاثة قرون بسبب تفضيل اللغة التركية الرسمية عليها ، وأنهم أوحوا بأول الآمال الوطنية العربية ، وهى الآمال التى تزعم الترويج لها طلبتهم وبعض المدرسين الذين اختيروا من العرب للتدريس فى المعاهد الأمريكية ، وما بدأ كجمعيات ثقافية تطور ؛ فأصبح حركة تآمر هدفها التحرر المقدس من النير العثمانى» .

(١) حازم زكى نسيبه ، القومية العربية ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٤٨ – ٤٩ .

فى عام ١٨٤٧ أسست فى بيروت « جمعية الفنون والعلوم » ، وكان اليازجى والبستانى من أعضائها ، وكانت تضم غالبية من الأمريكيين .

وفى عام ١٨٥٠ أسس رجال الدين الفرنسيون « الجمعية الشرقية » . ضمت بعض السوريين المسيحيين وعدداً من الأجانب .

وفى عام ١٨٥٧ أسست « الجمعية العلمية السورية » وكان تأسيسها نقطة تحول هامة فى الوعى العربى على وجهه الصحيح ،لأنها ضمت أعضاء من المسلمين والدروز والمسيحيين العرب ، كان من بينهم إبراهيم اليازجى ومحمد أرسلان الدرزى .

وفى عام ١٨٨٠ أسست جمعية سرية ضمت أعضاء من المسلمين كانوا قد تلقوا تعليمهم فى « الكلية السورية البروتستانتية » وقد علقت هذه الجمعية فى مدن سورية عدة بيانات من النوع الذى يلصق على الجدران طالبت فيها بلهجة عنيفة باستخدام اللغة العربية كلغة رسمية ورفع الرقابة عن الصحافة وإعطاء سورية — بالاتحاد مع لبنان — الحكم الذاتى . وحوالى عام ١٨٨٣ عندما ضجر المتآمرون الشبان أعضاء هذه الجمعية من مطاردة البوليس السرى التركى لهم ، وإغلاقه مقر الجمعية وإتلافه لمحاضرها ، تبين عديدون من أنشط أعضائها أن من الحكمة أن يهاجروا إلى مصر ، وقد قرر أحد المؤرخين العرب — وهو الذى سجل هذا التطور العربى — أن هذه الهجرة والدعوة التى وجهها هؤلاء المهاجرون

المثقفون إلى العاطفة العربية الوطنية قد أحدثت تأثيراً واسع المدى[١] .

وخلال الخمسة والعشرين عاماً التالية كان نشاط حركة التحرر العربى يوجه على الأخص من الوطنيين الذين هاجروا إلى القاهرة وباريس ، أما فى سورية فإن اضطهاد السلطان عبد الحميد للأفكار الحرة قد أسكت إلى حد كبير الأصوات التى كانت قد ارتفعت مطالبة بالتحرر .

وقد سجل مؤرخ عربى من المؤرخين المحدثين هذه الفترة فقرر « أن المثقفين السوريين واللبنانيين قد التجأوا إلى وادى النيل الكريم ، حاملين فى مفكراتهم الصغيرة وفى قلوبهم ، الفكرة الكبرى ، فكرة إحياء النهضة العربية ، وقد قمعت هذه الحركة فى سورية فانتقلت وظهرت فى القاهرة على صفحات الصحف والكتب كما ظهرت فى شبه الجزيرة العربية على شكل حركات التمرد والثورة التى شهدها القرن العشرون[٢] .

ولما ظهر التدخل الأجنبى فى شئون مصر وأحس المصريون بأن سيادتهم قد مست تقدم بعضهم لزعامة الرأى العام وألف محمد سلطان وأحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وسليمان أباظة وحسن الشريعى حزباً

---

(١) Georges Antonius : The Awakening of Modern Egypt. لندن ، ١٩٤٧ ، ص ٧٩

(٢) K.T. Khairallah : Le Problème de Levant : Les Régions Arabes Libérées : Syrie, Irak, Liban, (Paris, 1919), p. 22.

أسموه « الحزب الوطنى » وأصدروا منشوراً فى ٤ من نوفمبر عام ١٨٧٩ تضمن برنامج ذلك الحزب أشار معظمه إلى كارثة الديون التى مكنت الأجانب من الاعتداء على سيادة مصر . وقد تطور برنامج هذا الحزب عندما تبين أعضاؤه أن الأيدى الأجنبية تعمل على أن تحكم مصر حكماً استبدادياً فأعلن على العالم برنامجه الشامل الذى تضمن :

١ — المحافظة على استقلال مصر ومقاومة من يحاول إخضاعها ويجعلها ولاية عثمانية .

٢ — الولاء للخديوى وتأييد سلطته ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون والإلحاح عليه بتنفيذ ما وعد به من إعطاء الشعب حكماً نيابياً ، وإطلاق الحرية للمصريين .

٣ — إخضاع الأجانب لما يخضع له المصريون من قوانين البلاد ومساواتهم بالمصريين فى اقتضاء الضرائب منهم .

٤ — زيادة عدد الجيش للدفاع عن سيادة مصر إلى أن تبدأ الحياة النيابية باعتبار الجيش حارساً للشعب الذى لا سلاح له .

٥ — جميع المصريين سواء فى الحقوق مهما اختلفت عقائدهم الدينية .

٦ — إصلاح البلاد مادياً وأدبياً ونشر التعليم وتوفير الحرية السياسية لكافة المصريين وهى الحرية التى يعتبرها الحزب حياة للأمة[1] .

---

(١) ص٥٥٦ Blunt, Secret History of the British Occupation
وقد نشر البرنامج بعدد جريدة « التيمس » التى صدرت فى أوائل يناير عام ١٨٨٢ .

وفى عام ١٨٩٥ بدأ مصطفى كامل دعوته لتأسيس الحزب الوطنى وإلى تحرير مصر من الاحتلال البريطانى وكان أول الزعماء العرب اهتماماً بإثارة المفكرين الأحرار فى الأوساط الدولية المهتمة بالشرق العربى ضد الاستعمار الأجنبى ، فبين عامى ١٨٩٥ — ١٩٠٦ تنقل بين فينا وباريس وبودابست وبرلين واستطاع أن ينشر دعوته الوطنية فى صحف هذه البلاد ، وأن ينقل هذه الدعوة إلى الصحف الأمريكية ، وأن يتصل بالنواب الألمان والبلجيكيين والفرنسيين ، وأن ينشر بالفرنسية بيانات واضحة عن عدالة القضية المصرية ، وأن يدفع عدداً من أكثر الكتاب والكاتبات الأوربيين شهرة إلى تسخير أقلامهم لنصرة دعوته الوطنية ، وقد ختم هذا الجهاد العربى الوطنى الشاق بإصدار صحيفة مسائية يومية باللغة الفرنسية l'Etendard Egyptien صدرت فى ٣ من مارس عام ١٩٠٧ وأخرى صباحية باللغة الإنجليزية The Egyptian Standard

وفى عام ١٨٩٥ أسست الهيئة الرسمية التى ضمت المنفيين العرب فى باريس باسم « رابطة الوطن العربى » .

وفى ديسمبر عام ١٩٠٤ وجهت نداء إلى العرب القاطنين فى أراضى الدولة العثمانية تستحثهم فيه على المطالبة بالتحرر من نير تلك الدولة ، وفى عام ١٩٠٥ وجهت هذا النداء إلى الضمير الإنسانى فى أوربا وأمريكا أبانت فيه مطالب العرب . وقد صار هذا النداء فيما بعد أساساً للمناهج الأخرى فيما تأسس من الجمعيات(١) .

(١) محمد بديع شريف — نفس المرجع — ص ١٩٦ .

وفى نفس العام تكررت حوادث التمرد المسلح فى الحجاز واليمن ، ورغم كل محاولات الحكومة التركية لم تستطع أن تخمد هذا التمرد بل إنه انتشر عاماً بعد عام مستنفداً من تركيا الكثير من القوات المسلحة والمال ومتسبباً فى كوارث تركيا بطرابلس (ليبيا)[١] .

وفى سبتمبر عام ١٩٠٨ أسس العرب المقيمون فى الآستانة جمعية أسموها « جمعية الإخاء العربى العثمانى » كل هدفها توحيد كلمة العرب التابعين للدولة العثمانية مع المحافظة على ولائهم للسلطان وحماية الدستور التركى الذى كان قد صدر مشبعاً بالمبادئ الحرة ، والعمل على ترقية الولايات العربية داخل الدولة العثمانية ، وقد أصدرت هذه الجمعية صحيفة تروج لمبادئها .

وكان أعضاء « جمعية الإخاء العربى العثمانى » يعتمدون على التعاون مع أعضاء « جمعية الاتحاد والترقى » التركية التى كانت تهدف إلى التخلص من طغيان حكومة السلطان عبد الحميد ، ولكن العرب تبينوا أن أعضاء الجمعية التركية مصممون على أن يكفلوا للعنصر التركى أغلبية فى الانتخابات البرلمانية رغم تفوق العرب على الترك فى العدد ، وقد نجح فى تلك الانتخابات فعلا مائة وخمسون نائباً تركياً ولم ينجح إلا ستون نائباً عربياً فى مجلس النواب ، أما مجلس الشيوخ فلم يعين السلطان فيه إلا ثلاثة من الشيوخ العرب ، وقد تطور الأمر بعد ذلك فحاول السلطان

---

(١) ستودارد ، نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

البطش بجمعية الاتحاد والترقى وحرض حامية الآستانة على مهاجمة دار « المبعوثان » وقتل وزير العدل ونائب عربى هو الأمير محمد أرسلان ، فلما سمع محمد شوكت باشا بذلك وهو عربى يتمتع برتبة عالية فى الجيش الذى كان مرابطاً فى سالونيك هاجم الآستانة واقتحمها وأعلن خلع السلطان عبد الحميد وتولية أخيه السلطان محمد رشاد فى آخر أبريل عام ١٩٠٩ .

وفى نفس العام ، ١٩٠٩ ، بعد أن تبين الضباط العرب فى الجيش التركى استحالة التعاون مع زملائهم الأتراك أعضاء جمعية الاتحاد والترقى أسس العرب « المنتدى الأدبى » وقد اشترك فى تأسيسه عدد من النواب والكتاب والطلبة العرب وألحقت به مكتبة ضمت عدداً كبيراً من الكتب العربية ، ودار للضيافة وقاعة للمحاضرات ، وقد ساهم هذا المنتدى فى إذكاء الوعى العربى واجتذب عدداً كبيراً من الأعضاء ونجحت فكرته فأنشأ له فروعاً عديدة كانت ملتقى الوافدين العرب من أنحاء الدولة العثمانية ، وقد تبينت هذه الدولة خطورته على كيانها فى الحرب العالمية الأولى .

وفى عام ١٩١٢ أسس فى القاهرة حزب « اللامركزية الإدارية العثمانى » وقد أسست له فروع فى سورية والعراق « وكان يهدف إلى إقناع الدولة العلية بضرورة حكم اللامركزية وتوجيه الرأى العربى إلى المطالبة بذلك وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئاً ووقف وجهاً لوجه أمام الاتحاديين ، وقد جاء فى المادة الثالثة من منهاجه : « ليس هذا الحزب خفياً وليس

فيه ما يعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبنى على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقيناً أن الدولة لا تبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية»» [1] .

وفى عام ١٩١٣ أسست فى بيروت « الجمعية الإصلاحية » ولم تمانع السلطات التركية فى عقد جلسات هذه الجمعية بدار المجلس البلدى وقد تضمن برنامجها « أن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس الأعيان » .

وأسست فى البصرة جمعية إصلاحية أخرى تتفق فى برنامجها مع باقى الجمعيات العربية .

وقد ثارت الحكومة التركية ، حكومة الاتحاد والترقى ، بسبب هذا الوعى العربى الذى انتشر فى كافة أنحاء الدولة العثمانية وأسرعت هذه الحكومة إلى البطش بهذه الجمعيات العربية ، فانتقل النشاط العربى العلنى إلى ميدان آخر هو ميدان النشاط السرى .

وأولى الجمعيات العربية السرية التى أسست هى « الجمعية القحطانية » وقد حلت بعد عام واحد من تأسيسها ؛ إذ خشى مؤسسوها أن يكون الواشون قد وشوا بها لدى السلطات التركية ، وقد وصف المؤرخون العرب المحدثون هذه الجمعية بأنها تمتاز بجرأة مؤسسيها وإقدامهم ووضوح منهاجهم بأن

---

(١) محمد بديع شريف ، ص ٢٠٠ .

تكون الدولة العلية ذات تاج مزدوج ، أى أن السلطان يضع على رأسه فى الآستانة تاج المملكة العربية إضافة إلى تاجه التركى ، وتتكون الدولة العربية من جميع المقاطعات العربية ولها مجلس نيابى خاص وإدارة محلية على غرار إمبراطورية النمسا والمجر ، ولقد أدرك رجال هذه الجمعية أن الدعوة علناً إلى تحقيق هذا المنهج أمر مستحيل ، لأن ذلك مما ترتعد له فرائص غلاة الترك ، فاتخذت السرية لها سبيلا ، ووضعت لأعضائها كلمة سر يتفاهمون بها كما أنها كانت تختار الأعضاء بدقة وحذر وكان زعيم هذه الجماعة الضابط المعروف عزيز على المصرى وكانت تسعى لكسب ضباط العرب فى الجيش التركى [١] .

ولما أوقفت « الجمعية القحطانية » نشاطها أسس عزيز على المصرى عام ١٩١٤ جمعية أخرى لها نفس الهدف أسماها « جمعية العهد » وكانت غالبية أعضائها من العرب العراقيين نظراً لكثرة عددهم فى الجيش التركى ، ولذلك أُسس لها فرعان : أحدهما فى بغداد والآخر فى الموصل وكانت جهود « الجمعية القحطانية » و « جمعية العهد » فى سبيل مذهب التحرر العربى ذات أثر إيجابى فعال أثمر ثمرته عندما توحدت جهود أعضائهما فى دمشق عام ١٩١٥ مع جهود أعضاء « الجمعية العربية الفتاة » .

وقد أسست « الجمعية العربية الفتاة » فى باريس عام ١٩١٢ من سبعة طلاب عرب كان من بينهم جميل مردم رئيس الوزارة السورية فيما بعد ،

---

(١) محمد بديع شريف ، ص ٢٠٢ .

وعونى عبد الهادى رئيس الوزارة الأردنية الهاشمية فيما بعد ومحمد رستم حيدر (لبنانى) ووزير مالية العراق فيما بعد،ومحمد المحمصانى (لبنانى) وأحمد قدرى (سورى) وتوفيق الناطور (لبنانى) ورفيق التميمى (فلسطينى) وكان هدف هذه الجمعية تحرير العرب من الحكم التركى أو من أى حكم أجنبى ، وقد استفاد أعضاء هذه الجمعية من التجارب التى مرت بها الجمعيات العربية السابقة ، ولذلك عنى أعضاؤها بالتزام السرية المطلقة فى أعمالها وبالحرص على ألا يضموا إليهم أحداً إلا بعد امتحان إيمانه بمبادئ الجمعية امتحاناً دقيقاً .

وعقدت الجمعية عام ١٩١٣ فى باريس مؤتمراً استمر ستة أيام من ١٨ إلى ٢٤ من يونيو حضره أربعة وعشرون مندوباً يمثلون البلاد العربية منهم أحد عشر مسيحيًّا ، وكان من بين ممثلى العراق توفيق السويدى الذى أصبح رئيساً للوزارة العراقية فيما بعد . وقد أبدى المؤتمر رغبته فى أن تظل البلاد العربية فى نطاق الدولة العثمانية بشرط أن تنال البلاد العربية حقها فى الحكم الذاتى ، وشدد المؤتمرون على أهمية منع الدول الأوربية من التدخل فى هذه المسألة ، وعلى أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وعلى إنشاء إدارة لامركزية فى كل ولاية عربية ، وعلى عد هذه القرارات برنامجاً سياسيًّا للعرب .

وفى نفس العام نقل مركز الجمعية إلى سورية ووصل عدد أعضائها إلى ألفين من بينهم شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية فيما بعد وتوفيق البساط (أعدم) والملك فيصل الأول الذى انضم إلى الجمعية عام

١٩١٧ ويس الهاشمى (عراقى) ثم انضم إليها عام ١٩١٨ رضا الركابى وإبراهيم هنانو (سوريان) ورياض الصلح ورضا الصلح (لبنانيان).

وأسست فى العراق جمعية وطنية اتخذت بغداد مقراً لها، كان هدفها طرد الأتراك وإنشاء حكومة مستقلة، وقد ضمت هذه الجمعية أكثر من مائة من ضباط الجيش وعدداً كبيراً من الأعيان العراقيين كان من بينهم حمدى الباجهجى رئيس الوزارة العراقية فيما بعد.

وفى مارس عام ١٩١٣ عقد العرب فى العراق الأسفل وفى الأراضى المجاورة له مؤتمراً فى المحمرة لتنظيم العمل على استقلال العراق والأراضى العربية الخاضعة للحكم التركى.

وفى نوفمبر من ذلك العام اتصل زعماء هذه الحركة العربية العراقية بالأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن السعودى الذى كان قد بسط سيادته على نجد فأبدى عطفه على هذه الحركة وتأييده لها، ولكنه أوضح خشيته من خصمه التقليدى الذى كان موالياً للحكومة التركية أمير جبل شمر.

وقد تبينت الحكومة التركية خطورة هذا الوعى العربى فحاولت أن تفت فى عضد زعمائه من السوريين والعراقيين بإغرائهم بقبول وظائف سياسية هامة، وبرغم ضعف بعض أولئك الزعماء أمام ذلك الإغراء، فإن الأمناء على الحركة العربية ظلوا يتابعون جهودهم الموفقة، وكان أعضاء «جمعية العهد» قد زاد عددهم حتى قيل إن هذا العدد قد وصل إلى أربعة آلاف. وكانت هذه الجمعية بالنسبة للضباط العرب

ما أصبحت عليه « الجمعية العربية الفتاة » — وقد اندمجا فيما بعد — بالنسبة للمدنيين من الطبقة المثقفة ، ولو أن أعضاء الجمعيتين لم يكونوا قد اتصلوا بعضهم ببعض إلا بعد ذلك عندما تم الاندماج فى مستهل عام ١٩١٥ .

وفى يناير عام ١٩١٤ قبضت الحكومة التركية على عزيز على المصرى فى الآستانة واتهمته بأنه حاول إنشاء دولة عربية فى شمالى إفريقيا وبأن الإيطاليين رشوه أثناء الحرب الطرابلسية عام ١٩١١ وحكم عليه بالإعدام ، ولكنه أفرج عنه .

ومنذ فبراير عام ١٩١٤ كان كتشنر وسكرتيره الشرقى رونالد ستورز قد تبادلا مراسلات مع الشريف حسين حاكم مكة الذى كان قد بدأ سخطه على نظام المركزية فى الحكومة العثمانية وعلى تبعيته للوالى التركى الذى كانت تعينه حكومة الآستانة .

وكان المفاوضون البريطانيون حذرين أثناء المفاوضات طالما كانت تركيا متخذة موقف الحياد ، إلا أنهم فى أكتوبر عام ١٩١٤ أقروا فكرة تحرير العرب كما أقروا فكرة « الأمة العربية » فى مقابل مساعدة العرب لهم ضد تركيا ، وفى نفس الوقت اتصل ستورز وجلبرت — كليتون — من المخابرات البريطانية — بعزيز المصرى وبآخرين لدراسة احتمالات القيام بثورة عربية ، ولكن هؤلاء الوطنيين صمموا كشرط أول رئيسى على الحصول على ضمانات بشأن استقلال الأقطار العربية وهو أمر لم يكن المفاوضون البريطانيون يملكون سلطة البت فيه .

وفى يناير حمل عضو من أسرة البكرى فى دمشق كانت قد كلفته السلطات الرسمية التركية بمهمة فى مكة، رسالة من «الجمعية العربية الفتاة» إلى الشريف حسين تطلب منه التعاون معها فى القيام بثورة عربية. وبناء على ذلك أرسل الشريف ابنه فيصلا إلى الآستانة متظاهراً بمهمة رسمية ، ولكنه كان فى الحقيقة موفداً لدراسة مدى استعداد السلطات التركية والوطنيين السوريين، وقد زار فيصل أثناء رحلته أسرة البكرى فى دمشق وقابل أعضاء من جمعيتى « العربية الفتاة » و « العهد » وصارحهم بمحادثات أبيه مع البريطانيين وعند عودته إلى دمشق فى مايو من ذلك العام تبين أن تينك الجمعيتين السريتين قد أعدتا ميثاقاً مشتركاً يشترط للقيام بثورة عربية ضد الحكومة التركية أن تعترف بريطانيا باستقلال الدولة العربية التى تضم شبه الجزيرة — ماعدا عدن — كما تضم فلسطين وسورية والعراق ، وفى يوليو — بعد أن أعلنت بريطانيا عزمها على الاعتراف باستقلال الدولة العربية فى شبه الجزيرة — أرسل الشريف حسين إلى سير هنرى ماكماهون — المندوب السامى البريطانى فى مصر — مذكرة كرر فيها ماتضمنه ميثاق دمشق الذى حمله معه الأمير فيصل، وكان المكتب العربى الذى أنشأه البريطانيون فى القاهرة حتى ذلك الوقت لا يكاد يعلم شيئاً عن وجود تينك الجمعيتين العربيتين السريتين اللتين أعدتا ذلك الميثاق ، ولذلك خيل إلى البريطانيين أن طلبات الشريف حسين الخاصة بإنشاء دولة عربية كبرى كانت من وحى أطماعه الشخصية بينما الحقيقة أن تلك الطلبات إنما كانت تمثل وجهات نظر الحركة الوطنية العربية ،

باستثناء الوطنيين السوريين الذين لم يكونوا مجمعين على عد حسين ملكاً للعالم العربي.

وفي نفس الوقت اشتدت سياسة جمال باشا الحاكم التركي والقائد العام في ظل الحكم العرفي بسورية ضد العرب بعد خيبة الهجوم التركي الألماني الأول على قناة السويس في فبراير عام ١٩١٥ ، وكان قد استطاع أن يعثر على وثائق قنصلية فرنسية استدل منها على تآمر شخصيات سورية وفلسطينية عديدة على حكومته التركية وهي الوثائق التي لم يستطع « بيكو » القنصل الفرنسي العام أن يتلفها بل تركها في عهدة القنصل الأمريكي فوقعت في أيدي الأتراك ، وقد أجرى جمال باشا خلال عام ١٩١٥ ومستهل عام ١٩١٦ عدة محاكمات ضد أربعة وثلاثين من الوطنيين العرب مسيحين ومسلمين قضى عليهم بالإعدام .

وشهد الشرق العربي عقب الحرب العالمية الأولى يقظة عامة تبين زعماؤها أن العبارات الشاعرية التي رددها الحلفاء أثناء الحرب تمخضت عن روح استعمارية آثمة لاتتفق إطلاقاً مع ما استقر عليه الوعي العربي من عزم على التحرر والتكتل، ولقد حاول أحد كبار المؤرخين البريطانيين ، بعد أن اعترف بأن الوطنيين في الشرق العربي قد استطاعوا عقب عام ١٩١٨ أن ينالوا امتيازات عظيمة بواسطة الضغط والعنف أكثر مما كان يحتمل أن ينالوه بواسطة المناقشات التي تستند إلى العقل والحكمة—حاول أن يقرر أن الرأي العام البريطاني كان قد ظهرت عليه أعراض تقر مطالب أولئك الوطنيين ثم انتهى إلى أن أولئك الوطنيين يعزون نجاحهم

إلى استعمال العنف وحده وأن ذلك النجاح شجعهم على المضى فيه(١).

ولقد أجمع المؤرخون الأجانب الذين توفروا على دراسة هذه الفترة من تاريخ الشرق العربى على أن حركة السخط العربى فى النصف الأول من القرن العشرين نظمت فى بادئ الأمر بالقاهرة حيث كان يتجمع عدد من السوريين ،وفى القاهرة نظم نجيب عزورى هيئة سرية تستهدف نفس الغرض: الذى ترمى إليه حركة التحرير الإيطالية المعروفة باسم « كاربونارى » وانتشرت هذه الحركة من القاهرة إلى باقى الأقطار العربية(٢) ، وأصبحت القاهرة — ملجأ الوطنيين العرب ومقر الأزهر — تسمى « مركز العروبة الرئيسى فى العالم الإسلامى»(٣) .

وهذه الهيئات العربية« الدولية » — فى نطاق الأقطار العربية المختلفة — إذا استخدمنا تعبير العلامة «سيل» تتكون دائماً من مواطنى بلاد مختلفة وتسمى «هيئات خارج نطاق هذه الدول Extra-étatique لأنها لتحقيق أغراضها لا تلجأ إلى الحكومات التى تنتمى إليها. والواقع أن التضامن بين

---

(١) A.J. Toynbee:The Islamic World since the Peace Conference

(٢) Kohn, A History of Nationalism, in the East

نيويورك ، ١٩٢٩ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٥

(٣) L. Massignon, Elements Arabes et Foyers d'Arabisation, leur rôle dans le monde Musulman actuel, Revue du Monde Musluman. باريس ، ١٩٢٩ .

المتمين إلى هذه الهيئات يتجه إلى التحرر من ضغط هذه الحكومات ونبذ تدخلها ، ومن خصائص هذه الهيئات العربية التى كانت تدعو إلى التحرر العربى والوحدة العربية أن أعضاءها كانوا يتحررون من صلة التبعية للدولة العثمانية ؛ وهذا الطراز من الهيئات لا تديره الدول التى ينتمى إليها أعضاؤه بحكم « الجنسية» النظرية ، كما أن من خصائص هذه الهيئات أنها تصنع لنفسها النظم الخاصة بها والهيئات التى تحكمها وتوجهها [١] ، وقد ضرب « سيل » على ذلك مثلا — من الوجهة النظرية — بعض الهيئات الدينية الدولية وباتحادات العمال الدولية (أنترناسيونال) وعاد فشرح هذه الهيئات « الدولية » المكونة من أفراد ينتمون أصلا إلى « جماعات دولية » Société étatiques. وأشار إلى خصائصها المميزة وأولها التضامن الذى يربط بينها فهو تضامن قائم على التوافق والتشابه ، وهذا التضامن قد تتعدد صوره وأشكاله ، فقد يكون روحياً أو علمياً أو وطنياً أو إنسانياً ، وثانى هذه الخصائص المميزة أن أعضاء هذه الهيئات يتجاهلون صلتهم بالدول التى يتبعونها أصلا وبالجنسية التى ينتمون إليها وهى « الجنسية » التى لا تكترث بالغايات التى يرمون إليها . ولذلك فإن هذه الهيئات تدار بالتعاون مع الحكومات أو ممثلى الدول التى ينتمى إليها أعضاؤها وإنما تديرها هيئات تجد أصلها ورئاستها فى الجماعة التى خارج نطاق الدولة .

---

(١) Georges Scelle, Précis de Droit des Gens. باريس ، ١٩٣٢ ، ص ٥٨ .

وهذه الجماعة تتولى تنظيم نفسها بنفسها وتستكمل استقلالها ذاتياً لأن قانونها والأوضاع الاجتماعية التى تخلقها مستقلة عن النظم القانونية الدولية » فقانون الجماعة التى تعمل خارج الدولة ينشأ فى نطاق أهملته الدولة أو حقل نشاط فرض عليها قسراً[١] ».

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

الفصل الرابع

العلاقات الدولية والمعاهدات المتسمة بطابع العروبة

لم تتورع الدول الاستعمارية الأوربية فى أثناء الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها عن تمزيق الأقطار العربية الآسيوية واقتسامها طبقاً للاتفاق السرى المعروف باسم اتفاق « سايكس – بيكو » فى مارس ١٩١٥ وطبقاً لمعاهدة لوزان التى فرضت الانتداب على لبنان وسوريا والأردن والعراق وفلسطين فى ٢٤ من يوليو عام ١٩٢٣.

ولا يتسع المقام هنا للإسهاب فى شرح تطور فكرة العروبة فى تلك الفترة ولكنا نقتصر على أن نشير إلى أن الأقطار العربية التى كانت خاضعة للسيادة التركية بدأت تسترد سيادتها مقيدة فى بادئ الأمر ثم تجمعت هذه الأقطار العربية وأنشأت بينها علاقات دولية متسمة بطابع العروبة وأخذت تنتزع استقلالها تدريجياً بعد أن نضجت فكرة العروبة واستقرت.

فى ٣٠ من أبريل عام ١٩٢٥ عقدت إمارة العسير معاهدة مع بريطانيا اعترفت فيها للأمير الإدريسى بشبه استقلال لهذه الإمارة العربية.

وفى ٢٦ من ديسمبر عام ١٩١٥ عقدت إمارة نجد معاهدة العقير مع بريطانيا اعترفت فيها للأمير عبد العزيز بن سعود بسيادة مقيدة لهذه الإمارة.

واندلعت ثورة مصر في عام ١٩١٩ ، وهى الثورة التى وصفها أحد الكتاب الإيطاليين بأنها للمرة الأولى في التاريخ خفقت الأعلام التى تحمل الهلال والصليب متحدين . . . واليوم . . . كما حدث تماماً فى الهند عند المسلمين والهندوس اختفى كل أثر للخلاف الدينى ، انطوى كل المصريين تحت علم واحد ، وقد قررت كاتبة فرنسية قضت حياتها كلها فى مصر « رأينا فى بلد طالما فرقت الخلافات الدينية والسياسية بين عناصره ومزقتها ، هذا الأمر العجيب : القسس الأقباط يعظون فى المساجد والعلماء المسلمون يخطبون فى الكنائس ، طلبة سوريون مارونيون ومسلمون وطلبة ينتمون إلى جميع المذاهب ونساء مصريات من أصل تركى أو مصريات صميمات يتحدون جميعاً فى الاشتعال بحمى الرغبة القوية ، الرغبة فى إشراق فجر الاستقلال على الأرض القديمة » (١) .

وفى ٢ من نوفمبر ١٩٢١ ضم عبد العزيز إمارة حايل إلى نجد واعترفت بريطانيا به سلطاناً على هذه الدولة العربية .

وفى ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ أعلنت بريطانيا تصريحها بإنهاء الحماية على مصر وباستقلالها استقلالا مقيداً بالتحفظات الأربعة المعروفة .

وفى ٢٥ من مايو ١٩٢٣ أعلن استقلال شرق الأردن استقلالا مشوباً بقيود عديدة فرضتها بريطانيا .

---

(١) ستودارد ، نفس المرجع ، ص ٩٢ – ٩٣ ، وقد استند على Civimani فى Corriera della Sera ، ٣٠ ديسمبر ١٩١٩ ومدام Jehan D'Ivray Revue de Paris ١٥ سبتمبر ١٩٢٠ .

وفى ١٠ من أكتوبر ١٩٢٢ عقدت معاهدة تحالف بين العراق وبريطانيا اعترف فيها باستقلال مقيد للعراق وتعهد بمساعدته على الانضمام إلى عصبة الأمم .

وفى ٥ من يونيو ١٩٢٥ وقعت معاهدة بين الحجاز — التى كان يمثلها الملك على بن الحسين — والأردن التى كان يمثلها أخوه الأمير عبد الله بشأن ضم العقبة ومعان إلى الأردن ، وقد تضمنت هذه المعاهدة إشارة عامة إلى إنقاذ الشرق العربى ؛ فكانت أول معاهدة اتسمت بطابع العروبة ، وقد تبينت الدول العربية من جانبها ما يجمع بينها من روابط ، وما يدعو إلى التفاهم من أسباب ؛ فاتسمت الاتفاقات التى عقدت بينها بطابع الأخوة وفى هذا النطاق أصبحت هذه الدول تدريجيا حرة ومتجة فى ارتباطاتها السياسية بعيدة المدى (١) .

وفى أكتوبر ١٩٢٥ نشبت ثورة جبل الدروز ضد سلطات الانتداب الفرنسية .

وفى ٨ من يناير ١٩٢٦ نودى بعبد العزيز بن سعود ملكاً للحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها .

وفى أبريل ١٩٢٦ انتشرت الثورة فى جميع أنحاء سوريا .

وفى ٢٣ من مايو ١٩٢٦ أعلن دستور الجمهورية اللبنانية ونص فيه

---

(١) ألبيرنصيف Traités et Accords de Fraternité entre les Pays Arabes المجلة المصرية للقانون الدولى ، ١٩٤٩ ، ص ٤٩ .

على أن العربية هى لغتها الرسمية ولكن ظلت سلطات الانتداب الفرنسية قائمة .

وفى ٢١ من أكتوبر ١٩٢٦ وقعت بين الحجاز – نجد، يمثلهما عبد العزيز بن سعود وإمارة العسير يمثلها حسن بن الإدريسى المعاهدة العربية الثانية التى اتسمت بطابع العروبة فقد أشير فيها إلى وحدة البلاد العربية والدفاع عن كيانها وإلى تقوية العلاقات بين إمارات شبه الجزيرة العربية .

وفى ١٤ من مايو ١٩٣٠ أعلن الدستور السورى الذى نص على استقلال سوريا وعلى أن العربية هى لغتها الرسمية ولكن ظل الانتداب الفرنسى قائماً .

وفى ٣٠ من يونيو ١٩٣٠ عقدت معاهدة بين بريطانيا والعراق اعترف فيها بسيادة مقيدة للعراق.

وفى ٧ من أبريل ١٩٣١ عقدت المعاهدة الثالثة المتسمة بنفس الطابع بين الحجاز – نجد والعراق ونص فيها على أنها مبنية على رغبة عاهلى الدولتين فى بذل كل جهدهما فى توحيد الأمة العربية والتوفيق بين شعوبها .

وكان قد اجتمع فى ٣ من أغسطس ١٩٣١ بنابلس مؤتمر عربى لمكافحة تسليح اليهود فى فلسطين .

وفى ١٣ من ديسمبر عام ١٩٣١ اجتمع المؤتمر العربى القومى فى القدس وضم ممثلين لمختلف الجمعيات والأقطار العربية وأصدر الميثاق الآتى :

١ – إن البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا نقره ولا نعترف به .

٢ – توجه الجهود فى كل قطر من الأقطار العربية . . . وجهة واحدة هى استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمى إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية (١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المؤتمرات العربية السابقة التى عقدت من أجل فلسطين كان مقرها القاهرة ومكة حيث اشترك فيها مندوبون عن الدول العربية والإسلامية .

وقد عقب أحد المؤرخين الأوربيين على هذه القرارات بأن الشعور بالوحدة العرقية بين أجزاء العالم العربى قد اتجه إلى النمو كما تمثل فى الميثاق الذى أعده المندوبون العرب فى هذا المؤتمر ، إذ أعلن فيه أن الأراضى العربية كل لا يتجزأ وأن استقلال هذه الأراضى ووحدتها هو الهدف الذى توجه إليه كل جهود العرب وأن التضامن العربى قد برز بشكل أوضح فى الاهتمام الإيجابى وجهود الوساطة التى بذلت (٢) .

وفى ٢٠ من مايو ١٩٣٤ وقعت المعاهدة الرابعة من نفس الطراز

---

(١) محمد عزة دروزة ، « الوحدة العربية » ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٣ ، وقد ذكر فى ص ١٢٥ أن اللجنة التنفيذية كانت مكونة من عونى عبد الهادى وخير الدين الزركلى وصبحى الخضرا وعجاج نويهض وعزة دروزة .

(٢) G.M. Gathorne-Hardy, A Short History of International Affairs. لندن ، ١٩٣٨ ، ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

وهى معاهدة الطائف بين العربية السعودية — التى كان قد أعلن إنشاؤها فى ١٨ من سبتمبر ١٩٣٢ — واليمن، وقد أشير فيها إلى توحيد الأمة العربية الإسلامية ، والمحافظة على سلامة الجزيرة العربية والأخوة العربية الإسلامية الخالدة ، والأصل « العربى » ويمكن اعتبار معاهدة الطائف أول خطوة فى سبيل التعاون الحقيقى بين دولتين عربيتين مستقلتين ، فهى إقرار صريح برابطة الإخاء والجنس العربى المشتركة بين الدولتين (١) .

وفى ٢ من أبريل ١٩٣٦ وقعت فى بغداد المعاهدة الخامسة التى تتسم بطابع العروبة بين العربية السعودية والعراق ونص فيها على روابط الدين الإسلامى، ووحدة الجنس، والأخوة الإسلامية، والوحدة العربية، وتوحيد الثقافة الإسلامية والعربية ، وقد وصفها بعض الشراح بأنها : « معاهدة أخاء عربى وتحالف قائمة على روابط الدين الإسلامى والوحدة القومية . . . بحيث يمكن اعتبار هذه المعاهدة هدفاً اجتمعت فيه مختلف النزعات التى ترمى إلى تقارب الدولتين العربيتين ، واستهدفت الاتفاقية المذكورة فى نفس الوقت إلى أن تكون محوراً تلتف حوله باقى الدول العربية المستقلة» (٢) .

فى ١٠ من يناير ١٩٣٦ اجتمع مؤتمر دمشق الذى طالب فيه الوطنيون السوريون بالوحدة العربية، ثم نشبت الثورة فى سوريا من جديد .

---

(١) ألبير نصيف ، نفس المرجع ، النص العربى ، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، النص العربى ، ص ١٨ .

وفى ٦ من مايو ١٩٣٦ وقعت معاهدة صداقة بين مصر والعربية السعودية وأشير فيها إلى التضامن والتعاون الإسلاميين بين الدولتين .

وفى ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ وقعت معاهدة سميت معاهدة صداقة وتحالف بين مصر وبريطانيا رفعت بمقتضاها بعض القيود التى كان قد فرضها تصريح ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ وألغيت بمقتضاها الامتيازات الأجنبية ، باتفاقية مونترو فى ٨ من مايو ١٩٣٧ وقد عقب أحد المؤرخين الأوربيين على هذه الفترة اللاحقة لإنشاء مصر علاقات صداقة بالدول العربية الإسلامية بأن الأصوات ارتفعت منادية بتوثيق عرى اللغة والثقافة والدين ، وأن المظاهرات التى خرجت فى مصر تؤيد شعوب المغرب وفلسطين وسوريا ، اتخذت طابعاً مزدوجاً دالا على الأخوة الدينية والعرقية ، وأنه بالنسبة لمصر اتجه الوطنيون — أثناء اضطرابهم — فى سوريا والعراق نحو القاهرة صائحين ، تقدمى يا مصر إننا نتبعك ، والقاهرة لم تصم أذنيها عن هذا النداء بل صممت على أن تسلك طريق العروبة ، فمنذ ذلك الوقت أصبحت القاهرة والإسكندرية مقراً لعدد من المؤتمرات التى أكدت إيمانها فى المصائر الرائعة للشعب العربى ، ومن جهة أخرى فإن أفق العروبة الذى كان مقصوراً على الدول التى نشأت فى أقطار الإمبراطورية العثمانية القديمة قد امتد إلى برزخ وقناة السويس ثم عبر ليبيا وشمال إفريقيا إلى مياه الأطلنطى (١) .

---

(١) Marcel Colombe, L'Evolution de l'Egypte (1924-1950) باريس ، ١٩٥١ ، ١٧٥ — ١٧٨ .

وحلل آخر تزايد الإحساس بالتكتل العربى بصفة عامة فى الفترة بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٨ فقرر أن مما له أهمية كبيرة نمو شعور التضامن والعزم على استكمال الاستقلال الذى عم العالم العربى (١).

وفى ١٩ من أبريل سنة ١٩٣٧ انضمت اليمن إلى معاهدة الصداقة والتحالف التى عقدت بين العربية السعودية والعراق فى ٢ من أبريل سنة ١٩٣٦ .

وفى نفس اليوم نشرت إحدى الصحف العراقية مقالا ذكرت فيه بعنوان « دور مصر فى النهضة القومية العربية » :

«لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض القومية العربية لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الإفريقى والآسيوى منها . كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى بحكم السياسية والظروف . . . وكل ذلك من الموقع الجغرافى إلى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة، وتشكيلات الدولة وانتشار الأدب والفصاحة مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية»، وقد لاحظ هذا المفكر بعد تحليل أهداف الرابطة الشرقية ــ التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول من هذا القسم ــ أنه « لا نكران فى أن بعض مفكرى مصر لم يصلوا بعد إلى مرحلة رابطة القومية العربية بل توقفوا عند نوع من الرابطة تؤلف جسر انتقال من مرحلة الرابطة

---

(١) جانورن ــ هاردى ، نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

الإسلامية العامة إلى مرحلة الرابطة العربية القومية ، هذه الرابطة سموها باسم الرابطة الشرقية ، غير أننا لا نشك فى أن فكرة هذه الرابطة ، عندما تتحرر من عناصرها اللفظية وتصطدم بالحقائق العملية وتنصهر بالتعارف الحقيقى ، ستتحول بالتدريج إلى رابطة عربية بحتة»(١) .

وفى ٢٣ من أبريل ١٩٣٧ عقدت بين سوريا والعراق معاهدة حسن جوار .

ونما التعاون بين مختلف الشعوب العربية . فعقد فى ١٢ من سبتمبر عام١٩٣٧ ببلودان بسورية مؤتمر أعلن فيه أن فلسطين جزء لا ينفصل من الأرض العربية وطالب بوقف هجرة اليهود إليها وحضره مندوبون عن مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين .

وفى ٢٦ من سبتمبر ١٩٣٧ اندلعت ثورة جديدة فى فلسطين ضد سلطات الانتداب البريطانية والصهيونيين وانتشر الإضراب العام .

وفى ١١ من أكتوبر عام ١٩٣٨ ، وكان وعى التكتل قد تبلور ، عقد فى القاهرة مؤتمر برلمانى للدفاع عن فلسطين ضم ممثلين للهيئات النيابية العربية.

وفى المدة من ٧ فبراير إلى ١٧ مارس عام ١٩٣٩ عقد فى لندن مؤتمر لبحث قضية فلسطين حضره ممثلون لمختلف الأقطار العربية .

وقد تأكدت مساهمة المصريين فى إرساء صرح العروبة فقرر أحد

(١) « البلاد » بغداد ، فى ١٩ من أبريل ١٩٣٦ .

المفكرين الفلسطينيين، أن الحقائق تثبت لنا أن أهل وادى النيل شعب عربى والقول بخلاف ذلك فرار من الحقيقة الواقعة التى لا يمكن تغييرها، كما لا يمكن تغيير مجرى النيل بجعله يجرى من الشمال إلى الجنوب بدلا من جريه من الجنوب إلى الشمال» (١) .

وفى مستهل نفس العام ، أى عام ١٩٣٩ ، تألفت جمعية ضمت بعض الشبان العراقيين والمصريين والسوريين والفلسطينيين للدعاية للوحدة العربية (٢) وقد لاحظ الدارسون لتاريخ هذه الوحدة أن هذه الجمعية قد اضطلعت بمهمة إنشاء مراكز ثقافية لتبادل الآراء فى المسائل العامة وفى العادات المحلية لبعض المناطق العربية التى قد لا تعرفها المناطق المجاورة معرفة كافية ، وأسندت رئاسة الشرف إلى أحد كبار السياسيين المصريين (٣) .

وفى ٢٥ من مايو عام ١٩٤٢ أسست فى القاهرة جمعية « الاتحاد العربى» وقد نصت المادة الأولى من قانونها على أن أغراض الجمعية ومبادئها « تنمية العلاقات وتقوية الروابط بين الأقطار العربية والسهر على مصالحها والدفاع عن حقوقها وهى : مصر والسودان والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية واليمن وسائر بلاد جزيرة العرب وليبيا وتونس والجزائر ومراكش وسائر البلاد التى لغتها العربية » .

---

(١) يوسف هيكل « نحو الوحدة العربية » ، ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) « البلاد » ، ٢٤ من أبريل ١٩٣٩ .
(٣) ألبير نصيف ، نفس المرجع ، ص ٥٨ .

وهكذا كانت هذه الجمعية أول هيئة عربية استهدفت مصلحة الدول العربية المستقلة والأقطار العربية غير كاملة السيادة فى شمال إفريقيا .

ونصت المادة الثانية من قانون هذه الجمعية على « إنشاء اتحادات فى البلدان المذكورة تعمل على تحقيق أغراضه ونشر مبادئه بجميع الوسائل المشروعة » ونصت المادة على أن « يسرى قانون الاتحاد على جميع الاتحادات » .

وقد ألفت فعلا جمعيات مماثلة تحمل نفس الاسم فى بغداد ودمشق وبيروت .

وقد حرص مؤسسو الاتحاد العربى على أن يبرزوا للعرب أن « وحدة اللغة هى الأساس الذى اتجهت إليه الفكرة فى مظهرها الحالى ، ولذلك وجهنا الدعوة إلى الاتحاد بين الشعوب التى تتكلم العربية من مسلمين ومسيحيين ، ودفعتنا وحدة اللغة التى اخترناها أساساً للرابطة إلى ألا يكون فيها إخواننا من أبناء البلاد الشرقية والإسلامية الصديقة التى تتكلم بغير العربية ، وتبع لذلك إنحاء فكرة البحث فى الخلافة الإسلامية جانباً ، إذ لا تستطيع إحدى الأمم العربية فى الظروف الحاضرة أن تحمل أعباءها الثقال وتنهض بمسئولياتها الخطيرة وتدفع ثمنها الفادح ، وهكذا خلصت لنا فكرة الاتحاد العربى واضحة محدودة محررة مما أحاط بها من غموض ... فالاتحاد العربى ، فى مظهره الجديد ، لا يبغى جمع البلدان العربية تحت حكم سياسى واحد ، ولا يفرض عليها جميعاً نظاماً واحداً فى الحياة ، وإنما تبقى كل أمة من أممه مستقلة قائمة بذاتها تختار لنفسها ما يوافقها من نظم الحكم وصور الحياة ، ثم يضمها جميعاً هذا الاتحاد الذى ندعو

إليه ونريد أن يكون مجموعة شعبية دولية يحسب لها حسابها فيما يمس هذه الشعوب ، وليكون الاتحاد العربى قوة تستند عليه الحكومات فى مباحثاتها حول الغاية المنشودة»(١) .

وفى ٧ من أكتوبر عام ١٩٤٤ نشر بيان بقرارات اللجنة التحضيرية لجامعة الدول العربية جاء فى صدره « انتهت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام من أعمالها كما بدأتها فى جو رائع من الثقة المتبادلة والأخوة الصادقة والود الصميم والشعور بالمسئولية المشتركة فى هذه الظروف الخطيرة التى يتحول فيها مجرى التاريخ تحدوها الرغبة الملحة فى جمع شملها وتوحيد جهودها بتوجيهها إلى ما فيه خير البلاد قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، وقد كان من أعظم دواعى الغبطة والسرور أن ينضم إلى اللجنة حضرة الأستاذ موسى العلمى العضو الممثل لعرب فلسطين لما لقضية هذا القطر العربى الشقيق من الخطورة البالغة والأهمية الكبرى عند العرب أجمعين » .

ونص البروتوكول على أنه « إثباتاً للصلات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين البلاد العربية جمعاء ، وحرصاً على توطيد هذه الروابط وتدعيمها وتوجيهها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلهاوتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأى العربى العام فى جميع الأقطار العربية ، قد اجتمعوا فى الإسكندرية فى هيئة لجنة

---

(١) فؤاد أباظة : «الكتاب الثانى للاتحاد العربى فى القاهرة» ص ٧ – ٩ .

تحضيرية للمؤتمر العربي العام وتم الاتفاق بينهم على ما يأتى :

أولا : جامعة الدول العربية :

تؤلف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة التى تقبل الانضمام إليها ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى ,, مجلس جامعة الدول العربية ،، تمثل فيه الدول المشتركة فى الجامعة على قدم المساواة، وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول من الاتفاقات، وعقد اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بينها ، وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء بالوسائل الممكنة وللنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها » .

ونصت الفقرة ثانياً من هذا البروتوكول بشأن التعاون فى الشئون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية على ما يأتى :

● الشئون الاقتصادية والمالية بما فى ذلك التبادل التجارى والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .

● شئون المواصلات بما فى ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

● شئون الثقافة .

● شئون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين وما إلى ذلك .

● الشئون الاجتماعية .

● الشئون الصحية .

وقد أثار توقيع هذا البروتوكول والاتصالات التي سبقته اهتمام المفكرين العرب الذين توفروا على دراسة الوحدة العربية ، فذهب رأى إلى أن « الرأى العملى الذى ينسجم مع منطق التاريخ هو إنشاء اتحاد يجمع بين الأقطار العربية ، وهذا الرأى لا تدعو إليه رغبة فى أن يكون لمصر مركز ممتاز فى هذا الاتحاد؛ فإن جميع أعضائه : فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والسودان – سيكون لكل عضو من هؤلاء الأعضاء ما لمصر من الحقوق ، على أن يحتفظ كل عضو ببرلمانه يسن له التشريع الملائم له ، ولكل عضو ميزانيته الخاصة ، ولكل عضو حكومته المحلية الخاصة ، إلا أن البرلمان الاتحادى فى القاهرة يتكون من نواب وشيوخ يمثلون كافة أعضاء الاتحاد . كل بحسب عدد سكانه ، كما أن التمثيل السياسى والقنصلى للاتحاد فى الخارج سيكون موحداً ، وجيشه موحداً ، وجنسية مواطنيه واحدة .. . إن إعادة إنشا دولة واحدة من أقطار الشرق الأدنى فى شكل اتحاد مركزى يتفق مع الاتجاه الدولى الجديد الذى نشأ بسبب الحرب الأخيرة من تجمع الشعوب التى تربطها بعضها بالبعض الآخر روابط اللغة والجنس فى وحدات إقليمية ، وفى يقينى أن مفكرى هذه الأقطار الشقيقة إذا آمنوا بهذه الفكرة ، كما أومن ، فإن كل عقبة تبدو الآن كأداء فى وجه هذه الدولة المنشودة ستتلاشى لأن أية عقبة يجب ألا تعيق إحياء مجد تاريخى هو كل ما يزهو به أهل سائر أقطار العالم »(١) .

---

(١) محمود كامل مجلة « الجامعة » ، يوليو عام ١٩٤٥ و « العمل لمصر : بعث دولة وإحياء مجد » ١٩٤٥ ص ١١٠ – ١١١ .

الفصل الخامس

القاهرة مركز الاتجاهات الاتحادية فى الشرق العربى

فى ٢٢ من مارس ١٩٤٥ وقع فى القاهرة ميثاق جامعة الدول العربية بين سوريا والأردن والعراق والعربية السعودية ولبنان ومصر واليمن.

وفى ١١ من مايو عام ١٩٤٥ دخل ميثاق جامعة الدول العربية فى دور التنفيذ وهو الميثاق الذى نصت مادته الأولى على أن :

« تتألف جامعة الدول العربية من الدول المستقلة الموقعة على هذا الميثاق ولكل دولة عربية مستقلة الحق فى أن تنضم إلى الجامعة ، فإذا رغبت فى الانضمام قدمت طلباً بذلك » .

ونصت المادة الخامسة منه على أنه :

« لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة ، فإذا نشأ خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها ، أو سلامة أراضيها ولجأ المتنازعون إلى المجلس لفض هذا الخلاف كان قراره عندئذ نافذاً وملزماً » .

ونصت المادة الثامنة منه على أن :

« تحترم كل دولة من الدول المشتركة فى الجامعة نظام الحكم القائم فى دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتتعهد بألا تقوم بعمل يرمى إلى تغيير ذلك النظام فيها » .

ونصت المادة التاسعة منه على أن :

« لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق ، وروابط أقوى مما نص عليه فى هذا الميثاق ، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض » .

ونصت المادة العاشرة منه على أن :

« تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية ولمجلس الجامعة أن يجتمع فى أى مكان آخر يعينه » .

وقد قررت الدول الموقعة على هذا الميثاق ، فى ملحق خاص بفلسطين ، أنه :

« منذ نهاية الحرب العظمى الماضية ، سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدولة العثمانية ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لأية دولة أخرى ، وأعلنت معاهدة لوزان أن أمرها لأصحاب الشأن فيها ، وإذا لم تكن قد مكنت من تولى أمورها فإن ميثاق العصبة فى سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذى وضعه لها إلا على أساس الاعتراف باستقلالها ، فوجودها واستقلالها الدولى من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ، كما أنه لا شك فى استقلال البلاد العربية الأخرى ، وإذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها فى أعمال مجلس الجامعة ، ولذلك ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا يتولى

مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربى من فلسطين للاشتراك فى أعماله » .

كما قررت الدول الموقعة فى ملحق آخر خاص بالبلاد العربية غير المشتركة فى مجلس الجامعة أنه « نظراً لأن الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شئوناً يعود خيرها وأثرها على العالم العربى كله ، ولأن أمانى البلاد العربية غير المشتركة فى المجلس ينبغى له أن يرعاها وأن يعمل على تحقيقها ، فإن الدول الموقعة يعنيها بوجه خاص أن توصى مجلس الجامعة ، عند النظر فى إشراك تلك البلاد فى اللجان المشار إليها فى الميثاق ، بأن يذهب فى التعاون معها إلى أبعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك بألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم أمانيها وآمالها ، وبأن يعمل بعد ذلك على إصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل من أسباب » .

وفى ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٤٥ أقر مجلس الجامعة المعاهدة الثقافية بين الدول الموقعة على الميثاق .

وفى ١٥ من مايو ١٩٤٨ ، وبعد أن اضطربت الأحوال فى فلسطين عقب تخلى بريطانيا عن التزاماتها وإزاء الأعمال العدوانية التى اجترأت عليها العصابات الصهيونية اتخذت دول الجامعة إجراء عربياً جماعياً لرد هذا العدوان على الأرض العربية .

وفى ١٧ من يونيو عام ١٩٥٠ وقع مندوبو سورية والمملكة العربية السعودية ولبنان ومصر والمملكة المتوكلية اليمنية معاهدة « الدفاع المشترك

والتعاون الاقتصادى » بين دول الجامعة العربية وهى التى وقعتها العراق فى ٢ من فبراير ١٩٥١ والتى تنص المادة الثانية منها على أن :

« تعتبر الدول المتعاقدة كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة أو أكثر منها أو على قواتها اعتداء عليها جميعاً ، ولذلك فإنها ، عملا بحق الدفاع الشرعى الفردى والجماعى عن كيانها ، تلتزم بأن تبادر إلى معونة الدولة أو الدول المعتدى عليها ، وبأن تتخذ على الفور منفردة ومجتمعة ، التدابير وتستخدم جميع ما لديها من وسائل بما فى ذلك استخدام القوة المسلحة لرد الاعتداء ولإعادة الأمن والسلام إلى نصابهما ».

وقد عنيت جامعة الدول العربية ، إلى جانب عنايتها بربط الدول الأعضاء بهذه المعاهدات مختلفة الأهداف ، بالأقطار العربية الأخرى التى لم تستكمل استقلالها والتى بالتالى ، وطبقاً للمادة الأولى من ميثاق الجامعة ، لا يمكن أن تكون عضواً فى الجامعة .

ويكفى فى هذا البحث أن نكتفى بالإشارة إلى ما فعلته فى سبيل استقلال دول شمال أفريقيا العربية .

ففى ٢٨ من سبتمبر ١٩٤٥ من نفس العام وجه الأمين العام باسم الجامعة مذكرة إلى وزراء خارجية الدول الكبرى جاء فيها :

« ليبيا بلد عربى تحده تونس وبلاد المغرب غرباً ، ومصر شرقاً ، والصحراء الكبرى جنوباً ، ويقطن هذه البلاد منذ قرون قوم من أصل عربى يتكلمون لغة واحدة ويتبعون تقاليد وعادات واحدة ويتدينون بدين واحد »

وفى مارس عام ١٩٤٧ وجه الأمين العام إلى الشعب الليبى وهيئاته السياسية النداء التالى :

« إن قضيتكم ولا ريب من القضايا العربية التى نوليها اهتماماً منذ ثلاثين سنة ونرجو لها النجاح . وإن شعبكم العربى فى مقدمة الشعوب التى ناضلت وجاهدت وضحت بكثير من خير أبنائها فى سبيل الحرية والاستقلال .

وإن هذا الظرف لمن أنسب الأوقات لكى تجنوا ثمار أعمالكم وتظفروا بحريتكم ، فقد أزال الله عنكم كابوس الظلم والاستعمار ، وهيئت لكم فرصة التحرر فاغتنموها » .

وفى مارس عام ١٩٤٧ أوفدت الأمانة العامة للجامعة أحد المعنيين بالشئون العربية إلى مقر الأمم المتحدة فى « ليك سكسيس » بالولايات المتحدة الأمريكية لاستخدام ما يمكن استخدامه من وسائل الإعلام لعرض قضية اللاجئين العرب الفلسطينيين على الضمير العالمى ، وقد قدم عقب عودته تقريراً عن مهمته إلى الأمانة العامة تضمن ما تبينه من أوجه النقص فى الدعاية للدول العربية والإعلام عن عدالة قضاياها ، وجاء فى هذا التقرير :

« أقترح على جامعة الدول العربية أن تعمل بالتعاون مع الهيئات غير الحكومية على إعطاء طابع ,, دولى ‘‘ ، فى نطاق الدول العربية ، للجمعيات الاقتصادية والاجتماعية وما يماثل هذه الجمعيات فى سائر الدول العربية ، فإذا ما استكملت هذه الهيئات غير الحكومية طابعها

„ الدولى"، أى أن يمتد نشاطها إلى مجموعة دول مختلفة، وإذا ما نسقت صلاتها بما يماثلها من جمعيات فى غير الدول العربية ، فإنها تستطيع أن تعتمد كهيئات استشارية لدى المجلس الاقتصادى والاجتماعى .

« وإننى لأومن بأن الدول العربية تستطيع أن تسمع صوتها عالياً بواسطة هيئاتها غير الحكومية، إذا ما اعتمدت كهيئات استشارية ، إلى جانب أصوات وفود الدول العربية فى الأمم المتحدة ، بل إن هذه الهيئات غير الحكومية تستطيع بتحريرها من القيود الحكومية ، أن تحقق للعرب ، عن طريق لجان المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، مصالح اقتصادية واجتماعية قد لا يتسع وقت الساسة والدبلوماسيين ورجال القانون من أعضاء هذه الوفود لتحقيقها ، أو قد تعوزهم الخبرة الخاصة فى تفاصيل المسائل الاقتصادية والاجتماعية عن تحقيقها عند مناقشتها أمام الأمم المتحدة ، وهى خبرة لاشك فى توفرها لدى الهيئات غير الحكومية المتخصصة فى نوع معين من النشاط الاقتصادى والاجتماعى »(١) .

وقد رأى أحد كبار رجال القانون الدولى الفرنسيين عقب توقيع ميثاق الجامعة والعمل به أن هذه الجامعة جماعة دولية تضم دولا ذات سيادة وأنها ذات شخصية قانونية ظاهرية سواء من وجهة نظر القانون الدولى

---

(١) محمود كامل : تقرير عن المهمة التى ندبته لها جامعة الدول العربية فى الجزء الثانى للدورة الثالثة للجمعية العامة للأمم المتحدة التى انعقدت فى ليك ساكسيس فى خلال شهرى أبريل ومايو سنة ١٩٤٩ وقدم هذا التقرير إلى الأمين العام للجامعة فى ٦ من مارس سنة ١٩٥٠ .

« الفيدرالى» أو القانون الدولى العام ،وأنها إذن أكثر من مجرد تحالف ولكن أقل من دول « كونفيدرالية » فهى تحالف منظم [١] .

وفى ٥ من سبتمبر ١٩٥٠ صدر الدستور السورى الذى جاء فى مقدمته :

« نحن ممثلى الشعب السورى العربى المجتمعين فى جمعية تأسيسية بإرادة الله ورغبة الشعب الحرة ، نعلن أننا وضعنا هذا الدستور لتحقيق الأهداف المقدسة التالية ،ونعلن أن شعبنا الذى هو جزء من الأمة العربية بتاريخه وحاضره ومستقبله ، يتطلع إلى اليوم الذى تجتمع فيه أمتنا العربية فى دولة واحدة ، وسيعمل جاهداً على تحقيق هذه الأمنية المقدسة فى ظل الاستقلال والحرية » .

ونصت مادته الأولى على أن :

« . . . .

٣ ـ والشعب السورى جزء من الأمة العربية » .

وفى أول يناير ١٩٥٢ صدر دستور المملكة الأردنية الهاشمية الذى نصت مادته الأولى على أن :

« الشعب الأردنى جزء من الأمة العربية » .

وفى ٢ من أبريل عام ١٩٥٢ وجه ممثلو العراق والمملكة العربية السعودية ومصر واليمن ـ والدول الأربع أعضاء فى الجامعة ـ إلى رئيس

---

(١) Michel Mouskeli, La Ligue des Etats Arabes Rev. Génér. de Droit Inter. Public. باريس ، ١٩٤٦ ، ص ١٥٨ .

مجلس الأمن ، خطابات ذكر كل منهم فيها أنه تلقى من حكومته تعليمات بلفت نظر مجلس الأمن طبقاً للفقرة الأولى من المادة ٣٥ من ميثاق الأمم المتحدة ، إلى خطورة الحالة فى تونس ، وإلى أن رئيس مجلس الوزراء التونسى قد وجه إلى رئيس مجلس الأمن خطاباً فى هذا الشأن بتاريخ ١٢ من يناير عام ١٩٥٢ ، وأن الرئيس التونسى وبعض زملائه الوزراء قد قبض عليهم وتفاقمت الحالة فى القطر العربى ، كما ذكر كل من هؤلاء الممثلين أن رأى حكومته أن الموقف يهدد الأمن والسلم الدولى بالخطر مما ينطبق تحت نص المادة ٣٤ من الميثاق ، وطلب كل منهم أن يدعى الوفد الذى يمثله للاشتراك فى مناقشات هذا الموضوع طبقاً للمادة ٣٧ من لائحة إجراءات مجلس الأمن .

وقد عرضت المسالة التونسية على مجلس الأمن بجلسات ٤ و ١٠ و ١٤ من أبريل عام ١٩٥٢ .

وقد احتضنت دول الجامعة العربية قضية مراكش وتونس أمام الأمم المتحدة فى خريف عام ١٩٥٣ .

وقد سجلت محاضر الأمم المتحدة تكتل الدول العربية فى سبيل الدفاع عن استقلال الأقطار العربية ، فللدفاع عن استقلال مراكش شهدت جلسة اللجنة الأولى فى ١٣ من ديسمبر ١٩٥٢ دفاع مندوبى مصر ولبنان[1] وجلسات ١٥ ، ١٦ ، ١٩ من ديسمبر دفاع مندوب العراق ، وجلسة

---

(١) عبد الحميد خالد The Question of Morocco before the U.N. المجلة المصرية للقانون الدولى ، ١٩٥٤ ، ص ٤١ .

١٩ من ديسمبر دفاع مندوبى العراق واليمن وجلسة ٨ من أكتوبر ١٩٥٣ دفاع مندوبى مصر وسوريا وجلسة ١٣ من أكتوبر دفاع مندوب العربية السعودية وجلسة ١٥ من أكتوبر دفاع مندوب لبنان، كما وجه مندوبو مصر والعربية السعودية والعراق ولبنان وسوريا واليمن فى ٣٠ من يناير ١٩٥٢ خطاباً إلى رئيس مجلس الأمن دفاعاً عن استقلال تونس، كما عاد مندوبو مصر والعراق والعربية السعودية واليمن فى ٢ من أبريل عامئذ ووجهوا إلى رئيس مجلس الأمن خطاباً آخر فى نفس الشأن ، ووقف مندوب مصر أمام اللجنة الأولى بجلسة ٦ من ديسمبر ١٩٥٢ يدافع عن استقلال تونس دفاعاً حاراً، كما سمعت هذه اللجنة بجلسة ١١ من ديسمبر عامئذ دفاع مندوب العراق ، وسمعت بجلسة ٢١ من أكتوبر ١٩٥٣ دفاع مندوب لبنان وبجلسة ٢٢ من أكتوبر دفاع مندوب العربية السعودية وبجلسة ١١ من نوفمبر دفاع مندوب العراق .

وقد انضمت دول شمال إفريقيا العربية بعد استقلالها إلى عضوية الجامعة ، فانضمت المملكة الليبية فى ٢٨ من مارس ١٩٥٣ وانضمت تونس والمغرب فى أول أكتوبر ١٩٥٦ وقبلت « الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية » فى ٤ من سبتمبر ١٩٥٩ كعضو مراقب ثم انضمت عقب إعلان استقلالها عام ١٩٦٣ .

وفى ١٦ من يناير ١٩٥٦ أعلن مشروع الدستور المصرى الذى نص فى مقدمته :

« نحن الشعب المصرى : الذى يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى

الكبير ويقدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها » .

وقد قرر الرئيس جمال عبد الناصر فى الخطاب الذى قدم به مشروع هذا الدستور :

« إننا عضو فى الكيان العربى الكبير وهذا الشعب يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى ، ويشعر أيضاً أن ما يحيق بأى بلد عربى لابد أن يؤثر علينا ، ولقد أرادوا فى الماضى أن يفرقونا وأرادوا فى الماضى أن يقطعوا أوصالنا وأن يزجوا بيننا قوميات أخرى ، ولكننا اليوم قد تنبهنا وسنأخذ من الماضى عظة وعبرة ، لقد انتهت الحرب العالمية الأولى فماذا كانت النتيجة ؟ لقد انقسم العرب وقطعت أوصالهم ، ووزعوا كغنائم وأسلاب ، ولكن العرب كافحوا وكانوا يتفاعلون فى كفاحهم فكانت مصر تتفاعل مع العروبة جمعاء من أجل تحقيق الحرية بين ربوع العالم العربى كله . . . فنحن اليوم حينما نعلن أننا نتفاعل مع الشعوب العربية ، ونعلن أننا جزء من الكيان العربى ، نعلن هذا من أجل مصلحتنا ومن أجل مصلحة العالم العربى كله .

إن الكيان العربى يمتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، كلنا شعب واحد . . . نكافح جميعاً متحدين متكاتفين . . . من أجل حقنا فى الحرية ومن أجل حقنا فى الحياة ، نكافح جميعاً ضد الاستعمار وضد أعوان الاستعمار .

نحن نعلن عروبتنا الحقيقية ونعلن تماسكنا مع العرب جميعاً حتى

لا يتكرر ما مضى . وحتى لا يتكرر ما فات . . . لقد ضاعت قطعة من أرضنا ، لقد محيت قومية العروبة فى فلسطين . . لأننا انخدعنا ولأننا تبعنا الاستعمار وتبعنا أعوان الاستعمار ، نعلن أننا نتكاتف مع العرب جميعاً من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى من أجل الحرية ومن أجل الاستقلال ومن أجل الحق فى الحياة .

نعلن هذا ونعلن أننا جميعاً نتضامن من أجل الكفاح عن حريتنا ، ونتضامن من أجل الكفاح عن استقلالنا ، ونتضامن جميعاً من أجل الدفاع عن حقنا فى الحياة » .

ونصت المادة الأولى من هذا الدستور على أن :

« مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة وهى جمهورية ديموقراطية والشعب المصرى جزء من الأمة العربية » .

وسرعان ما أثبتت الأحداث اللاحقة لإعلان مشروع الدستور المصرى فى عام ١٩٥٦ نضوج فكرة العروبة السياسية ، واتجهت آمال الشعوب العربية إلى القاهرة متعلقة بهدف تحقيق الوحدة العربية ، واتخذت طائفة من المعاهدات والاتفاقات طابعاً « كونفيديرالياً » بحتاً .

فنى ٢٧ من نوفمبر ١٩٥٧ وقعت جامعة الدول العربية اتفاقاً دولياً مع هيئة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة « يونيسكو » .

وفى ٢٦ من مايو ١٩٥٨ وقعت اتفاقاً آخر مع هيئة العمل الدولية .

وفى عام ١٩٥٩ وقعت اتفاقاً ثالثاً مع هيئة التغذية والزراعة — والهيئات الثلاث من الوكالات المتخصصة التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى

أحد أجهزة الأمم المتحدة الرئيسية — وقد اعترف للجامعة بالحصانات الدبلوماسية بوثائق أودعت من المملكة الأردنية الهاشمية ومصر والعربية السعودية والعراق على التوالى فى ديسمبر ١٩٥٣ ومارس وأبريل ١٩٥٤ وفبراير ١٩٥٥ .

كما أن للجامعة حق التمثيل الخارجى بواسطة مكاتبها التى أنشئ أولها فى مايو ١٩٥٣ ، فى نيويورك طبقاً لقرار مجلس الجامعة .

ولا شك أن هذه المدة بين توقيع ميثاق الجامعة فى ٢٢ من مارس ١٩٤٥ إلى أوائل عام ١٩٥٨ قد أضفت على الجامعة مقومات الاتحاد « الكونفيدرالى » ، فى الاتحاد « الكونفيدرالى » يكون عدد الدول المشتركة عادة أكبر عدداً من دول الاتحاد « الفيدرالى » وشكل هذا الاتحاد وكثافته يختلفان بحسب الأحوال ، فطابع الاتحاد يتغلغل أحياناً — على الأقل فى الواقع — فى النشاط الداخلى للدول المشتركة فيه ، والاتفاق فيه يتم على أساس الاعتراف بعدم المساس بشخصية وسيادة الدول الأعضاء ، فالبعض يذهب إلى أن الاتحاد « الكونفيدرالى » ليس إلا علاقة قانونية دون شخصية قانونية وأنه يعمل لحساب الدول الأعضاء وبالنيابة عنها ، ويذهب البعض الآخر إلى أنه له شخصية خاصة ولكنها تختلف عن شخصية « الدولة » فهذا الاتحاد ليس له رعايا ولا يمارس مباشرة سلطة عامة على الموظفين العامين والمواطنين فى الدول الأعضاء . . . وأنه عادة لا يملك إلا هيئة أو جهازاً عبارة عن مؤتمر سياسى تنفذ قراراته بواسطة حكومات الدول المتحدة « كونفيدرالياً » وهذه الدول تحتفظ

بسيادتها الداخلية وحتى الخارجية فى كل ما لم ينص عليه صراحة فى ميثاق الاتحاد . . وبوجه عام تحتفظ الدول بجميع الحقوق التى لا تتنازل عنها بنص خاص فى ميثاق الاتحاد الكونفيدرالى (١) .

ويكفى هذا — على ضوء ما سبق أن أشرنا إليه من تطور شخصية جامعة الدول واختصاصاتها الدولية — للتدليل على أنها — من وجهة النظر العلمية — « اتحاد كونفيدرالى » للدول الأعضاء .

* * *

الجمهورية العربية المتحدة

وفى أول فبراير ١٩٥٨ اجتمع فى القاهرة رئيسا جمهوريتى مصر وسورية وممثلو الجمهوريتين وأصدروا البيان التاريخى الذى قرروا فيه أنهم :

« انتهوا إلى أن هذه الوحدة التى هى ثمرة القومية العربية هى طريق العرب إلى الحرية والسيادة ، وسبيل من سبل الإنسانية للتعاون والسلام ، ولذلك فإن واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأمانى ، إلى حيز التنفيذ ، وفى عزم ثابت وإصرار قوى ، ثم خلص المجتمعون من هذا كله إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية وأسباب نجاحها قد توافرت بعد أن جمع بينهما فى الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً وأكد أنها حركة بناء وتحرير وعقيدة تعاون وسلام .

(١) « سيل » ، نفس المرجع ، ص ١٩٠ .

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام ، وإيمانهم الكامل ، وثقتهم العميقة ، فى وجوب توحيد سورية ومصر فى دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة .

كما يعلنون اتفاقهم الإجماعى على أن يكون نظام الحكم فى الجمهورية العربية ديمقوقراطياً رئاسياً ، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسئولين أمامه ، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد ، ويكون لهذه الجمهورية علم واحد ، يظل شعباً واحداً وجيشاً واحداً ، فى وحدة يتساوى فيها أبناؤها فى الحقوق والواجبات ويدعون جميعاً لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح ، ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد منعتها . وسيتقدم كل من فخامة الرئيسين شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر ببيان إلى الشعب يلقى أمام مجلس النواب السورى ومجلس الأمة المصرى فى يوم الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٣٧٧ الموافق ٥ من فبراير سنة ١٩٥٨ يبسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات ويشرحان أسس الوحدة التى تقوم عليها دولة العرب الفتية .

كما سيدعى الشعب فى مصر وسورية إلى استفتاء خلال ثلاثين يوماً على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية .

والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هذه يحسون بأعمق السعادة وأجمل ألوان الفخر ، إذ شاركوا فى الخطوة الإيجابية فى طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبه وجيلا بعد جيل ، والمجتمعون إذ يقررون وحدة البلدين يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب ، ويوكدون أن باب الوحدة مفتوح

لكل بلد عربي يريد أن يشترك معهم فى وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها ، والله نسأل أن يكلأ هذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بعين رعايته الساهرة ، وبفضل عنايته السابغة ، وأن يكتب للعرب فى ظل الوحدة العزة والسلام » .

وفى يوم الأربعاء ٥ من فبراير ١٩٥٨ وصف رئيس جمهورية مصر هذه الدولة الجديدة التى قامت فى هذا الشرق فى خطابه أمام مجلس الأمة بأنها :

« ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية . . دولة تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحزب ولا تتعصب ، لا تنحرف ولا تنحاز ، تؤكد العدل وتدعم السلام ، توفر الرخاء لها ولمن حولها وللبشر جميعاً بقدر ما تتحمل وتطيق » .

وبعد ذلك أصدر مجلس الأمة المصرى قراره الذى نص على :

« إن مجلس الأمة ليرى فى إقامة الدولة العربية المتحدة إيذاناً بفجر جديد ، تتضافر فيه كل الجهود والقوى فى سورية ومصر فى سبيل واحد ونحو هدف واحد وإيمان مشترك لتحقيق مجد العروبة » .

وفى نفس اليوم أصدر مجلس النواب السورى قراره الذى نص على :

« إن أعضاء مجلس النواب بموافقتهم وتأييدهم لما تم إنما يعبرون عن إرادة الشعب العربى فى الإقليم السورى ويؤدون الأمانة ويوفون بالعهد حين أقسموا اليمين الدستورية على العمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية ».

وفى يوم ٢١ من فبراير ١٩٥٨ أجرى الاستفتاء على الوحدة بين الجمهوريتين العربيتين وعلى انتخاب رئيسهما وأعلنت نتيجة هذا الاستفتاء رسمياً فى اليوم التالى .

الدول العربية المتحدة

وفى يوم ٨ من مارس ١٩٥٨ بالقاهرة وقعت الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية ميثاق « الدول العربية المتحدة » الذى نص على أن :

● ينشأ اتحاد يسمى الدول العربية المتحدة يتكون من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية والدول العربية التى تقبل الانضمام إلى هذا الاتحاد .

● تحتفظ كل دولة بشخصيتها الدولية وبنظام الحكم الخاص بها .

● مواطنو الاتحاد متساوون فى الحقوق والواجبات العامة .

● لكل مواطن فى الاتحاد حق العمل وتولى الوظائف العامة فى البلاد المتحدة دون تفرقة وفى حدود القانون .

● حرية التنقل فى الاتحاد مكفولة فى حدود القانون .

● تتبع الدول الأعضاء السياسة الخارجية الموحدة التى يضعها الاتحاد.

● يتولى التمثيل السياسى والقنصلى للاتحاد فى الخارج هيئة واحدة فى الأحوال التى يقرر فيها الاتحاد ذلك .

● يكون للاتحاد قوات مسلحة موحدة .

● يشرف على شئون الاتحاد مجلس يسمى المجلس الأعلى يشكل من رؤساء الدول الأعضاء .

● يعاون المجلس الأعلى فى مباشرة سلطاته مجلس يسمى مجلس الاتحاد .

● يختص المجلس الأعلى برسم السياسة العليا للاتحاد فى المسائل السياسية والدفاعية والاقتصادية والثقافية وإصدار القوانين اللازمة فى هذا الشأن وهو المرجع الأعلى فى تحديد الاختصاصات ، وتصدر قرارات المجلس بالإجماع .

● يصدر المجلس الأعلى القوانين الاتحادية التى يختص بإصدارها وفقاً لأحكام هذا الميثاق وذلك بعد موافقة السلطات المختصة فى كل دولة .

● يعين المجلس الأعلى القائد العام للقوات المسلحة للاتحاد .

الاتحاد العربى : العراق ـ الأردن

وفى ١٤ من فبراير ١٩٥٨ ـ اهتداء بميثاق القاهرة الخاص بإعلان الجمهورية العربية المتحدة ـ أعلن إنشاء الاتحاد العربى بين العراق والأردن ونص ميثاقه على :

● إنشاء اتحاد عربى بين المملكتين باسم الاتحاد العربى اعتباراً من يوم الجمعة ١٤ فبراير ويكون مفتوحاً للدول العربية الأخرى التى ترغب فى الانضمام إليه .

● تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتهما الدولية ونظام الحكم القائم فيهما .

● تكون المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات الدولية التى سبق الارتباط بها قبل عقد اتفاق الاتحاد مرعية بالنسبة للدولة التى عقدتها ، أما الاتفاقات الدولية التى ستعقد فى المستقبل فتكون من اختصاص الاتحاد .

● تنفذ إجراءات الوحدة بين البلدين اعتباراً من تاريخ الإعلان الرسمى للاتحاد وذلك فى السياسة الخارجية والتمثيل الدبلوماسى وتوحيد الجيشين فى جيش عربى واحد تحت قيادة واحدة و إزالة الحواجز الجمركية.

. . . .

. . . .

● يتولى شئون الاتحاد حكومة اتحادية تنبثق عن مجلس تشريعى واحد .

● يكون ملك العراق رئيساً لحكومة الاتحاد .

وقد أرسل الرئيس جمال عبد الناصر عقب إعلان هذا الاتحاد برقية جاء فيها :

« إن الأيام التى تعيشها الأمة العربية الآن أيام خالدة مجيدة وما من شك فى أن الأحداث التى عاشتها أمتنا فى الفترة الأخيرة تبشر بأن فجر الوحدة الذى أشرق على كل الآفاق العربية هو مطلع تاريخ جديد للأمة العربية المناضلة » .

الدورة الأولى لمجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية بالقاهرة فى يناير ١٩٦٤

وإجابة لدعوة وجهها الرئيس جمال عبد الناصر عقد بالقاهرة فى المدة من ١٣ إلى ١٦ من يناير ١٩٦٤ مجلس يمثل ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية ، وقد أصدر المجلس بيانه التاريخى الآتى :

« إن مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية فى دورته الأولى المنعقدة بمقر الجامعة فى القاهرة منذ الثالث عشر حتى السادس عشر من يناير (كانون الثانى) عام ١٩٦٤ ، بناء على اقتراح السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ،

وقد تدارس التهديدات وأعمال العدوان المتصلة التى مارستها إسرائيل منذ إخراجها الشعب العربى الفلسطينى من وطنه ، وقيامها قوة احتلال استعمارية لأراضيه ، تمارس التمييز العنصرى ضد الأقلية العربية ، وتتخذ سياسة العدوان والأمر الواقع قاعدة لها ، وتصر على التنكر لقرارات الأمم المتحدة المؤكدة لحق هذا الشعب الطبيعى فى العودة إلى وطنه ، وتستهين بالإدانات المتكررة التى سجلتها عليها أجهزة المنظمة العالمية ،

وبعد أن بحث ما أوشكت عليه إسرائيل من القيام بعدوان خطير جديد على المياه العربية بتحويل مجرى نهر الأردن والإضرار البالغ بحقوق العرب المنتفعين بهذه المياه ، استهدافاً منها لتحقيق المطامع الصهيونية التوسعية بجلب المزيد من قوى العدوان ، وإقامة مراكز تهديد

أخرى لأ من البلاد العربية وتقدمها وسلام العالم ،

وقياماً بواجب الدفاع المشروع ، وإيماناً بحق الشعب العربى الفلسطينى المقدس فى تقرير مصيره والتحرر من الاستعمار الصهيونى لوطنه ، وبأن التضامن العربى هو السبيل إلى درء المطامع الاستعمارية ، وتحقيق المصالح العربية العادلة المشتركة ، ورفع مستوى العيش للسواد الأعظم وتنفيذ برامج الإنشاء والإعمار ،

قد اتخذ القرارات العملية اللازمة لاتقاء الخطر الصهيونى الماثل ، سواء فى الميدان الدفاعى أو الميدان الفنى ، أو ميدان تنظيم الشعب الفلسطينى وتمكينه من القيام بدوره فى تحرير وطنه وتقرير مصيره .

كما أسفرت اجتماعاته عن إجماع الملوك والرؤساء العرب على إنهاء الخلافات وتصفية الجو العربى من جميع الشوائب وإيقاف جميع حملات أجهزة الإعلام ، وتوثيق العلاقات بين الدول العربية الشقيقة ضماناً للتعاون البناء الجماعى ، ودرءاً للمطامع التوسعية العدوانية التى تهدد العرب جميعاً على السواء .

ورأى أن عقد مزيد من هذه الاجتماعات على أعلى المستويات أمر تقتضيه المصلحة العربية العليا . وقرر أن يجتمع الملوك والرؤساء مرة فى السنة على الأقل ، وأن يكون الاجتماع المقبل بالإسكندرية فى أغسطس (آب) عام ١٩٦٤ .

ويعلن الملوك والرؤساء العرب أن الأمة العربية تهيب بدول العالم وشعوبها التى تقدس حقوق الأفراد فى أوطانها ، والشعوب فى الانتفاع

بمواردها وتقرير مصائرها ، أن تكون خير عون لها فى دفع العدوان الإسرائيلى الجديد .

وهم يؤكدون أن العرب فى موقفهم الدفاعى العادل ، سينظمون علاقاتهم السياسية والاقتصادية بالدول ، على أساس مواقفها من كفاح العرب المشروع ضد المطامع الصهيونية فى العالم العربى .

ويأملون أن الدول الإفريقية والآسيوية التى آمنت بمبادئ باندونج وارتبطت بميثاق أديس أبابا ، وضحت بالكثير من محاربة الاستعمار ، وكافحت التمييز العنصرى ، وتعرضت ولا تزال تتعرض للأخطار والمطامع الاستعمارية الصهيونية وخاصة فى إفريقيا — هذه الدول جميعاً ستقدم صادق التأييد والعون للعرب فى نضالهم العادل .

كما يأملون تأييد جميع الدول الحرة المؤمنة بالسلام القائم على العدل .

كذلك يؤمنون بعدالة الكفاح العربى وواجب تأييده ضد الاستعمار فى الجنوب اليمنى المحتل وعمان وبعدالة الكفاح الوطنى فى أنجولا . وجنوب إفريقيا وكل مكان فى العالم . فقضايا الحرية والعدل وحدة لا تتجزأ ».

الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق

وفى ٢٦ من مايو ١٩٦٤ أعلن الاتفاق الذى وقعه فى القاهرة الرئيسان جمال عبد الناصر عن الجمهورية العربية المتحدة وعبد السلام عارف عن الجمهورية العراقية والذى نصت مقدمته :

« إيماناً بوحدة الأمة العربية ، وحدة نابعة من وحدة اللغة والتاريخ ووحدة النضال والمصير العربى ،

وإدراكاً لزيف الفرقة المصطنعة التى تعكسها التقسيمات السياسية الحالية على الأرض العربية والتى فرضها الاستعمار وفق مصالحه فى الاستغلال والسيطرة ،

فإن الأمة العربية تجد نفسها متمسكة بوحدتها مع واقع التاريخ والتجربة .

ولقد تجسدت آمال الأمة العربية فى تجربة رائدة هى قيام الجمهورية العربية المتحدة لتضم سوريا ومصر لتثبت للعالم أجمع أن شعار الوحدة ليس أملا صعب المنال ولكنه حقيقة يمكن أن تثبت وجودها فى الواقع .

وتكاتفت عوامل الشر وتعاون الاستعمار والرجعية على تنفيذ جريمة الانفصال ، ولكن عبرة الانفصال خلفت وراءها تجربة غنية هى فى حد ذاتها درع يحمى الوحدة فى المستقبل ويزيد من التمسك بها .

واستمرت أعلام الوحدة مرفوعة تردد شعاراتها فى قلب كل عربى »

رغم المحاولات الطائشة لإعاقتها، وكانت اتفاقية ١٧ أبريل (نيسان) ١٩٦٣ لتحقيق الوحدة بين سوريا ومصر والعراق . ولكن انعدام النوايا الطيبة لدى البعض قضى أيضاً على هذه المحاولة » .

ونص الاتفاق على أن :

« يشكل مجلس رئاسة مشترك لكل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية من رئيس الجمهورية العربية المتحدة ورئيس الجمهورية العراقية وعدد من الأعضاء .

مقر مجلس الرئاسة المشترك مدينة القاهرة ويجوز دعوة المجلس للانعقاد فى جهة أخرى بناء على اتفاق الرئيسين .

يختص مجلس الرئاسة المشترك بما يلى :

(ا) دراسة وتنفيذ الخطوات اللازمة لإقامة الوحدة بين البلدين.

(ب) تخطيط وتنسيق سياسة البلدين فى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وفى ميدان الإعلام .

(حـ) تحقيق الوحدة الفكرية بين شعبي الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية عن طريق التنظيمين الشعبيين فى البداية والعمل على توحيد التنظيمين فى المستقبل .

للمجلس أمانة عامة مقرها القاهرة .ويتولى إدارتها أمين عام بدرجة وزير .

* * *

ولم تقتصر عروبتنا — التى أصبحت أساساً لقانون دولى عربى على

تفصيل لا يتسع له هذا المقام — على النطاق العربى بل استقر التعاون بينها وبين فكرة التكتل الأفروأسيوى والتكتل الإفريقى ؛ فؤتمر باندونج الذى عقد فى أبريل عام ١٩٥٥ واشتركت فيه مصر والعراق والأردن ولبنان وليبيا والعربية السعودية والسودان وسوريا واليمن أصدر قرارات بتأييد قبول ليبيا عضواً فى الأمم المتحدة وبمكافحة الاستعمار وتأييد حق تونس ومراكش فى التحرر من السيطرة الفرنسية .

ومؤتمر الدار البيضاء الذى عقد فى يناير ١٩٦١ واشترك فيه رئيس الجمهورية العربية المتحدة وملك المغرب ورئيس وزراء الجزائر وضع الميثاق الإفريقى الذى تضمن عزم الموقعين عليه على تحرير الأراضى الإفريقية التى لا تزال تحت السيطرة الأجنبية .

ومؤتمر القمة الذى عقد فى سبتمبر ١٩٦١ ببلجراد واشتركت فيه من الدول العربية الإفريقية الجمهورية العربية المتحدة والجزائر والمغرب والسودان وتونس أصدر عدة قرارات خاصة بمكافحة الاستعمار وبحق الشعوب فى تقرير مصيرها وبالتنديد العنيف بالتفرقة العنصرية .

ومؤتمر القمة الذى عقد فى مايو ١٩٦٣ بأديس أبابا واشتركت فيه جميع الدول العربية الإفريقية أصدر عدة قرارات ساند فيها صراع الشعوب الإفريقية فى سبيل استقلالها وندد بكل أشكال الاستعمار وبرزت فيه الشخصية العربية كأصدق نصير للقيم الإنسانية الحرة فى العلاقات الدولية .

فهرس

صفحة

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤

شركة تنمية الصناعات الكيماوية (سيد)



إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للأدوية والكيماويات والمستلزمات الطبية

يتضاعف انتاجها ١٢٠ مرة
خلال سنوات ثورتنا الاشتراكية

نتيجة للنهضة الصناعية الاشتراكية وبتوجيه المؤسسة المصرية العامة للأدوية التي تهدف إلى توفير الدواء العربي لتغطية الاستهلاك المحلي

وها هي أرقامها الصاعدة تؤكد ازدهار نشاطها وتفوق انتاجها:

- رأس المال ١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه
- عدد المجموعات الدوائية ٣١
- عدد العاملين ١,٥٠٠ عامل
- اجمالي المبيعات ٢,٣٨٧,٠٠٠ جنيه
- مرتباتهم وأجورهم ٢٨٠,٠٠٠ جنيه
- قيمة الانتاج ٢,٨٣٩,٠٠٠ جنيه
- عدد المستحضرات المنتجة ١٢٧
- ميزانية الأبحاث ٥٥,٠٠٠ جنيه
- ميزانية الخدمات الاجتماعية ٣٥,٠٠٠ جنيه

وتعمل الشركة على تخفيض أسعار مستحضراتها لتكون في متناول جميع المواطنين ولرفع المستوى الصحي لأبناء الشعب

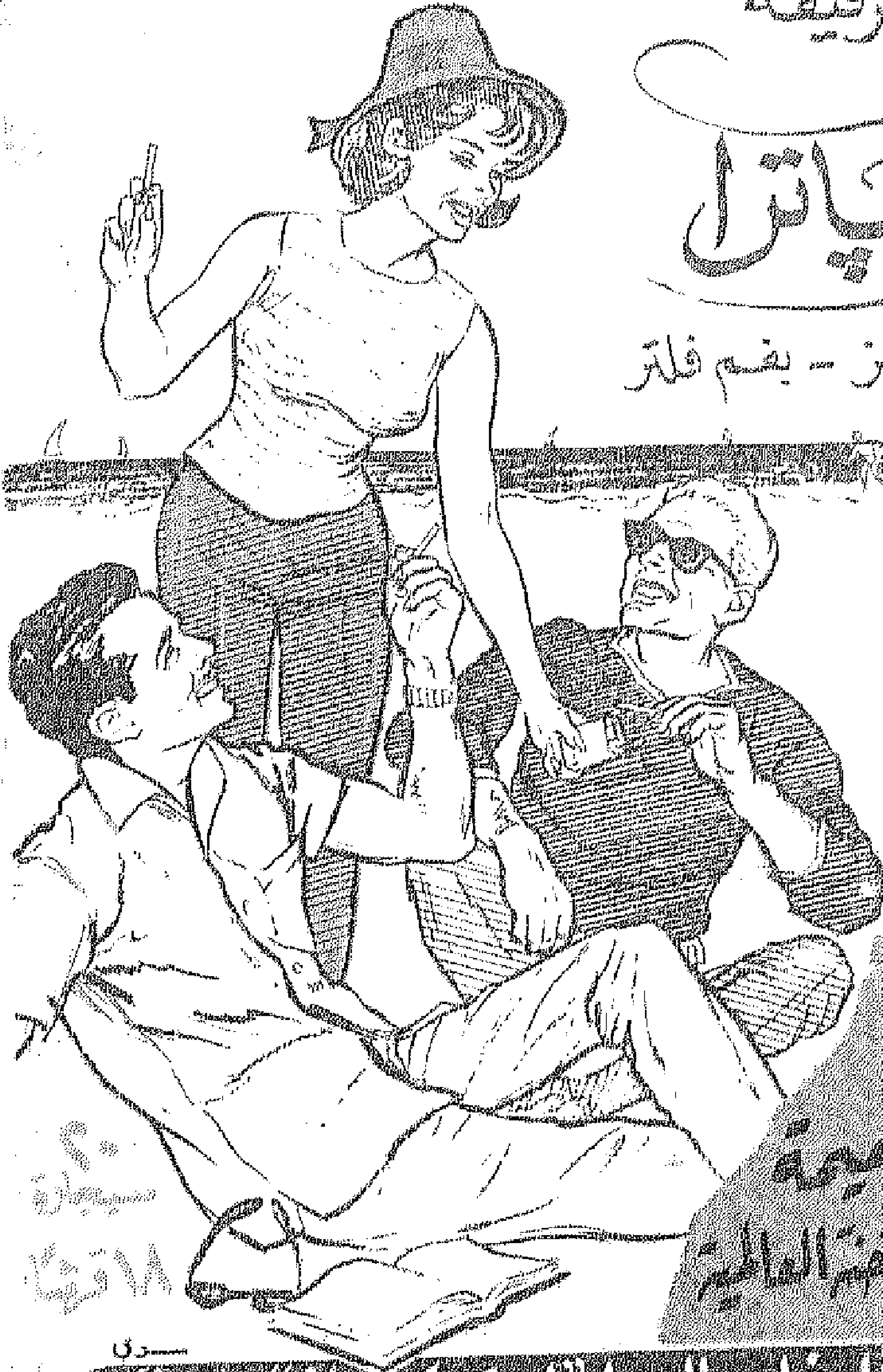
إدارة العلاقات العامة وقسم التصدير: ٢٠ ش شريف عمارة اللواء ت ٧٤-١٥
المصانع: الطالبية بالهرم - بالجيزة تليفون ٨٩٤٩٦٩

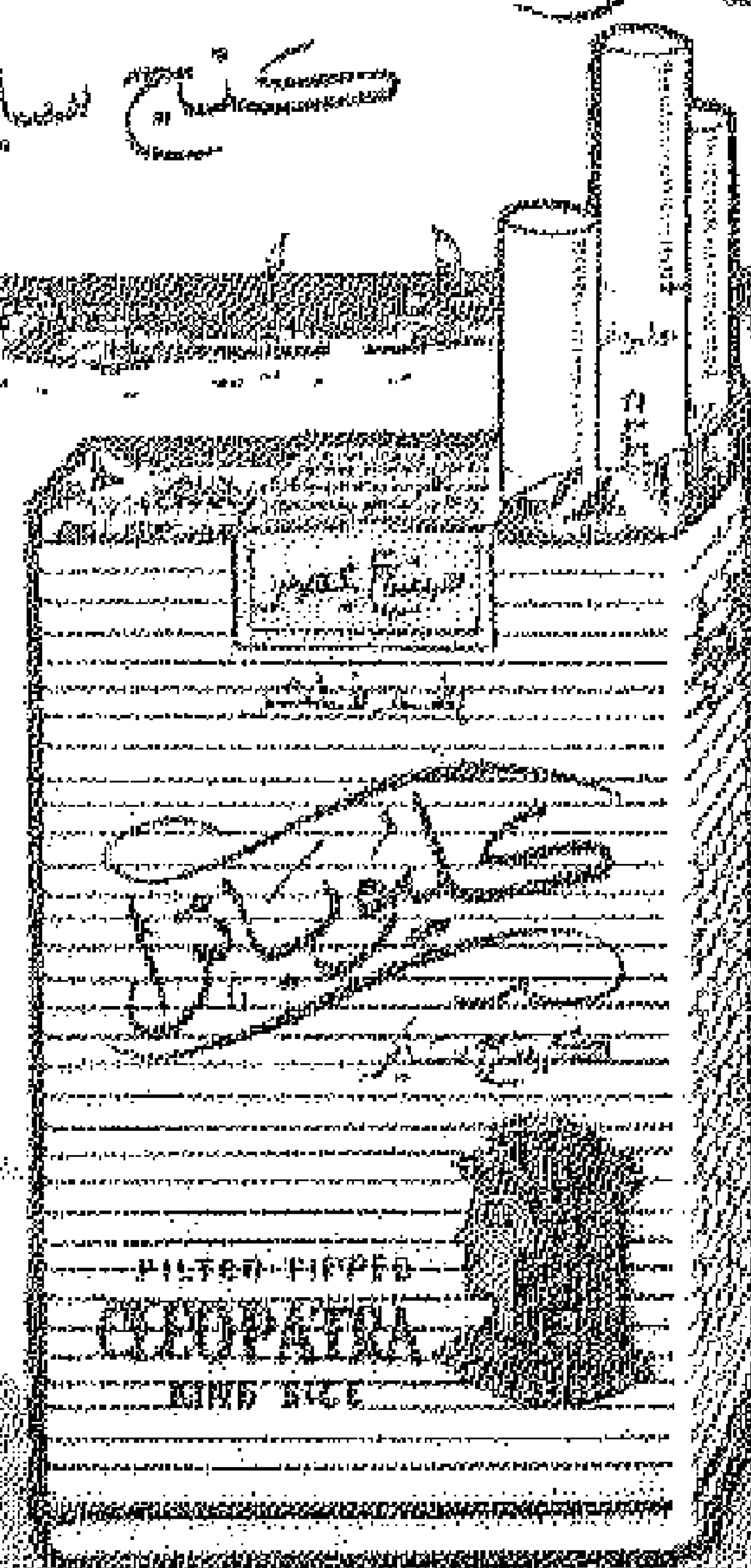
متعة الشاطئ تكتمل

بالسيجارة الرقيقة

كليوباترا

كنج سايز - بفم فلتر





سيجارة عربية صميمة

خليط من أجود الأدخنة العالمية

٢٠ سيجارة ١٨ قرشا

إنتاج الشركة الشرقية للدخان والسجاير "إيسترن كومباني"

الموزعون في البلاد العربية

- الكويت: السيد/ عبد العزيز سعود أبا بطين
- الإمارات المتصالحة / قطر: السادة / يوسف حبيب وإخوانه
- البحرين: المؤسسة التجارية الشرقية
- العراق
- اليمن: شركة التبغ والكبريت الوطنية
- عدن والجنوب العربي: شركة الأهرام التجارية
- غزة
- المملكة العربية السعودية: الحاج عبد الوهاب
- دول غرب إفريقيا: فروع شركة النصر للتصدير والاستيراد في هذه الدول

اقرأ

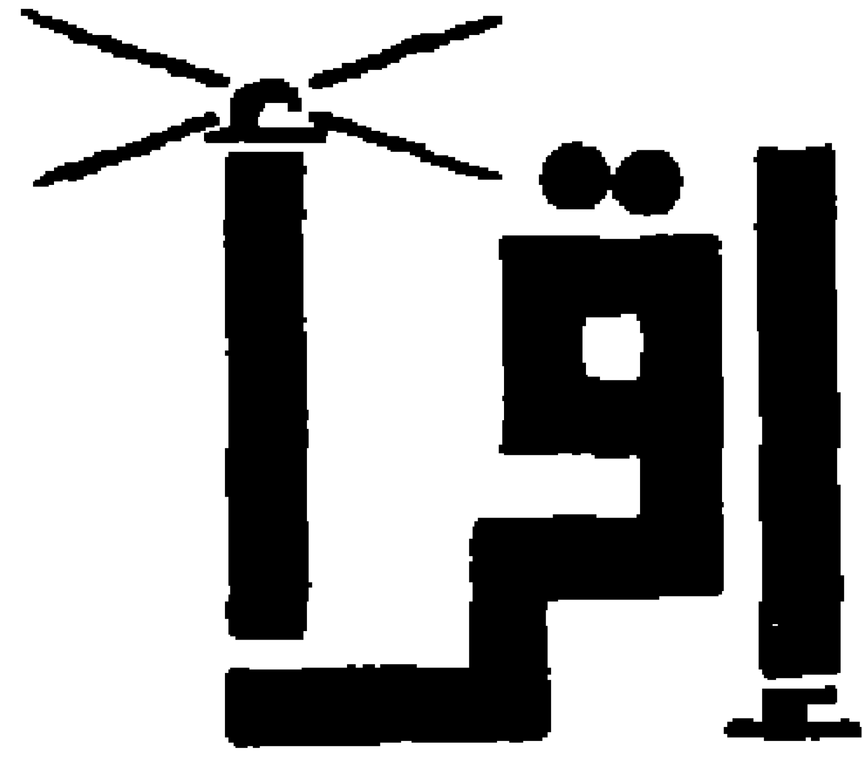
بقايا كل شيء!



أنيس منصور

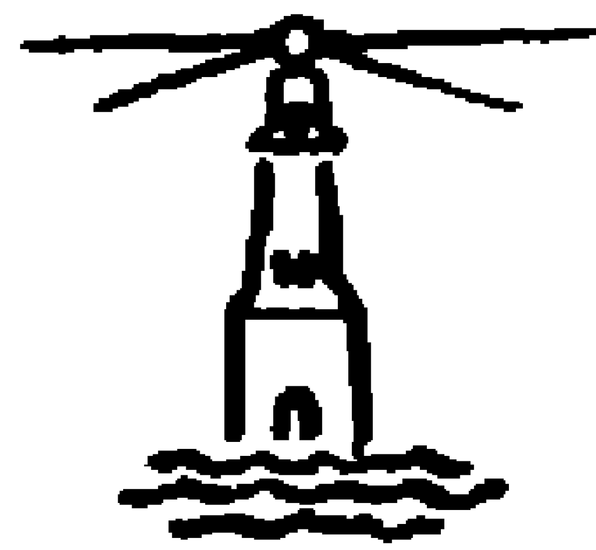
دار المعارف بمصر

٦

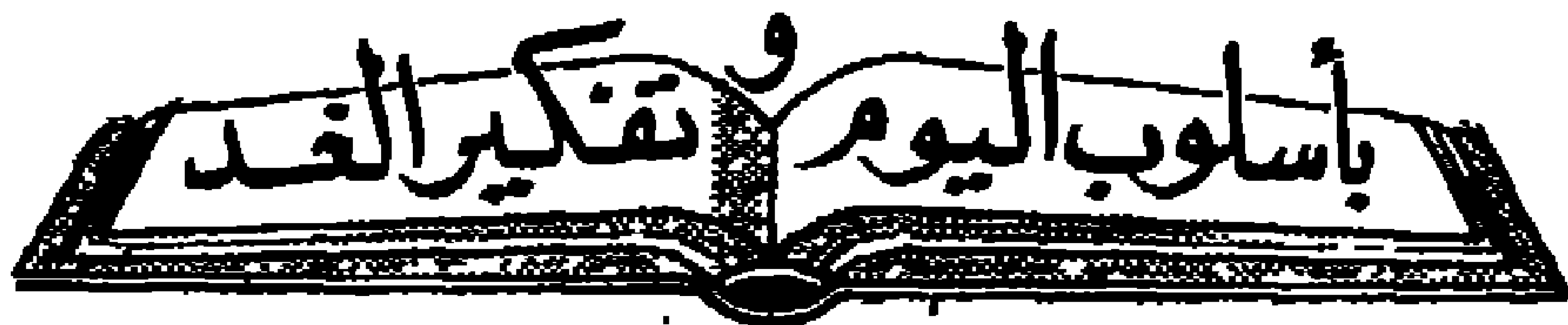


تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



أنيس منصور

بقايا كل شيء!

الطبعة الثانية

اقرأ ٢٦٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦٢ — الطبعة الثانية

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م

كلمة

هذه الصفحات هى بقايا دموع . . . صدى صرخات . . . ترددت بعيداً . . . فى نفسى ، وفى نفوس الآخرين . . .

لها طعم الملح ، ولسع النار ، ووخز الإبر ، وإلحاح الضمير ، وبريق الأمل . .

إنها خريطة لأعماقى . . .

وليست أعماقى ، ولا كل الأعماق ، واضحة . . .

فأنا دائماً أحاول ، دون ملل ، أن أوضح نفسى لنفسى ، أن أسلط نفسى على نفسى ، أن أقلّب نفسى بيدى وأتفرج عليها . . برفق كأننى أحبها ، وبقسوة كأننى أكرهها !

وبين كراهيتى لنفسى وحبى لها : تتساقط الدموع ، ويتطاير العرق ، وتتمزق آهاتى ، وتضيع . .

وأضيع أنا . . فأنا لست إلا آهاتى !

وتنسحب كل ألوان الطيف ولا يبقى إلا لون دنياى : مرارة الطفولة ، وحيرة الشباب ، وفزع الرجولة !

ومن ومضة العين الخائفة، ومن رجفة النفس القلقة ، ومن موت أصابعي على قلمي، ومن ابتسامة زائرة لها لون الملح، ودفء النار، وطعم الندم ، من كل هذا ؛ كتبت صفحات هي بقايا نفسي ، وشظايا الآخرين . . .

إنها بقاياي . . . إنها شظاياهم !

أنيس منصور

صاحب مصنع

رأيت فى قرية المنصورية أحد الفلاحين يملك مصنعاً أنيقاً . . المصنع أبيض ناعم . . إنه يتحرك وصاحب المصنع يمشى وراءه . .

وأحياناً يتعب صاحب المصنع . فيجلس إلى جوار الحائط . . . أى حائط . . ويسند رأسه ويحملق فى الأفق . . وفى يده عصا . . وينام وعيناه مفتحتان .. فإنه متعب للدرجة أن جفنه العلوى لا ينطبق على جفنه السفلى . . . إلا بصعوبة . . إن جاذبية الأرض لا تشد جفنه . . وإنما تشد دموعه من حين إلى حين . .

وعندما يصحو هذا الفلاح وينتبه إلى أن مصنعه — مصدر حياته ، مصدر ثروته — قد انتقل إلى مكان بعيد . فإنه يصحو من نومه أو من يقظته . . ويمد يده إلى الأرض يجمعُ بعض الوقود لهذا المصنع . .

لأن المصنع يعمل كل يوم . . وينتج كل يوم . .

ويأتى بالمصنع ويحمله على ذراعيه . . على صدره . . فى حنان . . كأم وجدت طفلها الذى ضاع منها . .

ثم إذا هو يربط المصنع الصغير بحبل ، ويلف الحبل حول رجله هو ويضع الوقود خلف المصنع أو أمامه . . ويعود إلى الحائط ويسند ظهره إليه . . ويلقى بجسمه على النبوت الذى يحمله فى يده ، ويتطلع

٨

إلى سحابة فى السماء .. إنها لحاف طائر ، إنها سرير من حرير . . وعلى هذا السرير يحلم بأنه يتمدد وينام .. ويترك مصنعه الصغير يعمل . . ولا يدهش أبداً عندما يجد المصنع الأبيض الناعم يتطلع هو الآخر إلى السماء . . إلى السحاب . . ثم يسند المصنع الصغير رأسه إلى القيد . . إلى الحبل وينام . .

. . . هذا الفلاح لا يملك إلا .. وزة !

تحت السلم !

« كان وجه جدتى العجوز أبيض ناصعاً . . وكان باسماً أيضاً ، كأن جدتى العجوز قد نسيت أنها ماتت » . .

صاحب هذه العبارة هو النرويجى العظيم كنوت هامزن . وجاءت هذه العبارة فى قصة « الجوع » .

ويذكرنى بهذه العبارة ، كل صباح وكل مساء رجل عجوز لا يعرف أحد بالضبط متى ولد ولا حتى متى يموت . ولا أحد يعرف من أين جاء . إنه مثل « طرح البحر » ألقت به الحياة إلى تحت السلم . . إنه يشبه جذع نخلة . . إنه جاف مجعد . . وكلامه مجعد . فالكلمة الواحدة تتحول إلى حرف واحد أو حرفين متداخلين . ولا أحد يفهم ما يقول . فاللغة التى هى وسيلة المواصلات بين الناس لم يعد لها معنى عنده ، ولم تعد لها ضرورة . . فهذا العجوز يطلق أصواتاً كالحيوانات أو كالقبائل البدائية . . .

فهناك من يقول إنه ابن أحد العمد وقد حاول أبوه أن يزوجه إحدى قريباته فرفض . وهرب من أبيه . وجاء إلى القاهرة يكسب قوته بعرق جبينه . ولم يكن صاحب حرفة .

فهو ابن ذوات . ولذلك وقف فى الشوارع يسأل الناس أن يعطوه

ما يستحقه من أموال أبيه . فهو يجمع حقوقه من جيوب الناس . .

ويقال إنه جمع مئات الجنيهات . . . وهذه المئات مكدسة فى صفائح . والصفائح موجودة تحت السلم . وقد حدث فى العام الماضى أن ذهب هذا العجوز « عم سيد » بإحدى الصفائح وأعطاها لرجل غنى . . أمانة ، واكتشف الرجل الغنى أن بها مائتى جنيه من الفضة .

ويقال إن عم سيد غضب من هذا الرجل الغنى ، ورفض أن يسحب أمواله من عنده !

ويقول أناس آخرون : إن عم سيد هذا يضع الأموال فى جيوبه ويتصدق بها على الفقراء . .

ولكن الذى لا أفهمه ولا أدريه أن هذا الرجل يطالب نفسه بمسئوليات ثقيلة . فهو يصر على أن يكنس وأن يمسح وأن يتولى حراسة البيت . . برغم أنه عجوز وعاجز عن السير والحركة . لا أحد يطالبه . . لا أحد يسأله شيئاً . ولكنه يعمل ليلا ونهاراً حتى يسقط من الإعياء على السلم . . وأكاد أضع حذائى كل يوم على صدره فيموت . . وأرى وجهه فى النور فأجده هادئاً باسماً كأنه نسى أنه مات . . أو أنه يجب أن يموت . ولكن ما هو الموت ؟

إن هذا الرجل ليس ميتاً فهو يتنفس وهو يدافع عن حياته بما بقى لديه من قوة .

ولكنه ليس حياً أيضاً . فالحى هو الذى له مشكلة ، وهذه المشكلة هى حياته هو ، كيف يحسنها ؟ كيف يوسع نطاقها ؟ كيف يعادى ؟

١١

كيف يصادق الآخرين ؟ كيف يواجه غده وبعد غده ؟

إنه ليس حياً ، وليس ميتاً . . إنه مستمر . . كأنه قناة ضيقة ، بها ماء . . والماء يزحف على الأحجار الصغيرة فى قاعها . . أو كأنه غصن شجرة يتهيأ للجفاف التام . . فيه عصارة حياة ، ولكنها تتناقص يوماً بعد يوم . . .

إن الحياة تقوم فيه بعملية جرد أو تصفية ، فهى أطفأت نور عينه ، وقطعت الحرارة عن قلبه ، وحددت إقامته تحت السلم .

وأشعر أمام هذا الرجل بالإشفاق والكراهية والفزع . . .

إنه مسكين ليس له أحد ، وليس لأحد . . وأكره أن ألقى هذا المصير ، وأكره أن أموت عضواً عضواً هكذا .. أن أموت على دفعات . . أن أموت بالتجزئة . .

وأفزع من هذا الاستسلام الباسم . .

كأنه نسى أنه مات . . أو يجب أن يموت . . .

وفى الليل وفى النهار عندما أعود إلى البيت أراه يزحف على السلالم . . لا أدرى كيف . . كأنه قطعة من الخبز القديم تجرها ملايين النمل . .

ثم أرى التراب يزحف وراءه ويتعلق به ، كأن تراب القبر يطارده . .

إن عم سيد هو الحى الذى يلاحقه قبره . وهو باسم الوجه . كأنه لم يمت بعد !

شكة إبرة !

كنت أصرخ وأبكي وأقول بصوت مذبوح : والله يادكتور . . أعفني من حياتي كلها . . أعفني من مشاكلي وعذابي . . إنني أحمل الكثير على كتفي . . أرحني يا دكتور . . هذه فرصة انتظرتها طويلا ... اجعلني أنام هكذا يوماً أو شهراً أو سنة . . أو اتركني أنام إلى الأبد . .

وكنت أرفع رأسي والضوء يتدفق ساخناً كاوياً . . فلا أرى إلا أربعة من الممرضين وإلا منضدة طويلة تلمع بالسكاكين والمشارط والمناشير وكل أدوات القتل والتعذيب . . وكنت أرى وجه الطبيب ، إنه صديقي الدكتور ف . . إنني لم أعد أرى فيه وجه الصديق . . إنه وجه جاد قاس لا يعرفني ولا ينظر إلى . . ولا ينطق إلا بعبارة واحدة هي : يا أخي إنها شكة إبرة ! شكة إبرة !

وسقط رأسي من كتفي إلى المنضدة التي تمددت عليها وعدت أقول : أعطني حقنة بنج أخرى . . بل أعطني كل ما عندك من البنج . . أعطني حقنة في قلبي . . في عقلي . . بل أعطني حقنة في أسرتي بل في حياتي كلها . . ماذا تعمل أيها الطبيب ؟ أنت تنزع أحد أظافري من إحدى أصابعي . . ليس هذا هو الظفر الوحيد في جسمي . . انزع كل أظافري . . .هناك أظافر أخرى في حياتي . . وكلها توجعني . . في عيني وفي يدي

١٣

وفى رأسى . .

وكان الطبيب يضحك والممرضون يضحكون وأسمع أصواتاً تشبه الكلام . . ولكننى غارق فى ألم وعرق وخوف ويأس .

وعدت أقول للطبيب : أعفنى من حياتى كلها يا دكتور . . هل تعرف ماذا أعمل . إننى كعامل التليفون . . إننى أرد على مئات النداءات . . . مئات المتاعب . . كلها تتزاحم على رأسى فى آن واحد . . تصور يا دكتور هذا يحدث كل يوم . . أعفنى من هذه المكالمات . . حطم هذه الأجراس التى ترن وتئن . . اقطع الحرارة . . اقطع النور . . اقطع الماء . اقطع أظافرى وأصابعى وحياتى كلها . .

لا أدرى كم من الوقت مضى وأنا أصرخ ولا أدرى ما أقول . . ولا كيف عدت إلى بيتى . . ولكن بعد ساعتين تماماً دبت الحياة فى أصبعى .. تفجر الدم .. والألم، والدموع وأحسست بالمشارط والسكاكين ، والطبيب والممرضون كلهم يتزاحمون فى أصبعى ووراءهم وأمامهم ملايين من النمل والنحل . .

وظللت أرميهم جميعاً بأقراص مسكنة .. واختفى الطبيب والممرضات وذابت المشارط والسكاكين ولم يبق إلا النمل والنحل . .

ظللنا معاً ساهرين حتى الصباح .

إنها شكة إبرة ! !

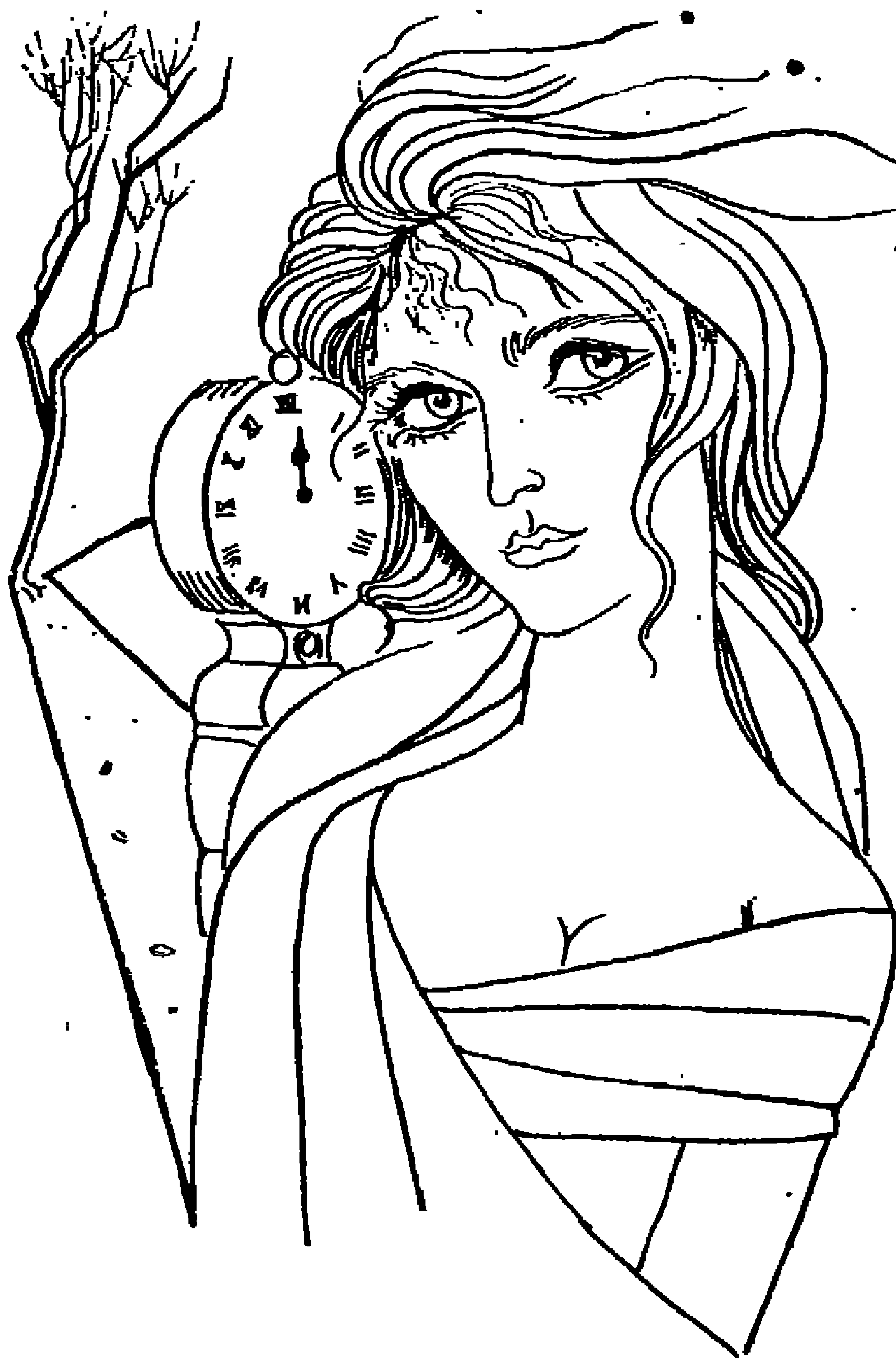
هذه الليلة لك !

يا أى إنسان هذه الليلة لك ! إن كنت حزيناً فاضحك . إن كنت سعيداً فاضحك .

اضحك قبل أن ينصحك الأطباء بالاقتصاد فى تحريك الشفتين والعينين. اضحك فزماننا ملىء بالهموم . إننا غيرنا الدنياحولنا ولم نتغير . إننا نقطع المسافة بين القطب الجنوبى والشمالى فى ثوان ، ونحتاج إلى سنوات لكى نصل من قلب إلى قلب . إن عقولنا فى العشرين ، وقلوبنا فى التسعين . إننا لم نتغير ، فما نزال نبكى عندما نولد . ونظل نبكى مدى الحياة . . ويبكى الناس علينا بعد أن نموت . فأنت ترى أننا نقترض دموع الآخرين !

هذه الليلة لك . لا تسأل عن المناسبة ولا تسأل من هو صاحب المولد. إنه أنت وكل الناس . وفى استطاعتك أن تولد الليلة دون بكاء .

اخرج من البيت ، إلى أى مكان وفى أى وقت . ستجد الناس كلهم هناك . فى انتظارك فى أجمل ملابسهم وأجمل نسائهم . هناك الموسيقى والطعام والشراب . املأ حياتك بهم . انظر إلى وجوه أخرى غير وجهك ، واستمع إلى أصوات أخرى غير صوتك . اخرج من ملابسك من جلدك الحقيقى وجلدك الزائف .



هل تعرف الجلد الزائف الذى نصنعه جميعاً؟ إننى لا أريد أن أضيع وقتك وأن أشغلك عن الخروج إلى الشارع أو إلى أى مكان . . لن أستغرق إلا دقيقة واحدة . . أنت تعرف أن الحداد له يد غليظة ، وأن الفلاح له قدم غليظة ، وأن بائع العرقسوس ينحنى إلى الوراء ، وأن السقا ينحنى إلى الأمام . . إنهم جميعاً يتأثرون بالعمل الذى يعملونه .

إن هذا العمل يترك أثره فى أجسامهم وفى نفوسهم ، وكل إنسان كذلك . فالعمل يضغط علينا . انظر إلى الخاتم فى أصبعك انظر إلى « جلدة » الساعه فى يدك . . إنها تركت أثراً يبقى بعد نزعها من يدك . . فتصور أنت أن هناك مليوناً مثل « جلدة » الساعة قد غطت أيدينا وأرجلنا وقلوبنا وعقولنا ، ليلا ونهاراً . .

وهذه الليلة يجب أن تلقى بها بعيداً ، أن تنساها . يجب أن تأخذ إجازة من نفسك من جلدك الزائف . . أن تكون اليوم إنساناً لا موظفاً ولا عاملا . فأنت نسيت أنك إنسان ولم تعد تذكر إلا الاسم المكتوب فى بطاقتك النقابية وبطاقتك المصلحية . . أنت شىء آخر ، ويجب أن تتذكر هذه الليلة أنك كائن آخر .

أنت الآن بين الناس . أنت الآن نقطة فى بحر حى . ليس هذا هو المهم . ليس المهم أن يكون الناس معك .

ولكن المهم أن تكون أنت مع الناس . فمن الممكن أن أتطلع إلى الناس ولا أراهم لأننى سرحان أو لأننى أعمى ، ومن الممكن أن أحضر حفلة موسيقية فلا أسمعها لأننى أطرش أو لأن هموماً داخلية تملأ أذنى بالقطن .

١٧

فالمهم أن أشعر بالناس ، أن أفتح لهم نفسي ليدخلوا ويضحكوا ويملؤوها ويملؤونى . إن الطيور تسبح فى الماء ولكنها لا تبتل لأن ريشها مغطى بالزيت . . . . والذين يسبحون يغطون أجسامهم بالشحم حتى لا تبتل أجسامهم . . إنهم فى الماء لا يشعرون به . . وأنت فى الناس ولن تشعر بهم إلا إذا نزعت هذا الشحم بل هذا الريش كله . . وإلا فأنت الأطرش فى الزفة . . وإلا فأنت السقا الذى لم ينس قربته يوم زفافه فحملها على صدره وراح يوزع الماء على المدعوين ونسى عروسه . . فإذا هربت منه العروس فهى على حق ، وإذا ضحك منه المدعوون فهم على حق أيضاً .

الليلة لك . فانس قربتك . وتذكر عروسك . والناس حولك . ولا تفكر أبداً فى المناسبة التى من أجلها يفرح الناس هذه الليلة . اضحك . اشرب . ارقص . فإن الموت قريب . والناس يموتون فجأة فلماذا لا تعيش فجأة ؟ لماذا لا تضحك فجأة ؟ لماذا تسأل الناس أو حتى نفسك عن المناسبة التى يحتفل بها العالم كله ؟

اضحك بلا سبب بلا مناسبة . . سيكون لديك وقت لتعرف السبب والمناسبة فيما بعد الليلة . . .

وإذا كان لا بد أن تعرف المناسبة . . فاليوم عيد الكريسماس . . ومن أجل ذلك يحتفل أتباع موسى وعيسى ومحمد . فى هذا اليوم ولد أحد دعاة السلام على الأرض . وكان مصيره هو نفس مصير دعاة السلام : العذاب والهوان والسخرية .

اليوم يحتفل الناس بهذه الذكرى . . فيشربون نبيذاً فى لون دم المسيح !

ويصابون بصداع كالمسامير التى دقت فى رجليه ، ثم على أحزانهم وهمومهم السلام . . وفى نفوسهم المحبة !

لا تنظر فى ساعتك . فلدينا كثير منها فى كل يد وعلى كل حائط وفى كل ميدان وفى كل صحيفة . ولكن انظر إلى وجهك فى عينى الفتاة التى تجلس إلى جوارك . . وعش معها . فالناس لا يعيشون إلا معاً . . ولكن عندما يموتون ، يدخلون القبر فرادى . .

اضحك ، فهذه الليلة لك . . ولا تتذكر شيئاً من هذا الكلام !

دماغنا !

إذا كان مش عاجبك روح اسكن فى الزمالك ولا فى جاردن سيتى .. مالناش نفس وإلا إيه . . مش كفاية اللى احنا فيه .

هذا كلام يقال للذين يحتجون على ارتفاع صوت الراديو بعد منتصف الليل فى بولاق ، أنا شخصياً لا أحتج . . . لأننى أعرف هذا الرد مقدماً . ولأنى لا أكون فى البيت عند منتصف الليل ، فأنا أهرب من الساعة عندما تدق ١٢ مرة . . وأعود إلى البيت بعد ذلك بساعات . . وهناك سبب آخر وهو أنه من الصعب أن يرى الإنسان اثنين يتعانقان عند منتصف الليل حتى لو كانا عقربى الساعة . . لذلك أرجع مع الساعات الصغيرة من الليل . . .

فهل عندك سبب لكى تفتح الراديو فيصرخ ويملأ الدنيا زعيقاً ونعيقاً ؟..طبعاً قلة ذوقك وعدم تقديرك لشعور الغير حولك . . كأن العمارة التى تسكنها ليس فيها أحد سواك وكأن ذوقك هو ذوق الناس كلهم . . وكأنه لا أحد مريض ولا أحد يعمل ولا طالب يذاكر فليس على الأرض سواك . . .

هل عندك سبب لاستخدام الميكروفون فى أية مناسبة . فى فرح أو فى مأتم ؟ طبعاً النفخة الكاذبة والتباهى والادعاء .

أنت عندك فرح . . أنت عريس . فما ذنب الناس يا أخى . . أنت سعيد بعروسك فبالرفاء والبنين أيها العريس . ولكن من قال إن سعادتك هذه واجب على كل إنسان . . ؟ على كل رجل وكل امرأة . . وما معنى أن يكون عدد المدعوين عشرين أو ثلاثين ثم تضع ميكروفوناً خارج البيت ليصبح عدد المستمعين مئات بالقوة ؟ . إنهم فعلا مئات ولكنهم يلعنونك أنت وعروسك . . .

عندك مأتم . ليكن . البقاء لله ! وكل إنسان سيموت . ولكن من قال لك إن فقيدك هو فقيد الناس جميعاً ؟ من قال لك إن حزنك هو حزن البشرية ؟ . . إن أحداً يا سيدى لا يعنيه أمرك . . أبداً . هذه حقيقة . إن حياتنا كقطار الصعيد . . ونحن أشولة . . ومقاطف وسلال تتساقط على طول الطريق . فلا يدرى بنا أحد والقطار يمشى . ويجب أن يمشى سواء كان عندك ميكرفون واحد أو مليون . ما ذنب الناس ؟ ما ذنب من لا يهمه أمرك ؟ ما ذنب الذين ليسوا من دينك أو من عائلتك ؟ وإذا كان عدد الذين جاءوا لتعزيتك ٢٠ أو ٣٠ فلماذا الميكرفون ؟

كل شيء فى بلدنا زعيق.. الكلام والسلام والخناق والأفراح والمآتم.. عندك سبب لهذا كله ؟ طبعاً هناك سبب وهو أن المتمدينين أو المتحضرين هم أقل الناس ميلا إلى الضوضاء وأكثرهم ميلا إلى الوحدة إلى العزلة . كلما أحب الإنسان الهدوء كان متحضراً . كل الذين سافروا إلى سويسرا لا يسمعون فى شوارعها أى صوت . أى صوت . وعلى الرغم من هذا الهدوء التام تجد فى الشوارع لافتات مكتوباً عليها : منطقة صمت ..

٢١

فأى صمت يريدون هناك؟ لا بد أنهم يريدون منا أن نكف عن التنفس من أجل المرضى والطلبة . . ولأن هناك حرية أخرى غير حرية الكلام هى حرية الصمت . . من حق كل إنسان أن يصمت وأن يستمتع بسكونه . فلا يجب أن نخرجه من صمته . كما أنه لا يجب أن نخرج لسانه من فمه فيتكلم بالقوة . . ولا يجب أن نقتحم عليه هدوءه . . أنت حر فى أن تتكلم ولكن بشرط ألا تعتدى على صمت غيرك . . حرية عجيبة لا نعرفها فى بلادنا .

إن الميكرفونات تشبه « البخاخة » التى تطارد بها الصمت كأنه ذباب أو بعوض .

وليس أسهل من أن تتحول من البدائية إلى الحضارة . . بسيطة جداً . . بأصبع واحدة تستطيع أن تدير مفتاح الراديو . وبيدك تستطيع أن تنزل الميكرفون . . فكل ما يسرك أو يحزنك خاص بك أنت وحدك . . واحنا ما لنا يا أخى . .

تحت أقدامنا

أبناء شارعنا ، لا ينظرون إلى فوق . . فى ذلك خطر عليهم ، فى الأرض حفر وفيها بالوعات وطوب وفيها أطفال صغار وعليها خضراوات وليمون وطماطم وتتساقط عليها أرغفة من الخبز . . وقد يصطدم الإنسان ببائع لبن أو يرتطم بتلميذة فى طريقها إلى المدرسة . . وقد يسمع من حين إلى حين : فتح يا افندى . . يا فتاح يا عليم . . صبحنا وصبح الملك لله .

فالنظر إلى الأرض أحسن وأريح . .

وفوق ؟ . فيه إيه ؟

لا شىء . . فوق مثل تحت . . ناس فوق بعض . . ثم فوق إيه ؟ فوق الأسطح أسوأ جداً من الشارع .. وأسوأ من الناس اللى تحت . . أسطح البيوت مليئة أيضاً بالحفرات والمطبات والتراب والعفونة . . وليس فوق إلا الفراغ . . بلاليص فارغة وصفائح وصناديق . . وقوالب طوب وحجارة وأعواد حديدية ، وطيور وأرانب . . ليس فوق إلا الفراغ وإلا « الفوارغ » .. وأسطح البيوت لا يسكنها إلا عدد قليل جداً من الناس .. إنها كالقمم .. ضيقة منعزلة باردة . . إن قمة الهرم العظيم ضيقة جداً . . منعزلة باردة . ، الصراخ ينتهى إليها كهمس ، الأشياء تبدو فيها ضيئلة جداً ، والرجال يبدون فى حجم الأطفال ، والأطفال فى حجم القطط . .

٢٣

وعندما تنزل الأمطار تتسخ أقدام الناس الذين تحت ، أما الذين فوق فتتسخ رؤوسهم . عندما تحدث الزلازل يهرب الذين فوق إلى تحت ، إلى حيث يعيش الناس ، إلى حيث تكون الضوضاء غطاء وغذاء لهم . .

لقد أقبل الصيف . . وأقبلت السهرات الطويلة فوق . . فوق الأسطح بين الكلاب والقطط والعرس والثعابين . . وأقبلت المشاجرات بعد منتصف الليالى . . والصرخات النائمة : اقفل الراديو يا جدع يا للى هناك . . اسكت . . انت مالك . . أنا مش عارف أنام . . روح نام فى الزمالك . . نامى يا ولية . . أدينى نائمة . . الناس يقولوا إيه . . حيقولوا إيه ؟ . . بنسرق ؟ . . مالهم الناس . . انت يا للى رميت علينا المية . . الله يلعن ويخرب ويحرق . . إلخ .

* * *

ونحن أبناء هذا الشارع لا نعرف أين ستتجه بأنظارنا إذا قامت بلدية القاهرة وسدت أفواه الحفر ، وأحكمت غطاء البالوعات ، وجمعت الأطفال من الشوارع وأجلست بائعى الليمون على مقاعد . . لا نعرف . . فقد تعودنا النظر إلى ما تحت . . تحت أقدامنا !

بلا أسف !

مرضك مسألة شخصية . . تعبك حكاية تخصك أنت . . عذابك كدموعك لا تدخل عيون الآخرين . فمن الذى يخفف عنك المرض ؟ الطبيب ؟ ممكن . إنه يضع يده على جسمك ، يحاول أن يقرأك على طريقة برايل ، ويضع أذنه على صدرك وعلى ظهرك ، إنه يستمع إلى إشارات تلغرافية يبعث بها قلبك ويحاول أن يفكها ويخرج من جيبه ورقة ويكتب خطاباً إلى الجيوش التى تحارب فى دمك . . إلى الجراثيم والكُريات البيضاء والحمراء . . يطلب إليها أن توقف القتال وإلا . . إنها كالرسالة التى ألقاها عمرو بن العاص فى النيل يطلب من النيل أن يمتلىء بالماء . . وتكون النتيجة طبعاً ألا تتوقف المعركة . فيلجأ الطبيب إلى العنف ،إلى استخدام الأسلحة والمواد المتفجرة والمواد السامة التى تقتل الجراثيم وترهق المريض أيضاً. ولكن الطبيب لادخل له بعذابك ، ستظل تتعذب كما أنت . إن العذاب لا ينتقل إليه . . فإذا نجحت « وصفة » الطبيب ، فإنه يشعر بالارتياح لأن تشخيصه للمرض كان دقيقاً . وإذا لم تنجح هذه الوصفة ، حاول وصفة أخرى . . وثالثة ورابعة . . وإذا ظهرت أعراض جديدة لمرضك فمعنى ذلك أنك شىء غريب . وليس على الطبيب إلا أن يعود إلى كتبه . .

ويبقى عذابك كما هو ، والمعركة دائرة فى الدم . لأنها تخضع لقوانين أخرى ولتفاعلات لا شأن لها بالطب وعلمه وتجاربه وارتياحه وعدم ارتياحه . . .

والناس الذين يحبونك مثلا . .

قد يكون مرضك مرهقاً لهم . هذا طبيعى . فأنت لا تعيش وحدك . أنت تعيش فى بيت وفى مكتب وفى مجتمع . ومرضك سيحدث بعض الارتباك ، تماماً كما تتوقف السيارة فى الطريق . ولكن سيمشى المرور بعد ذلك . وتظل أنت على جانب الطريق . إلى أن تتحرك من جديد أو تفسح مكاناً لغيرك . . فى الطريق أو فى الحياة كلها . .

هؤلاء يجلسون حولك . يرونك تتقلب يميناً وشمالا . كأنك سيجارة تلفها يد قوية فى ملاءة بيضاء أو فى بطانية غليظة . . ولكنك تظل تتألم أيضاً . فالألم يشبه — الراديو المفتوح ، سيتكلم سواء استمع إليه أحد أو لم يستمع إليه أحد . إن الألم ليس كالزكام ينتقل بالعدوى . إنه تفاعل داخلى . إنهم يمدون أيديهم لك ويعودون بها كما كانت سليمة ، سترى التأثر فى عيونهم ولكن هذا التأثر ستراه عليهم أيضاً عند سماع أغنية حزينة ، وعند مشاهدة فيلم حزين . كل إنسان لديه الكثير من المتاعب والآلام التى تتراكم بعضها فوق بعض . وتظهر فى أية فرصة . أية مناسبة . . ومرض حضرتك هو الفرصة السعيدة ، التى تهتز لها نفوسهم وتدمع لها عيونهم . . كما يحدث فى الزلازل والبراكين . . ففى باطن الأرض نيران.. والنيران لها بخار من الغازات، يظل حبيساً حتى يجد مكاناً ضعيفاً

فى قشرة الأرض . . فيحطمه وترتجف الأرض ويتصاعد الغاز ويهبط المطر . . ومرضك هو هذه القشرة الضعيفة فى هذه العلاقة بينك وبينهم . . ولكن يبقى عذابك كما هو . . .

وأخيراً أناس عزيزون عليك . . أمك . . حبيبتك . . زوجتك . . . ستراك الواحدة منهن فتبكى لحالك . . أو تبكى عليك . . ولكن دماغك تغلى ، وحرارتك عالية . . والمعركة دائرة . . لأن المتحاربين عميان وصم وبكم وحيوانات لا تفهم ولا ترى ولا تسمع ماذا يدور خارج جسمك.. تبكى الأم وتتعذب جداً لك . . ولكن يبقى عذابك كما هو . . فلا علاقة أبداً بين تأثرها لك . . وبين مرضك . . إلا كالعلاقة بين زكامى الآن وبين عدم وجود فلوس معك الآن . . وقد تتعذب أنت لعذابها وخصوصاً أن التى تحبك وتحبها ستبالغ جداً فى آلامك ومتاعبك . . وترى الزكام اختناقاً . وترى الصداع موتاً محققاً . . وعذابها سيعذبك . . ولكنك لا تستطيع أن تخفف لها عذابها ، ولا هى تستطيع أن تخفف لك عذابك أبداً . .

بل إن الإنسان أحياناً يحس أن الذين يحبهم كأسنانه وضروسه التى يأكل عليها و يعيش بها . . وأحياناً توجعه هذه الأسنان ويتألم لها ومنها . . ويتمنى أن تقتلع الأيام كل هذه الأسنان . . ويضع مكانها طقماً من الأسنان الصناعية حتى يريح ويستريح . . حتى لا يتعذب لعذابهم ، وحتى لا يعذبهم عذابه . .

ومع ذلك ، وأنت تتألم ، سيبقى ألمك مثل جلدك لا يتسع لأحد

غيرك . . لأن مرضك هو معركة بين الكرة البيضاء والكرة الحمراء والجراثيم والأملاح والفيتامينات والبناء والهدم .

لا أحد « يشاركك » فى ألمك . . بالنصف أو بالربع أو بالعشر . . لا أحد « يقاسمك » وجعك . لأن الألم كالموت يتلقاه الإنسان وحده !

صدقنى . .

لقد جربت ذلك . .

وبلا أسف !

خيوط قصة

للبطل شاب فى السابعة والعشرين من عمره . طويل أسمر وطبيب ، تخرج حديثاً ويتمرن فى عيادة طبيب كبير . وهو طبيب القلب . فيه رجولة وشهامة . وله مبادئ يتمسك بها . . والبطلة سيدة فى الأربعين من عمرها لها أولاد . وزوجة الطبيب الكبير . وكانت زوجة قبل ذلك . وأحبت هذا الطبيب الكبير . وتركت من أجله زوجها الأول . وهى سيدة جميلة . رأت هذا الشاب والتفتت إليه ، بعقلها وقلبها وأحبته . وأحبها الطبيب الشاب .

أما الأسباب التى أدت إلى هذا الحب أو هذا الميل . فهى أن الطبيب الكبير قد أصبح مشغولا عن زوجته . ليس مشغولا بعمله ، ولكنه مشغول عنها بنساء أخريات ، ولا يخجل هو أبداً من ذكر هذه الحقائق ولكن الزوجة تحبه ، وتعرف نزواته ، وتعرف أنه مرهق وأن التغير أمر ضرورى للزوج . وأن الزوجة التى تريد أن تغير طبيعة الرجل وخصوصاً إذا كان طبيباً فناناً ، كزوجها ، فإنها تطلب المستحيل .

وأحست الزوجة شيئاً آخر . . إن زوجها حريص على إهانتها أيضاً أمام أصدقائه وأمام صديقاتها . وأن الغرض من هذه الإهانة هو لذة تعذيبها . فهذه لذة شاذة عند الزوج ، قد ظهرت أخيراً ولم تكن تعرفها من قبل . لقد كانت تجد هذه اللذة على صورة بخل شديد . فهو

حريص على أن يتلذذ لصراخها وهى تطلب منه المال لشراء الملابس والسفر وتغيير أثاث البيت . وكان يجد لذة فى الرفض .

فإذا رآها بملابس ممزقة ، وكذلك أولاده . . كانت هذه لذة تفوق لذة الجنس عنده . .

ولاحظت أيضاً أن زوجها يدفعها إلى أشياء أخرى ليست كريمة . . إنه يعرضها على أصدقائه ويغريهم بها . فإذا صدقوه ثار على الزوجة ، وتلذذ بعذابها وأمعن فى تعذيبها . . وأحست الزوجة أن الطبيب زوجها — كما كانت تراه — فهو كبير عندما يجرى عملية جراحية وهو يتقدم الأطباء جميعاً فى غرفة العمليات . ولكن عندما يجئ إلى البيت ، فليس طبيباً ولا ممرضاً ، بل هو مريض ، ومرضه لا علاج له . . إنه ليس كبيراً فى نظرها . وإن كان هو عظيماً ومشهوراً فى عيون الناس .

إنه ليس كبيراً عندما يأكل وعندما يجلس إليها وإلى أولاده . .

إنه إنسان عادى جداً ، بل أحط من الإنسان العادى . .

ورأت هذا الشاب . . إنه شىء آخر .

إنه شاب ، هو الآخر مخدوع فى الطبيب الكبير . إنه يراه كبيراً . .

وأخذت الزوجة تروى للشاب كيف أن زوجها هذا ليس شيئاً إطلاقاً . وأنه سافل وأنه منحط وأنه بخيل وأنه مريض وأن فيه وحشية الجرائم الفتاكة . .

وبدأ الشاب هو الآخر يتحرك . . فى هذه القصة . .

إنه يحب هذه السيدة الجميلة . إنه هو الآخر بلا تجارب . إنه

خجول ويتهيب الزواج من أية فتاة شابة ، تقرأ المجلات وتذهب إلى السينما وتعرف الرقص وأحبت قبله عشرات الشبان . .

أما الآن فهو أمام سيدة . . هذا أفضل وأحسن .

وهى سيدة معروفة عظيمة . إن عشرات من مشاهير الرجال يطمعون فيها ويتمنونها لأنفسهم . وهو يكره أستاذه هذا فهو رجل أنانى . وهو لايطلعه على كل أسراره . وحبه لزوجته انتقام منه وانتقام لها أيضاً . وزواجه من هذه السيدة هو انتصار وانتقام معاً .

إن هذه السيدة قد فتحت حواسه جميعاً . . لقد تحولت حواسه إلى أكف ضارعة . . تنتظر ما يملؤها . وكانت هذه السيدة تملأ حواسه . إنها امرأة قد جربت الحياة وعرفت الرجال . ولعلها هى الأخرى قد قررت أن تتزوج هذا الشاب .

وبدأ الشاب يفكر ، أو يتراجع .

وكان تفكيره على صورة ندم . لأن ضميره قد صحا .

فهو يتساءل : لماذا قررت الزواج منها ؟ لأنها قررت الانتقام من زوجها .. فدفعها الانتقام إلى أن تتزوج أحد تلامذته .

إنه الانتقام إذن ، وليس الحب . وجعل يقول أيضاً : ولكننى سأكون خائناً وجباناً ، إن الرجل قد ائتمنى على زوجته ، فإذا بى أخونه وأخونها . نعم أخونها أيضاً فإن ابنتها الكبرى تحبنى وقد وعدتها بشىء كالصداقة أو كالزواج . ولا بد أن الفتاة الصغيرة قد صدقتنى . وإذا كنت أنا ألهو وألعب فإن هذه الفتاة جادة ، ولا أريد أن أكون هذا الخادع

الخائن وفى بيت واحد . . وفى بيت أستاذى الطبيب الكبير . .

ولكن الزوجة تبكى وتقسم أنها تحبه ، وأن الذى تشعر به هذا ليس انتقاماً . ولا هى رغبتها فى فضيحة الزوج ولا فى أن يتحدث عنه الناس . ولكنها تريد أن تكون زوجة للشاب الذى أحبته ، وأنها ستضحى بالطبيب العظيم وشهرته ومجده ، من أجل حبها .

ولكن الشاب يسأل نفسه : أليس هذا هو نفس الكلام الذى قالته يوم تزوجت الطبيب العظيم . . أليست هى نفس الكلمات ؟ وماذا كانت النتيجة ؟ ! . .

وأحس الشاب كأنه ثعبان كبير ، وكأن خيطاً صغيراً قد دخل فمه ثم كسر أسنانه كلها . . وأصبح ثعباناً بلا أسنان . . ثعباناً لا يلدغ ولا يقتل . لقد فوجئ الشاب بأن قصته هذه قد عرفها كل الناس والذى قال للناس هو الزوجة . لقد تحققت الفضيحة إذن . وعرف الطبيب الكبير ذلك . وتحقق الانتقام أيضاً . وعرفت الفتاة الصغيرة خداع الطبيب الشاب . وحدثت النذالة أيضاً .

وكان على الثعبان الشاب أن يمضغ الخيط الذى تكسرت به أسنانه . وأن يلزم جحره . . وينتظر الأبطال الآخرين لكي يكملوا قصته . . فقد قرر هو أن يختفى عند النصف الأول منها . .

ولكن الانتقام والانتصار والعطف والشماتة ، ما تزال تتردد فى أذنه عند كل مرة تتحدث إليه هذه الزوجة فى التليفون فى الساعات الصغيرة من الليل . .

ولم تكمل القصة بعد .

وليس من الضرورى أن تكمل . .

حياة . . كلها طرب

أعصابى هذه الأيام كالأسلاك الشائكة.. والشوك قد اتجه إلى لحمى ودمى . . إن هذه الأسلاك لا أستطيع نزعها منى ، إنها تشبه جلد القنفذ الذى لبسته بالمقلوب . . وفى كل ليله تدور المعارك تحت نافذتى . . . أصوات وصراخ . . وكلها تنزل فوق دماغى كالطوب . وكل طوبة توجع . لأنها تدق شوكة فى جلدى . . فأقفز من فراشى إلى النافذة أفتش عن مصدر الصوت الذى أسمعه ولا أراه . . إنهم أناس قد تمددوا فوق الأسطح بين الأقفاص والصفائح والبلاليص . . إنهم كالزواحف ، حياتهم تراب ، ووجودهم زبالة ، وكلامهم طوب . وأحياناً أقف أبحث عنهم . . إننى لا أحسدهم على نومهم العميق . . حتى نومهم له صوت يشبه صوت الضفادع وقد انحشرت فى أفواههم . . إننى لا أقوى على مقاومة هذا الطوب.. لا بإقفال النافذة ولا بوضع المخدات فوق رأسى .. فهى كالقضاء والقدر . . إنه طوب كالصواريخ الموجهة لى وحدى . . ولا أملك إلا أضعف الأيمان وهو مقاومة الطوب باليد واللسان ، أى بالكتابة !

وتبدأ المعارك الليلية بهمس خفيف يشبه أقدام الجنود وهم يمشون على بطونهم فى الخطوط الأمامية . . وبعد ذلك تندلع النيران . . فتنطلق « عرسة » صغيرة بين الدجاج . . وتطاردها عبارات عالية . . حوش يا جدع . . امسك عندك . . يا بنت ال . .

والكلام يتجه أول الأمر إلى العرسة . . ثم إلى الزوجة النائمة . . ويهدد

الزوج بإلقاء أولاده من فوق السطح . . وتنفتح النوافذ المجاورة . . ويبدأ الجيران بإلقاء كلام كالحجارة : يا راجل نام . . يا أخى خليك للصباح . . الصباح رباح . . قلقتم نومنا . . الله يخرب بيوتكم . .

ويتخلى الرجل عن شتيمة زوجته ويتحول إلى ماهو أهم . . إلى شتيمة أصحاب النوافذ . . وتنفتح نوافذ أخرى . . وتتراشق النوافذ والأسطح بالشتائم وتتكسر بعضها على بعض — كما يقول الشاعر المتنبى . . وفى الأرض يعلو صوت عسكرى الدوارية وهو يقول : مين هناك . . . يا ناس اتهدوا . . حد لاقى نوم . .

ويعود التشابك بالشتائم : وانت مالك . . مالى ازاى . . ناموا . . نام انت . . . اسكتوا . . اسكت أنت . . هو ده حى ياناس . . روح اسكن فى جاردن سيتى . . اخرس . . اخرس انت !

وأخرس أنا أيضاً !

وقبل أن تصبغ الشمس الأفق بلونها الأحمر ، يكون الأرق قد سبقها إلى صبغ عينى . وقبل الفجر بساعات تبدأ مظاهرة من نوع غريب . . . كل فجر ياناس . . يمر رجل صوته كحجر الطاحون الذى يدور على قمح نصفه من الزلط . . وينادى : يا سى عبد الله . . يامى اسماعين وحدوه !

إنه يناديهم للصلاة . . ويتكرر النداء عشرات المرات ، كأنه يريد أن يتأكد من أن الناس جميعاً قد قاموا من الفراش ليشهدوا على تقواه وعلى ورعه . . وتجاريه أصوات عبد الله وإسماعيل وهى مترددة بين النوم واليقظة ، بين الطاعة والعصيان ، بين لعن أبيه والاستسلام . . .

ولا أستطيع بعد ذلك أن أنام دون أسمع صوت بائع الفول . . إنه شاب بلدى أنيق . . له شارب يقف على شعرة واحدة . . وله طاقية قد استقرت على جانب واحد . وينادى هكذا : ياحلاوة اللوز . . والنبي ما نام الليل . . سهران . . النوم للعواجيز . . فول شباب قوى . . اللوز .

وحضرته يعاكس ابنة الجيران التى لا أعرف لها مكاناً . . .

والضياء والضوضاء تزداد كلما ارتفعت الشمس . . وكلها تتلاشى مع انطلاق الترام الذى يحاول اقتلاع القضبان والعجلات كل يوم . . كأنه يريد أن يجرى على الأرض حافياً بلا عجلات ولا قضبان . وكل يوم أقسم أن أترك هذا البيت . . ولا أزال عند قسمى منذ عشر سنوات . . وأنا لا أستطيع أن أضع القطن فى أفواه الناس . . ولا أستطيع أن أعطل الورش الناجحة والتى تدق الحديد الساخن والحديد البارد تحت نافذتى فى « أخبار اليوم » . . والتى تجعل من رأسى سنداناً ليناً . . وأظل أرزح تحت الحديد طول النهار ، ويظل قلمى يرزح تحتى ليلا ونهاراً . . إنه عكازى الذى أهش به على غنمى . . فإذا جاءت غنمى عرجاء أو مكسحة فلأننى أنام فى بولاق وأعمل فى عشش الترجمان . . ولأن حالى ينطبق عليه ما تقوله أغنية صباح : طوب يا قلبى . . طوب يا قلبى طوب . وكل ما أستطيع أن أعمله هو أن أضع القطن فى أذنى لأنعم بالهدوء الذى كان يعيش فيه العبقرى الأصم أديسون ، مخترع المصباح الكهربى . . . وهى خطوة إن شاء الله فى الطريق الذى تتربع فى نهايته الآنسة هيلين كيلر . . . العبقرية الأخرى التى لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم !

الفكرة التى طاردتنى

كنت على موعد مع غروب الشمس فى الإسكندرية . وأنا حريص على المواعيد وخصوصاً إذا كان هذا الموعد مع فتاة . والشمس ما تزال أجمل فتاة فى عالمنا ، إنها حواء الأولى . . إنها مصدر حياة كل حواء وكل آدم ، وكل حواء فى النبات والحيوان . . إنها أول كل شيء فى عالمنا الصغير . . وانطلقت من القاهرة على عجلات سرعتها مائة كيلو متر . . وكنت أجلس إلى جوار عجلة القيادة و بدأت السير بهمة وحماسة وأعراض ملل وأعراض خوف ولكن حاولت أن أنسى هذا كله والتفت إلى الطريق أمامى. وإلى جوارى جلس صديق هادئ لا يتحدث إلا قليلا . . وفى المقعد الخلفى جلس صديقان .. أحدهما يدخن صامتاً .. والآخر ينام كطفل بلا هموم ولا متاعب . . وهكذا بدأت رحلتنا هادئه سريعة . .

وفجأة قفزت إلى رأسى فكرة سخيفة . . . فكرة مؤلمة . . . وأحسست كأن ذبابة دخلت عقلى . . وراحت تزن وتطن . . ولا أدرى كيف أطردها ولا كيف أقتلها . . ورحت أطردها بأفكار أخرى مضادة . . كأنها « الفليت » أو ال د.د.ت . . ولكن الذبابة لم تسكت ولم تكف عن الحركة وعن خربشتى من الداخل . . الفكرة هى : أن قلبى حاسس أننى سأموت

فى هذا الطريق . .

وأخذت الفكرة تقوى وتقوى . . ولم يحدث لى هذا أبداً . وقلت لعل رادار القلب قد أحس بشبح الموت وهو على بعد دقائق أو أميال منى . . هل أرجع ؟ أرجع إلى أين ؟ . . لأهرب من الموت . لأهرب منه وأحتمى بمن أو بماذا ؟ هل أعود بهؤلاء الأصدقاء الذين بدأوا يضحكون ويمزحون وكأنهم يعرفون ما يدور بخاطرى ؟ . .

وتساءلت : ولماذا جاءت هذه الفكرة ؟ ومن أين ؟ هل أنا متعب . . إننى فعلا لم أنم ليلة أمس . هل أنا كاره لهذه الرحلة . فعلا أنا أكره قيادة سيارتى مهما كانت المسافة . . وهذه المسافة طويلة وسخيفة ومهلكة . . إذن التفكير فى الموت هو تفكير فى الهرب التام من هذه الرحلة ومن أى شىء آخر . أو أن هذه الفكرة هى فكرة مستجدية . . فكرة متسولة فكرة تريد أن تستدر شفقة هؤلاء الأصدقاء لكى نعود إلى القاهرة بدلا من السفر إلى الإسكندرية.وجعلت أسأل نفسى: وكيف يكون الموت فى هذا الطريق ؟ سيكون بأن تنزلق سيارتى على الرمال فتنقلب . . وتكون نهايتى . . وحياة هؤلاء الذين يضحكون . . أو بأن نصطدم بأية سيارة أخرى . . أو بأن أموت أنا وحدى دون رمال ودون حوادث . .

وكأنى أقاوم هذا كله . . بدأت أعتدل فى جلستى وأتنفس بهدوء . حتى يبقى القلب نشيطاً يدق . . ومددت يدى إلى الراديو ففتحته . . لأرفع روحى المعنوية . . ثم خففت من السرعة وانتبهت جيداً إلى حافة الصحراء . . وإلى السيارات القادمة . . فكل سيارة هى قذيفة موجهة إلى . .

موجهة تحوى أنا بالذات . . وأنا أعرف من الذى أطلقها . .

وشعرت بعد ذلك أو قبل ذلك لا أدرى . . بشىء من الهوان . . بشىء من الضآلة . . فعربتى ليست إلا نملة تجرى فوق ظهر أفعى أسود تمدد من القاهرة إلى الإسكندرية . . وأحسست فعلا بشىء بين الحياة والموت ، بين الوجود والعدم ، بشىء من الضياع . .

واعتدلت مرة أخرى فى جلستى وقلت : إن هذا التفكير فى الموت هو وحده الذى سيجعلنى أموت ، هو وحده الذى سيشغلنى عن القيادة فأصطدم بأية سيارة . . ولذلك يجب أن أطرد هذا التفكير . . أن أمحى عن رأسى هذا الستار . . هذا الضباب وأنا ألتفت إلى الطريق . . لكى أموت مفتوح العينين . . .

وكأننى أحسست أننى لم أحقق كل شىء فى نفسى قلت : عندما أصل إلى الإسكندرية سأنزل البحر . . سأستحم . . إننى لم أنزل بحراً فى حياتى . . لم أمد له يداً ولا رجلا . . إن مياه كابرى لم توقعنى فى غرامها ولا أمواج دوفيل ولا فتيات كان ونيس . . ولم تعجبنى عبارة « عندما أصل » . . فقد وصلت . . هذه الأشجار ، هذه المياه على الجانبين . . هذه الرطوبة .. وضيق النفس.. وباعة التين على الجانبين . لقد وصلت .

وأدخل فى الشوارع ولا أرى علامات المرور . . ماذا بعد الحياة . . لا يهمنى أن تمتد يد عسكرى المرور ويكتب ما يشاء من المخالفات . . إنها ضريبة الحياة . . إنها الفرحة بالنجاة . . ولم أسأل نفسى : النجاة

من أى شيء ؟

وعلى الكورنيش . . أحسست بشيء غريب . . أحسست أن الهواء يفصل لى ملابس كلها من قماش مبلل . . وأن الهواء كأى ترزى يستخدم الدبابيس لتظل الملابس على جسدى فهو يضع الدبابيس فى كتفى وفى جنبى وفى ظهرى وفى صدرى . . وظللت أنا أتكرمش وأتقلص حتى صغر حجمى . . ولكن الترزى لا يختصر ملابسه . . إنه يختصرنى أنا . . فأنا لا أشعر بقدمى اليسرى ولا ذراعى اليسرى . .

وتعبت من الطريق ومن الهواء . . وذهبت إلى غرفتى لأستريح . . لأستريح من الفكرة التى طاردتنى من القاهرة إلى الإسكندرية . . وعندما وضعت رأسى على المخدة تنبهت إلى أننى طردت فكرة الموت بالاستسلام له . . أليس النوم موتاً صغيراً ! !

وهربت الذبابة . . وبدأت أضيق من رائحة الد. د. ت !

حرف البيب !

اليوب – أى اليوم – شعرت أننى كجزيرة قبرص . فهناك حصار شديد حولى . . حصار يخنقنى . . هناك أيد تمسك بعنقى من تحت الجلد . . وأننى لا أستطيع التنفس . . أحسست أن أنفى كقناة السويس وأن باخرة قد انفجرت فيها . فأصبح المرور صعباً جداً . . وآمنت بأن التنفس تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المزكومون !

الطبيب يقول لى : لاعلاج إلا النوم فى البيت . .

ولزمت البيت وأقفلت الباب والشباك وتغطيت باللحاف . ووضعت رأسى فى طاقية . ووضعت الجوارب فى قدمى . . وارتفاع درجات حرارتى معناه أن هناك مقاومة هائلة فى جسمى وجعلت ألقى بالسوائل والحبوب لقوات المقاومة . . وشعرت أنى أحارب فى خنادق من البطاطين وأننى أنتظر نهاية المعركة . . فكلما شعرت بخيط من الهواء يصلنى بالعالم الخارجى تأكدت أن قوات المقاومة قد شقت طريقاً إلى عالم الحرية . . وكلما أحسست أن الهواء لا يدخل إلا بصعوبة أيقنت أن جزيرة قبرص بسبيل أن تستسلم . . فالمدافع تدق رأسى . ونيران البطاريات تلمع فى عينى . وصفارات الإنذار فى أذنى . . إن هناك مؤامرة على حياتى وإن هناك طاغية يعطينى الهواء بالبطاقة . ستيمتر واحد كل دقيقة .

وضقت بظلام الغرفة وبأكداس الأغطية . . مللت حرب الخنادق . ولكن لكى أفوز بالحرية لابد من القيود ولكى أنعم بالنور لابد من ظلام

الخنادق . ولكى أعرف قيمة النسم العليل يجب أن أمر بمحنة الهواء المخنوق . . هذا ثمن الحرية .

حتى الهواء القليل الذى أمتصه أو أغتصبه بدأ يخرج مطروداً على هيئة سعال . . بل إنه لم يكن هواء بل كان شيئاً ملموساً محسوساً خشناً كالمبرد يأكل حلقى . ويلقى بنشارة حلقى حبوباً على شفتى . .

وأضع الترمومتر فى فمى وأجده قد زحف إلى الأربعين . . وبدأت أحلم وأفكر فى درجة حرارة عالية . . وتخيلت أناساً لا أدرى ما الذى جمعهم فى هذه اللحظات العصيبة . . أرى وجهاً باسماً . . وأرى عينين زرقاوين.وأسمع صوتاً ناعماً وأعود برأسى إلى الوراء لأقول لها : وداعاً . . ثم أعتدل فى جلستى وأقول : لا وداع . . بل سأقاوم . . سأقاوم ماذا ؟ سأقاوم ذكراها . سأقاوم الطاغية الذى احتبس فى داخلى وحبسنى .

ولاحظت أن الإنسان فى هذه الدرجة من الحرارة لا يفكر فى شىء له قيمة . . كل ما يفكر فيه هو كيف يتخلص من جحيم الحرارة والاختناق.

وبدأت أستعرض وجوه أناس يعيشون فى هذه الدرجة الحرارية دائماً رأيت أديب إنجلترا « جراهام جرين » . . إنه مصاب بنوع من الزكام الذى يصيبه فى مواسم الورد ويفقده متعة الشم .. والأديب الوجودى ألبير كامى . . كان هو الآخر يلبس أكثر من بلوفر فى الصيف وفى الشتاء يلبس اثنين تحت القميص واثنين فوق القميص ويلبس البالطو أيضاً ويضيف إليها جميعاً كميات من الخمر تملأ حماماً صغيراً . . ومع ذلك فهو سيد المفكرين . . وكاتب إيطاليا « كورتسيو ملبارته » كان يقول :

إن هناك أفكاراً لا يمكن أن تذوب إلا فى درجة حرارة عالية . . فى عاطفة قوية من الحب . . من الكبرياء . . من التضحية . . لابد من الحرارة وعلى الفنان أن يساعدها بالوقود . . بالخمر أو بالمرض . .

ومع ذلك لم أتمكن من « إدارة » فكرة واحدة فى رأسى . . كان الإنسان يفكر بأنفه . . والذى قال إن أنف كليوبطرة قد غير التاريخ ، لم يكذب كثيراً . . إن أنفى الذى فقد وظيفته أياماً ، قد عطل تفكيرى نهائياً . .

والمزكوم لا يستطيع أن يقابل الناس أو هكذا أنا . . . ففى يده منديل ، وفى جيوبه مناديل وفى عينه احمرار وفى صوته ذبحة وفى نفسه قرف . . ويخشى أن تنتقل عدواه إلى الناس . . ولا زيارات ولا مقابلات . .

ثم انتظار فارغ . . انتظار فى الفراش حتى تنتهى المعارك فى داخله بين جيوش الزكام وبين جيوش الصحة . . ولم يكن أمامى إلا أن أترك نفسى ميداناً وأنشغل عن النتيجة بأشياء أخرى . أى أشياء . . وقد حاولت أن أتسلى بحذف حرف الميم من كل ما أقوله ولاحظت أن حرف الميم يملأ معظم الكلمات . وأنها محاولة يائسة . ولو كنت ملكاً طاغياً وكانت إصابتى بالزكام مزمنة لصدرت مرسوماً بإلغاء حرف الميم !

وأحسن عبارة تصور حالتى الآن بالضبط هى التى تقول : إننى أقوب بن النوب أناب تانى . وقد اختفى حرف « البيب » نهائياً !

اتس . . اتس : لا مؤاخذة فإننى ما أزال أعطس !

عذاب كل يوم !

كان رأسى ليمونة وأنا أعصرها كل يوم . . وتبقى الليمونة فلا يتساقط منها شىء . ولا أفقد الأمل . . .

كان رأسى ساعة واقفة . أهزها لكى تتحرك تروسها وتدور عقاربها . فلا أسمع لها صوتاً ولا أيأس . .

كأن الفكرة أو الفكرتين اللتين فى رأسى تشبهان « زهر » الطاولة . . أهزهما يميناً وشمالا « وأقرص عليهما » ثم ألقى بهما على الورق فلا أجد عليهما أية علامة . . وأتعكز من جديد على أملى . .

وأنهض إلى الباب والنافذة وأقفلهما فقد تكون أفكارى كالوطاويط تخاف من النور . . أو يكون قلمى قد جف ولا بد أن أغمسه فى سواد الظلام . . وأسمع حولى الهمس والكلام والضوضاء ، وكلها مختلطة بعضها ببعض وأرفع قلمى إلى أعلى كأنه « إيريال » لعله يلتقط منها شيئاً . .

وأحياناً أتوهم أن كل الأفكار التى فى الدنيا باقية لا تزول وأنها تملأ الجو وأنها تدور حولى كأنها أسطوانات . . وهذه الأسطوانات فى حاجة إلى إبرة لكى تنطق . . وأجعل من قلمى هذه الإبرة . . ومع ذلك لا أسمع أى شىء .

كل شىء حولى كلام فى كلام . . الناس ألفاظ وجمل مفيدة وغير

مفيدة . . وكلها تدخل رأسى بلا ترتيب . . ويتحول رأسى إلى استوديو تصوير ورسم ونحت . ملىء بلوحات وتماثيل وصور لا أعرف أصحابها . وأحاول أن أميز بينها جميعاً . وليست هذه المقالات إلا صلات تعارف بين أصحاب هذه الآثار الفنية جميعاً . .

ومشكلتى كل يوم هى كيف أرتبها الواحدة وراء الأخرى . . فى خيط ، فى حبل . . فى شريط سينمائى . . كيف ؟ لا أعرف . ولكن لا أستبعد أن يكون العلم الحديث قد وجد وسيلة لا أعرفها . ولذلك لن أفقد الأمل أبداً . وفى كل يوم أكتب خطاباً بهذا المعنى وأمزقه :

« عزيزى العالم العظيم فلان الفلانى . . . العلم الحديث الذى تتحدث عنه كل يوم . . والزراير التى تأتى بالمال والسعادة والراحة والمصانع التى أنشئت لصناعة قطع غيار للعقل الإنسان وقلبه وشحنها بالذكاء والحب والسلام . . وإيمانك بالتقدم المطلق للعقل الإنسانى ألم يهتد بعد لحل مشكلة مثل مشكلتى هذه ؟

« إن مشكلتى هى أننى أريد أن يخرج الكلام من رأسى كما يخرج الحرير من رأس الدودة . . مع فارق واحد هو أن الحرير يخرج من رأس الدودة " سادة " وأنا أريده "مطبوعاً " ملوناً مشجراً . وأنا لا أستبعد أن يحقق ذلك قريباً .

« ولذلك أتقدم بطلب متواضع . . وهو حجز نسخة واحدة من هذا الجهاز الذى يوضع فوق الرأس فيخرج الكلام مكتوباً كما يخرج من أحشاء أجهزة " التلغراف" وأنا أعلم أن ليلة القدر مغلقة فى وجوه من ينتظرونها

. . ومفتوحة لكل إنسان لا تخطر له على بال . . وسأحاول أن أنساها لعلها تنفتح فى رأسى . . يارب ! »

. . . أما الآن وإلى أن يصل هذا الجهاز فسأظل أهرش فى عينى وفى أذنى وأمر بيدى على وجهى تماماً كما تمر على وجه الراديو تضبط الموجات . . فلا أسمع إلا الصفير وإلا الوش وسأظل أعصر الليمونة الجافة فتسقط منها مثل هذه البذور التى قرأتها الآن !

. . . كن عادلا ، إن استطعت

مع آخرين استمعت إلى هذه القصة . وحولى وحولهم كل شىء ملون . الأضواء والفساتين والعيون والأكواب والعواطف وحتى الدموع . وقال بعضنا : مظلومة ! وقال بعضنا : بل زوجها هو المظلوم .

لماذا دعيت مع آخرين ؟ لم أعرف ، ولم أفهم .

ولكن بدأت السيدة قصتها مباشرة . بدأت فاعتدلت فى مقعد عريض وثير غطت جانباً منه والجانب الآخر احتله فستانها الحريرى وحقيبتها وعلبة سجائر ركعت أمام ولاعة ذهبية .

وتقاربت الأكواب وتلامست ورنت الحروف الأولى من : فى صحتك .

وقبل أن تتزوج هذا الرجل . لم تكن تتصور كيف تبدأ العلاقة بين رجل وامرأة .. إنها تريد شيئاً واحداً ، هو أن ينقذها رجل شهم . رجل فارس ، ستحبه ، ستعبده ستكون خادماً له ، جورباً فى رجله ، منديلا فى جيبه ، وسادة تحت رأسه ، وامتدت يد إليها . لم تنظر إلى اليد . لم تعرف طبيعتها ، لا قوتها ولا ضعفها ، إن فرحة النجاة قد أذهلتها . فتعلقت باليد ، وخرجت وعانقت صاحبها ، وانحنت على يده تقبلها ، وتضع خاتمين واحداً فى يده وواحداً فى يدها . هى التى . . فعلت وليس هو .

إنها غنية والرجولة لا تقدر بثمن .

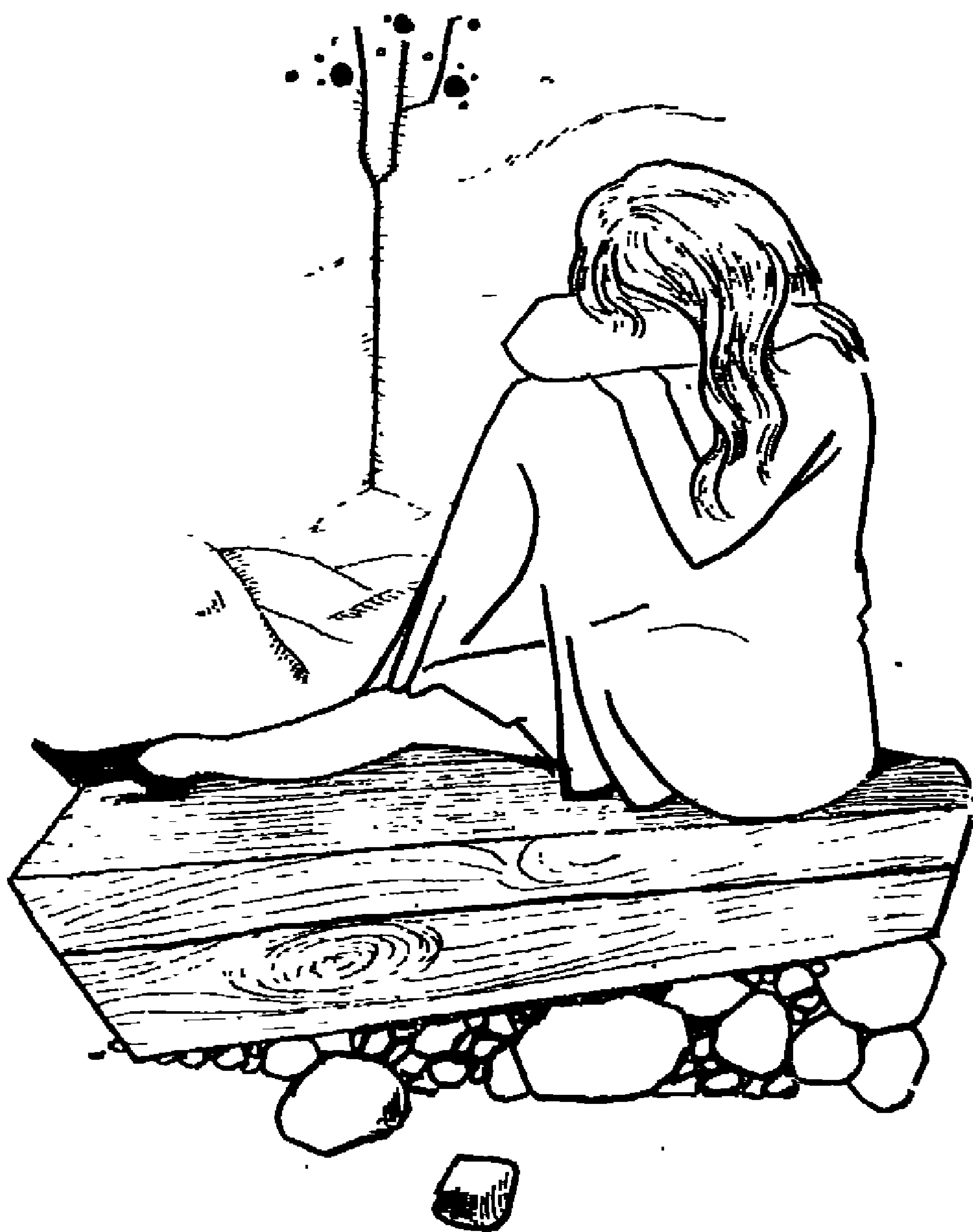
ولم يطلب منها أن تعطيه كل ما تملك من بيوت وأرض . ولو طلب لفعلت . .

ولكنه لم يطلب . لو طلب إليها بعد شهر واحد من الزواج أن تأذن له بالزواج من امرأة أخرى لوافقت ، ولم يطلب منها إجازة ليستريح فى مكان بعيد . لابعد شهر ولا بعد سنة ..إنها شابة فى الثانية والعشرين وهو شاب فى السابعة والعشرين ،إنها بلا تجارب وهو أيضاً بلاتجارب .

لقد تعلمت القراءة وكتابة القصة والتردد على دور السينما . والاستماع ساعات إلى الموسيقى والبكاء ساعات عند النافذة ، وفى التليفون . تعلمت هذا كله من أجله وبسببه .

وسؤالها الذى تكرره فتقف له الأكواب فى أيدينا : ماذا تستطيع أن تفعله فتاة شابة حساسة مثقفة مع رجل تحبه . لا يقرأ ولا يكتب ولا يجد متعة فى أى شىء ولا يجلس فى البيت ولا يسمح لى بالخروج أو بزيارة أحد ولا يعطينى حق الحياة الإنسانية ؟ إننى مع الناس ولست من الناس . مع الأحياء ولست من الأحياء !

وتبكى ، وتتلون دموعها من وجنتيها وشفتيها ، وفستانها . . إن جسمها وبيتها يروى قصة أخرى ، لا تعرف الدموع ولا الصراخ . . وإنما تعرف الموسيقى والأحلام..وتعود تروى قصتها فوق . فوق كتفيها فتسحب هى العيون من جسمها إلى رأسها وتسمع منها : ما فائدة البكاء ؟ أنا أعرف أنه لا فائدة . . تماماً كالفيلسوف اليونانى الذى سألوه : لماذا تبكى على



ولدك . مع أن البكاء لا يفيد ؟ فأجاب : لهذا بكيت ! وأنا لهذا أبكى . ولأن الدموع لا تفيد أبكى على دموعى الضائعة .

وزوجها لا عيب فيه . . شاب وسيم فيه رجولة وغنى أيضاً ويحبها . ولكن حبه على طريقته هو : إنه يحبها ولهذا تزوجها ، يحبها ولهذا لا يسمح لها بالخروج من البيت ، ولا زيارة أحد ولا أن يزورها أحد . إنه يحبها ويخاف عليها ، ولذلك حبسها . . وهو يحبها ولذلك لا يجب أن تناقشه أو تحاسبه ، أو تجلس معه على مائدة أو تتقدمه إذا سارت فى الطريق ، ولا بدّ أن تنجب . . أولاداً . والذى يراها لا يصدق أنها تزوجت أو أنجبت أولاداً . بل يقول : يجب أن تتزوج حالاً وأن يخطفها أى إنسان ويهرب بها إلى مكان بعيد . . وهذه هى أصابعها خلت من الخواتم . ومن أى أثر لدبلة خطوبة أو زواج .

وحاولت هى أن تقنع زوجها بأن يعاملها معاملة أخرى . فالحب ليس حالة نفسية يحتفظ بها الرجل فى دمه . كما يحتفظ بمصحف فى جيبه . . ولكن الحب كلام وأفعال وخروج وسهر وضحك وحنان وخناق وتهديد بالانفصال وتهديد بالطلاق وقسوة ورقة ، ويد ترتفع لتضرب فإذا هى تلين لتعانق . .

وكان رد الزوج أن هذا كلام قصص وأفلام . .

ولكن القصص لها أصل . . والأفلام لها حقيقة . .

وكان الجواب : أنا كده .

طلبت إليه أن يعرف أية فتاة أخرى . . وأن يحبها . . وحينئذ يعرف

ماذا تقوله المرأة إذا أحبت . . ويعرف ماذا يحس به عندما يحب . . كيف يشعر بالزمان والمكان .

وكان الجواب أنت لا تريدينى . ولكنى أريدك ، وسأبقيك هنا ، ولن تخرجى من هذا البيت إلا ميتة .

وتقول : إننى أحبك ، وأنا أريد أن أحرك عواطفك . والغيرة كاللص إذا دخل البيت أحس صاحب البيت بالخطر . وبأن أمواله مهددة ، وأن حياته مهددة وزوجته وأولاده كل هؤلاء سيضيعون منه . . وأنا أريد أن أجعلك تهتز ، أن أجعلك تخاف . أن أهزك لتتحرك عقارب الغيرة فيك . .

وكان يضحك . . وكانت هى التى تتحرك وتهتز وتغار عندما تتصور أنه سيحب امرأة أخرى وأنه سيفكر فى الزواج منها . . ثم تبكى وتنزل دموعها . وتشهق أيدينا وتتدافع إلى التقاط دموعها . . وكلما حاولنا أن نعلق على الدموع ونتجه إلى القصة الأخرى التى يرويها ثوبها وعطرها ودخانها صدتنا دموعها وأعادتنا إلى مكاننا من القصة فوق حيث تخرج من شفتيها .

وبدأت تسأل زوجها : ماذا تفعل لو وجدتنى يوماً وقد تعلقت بذراع رجل .

وقال زوجها : ماذا تقولين ؟ أليس هذا عيباً . . ؟ فتقول له : افرض هذا . .

فيقول : مستحيل !

وتعود تقول : ووجدته يقبلني .

ولا يصدق الزوج أن هذا هو كلام امرأته، وينهض واقفاً : أنت مجنونة ! وتمضي قائلة : ووجدته يعانقني عناقاً طويلا . . وفي يده مسدس يهدد كل من يقترب مني ويلقي بدبلة الزواج في الأرض . .

تقول هذا وهي تتراخى وتترامى في مقعدها وتحس بالسعادة وهي تتطلع إلى زوجها وقد غضب . إنها لم تره أبداً يغضب . وقد احمر وجهه . ولم تر هذا اللون أبداً . . وقد شتمها . وهي لم تسمع إلا أدبه وإلا حياءه الشديد إنها تريده هكذا دائماً . . هكذا دائماً .

وكان لها ابن عم وخرجت معه . وتعمدت أن تسير به أمام المقهى الذي يجلس عليه الزوج وكانت ترتعد وهي تفعل ذلك . . كل شيء فيها يرتعد ، ولم يكن زوجها هناك . وانتظرت أن يناقشها أن يحاسبها . . ولكن أحداً من أصدقائه لم يخبره . . ورآها زوجها مرة وسكت . .

ومع رجل آخر وثالث . . كان لعباً أول الأمر . وكان نزهة بعد ذلك وكان غراماً وهياماً . . وطلبت إلى زوجها أن يطلقها . . إنها تحبه ولكن الرجل لا يشعر بها ولا يدري ماذا يجب أن يفعله إنسان نحو المرأة التي يحبها أو التي تحبه . . إنه رجل بلا خيال ولا شاعرية .

وحدث بعد ذلك شيء نستطيع أن نتنبأ به من ارتعاش جسمها كله ومن دموعها ومن السيجارة التي سقطت على الأرض . فتزاحمت عليها الأيدي تنقذها . وتنقذ البساط منها . . وانتشلنا السيجارة وكانت ما تزال مشتعلة ولكن عندما اصطدمت بالمنضدة تساقطت نيرانها وانطفأت . . .



وظلت السيدة مشتعلة بالذكريات والحزن والأسى أما الذى حدث فهو أن زوجها ذهب إلى عزبته . وهناك انتحر وانطفأ . .

وكان ذلك منذ ستة شهور . . وضمير الزوجة الذى استقر فى هذا الجسم الجميل الذى لا يستقر فى هذا الثوب . أو فى هذا البيت . ضميرها يعذبها . إنها تحس أنها قتلت الزوج مع أنها لم تقصد إلا إشاعة الحياة فيه من أجلها ومن أجله ومن أجل أولادهما .

والمطلوب منا أن نقول إنها بريئة من دم هذا الرجل الذى مات وأوصى لها بكل ما يملك . فزاد فى عذابها وألمها .

وحكمت المحكمة ببراءة المتهمة وذلك بعد أن جلست للمداولة مع المتهمة وأكلت فى بيتها عيشاً وملحاً وملأت منها العين والفم والأنف والقلب .

فما رأى الذين لم يروها ولم يجلسوا إليها ولم تمزقهم دموعها .

إن هذا البيت الجميل يتحدى العدالة ! !

عم سيد !

فى بيتنا ، وتحت سلمنا ، عجوز يقاوم جاذبية الأرض بعصا قديمة . اسمه عم سيد لقد ارتدى كل ملابسه . ولف حولها حزاماً من الجلد ، وعلى رأسه وضع طرطوراً ووقف مرتجفاً يقاوم البرد . إنه يشبه « بابا نويل » ولكن بعد أن وزع هداياه ونزع ملابسه وأعطاها للأطفال فى كل مكان ثم نسج من الطين ملابسه وذراعيه ورجليه . . ويشبه بعد أن هجم عليه ألوف اللصوص فسرقوا بصره وسمعه وحياته . . وقطعوا صلته بكل الناس . .

ولكن عم سيد لا يزال يقاوم اللصوص المجهولين . يقاومهم بصفائح كالمتاريس مملؤة بالتراب ، وفى التراب قطع معدنية تلمع . إنها كنوزه . فى كل ليلة يخرجها ويمسحها ويدفنها من جديد . يدفن نقوداً جديدة ناطقة . . كأنه يكرر عملية الوأد القديمة أيام كان الناس يدفنون الفتيات أحياء . . أو لعل عم سيد يهون على نفسه مشكلة الموت والدفن . فهو يمثل عملية الدفن تحت التراب كل ليلة . ثم يقف بعصاه يدفع عن نفسه الكلاب ، فهو يتوهمها أرواحاً شريرة ، وكثيراً ما اختلط عليه أمر الكلاب والقطط ونحن ، وراح يضربنا ، ونحن نعذره لأنه لا يحسن القراءة بيده . إنه لم يتعلمها إلا أخيراً . . !

فهو لا يقرؤنا بأصابعه وإنما بعصاه . فهو يمر بها على الحائط وعلى الأرض وعلينا . .

وفى الليل فى كل ليلة يقفل باب غرفته . . ويتلمس ثوبه الجديد . الذى كان جديداً والذى لا يلبسه إلا فى الأعياد . وحذاءه الأحمر سابقاً، وطاقيته الشبيكة ، وزجاجة فيها عطر لم يشمه أحد . ومرآة صغيرة تراه ولا يراها ، وفى حضور هذه الكنوز ينام بعد أن استراح إلى أن اللصوص لم يحملوها معهم . إنه يفعل تماماً ما كان يفعله الفراعنة من ألوف السنين . . لقد كانوا يدفنون كنوزهم معهم فى انتظار الرحلة إلى الشاطئ الثانى وكذلك عم سيد . . إنه ينتظر رجلا . . إنه ينتظر « بابا نويل » آخر . . يأخذ ولا يعطى يأخذ الطفل وأباه . . الشقى السعيد . . . إنه ينتظر هذا المحصل . . محصل النور والماء والهواء . . الذى يحصلنا ويقبضنا وهو يقرأ فى كشف لا نراه ولا نعرفه . . إنه ينقلنا من هنا إلى هناك . .

لقد أخذ من عم سيد الكثير .

ولم يترك منه إلا الحروف الأولى . . تركه عملة ممسوحة سيلقى بها فى « حصالة » لا ترد أحداً وتتسع لكل أحد .

فوق السلم أو تحت السلم !

حفنة تراب

فى بورسعيد قابلت كثيراً من الناس جاءوا من الشمال والجنوب . . كلهم ليروا ماذا فعل العدوان بهذه المدينة الآمنة . إن كل شىء هادئ فيها ، الناس والحياة ، والأنقاض ترتفع من الشوارع ، ودخان البارود قد طغت عليه رائحة البحر ، والناس ينزلون من القطار يبحثون عن تمثال دى لسبس . . لقد تحطم التمثال وسقط فوق زورق صغير وانكفأ على وجهه . . إنه غارق على سطح الماء . وتمثال الجندى المجهول قد انفصل حصاناه . وألقى أحدهما فى الشارع وامتطاه الناس . . والتقطت لهم صور ، والآخر فى منتزه صغير . .

والشوارع امتلأت بالبيريهات الزرقاء يتحرك تحتها جنود وضباط . إنهم الكنديون أبناء عم الإنجليز والأمركيين ليسوا صغار السن كالدنمركيين والسويديين . بل معظمهم على أعتاب الأربعين والخمسين . وهم لا يتحدثون إلى أحد من الناس . ولكنهم يداعبون الباعة المتجولين .

وكل شىء سيتغير فى هذه المدينة . فالشوارع تنظفها السيارات والفئوس تعمل فى إزالة الأنقاض . ولن يكون هناك خراب ولا دمار . سيختفى التراب الذى أغمض العيون وسد النفوس . تماماً كما اختفى من المدن الألمانية . لقد رأيت ميونخ ودسلدورف ورأيت هانوفر وهمبرج ، كلها

ضربت بمئات الألوف من القنابل ، ولكن اذهب إليها الآن وأرنى أثراً واحداً لقنبلة أو طوربيد . . لا شىء ، قامت البيوت ، أو على الأصح قام الناس فقامت البيوت !

وستمتلئ محلات بورسعيد بالزبائن ، والشوارع بالسائحين من كل بلد فى أوربا وآسيا . . ولن تقف طويلا زوارق الصيادين ، ولن يطول تثاؤب عمال الأرصفة سيكون هناك بحر — كما يقول أبناء بورسعيد — وهم يعنون بذلك الحركة والتجارة ، فإذا كانت هناك حركة وتجارة فهذا هو البحر . وإذا لم تكن هناك حركة فالبحر أرض يابسة . إذن فليس هناك بحر .

وكان الليل بارداً فى بورسعيد ، والبرودة تعلن حالة الطوارئ فى كل الشوارع حتى البوليس الدولى قد توارى فى البارات . إنهم وحدهم يشربون ويضحكون . ولا توجد بينهم ولا معهم امرأة واحدة . والتعليمات صريحة بأن يلتزموا الأدب والوقار حتى إذا شربوا . . إلا إذا ذهبوا إلى الصحراء فهم أحرار أن يفعلوا ما يريدون . وقد سألت ضابطاً دولياً رأيته يتطلع إلى السماء : كيف الحال ؟ فأجاب : لا شىء هناك . وإنما ننتظر سقوط الجليد !

وتركنى ومضى يضحك واحتفظ بالمعنى فى بطنه أو ربما كان كلاماً بلا معنى أو هى إجابة تقليدية أو أنه كلام دولى !

ودخلت أحد الكباريهات . . وقد امتلأ بالبوليس وعيونهم تتجه إلى من يدخل من المدنيين ولكنهم حريصون على أن يضيقوا اتصالهم بالناس.

إلى الحد الأدنى . . وفى هذا المكان منذ ستين ظهرت فتاة يونانية كانت جميلة الصوت والشكل ، وكانت طيبة القلب ، وبهذه الطيبة خربت بيت أعز أصدقائى . . إننى أستطيع أن أروى قصته هنا وأنا آمن . فهو غاضب منى ، وقد أقسم ألا يقرأ شيئاً مما أكتب ، وخسرت قارئاً مستنيراً صادق الإدراك والنقد . . كانت تربطه بهذه المطربة اليونانية واسمها « ميراندا » صلة الحب العنيف . وكان يسافر يوماً بعد يوم من القاهرة إلى بورسعيد ليجلس إليها حتى الصباح ويعود إلى مصر . . ولم أكن أعرف هذه العلاقة . .

وفى يوم تلقيت دعوة من زوجته لحضور عيد ميلادها . وذهبت ولم أفطن إلى أن مجيئى إلى بيت هذا الصديق كان مفاجأة كبرى له . وبعد وصولى بدقائق استدرجتنى الزوجة إلى البلكونة وفتحت مظروفاً كبيراً وسألتنى إن كنت أعرف واحدة من هؤلاء . . والمظروف ملىء بصور الفتيات . ولم أكن أعرف . . إلا « ميراندا » هذه ومددت يدى إليها . وسقطت الصور من يدى الزوجة . بل سقطت الزوجة من حياة هذا الرجل وانفصلت عنه حتى هذا اليوم .

وكان الزوج قد أكد لها أنه لا يعرف صاحبة هذه الصورة ولا يدرى من الذى دسها فى جيبه ، وقاطع الزوج أصدقاءه القدماء وصديقاته القديمات . وهو اليوم متصوف لا يقرأ إلا القرآن وإلا الأحاديث النبوية . . ويعيش فى أرضه التى يملكها بعيداً عن كل إنسان وكل زوجة وكل ميراندا .

إن هذا الصديق كأنه مات . . يكفى أنه قرر ألا يكون له مستقبل . .

والإنسان الحى هو الذى له مستقبل ، والميت هو الذى لا مستقبل له .

ونحن وبورسعيد أحياء . سيكون لنا شأن . وسنعيش وننهض لأن الحياة تستحق أن نعيشها وأن نمدها بنا وبالناس بعدنا . وما دام هناك بحر ستكون حياة . ليس هذا كل ما أحسسته فى بورسعيد وإنما هذه حفنة من تراب الأرض التى تلقت عنا الفزع والنار والدمار . وبقيت وستبقى وتعيش بنا وبعدنا . .

وبكى الطفل !

كأن فى داخلى طفلا صغيراً . . لم يكبر ولا يريد أن يكبر . إنه يمد يده إلى الناس لكى يعطوه بعض « البونبون » أو يقرصوه فى أذنه قائلين : شاطر . . وإلا لماذا أتحدث عن ذهابى لنادى التوفيقية وعن أننى ألعب التنس . . وأن المضرب الذى ألعب به من ماركة دنلوب وأن الكور أيضاً من هذه الماركة . ولماذا أستدرج أصدقائى لكى يتفرجوا على ، مع أننى أكره أن يرقبنى أحد وأنا ألعب ، وأنا أتساقط فى خشونة على الأرض . وأمامى ممرن خفيف رشيق الحركة . . على كل حال لست أنا الذى أفعل ذلك ، وإنما هو الطفل المحروم المسكين الذى فى داخلى . . الذى لم يسمع كلمة حلوة طول طفولته وتلمذته . أيام كان ترتيبه الأول فى كل مراحل التعليم حتى الليسانس . . وأنا أرى ذلك وأسمع وأشفق عليه وأتحول إلى أم . وإذا بى أحمل الطفل على صدرى وأهدهده وأقول له : سد ياروحى سد . . بابا زمانه جاى . .

وكنت أسحب ألسنة أصدقائى ليقولوا لى : والله أنت تلعب جيداً . . كيف تفوقت هكذا . .

وأنا أعلم أن هذا غير صحيح وأصدق كلامهم . وأقول لنفسى : لم يعد الطفل فى الداخل ولكنه فى الخارج أيضاً . .

واشتريت كثيراً من الكتب عن أبطال التنس . وقرأت عن اللاعب

العالمي "هود" الذي لا ينام إلا إذا كانت الكرة والمضرب في حضنه . . وقرأت عن لاعبة دنمركية كانت تحلم بأنها تلعب وهي نائمة فكانت تصحو من النوم وتذهب إلى صديقة لها وتلعبان معاً . . وقد تكرر منها ذلك حتى منعها البوليس من إقلاق راحة النائمين . .

وجمعت عدداً من المقالات عن الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين كانوا يحبون الرياضة ويفضلونها على القراءة والكتابة . . وقررت أن أؤلف كتاباً عن « أدب الملاعب » . . وليس مهماً أن يصدر لي أو لغيري وإنما المهم أن يصدر والسلام . واكتشفت أنني غير مقتنع بهذا اللعب وإضاعة الوقت فيه ، وأن كل الكتب التي اشتريتها والمقالات التي جمعتها ليست إلا محاولة لتبرير موقف لا يقنعني . . ومع ذلك لم أتوقف لا عن شراء الكتب ولا عن جمع المقالات ولا عن اللعب . .

إلى أن كان أمس . . .

ذهبت لأشهد مباريات في كرة التنس ، إنه شيء غريب عن الذي أعرفه . . فلا اللاعبون يمسكون المضارب كما أفعل . ولا الكرة تتحرك معهم كما تتحرك معي . . إنها في أيديهم طائرة خفيفة خاطفة . . وفي يدي كأنها طوب أو حجر . . وإنها ثقيلة . . وحركاتهم أرق وأكثر نعومة . . أما حركاتي فهي دبيب على الأرض كأنني أحاول رصفها من جديد أو أحاول مسح العلامات البيضاء منها .

ثم رأيت اثنين من اللاعبين . وعرفت فيما بعد أنهما من أشهر لاعبي مصر . وهذا واضح جداً . وعرفت الفرق الذي بيني وبينهما . .

فكل منهما يلعب وكأنه يطارد فراشة بيضاء . . فيرفع يده إلى أعلى . . إنه « يهوشها » فقط ولكنه لا يضربها . . لأنه يخاف أن تموت . . أو كأن الواحد منهما لا يضرب الكرة وإنما هي التي ترتمي على مضربه . .

أما أنا فأشبه عسكرى البوليس والكرة تشبه البائع المتجول . . البائع « السريح » وأنا أضربه على قفاه وأقول : يا الله قدامى على القسم . .

وأحسست بشيء كثير جداً من اليأس والقرف . . وشعرت كأنني بائع متجول وأن يداً غليظة تهبط على قفاى وتقول : قدامى على البيت !

وقمت . . ولم أذهب إلى النادى بعد ذلك .

. . . وبكى الطفل !

إنه عقلى الصغير !

١

من الناحية الأخرى جاءتنى ابتسامة عابرة . . ولم أرد عليها . . فأنا لا أعرف إن كانت لى أو لغيرى ، ولم ألتفت ورائى ، لأرى من هو صاحبها . . . ووقعت الابتسامة على وجهى وكأنها حمامة بيضاء فوق مدخنة أحد المخابز . . وعادت الحمامة إلى حيث كانت من الجانب الآخر من « نادى الجزيرة » ولكنى نظرت إلى هذه الناحية . . وفى مرارة عشرين فنجاناً من البن ، وجفاف سهر الليالى الطويلة بلا نوم ، وقرف حبوب كثيرة أتعاطاها ضد السمنة ، حاولت أن أبتسم ولكن جاء ردى متأخراً . . .

وحاولت أن أدارى خجلى . . . أو برودى . . فرحت أتطلع فى الوجوه . . . وكانت عيناى تتعثر بين المقاعد والمناضد ... وتتسلل بين الناس ، وتترحلق على الفساتين المشدودة بالصحة أو بالترزى ... وفى جانب من النادى أحسست فجأة أننى أقرأ فى كتاب قديم من القرن الثامن عشر ... فالوجه الذى أراه هناك ... معروف فى تاريخ الأدب الفرنسى ... من أيام الحب والجمال والفروسية ... وأنا أراهن أنها تنتظر فارسها الذى سيجئ ومعه سيفه . . . وتحته حصانه الأبيض ، ووراءه عائلته وقصوره .... وسيخطفها إلى مكان بعيد ... وفعلا جاء الفارس

بلا حصان أبيض ، فقد كان هو الحصان الأبيض ... إنه صحة بلا رقة ، وقوام بلا خيال ... ونهضت هي كعصفورة ووقفت على ذراعه ... وأطلقت حمامة بيضاء أخرى ناحيتي ... فأطلقت أنا سرباً من الحمام الأبيض ومعه بعض الصقور والنسور ، ووضعت فى رجل كل حمامة رسالة صغيرة . . .

وأغفلت الكتاب الذى كنت أقلبه فى خيالى وأصبح كل شىء أمامى أبيض اللون ... كصفحات سقطت منها الصور ... أو ألواح زجاجية انعكست عليها الشمس ...

وكانت هذه الابتسامة فيما مضى تذيبنى ، تجعلنى أنزل من المقعد إلى الأرض وأركع وأشكر الله الذى وهبنا الشىء الجميل ووهبنا الإحساس به ... فنحن لا نرى الله ، ولكن نرى ما صنعته يداه . . ونحن فى سعادتنا نقبل يديه . . .

وفى خيالى . . . ركعت وسجدت وشكرت الله . . فما تزال الابتسامة تهزنى . . وتنقلنى من عصر إلى عصر . . إن قلبى ما يزال صغيراً . .

وعندما رأيت السمراء تصافح رجلا يجلس ورائى . . وتجلس إليه وتعتب عليه أنه كان مشغولا عن ابتسامتها حزنت . . ، وحزنت على أن عقلى ما يزال صغيراً . .

بخلع الضرس !

ليس هذا الموضوع شخصياً ، ولكنه موضوع عام ، وأنا مضطر أن أذكر هنا بعضَ الأسماء . . فكل اسم كأنه قسم ، كأنه « حلفان » بالله العظيم أن ما أقوله صحيح !

أنا الآن فى عيادة الدكتور ع . المصباح المضىء يدخل فى أذنى وفى أنفى وفى حلقى . والدكتور يقول لى : كل شىء سليم .

وأحسست بكراهية للغة العربية وللمصابيح !

هذا شعورى . . .

وانتقلت إلى مستشفى الدكتور . . . أنزع ملابسى وأتمدد على منضدة طويلة وبجوارها مناضد صغيرة . . ويقف إلى يمينى الدكتور و . . . طبيب الأسنان . أمامه أجهزة وأدوات شكلها عجيب ومخيف . مسامير وإبر وأمشاط وكلبشات ملتوية كأنها خرجت من النار توًّا . وأنا فى دهشة وأسأل نفسى والبنج الكامل الشامل يتمشى من ذراعى إلى كل جسمى : كل هذه الأدوات من أجل ثلاثة ضروس . . لا بد أنه سيخلع . .

ولم أكمل هذه العبارة لأننى لم أشعر بشىء بعد ذلك . .

وبعد دقائق لا أعرف كم عددها بدأت أفيق ، وهنا يبدأ الموضوع الذى أريد أن أتكلم فيه — بدأ الضباب الكثيف يتزحزح قليلا . المصباح

الذى فى السقف يشبه عيناً حمراء . . كل شىء حولى كأنه ماء أو أمواج وكأننى سمكة أتلوى . . أو كأننى فى قاع البحر . . لا أشعر برأسى إطلاقاً . ولا أعرف كيف أرى الأشياء ، ولا أدرى بأى شىء أراها وأرانى . وأحس كأن النصف العلوى لرأسى فقط هو الحى ، أما النصف الآخر فلا وجود له . . . ميت . . . أو أن عنقى يبدأ من تحت عينى مباشرة وأن تياراً من الهواء يلتف حولى عنقى . . .

أرجوك أن تنتظر بضعة سطور حتى أوضح لك ما أريد أن أقول ... وبعد ساعتين ... أصف لك شعورى ... بدأت أشعر بفمى وبلسانى وأسنانى ... وأشعر برأسى كله . ولو كنت رساماً وأمسكت قلماً وحاولت أن أصور نفسى ... لكانت الصورة هكذا : بقعة سوداء على هيئة نمس بطيخ . هذا النمس هو رأسى . وسوداء لأننى لا أرى رأسى ، ولا أحد يرى رأسه وبعد ذلك أرسم أنابيب ملتهبة فيها ماء يغلى ... هذا بالضبط شعورى . . . ثم هنا شىء يلتف حول حلقى لا أعرف كيف شكله ، لا أراه ولكن أحسه ... أنا أعلم أنها عروق تنبض.. ولكن أحس بها كأنها الأفاعى التى تهرب من النار فى حلقى . . ولو رأيت هذه الصور ورأيت الناس يسخرون منها ، فسأسخر أنا منهم . فقد كان هذا شعورى بالضبط . مواسير مياه أو مواسير هواء ساخن ينفذ من رأسى إلى حلقى ومسامير ملتهبة تدقها شواكيش لا أراها . .

وهذه اللوحات غريبة لأننا تعودنا على اللوحات التى يرسمها الإنسان وهو فى كامل وعيه . . وليس وهو دائخ أو سكران أو يحلم أو وهو

ما يزال نعسان . . . أو وهو يعانى آلاماً حقيقية ... وشيء آخر هو أننا تعودنا أن نرسم « رجلا » يبكى وأن نرسم « رجلا » يخلع أسنانه . . . أو « امرأة » مغمى عليها ... ولكننا لم نتعود أن نرسم البكاء نفسه ... أو نرسم « الألم » ... أو نرسم « الإغماء » ... هذه هى الصعوبة ... فاللوحة التى أرسمها لنفسى وأنا أتألم ، ليست هى وجهى ولا ملامحى ولكنها شعورى ... شعورى بالألم والعذاب والصداع واحتباس الدمع فى عينى . وخجلى من الطبيب والممرضات وحرصى على أن أخفى كل متاعبى عن أمى . . . فأنا أرسم المعنى ، ولا أرسم الشخص ...

ولهذا كانت لوحات الفنانين السرياليين غير مفهومة أو مستحيلة الفهم ... لأنها لوحات ترسم المعانى المجردة من اللحم والدم .. ومجردة من الأشخاص . . .

ولكنى أستطيع أن أقول إننى فهمت بعض هذه اللوحات ولكن بعد إيه ؟ . بعد خلع الضرس . . بل الثلاثة ضروس !

. . عارف أنا مين ؟

. . . سيدة وزوجها وأولادها . أمامهم منضدة عليها أكواب فقط . تحت المنضدة سلة لها كرش كأنها قنبلة ... كلما اقترب منها الأطفال ضربتهم الأم وغمز لها الأب قائلا : وبعدين ؟ السيدة فيها شبه كبير من مارى منيب ، المكان ليس مسرح الريحانى . إنه جزيرة الشاى . الوقت هو ساعة الأذان . الأسود تزأر . البط والإوز يدور حولنا كأفكار حائرة فى رأس لم يتخذ قراراً . كل شىء هادئ . وأخيراً ارتفع صوت اتجهت إليه العيون والآذان . . .

السيدة : أنت مش عارف أنا مين ؟

الجرسون : مين يعنى إيه ؟ وأنا مالى .... إيه اللى مش عارف أنا مين ... لا ما أعرفش أنت مين يا ست هانم ...

الهانم : اسكت أحسن لك . أنت مش عارف أنا مين ....

الجرسون : لا يهمنى أبداً ... الأصول لازم تمشى يا ست هانم ... ممنوع ... الأكل هنا ممنوع ... إذا أردت أن تأكلى فأنا خدامك ولكن أى أكل من البيت ممنوع ...

الهانم : اسكت أحسن أقوم أكسر دماغك !

الجرسون : عيب ... أنا قلت ممنوع يعنى ممنوع .

أنا (بينى وبين نفسى) : أنت مين يعنى إيه ... طبعاً كلنا نعرف

أنت مين ! الشوال الذى تلبسينه من تفصيل منجد بلدى ... بشرة حضرتك تحتاج إلى مبيض للنحاس ... الأساور التى فى يديك خردة عليها صدأ أفكارك . وأنت لو كنت شيئاً له قيمة ، لجلست فى مكان آخر ... فى هيلتون مثلا . أو كان فى استطاعتك أن تبنى قصراً وتجعلى فى القصر بحيرة وفيها جزيرة وفى هذه الجزيرة يقف عشرون جرسوناً من خريجى الجامعة . . وفى استطاعتك أن تصبى على رءوسهم الشمع وأن توقدى هذا الشمع لكى يضىء الطريق للذباب لكى يدخل عيون أبنائك ! طبعاً أنا أعرفك ... أنت فشارة ... أنت تافهة ... مين يعنى إيه ؟ من هو زوجك ؟ الأصول يعنى الأصول !

وخشيت أن تسمع هذه السيدة أفكارى فوضعت يدى على فى . . وتنحنحت كأنى أبلع كلامى !

الجرسون : من فضلك ممنوع . وإلا ..

الهانم : وإلا إيه يا روحى ... بتهددنى . بتهددنى بإيه ... أمش من هنا ... انت فاكر أن أولادى عاشوا على الأرصفة ... أولادى عاشوا على الغالى ... شوف نفسك أنت ؟ (وتنظر إليه من فوق لتحت) .

الجرسون : على الغالى على الرخيص ... ممنوع ... الآن لا أحد يعيش على الأرصفة ... ثم إننى رجل محترم ... إننى أعمل فى هذه الخدمة من ٣٠ عاماً ولم أسمع شيئاً كهذا ...

الهانم : مش كل الطير يتاكل لحمه .

الجرسون : مالى أنا ومال الطير اللى يتاكل لحمه واللى ما يتكلش ...

هذا ممنوع يا هانم . . .

أنا (بيني وبين نفسي مع الأسف) : وأتمنى أن أكون في ملابس هذا الجرسون لألقنه كيف يرد على هذه السيدة الباردة ... وكيف يتمسك بالأصول ... كيف يطردها بقوتنا — نحن الزبائن ... نحن الأغلبية الساحقة التي جاءت تلتقط هواء بكراً لم تتنفسه حمير وقرود وأسود هذه الحديقة . . . وكيف يلقى بها في البحيرة . . . لقد حدث منذ أيام في أحد مطاعم روما ... لقد كانت هناك سيدة سكرانة جداً ... فتعاون الجرسونات وألقوا بها في الماء ... وهذه السيدة سكرانة بالغرور ... بالنفخة الكاذبة ... والله لقد كان الرجل هيلتون على حق عندما اختار جرسوناته من أحسن طبقات مجتمعنا ... فلا يستطيع زبون أن يقول لجرسون : أنت مش عارف أنا مين ؟ لأن الزبون يعلم من هو هذا الجرسون .

(... المنظر الآن تغير ... السيدة تجلس وزوجها وأولادها في هدوء ... كأنها على المسرح وكأنه لا يوجد جمهور يتفرج عليها في هدوء ... أما الجرسون فهو كالممثل الذي أخطأ طريقه إلى الكواليس فمشى من فوق خشبة المسرح ، واختفى في كسوف ... انفتحت السلة ظهرت شظايا القنبلة ... إنها سندوتشات ضخمة ... وبعد لحظة ظهر الجرسون ومعه دورق ماء ... ووقفت لكي أراه ينزل فوق رأس السيدة ولكن مع الأسف وجدته قد استقر أمامها ... ولم أستطع البقاء لحظة ، وقابلني الجرسون وأنا أنصرف ...)

الجرسون : الله ! على فين ؟

أنا : هنا رائحة زفارة .

الجرسون : الرائحة موجودة كل يوم . .

أنا : أيوه صحيح . . ولكنها زادت النهاردة . . وعاوز أشوف الحمار اللى الصحف كتبت عليه إنه ولد أخيراً . . . ثم إنك لا تعرف أنا مين ؟

الجرسون : نعم ؟ !

أنا : أنا اللى احترمتك لمدة دقيقة ورأيتك بطلا لأنك تمسكت بالأصول . . . أما الآن . . . فروح شوف الهانم ابنها بيعيط . . . يمكن عاوزاك تشيله شوية ! .

الجرسون : نعم ؟ ! أنا ؟ !

أنا : كلمة «أنا» اللى انت قلتها دلوقت .. هذه هى أحسن كلمة . . قلها .. قلها . . طول عمرك !

الجرسون : نعم ! !

أنا : أنت مش عارف أنت مين ! أنت واحد محترم !

صراع . . وصداع

منذ أيام أحسست أن رأسى كالبيضة فى داخلها كتكوت يريد أن يرى النور .. إنه ينقرها من الداخل ... منقاره قوى ... ولكن جدار البيضة قوى . . . أقوى من منقارة . . . ويبدو أن هذا الكتكوت يريد أن يخرج قبل الأوان ... وككل عملية ولادة تصاحبها دموع . لا دموع المولود ولكن دموع البيضة وصراخها ...

وهذا الكتكوت من المؤمنين بالحكمة التى تقول : من سار على الدرب وصل والذى يدمن الدق على الأبواب لابد أن تنفتح له .. فهو يدق رأسى فى مكان واحد ...

ولم أفهم سبب هذا الصداع الشديد . حت أقلب فى الكتب.. فكتاب يقول لى إن سبب الصداع الشديد هو : العين أو المعدة أو الكلى أو الكبد أو الجيوب الأنفية . . .

وكتاب يقول : إن الصداع له أسباب نفسية مثل : الانفعالات الشديدة كالخوف والقلق .

وكتاب ثالث يقول : إن الصداع النصفى وراثى . . . وإن المصاب بهذا الصداع يجب أن يفتش بين آبائه وأجداده عن أصل هذا الصداع .. وهذا الصداع النصفى لا يصيب الإنسان بعد الستين أبداً .

ولكن إذا أصابه قبل الستين فماذا يعمل ؟

الكتب كلها التزمت الصمت . . كأنني طائرة معلقة فى الهواء بدأت تستغيث بأقرب المطارات منها . . ولكن مطاراً واحداً لا يرد .

وقلبت فى كتاب آخر وأنا أبتسم لصفحاته التى امتلأت بعبارات تقول : الصداع توأم الذكاء الشديد (هه !) وعبارة أخرى تقول لك : الصداع هو الثمن الذى دفعه أصحاب الطموح (يعنى !)

وقرأت أن أعراض الصداع النصفى ، أى الذى يصيب نصف الرأس ، تظهر بأن يسبقها أولا إنذار ، فأنت ترى بريقاً فى العين . . أقصد شرراً ينطلق منها أمامك . . هذا الشرر هو بشير بأن الصداع فى الطريق . . هذه الشرارات تشبه تماماً النقط الضوئية التى تظهر على شاشة التليفزيون . . واحدة واحدة وبسرعة هائلة ليبدأ البرنامج .

وبعد الشرارات التى تنطلق من أو أمام عينيك . . يبدأ صفير . . وهذا الصفير يدل على حيويتك ونشاطك . . تماماً كالصفير الذى ينطلق من إناء يغلى . . لكى تسارع برفع الغطاء عن الإناء أو إبعاده عن النار . والمصيبة أن الذى يحاول رفع الغطاء . غطاء رأسى لست أنا ولكنه شىء فى داخل الرأس . . .

وهذا الصداع النصفى يدل على أن هناك اختلالا فى توازن الجسم . . القلويات أعلى من الحمضيات أو العكس . . وهذا الصداع يشبه « الطقطقة » التى تسمعها وأنت تمشى على أرض خشبية . . أو يشبه صوت الألواح الخشبية فى زورق يتأرجح يميناً وشمالا . . والزورق يحاول

أن يحتفظ بتوازنه . . وجسمك هو الآخر يحاول أن يتوازن . . والصداع هو صدى التوازن !

وقرأت فى كتاب « الوصفات البلدية » للدكتور جارفيز أن العلاج الوحيد للصداع هو أن تضع الخل فى الماء وتشربه . . وبعض البدائيين كانوا يشمون بخار الماء والخل .

ولكن العلاج الناجح للصداع هو ملعقة من عسل النحل . . مرة أو مرتين فى أى وقت . . فالعسل هو وحده الذى يهدئ الأعصاب ؛ فالجسم يمتصه بسرعة وينقله إلى الدم فى نصف ساعة . .

وجربت العسل . . وقد أفادنى العسل فعلا . . ولكن المشكلة الآن أن الصداع الذى تجمع فى جانب من رأسى قد تفرق على أسنانى . . فى كل صف منها صداع . . وقد اصطفت أسنانى صفين . . كأنها أعضاء مجلس إدارة حول مائدة مستطيلة . . وكل واحد منها يطلب الكلمة . . كلها فى وقت واحد . . وعندما لا تعطى له الكلمة يدق المائدة بيديه ! !

وحاولت إرهاق السادة أعضاء مجلس إدارة مخى وحياتى كلها بأن أصرخ وأنفخ وأوزع عليهم أقراص الأسبيرين والفيجانين وطوفان المياه .. فتتعالى الصرخات . .

ملحوظة : أحسن علاج فى هذه الحالة هو أن تخلع أسنانك كلها . فمعظم سكان أمريكا لهم طقم أسنان . . والسبب هو سوء الهضم . . هضم الأكل وهضم الكلام . . كالمنشور أعلاه !

إنها محطة واحدة !

أحب السكن بجوار السكك الحديدية . . .. حيث النار والبخار والصفير والزعيق . . والوقوف على الرصيف فى انتظار شىء ما . . والخوف أن يفوتنى شىء ما . . وشعورى الدائم بأننى على سفر . بأننى مسافر . . بأننى أتحفز وأترقب وأتهيأ .

وكل البلاد التى سافرت إليها كنت أسكن فيها بالقرب من المحطة وكنت أتمنى لو أننى قمت من نومى فوجدت أن الفندق الذى أنزل فيه قد سحبه أحد القطارات وانطلق به إلى نهاية العالم . . وبلا توقف . .

واكتشفت أخيراً أنى أسكن بالقرب من أغرب محطة فى الدنيا . . إنها ليست محطة سكك حديدية . . بل إنها محطة ولكن بلا سكك . إنها ميناء ولكن بلا سفن ولا ماء . . إنها محطة فقط للسفر بين الأرض والسماء . . وكل إنسان مسافر بين الأرض والسماء . . وكل مسافر ينتقل من هذه المحطة إلى مكان بعيد . والرحلة كلها محطة واحدة . . وكل إنسان له قطار خاص به . . والمسافر يودعه أهله وأصحابه بعد سفره بساعات وأحياناً بأيام . .

والغريب فى أمر هذه المحطة أن القطارات ليس لها صفير، وإنما الذى يصفر ويصفق ويضرب الأجراس هم الواقفون على الأرصفة . . كل

ذلك بعد أن يكون القطار أو الباخرة أو الصاروخ قد انطلق . .

فبيتنا يقع على رأس شارع صغير . وهذا الشارع تنتهى إليه مجموعة من الحوارى الضيقة التى تتسع لأى صوان يجتمع فيه الناس ليترحموا على أحد الموتى . . ولذلك فأقارب الموتى يجتمعون كل يوم بالقرب من بيتنا حيث نقطة الانطلاق إلى العالم الآخر . . حيث توجد المحطة التى يسافر منها الناس بلا رجعة فى قطارات خاصة جداً . . قطارات شخصية لا يراها أحد . . وعلى رصيف هذه المحطة يبكون ويصرخون .

وآخر المسافرين هو عم إسماعيل . . .

وليس عم إسماعيل شخصية هامة . ولا حتى هو شخصية ، إنما رجل سقط بعد الثمانين على الأرض . . ولم يكن سقوطه خبراً هاما . فقد كان يعيش على الرصيف ، وتدحرج من الرصيف إلى الشارع . . لقد كان سقوطه هيناً . بل إنه عاش ساقطاً ومات ساقطاً . . بل إن الإنسانية كلها ساقطة من السماء إلى الأرض . . وكان عم إسماعيل يتربع على عرش من الأحجار يتصرف فى مملكة الترمس والفول . . وكان يبيعها أحد عشر شهراً فى كل سنة . . أما الشهر الثانى عشر فقد كان يقضيه عم إسماعيل فى إيقاظ الصائمين . . لقد كان يقوم بدور المسحراتى .

وأمس جاء دور عم إسماعيل لينام ويصوم إلى الأبد . . أما نحن فكان علينا أن نصحو منذ الثالثة صباحاً ونستقبل مالانهاية له من أمواج الصويت واللطم . . وياسبعى وياجملى . . ويااللى ربتنا على العز . . وعلى الغالى . . ويااللى ما كانش حد يشوفك ولا يسمعك — أى أنه

رجل مستور .. رجل فى حاله .. من كوم الحجارة إلى عربة الترمس ..

وقد تعودت هذه الأصوات كل يوم . . وتعودت شيئاً آخر . . فى الطريق إلى دار « أخبار اليوم » يوجد مستشفى الولادة . . ولا يمضى يوم دون أن تمشى جنازة . . دون أن أجد عدداً من النساء فى ملابس سوداء كالغربان . . والصويت واللطم ويا أختى .. يا ست البنات يا غالية.. ويا ست العيلة . .

والطريق إلى مكتبى كالطريق إلى الجنة : محفوف بالمكاره . مع فارق واحد أن الطريق إلى الجنة فى اتجاه واحد والطريق إلى مكتبى فى اتجاهين.. ذهاب وإياب . . وأن مكتبى نار فعلا . . الغرفة ضيقة خانقة . . إذا أقفلت النافذة تحولت غرفتى إلى حمام تركى . . الأفكار فى رأسى هى البخار وعقلى هو التركى . .

و إذا فتحت النافذة تزاحمت الأصوات على أذنى .. ولا تزال الأصوات تملأ أذنى حتى تسدها بألوف من طرقات الحديد للجديد . . وأنا أشعر بالصداع الدائم . . لأن الأصوات أصبحت ملموسة . . أصبحت شواكيش تطير من الورش إلى النافذة وتدق رأسى وتعود إلى مكانها . . إنها شواكيش موجهة . . شواكيش بعيدة المدى . . شواكيش عابرة للنوافذ . .

وعلماء التجارة والصناعة يعزوننى قائلين : إن هذه الأصوات الصارخة هى موسيقى النجاح والانتعاش الاقتصادى . . إنها أوركسترا التطور . . إننى يجب أن أكون سعيداً بهذه الضوضاء . . فهى قلوب من حديد تنبض !

وأتمنى أن أكون سعيداً لولا أن هذه الضوضاء تحطم رأسى . . تحاول أن تضغط رأسى فى عنقى وعنقى فى أحشائى ، وأحشائى فى مقعدى . . إنها تحاول أن تدفننى حيا . . إنها موسيقى جنائزية . . إنها تحاول أن تجعل من مكتبى محطة لإطلاق روحى إلى عالم آخر لكى ألحق عم إسماعيل الذى كان آخر المسافرين أمس . .

وسنستريح الليلة من صرخات التوديع لعم إسماعيل . .

وغداً أو بعد غد تستأنف المحطة نشاطها وربنا كريم .. ربنا قادر على أن يجعل انطلاق هؤلاء المسافرين نهاراً . . ظهراً بدلا من أن يستقلوا مع الفجر « قطار الصحافة » إلى العالم الآخر !

عروس من حديقة الأسماك

كانت أول حفلة زفاف شاهدتها فى حياتى . لم أعرف ما هى التقاليد التى تتبع فى مثل هذه الحالات . لم يكن لدى متسع من الوقت لكى أسأل العارفين ببواطن الأمور . . كان الوقت ضيقاً جداً . . تلقيت مكالمة تليفونية فى الصباح . وكان الزفاف فى نفس اليوم والمكالمة هكذا : ألا تعرفنى ؟ وكان جوابى : لا مين ؟ وسؤال آخر : هل تذكر أيام حديقة الأسماك بالزمالك ؟ وكان جوابى : أذكر .

ولكنها أيام مضت منذ أكثر من عشر سنوات وكنت أنا وآخرون من تلامذة الجامعة نلعب الكرة ونقرأ ونتناقش وننام تحت الأشجار طول النهار .

وجاء السؤال : هل تعرف الخادمة ذات الفستان الأسود . .ألا تذكر تلك المربية التى تتكلم الفرنسية ؟

ولم أكن فى حاجة بعد ذلك إلى أن تذكرنى أكثر من هذا . لقد كانت أعجوبة فى ذلك الوقت . وكنا نلتف حولها ولا نكف عن الدهشة أبداً . كأننا لا نصدق ما نرى أو ما نسمع . . إنها فتاة مصرية هربت من أقاصى الصعيد . . من إسنا . . من قنا . لا أذكر على التحديد . وقد حصلت على البكالوريا الفرنسية . وأحبت شاباً فى بلدها . وسمع أبوها بالقصة . وسألها إن كان هذا صحيحاً فأنكرت . ولكن الحزن بدأ على وجه



أبيها . وانحنى رأسه وترك لها البيت يوماً كاملا . . ولم يكن صعباً عليها أن تستنتج أنه ذهب ليتفق مع بعض أقاربه على قتلها أو إلقائها فى النيل . فهربت إلى القاهرة . وفى القاهرة اشتغلت مربية . . تتردد بالأطفال على حديقة الأسماك . وتخفى فى ملابسها و وراء ظهرها عدداً من الرجال لا أزال أذكر أسماءهم : تولستوى وفيكتور هيجو وبلزاك وموليير وشكسبير . . وبين الحين والحين تحدثنا عن قصة (البؤساء) وعن قصة (الحرب والسلام) ونحن نتطلع إليها وكأنها سقطت من المريخ . . وكنا نقول : خادمة تتكلم الفرنسية وتقرأ هذه الكتب التى لا نعرفها . . أما غريبة . . غريبة !

وأصبحت ما تيلدة — وهذا هو اسمها — ضرورية بالنسبة لعشرين طالباً جامعياً هم الآن مهندسون وأطباء ومدرسون وثلاثة منهم صحفيون .

وذهبت إلى بيتها فى الزمالك . . إنها هذه المرة فى بيتها وليس بيت أسيادها . وسيكون لأولادها مربية وستلعب مع الأطفال فى حديقة الأسماك . ولا غرابة فى هذا ، ولن يكون للمربية معجبون إلا إذا كانت هى الأخرى هاربة من أب صعيدى . . ورأيت الأب الصعيدى عند ماتيلدة . إنه صامت جامد . على وجهه علامات عرضية وطولية . . إنه مصنوع من نفس طينة البلاليص والقلل . إنه ما يزال ساخطاً . . وفى بيتها رأيت أناساً كثيرين . ورأيت زملاء حديقة الأسماك قد جاءوا بزوجاتهم وأولادهم . . ورأيت ماتيلدة .

إنها لم تتغير . ولكن أضيفت لها بعض الصفات : وجهها مشرق .

ممتلئة هادئة الطبع . . وتتكلم العربية هذه المرة . ورأيتها وهى تدفع أمامها منضدة الطعام . . منضدة صغيرة لها عجلات . . وتذكرنى يوم اشترينا معاً بعض الكتب من الجيش الإنجليزى . ولم نجد وسيلة لنقلها إلى بيتى سوى عربة كارو صغيرة . . وضعنا الكتب . ودفعت العربة أمامى . . أخترق بها كل شوارع الزمالك وإلى جوارى سارت ماتيلدة مع أسيادها من الأطفال الصغار . ..

أما زوجها فهو السيد الذى كانت تعمل فى بيته . . لقد ماتت زوجته وأحب ماتيلدة . وكان هذا هو حبه الأول أو حبه الأكبر كما يقول الفرنسيون. ويظهر أن الحب فى الكبر كالنقش على الحجر . والحب فى الصغر كالنقش على الماء . . ورأيت الحب منقوشاً على وجه الزوج بالثلث !

وأدهشنى أن أرى سكيناً كبيراً معلقاً على الحائط . . وقلت ربما هذه بعض تقاليد الصعيد . . أو سكينة أثرية . . أو سكينة لها ذكريات. وفهمت منها أنها لم تر أباها إلا منذ يومين . فقد أرسلت إليه تدعوه لرؤية ابنته ليقتلها بعد أن فضحته وجعلته يلبس السواد عليها . . ولما حضر إلى مصر فوجئ بابنته ومعها كثيرون . ولم يتمكن من قتلها وإنما ظل يبكى وألقى بهذا السكين على الأرض وارتفع السكين من الأرض إلى الحائط كما ارتفع هو أيضاً من حيوان إلى إنسان . يسكن الزمالك ويشهد الزفاف ويحلم بأن يكون له حفيد يحمل اسمه الكريم : أبو جريس !

أكلوا مراتى !

لو عرفت أن شاباً مثقفاً جداً غنياً جداً . . وضع زوجته فى سيارة وصعد بها إلى شقة جماعة من الرجال لا يعرفهم . . وحياهم بكل أدب . ثم بعث لهم بقفص من الدجاج وصفيحة من السمن وخروف وظل واقفاً بسيارته عند باب البيت يسمع زوجته وهى تصرخ وهى تضحك وهى ترقص وتنتقل من ذراعى رجل إلى رجل آخر . . وتقع على الأرض . . وتمزق ملابسها . وتنام عارية والعرق والدماء تنزف منها . . ماذا نسمى هذا الرجل ؟

إنه شاب شريف يحب زوجته المثقفة التى تؤمن « بالزار » وحفلات الزار وأطباء الزار ! . .

لقيته مصادفة جالساً فى سيارة أنيقة فى حارة لا تتسع إلا لسيارته . . ولم يحتج إلى وقت طويل يشرح لى سر تعاسته وظهور الشعرات البيضاء فى رأسه . واصفرار أصابعه من التدخين . ونقص وزنه وإصابته بمرض السكر فى هذه السن الصغيرة . . إنه لم يتجاوز الأربعين من عمره .

لم تطاوعه نفسه أن يبقى حيث هو . . ترك سيارته وصعد الدرج ووقفنا معاً أمام باب الشقة التى وضعت لها ستائر حمراء ومصابيح حمراء . . وكانت الوجوه مصبوغة بلون الدم . . أو بالدم . . إنها جهنم . . وهؤلاء الرجال والنساء ليسوا إلا ألسنة النار تروح وتجىء وتتلوى وتصرخ . . كل

شيء نار ودم .

وفى هذا الجحيم تتحرك نساء محروقة اللون وقد وضعن البخور على أطباق كبيرة كأنهن « سالومى » تحمل رأس يوحنا المعمدان . . أو كأنهن عشرات من ريا وأختها سكينة . . وقد تساقطت لحوم الرجال على لحوم النساء . . وتمزقت الفساتين وما تحت الفساتين . . وأخذت الطبول العاوية تصم آذان الشياطين . . وتتساقط الشياطين الواحد وراء الآخر . . وتتحول الشياطين إلى بشر . . لها أظافر وأنياب ولها زئير ويتحول البشر إلى حيوانات تحبو على أربع ليركبها الشياطين من جديد . . وتسير فوق الدجاج والخراف المذبوحة . . إن الشياطين ملوك أما نحن البشر فعبيد لهؤلاء الشياطين . . هكذا تقول كل أغانى الزار . . وليس لنا معهم إلا شيء واحد هو الطاعة التامة . . وإلا بقيت أمراضنا وعذابنا كما هو .

ونظرت إلى صديقى فوجدته قد أسند رأسه للباب وراح فى غيبوبة تامة . . وهززته فسألنى عن حال زوجته فقلت له : إننى لا أعرفها . . فدهش كيف أننى لم أره معها أكثر من مرة . . فراح يصفها لى . . ولكننى عندما نظرت من النافذة لم أر عيوناً خضراء . . ولم أر قواماً فارعاً . . ولم أر امرأة واحدة شقراء . . فالألوان حمراء ، وكل العيون حمراء ، فسحب نفسه بقوة هائلة . . وجعل يفحص النساء أمامه واحدة واحدة وصرخ قائلا : إنها ليست هنا . . نحن فى منتصف الليل . . وهى ليست هنا لا بد أنها نزلت . . لا بد أنها ملقاة فى الطريق . . أين هى . . ياناس زوجتى . الرحمة ياناس . أكلوها . أكلوا مراتى .

وبرزت سيدة سوداء فى يدها طبلة كبيرة . . وقالت بهدوء تام: حضرتك زكى أفندى ؟

فأجبت إنه هو . .

قالت : وحياتك قل له إن الهانم معزومة بعد كده عند الست أم صبرى فى حارة زناتى . . . فى السيدة زينب .

وأقفلت الباب وعادت إلى النار تحرق فيها النساء والرجال . . وتشوى فيها الخراف والدجاج .

وسبقنى زكى أفندى يبحث عن زوجته فى حارة زناتى .

إنه مسكين . . ولكنه ليس الوحيد فى هذا البلد ! . .

أحياناً . . أحياناً

أحياناً أشعر كأنى أحمل فوق رأسى « حلبة مصارعة » وأن هناك اثنين من المصارعين فى حالة عراك . . ضرب . . فوق الحزام وتحت الحزام . . وحالة إغماء . . وصفير وتصفيق . . وأن هناك عدداً من الحكام يصرخون : واحد اثنين . . مائة . . ألف . . ومع ذلك لا يزال أحد المصارعين ممدداً على الأرض وينفخ .

وأحياناً أشعر كأن رأسى عبارة عن خلية نحل . . زحام وضوضاء . . وكلها تلسع وتوجع . . وأشعر كثيراً أن النحل الذى يسكن رأسى من نوع غريب . . من نوع عاق كريه . . وأن هذا النحل يجمع رحيق الزهور ثم يحولها إلى عسل ، ويضع العسل فى مكان آخر . . ثم يأوى إلى رأسى لينام . . كأن رأسى بنسيون أو كأنه أحد بيوت الطلبة . . هيصة وضوضاء . . وحنفيات مفتوحة وأبواب تتكسر . .

وأحياناً أشعر أن رأسى يشبه مصنع تفريخ الكتاكيت . . وعملية التفريخ لا تتم فيه بالطرق الحديثة . . بطرق الزرازير . وإنما بالطرق البلدية جداً . . فهناك عدد من الدجاج ينام على البيض . . والبيض ترتفع درجة حرارته وبعد أيام تخرج الكتاكيت . ولذلك يجب أن يبقى الدجاج على البيض وأن ألزم الهدوء . . وفعلا ألزم الهدوء وأنام وأنا جالس حتى

لا ينكسر البيض فى رأسى . . وأفاجأ بأن فى رأسى معركة . وأكشف بعد ذلك أن الذى ينام على البيض ليس دجاجاً وإنما هو عدد من الديوك والديوك لا صبر لها على الرقاد . فالنوم على البيض كالحمل والولادة والرضاعة من أعمال الإناث . ولا تكاد الديوك ترى صورة امرأة جميلة أو أغنية مثيرة حتى تهرب وتضرب رأسى . . تريد أن تحطم الأقفاص . . تريد أن تهرب . . وأسمع الصداع وهو « يكاكى » فى رأسى . . وتدور معركة الديوك فى رأسى . . وتنخفض درجة حرارة البيض ويفسد . . وتجىء أفكارى ممششة !

وأحياناً أحس أن رأسى يشبه أسطح البيوت المجاورة لبيتنا . . خالية فارغة . . ليس فيها إلا بقايا كل شىء . . صناديق فارغة وبلاليص وأشولة . . وبعض الحياة . . حشرات تهرب من القطط ، وقطط تهرب من الكلاب ، وكلاب تهرب من « السماوى » والسماوى يكشر فى وجوه الناس وهى تلعنه . .

وأتمنى أن يجىء اليوم الذى أبنى فيه بيتاً له أساس متين . . أساس عميق أبنى عليه صرحاً عقلياً من عشرات الأدوار . . وأصحو وأنام على هذا الأمل . . ولكن فى كل مرة أهرش فى رأسى لا ينزل إلا التراب والعلب الصفيح . .

وأحياناً أشعر أننى أحمل فوق كتفى صندوقاً من الرمل . . جافاً مفككاً . . إنه قطعة من الصحراء . وأنتظر المطر . وأفعل كما يفعل البدو فى الصحراء . . أنتظر وأنتظر . . وأصلى صلاة المطر . . وأرفع يدى . .

ثم أمدهما أمامى ، وكأن كل كف طبق ينتظر الحسنة من السماء . . وقد تسقط السماء قطرات يبتلعها الرمل العطشان . . وأحياناً تنزل السيول . . ويبتلعها الرمل... وعلى القليل من الماء ينبت الشعير والقمح .. ولا يمضى سوى شهور ويعود الجفاف ويلتهب الرمل . . ويحرقنى من جديد .. وأكرر صلاتى . وندائى ، ولكن لا حياة لمن تنادى !

قوم يا شيخ !

الناس معادن : ذهب وفضة ونحاس . معادن حقيقية ومعادن زائفة . ولا بد من غسلها من حين لآخر . بالنار ، بالدموع ، بالتراب ، حتى لا تصدأ ، فتصبح حياتنا سخيفة بليدة . .

آه لو كان يمكن « قلب » هذا الكائن الإنسان تماماً كالجوارب والبنطلونات . . ليكون الجسم فى الداخل ، والنفس فى الخارج . . آه لو كان يمكن غسل النفس كما تغسل المعدة والآذان والعين . .

ذهبت أمس إلى أحد الملاهى الليلية وفى نيتى أن يتحول هذا الملهى إلى حمام تركى أضع فيه روحى . بل فى نيتى أن أجعل روحى تغرق حتى لو استغاثت فلن ألقى لها بطوق النجاة ولا حتى بقشة صغيرة . .

واخترت إحدى المناضد .

وتلفت ورائى . لا أعرف أحداً . وتطلعت أمامى . لا أعرف أحداً . . الأضواء تخفت . . المصابيح كأنها ثمار عصرتها يد فى الظلام فلم تترك فيها إلا البذور والقشور .

وانسابت النغمات والكلمات الإيطالية الدافئة الهامسة . . كل كلمة كأنها أصبع ناعمه تداعب الأذن . كل أغنية كأنها منديل حرير . . أو عشرات من أوراق الورد تتناثر علينا . . طلبت من المطربة

أغنية فضحكت . . وأغنية أخرى فازداد ضحكها وقالت : إن والذى يحب نفس الأغانى !

يعنى قصدها أن الأغنيات التى طلبتها قديمة . يعنى كأننى طلبت أغنيات لسلامة حجازى وكامل الخلعى ، ولم أطلب أغنية لعبد الحليم حافظ . .

وفجأة أحسست أن هذا الملهى أو هذا الحمام الذى جئت أستحم فيه ليس مريحاً كأن الموسيقى والأغانى والناس ماء راكد استحم فيه كثيرون. إن الماء ليس صافياً . . لماذا ؟ فقد وجدت الأغانى التى ترددها المطربة لها نظير عندنا . . بل إنها نفس الأغانى . . فهناك أغنية تقول : « زى زمان وأكثر . . حبيتك وحاجبك على طول . . » وهى خليط من أغنية لأم كلثوم وأخرى لعبد المطلب .

وأغنية أخرى تقول : « حكايتى دى كانت حكاية . . حكاية حب من البداية للنهاية » كأنها أغنية شادية . .

وأغنية ثالثة تقول : « بيتو . . يا واد يابيتو . . حبيتك . . قومى افتحى له الباب . . قومى ! » وهى أغنية نصفها لفايدة كامل ونصفها لفايزة أحمد .

وأغنية رابعة تقول : « أنا زى ما أنا . . وأنت زى ما أنت .. لا أنا باتغير ولا أنت بتتغير » وهى عكس أغنية ليلى مراد . .

وأمسكت ورقة وكتبت عليها ، وبعثت بها للمطربة . قرأت الورقة وضحكت. وانتظرت أنا أغنية وأغنية ورقصة واستراحة . ولم يحدث شىء .

فكتبت ورقه أخرى . رأتها المطربة وضحكت . وهزت رأسها . وانتظرت . وأمسكت ورقة وكتبت مرة ثالثة . . ورأيت الدهشة فى عينى المطربة كأنها تسلمت ورقة الطلاق . وأخيراً جاءت تقول لى : أنا مش قلت لك موافقة ؟

– طيب فين بقى !

– بكرة . . .

– ودلوقت إيه المانع مش مستعدة وإلا إيه ؟

– أمال بتقولى إنك موافقة على إيه ؟

– موافقة إنك تكلمنى بالتليفون . .

– لا ! لا ! . . اللى أنا كتبته فى الورقة . . دا اسم أغنية . . الأغنية بتقول : أقدر أكلمك فى التيلفون . .

وضحكنا . . ولكنها حرمتنى من أحسن أغنية سمعتها منذ سنوات فى روما . . فالأغنية تقول : « أقدر أكلمك فى التليفون . أملى . منايا . أقول لك أى كلام . بس أكلمك . طبعاً أكلمك . أقدر أكلمك . يمكن أكون مشغولة . أبعث لك أختى . خد بالك . إنها أصغر منى وأحلى منى ، وأشقى منى . ولكن أنا مش خايفة . إنها تحب شاباً يحبها . طبعاً أكلمك . . تعرف ؟ أقول لك حاجة . . أنا ما عنديش تليفون . . دا مجرد أمل . . حلم . حتى فى أحلامى بأكلمك . ومن غير تليفون طبعاً . طبعاً أقدر أكلمك . . »

واشتعلت النيران فى المصابيح وفى السقف وفى أجسام الراقصات وفينا. وانتفض الناس كأنهم عادوا إلى حياة الكهوف . وانفتحت شهيتهم للطعام

والكلام والصراخ . وتطلعت إلى الأجسام السليمة الحلوة التى أكلتها النيران . . ووقعت عينى على العرق الذى يتصبب من الأجسام . . هذا العرق هو دموع اليد والعنق والساق . . وأنظر إلى الوجوه فأجدها تضحك .. وإلى الوجوه فأرى عليها أصباغاً وألواناً . .

وأقول فى نفسى : إنهم مثلى ..

وأراهم يقفزون يميناً وشمالا ويتساقطون على الأرض فى رشاقة ويضحكون كأنهم ولدوا الآن ، وكأنهم رأو الدنيا لأول مرة . . وأنظر فى عيونهم . فأرى أن العيون لا تشارك فى هذا الضحك .. كأن العيون نوافذ تطل منها نفوس متفرجة .. نفوس لا شأن لها فى هذا كله .. كل هذه الموسيقى ، وهذا الحريق وهذا الدخان .

وأقول فى نفسى : إنهم مثلى . .

وعندما تنتهى الرقصات . . أرى وجوهاً باهتة . . شاحبة مرهقة ، تسترت عليها الموسيقى والأضواء والعطور . . ورسمها وزفها لنا وأخرجها فنان عظيم اسمه : الجوع . .

وساعده فى الإخراج : المال والبحث عن جديد . والبحث عن غسيل للنفس . .

وأقول فى نفسى : انهم مثلى !

إنهم تعذبوا ساعات لكى يبتسموا للناس دقائق . . إنهم مثلى !

إن الراقصات والراقصين يظهرون على المسرح دقائق ولكن هذه الدقائق تستغرق منهم الساعات الطويلة من التمرينات المتعبة والعرق والألم

والقيود . كل هذا دون أن يراهم أحد . . إنهم مثلى !

وأحسست طعماً مراً على لسانى . . وأحسست كأن نفسى « تتظفلط » فى داخلى ، وأنى عاجز عن غسلها أو حتى رشها بالموسيقى أو الغناء . .

وأخيراً قلت فى نفسى : يا شيخ قوم . . أنت مش وش راحة . . قوم يا شيخ !

وقمت ! لقد حاولت أن أغسل نفسى ، فانكسرت منى ...!!

تراب الإمبابى

التراب مر ، والغاز خانق ، والأصوات فوضى ، وبعد منتصف الليل . . وأناس فى جلابيب ، يروحون ويجيئون ، ووجوهم صفراء ، من الغاز أو من التراب ، أو من السهر ، أو من التعب . .

وأمام مسجد الشيخ إسماعيل الإمبابى فى إمبابة . اليوم آخر أيام المولد . مولد هذا الشيخ الذى لا يعرف أحد من أين جاء ولا لماذا اختار هذا البلد وهذا المكان وهذا اليوم . أما اليوم فتحدده وزارة الأوقاف ، سواء كان الشيخ ولد فيه أو لم يولد . أما لماذا جاء إلى هذا البلد فيقال إنه هاجر من بلده . . وما هو بلده ؟ لا أحد يعرف . ويقال إنه سكن فى بيت سيدة عجوز . وفى إحدى غرف الطابق العلوى من بيتها . وكان رجلا طيباً يصلى دائماً ويصوم كثيراً ، ولا يراه الناس إلا نادراً .

ويقال إن أحداً لم يره يشترى طعاماً ولا شراباً . ولم يره أحد يغسل ملابسه . ويقال إن هذا الشيخ كان يختفى نهاراً ويظهر ليلا . ويقال إنه كان يمشى فوق أسطح المنازل . وفى يوم ذهبت صاحبة البيت تطلب منه الإيجار — ككل صاحبات البيوت — ولم يكن فى ذلك الوقت خطاب الإنذار ولا التهديد ولا الحجز ولا الحبس . . إلخ المزايا التى يستمتع بها المستأجر الحديث ! ويقال إنها وجدت الشيخ إسماعيل ميتاً ، ووجدت

هاله من الضوء تخرج من النافذة . ووجدت تحت رأسه ذهباً . إن صاحبة البيت لم تنزعج من موت هذا الرجل الطيب ، وأنما راحت تفتش فى ملابسه . . وعندما اطمأنت إلى هذا الكنز قامت بالدعاية الانتخابية له وروت للناس معجزاته وكراماته . لقد أخذت الذهب ودفعت الثمن !

وكان الشيخ إسماعيل لهذه الأسباب وعشرات أخرى شيخاً صاحب كرامات فالفاتحة له . لقد قرأ هذه الفاتحة الليلة ألوف من أبناء الريف . جاءوا إليه وهم لا يعرفون من هو ، وناموا حوله رجالا ونساء وأطفالا . وشربوا القهوة والشاى والبوظة وامتلأت صدورهم بالحشيش . . الحشيش والتراب والغاز والطبلة و « فتيات الجيشا » المصرية فى ملابس ذابلة كأنها بشرتهن أو وجوههن أو حياتهن بعد منتصف كل ليلة . تقف فتاة الجيشا ترقص للزبائن أو المجاورين للشيخ إسماعيل الإمبابى ، واحداً واحداً . . وكل منهم يملأ يده منها .. من صدرها العارى المتحرك ، ويمسك وجهها ويديره ناحيته ويقرصها ويعطيها القرش . . . ويعود يملأ صدره من الجوزة ، وفمه بكوب الشاى ويعتدل فى جلسته ويطمئن على شبابه .

والفاتحة لسيدنا الإمبابى .

الدين والجنس معاً ، يد فى يد ، شيخ وراقصة ، ماخور ومقام . هناك من يرقص وهناك من يبيع المصاحف ، وهناك من ينشد التواشيح وهناك من يطاهر الأطفال .

الدين والجنس معاً . وهذا موجود من قديم العصور . فقد كانت المعابد فى بابل والهند واليونان ومصر هى أماكن المتعة الجنسية وكان رجال

الدين هم الذين يديرون هذه المعابد ويختارون عشيقاتهم من الكاهنات و « الراهبات » وكانت أعياد الحصاد والخصوبة كلها صلوات للآلهة ، ومتعاً لرجال الدين ، وكما يفعل رجال الدين ، يفعل المؤمنون بهم . .

ومواطنونا فى مولد سيدى إسماعيل لا يعرفون هذه الحقائق — إن كانت حقائق — ولكنهم يجيئون من الريف ، بالجلاليب والطواقى والعصى . و يخوضون فى هذا البحر الغازى المعطر الصاخب الراقص ويعيشون أياماً . إنها فرصة يتحررون فيها من حمل الفأس والانحناءة على الأرض ، ويلبسون الأحذية ويضعون المحافظ فى جيوبهم ويضحكون للحمص والحلاوة ، والأراجوز وألعاب القوى و « السفيرة عزيزة » . فهذا هو المهرجان الذى يربطهم بالحياة .

ففيه المسرح والموسيقى والرقص والغناء وبكاء المواويل ودوخة الجوزة وشى لله يا سيدى إسماعيل . . وما حدش واخد منها حاجة ! البركة يا سيدى إسماعيل . .

وسيدى إسماعيل يوزع البركة ولا يبخل بها على أحد . . إنه يعطيها للبائع الذى يضحك على عقل هؤلاء الريفيين السذج ، ويعطيها للريفى الذى باع زوجين من البط واشترى بثمنها حشيشاً ثم حمل ابنه الصغير إلى صندوق فيه ميكرفون وفى الميكرفون صوت صارخ أمام مقام الشيخ إسماعيل ويقول : اقطع . . اقطع يا حاج محمود . . يا أبو إيد خفيفة ياحاج . . :

والحاج محمود هو : المطاهر . . أى الرجل الذى « يطاهر » الأطفال !

الجنس والدين معاً فى مولد سيدى إسماعيل ، أو أى سيدى آخر . .

وأكون ظالماً لو قارنت بين هذا المولد فى إمبابة وبين الموالد التى رأيتها فى ألمانيا ، إنها ليست موالد مشايخ ، ولكنها موالد آلهة ، موالد عنب وتفاح . . موالد نظيفة جميلة ليس فيها الحاج محمود ، ولا البوظة ولا عربات المصارين بالسمنة ، ولا فتيات « الحيشا » — نسبة إلى ملابسهن — ولكنى أكون ظالماً — وغيرى كذلك — إذا طالبت بإلغاء الموالد وإلغاء أعياد ميلاد المشايخ. فهذه الموالد مواسم للبيع والشراء . بيع الحمص والسودانى والبلح وأمعاء الحيوانات والمخدرات ،وهى أيضاً أيام للراحة فى حياة أبناء الريف . إنها إجازاتهم السنوية ، إنها نداء الدين والجنس معاً . إنهم يمرحون ، وإذا أخطأوا استغفروا الشيخ الإمبابى . فهو وحده الذى يحمل عنهم أخطاءهم . إنه هو الذى يمسك الأستيكة المباركة ويمحو ذنوبهم من اللوح المنطور المستور .

وامتلأت بالتراب : فى فمى وفى عينى وفى نفسى وأيقنت أن شعبنا فقير مريض . . إنهم تراب يدب على تراب . . إنهم أسوأ من التراب والسباخ ، تتزاحم عليهم أفكار وأحلام كالذباب والبعوض . جاءوا لينسوا الفأس والمحراث وصاحب الأرض ودودة المش ، ويدركوا نصيبهم من بركة الشيخ إسماعيل الإمبابى . فأضافوا إلى ترابهم ، تراباً آخر . .

الفاتحة لك يا سيدنا الإمبابى !

الشيخة عزيزة

كبدى عليك يا صبية . . .

كبدى على الفلاحة البيضاء التى تمد رجليها وتسند ظهرها إلى الحائط وتعطيك يديها وتقول : أنت محروس ؟

فأقول لها : أيوه أنا محروس .

فتسحب الطرحة البيضاء على وجهها وتقول : الحمد لله على السلامة يا سى محروس . .

وأقبل يدها . .

فتاة ككل فتيات الريف . . ولكنها طويلة عريضة بيضاء كلها حياء ، ثوبها أسود ، وعقدها أصفر ، وأساورها من فضة ، وخلخالها كذلك ، ولها دقة زرقاء ، ولها حسنة خفيفة . إنها آخر نقطة من قلم الطبيعة فى هذا الموال الريفى الجميل الذى يتردد بين البيت والترعة .

إذا رآها أبناء القرية . . أحسوا كأنهم أمام ملك من الملوك . . والملك لا يعرفهم . . . ولذلك يجب أن يقدموا أوراق اعتمادهم . . فيرفع هذا طرف ثوبه . ليكشف من لباسه الجديد أو حذائه الجديد . . أو يكشف عن الصديرى أو يلعب بحافظة نقوده أو يغنى . . أو يلعن كلبا عابراً أو ينادى اسما وهمياً . . كلهم كذلك . .

حتى أبوها كان يراها فيخرج مسبحته ويدعو الله ويقول : والله نفسى أفرح بك يا عزيزة . . والله لا يليق بك إلا ابن العمدة . . .

إنه ابن العمدة فعلا الذى يشغلها . . إنه أحسن أبناء القرية . أليس أبوه عمدة ؟ وهل فى البلد أحسن من العمدة . . فى العالم كله . . لا أحد إلا العمدة . . إنه هو ابن العمدة الذى يشغلها والذى تفكر فيه . . وعزيزة لا تعرف كلمة « التفكير » . . ولكن كل حياتها الآن تفكير . . إذا نامت تعلقت بين النوم واليقظة . وإذا سارت فإنها تخوض فى شىء بين النوم واليقظة . . كل حياتها كضباب الفجر . . والشمس لا تطلع ، لأن ابن العمدة لا يظهر إلا مرة فى الإجازة السنوية . . وإذا ظهر فإنها لا تراه . وإذا رأته فرة واحدة . وإذا رأته فإنها لا تعرف كيف تفتح عينيها فيه . . إنها تحس أن رقبتها كفرع الجميز . غليظ ناشف وأن هناك ألف بلاص على رأسها . . إنها لا تعرف كيف تنظر إليه . . إنه ابن العمدة وهى بنت الخفير . .

وتوالت الأيام والسنون وطال ليلها . وضاق صدرها ، والصبر نفد ، والطعام يوضع أمامها وتحمله على أطراف أصابعها وتلقى به من النافذة حتى لا تراها أمها . ولا يسمعها أبوها . . ولم تعد تمشى على الأرض وإنما فرشت الأرض بالحصير . . إنها بدأت تصلى . . إنها ككل الصبايا إذا حارت الواحدة وعجزت اتجهت إلى الله . . ولكنها فى الصلاة لا تستطيع أن تنسى ما يقال عن بنات المدن وما يفعلن مع أبناء الريف . . مع ابن عمدتها . . إن كل فتاة تتمناه لها ولأعز إنسان عندها . . والله وحده

هو الذى سينصرها على كل بنات المدن ويرد إليها ابن العمدة فى جلبابه الأبيض . والعصا فى يده . والسيجارة فى فمه . وكلمة السلام على شفتيه يطلقها دائماً كلما رأى أحداً من أبناء القرية .

وازداد ضعفها وطال نومها . . وكرهت النوم لأنه يحطم جسدها . وكرهت اليقظة لأنها تملأ عليها البيت بأبيها وأمها وخالاتها وعماتها وبنات الجيران . . كلهم جلسوا حولها وكل واحدة ترمها أو تهديها أو تغريها أو توجعها أو تلطمها بكلمة أو بصرخة أو بحكمة أو بتنهيدة .

والتقى الليل والنهار فى عينيها وفى أذنيها وفى غرفتها . . فهى لا تعرف الفرق بين أذان الفجر وأذان العشاء فكل أيامها ظلام . .

إنها عين أصابتها — هكذا تقول أمها .

إنه ضعف وقلة أكل — هكذا يقول أبوها .

والنبى البنت عليها أسياد — هكذا تقول خالاتها وعماتها .

يا اختى بسلامتها بالها مشغول — هكذا تقول بائعة المناديل والصابون المعطر . .

افسحوا لى الطريق — هكذا يقول طبيب المركز .

ونامت هى عن هذا كله وتمددت على سرير أسود . وسحبت على وجهها الغطاء . تدفع عن أنفها البخور . وحتى لا تصيبها حبات الملح . أو قطرات الماء من أيدى جيرانها . وهم يفقأون العيون الحاسدة ، ويرجمون الشياطين التى سكنت البيت .

وتلفت الطبيب يرى الشباب والجمال والهدوء والندى . . وعيوناً

كلوز القطن ،ولوناً كزهر البرسيم،ولبناً وزبداً وخيط اللولى . . ويجىء الطبيب يوماً بعد يوم . وتراه الصبية وتضحك وتراه وتعتدل فى سريرها. وتراه وتقف وتنهض لتفتح له الباب . .وتذهب إلى بيته لتحمل بعض البيض والجبن لزوجته . .

ولكن الصبية تغيرت . . لقد نزعت ملابسها السوداء ولبست البيضاء . الجلباب أبيض . والقميص أبيض والطرحة بيضاء .والعقد أصبح مسبحة طويلة . . . فإذا رآها أحد أبناء القرية قال لها : العافية يا ست الشيخة . . الدعوات يا شيخة عزيزة . .

وتدعو لهم جميعاً . .

ويقال إن الذى أصاب الشيخة عزيزة كان بسبب حقن الطبيب . . ويقال إنها القصة التى سمعتها عن زواج محروس . . أو الحمى التى أشعلت دمها . وشوت لحمها وأطارت عقلها . .

لا أحد يعرف سبباً لهذا التغير كله . . ولكن القليلين جداً هم الذين يقولون إنه الحب . . وإنها الصدمة التى أسقطت كيانها . وعندما سقط ارتفع الغبار. ثم تماسك هذا الغبار الأبيض وأصبح الشيخة عزيزة .

واليوم ظهرها إلى الحائط . وتجلس على حصير . وفى يدها مسبحة . ورجلاها . . ممدودتان . . وجميلة وحولها طفلان يلعبان . إنهما ولدا « محروس » ابن العمدة من خادمته « قطومة » . . والشيخة عزيزة لا تعرفهما . .

وبعد صلاة الجمعة تفرق الناس . كل إلى بيته . وتجمعنا نحن وذهبنا إليها . .

ونظرت وضحكت وقالت : أنتَ محروس ؟

فقلت : أنا محروس يا ست .

وسحبت طرحتها البيضاء وغطت وجهها ومدت يدها وتعرى ذراعها وظهر بصيص من صدرها وقالت : الحمد لله على السلامة ياسى محروس .

الله يسلمك يا ست عزيزة . .

وقبلت يديها بشفتى . .

وبعينى قبلتها كلها . .

واستغفرت الله !

بل أحد الآلهة !

ساعة كاملة يحدثنى ولا يرانى . إنه فى القمة . وسكان القمم يرون كل شيء صغيراً أو لا يرونه . وفى عبارة مسرحية حزينة قال : انظروا أيها الناس . سيجيء ذلك اليوم . سأكون إلهاً !

صاحب هذه العبارة والعبارات التالية شاب فى العشرين من عمره . نحيل زائغ العينين . هارب اللون . لا طعم للحياة عنده . لأنه فقد أسنان الشباب ولا معنى لهذه الدنيا كلها . فهو يراها بعين شيخ يائس أو ملاك طاهر .

إنه يتكلم دائماً ويقول : لم أحضر لاستشارتك، أنا اتخذت قراراً ، فلن أهتم بشيء مما أدوسه بقدمى ، فالذى أدوسه هو الذى سيفنى ، أما الذى فوق رأسى فهو الذى سيبقى ، كل ما يعلو رأسى من نجوم وشمس وقمر ، كل هذا هو الخلود ، وأنا مشغول بالخلود بالنجوم التى تلمع دائماً ، وأنا سأبقى مثلها ، لأننى أعيش عليها . والذى يعيش على الفكر يبقى كالفكر ، وأنتم ماذا تصنعون ، الورق والحبر سينساه التاريخ . الشهرة والمجد أكاذيب ، تكتبونها وتصدقونها . المال قطع من المعدن الفانى تصنعونها وتجرون وراءها وتعبدونها ما حياتكم ؟ ما آمالكم ما دنياكم .

ودققت النظر فيه مرة أخرى . وكدت أسأله . فأجابنى : ماذا

ستقول عنى ؟ .. مجنون . أرنى عاقلا واحداً فى هذه الدنيا ، الجاهل الذى يقتل إنساناً بريئاً . ماذا تسميه ؟ مجنون . والعالم العبقرى الذى يقتل الألوف من الأبرياء ماذا تسميه ؟ عبقرى . بل مجنون لا أحد عاقل فى هذا العالم . لا أنا ولا أنت . هذه حقيقة لم أعرفها من الكتب التى تضعها أمامك ولكن من نفسى . إننى لا أنتظر السماء حتى تسقط الماء الذى يبل ريقى . ولكننى أنادى الماء فى داخلى . من جوف الأرض فأفكارى « ارتوازية » بل من جوف الوجود . إن أفكارى من الكون . إنها كالأشعة الكونية .. ستقول مجنون أيضاً .

وعرف هذا الشاب العزلة والغرفة المظلمة . والفراش البارد . والليل الطويل ، ولوى ذراعيه ويديه . وضغط على نفسه بجسمه وأسنانه وراح يحلم بكل شىء يتمناه ولا يناله .. وجعل يلوى أفكاره كما يلوى جسمه . ومن أفكاره يقيم سلماً طويلا إلى النجوم . وبعد أن يصعد هذا السلم الطويل يسقط رأساً أو يداً أو رجلاً كما يفعل الحواة فى الهند . .

قلت له : أنت فى خلاف مع أهلك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع أصدقائك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع صديقاتك .

وكان لابد أن ينظر إلى مصدر هذا السؤال . إلى فمى . وكأن الذى اختفى فى فمى أفعى سامة . يريد أن ينتزعها بيديه أو يطلق عليها الرصاص .

ولكن عاد التسامح إلى وجهه وقال : فاطمة ؟ لقد تركتها . أحببتها عشر سنوات . لم أنطق بكلمة نابية . جعلت مسافة بيني وبينها . والذين يحبون . يعرفون معنى المسافة . ولكن سبقني إليها شاب آخر يسكن في نفس البيت . وأراها كل يوم الآن تلبس له وتتزين له وتحبه أيضاً . . ولكن جمال المرأة لن يبقى. هل رأيت العدل؟ أبداً! وإنك ترى الناس العادلين ويفنى العادلون ويبقى العدل . هل رأيت الجمال ؟ أبداً . إنك ترى مخلوقات جميلة . ستفنى كلها . ويبقى الجمال نفسه .

وقلت : وهي لا تحدثك ؟

قال ، وهو يضغط على نفسه ويلف ذراعيه حوله ويضم ساقيه كأنه نائم في فراشه: وسلوى قد أحبت عاملا . أحبت أحد العمال..طويل عريض . يكسب القرش ويقدمه لها . . هذه عرفتها وأنا في السابعة من عمري . وكنت أصنع لها المعجزات . كنت أمسك العصا في يدى وأقف على سطح البيت وأضع العصا في وجه القمر . وأجعل من القمر مظلة تقيها مصائب الليل . أى مصائب الدنيا كلها . . ولكنها فضلت المصائب وسقطت العصا من يدى ونزلت وبقى القمر ينتظرني . سأصعد إليه . . لست مجنوناً !

وسكت ثم قال : سأعيش عيشة نبيلة أقصد شريفة سامية . لا حياة النبلاء فأنت تعرفهم..سأعيش نظيفاً عفيفاً. كالشاعر الإنجليزى بيرون !

قلت : لقد عرف عشرات النساء وأنجب طفلا من أخته .

قال : هذا كذب ، هذا ما تصنعونه أنتم. إنكم تشوهون سيرة الذين

ماتوا . سأعيش كالشاعر جيته . أحكم الحكماء .

قلت : وهذا الشاعر قد عرف مائة امرأة على الأقل . وكانت آخر واحدة عرفها فى السادسة عشرة وكان هو فى السبعين . وكان له ولد من زوجة ابنه .

وكان لابد أن يثور على هذه الاعتراضات التى تندفع كالإبر تحطم أفكاره التى تشبه بالونات الأطفال ولكنه لم يفعل وإنما سحب على وجهه غطاء من الهدوء الشاحب . وأخرج من جيبه ورقة وقال هذا هو الذى سيبقى !

وكانت صورته هو .

وكلام طويل عن الفتيات اللاتى تركنه وبحثن عن غيره . أهى قصة العنب المر ؟ أهى قصة الثعلب الذى مد رأسه إلى العنب فلما لم ينله انسحب قائلا : إن العنب مر . . أهى قصة الشاب الذى مد يده وأفكاره وأحلامه وأوهامه إلى المرأة والدنيا وراءها . وأعلن أن طعمها مر فترك الدنيا كلها وجعل يعيش فى غرفة مظلمة بأفكار مظلمة . إن حنينه إلى القمر قد ردده كثير من العباقرة والمجانين . إن قوله بأنه سيكون إلهاً . قد ردده كثير من الفلاسفة . إنه يسير فى خط مستقيم ولكن الاتجاه خاطئ . . إنه كالقنبلة . والقنبلة مجموعة من القوانين العلمية . وهى تسير فى خط مستقيم . وهى متفجرة . ولكنها قنبلة مهلكة لغيرها ولنا فيها . . وهو كذلك . قنبلة متفجرة قاتلة له وحده !

وما الفرق بين العقل والجنون . شىء قليل من المبالغة . إن الناس

تحت الجلد متشابهون .

وخرج الشاب وقد تفاهمنا . وكان لنظراتنا معنى واحد هو : الرثاء . . له . . ولى !

وكان متواضعاً . إنه لم يعلن أنه الإله الوحيد لهذا العالم كله . وإنما هو أحد الآلهة . . إنه مسكين لا يعرف كيف يتحدث إلى أحد فى بيته . أو فى الشارع أو المدرسة أو أبيه أو أمه ولا يعرف كيف يأكل ولا كيف ينام . .

مسكين لأنه إله !

الفندق المفتوح . .

يخلق من الشبه أربعين – عبارة غير مريحة قلتها وأنا أدخل السينما . . فقد وجدت أمامى نفس الوجه . نفس الجبهة الرخامية . والأنف الرومانى وصدر عال كأنه البركانان « فيزوف » و « استرومبللى » إنها تشبهها تماماً . . إذا مشت انحنت إلى الأمام كغصن شجرة تعلقت فيها ثمار كثيرة . . أو كأنها تجر وراءها موكباً من كل هؤلاء الناس . إنها إذن ممثلة السينما الإيطالية « اليانوره . . . » . لقد نشرت مجلة « أودجى » الإيطالية أنها ستحضر إلى مصر لتشترك فى افتتاح أحد الفنادق .

لقد قابلتها أول مرة فى فندق مينا هاوس . ونشرت لها مجلة « الجيل » صورها بالمايوه فى عز الشتاء وظهرت الصور بالألوان . ولكن « اليانوره » لم تعجبها الصور . فقد بدت فيها سمينة جداً . و « جداً » هذه معناها مليمتر واحد ، على الأكثر !

وبعد ذلك قابلتها فى روما فى العام الماضى . وانتظرت منى أن أقول لها : ياه أنت خسيت كده ليه ؟ ولكنى لم أقل شيئاً من هذا . فنبهتنى إلى ذلك . وقد لاحظت فعلا أنها نقصت هذا المليمتر . . والسبب هو الفساتين . فقد كانت فساتينها واسعة كجلد اليوسفندى فأصبحت ملتصقة كجلد البرتقال . وجلسنا نتناقش فى الموسيقى والأدب وفى المسرح وفى

السياسة . وقلت لها بصراحة إنها تقلد ممثلة إيطالية أخرى اسمها « اليانوره روسي دراجو» وغضبت مني . ولكنها الحقيقة .. وظللنا ساعة كاملة نتذكر طعاماً شرقياً أو مصرياً يبدأ بحرف « واو » هكذا قالت هي . وقالت إنه عبارة عن شوربة خضراء يوضع فيها الأرز والخبز . وأخيراً أكتشف أنها تقصد الملوخية .

يعني بالاختصار هي « صديقة عزيزة » . هي التي اختارت كلمة « صديقة » . أما عزيزة فهي من عندي أنا . وهم أو غرور . كل شيء جائز . ولذلك اندهشت جداً . كيف أنها حضرت إلى مصر ولم تسأل عني . وكيف أنني فوجئت بها في السينما مع شاب ليس وسيما ولا أنيقاً ويجلس في الصالة وليس في البنوار — يعني الحال من بعضه . وحاولت أن أتجه إليها . ولكن الزحام ورائي والفيلم قد بدأ . وأخيراً جلست في مقعدي . وجلست هي ورائي بصفين . ولكن رأسي اتجه إليها كأنها القطب الجنوبي ورقبتي عقرب البوصلة وشممت رائحة عطرها . إنني أعرفه وله قصة واسمه اسكيباريللي . وعطرها يدل عليها كما يدل الدخان على النار . وهي نار . وحاسة الشم عندي قوية جداً . وكنت أتصور أنني الوحيد بين الناس ولكن قال لي « محمد عبد الوهاب » إنه يتذكر أسماء البلاد والشوارع عن طريق الأنف . . وفي أثناء العرض أحسست بوجع في جنبي فابتسمت ، لقد ظننت أنها تقرصني ولكن اكتشفت أن المسافة بيني وبينها لا تسمح بهذه المداعبة . وتحول القرص إلى وخز .. وبدأ ينتقل من مكان إلى مكان .. بل يبدو أنه اتخذ شكلا انسيابياً ،

لقد جعل يتلوى كالثعبان . . ويقفز من جنبي إلى بطني إلى صدرى . . لقد أحسست كأن فى داخلى ثعباناً يطارد عصفورة فى قفص صدرى . ثم ابتلع الثعبان العصفورة ولم يبق إلا هو وحده متكوماً فى جنبي الأيسر .

ونهضت من مكانى أدوس أقدام الناس . وأحجب عنهم الفيلم ولم أنس أن أنظر ورائى . . إنها هى . . وإذا لم تخدعنى أذناى لقد سمعتها تتكلم العربية . . واتهمت أذنى . فاللغة العربية مطبوعة على لسانها كالأفلام الأجنبية .

وفى الفراش بالتليفون قال لى الدكتور إنه مغص كلوى . .

إذن ليست هذه « اليانوره . . . » . . وإلا لانتقل الألم من الكلى إلى فوق . . إلى الفندق الذى وجدته مفتوحاً ودخلته . . وأقفلت أبوابه على حقائبها ونسيت مفتاحه معى . . إلى قلبي !

ساعة من الراحة !

حاولت أن أتملص من الحبال التى تربطنى كل صباح كأننى خيمة صغيرة فى مهب الريح . . حبال غريبة . . إنها تسحب الغطاء من فوقى ، ثم تسحبنى من فوق الفراش ، وتدفعنى أمام المرآة ، وترمى فى وجهى بالفرشاة والصابون ، وتلقى بالملابس فوقى ، وتضرب الباب ورائى وتركلنى إلى مكتبى وتقلع عينى وتقذف بهما على الورق ، وتلصق سماعة التليفون بأذنى ، وتصب فى فمى خليطاً من الذرة المحروقة ونوى البلح والكاكاو (القهوة يعنى !) . . وتعصر أصابعى على القلم ، وتهز الأرض تحت قدمى ، والدنيا أمامى . . كل يوم أشعر كأننى طفل فى طريقه إلى المدرسة لأول مرة ، وأكاد أبكى وأقول .. عاوز ماما . . !

... وأقول « حاولت » أن أمزق هذه الحبال .. وخرجت منها .. وانطلقت إلى الريف . . إلى قرية بالقرب من الزقازيق . . والطريق ناعم ، والأشجار هامسة .. ولكننى لا أستطيع أن أملأ عينى بما أرى .. فالسيارات ورائى وأمامى وإلى جوارى وأنا أقاوم فى نفسى استعداداً هائلا للسرحان . . إن غيرى يستطيع أن يقود سيارة ويروى النكت ويداعب فتاه حسناء ويدخن سيجاراً فى وقت واحد . . وأنا أستطيع هذا كله بشرط ألا أقود

السيارة . . ولكن هذا لا يهم ما دمت سأمزق هذه الجبال هناك . . بعد هذا الطريق . . ستحرقها أشعة الشمس ، ستحرقها دموع المظلومين من الفلاحين ، سيبخرها النسيم العليل . . إننى ذاهب إلى الشمس لكى أراها وهى ترتفع فى ثوب النايلون الذهبى . . أريد أن أرى الشمس التى يصفونها بأنها فى جمال صوفيا لورين وبريجيت باردو .. أريد أن أراها وهى تغتسل فى طين البرك ، ثم تتسلق السماء على بيوت من الوحل . . وتبدو جميلة .. أريد أن أستحم مثلها ،فأترك طين المدينة وحبرها ، وأبدو لا فى جمال مارلين مونرو ، ولكن فى رشاقة زوجها وصفاء عقله . . ودخلت القرية .. وعلى ضفة جدولها الصغير ، وتحت أشجارها جعلت أتطلع فى صفحة قاتمة كأنها قهوة مخلوطة باللبن . . ورأيت ما يراه النائم . . رأيت قرية أرضها من الرخام أو من البلاستيك . . بيوتها من أحجار ناعمة ، إذا لمستها بيدك غسلت يدك كأنها قطع من الصابون .. وفى نوافذها ورود ، وبين الورود طيور ، وعلى أبواب البيوت يقف شبان فيهم حياة وفى عيونهم ذكاء . . كل شىء فى القرية له اسم . . البيوت والشوارع والناس والكلاب والأبقار . . لها أسماء يعنى لها قيمة ، يعنى لها أشياء تخصها وحدها . .

وكأن حبلا شدنى من عنقى واعتدلت ولم أكن أحلم وإنما تذكرت قرى سويسرا !

والساكن الحقيقى للقرية المصرية لا يمكن أن تراه ..

إنه رجل هزيل يعيش فى ظل جاموسته والجاموسة هى مصدر حياته .

إنها الأرض والمحصول والفيضان، وبنك التسليف الزراعى ، وهى المصطبة العالية التى يقف فوقها ليشكر الله على ما أعطاه ! إن الجاموسة هى التى تفتح بيته . . لا بأن تضربه بقرنيها . . ولكن هى رأسماله الحى ، هى اللبن الذى يشربه ويبيعه ويلبس منه هو وزوجته وأولاده . . إنه يجد فى قربها كل حب ، وفى رائحتها كل عطر . . وكل محاولة للتفريق بينه وبينها فى الحياه أو فى النوم أو فى المعاملة . . يرفضها ويثور عليها . .

ونظرت إلى بعض الشبان الذين تمددوا على جانب من الترعة . وقلت : من هؤلاء ؟

وعرفت أنهم بعض الشبان التافهين الذين تعلموا فى المدرسة واكتفوا بقدر هزيل من المعرفة . . ورفضوا أن يظلوا فلاحين ، وأن يذهبوا إلى المدينة . . لقد تركوا المحراث إلى القلم ، والحقل إلى المدرسة . . وأصبحوا يرون كل شىء صغيراً تافهاً . فالقرية أصبحت فى حجم الحذاء ، والأب فى حجم الفأر ، والأم فى حجم الدجاجة . .

ونظرت فى ساعتى . . وأحسست أننى كعقرب الدقائق يتحرك على خطوط فى دائرة مقفلة . . وأن هذه الخطوط لم ترحم قدمى ولا رأسى . . وأننى جئت هنا أطلب المستحيل . . لقد تمنيت أن تعلن الطبيعة حالة الطوارئ فى القرية . . فيلبس الناس أجمل الأزياء ، وأن تغتسل الترعة بالماء والصابون ، ويبدو الفلاحون وكأنهم على مسرح الأوبرا يمثلون قصة « القرية السعيدة » أو القرية النموذجية فى المريخ .

ونهضت كأننى شراع مركب التف حوله المراكبية وشدوا حباله ،

لكى تقلع السفينة من وحل وطين وعرق وقرف . . وأنساب إلى مكتبى إلى الورق والحبر . وأنظر من النافذة فأجد الشمس تغرب وأرى الدخان وأسمع الضوضاء تنهال عليه وعلى رأسى فتغرب جميعاً مع الشمس !

وتلمست الحبال الملفوفة حول رأسى وعنقى وقلبى . . وحمدت الله ، فقد كانت أقوى مما تركتها !

وهذه هى الميزة الوحيدة للريف : إنه ينعش إحساسنا ويجلو أفكارنا فنشعر بمتاعبنا أوضح وأقوى !

موصوف لى : ب . ب

همس فى أذنى قائلا : ب. ب . . هذه هى الوصفة الأخيرة ! جربها . دعك من كلام الدكاترة . . كلامهم فارغ ! اسألنى أنا !

وب. ب هذه مع الأسف ليست اختصاراً لاسم كوكب السينما : بريجيت باردو ! ولكنها اختصار لشيء آخر . .

وذهبت فوراً إلى « النادى الثقافى » وطلبت من الخواجةخرالامبو أن يصنع لى هذه الوصفة فوراً فإننى لم أنم منذ ثلاثة أيام لا ليلا ولا نهاراً .

لقد جربت الحبوب المنومة . لقد جعلتنى أنام . أسقط فى بئر عميقة مظلمة ولا أعرف كيف نزلت إليها . ولكن فى الصباح أعرف بوضوح أننى سقطت برأسى . فرأسى ما يزال يوجعنى . وما أزال نائماً . كأن القرص المنوم حشرة غريبة ، تسللت إلى داخلى وسكنت هناك . وكان لابد أن أقاومها بالمبيدات الحشرية من الشاى السادة والقهوة المرة . . وأظل أطاردها حتى تختفى . ويجيء الليل ولا أعرف كيف أنام .. فأعود إلى الأقراص المنومة . . وإلى الشاى والقهوة . . وأخيراً قررت أن أعدل عن هذه المعركة . . وأن أبحث عن طريقة أخرى . . .

قال الخبراء : عليك باللبن الساخن قبل النوم . .

وكنت أشرب ما تنتجه بقرة هولندية . ويظل الأرق يمسك رأسى

كأنه كورسيه من حديد . .

وقال الخبراء : بل عليك بالدش الساخن . .

فى الصيف ؟ فى هذا الحر ؟ يقولون : ما يهمش !

وعانيت حرارة الماء ، وحرارة الهواء، واكتويت بالعرق . وهلك النوم فى داخلى . . وجاء ورثة النوم : الصداع والأرق ، والإمساك يطالبوننى بأن أوقع على كل ساعات الليل كأننى حارس لأحد الورش . . أو عسكرى الداورية . . وكنت أفعل .

وقال لى ناقد رياضى : بعض الحركات الانسيابية . . .

وفى الظلام كنت أقول لنفسى : يمين . . شمال . . محلك سر . . إلى الأمام انظر . . كتفاً سلاح . . .

وهرب النوم منى ومن الذين ينامون فى الغرفة التى تحتى . . .

آه . . لم يبق أمامك إلا الموسيقى . . إن النوم يتسلق السلالم الموسيقية إلى عيون الناس . لماذا ؟ لأن هناك قصة إغريقية قديمة تقول : إله النوم اسمه «مورفيوس» . وكان مورفيوس هذا يمسك مزماراً وينفخ فيه . . فإذا الطيور تتساقط من السماء ، والوحوش تخرج من الغابات ، والحشرات تنطلق من الصخور . . وكلها تمشى وراءه وهى مغمضة العيون . إن موسيقاه هى النوم . . وفتحت الراديو وكانت موسيقى . . روك أند رول . وتشاتشاتشا . . وجيرك . . وتويست . . ويبدو أن السلالم الموسيقية لهذه الرقصات عصبيه متشنجة . لقد كانت تقذف بالنوم من فوقها بعيداً عنى . . ولم أنم !

ومن النافذة أرى على السطوح المجاورة أناساً ناموا . . تكوموا والتووا كأنهم مغص سطحى . . وفى نومهم يتحركون كالدود فى الطين . . وقد أسند كل منهم رأسه إلى شبه وسادة. . من قوالب الطوب ... وهات يانوم . . وأتلفت حولى . . الأنوار كأنها عيون ساهرة . . وبدأت تطبق أجفانها الواحد بعد الآخر . . والأصوات بدأت تتلاشى . . . إن النوم يتمشى من بيت إلى سطح من أب إلى أم إلى طفل إلى كلب . . إن النوم ساهر هو الآخر .. مسكين لقدطار النوم من عينيه .. ومع ذلك لم يشأ أن يمر على غرفتى . . . إنها رائحة الوصفة الملعونة : إنها رائحة ب . ب . أقصد البيض والبصل !

هارب . . هارب !

غريق فى بئر عميقة . . هذا هو شعورى . . إننى أعرف بالضبط كيف كان يشعر النبي يوسف . . فى الظلام والوحدة والرطوبة واليأس من النجاة . . وأصوات الذئاب عند السطح ، وفحيح الأفاعى عند القاع . . وفى يدى حبل أرمى به هناك وهنا كما يفعل رعاة البقر . . لعلى أصيد صديقاً أو زميلا أو أى أحد . . وكان هذا الحبل هو حبل التليفون أتسلل به إلى البيوت . . إلى بيوت أعرفها وبيوت لا أعرفها . . بصورة آلية . . بل إننى أحياناً أترك أصبعى هى التى تفكر لى وأحس أن قرص التليفون هو جبينى وأنا أهرشه بأصبعى ساعة وراء ساعة . .

ولم أسأل نفسى لماذا أنا غريق ؟ ومنذ متى ؟ وكيف أخرج من هذه الحيرة ؟ لم أسأل نفسى . وإنما استسلمت لهذه الحالة النفسية . فأنا لا أحاسب نفسى أولا بأول . . وفلتت منى كلمة : هارب ! !

نعم هارب . هذه هى الكلمة التى تصفنى تماماً . هارب . فأنا لا أكاد أجد نفسى وحدى حتى أمد يدى إلى التليفون .. أريد أن أشغل أذنى . . وأمد يدى إلى كتاب أريد أشغل عينى . وأنطلق إلى الشارع أهتم بكل شىء . . أريد أن أشغل رأسى . . وأتزاحم مع الناس . . وأحس أنهم يمشون فى مظاهرة احتجاج .. احتجاج ؟ هذه هى كلمة أخرى

تصفنى أيضاً . . فأنا أريد أن أحتج على الهموم التى تطاردنى دون سبب . .

وفى الليل عندما أعود إلى البيت أحاول أن أهرب من اليقظة إلى النوم . . أريد أن أتسلل بنفسى وراء أسلاك شائكة اسمها الأرق . . فألقى بأقراص النوم فى حلقى . . أريد أن « أسهى » نفسى وأنام . . وتقوم محاولة ضخمة للتمثيل على نفسى . . فأنا أصبح كالمسرح الكبير . . تنطفئ فيه أنوار الصالة بالتدريج . . مصباحاً وراء مصباح . . ثم تضاء الأنوار على المسرح . . وأفرح بانطفاء الأنوار ويدق قلبى الدقات التقليدية . . وأتشبث بالستارة . . لا أريدها أن ترتفع . . أريد أن أسدلها على قصة اليوم . . على قصة البئر والغريق . . ومع ذلك ترتفع . . الستارة وأرانى معلقاً فى السقف وأجدنى مكرهاً على الاستماع إلى مسرحية لا أريدها ولا أحتملها كل ليلة .

ويكفى أن أتقلب فى فراشى . . لأصحو من جديد وأحاول مرة أخرى إطفاء الأنوار . . وأشعر أن فكرة واحدة متسلطة على رأسى طول الليل . . وأحاول أن أطردها . . وأحاول أن أتركها حتى تنطفئ وحدها كأنها سيجارة . . وأفاجأ بأن السيجارة قد أصبحت « عقباً » . وبدلا من أن ألقى بها بعيداً عنى فإننى ألقى بها فى داخلى . . فتشتعل حرائق كبيرة فى نفسى من الدخان والعرق والنار والأرق . . إن الحرائق تولد من سجائر صغيرة . وهذا صحيح مع الأسف !

وأتطلع إلى الساعة فى يدى أو على الحائط . . وأشعر أن الساعات

تشبه الدائنين . . كلهم واقفون وكلهم يطالبونني بشيء . . بديوني القديمة . . إنهم يشبهون اليهودي شايلوك الذي يتقاضى الديون دماً ولحماً . وأن شايلوك ليس مجرماً . . إنه ينفذ العقد المبرم بينه وبين المدين . . وهو نفس العقد الذي أبرمناه نحن . . فوجودنا هو توقيع كبير على وثيقة حياتنا . . وحياتنا عمل .. إما العمل وإما الموت . . والموت ليس معناه شيئاً كبيراً .. فحياتي بالنسبة لي شيء هام ، بالنسبة للناس لا قيمة لها . . وإذا مت فليس هذا يعني أحداً سواي .. فأبي مات وأنا أعيش بعده . . وجدي مات وأبي عاش بعده . . ووجود الناس اليوم بالملايين معناه أن الناس في استطاعتهم أن يعيشوا بعد أن فقدوا الملايين من الأعزاء عليهم .

وأحياناً أنظر إلى الساعة . . وأرى عقاربها . . عقارب فعلا . وأخاف إذا اقتربت أنا منها . . وأخاف إذا ابتعدت عنها . .

هارب أنا . .

هارب من الشيء الذي لا يهم أحداً سواي . . من الهموم التي تنبت فوقي كأوراق الشجر . . هارب من الذي لا أقوله ، ولو قلته لازداد عذابي . . فإنني أكره أن أرى الرثاء في عيون الناس ، وأكره أن أرى الشفقة على ألسنة الناس . . إنني أحرص على همومي . . وأرعاها كما لو كانت قطيعاً من الأغنام . . إنني أحرسها وأهش عليها والحقيقة أنني أحبها وأحتمي بها . . فأنا الآخر مثلها خائف من ذئب اسمه : الناس !

١٢٠

وأبحث عن قرص التليفون أديره . . أبحث عن الرقم الذى كنت أديره فترتفع مظلة واقية من الغرق . . وأخرى من النجاة . . . إننى هارب منى !

إنها حكاية غفير

لأسباب كثيرة يطلق أحد أصدقائى على زوجته اسم « الغفير » . ربما لأنها تنام دائماً وتتظاهر باليقظة ، أو لأنها تنام دائماً وراء الباب أو تحت الشباك ، أو لأنها لا تكاد تراه حتى تقف على حيلها فى حالة « محلك سر » أو لأنها تعوج رقبتها فى حالة « إلى اليمين انظر » ثم تضع أحد أطفالها على صدرها فى حالة « كتفاً سلاح » . .

وأترك الكلام لصديقى :

كل يوم أعود إلى البيت أتصور أننى أخطأت فى العنوان . أخطأت فى الطابق أو فى الشقة . . وأقف وراء الباب فى حيرة فأنفى يقول : زريبة !!! وأذنى تقول : ورشة !! وعينى تقول : ملجأ !!! .. وعقلى يقول : مجنون ! ! ! وقلبى يدق بصوت مرتفع كأنه يصفق لعقلى ! ! !

وأنا أكره أن أجد الغفير صاحياً ، وأكره أن أجده نائماً . فإذا كان صاحياً تحولت بسرعة إلى أحد اللصوص . فالغفير يسألنى : أين كنت ومع من ؟ فإذا قلت كنت مع بعض أصدقائى . كان رد الغفير : ومن أين جئت بهذه الرائحة العطرية ؟ وإذا اعترفت بأننى كنت مع بعض الرجال والنساء ، فلابد أن أذكر اسم كل واحدة ولون فستانها وأين كنت أجلس وماذا قلت وماذا قالت .

وأكره أن أعود إلى البيت فأجد الغفير نائماً . إننى أكره الصمت ، أكره الوحدة . أريد أن أتحدث إلى أحد . أن أقول أى شىء أن ألعن أحداً أو شيئاً . وقد حدث كثيراً أن عدت إلى البيت فوجدته ساكناً كالمقبرة . فضربت أحد المقاعد برجلى فسقط المقعد وتزحلقت على الأرض ... وجاء صوت الغفير من الداخل : مين اللى بره ؟ فقلت : أنا الحرامى ؟ .

ورقعت زوجتى بالصوت ! ! !

وبعد ذلك عرفت أن الغفير لم يكن ساذجاً عندما تصور أننى أنا الحرامى. فأنا فعلا أحاول أن أسرق هذه الأسرة..أحاول أن أسرق راحتها ، أن أسرق أموالها . . . إننى أتآمر على أطفالى أريد أن أسلبهم والدهم ... وأن أقدمه هدية لفتاة أخرى ، لقد مللت الحياه مع غفير ، وأريد أن أعيش مع زوجة ، فزوجتى غفير يحرس أولادى ويحرس بيتى ويحمى مستقبلهم منى وأريد أن أجرب القيام بدور صاحب البيت ، لا سارق البيت !!!

ولاحظت أخيراً أن زوجتى تسلطنى على أولادها فأنهال عليهم ضرباً . أى أننى أقوم هذه الأيام بدور « نبوت » الغفير .

ولاحظت أيضاً أننى أشعر بارتياح عندما أضرب أولادى . إن أولادى يشبهون الغفير . . فأنا أضرب الغفير فى كل واحد منهم ، فأنا أفقأ عين الغفير فى ابنى الأكبر ، وأكتم أنفاسه فى ابنتى الكبرى ،

حتى الطفل الرضيع أتهجم عليه ، كأنني أحاول أن أرده إلى مكانه من بطن أمه !!

وكنت أقول لنفسى إن الزواج كحقنة البنج لا يشعر بها الإنسان إلا لحظة واحدة وبعد ذلك لا يدرى بشىء . . . والزواج فعلا حقنة فى العضل وحقنة فى العرق وحقنة شرجية وحقنة على يد مأذون !!!

وهذه الأيام بدأت أشعر بكل هذه الحقن . كأننى أخذت الحقن وأنا فى حالة إغماء شديد ، وعندما أفقت أوجعتنى جميعاً . إننى مريض بالغفير ... إننى أشعر به فى يدى وفى رجلى وفى ظهرى وفى جنبى ... إنه مرض متنقل اسمه « الغفرس » على وزن النقرس !!!

وإذا كان النقرس مرض العظماء ، فإن « الغفرس » هو مرض العظماء أيضاً — أى — أصحاب المصائب العظيمة !!!

كأن حياتى كانت مكتوبة بحبر سرى لا يراه أحد . وفجأة بدأ هذا الحبر يظهر حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ... ثم أخذت الكلمات تتجمع وتتكوم كأوراق الكوتشينة وأمد يدى لأقلب ورقة وأجد مكتوباً عليها كلمة : شقاء !!!

وأصبحت هذه الأيام شخصاً لا يطاق ... عندما أدخل البيت يشعر كل من فى البيت أننى قنبلة تسيل لها الدموع والدماء وتنبعث لها روائح كريهة ... فالغفير يقف وإلى جواره « العهدة » — أى الأولاد — والأولاد يتعلق بعضهم ببعض تحت اللحاف وفى دورات المياه . . وكنت فيما مضى أدخل البيت كلص ظريف ... أما اليوم فإننى كمجرم عادى

جداً ... أفتح الباب وأستند إليه بظهرى وأشير بيدى إلى أعلى وأسفل كأنى قائد أوركسترا من الأشباح أو كأنى ناظر مدرسة الصم والبكم !!!

وكنت أصدق فيما مضى أن الزواج كالفيلم الناجح ، يجعلنا نبكى أثناء العرض ثم نصفق فى النهاية ، ولكن يبدو أنى دخلت الفيلم من آخره ... صفقت أولا وبكيت أخيراً ... بل حتى ولا هذا ، فإننى على يقين من أنى دخلت وخرجت من السينما أثناء العرض . . . ولذلك أحاول أن أدخل فيلماً جديداً ، أحاول أن أذهب إلى السينما قبل ارتفاع الستار ..

انتهت أقوال صديقى ...

وفى الأيام الأخيرة اختفى صديقى ، وعرفت أنه ينام نهاراً ، ويصحو ليلا ... فقد غضب الغفير وعاد إلى أهله وترك له «العهدة» كلها فى البيت . . . وجاء دور صديقى ليقوم بدور الغفير ونبوت الغفير وهو الآن فى انتظار اللصوص !

دنيا عم إسماعيل

ـ قل لى يا عم اسماعيل ... أين كنت أمس ؟

ـ هنا.

ـ لم تتحرك ! وأول أمس !

ـ هنا أيضاً . الدنيا تلاهى !

وعم إسماعيل بائع متجول .. بائع عنده عربة . والعربة لها عجلات .. ويستطيع أن يدفع العربة أمامه إلى أى مكان فى شارع ٢٦ يوليو . . ولكن عم إسماعيل مصر على أن يبطل عمل العجلات . ويجعلها تتشبث بالأرض؛ أما الدنيا التى تحدث عنها عم إسماعيل فهى لا تزيد على مائة متر طولا . . ومتر واحد عرضاً . فهو ينتقل من بيته إلى المكان الذى يقف فيه بعربته فى الشارع . . إنه لا يعيش فى دنيا . وإنما هو يعيش فى نفق . فى أنبوبة هوائية . طولها مائة متر وقطرها متر واحد وهذا الممر الضيق . هذه القصبة الهوائية . هذا البلعوم أو ماسورة العادم.. هذه هى دنيا عم إسماعيل .

وهو لا يسكن هذه الدنيا وحده . وإنما معه أولاده وزوجته وأقاربه وبعض الباعة المتجولين وكل واحد منهم يعيش فى أنابيب من نوع خاص . أضيق . أوسع . أقصر . أطول . ولكنها أنابيب وعم إسماعيل دنياه

لا تزيد أبداً منذ عشرين سنة .

وهو لا يعرف من شارع ٢٦ يوليو إلا هذه المساحة . ولا يعرف من القاهرة إلا بعض الأماكن التى كان يتردد عليها وهو شاب أو وهو طفل . والدنيا غيرته . أو تغيرت هى . إنه لا يعرف

وهو يطلب من الله شيئاً واحداً : الستر . .

فإذا مرض يطلب الستر . يعنى العلاج .

وإذا نامت السوق . يطلب من الله الستر . يعنى الفلوس .

وإذا مات — وهذا هو الأهم — أن يجد ثمن الكفن والدفن .

ودنيا عم إسماعيل يتحرك فيها الذئاب والوحوش الذين يأكل بعضهم البعض . وهو لا يخاف إلا من الخطافين أو الباعة المتجولين مثله . وهو لذلك يصالحهم ويصافحهم . ويمد لهم يده . . وشعاره : يجب أن تمد يدك دائماً . يدك وهى مليئة بشىء . أو إذا لم يكن شىء فلا أقل من الحرارة . . . حرارة السلام والتحية والوداع . يجب أن تمد يدك للناس . تربطك بهم صلة . . هذا أسلم من شرهم .

— وأين تعلمت هذه الأشياء يا عم إسماعيل ؟

— الدنيا يا ولدى . . الدنيا علمت الحمار وجعلته يمشى على اليمين دون أن يطلع على الرصيف .

وترددت فى كلامى مع عم إسماعيل . كلمات : الشخصية . الحرية والوجود . .

ولاحظت أن كل هذه الكلمات ليس لها أى معنى . ولا أى مدلول .

ولاحظت كأنى أتكلم عن قطع غيار السيارات الكاديلاك لرجل لا يملك إلا عربة كارو عليها خيار ازداد اصفراراً من الشمس . . وعليها حبات من الطماطم وبعض العنب . . .

الشخصية معناها الطماطم . والفردية معناها أن يجد مكاناً بالقرب من الرصيف . والحرية معناها أن الطماطم تتحرر من ضربة الشمس .

والوجود معناه الوقود ..

منك نستفيد يا عم إسماعيل . . .

خوازيق الغرام ! !

حدث كثيراً أن تقدم أحد أبناء البلد إلى الخاطبة يسألها عن عروس . وتأتى له بعروس وتعجبه . وليلة الدخلة يجد نفسه أمام عروس أخرى . لقد خدعته الخاطبة وعندما يحاول الهرب ، يجد أن أهل العروس الذين يطلقون الأعيرة النارية « فى الفاضى » يهددونه بإطلاقها فى المليان . . .

ولكن هذا هو الذى يحدث كثيراً جداً بين أبناء المدن . فالواحد منهم يخطب فتاة . وليلة الدخلة يجد نفس الفتاة . ويهرب معها فى شهر العسل . وبعد ذلك يكتشف كل يوم أنها فتاة أخرى ...

وكأنه تزوج أخت العروس ، وكأنها تزوجت أحد المدعوين ...

وأيام الخطبة : هى عمل فيش وتشبيه للعروسين ، وشهر العسل هو محاولة « مضاهاة » بصمات العروسين اللذين أصبحا زوجين ...

ويحدث كثيراً جداً أن يكتشف العروسان تزويراً فى المستندات الرسمية !!!

أعرف مهندساً تخصص فى الخرسانة المسلحة . وتقدم المهندس لخطبة فتاة وتزوجها . وكان حديثه كله طبعاً عن الزلط والأسمنت والشكاير والحديد والصلب . وكانت أطول مناقشاته حول الخوازيق التى يجب أن يدقها فى الأرض قبل بناء العمارة . وكانت له فلسفة خاصة فهو يقول

لها : إن العمارات العالية تحتها خوازيق عالية . وكلما كبر الخازوق ، ارتفعت العمارة . وهو يقصد بلغتنا نحن : أنه ليس أحسن من الفقر والتواضع ، وأن العمارات الصغيرة لها خوازيق صغيرة ... ومتاعب قليلة ...

وكان الكلام يتساقط من فمه كالدبش ، وينزل على رأس الفتاة كالطوب . ولكنها كانت سعيدة به جداً . كانت ترى أن كلامه كالخوازيق . ولكنها الخوازيق التي لابد منها لعمارة الحب ، وقصر السعادة ، وناطحة السحاب ...وكانت تنزل مع الخوازيق تحت الأرض ، وكانت تتشعلق مع العمال فوق السقايل ، وتتشعبط على أنابيب المياه ، وتصرخ عند ما ينقفل الباب على إصبعها ... كل هذا وهى سارحة فيه ومعه ...

وكانت ترى أن الزلط والطوب أروع وأجمل من اللب والحمص والسودانى مع الشبان الصغار الذين عرفتهم قبل الزواج .

ولكنها أحست بالملل . ملل الاستماع وملل الصمت . لقد شعرت أنها التلميذة الوحيدة فى كلية الهندسة قسم العمارة فرع الخرسانة ... وأن زوجها هذا يحاضر ليلا ونهاراً . وليست هناك مقررات .

وليست هناك امتحانات الفترة الأولى أو الثانية ... ولا توجد إجازة لنصف السنة ولا آخر السنة ... والمحاضرات تبدأ بغير جرس ، وتنتهى بغير جرس ... وفى استطاعة التلميذة أن تنام وأن تأكل ويظل الأستاذ يتكلم بلا توقف ...

وأحس هو الآخر بالملل . فقد كان يعرف قبلها فتاة . فلم تستطع هذه الفتاة أن تصبر طويلا على الحياة بين الطوب والزلط . وكانت تتهمه

بأنه مأمور ضرائب يحلم بأن يكون وكيل نيابة إدارية فى مصلحة المبانى!!

وتركته هذه الفتاة . وعندما عرف زوجته . ظن أنه يستطيع أن يدخل قلبها إذا بدأ أمامها كبيراً عالماً جليلا . مهندساً بارعاً . يحول الأرض الخراب إلى عمارات ، يحول الحجارة إلى سلالم ، والزلط إلى حوائط ناعمة ... وقد أقام الكثير من العمارات ولكنه نسى زوجته فى البدروم مع البوابين .

ولم تعرف زوجته أنه كان يخفى خجله . لأنه عندما يتحدث إليها لا ينظر إلى وجهها . يخاف من عينيها . فهو رجل بلا تجارب وكان كثير السرحان . وكان السرحان غشاء يتستر وراءه حتى لا ترى الزوجة حيرته وليخته .

والدنيا كلها عنده عبارة عن فلل وبيوت وعمارات ...

وحياتهما عبارة عن بيت له ثلاثة طوابق . الطابق الأول هو الجنس والثانى هو الحب والثالث هو الصداقة ...

وهناك نساء كالعمارات ، لها باب واحد ...

ونساء لها أكثر من باب ...

ونساء لها واجهة جميلة فقط ...

ونساء لها مداخل من الرخام الأبيض الملون ...

ولم يعرف كيف يتراجع ... لم يعرف كيف يرتدى ملابس الطلبة ، ويرمى روب الأستاذ ...

وهى الأخرى لم تحاول أن تتراجع عن الاستماع إليه والسرحان فى شىء آخر .

وأصبح كل شىء مملا . صمتها ممل . وكلامه ممل !!!

ونحن عندما نتزوج فإننا نحاول أن نهرب من الصمت الممل . وعندما نفر من الزواج نحاول أن نهرب من الكلام الممل ...

وأصبحت حياتهما مللا . . .

واكتشف كل منهما أن الآخر قد زور فى الأقوال والأفعال والشهود ...

ولم يصارح أحدهما الآخر ...

فقد قام « الخجل » بدور الخاطبة التى زورت العروسين ...

واتفق الاثنان على الانفصال ... ليبدأ كل منهما حياته من جديد ... ولكن مع إنسان آخر ... حياة الأكواخ والكباين والخيام ... حياة بلا خوازيق !

مذهب الكدهوّية !

اتفق رأى الأطباء على أننى يجب أن « أشوف لى حل » . . أنا الذى يجب أن أبحث عن الحل ... فقد حاروا . .

ليس الكبد هو السبب ... ولا الأمعاء الغليظة ولا المعدة ... ولا القلب ... وقد تكون الأسباب وراثية ... وقد تكون الأسباب عصبية ...

أما أنها أسباب وراثية فهذا مستحيل فقد كان والدى ينام ويستغرق فى النوم فى أى وقت يريد .... وكنت أنا وإخوتى نتبارى فى رؤية والدى وهو ينتقل من اليقظة إلى النوم إلى أعماق النوم ... فكان يطلب منا أن نعد من واحد إلى خمسة ... وقبل أن نصل إلى أربعة يكون قد نام . فليست الوراثة أبداً . وقد صدق المثل القائل : يخلق من ضهر النائم ساهر . .

وليست الأعصاب ... فأنا متنبه جداً . والسبب هو الطبع أو هى الهموم أو هى المخاوف أو هى عشرات من فناجين البن طول النهار وطول الليل أو هو انتظار النوم الذى لا يجىء !

ولكن الأعصاب كالحديد مشدودة طول الوقت ... وألاحظ أننى أحتمل الكثير من المواقف . ولا أقول بالابتسام ولكن بالصمت أو بمحاولة الدوران حولها . يعنى الأعصاب لا بأس بها ...

إذن سبب أرق وسهرى ليس الوراثة ولا الأعصاب ... ليست وراثتى لا طبيعتى ... ويبدو أن مشكلتى مع النوم هى مشكلة أدبية ... مشكلة لغوية ...

فأنا أعامل النوم باعتباره مذكراً ... باعتباره رجلا مثلى ... رجلا يحفظ كلمته ولا يخلف وعده فهو يعلم أننى على موعد كل ليلة . ومع ذلك لا يجىء ... أو يجىء متأخراً عن موعده ساعات وهذا يضايقنى والضيق يجعلنى عصبياً . وعندما أكون عصبياً لا أنام ... فيصبح جسمى كله فى حالة استعداد ... فى حالة طوارئ ... الأنوار الحمراء فى عينى والصفارات فى أذنى ... والأجراس فى صدرى .

ومنظرى ... كمنظر بيت احتشد أمامه الناس وكلهم يصرخون ... وأمامهم وقفت سيارات المطافئ والإسعاف والنجدة والآداب ... إن هذا المنظر يخيف أى إنسان أى زائر لك حتى لو كان هذا الزائر هو أعز صديق لك . حتى لو كان هو النوم !

ويجب أن أغير علاقتى اللغوية بالنوم .

يجب أن اعتبر النوم « مؤنثاً » ...

أعتبره فتاة ... فتاة جميلة أو قبيحة ... وإنما هى فتاة والسلام .... تجىء كل ليلة وتعطينى شيئاً منوماً ... فى العضل فى الوريد .. فى الضرس ... فى العين ... لا أعرف أين ... ولكنها شىء من نوع غريب . وليس مهماً أن هذه الفتاة قبيحة الشكل ... فالمرأة هى المرأة .. سواء أكانت م.م أى مارى منيب أو م.م أى مارلين مونرو . ولذلك فهى

لا تهتم بالمواعيد ... لأنها تتصور دائماً أن الرجل يجب أن ينتظرها ... يجب أن يتوقع مجيئها بين لحظة وأخرى ...

ولكن شعورى بأن النوم امرأة قبيحة ومع ذلك لا تحفظ مواعيدها يلهب أعصابى ويجعل هناك «تماسا» فى أعصاب العين والأذن والأنف... فأظل طول الليل فى حالة احتراق وتدخين ... ومعنى ذلك أننى لا أنام ...

والحل الوحيد هو أن أتصور أن النوم فتاة جميلة وأننى ميت فى هواها ... وأننى لا حياة لى بغيرها ... وأن كل جسمى يجب أن يحتفل بها ... يجب أن أتلمس لأنفى طريقاً إلى عطورها ، ولأذنى سبيلا إلى أنغامها ... ويبقى جسمى ممدداً على الفرش كأننى ترابيزة سفرة عليها الطعام ... والطعام فى انتظار ست الحسن والجمال ... ستجىء . متأخرة عن موعدها . ولا مانع فهذا شرف عظيم ... المهم أنها تجىء ...

ولا يجب أبداً عندما تجىء ست الحسن أن أناقشها الحساب... لماذا تأخرت ... ومن الذى عاكسها فى الطريق . . ومن الذى كانت تكلمه فى التليفون ... ولا يجب إن أسألها إن كانت ما تزال تحبنى ... أبداً إننى فى معركة معها ... مع الغيرة مع الحيرة ... ولكن هذه المعركة يجب أن تنتهى قبل أن تبدأ . . يجب أن أرفع علماً أبيض فى نهايتها . . فأحسن وسيلة للانتصار فى معركة المرأة هى الاستسلام لها ... هو الانسحاب أمامها ... هو الهرب من مواجهتها ... إذا هربت منها ، هربت وراءك . وتركت أهلها وأحب الناس إليها من أجلك ...

ومشكلتى مع المرأة التى هى النوم أو المرأة عموماً ... أننى أحاول

ن أفهم تصرفاتها أولا وثانياً وثالثاً وبعد ذلك أتصرف كما تريد هى ...
ولكن عيب هذا النوع من التفكير أنه لا ينجح إلا مع الرجال ... ولكن المرأة لا ينجح معها أى تفكير ... أية محاولة لكى تكون عاقلا ... فلا فكر ولا عقل ولا منطق ... وإنما «كده هو» و «كده هو» معناها أنك تتصرف أولا بأول ... حسب الموقف .. بلا خطة ولا برنامج ... و «الكدهوية» هو مذهب عرفه الإنسان منذ نزل من السماء إلى الأرض .. وقد كانت سياسة والدنا آدم ، تمشى على قواعد «الكدهوية». إذا حواء أكلت من التفاحة لم يعاتبها . . . وإذا استمعت إلى الأفعى لم يعاتبها ... وإذا قصرت لم يؤاخذها ... فلم تقع بينهما معارك ... ولم يمسك حجراً أو شجرة ويحطم رأسها ... ولذلك عاشت البشرية واستمرت . لأنها طبقت «الكدهوية» تطبيقاً كاملا ...

ولذلك لا أتوقع أن أنام لا اليوم ولا غداً ما دمت غير مؤمن بقواعد الكدهوية ... فى الحياة عموماً ومع المرأة خصوصاً ... ومع النوم بالذات .

ولكنى اهتديت إلى حل أحسن .

فقد لاحظت أننى أتثاءب ابتداء من منتصف الليل ... بشرط أن أكون خارج البيت فإذا وصلت إلى البيت ... طار النوم ... ويبدو أن النوم طائر حر يضيق بالحبس والقيود ... وقد حاولت أن أغرى هذا الطائر بأن أفتح له النوافذ ... وأن ألقى له بالغطاء من فوق ... لعله يبقى طول الليل ساهراً فوق رأسى ... ولم أفلح ... وأذكر أننى فى إحدى المرات وقفت بسيارتى أمام البيت ... فاستغرقت فى النوم ... فتطوع

بعض الجيران وأيقظوني ... فقد ظنوا أنني مريض ... ! أو أنني فى حالة إغماء . وقد نصحني بعض الأصدقاء أن أنصب خيمة أمام البيت وأنام فيها ... وقد رفضت هذه الفكرة ... لأن الخيمة إذا أقفلت جوانبها فستتحول إلى بيت ... ويهرب النوم مني مرة أخرى . . .

والحل الوحيد هو أن أعمل كما يعملون فى أمريكا ... فقد رأيت فى أمريكا سيارات كثيرة مكتوب عليها (عريس وعروس) . . . أو «بداية شهر العسل» .. أو «اليوم الأخير من الشهر الحلو» .. وكان الناس كلما رأوا أصحاب هذه السيارات ألقوا عليهم بالوَرود وتمنوا لهم السعادة . .

ولذلك سأقف بسيارتي أمام باب البيت وأكتب عليها « نائم » ... أو « دعوني أنام » أو « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » ... أو الفتنة نائمة فقط ولا داعي لشتيمة الناس ... والمشكلة هى أن الفكرة جديدة وسينظر إليها الناس فى دهشه وسيلتفون حولى ... وستقام حفلات العزاء وكل واحد منهم يأخذ بخاطر الآخر ويطالبه بالصبر والسلوان ... فقد كنت رجلا طيباً والأعمار بيد الله ... لقد مات عقل الأستاذ !

فما هو الحل ؟

إن الجواب عن هذا السؤال هو ما أناقشه كل ليلة !

عودة الصوت !

قام من النوم وقال : آه . . . .

وقالها مرة أخرى . وانتفض جالساً ليقولها مرة ثالثة . . . ويضرب حلقه بيده . . . ويدق صدره وظهره . ويشرب كوباً من الماء . وينطلق إلى الحمام ويسعل بصوت عال . . ولكنه لا يسمع شيئاً . لقد ذهب صوته . إن الحبال التي كان الصوت يتسلقها قد انقطعت ... إن صوته فى بئر . كأن حنجرته قد هبطت إلى معدته .. إنها تتكلم هناك ، فلها صوت يجيء على هيئة مغص .

إنه حزين. إن الذين يقولون له إنه ابتلع حنجرته سهواً يؤلمونه جداً . إنه لم يعد يضحك . بل لا يدرى كيف يضحك . يمد يده إلى التليفون ليتكلم...مع من ؟ وكيف؟ فكل ما يخرج من فمه هواء ... هواء يخرج من الحلق كأنه هواء الخماسين فيه تراب ورمل...ويرتدى ملابسه وتعترض أمه طريقه . . . فيتظاهر بأن فى فمه ماء ... ولا ينطق فتقول له : مالك؟ أسنانك تانى ... مش قلنا بلاش سجاير... وبلاش سهر ... أبوك كان كده ... أخرتك زيه !

ولكنه لا ينطق . لقد ضاع أمله . إنه كان يحلم بأن يكون مذيعاً . وأن يقول هنا القاهرة ... بصورة غنائية ... لقد سمعنا منه «هنا القاهرة»

ألوف المرات ... وسمعنا منه كيف يقدم أم كلثوم لحضرات السيدات والسادة وكيف يصف فستانها وحليها و يصف صوتها وشعر أحمد رامى ... سمعنا هذا مئات المرات ... وتمنينا له النجاح حتى يحمل السادة والسيدات بعض ما نعانيه معه من عذاب ... كل شىء ضاع ...

وحمل حقيبة فى يده وتذكرة الطائرة وسافر إلى ألمانيا ...

ولا شىء يجعل الإنسان يشعر بأن الصوت عضو جميل ، إلا هذا الصديق.... فصوته يشبه الضوضاء العجيبة الموجودة على أرصفة محطات السكك الحديد ... فأنت عندما تجلس إلى جواره يذكرك ببائع السميط وبائع الصحف ، وصوت الكمسارى ، وهو يتشاجر مع أحد المسافرين دون تذكرة ..

والصوت عضو جميل . . كالفم والعين والأنف والساق . . ونحن فى اللغة العامية نقول «الحس» ومعناها الصوت . والحس معناه الإحساس ، وهذا معنى جميل . فالصوت هو كل إحساسنا ، كل ما فينا من عقل وفهم وقدرة على التعبير . والفلاسفة كانوا يقولون إن الإنسان حيوان ناطق ، أى حيوان له حس ... له إحساس ، له ... صوت ... له قدرة على أن يجعل أفكاره مسموعة . . فالصوت عضو جميل ، فيه جمال العين ، ودفء الشفاه ، وسحر الساق ...

إنه نعمة ، إنه هبة ، إنه رأس مال اسألوا جميع المطربين هنا وفى الخارج!

وسحر المرأة فى صوتها . وأنا أعتقد أن أجمل صوت فى الدنيا هو

صوت الممثلة الإيطالية اليانوره رومى دراجو ... هذا رأيى ورأى هذا الصديق الضائع الصوت والصيت ... إن الحبال الصوتية عنده تتحول إلى كرباج ، إن صوته يتحول إلى سوط يوجع ويؤلم ... أكثر الناس حباً له ، ويوجع أمه التى تحبه أكثر من أى إنسان فى الدنيا . ولا أعرف اسم الشاعر الذى كان يقول : لا توجد امرأة واحدة لا أستطيع أن أنتصر عليها بشرط ألا تفتح فمها . . . لأنها إذا تكلمت فقد استخدمت أقوى أسلحة الشيطان !

وكان صديقنا هذا يغنى أيضاً ويقفل الراديو عندما يستمع إلى المطربين فيقول : حظوظ !

وكانت تمشى وراءه جبال من لعناتنا وأنهار من دموعنا . . .

وكان فى نيتى أن أدعو له وأصلى من أجله ... لولا الخطاب الذى بعث به من ألمانيا ... إننى لا أصدق ما أقرأ ... الخط على الآلة الكاتبة ... التوقيع للدكتور « إلفرد ... » ... لقد أعطيت الخطاب لهذا الصديق وذاك . . ولا أحد يصدق الخطاب أو يصدق الطبيب الذى يقول : إن صوته قد تخاذل وانهار لأنه قليل الكلام . وإنه سيعيد إليه صوته .

إذن . . . ستكون حبالة الصوتية ، مشانق لكل الأصدقاء !

كنز لا يفنى

فى عينى صور متتابعة لأناس راضين ضاحكين . أحدهم يجلس على الأرض فى شارع فؤاد يمزق إطارات السيارات ويصنع منها نعالا للأحذية القديمة . وفى استطاعتك أن تمر أمامه وأن تبتسم له . أو تحييه . انظر إلى وجهه إنه يمتلئ بالدم والنور ويضحك ويحييك . ولا تختفى الابتسامة بسرعة . وإنما تظل عالقة بوجهه مضيئة كعلامات المرور ..

من أين له هذا الرضى ؟ هذه القناعة ؟ هذه السعادة ؟

إنه يجلس على الأرض . على قطعة من الحجر ... وظهره للحائط . ورجلاه ممدودتان ...

أهو يغترف من ذلك الكنز الذى يسمونه القناعة . والقناعة كنز لا يفنى . أهو الصبر على ما عنده . وليس عنده شىء ... أهو الإيمان ؟ الإيمان بماذا ؟ أهى طبيعة الوجه أن تمتلئ بالنور والسعادة ؟

وسيدة أخرى تحمل على رأسها «مشنة» بالفول السودانى . وجهها لامع وساقاها مغسولتان دائماً . وهى إذا سارت فإنها تتثنى وتوزع ابتسامتها أكثر مما توزع بضاعتها ولا تكف عن الضحك أبداً ولا تبيع أبداً . ظللت أرقبها مسافة طويلة . إن أحداً لا يشترى منها . ومع ذلك فهى لا تبخل على أحد بابتسامة أو بتحية أو بإغراء ... ولكنها تضحك دائماً وتمد يدها

إلى المشنة تأكل مما تحمل أيضاً . إنها تنوب عن الزبائن فى تذوق هذا السودانى الساخن – كما تسميه . .

نفس الوجه . نفس الابتسامة . . والينبوع الخالد . يتفجر من وجهها وعينيها وصوتها ومشيتها ...

أهو الصبر الذى هو مفتاح الفرج ؟

أهى طبيعتنا المصرية ؟ ولكن هل هناك شيء اسمه «طبيعة » مصرية وطبيعة إنجليزية أو فرنسية ... أم أنها طبيعة واحدة لكل الناس ؟ أهى صفات شخصية؟ ولكن كيف تكون شخصية ويتصف بها معظم الناس؟

ورجل ثالث جاء ضيفاً علينا نحن رواد « البن البرازيلى» ... رجل بجلباب وجاكتة يبيع كرافتات صنعت من الجلد، إنها جميعاً تشبه كرافتة توفيق الحكيم ... غير قابلة للكسر ولا الغسل وينادى عليها بأسلوب خاص ويقول : فكرة جميلة جداً ... الفكرة دى جميلة جداً ... جداً .

ويروح ويجىء فى شارع سليمان باشا بين دور السينما ويعترض المتفرجين ويضحك الناس عند ما يرونه أو عندما يفاجأون بأسلوبه الخاص فى النداء على الكرافتات ويقتنعون معه بأن الفكرة جميلة جداً.. وأنها فكرة فقط . ولكن يداً واحدة لا تمتد إلى شراء هذه الكرافتات ولم أر أحداً غيرى اشترى منه كرافتة واحدة .. ولكن الرجل صاحب الجلباب والجاكتة لا يكف عن الابتسام ولا عن الفكرة الجميلة جداً ... ويظل يروح ويجىء كأنه كرافتة ! وكأنه معلق فى شماعة . ولا تمتد إليه يد أو حتى يكلمه إنسان ... ويضحك !

هذا الابتسام أو هذا الضحك أو هذه القناعة ما معناها ؟ هل معناها أن هؤلاء الناس نفوسهم لم تصدأ . وأن جذوة حياتهم لم تخمد ؟ ولماذا ؟ هل هى روح المقاومة لقسوة الحياة ؟ أهو الإيمان الذى يمدهم بأسلحة وعتاد لا ينفد . أهو الانتظار السعيد ليوم الفرج ؟ أهو العالم الصغير المحدود الذى يتحركون فيه ، والذى يحد شمالا ببائع البرتقال وجنوباً ببائع ورق اليانصيب وشرقاً بمحطة الترام . . وغرباً بالحائط . . وهل إذا كان عالمنا محدوداً كانت متاعبنا أقل وهمومنا أخف . . .

هل هذا العالم المحدود هو الذى يجعل بائع الفجل مثلا يضع ساقاً على ساق ويقول : أنا سلطان زمانى . . .

أما حدود هذه السلطنة فهى جانب من جانب من شارع صغير أو حارة مسدودة .

أهو نفس العالم الذى صوره الأديب الأيسلندى « لاكسنس » الفائز بجائزة نوبل فى قصة « سالكا فالكا » . فهو فى هذه القصة يقدم لنا أناساً يعيشون فى جزيرة تغطيها الثلوج وتكتسحها العواصف أو الثلوج العاصفة ... يعيشون فى عزلة جليدية عن العالم كله ... ويتحكم فيهم صاحب الزورق أو بائع السمك . . . وعندما تلعب الخمر الرديئة برأس صاحب الزورق يقف على منضدة ويعلن أنه سيد البحار . وحاكم الجزيرة وأنه الذى يمسك الجوع عن كل الناس . ولولاه لانعدمت الإنسانية كلها . . . إنهم يعيشون فى عالم محدود جداً وهم راضون وقانعون و بعضهم يحسد البعض. وفيهم متدينون . لأنهم لا يدرون ماذا يصنعون أمام الجليد

والعواصف والبحر والخوف والفقر. لا شيء إلا الصلاة . وفيهم ملحدون . لأنهم لا يخافون أحداً أو شيئاً . لأنهم يملكون وسائل إحياء الناس. ولذلك فهم حكام مستبدون أو آلهة . ..

إنه العالم المحدود الذى يملأ قلوب الناس بالسعادة ...

وعندما ذهب « جيلفر » إلى بلاد الأقزام قابله الملك والوزراء وسألوه. هل رأيت أروع من بلادنا ؟ هل سمعت عن أناس أقوى وأعظم منا ؟ هل شاهدت هندسة وعمارة وفناً أجمل مما فى بلادنا ؟

وضحك الملك وتمايل الوزراء . فقد سكت جيلفر. وسكوته ما معناه؟ ليس معناه أن الملك قد أقنعه بشىء .

والملك سعيد وحاشيته ووزراؤه والشعب سعيد فى هذه الدولة المحدودة التى يقطعها جيلفر طولا وعرضاً فى بضع دقائق . . .

إنه العالم المحدود المريح . . إنها القناعة التى تشبه ذباب « تسى تسى » الذى إذا لدغ إنساناً جعله ينام وينام إلى الأبد ...

إننى لا أحسد أحداً من هؤلاء على الرصيد الذى لا ينفد من الابتسام والقناعة . ولكن أتمنى القليل مما لديهم دون أن أجلس وظهرى إلى الحائط أو أبيع الفكرة الجميلة جداً .. !

سبع صنايع . .

هو كل هؤلاء ... ليسانسيه فى الحقوق ... ليسانسيه فى الآداب مرتين ... مرة فى التاريخ ومرة فى اللغة الفرنسية . . . ومصارع فاز بعدد من البطولات فى حمل الأثقال ... وفاز بالمرتبة الأولى فى جمال الأجسام. وموسيقار وشاعر وطالب ماجستير يدرس موضوعاً لم يتناوله أحد قبله وهو الموسيقى عند قدماء المصريين . . . وموظف فى الدرجة الثالثة وفاشل فى حبه الأول والأخير !

واسمه : ى . . من الإسكندرية وله قصة . .

أولها أن ى .. كان تلميذاً ضعيفاً ... وكانت أمه تخاف عليه أن يسقط فى الطريق فيموت ... فكانت تصونه فى البيت . تقفل عليه الباب حتى لا يصدمه الهواء . وتسارع إلى النافذة فتقفلها فى وجه الشمس . وازداد الفتى ضعفاً ... وطلبت إليه أمه أن يمارس أى نشاط يتفق مع هذا الهزال ... وبدأ يحرك أصابعه على الكمان ... وبدأت حركة غير عادية تدب فى جسمه كله ... كأن عملاقاً هائلا قد تربع فى أحشائه . فإذا هو ينتفض ويدفع فيضاناً من الحياة فى ذراعيه وفى صدره وفى ظهره ... أو كأن مجموعة هائلة من الأفاعى قد هربت من قفصه الصدرى فتسربت إلى ذراعيه والتفت عليها . وإلى رجليه ... لقد قامت القيامه فى

جسم ى . ... واختنق الشاب المريض ... وصحت الأفاعى على صوت الكمان فقامت تتلوى ... وراحت تضرب وتصارع وتحمل ١٦٠ كيلو وهو ما يزال فى السابعة عشرة من عمره ... وكان التصفيق حاداً وكانت بطولة ... وإذا هو يسبح فى الماء بطلا ... وعند حافة الشاطئ يلتقى بالعازف العالمى « جاك » أحد أعضاء فرقة روبسون المطرب المعروف. وإذا هو ينقذه من الهلاك ... ويتطلع جاك إلى أصابع منقذه ويدهش كيف أن هذا الوحش له هذه الأنامل الموسيقية ... ويكتشف أنه لم يخطئ . . . فهذا الشاب موسيقار . . . ويدعوه للعمل معه فى لندن. ويفضل ى . . البقاء فى مصر لينال ليسانس الحقوق وهو فى التاسعة عشرة من عمره ويصبح بطلا للإسكندرية... ولمصر ، ويصبح ملكاً فى كمال الأجسام ... وله صور وقصص ومعجبون ومعجبات وتقع عينه على فتاة ... أو تقع عين فتاة عليه ..

وكانت نظرته قوية كعضلاته ... وأعجب بالفتاة وأعجبت به الفتاة. أعجبت بالحديد اللين ... ولكن هذه القوى الهائلة مهما كانت فهى خرساء أمام فتاة رقيقة تخرجت فى المدارس الفرنسية ... فلا بد أن تكون هناك لغة أخرى ... فكان ليسانس الآداب فى التاريخ ... وكان الحديث عن غرام الأبطال والملوك والأمراء ... وروميو وجوليت . وأنطونيو وكليوبطرة وقيس وليلى ، وكثير وعزة ... ودوقة وندوسور ... وانتهى الكلام ...

ولكن الحب طفل صغير ينام ويصحو على الحواديت . . إنه

ينام ويمدد رجليه وذراعيه فى قلبين اثنين فى وقت واحد . . . وصحا الحب يبحث عن لعبة أخرى يلهو بها ... وكانت اللعبه هى الليسانس الثانية فى اللغة الفرنسية ...

والتقيا معاً فى لغة واحدة ... وكان الحديث عن غراميات الأدب الفرنسى وعن التضحية بالدين والوطن والمال من أجل الحب... ولكن هذا الكلام كانت قد سمعته من قبل باللغة العربية ... كان كلاماً معاداً ..

وتحركت أصابعه النحيلة مرة أخرى... إنها كأصابيع البيانو وكتب مقطوعات موسيقية وعشرات تتردد فى محطة إذاعة الإسكندرية ... ثم كانت مقابلة للسائح العالمى « فتز باتريك » . الذى طلب منه أن يؤلف له الموسيقى التصويرية لفيلم سياحى عن مصر .. وقد عرض الفيلم فى مصر ... وعندما انتهى ى ... من وضع موسيقى هذا الفيلم ... مد فتز باتريك أصابعه فى جيبه وأخرج دفتر الشيكات وسأله : كم ألفاً تريد؟ ورفض ى . . أن يتقاضى أى مبلغ من المال لأنه أدى واجباً وطنياً . ودهش السائح الأمريكى لهذا التفكير الغريب . . . ومد يده فى جيبه مرة أخرى وأخرج شيئاً ونادى الخادم وقال له : كوبة ماء من فضلك ... فلما حضر الخادم أعطاه السائح الأمريكى ورقتين فئة كل واحدة منهما مائة دولار ! ... وكان ذلك بقشيشاً ... إن ى ... لا يخفى اليوم أسفه ولكنه عندما شاهد الفيلم ورأى اسمه يملأ الشاشة . . . وقرأ أنه مؤلف الموسيقى التصويرية أحس أن فى جيبه مليوناً من الدولارات .

وذهب وهذه الملايين فى جيبه إلى فتاته ... إنه يرى فيها الجمال

الكامل . إنه يرى أن الطبيعة قد قالت كلمتها فيها ... بل أدلت بكل أقوالها وبصمت بكل أصابعها ، إنه كان ينظر إلى صدرها وهو يعلو ويهبط . فكان يصاب بدوار البحر ... لقد كان البحر الأبيض يخاف منه ، ولكنه أمام هذا البحر الأسمر ، يخاف الاقتراب من الشاطئ .

وتعلقت عينا الفتاة بأحد المعجبين به واختفت معه فى بيت الزوجية . . . وبقى هو وحده يحمل الكتاب بعد الكتاب فى يده ويجتاح الشواطئ والنوادى لعل أحداً يقتنع بأنه فنان وليس فيلا أو درفيلا ... ولكن أحداً لا ينظر إلى أظافره اللامعة أو أصابعه المسحوبة الطويلة ... إن الناس تنزل على إرادة الأغلبية فى جسمه . . . والأغلبية تقول : إنه مصارع ... والأقلية تقول إنه فنان . . .

وكان لابد أن ينبت الشعر فى وادى الفشل العاطفى ... والحب يشبه قوس قزح لا يظهر إلا على سماء ملبدة بالسحب ... فتوالت القصائد عن الندى والفجر والسهر والبكاء والبلبل الذى يسكن جبلا اسمه ى . . ولكن الفتاة مشغولة بصراخ الأطفال واللبن والبزازة ... والطفل ى . . . يبكى بعضه على بعض ... ويمسح دموعه بثلاثة ليسانسيهات .

والقصة لم تنته ... إنه يعمل الآن فى إحدى الإدارات التى يستغل فيها كل مواهبه الأدبية والفنية والجسمية والعاطفية ... إنه يعمل فى الحجر الصحى !

واسترح الناس

لا يعرف أحد من أين جاء هذا الرجل العجوز ؟ ولا من أين جاءت هذه الفتاة التى تقيم معه؟ ... إلى أن كان أمس وأمس فقط ...

كل ما نعرفه نحن أبناء هذه المنطقة أن هذا الرجل العجوز يقيم مع هذه الفتاة منذ سنين . لم يقف فى نافذة ولا فى باب ... بل لم يرهما أحد معاً فى البيت أو فى الشارع ... لم يحاول أحد أن يسأل الرجل العجوز ، فإنه جاد طيب ... ولم يحاول أحد أن يسأل هذه الفتاة فإنها مهذبة رقيقة ... ورقتها لا تشجع أحداً على أن يقترب منها أو يسألها ... إنها تقيم بينها وبين الناس ستائر تحول بينهم وبينها ... إنها ليست ستائر سميكة أو قوية ... ولكنها ستائر ... ولا يحاول أحد من الناس أن يخترق هذه الحجب الرقيقة .

وكان الناس ينظرون إلى نافذتها وقد غطتها الستائر . ويقولون إن هذه الفتاة تعيش فى السحاب ... وكان الناس إذا رضوا عنها قالوا : إنها ملاك يحرسه رجل مخلص ... وإذا غضبوا قالوا : هذه هى الأميرة ، وهذا هو الخادم .. أو يقولون إنه هو الشيخوخة أما هى فالشباب . .

ولكن أحداً لم يستطع أن يتجاوز حد القول إلى الطرق على الباب والسؤال عن صحة الفتاة ... إن أحداً لا يعلم أنها مريضة ولا أحد يعلم

أنها صحيحة ... إنها بين المرض والصحة ... بين أن تكون ابنة هذا الرجل وبين أن تكون أخته ... ولكن أين أمها وأين أبوها ... بل أين أمه هو وأين أبوه هو ...

وكان الناس يجتمعون على سطوح البيوت يسمعون أنباء هذه الفتاة وهذا العجوز ... ففي ساعة محددة من الليل تظهر الفتاة بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين فوق الأسطح وتحييهم في أدب ثم تقفل النافذة وتضيء الأنوار وتجلس إلى البيانو .. ويقال إن العجوز كان يجلس إلى جوارها ... فقد عرف الناس ذلك عندما فتح الهواء الشباك مرة . منذ سبعة شهور .

وتظل الفتاة تلعب بأصابعها على البيانو ساعة أو ساعتين ... وينطفئ النور . وتدخل الفتاة غرفتها وتضيء مصباحها ... ويقال إن العجوز يذهب إلى حجرته ويضيء المصباح بعض الوقت ... وبعد ساعة يحتوى البيت كله ظلام .

هذا يحدث كل يوم... ومنذ سنوات ، وقد تعب أهل هذا الحي الذى أعيش فيه من هذه القصة الغريبة ... أو من هذا اللغز وراحوا يفترضون فروضاً بعيدة وقريبة . . . وكانوا يفترضون قصصاً وهمية يناقشونها نقاشاً طويلا ولا يخرجون بنتيجة .

فهناك من يقول إنه جاسوس... وإنه يقرأ كل الصحف التى تصدر فى مصر بكل اللغات ... وإنه لا يبعد أن يكون صهيونياً وأن يكون خائناً لمصر ...

وبعد ذلك يعتذر أصحاب هذا الرأى عن هذا الظن السيئ ... إنهم يقسون على هذا الرجل وهذه الفتاة . وسبب ذلك أنهم تعبوا من محاولة الفهم . تعبوا من التخمين . فانهالوا على العجوز وعلى الفتاة ضرباً بالإشاعات والتفسيرات الغريبة .

وهناك من يقول إن هذا الرجل يعمل على تهريب الحشيش والأفيون.. وإن هذه حيلة قد اتخذها حتى لا يلفت إليه الأنظار .. ولكن ما هذه الحيلة ؟

لا حيلة هناك . . وإنما الرجل يسكن هادئاً فى منطقة بولاق التى لا هدوء فيها ولا راحة عين ولا أذن ولا أنف ولا حنجرة ولا قلب .. لا راحة فى هذه المنطقة.. فلماذا لا يسكن فى الزمالك إذا كان هكذا رقيقاً .

ودارت مناقشات فوق سطوح البيوت هل هذه ابنته ؟ هل هذه أخته ؟ هل هى عشيقته ؟

لا جواب عن هذه الأسئلة كلها ، وتعلقت الأسئلة حول هذا البيت كالأعلام السوداء ... تحجب كل شىء عن العيون والعقول أيضاً ...

وتعب الناس فوق سطوح البيوت وتحت السطوح وفى حجرات الطعام والنوم ولابد أنهم تعبوا فى مكاتبهم ...

إلى أن كان أمس عند منتصف الليل فقد انطلق صوت ... إنه لم يكن صراخاً وإنما كان صوت الليل وقد تمزق قطعة أو قطعتين ...

وفتحت النافذة ... فلم أجد شيئاً ولم أسمع شيئاً .

وفى الصباح سار نعش صغير ووراءه كل أهل الحى . . إن واحداً

منهم لا يعرف من الفتاة التى ماتت ... ولا يعرف من هذا العجوز الذى يبكى وراءها . . . لقد رأى الناس عجوزاً يبكى فبكوا . رأوا نعشاً يتحرك فساروا ... رأوا يداً ترتجف فدلوا أيديهم إليها وقالوا : البقية فى حياتك ... كلنا لها ... الأعمار بيد الله .

وعندما عادوا من هذه الجنازة عرفوا أن التى صرخت فى الليل ، لم تكن امرأة وإنما كان العجوز هو الذى ظل يصرخ ساعة بعد ساعة حتى اجتمع حوله كل الناس . . أما العجوز فليس أباها ولا أخاها ولا عشيقها ... إنه زوجها ... لقد كان هذا الرجل طبيباً وكانت هذه المريضة فى مستشفاه فأحبها وتزوجها . وعرف أنها يتيمة . وعرفت هى أنه يتيم الأب والأم والأخ والأصدقاء . . . وعاش هذا الطبيب يعالجها . . . لقد جعل بيته مستشفى لها . . . ولم تدر هذه الفتاة ماذا تفعل من أجله . إن كل ما تملكه هى أن تعزف على البيانو ... إن أقوى شىء فى جسمها كله هو أصابعها . . . وحركت أصابعها . . . ساعات وساعات . . . إنها تسبح له بهذه الأصابع وتدعو له وتشكره وتقبل يديه ورجليه بأصابعها وموسيقاها . . ورضى زوجها وطبيبها وحارسها . . . ولكنه كان يعلم أنه لا أمل فى الشفاء . . إنه كان يعيش مع امرأة ميتة . . كان يرى حبه يموت فى عينيها وفى شفتيها . . يموت بين يديه فصرخ وبكى ودفنها . . ولم يسترح . . واستراح الناس !

بقايا كل شيء !

طفاية سجاير . . هذا كل ما تبقى .

فجأة وجدت نفسي وحدى . كل من كان وما كان معى قد اختفى . . . تلاشى فجأة . . خرج من الباب أو من النافذة . . لا أعرف . فقد امتدت يد الظلام وسحبت المصابيح والمقاعد والمناضد . . وكل ما بقى هو طراطيش كلام فى أذنى . وبقايا روائح وعطور وعرق وسجاير وزكام فى أنفى .

وفى الظلام تلمست طفاية سجائر كانت أمامى . . فيها بقايا سجائر طويلة أطفئت بسرعة . . وسجائر أطفئت على مهل . . وسجائر سحقتها أصابع عصبية . . عليها أحمر شفاه . . عليها نار وليس لها دخان .

هذه السجاير التى أمامى أعرف كيف لقيت مصرعها واحدة واحدة هذه السجائر الطويلة رأيتها وهى تموت فى شبابها . . رأيت يداً غليظة تدفنها حية . . إنها سيجار صديقى الذى مالت عليه زوجته تهمس فى أذنه . . وكلما تعالى الهمس زاد ضغط أصابعه على هذه السيجارة الطويلة . . لقد أنكر أنه يعرف من الذى طلبه فى التليفون عدة مرات ولم يشأ أن يرد عليه أو عليها . . ولكن زوجته مصرة على أنه يعرف

وأن التى طلبته هى خطيبته السابقة وأنها رأتها منذ أسبوعين قريبة من البيت وأنها سمعت . وأنها وأنها . . وتحطمت السيجارة تحت أصابعه . خنقها . . وأدها . كما كان يفعل العرب فى الجاهلية .. كانوا يئدون البنات خوفاً من الفضيحة .

وهذه السيجارة تركها صاحبها تشتعل دون ان يقربها . . إنه يجد لذة فى تعذيب الآخرين . يراها ولا يلمسها . يحرقها ولا يطفئ نارها . لقد أخرجها من جيبه بأناقة وأشعلها بعناية . وتركها هناك بهدوء وراح يتفرج عليها بلذة . . إن صديقى هذا يحاول الإقلاع عن التدخين . . لذلك فهو يشترى السجائر ويشعلها ولا يدخنها . . وإنما يضعها على حافة الطفاية . . على حافة الهاوية . . إنه تعب من التدخين . . إنه كالرجل الذى تعب من اللهو .. تعب من عشرة النساء .. تعب .. فهو يتفرج بلذة المنتقم الشامت. وصديقى هذا يحاول أن ينتقم من مئات الألوف من السجائر التى لسعت شفتيه وأحرقت حلقه ومزقت صدره وصبغت بالصفار أصابعه .

وهذه السيجارة دخنها صاحبها بسرعة . . وأشعل منها سيجارة أخرى . . إنها بزازة فى فم طفل يرضع الهواء . . يموت إذا ابتعدت عن فمه .

وهذه السيجارة عصاً يتوكأ عليها الكلام عندما يخرج من فم هذا الصديق . . إنه لا يتكلم إلا وهى فى فمه . . إن كلامه دخان فى الهواء . . أو دخان كلام فى الهواء . .

* * *

حياتنا كلها سجائر . . متشابهة .. هذا يلخنها على مهل . . وهذا بسرعة . . وهذا يتفرج عليها . . وهذا يحرقها وتحرقه . . تمزق صدره أطراف السجائر . . نحن الذين ننقلها بأصابعنا إلى الطفاية . . أو هى التى تنقلنا . . .

لا أعرف ماذا كنا نقول . . تكلمنا كثيراً . . ولكن ماذا قلنا ؟

لا شيء .. ناقشنا كل مبدأ وكل مذهب فى السياسة والاقتصاد والأدب والنقد . . ولم نتفق على شيء . . كأننا نتكلم بلغات غير معروفة . . فكل واحد قال ولم يسمعه أحد . . كنا ننظر إلى شفتيه لنعرف أنه يتكلم . . فإذا أطال إطباق شفتيه عرفنا أن المدة المخصصة للكلام قد انتهت . فيتكلم بعد ذلك الذى بجواره .

كأننا كومبارس ننتظر أحد الأفلام . . كأننا ست شخصيات تبحث عن مؤلف . . كأننا ست عارضات للأزياء ولا تنقصنا إلا الدار التى نعمل فيها . . كأننا ست سجائر أشعلت وتركت لكى تخمد أنفاسها بنفسها .

كل فكرة قيلت أخمدت فى الحال . . كل فكرة اشتعلت ودخلت رأسى انطفأت فى الحال . . كل الأفكار أسمعها ولا أكاد أفكر فيها حتى أسمع لها صوتاً واحداً : طش . . وهذا صوتها وهى تنطفىء فى رأسى التى هى بحيرة راكدة . أو طفاية سجائر مليئة بالماء . .

جلسنا وتكلمنا وأطفأنا سجائرنا . وانطفأت فينا أفكارنا . . وقام فأر السبتية بمهمة مدير المسرح فأنزل ستاراً أسود وبدأنا نخبط ونتخبط .. تماماً كأننا فى مسرحية بدأت من آخرها فنزل الستار وسمعنا الدقات التقليدية

للمسرح . . ودخلنا فى مسرحية عقلية نسمع فيها ولا نرى . . والذى نفهمه لا يقنعنا ولا يعنينا . . وكل محاولة للكلام أخمدت فوراً . وكل محاولة لاستئناف الكلام هى محاولة لإشعال عقب سيجارة مبللة . . ومددت يدى إلى طفاية السجائر كأنى طفاية أمسكت طفاية . . ومن « أعقاب » كل شىء لففت هذه السيجارة التى قرأتها !

ا — كتب للمؤلف فى دار المعارف بمصر

١ — بقايا كل شىء « طبعة ثانية »
٢ — مع الآخرين
٣ — حول العالم فى ٢٠٠ يوم « طبعة خامسة — تصدر قريباً »
٤ — أدب الأظافر الطويلة « يصدر قريباً »

ب — كتب للمؤلف فى دور نشر أخرى

١ — طريق العذاب
٢ — الوجودية
٣ — وحدى ... مع الآخرين ...
٤ — عذاب كل يوم
٥ — قصص إيطالية
٦ — مدرسة الحب
٧ — ألوان من الحب
٨ — هذه الصغيرة
٩ — دراسات فى الأدب الأمريكى
١٠ — الإمبراطور جونز
١١ — قصص من الأدب الإيطالى
١٢ — من روائع الأدب العالمى
١٣ — اليمن ... ذلك المجهول ...
١٤ — قالوا ... « طبعة ثانية »
١٥ — وداعاً أيها الملل
١٦ — يسقط الحائط الرابع « طبعة ثانية »
١٧ — عزيزى فلان
١٨ — كرسى على الشمال
١٩ — ساعات بلا عقارب
٢٠ — شارع التنهدات . . .
٢١ — رومولوس العظيم لديرنمات « ترجمة »
٢٢ — هبط الملاك فى بابل لديرنمات « ترجمة »
٢٣ — الشهاب لديرنمات « ترجمة »
٢٤ — أمير الأراضى البور لماكس فريش « ترجمة »
٢٥ — بعد السقوط لأرثر ميلر « ترجمة »

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨

اقرأ

عجائب الأرض والسماء

الدكتور محمد جمال الدين الفندي

دار المعارف بمصر

رسم الغلاف بريشة يوسف فرنسيس

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١٫٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

عجائب الأرض والسماء

الدكتور محمد جمال الدين الفندى

عجائب الأرض والسماء

اقرأ ٢٦٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦٣ – نوفمبر سنة ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

إن كشوف البشر فى مختلف الآفاق قد اتسعت رقعتها وشملت كثيراً من معالم الأرض والسماء، وإنه لمن المفيد والممتع حقاً أن نقدم للقارئ موجزاً لما تم جمعه من معلومات حديثه عن العالم الذى نعيش فيه . ولكى نثير اهتمام القارئ سوف نقدم له كذلك نتائج حلول مشكلات علمية هامة فى هذا المجال ، كانت ولا تزال أهم ما يدور حوله البحث فى منطقتنا ، مما يتطلع المواطن العربى إلى معرفته والوقوف على حقيقة أمره ، وذلك لاعتبارات عديدة منها اتصال بعض هذه المسائل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بحياتنا ومستقبل بلادنا .

وقديماً كانت الهوة واسعة بين العلوم الطبيعية وعلوم الحياة ، أما اليوم فإن هذه الهوة تضيق على التدريج ، ويلوح أن هذه العلوم كلها ستلتقى يوماً ما . فمثلا بدأ تقدير عمر الأرض على يد الفلكيين والجيولوجيين بنحو ثلاثة بلايين سنة ، أما اليوم فقد تعرض لهذه المسألة علماء الحياة عندما تعمقوا فى دراسة أنواع الكائنات الحية التى ظهرت خلال البليون سنة الأخيرة ، وراحوا يلحظون أن التطور الذى طرأ عليها لا يمكن أن يكون قد تم واكتمل خلال تلك الفترة فحسب ، بل تطلب قبلها نحو عشرة بلايين سنة أى أكبر من عمر الشمس البالغ خمسة بلايين سنة !! .

وهم يقررون كذلك أن البحر أكثر إخصاباً من اليابس مما جعل الحيتان

مثلا التى تمثل الفيلة على الأرض تكتمل نضوجها فى عامين أو ثلاثة ، بينما يتطلب نضوج الفيل نحو عشرة أضعاف هذا القدر من السنين ! وهم اليوم يدرسون خصائص البحر الطبيعية تمهيداً لمسحه وزراعته وفلاحته !

والطبيعة وظواهرها هى معلمنا الأول . وكل ما علينا هو أن نرصدها ونتتبع نواميسها المختلفة ، ثم نحاول تعليل أو تفسير ما نرى بطريقة علمية لفهم أسباب تكوينها ، فلكل ظاهرة علة أو سبب . ويحتكم العلماء دائماً إلى الطبيعة ذاتها لدعم آرائهم وتثبيت نظرياتهم ، وتتجلى هذه الحقيقة كاملة فى مجالى الرصد الجوى والفلك وعلوم الفضاء .

وليس موضوع دراسة الظواهر الطبيعية بالموضوع الحديث ، فقد اهتم الإنسان بالجو وتقلباته من قديم الزمن ، خصوصاً بين الرعاة والملاحين ونحوهم ممن يتوقف مدار عملهم على الطوارئ الجوية . ولقد ولدت فيهم الطبيعة غريزة التكهن بجوهم المحلى ، فكانوا يرصدون الحالة الراهنة للجو بدقة وعناية ، وبواسطة تلك المشاهدات المبنية على طول المران وعلى قدر ما من الخبرة استطاعوا أن يكونوا فكرة لا بأس بها عن التغيرات الجوية المنتظرة .

ولقد اهتمت الحضارات القديمة اهتماماً متفاوت المدى بعلمى الرصد الجوى والفلك . ففى مجال الرصد الجوى سبق الصينيون غيرهم فى صنع أول أجهزة الرصد على الإطلاق ، وهو جهاز قياس المطر . ومن الوجهة النظرية يعتبر أرسطو أول من عالج أسباب تقلبات الجو ، إذ كتب فى القرن الرابع قبل الميلاد نبذة أسماها (متيورولوجيكا) ، ضمنها

آراءه ووجهة نظره الفلسفية عن أسباب تلك التقلبات . ولقد ظل هذا العلم راكداً خلال أجيال متعاقبة من بعد أرسطو إلى أن جاء العرب وحرروا الفكر من عقاله وكانت لهم كشوفهم فى ميادين دورات الرياح العامة على الأرض ، ومنها الرياح التجارية التى يسميها الفرنجة (تريدز) ، والرياح الموسمية وتعرف حتى الآن باسم (مونسون) .

وفى القرن السابع عشر الميلادى صنع تورشيلى جهاز المضغط الزئبقى « البارومتر » الذى قاس به عنصر الضغط الجوى . ولقياس الضغط الجوى وتوزيعاته على الأرض أهمية عظمى ، إذ أن اختلافات الضغط هى التى تدفع الهواء على الحركة ، أى أنها تولد الرياح ، لأن الرياح هى الهواء المتحرك . وترتفع درجة الحرارة فى مكان ما أو تنخفض من يوم إلى آخر إذا ما تعاقبت عليه تيارات هوائية ساخنة أو باردة . ويعتبر تحديد هذه التيارات من أهم مشكلات التنبؤ الجوى فى عصرنا هذا .

وتم اختراع مقياس درجات الحرارة (الترمومتر) على يد غاليليو غاليلى ، وبذلك خطا علم الرصد الجوى خطوة أخرى نحو التقدم الملموس ، فاختلاف درجات الحرارة على سطح الأرض هو السبب فى اختلاف ثقل الهواء أو كثافته ، ويتبع ذلك اختلاف الضغط . هذا كما أنه صنع المنظار الفلكى المكبر (التلسكوب) الذى ساعد بصفة عملية على تقدم علوم الفلك والدخول بها فى عصر جديد .

وفى أوائل عصر النهضة استغل العلماء القدرة على قياس الضغط الجوى فى وضع مبادئ علم التنبؤ الجوى لتأمين سلامة الملاحة البحرية التى كانت مضطردة التقدم وقتئذ : فمثلا كتبت على جهاز المضغط الزئبقى

كلمة اضطراب جوى عند قراءة ٢٩,٥ بوصة ، وكلمة مطر عند قراءة ٢٩ بوصة ، ومطر غزير عند قراءة ٢٨,٥ بوصة ، وعاصفة عند قراءة ٢٨ بوصة ، هذا مع العلم بأن الضغط الجوى العادى يمكن أن يعادل نحو ٣٠ بوصة زئبق أو ٧٦ سنتيمتراً .

أما فى مصر فقد بدأت عملية جمع الأرصاد فى مايو من عام ١٨٢٩ ، وذلك عن طريق تدوين درجات الحرارة فى إحدى غرف ديوان المدارس ببولاق خمس مرات يومياً فى مواقيت الصلاة ، إلا أن عمليات الرصد الجوى انتقلت بعد ذلك إلى (الرصدخانه) أو مرصد العباسية الذى أنشأه إسماعيل الفلكى عام ١٨٦٥ . ولقد تطورت عمليات الرصد الجوى بعد ذلك وألحقت بجهات مختلفة حتى انتهى الأمر بإنشاء دراسات الأرصاد بجامعة القاهرة ، وإنشاء مصلحة الأرصاد الجوية عام ١٩٤٦ فنهضت بتطبيقات هذا العلم نهضة رائعة ، وراح الناس يتطلعون إلى تنبؤاتها الجوية كل يوم ، خصوصاً إذا ما اضطرب الجو وكشر عن نابه .

ولقد سايرت كل من مصلحة الأرصاد وجامعة القاهرة الركب وتم إنجاز كثير من البحوث . ونحن نستطيع أن نجنى الآن ثمار هذه الأعمال المجيدة كلها ، وهى ناحية يهتم بها كل فرد مهما كانت طبيعة عمله ، فإن حياتنا تتأثر ولا شك تأثيراً بالغاً بالجو وتقلباته . ولكل إقليم جوه الخاص الذى يميزه . وكلما زاد فهمنا لطبيعة جونا ووقفنا على حقيقة أمره صار فى مستطاعنا استغلاله لمصلحتنا ليكون خيراً لنا بدلا من أن يكون شراً علينا .

ولقد نجح الإنسان فى هذا العصر فى السيطرة على الجو فى حدود

ضيقة ، وهناك من الأسباب ما يحملنا على الجزم بأن أعمال خبراء الجو تزداد أهمية من يوم إلى آخر ، كما تتطلع إليها الجموع المتزايدة . فكلما اتسعت مجالات صناعاتنا وزراعاتنا كلما زاد اهتمامنا بمعرفة الجو وتقلباته .

والحق أن الجو هو أكثر شيء نتحدث عنه فى مجتمعاتنا ، خصوصاً إذا ما اجتاحت البلاد عاصفة هوجاء أو موجة من الحر الشديد أو المطر الغزير . وغالباً ما يبدو لكثير منا كأنما ليس للعاصفة مكان معين تقبل منه ، إلا أن هذه ليست هى الحقيقة كما سنبين فى كتابنا هذا .

أما معالم السماء فقد درست عن طريق علم الفلك ثم علوم الفضاء . ولقد فرضت هذه الدراسات على الإنسان طبيعة الكون المجهول من حوله ، وتطلعه إلى كشف غوامضه وحل ألغازه والوقوف على أسراره . ومن أقدم الشعوب التى اشتغلت بهذه العلوم الأشوريون والهنود والمصريون القدماء والإغريق ثم العرب ، إلا أننا لسنا بصدد استعراض أعمالهم ، ولكن يهمنا إبراز ما أظهره عصر الفضاء من أعاجيب بعد أن نجح الإنسان فى استخدام الصواريخ .

ومرة أخرى نجد الصينيين أول من أطلقوا الصواريخ من أجل اللهو والتسلية فى الأفراح والأعياد خلال حكم أسرة تانج التى امتد سلطانها من عام ٦١٨ إلى عام ٩٠٧ ميلادية ، ثم راحوا يستخدمونها كسلاح حربى أطلقوا عليه اسم « أسهم اللهب الطائرة » . . ولقد بدأ هذا السلاح كنوع مرعب مخيف خلال تلك الفترة من الزمان التى كان القتال فيها يدور بالحراب والسيف أو القوس والنشاب .

وخلال القرون الوسطى عرف الأوربيون أمر الصواريخ عن طريق العرب ، ثم راحوا يستخدمونها بدورهم فى الأفراح والأعياد . وفى القرن الثامن عشر استعملها الإنجليز فى الحرب على يد « وليام كنجريف » ، وكانت تخيف الناس لدرجة أنه عندما صنع « جورج ستيفنسن » قاطرته البخارية ، وانطلق بها بسرعة وصلت إلى ما يربو على ثلاثين كيلو متراً فى الساعة أعلن مواطن إنجليزى أرهبته تلك السرعة أنه ينتظر من الناس أن يعدوا أنفسهم للانطلاق على متن صاروخ من صواريخ كنجريف ما داموا قد اطمأنوا إلى تلك الآلة السريعة الحركة واستسلموا إليها ! ومن غير ما جلبة أو ضوضاء أطلق ستيفنسن على قاطرته اسم (الصاروخ) ، وراح يشق بها طريق الثروة والمجد . ولم يكن يدور بذهن أحد فى تلك الآونة (عصر البخار) أن الصاروخ سيصبح فى يوم من الأيام وسيلة ناجحة من وسائل النقل والسفر عبر الفضاء الكونى (عصر الفضاء) .

ويتحرك الصاروخ ويعمل بمبدأ رد الفعل الذى لم يعرف إلا بعد قرون من استخدام الصواريخ ، عندما صاغه نيوتن باسم القانون الثالث للحركة الذى يقول : (لكل فعل رد فعل يساويه فى المقدار ويضاده فى الاتجاه) . وفى الواقع يندفع الصاروخ بقوة تولدها مواد محترقة تتدفق بوفرة وغزارة من فتحة فى مؤخرته . هذه المواد هى أكداس من جزيئات الغازات المتدفقة بقوة تحت ضغوط عالية تتولد داخل الصاروخ باشتعال الوقود .

ولقد شهد القرن التاسع عشر عدة استعمالات قيمة للصواريخ مثل

استخدامها فى حمل الأضواء الكاشفة إلى أعالى الجو من أجل الكشف عن مواقع العدو أثناء الليل ، ومثل استخدامها فى إعطاء الإشارات ، وتوصيل حبال النجاة إلى السفن من أجل إنقاذها وهى فى عرض البحر ...

وفى أوائل القرن العشرين استخدم نفر من العلماء الصواريخ فى دراسة الطبقات العليا من جو الأرض ، التى لا تصلها بالونات الرصد الجوى — مثل ١٠٠ — ٢٠٠ ميل . ثم بدأ مولد الصاروخ الحربى من جديد فى عام ١٩٢٩ ، عندما أصدر الجيش الألمانى أوامره إلى فرع القذائف لبحث احتمالات الاستفادة من الصواريخ كسلاح حربى لم تحرمه معاهدة فرساى التى حالت دون إعادة تسليح ألمانيا ، ووكلت تلك المهمة إلى ضابط من المهندسين هو « ولتر دورنبرجر » ومساعده « فون براون » اللذان اتخذا (بينموند) مقراً لأبحاثهما .

وبعد جهد عظيم صنع رجال (بينموند) أول صاروخ حربى موجه يأخذ مساراً طويلا منحنياً ؛ يبدأ من نقطة الانطلاق ليصعد بزاوية ميل معينة ، ثم عندما يبلغ أقصى ارتفاع له يهوى هابطاً فى مساره المنحنى لينتهى عند الهدف على سطح الأرض . وعقب ذلك النجاح آمن العاملون فى (بينموند) بأن بناء سفن الفضاء التى سوف تحمل الناس إلى الكواكب القريبة بات أمراً متوقعاً ، وعلق دورنبرجر بقوله : « لقد برهنا على أن المحركات الصاروخية تصلح لإنجاز أسفار الفضاء . . . واليوم يبدأ عصر غزو الفضاء » .

وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى بدأ التسابق بين الدول الكبرى فى إنتاج الصواريخ والأقمار الصناعية ، ولم تتخلف

جمهوريتنا فى عهد الثورة المباركة عن الركب فأتمت صناعة الظافر والقاهر . هذا كما أطلق الروس قمرهم الصناعى الأول ــ سبتنك الأول ــ فى الرابع من أكتوبر عام ١٩٥٧ بسرعة بلغت حدود ٨,٥ كيلومترات فى الثانية ، ليسبح فى مدار حول الأرض بميل بزاوية قدرها ٦٥ درجة على خط الاستواء ، وبلغ أوج المسار (أكبر ارتفاع له ٩٥٠ ك.م ، أما الحضيض (أقل ارتفاع فقد كان ٢٢٦ كيلو متراً . وأعقب ذلك إطلاق الأقمار والكواكب الصناعية فى سلسلة متواصلة من أجل دراسة معالم الفضاء ، حتى صار إطلاق سفن الفضاء التى تحمل البشر أمراً متوقعاً من حين إلى آخر .

هذا وقد يجد القارئ بعض الصعوبة فى تتبع أجزاء من فصول هذا الكتاب ، إلا أن نصيحتى له هى نفس النصيحة التى أسديها دائماً بأن يعاود من آن إلى آخر تلاوة ما فاته فهمه أو تتبعه ، فإنه بذلك تتفتح له المعانى .

ومهما يكن من شىء فإن الموضوعات التى سقتها فى هذا الكتاب تتضمن فى رأيى كثيراً من الطرافة وغرابة النتائج مما يثير الاهتمام ويجعل القارئ يتساءل طويلا عن مدى صحتها قبل أن يسلم بها . كل ذلك فى أسلوب سهل وعبارات خالية قدر المستطاع من المصطلحات العلمية .

جمال الفندى

١ – ماذا رأى الأقدمون !

لقد أصبحت الحقائق العلمية الخاصة بغلاف الأرض الجوى وما يليه من مكونات الفضاء الكونى من الأهمية بمكان فى هذا العصر بحيث لا يستغنى عن معرفتها القارئ . فبالإضافة إلى أننا نعيش تحت رحمة هذا الغلاف بما يدرأ عنا من أهوال الفضاء الخارجى وأخطاره ، وبالإضافة إلى أننا عشنا فى قاع هذا المحيط منذ نشأتنا الأولى على الأرض ، تجدنا الآن نسمع النشرات الجوية ونقرؤها كل يوم ، ونحاول فهم ما يعلل به المختصون ظواهر الجو البالغة الأثر من حر وبرد وعواصف وأنواء وأضواء متباينة البهاء فى السماء . هذا كما تمخر طائراتنا عباب هذا المحيط وتخترقه صواريخنا وأقمارنا الصناعية لتسبح فى الفضاء الكونى وتزودنا بالمعلومات اللازمة عنه .

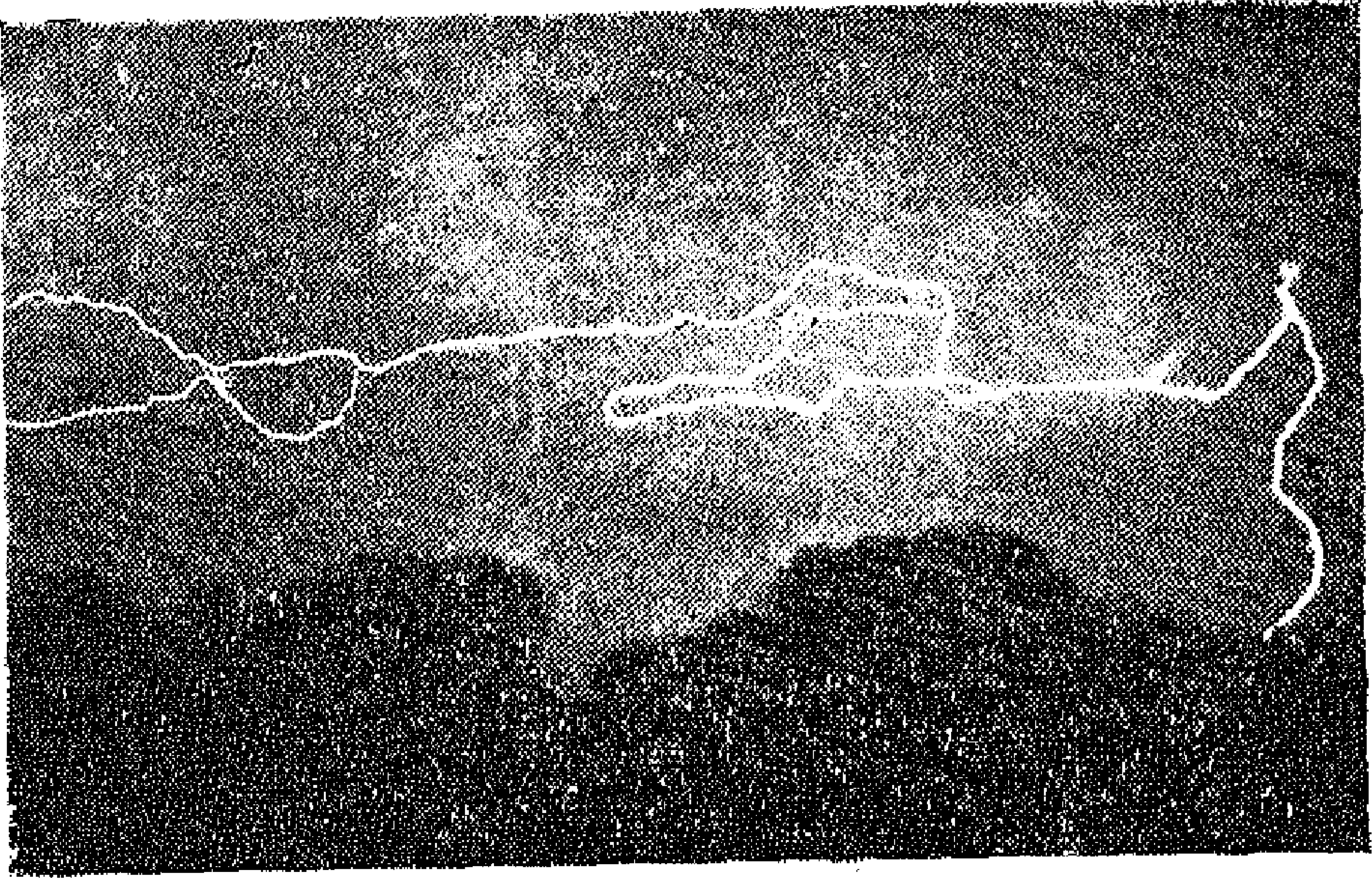
ونحن عندما نستعرض ظواهر الطبيعة نجد أن منها ما ينشأ فى أعماق الفضاء كما أن منها ما ينشأ داخل غلاف الأرض الجوى ، وفيهما معاً تتجلى الطبيعة برقتها ووداعتها تارة ، وعنفها وجبروتها تارة أخرى .

وقديماً اعتقد الناس خطأً أن الأرض هى مركز الكون ، وأن غلافها الجوى يمتد إلى الكواكب التى عرفوها ، وأن النجوم ما هى إلا فوانيس تحلى السماء التى فيها تتولد السحب ويخزن ماء المطر . ولقد كان الإسكندر الأكبر يرجو أن يزور السماوات داخل عربة تحملها النسور !

وبعد جهد جهيد ، ونضال علمي مرير ، عرف الناس أن الأرض ليست هي مركز الكون ، وأن غلافها الجوى لا يمتد إلا إلى علو بضعة مئات الأميال من سطحها ، وأنه هو الذى يثير السحب بمختلف أنواعها ، أى أنه هو الذى يعمل على تكوينها تحت ظروف معينة (سواء منها المنخفضة التى تجود بالمطر بعد أن تتراكم طبقاتها بعضها فوق بعض وتعرف باسم السحب الركامية — شكل أو المتوسطة الارتفاع التى تتواجد قواعدها على علو يتراوح فى المتوسط بين ٢ و ٤ كيلومترات وتتكون أجزاؤها من بلورات الثلج المختلف الحجم والصفات أو العالية وأشهر أنواعها السمحاق ، الذى يتكون من بلورات دقيقة من الثلج وهى لا ترى ظلا أثناء النهار

وأهم ظواهر الجو وأبعدها أثراً بصفة عامة الأعاصير والعواصف المختلفة مثل عواصف الرمال التى تكون أشد ما يمكن فى المناطق الصحراوية أو الوديان الجافة شكل (١) ، وعواصف الرعد التى هى عبارة عن تفريغات كهربائية (شرارات بين أجزاء السحابة المختلفة أو بين سحابتين متجاورتين أو بين السحابة والأرض إذ تعرف بالصاعقة ، ونافورات الماء التى تبدو على هيأة القمع الذى يتدلى من السحب إلى الأرض وخلاله يتصل ماء السحاب بماء البحر ، وقد ترتفع أسماك البحر الصغيرة إلى عنان السماء فى هذا القمع ، ثم لا تلبث أن تمطر السماء سمكاً بعد أن تهدأ الرياح الصاعدة — شكل (٢) .

وما نافورة الماء هذه إلا صورة مصغرة للأعاصير المدمرة . التى سيأتى تفصيل أمرها .



شكل (١) عاصفة الرعد



شكل (٢) قمع من السحاب يتدلى من السماء

ولقد رأى الإنسان الأول فى ظواهر الجو مصدراً من مصادر الخوف والرهبة : فكان يتصور الرياح فى هبوبها وثورانها أحياناً ، وفى رقتها ونسيمها أحياناً أخرى أرواحاً خفية تتمتع بنوع من الحياة . وكثيراً ما كان ينظر إلى الحياة والروح كنظرته إلى حياته وروحه هو ، ويعتبر الروح ساكنة فيما حوله من أفاعى ووحوش وطيور إلى غير ذلك من الكائنات الحية .

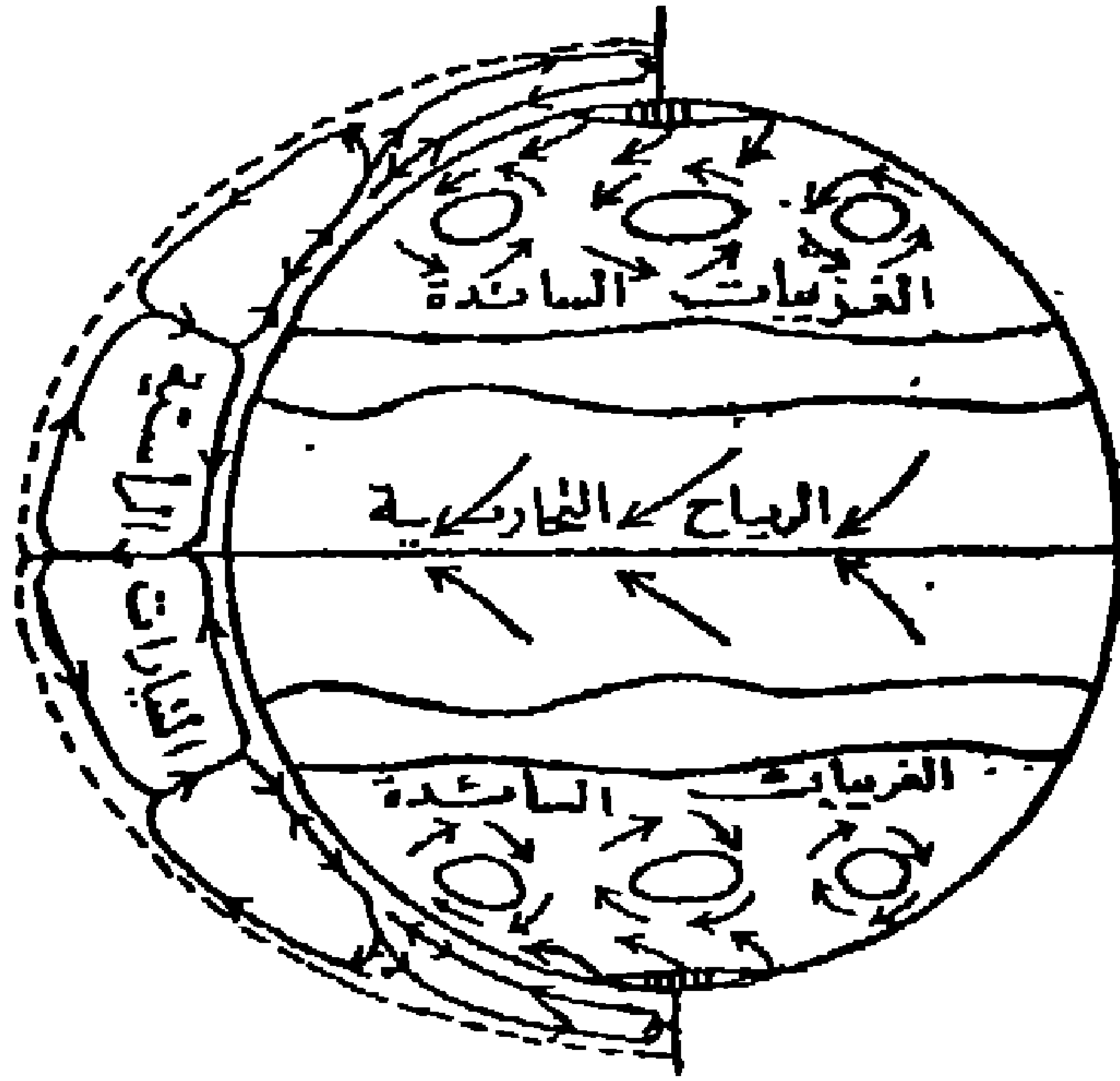
وقد لازم الإنسان أيضاً فى حضاراته القديمة ، لدى المصريين والآشوريين والفينيقيين والإغريق والرومان ثم العرب ، ظهور كثير من الأساطير والأحاجى التى غلبت عليها الخرافات واستحوذ عليها الرجم بالغيب حول طبيعة الهواء والأنواء وما تجود به السماء من ماء . فلقد كانت الفكرة السائدة عند قدماء المصريين مثلا أن المطر إنما ينهمر من ماء مختزن فى السماء ، ولذلك فإن البلاد التى تعتمد على المطر كبلاد الموره (اليونان أو الإغريق قديماً) سوف يأتى عليها يوم تموت فيه من العطش ، وبطبيعة الحال يتم هذا عندما ينفد ماء السماء . أما شمال وادى النيل فهو يرتوى من ماء نهر النيل العظيم الذى يفيض كل عام من ماء محيط الأرض الذى لا ينضب . . . وإلى عهد قريب كان الإنجليز فى القرون الوسطى يعزون قلة المطر وشحته من حين إلى آخر إلى ذنب ترتكبه الضفادع ! فعندما لا تجود السماء بالماء كانوا يضربون ضفادعهم المسكينة لينهمر المطر ! !

وفى العصور الوسطى كان التجار ومن على شاكلتهم من رواد البحار مصدر أغلب الأحاجى المنتشرة ومردديها . وإنك لتجد تلك الأساطير مدونة بصور مختلفة وطرق متباينة فى كثير من مصنفات الحضارات

القديمة ومخلفاتها ، وقد نسج الخيال فيها خيوطه ، وأضافت إليها الخرافات ما أضافت ؛ خصوصاً عن طريق الخلط بين عالمي الطبيعة وما وراء الطبيعة.

أما العرب فإنهم لم يعنوا فى أول أمرهم بترك آثار مكتوبة عن آرائهم ومعارفهم ، واستمر الحال هكذا زمناً طويلا ، حتى جاء عام ٨٥١ ميلادية فكتب أحدهم مخطوطاً تحدث فيه عن المحيط الهندى وأنوائه على أساس الخبرة الشخصية . ويوجد هذا المخطوط بمكتبة باريس ، ويعرف باسم (رحلة التاجر سليمان) . وفى واقع الأمر لم يكن سليمان هذا وحده هو صاحب هذا المخطوط ، بل أضاف إليه شخص آخر يقال له أبو زيد حسن السيرافى ما جمع من معلومات وما استقى من أخبار على ألسنة التجار وعمال البحر فى بلدة سيراف ، وكانت تلك هى خطتهم فى جمع المعلومات.

ولقد عمد سليمان إلى الإسهاب فى وصف رحلاته فى بحار الشرق من الخليج العربى حتى بلاد الصين ، وكلها كانت تزدهر بالحضارات القديمة . وكانت الرحلة الكاملة تستغرق نحو عام كامل فى الذهاب والإياب ، إذ كانوا يستغلون دورة الرياح العامة فى تلك الأرجاء ، وخاصة فى المحيط الهندى ، إذ تصير الرياح جنوبية غربية إبان الصيف وشمالية شرقية فى الشتاء — راجع شكل (٣) — والرياح الأولى هى الموسمية الممطرة ، أما الثانية فهى تكاد تهب بانتظام على المحيط . ولعله من هنا نبتت تسمية الرياح التجارية ، فالعرب هم أول من أطلقوا على هذه الرياح الهامة على الأرض اسم (الرياح التجارية) . وحتى الآن يسميها الغربيون (تريدز) أى التجارية ، وهى رياح ثابتة على كافة المحيطات طالما استغلها رجال البحر فى دفع سفنهم الشراعية قبل دخولهم مناطق



شكل (٣) تكاد تهب الرياح بانتظام فى أحزمة عظمى من حول الأرض

الركود عند خط الاستواء وهى تمتاز بوفرة السكون .

وفى تلك الرسالة يتحدث سليمان عن صفات البحر الطبيعية وأنوائه وظواهره الجوية وحتى أحيائه .

فهذه نافورة الماء – شكل (٢) ، تلك الظاهرة الجوية التى تشاهد فى كثير من بحار الأرض ومنها البحر الأبيض المتوسط أثناء الشتاء ، يعرفها العلم كما قدمنا بأنها قمع يتدلى من السحب الممطرة الكثيفة . وعادة يبلغ قطر هذه النافورة نحو ٥٠ متراً . أما ارتفاعها فلا يتعدى فى المتوسط نحو ٣٠٠ متر . وتدور الرياح حولها على هيئة دوامة ، ولهذا السبب فإنها غالباً ماتدلى إلى سطح البحر ثم تمتص ماءه بما فيه من أسماك أو كائنات حية صغيرة ، فتحملها إلى السحاب . وبديهى أن مثل هذه الكائنات لا تلبث إن عاجلا أو آجلا أن تنزل مع المطر المنهمر بعد هدوء العاصفة .

وسر دوران الرياح على هيئة دوامة أو نافورة تقذف بالمواد إلى أعلى هو دوران الأرض حول محورها وتجمع الرياح حول النافورة فى صعيد واحد . وفى وصف هذه الظاهرة الجوية يقول سليمان : « وربما رئى فى هذا البحر سحاب أبيض يظلل المركب فيشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلتصق ذلك اللسان بماء البحر ، فيغلى له ماء البحر فلا أدرى أيستقى السحاب من البحر أم ماذا ؟ » .

وبطبيعة الحال صادف الأقدمون أنواعاً شتى من أعاصير البحر ونافورات الماء فتاهوا فى وصفها وتبويبها . ولمن هذه الأعاصير ما نطلق عليه اليوم اسم النكباء أو (الهاريكين) ، و(التيفون) . . . والنكباء من أعنف الأعاصير وأشدها تدميراً . ورغم أن قطر عينها لا يزيد عادة على بضعة كيلو مترات ، إلا أن الضغط الجوى داخلها يهبط بمقدار كبير جداً محدثاً أشبه شىء بالفراغ ، فتندفع الرياح بشدة من حول الإعصار لتملأ هذا الفراغ الداخلى ، وتدور بسرعة فائقة حتى تصل سرعتها إلى ما يربو على ٥٠٠ كيلو متر فى الساعة الواحدة !

وعند عبور النكباء تنتشر على المحيط أمواج هائلة يبلغ ارتفاعها أكثر من عشرة أمتار . وتنحدر هذه الأمواج إلى الشواطئ قبل وصول النكباء بوقت كبير محدثة نوعاً رهيباً من الطوفان لا يفوقه إلا طوفان نوح عليه السلام . وتحدث هذه العواصف أحياناً فى بحر العرب فى الصيف والخريف . أما فى بحر الصين وجزائر الفلبين واليابان فهى تعرف باسم (التيفون) ، وتحدث بمعدل أكبر ، يصل متوسطه إلى نحو ٢٢ مرة فى العام الواحد ؛ أكثرها فى الصيف والخريف . وفى المحيط الهندى

وشرق مدغشقر يكون حدوثها بمتوسط ٧ مرات فى الشتاء والربيع .

واعتبر البحارة العرب تلك الأرجاء من أخبث البحار وأشدها تقلباً ، إذ كثيراً ما تنبثق منها النذر بالإعصار وهبوب الريح الكريه الذى أطلقوا عليه اسم الخب ، وهو أشد أنواع الرياح عنفاً وجبروتاً ، فيستعد رجال البحر لذلك ويعمدون إلى إلقاء المتاع وكل ما ثقل وزنه إلى البحر عند ظهور العاصفة ، وذلك حتى يلقونها خفافاً لا ثقالا ، حتى إذا ما كتبت لهم النجاة راحوا يستبشرون ويهللون حامدين الله تعالى .

ولعل من أروع أوصاف البحر العاصف قوله تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . وتشير هذه الآية الكريمة إلى تعدد أنواع الموج فى مثل هذه الحالات ، وهى حقيقة علمية لا مراء فيها ، إذ تنطلق من العاصفة أمواج عديدة تتباين أطوالها ، وتختلف فيها ارتفاعات الأوج والحضيض إلى حد كبير . ونحن اليوم نستطيع أن نحلل هذه الأمواج بعد تسجيلها بأجهزتنا عندما تصل إلى الشاطئ قبل وصول العاصفة ، ومن ثم نستطيع أن نرسم صورة مكتملة المعالم لما يحدث فى عرض البحر على بعد مئات الأميال .

ويصف زكريا بن محمد القزوينى الزوبعة فى مطلع كتاب عجائب المخلوقات فيقول : « هى الريح التى تدور على نفسها شبه منارة ، وأكثر تولدها من رياح ترجع من الطبقة الباردة فتصادف سحاباً تذروه الرياح المختلفة فيحدث من دوران الغيم تدوير الرياح فتنزل على تلك الهيأة ،

وربما يكون مسلك صدورها مدوراً فيبقى هبوبها كذلك مدوراً ، كما نشاهد فى الشعر المجعد ، فإن جودته قد تكون لاعوجاج المسام . وربما يكون سبب الزوبعة ريحين مختلفى الهبوب ، فإنهما إذا تلاقيا تمنع أحداهما الأخرى من الهبوب فتحدث بسبب ذلك ريح مستديرة تشبه منارة ، وربما وقعت قطعة من الغيم وسط الزوبعة فتذروها فى الهواء فترى شبه تنين يدور فى الجو» .

والعجيب أن هذا العالم العربى الجليل وصف الزوبعة وعلل أسباب تولدها برأى يتفق إلى حد كبير مع أحدث النظريات ، وهى النظرية المعروفة باسم بركن أو بجركنيس . وهى تقول إن الزوابع تتولد من تلاقى ريحين تختلف فيهما درجة الحرارة واتجاه الهبوب ، تماماً كما افترض القزوينى ، وسنبين هذا الأمر بقليل من التفصيل كذلك .

وفى كتاب آثار البلاد يصف زكريا بن محمد القزوينى هذا (تنينا) ظهر بنواحى حلب فيقول : « ينساب على الأرض والنار تخرج من فيه ودبره ، والناس يشاهدونه من البعد وقد أقبلت سحابة من البحر وتدلت حتى اشتملت عليه وروحته نحو السماء ، وقد لف التنين ذنبه على كلب ورفعه والكلب ينبح فى الهواء » !! هذا التنين بطبيعة الحال ما هو إلا إحدى نافورات الماء .

وفى مكان آخر من الكتاب يصف (التنين بأنه حيوان هائل له قشر كقشر السمك وجناحان عظيمان ورأس إنسان كأنها التل ! وهكذا لعب الخيال دوره وأضافت التخمينات والخرافات الشىء الكثير إلى مبادئ تلك العلوم التى أسسها العرب ، وأزهرت فى عصر العلم حتى راح

الإنسان يحاول التحكم فى قوى الطبيعة بعد أن فهم سرها .

وحتى فى هذا العصر يعمد بعض رجال قبائل الشعوب البدائية إلى تغطية أجسامهم بريش الطير الصغير (الزغب ليصير مظهرها كالسحب)، ثم يرقصون ويدورون على أمل أن تتشبه بهم الطبيعة فتكون السحب . وعندما يصيح الرجال أثناء الرقص بأصوات تشبه هدير الرعد لا تلبث الطبيعة (فى رأيهم) أن تصنع بدورها الرعد وعواصفه . أما إذا سكبوا الماء . على بعضهم بعضاً فإن الطبيعة غالباً ما ترسل عليهم وابلا من المطر!

ولعل أول تنبؤ جوى بعيد المدى تم فى العصور القديمة ما جاء فى قصة يوسف عليه السلام خاصاً بالتنبؤ بفيضان النيل لاتقاء غدرة . فلقد ألفت مصر من قديم الزمن أن ترى ينبوع حياتها يتدفق إليها من الجنوب كل صيف ممثلا فى فيضان النيل الذى يجود علينا بمائه الثمين يسرى فى الترع والقنوات كما يسرى الدم فى شرايين الجسم فيمدنا بالحياة ويبعث فينا السرور، وتنطلق ألسنتنا بشكر الخالق الكريم .

ولقد روى لنا التاريخ قصصاً عن مآسى وأهوال من غدر النيل فى حالتى الشح والطغيان ، ولكننا نحمد الله تعالى على أن مثل تلك الكوارث لن تعود بفضل السد العالى ونظام الرى الحديث . ومضمون قصة يوسف أنه حلت بمصر أيام الفراعنة سبع سنوات رخاء بسبب اكتمال فيضات النيل أعقبهن سبع سنوات من البلاء بسبب قلة الفيضان عانى فيها الناس الأمرين وذاقوا عذاب الجوع والحرمان . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك إذ يقول : « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن

سبع عجاف . . . » . وفسر يوسف عليه السلام ما رآه الملك فى منامه : « قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون » . واليوم تعتبر مسألة التنبؤ بفيضان النيل مسألة علمية هامة ، إلا أنه من اللازم أن يتم قبل حل هذه المسألة الوقوف على كثير من الحقائق التى تتعلق بالنيل مثل المحيط الذى يمد الهواء ببخار الماء اللازم للفيضان كل العام والتغيرات التى تطرأ على هذه الأبخرة .

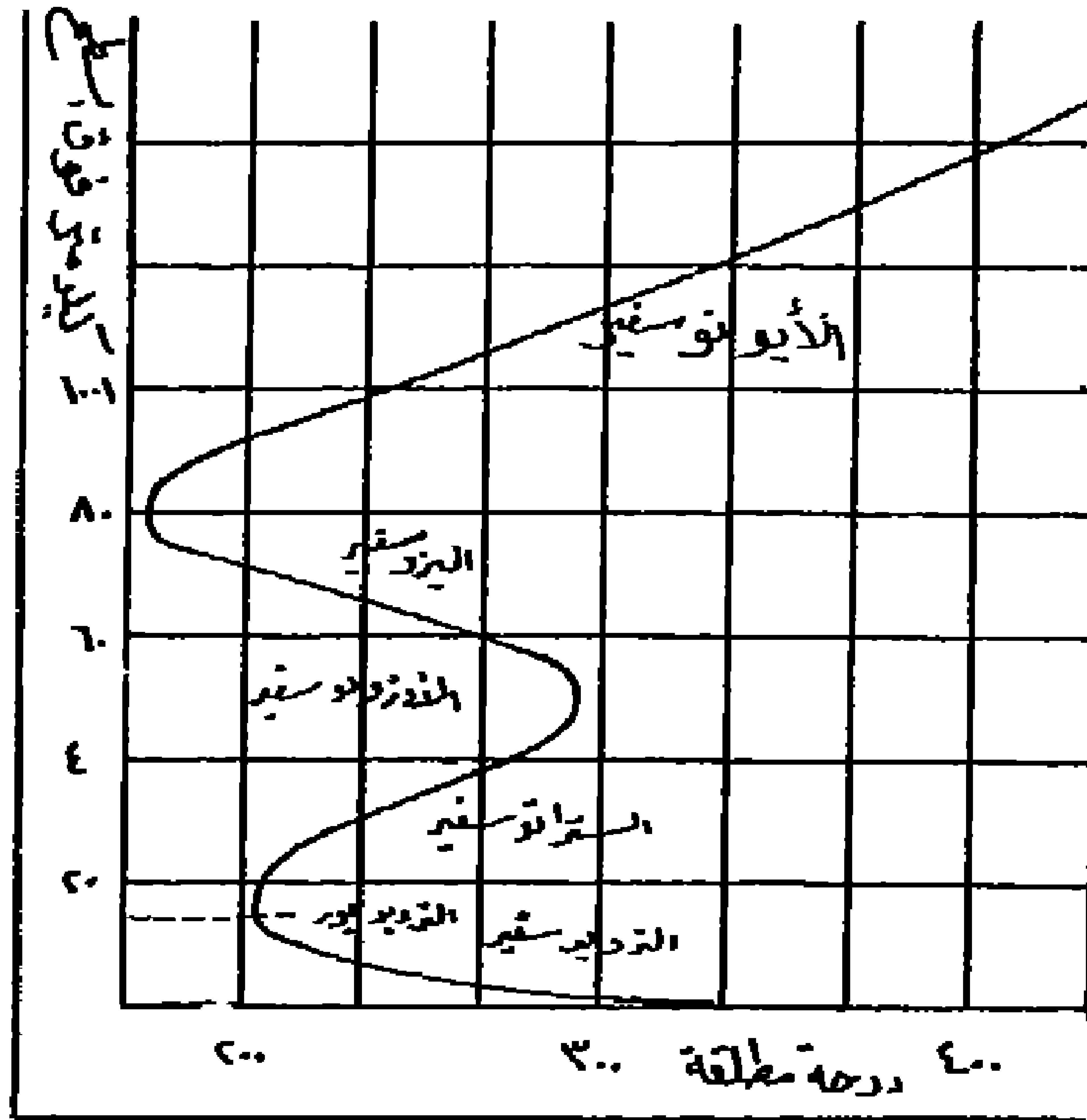
٢ ـــ غلاف الأرض الجوى

غلاف الأرض الجوى مجموعة من الغازات التى ليس لها طعم ولا لون ولا رائحة . وتتكون الطبقات السفلى من هذا الغلاف من خليط من غازى الأزوت والأوكسيجين بنسبة ٧٨,٠٧ إلى ٢٠,٩٥ من حيث الحجم على التوالى . ويمتزج معهما عدة غازات بنسبة ضئيلة تكاد لا تتصدى فى مجموعها الواحد فى المائة من حيث الحجم . ومن هذه الغازات ما تتغير كمياتها بتغير الزمان والمكان على الأرض مثل بخار الماء ، ومنها ما هو ثابت النسبة على النحو الموضح فى الجدول التالى :

غازات ثابتة النسبة	غازات متغيرة النسبة
أزوت	بخار الماء
أوكسيجين	ثانى أوكسيد الكربون
أرجون	أوزون
كريتون	
إيدروجين	
زينون	
هيليوم	

وينقسم الغلاف الهوائى كله بحسب طبيعة توزيع درجات الحرارة فيه إلى طبقات متراصة بعضها فوق بعض . والذى يلعب الدور الرئيسى

فى تباين توزيع درجات الحرارة فى هذه الطبقات ـ شكل (٤)



شكل (٤) التوزيع الرأسى لدرجات الحرارة فى جو الأرض

هو ما يحدث من تفاوت فى امتصاص الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس، إذ تتحول هذه الأشعة بعد امتصاصها بغاز الأوزون أو الأوكسيجين الذرى* الموجود فى المالى الجو إلى طاقة حرارية عظيمة الأثر. أما فى الطبقات السطحية فإن الذى يقوم بعمليات الامتصاص، خصوصاً من طاقات الحرارة التى ترسلها الشمس ويرسلها سطح الأرض بالإشعاع ،

* يتكون جزىء الأوكسيجين العادى من ذرتين ، فإذا ما تحلل تحت وطأة الإشعاع الشمسى إلى جزئين ، كل جزء منهما عبارة عن ذرة قائمة بنفسها سمى أوكسيجيناً ذرياً .

هو بخار الماء وغاز ثانى أوكسيد الكربون . وقديماً كان هذا الغاز الأخير منتشراً فى جو الأرض بكثرة ، ولكن ما أن ظهرت مملكة النبات على الأرض حتى عملت على استخلاص الأوكسيجين وتوفيره فى جوها ، بينما ترسب الكربون على هيئة الفحم الحجرى المعروف وكذلك البترول . وهكذا استعدت الأرض لاستقبال مملكة الحيوان التى يعيش أفرادها على حساب الأوكسيجين الجوى : تستنشقه ثم تخرجه فى صورة غاز ثانى أوكسيد الكربون مع هواء الزفير ، ثم تعمل مملكة النبات على استخلاص الكربون من هذا الغاز وإطلاق الأوكسجيين من جديد ، وهكذ تعترى هذ الغاز سلسلة من التغير الدورى ، إلا أننا فى هذا القرن رحنا نحرق ما ترسب من مكونات الكربون (مثل الفحم الحجرى والبترول) بوفرة وغزارة جعلت العلماء يتساءلون عن مدى تأثير هذه العمليات التى يقوم بها البشر على جو الأرض فى المستقبل القريب على النحو الذى ستتحدث عنه فيما بعد .

ولقد كانت معظم معلوماتنا عن الغلاف الجوى حتى عهد قريب إنما تجمع عن طريق دراسة الطبقة السفلى المعروفة باسم التربو سفير (أو كرة التغير) بالبالونات أو الطائرات التى قلما تصل إلى علو يزيد على عشرين ميلا . ثم طبقة الأوزونو سفير أو منطقة تجمع الأوزون التى تكون الجزء السفلى بين طبقة الستراتو سفير (أو الكرة ذات الطبقات) باستخدام جهاز دوبسون ، أما اليوم فهى تدرس بالصواريخ كذلك .

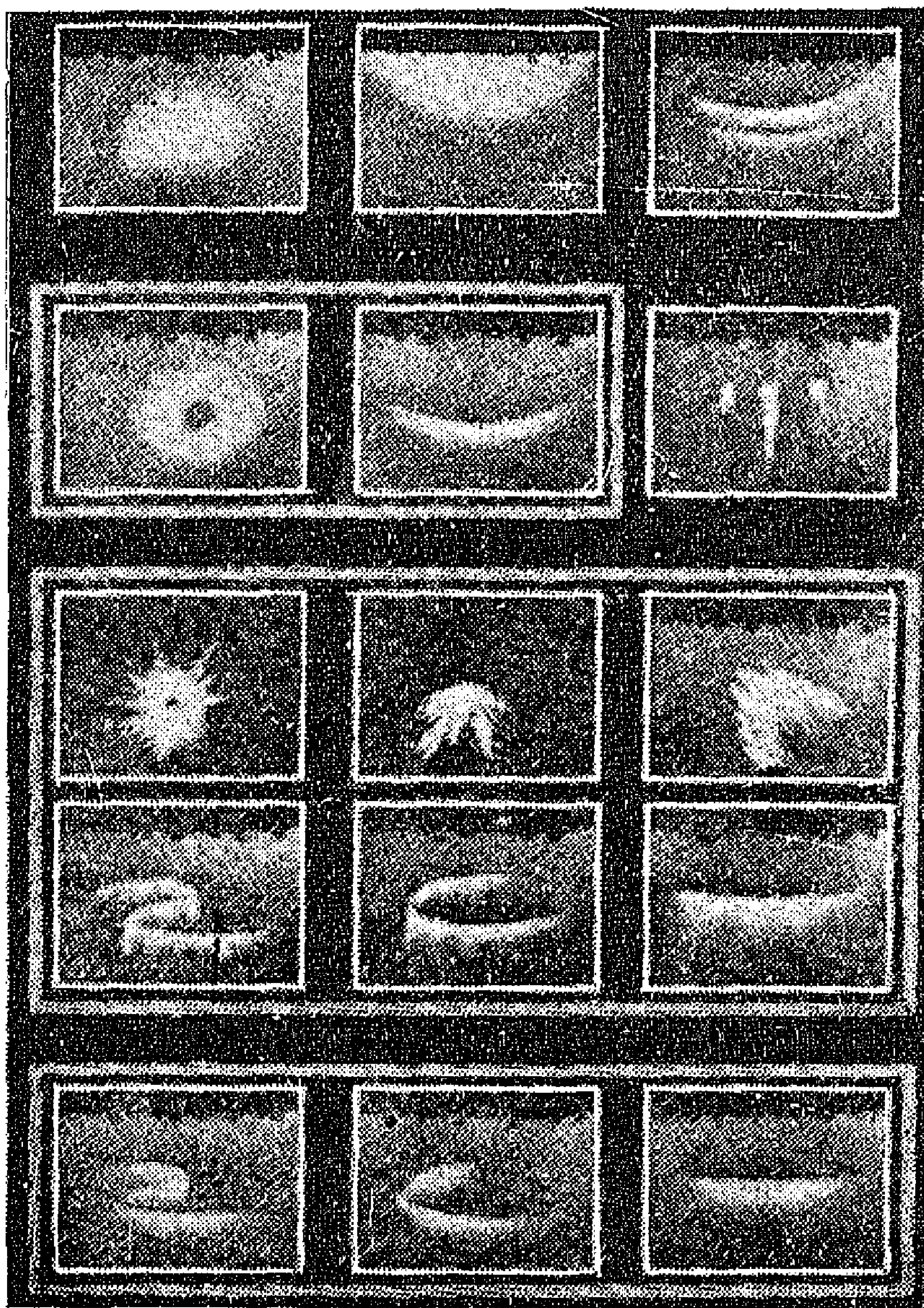
والمعروف أنه تتركز نحو ٩٨ فى المائة من كتلة الغلاف الجوى كله فى طبقتى التروبوسفير والستراتوسفير ، أما الباقى وقدره نحو ٢ فى المائة

فقط فيتركز فى الطبقة العليا المتأينة (أى المحلله إلى عناصرها الكهربية) المعروفة باسم الأيونوسفير والتى يتواجد فيها الأوكسيجين الذرى . وكانت معالم هذه الطبقة تجمع باستخدام مسجل التأين الذى يحدد عملياً درجات تركيز الكهارب فى مختلف مناطق الأيونوسفير . وتتكاثر هذه الكهارب فى طبقات معينة تعرف علمياً باسم طبقات هفيسيد، وهى التى تعكس أمواج اللاسلكى بعد انطلاقها من محطات الإذاعة وتردها إلى مراكز الاستقبال . كل ذلك بالإضافة إلى تحليل طيف أو أضواء الفجر القطبى . وهو ظاهرة ضوئية تحدث فى أعالى الجو الممتد من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ كيلومتر . ويطلق عليه الفرنجة اسم (الأورورا) وهو لا يشاهد عادة إلا بالقرب من القطبين – شكل (٥) . ويعرض الفجر القطبى ألواناً من الحسن والبهاء الرائع للسماء . وتعتبر رؤيته لأول مرة من أنواع الخبرة المثيرة التى لا تنسى بسهولة ، حتى لقد ذهب بعضهم خطأ إلى وصفه بأنه يحكى (ليلة القدر) !! ، ذلك لأنه يبدو كالستائر المضيئة التى تتدلى من السماء .

ولقد أثبت تحليل طيف الأورورا على أن جو الأرض العلوى إنما يتكون أيضاً من غازى الأزوت والأوكسيجين ، ولا أثر للغازات الخفيفة هناك مثل غازى الأيدروجين والهيليوم .

ويبلغ ارتفاع التروبوسفير نحو عشرة أميال عند خط الاستواء ، وخمسة أميال فقط عند القطبين . ويحد هذه الطبقة من أعلى سطح وهمى هو التروبوبوز .

وتحدث كافة التقلبات الجوية فى منطقة التروبوسفير ، وفيها تثار



شكل (٥) الفجر القطبى أو (الأوروارا)

السحب وينزل المطر . ومن خصائصها أن درجة الحرارة فيها تنخفض بازدياد الارتفاع بمعدل متوسطه نحو ٦,٥ درجة مئوية لكل ألف متر . وعلة ذلك أن مصدر الحرارة فى الطبقات السطحية من الغلاف الهوائى

هو سطح الأرض . بما يكتسب من إشعاعات شمسية وما ينتشر فيه من أبخرة المياه . ولقد قدر أن نحواً من ٣٠ فى المائة من الإشعاع الشمسى الذى يرد إلى سطح الأرض يستخدم فى عمليات البخر من الأسطح المائية . وتعود هذه الطاقة الكامنة كلها إلى الجو عندما يتم تكاثف بخار الماء وتحوله إلى سحب أو مطر .

وترتفع درجة الحرارة فوق طبقة التروبوسفير نظراً لما يمتصه غاز الأوزون من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس .

وكما قدمنا يمتص الأوكسيجين الذرى من الطاقة البنفسجية قدراً وفيراً فى مجموعة متراصة من الأمواج الممتصة يمتد أطوالها من ١٧و٠ ميكرون إلى ٢ و . ميكرون ، وتعرف باسم حزمة شومان . وتتحول الطاقة فوق البنفسجية بعد امتصاصها إلى طاقة حرارية .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية تم اكتشاف تيارات هوائية عليا تتدفق بسرعة كبيرة داخل أحزمة معينة ، وأطلق عليها اسم (التيارات العليا النفاثة) . وأهم هذه التيارات تياران دافقان يكونان إطارين حول الأرض وينساب الهواء فيهما بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ ميلا فى الساعة الواحدة ، على علو يقارب ارتفاع التروبوبور ، أحدهما فى المنطقة المعتدلة الشمالية ، والثانى فى الجنوبية . وحديثاً جداً تم التعرف كذلك على التيار النفاث الاستوائى الذى يتدفق من الشرق إلى الغرب ، ويلعب دوراً هاماً فى الأمطار الموسمية ، ومنها أمطار السودان والحبشة التى ينجم عنها فيضان النيل . وتساهم كلية العلوم بجامعة القاهرة بقسط فى هذه البحوث .

وحديثاً أطلق على الجزء السفلى من الأيونوسفير اسم الميزوسفير (أو الكرة الوسطى) . وفى هذه الطبقة لا تكفى كثافة الأوكسيجين لتكوين الأوزون . ويسمى السطح الذى تصل إليه درجة الحرارة أقل ما يمكن فى أعالى الميزوسفير باسم « الميزوبوز وفى الميزوسفير وحدها تتركز أغلب كتلة الهواء العلوى الموجود فى الأيونوسفير . وتتضمن طبقة الستراتوسفير أو الطخرورية كلا من الأوزونوسفير والميزوسفير .

أما مشارف الهواء العلوى فهى تنقسم إلى منطقتين هما الثيرموسفير أو كرة الحرارة بسبب الارتفاع المستمر فى درجة الحرارة مع الارتفاع حتى تزيد على الألف نتيجة لامتصاص جانب وفير من أشعة الشمس فوق البنفسجية بواسطة الأوكسيجين الذرى . وتحد هذه الطبقة من أعلى بالثيرمو بوز : وفوق الثيرموبوز منطقة من الغلاف الجوى تنخفض فيها الكثافة إلى الحد الذى يحول دون توهج الشهب * ، إلا أنها رغم ذلك تستطيع حمل الفجر القطبى . هذه المنطقة هى الأكسوسفير أو الكرة الخارجية .

وليست هناك حدود عليا معينة للاكسوسفير ، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنها تنتهى حيث تتعادل الكثافة مع كثافة الفراغ الكونى ، وهى نحو ١٠٠ جسيم لكل سنتيمتر مكعب من الفراغ مثلا .

وفى الفضاء الكونى المحيط بالأرض تنتشر مع مجال الأرض المغناطيسى طبقه يقال لها الماجينيتو سفير ، وقوامها أو أساس تركيبها حزامان

* سبب توهج الشهب هو الحارة الناجمة عن الاحتكاك مع الغلاف الهوائى السميك نسبياً والممتد فوق نحو ١٠٠ كيلومتر .

معروفان باسم حزاما (فان آ لين) للأشعة الكونية . والعجيب أنه لا يوجد لقمر الأرض مثل هذه الأحزمة كما دلت على ذلك أرصاد سفن الفضاء التى أطلقها البشر فى هذا العصر ، وسوف نفصل هذه الموضوعات كلها .

وأنت قد تتساءل متعجباً : كيف تستطيع الصواريخ وسفن الفضاء المرور عبر منطقة الثيرموسفير والأكسوسفير إذا كانت درجات الحرارة فيها تبلغ الآلاف دون أن تحترق ؟

والجواب على ذلك فى غاية البساطة ، وهو أن العبرة فى هذه الحالة بكمية الحرارة* وليس بدرجة الحرارة وحدها . فالجسيمات الموجودة هناك لها طاقات حرارية عظمى كجسيمات منفردة . أى أن درجات حرارتها مرتفعة ، إلا أنه لا يوجد من هذه الجسيمات سوى عدد قليل جداً ، بحيث يمكن إهمال طاقاتها الكلية أو كمية الحرارة الكلية المدخرة فيها .

وبطبيعة الحال نجد أن للدرجات الحرارة الكبرى فى جو الأرض الخارجى تأثيراتها المباشرة على الجسيمات التى تكون ذلك الجو ، إذ تنقسم جزئيات الأوكسيجين والأزوت تحت وطأة تأثير تلك الدرجات المرتفعة من الحرارة ، وتتحلل إلى ذرات منفصلة .

ويدرس العلماء مسألة ما إذا كانت الطائرات النفاثة تستطيع الاستفادة من هذه الذرات الحرة الطليقة من أجل الملاحة الجوية فى طبقة الأكسوسفير ، وذلك لأنه إذا ما أمكن جمع القدر الكافى منها وضغطها

---

* تعبير يدخل فيه كتلة المادة الساخنة ولا يقتصر على درجة حرارتها فحسب .

معاً فإن الطاقة الناجمة من اتحادها لتكون جزئيات مادية من جديد تكون أعلى بكثير من الطاقة المنطلقة من استخدام الوقود العادى الذى يستعمل فيه الأكسيجين أو الأوزون . وزيادة على ذلك نجد أن إمدادات الطاقة سوف لا تنفد ، نظراً لأن الذرات بمجرد إتحادها تنطلق إلى الخارج من المؤخرة ، حيث تعمل الطاقة الشمسية فى الحال على انقسامها إلى ذرات من جديد .

٣ — يوجد فى الهواء ماء

ليس منا من لم يتساءل : من أين يجىء المطر ؟ وكما قدمنا حير هذا السؤال الناس منذ القدم ، وفى العصور القديمة ذهبت بعض الشعوب فى ذلك مذاهب مختلفة منها أن الماء إنما يوجد فى أعالى السماء . ولكن كيف يمكن أن يظل عالقاً هناك ؟ كانت الإجابة بطبيعة الحال أن هذا سر من أسرار إله المطر ، فإن الماء ينساب من نوافذ فى القبة الزرقاء عندما يفتح الإله هذه النوافذ !

وأبصر الأقدمون المطر يتساقط ويجرى فى الجداول والروافد التى تصب فى الأنهار ، كما أبصروا الأنهار تصب بدورها فى البحار ، ولكنهم لم يعرفوا مصدر مياه السحب ، ولهذا بدا لفريق كبير منهم أنه بمضى الوقت سوف يتجمع كل الماء داخل الأنهار والمحيطات وينضب معين السحب وينعدم المطر . ومثل هؤلاء فاتهم أن الماء الموجود على الأرض يتبخر جزء منه كل يوم ويصعد إلى عنان السماء ، ونحن نعبر عن ذلك أن الماء يجف . وتتضمن هذه العملية تحول الماء إلى غاز غير مرئى تحمله الرياح إلى أعلى كما تسوقه إلى أماكن نائية . وبطبيعة الحال لم يدرك الأقدمون هذه الحقائق كلها لعدم إمكانهم رؤية الغاز كما قلنا .

وفى الحقيقة تحتوى طبقات الجو السفلى على بخار الماء — خصوصاً طبقة التروبوسفير — وقد تصل نسبة بخار الماء العالق فى هذه الطبقات

إلى خمسة فى المائة من حيث الحجم ، إلا أن المعتاد أن تقل النسبة عن ذلك كثيراً . واللفظ الذى نعبر به عادة عن كمية بخار الماء هذه هو كلمة (رطوبة) .

والسر الذى يرتفع به الماء إلى السماء أن كثافة البخار أقل من كثافة الهواء الجاف (النسبة بينهما هي ٥ إلى ٨ على التوالى) . وهذا هو السبب فى أنه عندما يغلى الماء فى براد الشاى ويتسرب البخار منه بوفرة وغزارة مكوناً سحابة صغيرة فى المطبخ ، لا تلبث أن تختفى هذه السحابة سريعاً وهى فى طريقها إلى السقف ، فإن البخار الكثيف يتحول تدريجياً إلى غاز غير مرئى هو بخار الماء العادى العالق فى الهواء .

وفى الحقيقة ليس من اللازم أن نعمد إلى تسخين الماء على النار لكى نحوله إلى غاز ، فالماء يتحول على الدوام إلى بخار حتّى ولو لم يسخن . ومعنى ذلك أن جزيئات تتصاعد دائماً إلى الهواء من الأسطح المائية . فأنت إذا ما تركت بعض الماء معرضاً للهواء فى إناء ما خلال فترة من الزمن تجد أن الماء يجف تدريجياً . وبنفس الطريقة تجف . الملابس المبتلة بالماء عندما ننشرها فوق الحبال . وفى كل هذه الحالات يصعد الماء فى الجو على هيئة غاز لا نراه .

ونحن نطلق على هذه العملية اسم البخر . ويحدث البخر كما قلنا من كافة الأسطح المائية ومن الأرض المبتلة بالماء والنبات وأجسام الحيوانات . . . ويستمر صعود الغاز الذى لا نراه إلى عنان السماء . وبطبيعة الحال كلما اتسعت رقعة السطح الذى يحدث منه البخر كلما عظمت كميات المياه المتبخرة . ومما يزيد من عمليات البخر وينشطها

الرياح وزيادة سرعتها ، فهى تعمل باستمرار على إزاحة الأبخرة ليحل محلها هواء جاف لا يلبث أن يتشبع بأبخرة المياه ليحل محله هواء آخر وهكذا . . .

وعندما يتم تبريد الهواء الرطب بطريقة من طرق التبريد * إلى حد معين يعود بعض البخار من جديد إلى صورته المرئية ، وعندئذ نقول إنه قد تكاثف . ومن صور التكاثف الشابورة المائية والضباب والسحب بأنواعها والندى والصقيع والمطر والثلج والبرد . وهكذا نرى أن الماء من عجائب الطبيعة . لتعدد الصور التى يمكن أن يوجد عليها سواء كانت غازية أو سائلة أو صلبة .

وعادة لا تظل مقادير الماء العالق فى الهواء ثابتة النسبة ، بل هى دائبة التغير : ومصدر هذه الأبخرة الرئيسى فى طبقات الجو السفلى عمليات البخر التى تحدث فى المحيطات والبحار نظراً لاتساع رقعتها وتعرضها المباشر للرياح وتياراتها. ويحمل جزء كبير من هذه الأبخرة إلى الطبقات العليا الباردة حيث يتم تكاثفها وتحولها إلى سحب ومطر وثلج . . . ونحن نستطيع أن نقول إن معظم أبخرة المياه إنما توجد داخل السحب وبين طيات طبقات الجو السفلى المتقلبة .

وبعد أن عرف الناس الدورة المائية وكشفوا سرها بقيت مسألة السحب وإثارتها غير مفهومة تماماً : ما هو السر فى أنها تظل تسبح فى جو الأرض

---

* هناك عدة طرق للتبريد فى الجو منها الإشعاع والتوصيل والمزج أى مزج هواء ساخن باخر بارد ثم التبريد الذاتى ومعناه أن الهواء عند ما يتمدد بتقليل الضغط ينتشر ويبرد ذاتياً والعكس صحيح .

على الرغم من أن هواء السحب يكون عادة أبرد من الهواء المحيط بها * ؟ وكذلك لماذا لا تهوى مكونات السحب من نقط الماء وبلورات الثلج دفعة واحدة إلى الأرض ؟

وفى بادئ الأمر كانت هنالك عدة عقبات للوصول إلى حل سليم . وإلى عهد قريب لايتعدى القرن ونصف القرن حاول العلماء تعليل بقاء السحب عالقة فى جو الأرض بأن افترضوا أن نقط الماء إنما توجد على هيئة فقاقيع مليئة بغاز خفيف مثل غاز الأيدروجين يمكنها من مقاومة جذب الأرض لها فتظل طافية . وجدير بالذكر . أنه فى تلك الآونة لم تكن أسباب تولد الأعاصير وهطول المطر والبرد قد عرفت بعد ، بل ظلت لغزاً من الألغاز التى يحار العقل فى فهمها . والحق يقال لقد مضت على تلك الفترة عشرات السنين قبل أن يصل البشر إلى حل سليم لمثل هذه المسائل ، وكان لزاماً أن تتم دراسة بخار الماء العالق فى الجو على الوجه الأكمل ، وكذلك رصد مكونات السحب وتتبع العمليات التى تجرى داخلها .

ولكى تعرف ما الذى تمخضت عنه هذه الدراسات نقول إن العلماء وقفوا على سر ظاهرة هامة فحواها أن جو الأرض لا يمكن أن يحمل كميات غير محدودة من بخار الماء ، وأن فى مقدوره أن يحمل فقط كمية معينة لا سبيل إلى زيادتها ما دامت درجة الحرارة ثابتة . والذى يحدث عادة أن كمية عظيمة من بخار الماء يمكن أن يستوعبها الجو وتظل عالقة فيه ، مع احتفاظه بنقائه وصفائه وشفافيته ، إلا أنه تأتى المرحله التى

* الهواء البارد أثقل من الهواء الساخن أى أكبر منه كثافة ولذلك فهو لا بد أن يتساقط إلى أسفل ، وهذا هو عين ما يحدث .

عندها لا يمكن إضافة كميات أكثر من بخار الماء إلى الهواء . وتسمى هذه المرحلة بمرحلة التشبع . ويمكن الحصول عليها إما باستمرار عمليات البخر أو بتبريد الهواء . فالهواء إذا ما برد قلت قابليته لحمل بخار الماء . وتسمى درجة الحرارة التي يحدث عندها التشبع باسم نقطة الندى .

ومعنى ذلك أن مرحلة التشبع هى مرحلة متغيرة ؛ بمعنى أن سعة حمل الهواء لبخار الماء إنما تختلف باختلاف طبيعة الهواء السائد ، وهى تتوقف إلى حد كبير على درجة الحرارة ، وكذلك إلى حد أقل على ما يحتمل الهواء من شوائب قوامها ما تذروه الرياح من أملاح البحار وأكاسيد القشرة الأرضية وأتربتها . وكما قلنا كلما ارتفعت درجة الحرارة . زادت قدرة الهواء على حمل بخار الماء .

والآن ما الذى يحدث عندما يتشبع الهواء بانخفاض درجة حرارتة ؟

إن الذى يحدث فعلا هو أن يتحول بعض بخار الماء من الحالة الغازية إلى حالة السيولة (نقط ماء) أو حتى إلى الحالة الصلبة (بلورات ثلج) إذا كانت درجة الحرارة منخفضة انخفاضاً كافياً تحت درجة الصفر المئوى التى هى نقطة الجليد أو درجة تحول الماء السائل إلى ثلج عادة . وهذا هو عين ما يحدث عندما نعمد إلى فتح باب الثلاجة الكهربائية (فريجيدير) ، لأن الهواء الدافئ الخارجى يتدفق إلى داخلها ويلامس أنابيبها وصندوقها البارد فتنخفض درجة حرارته إلى ما هو أقل من درجة التشبع ، وبذلك يتكاثف بعض بخار مائه إلى بلورات من الثلج تتجمع فوق الأنابيب وعلى صندوق التجمد . ونحن عندما نعرض كوباً من الماء البارد (المثلج) للهواء العادى فى الصيف نجد أن سطح الكوب الخارجى

يكسى بطبقة رقيقة من الماء . وبديهى أن مصدر هذا الماء ليس مما فى الكوب وإنما مصدره هو بخار الماء العالق فى الجو . فعندما يلامس الهواء الجوى سطح الكوب تنخفض درجة حرارته تحت درجة التشبع ، وبذلك يتم تكاثف جزء من أبخرته على هيئة نقط صغيرة تكسو سطح الكوب الخارجى . وباستمرار عملية التبريد يمكن أن تسيل هذه النقط وتتجمع على هيئة بقعة كبيرة من الماء السائل أسفل الكوب .

وما يجرى فى الطبيعة لا يختلف عن ذلك كثيراً ، ونحن نطلق على صورة التكاثف الذى يتم بالتبريد أثناء الليل إسم الندى : وكثيراً ما يذكر فى أحاديثنا ما يشير إلى تساقط الندى ، إلا أن الحقيقة هى أن الندى لا يتساقط وإنما يتكون حيث نجده على الأجسام الصلبة الصغيرة على سطح الأرض مثل الحشائش والأزهار وأوراق الشجر والأجزاء البارزة من المبانى والمنشآت . . . فهذه كلها تبرد بالإشعاع * أثناء الليل ، ويبرد الهواء الملامس لها حتى تهبط درجة حرارته تحت نقطة الندى . أما إذا كانت درجة الحرارة تحت نقطة التجمد (الصفر المئوى) فإن بخار الماء العالق فى الهواء يتكاثف جزء منه مباشرة على هيئة بلورات من الثلج هى الصقيع . وللصقيع تأثيرات ضارة على النبات خاصة .

ولعل أكثر مناطق جمهوريتنا استعداداً لظهور الصقيع المناطق الصحراوية المنخفضة نسبياً فى شبه جزيرة سيناء ، والمناطق المنخفضة

---

* المعروف أن أى جسم مادى يفقد حرارته أو يطلقها تلقائياً إلى الهواء أو الفضاء المعرض له ، فإن لم يكتسب حرارة من الخارج كما يحدث أثناء النهار ، فإنه يبرد وهو عين ما يحدث فى الليل .

فعلا فى « الغرب » مثل منخفض القطارة ، وذلك لأن الانخفاض النسبى فى مستوى سطح الأرض يجعل من المنطقة أشبه شىء بالمستنقع الجوى الذى تتراكم فيه الأهوية الباردة فى ليالى الشتاء . أما فى الوادى نفسه فيمكن التعرف على مناطق ثلاثة هى أكثر الجهات تعرضاً لظهور الصقيع عندما تنخفض درجة الحرارة الصغرى أثناء الليل إلى أقل من ٣ درجات مئوية . هذه المناطق هى : منطقة المنيا وحدودها الشمالية هى الفشن والجنوبية ملوى . ومنطقة القرشيه وميت غمر وتشمل طنطا وسخاوالسنبلاولين وقويسنا . ثم بعض مناطق الوادى الجديد .

وترجع النظريات المختلفة ضرر الصقيع على النبات إلى ضغط بلورات الثلج على جدران الخلايا الحية ، أو إلى سحب المياه من داخل هذه الخلايا . وتشاهد مثل هذه الظاهرة عندما تتجمد المواد التى نضعها داخل صندوق التجمد فى الثلاجة الكهربائية .

بقى بعد ذلك أن نعرف تماماً ما هى السحب . وللإجابة على ذلك نقول أن السحب عباره عن تجمعات هائلة من نقط الماء السائل أو بلورات الثلج ، أو منهما معاً . وتبلغ وحدات هذه المكونات من الصغر الدرجة التى تجعل من المستحيل أن نرص ألف واحدة منها فى صف واحد يبلغ طوله نحو سنتيمترين . ولهذا فإن الهواء الصاعد داخل السحابة يمكنه أن يحمل هذه المكونات بحيث تظل عالقة فى الجو رغم جذب الأرض لها . وهكذا يتبن لنا أن مكونات السحب تتساقط إلى الأرض بسرعات صغيرة تتوقف على حجومها — كما هو مبين فى الجدول أدناه — ولكنها تطفو تحت تأثير تيارات الهواء الصاعد الذى يكون

السحابة . وإذا ما زادت حجوم هذه المكونات إلى الحد الذى لا يقوى معه الهواء الصاعد على حملها تتساقط فى الحال على هيئة مطر أو ثلج أو برد . والبرد غير الثلج لأن الأول انما يتم تكوينه كاملا داخل السحب الركامية ويهطل منها إلى الأرض فى المناطق الحارة والمعتدلة ، أما الثلج فهو لا يهطل إلا فى المناطق الباردة عندما تنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر .

نصف القطر بالسنتيمتر	سرعة التساقط سم ، ثانية	نصف القطر بالستمتر	سرعة التساقط سم ، ثانية
٠,٠٠٠٥	٠,٣	٠,٠٢	١٨٠
٠,٠٠١	٣.٠	,١	٤٠٠
٠,٠٠٥	٣٢	,٢٢٥	٥٠٠
,٠١	١٣٦	,٢٧٠	٨٠٠

ويلاحظ من الجدول أن أكبر نصف قطر يمكن أن تصله نقطة ماء المطر . هو ٢٧و٠ سنتيمترا ، فإذا ما تمت النقط بعد ذلك فإنها تنقسم فى الحال إلى عدد وفير من النقط الصغيرة التى تنمو فى الحجم تدريجياً باستمرار عمليات التكاثف عليها . وهكذا يمكن أن تشحن السحب بمقادير وفيرة من نقط الماء عندما تشتد التيارات الهوائية الصاعدة وتقوى على حمل النقط النامية . وعندما تضعف هذه التيارات ينهمر المطر بغزارة . ويطلق على مثل هذه الظاهرة عادة اسم « الانفجار السحابى » لوفرة ما يعطى من مطر خلال فترة وجيزة من الزمان .

وليس من الصعب أن تصنع أنت سحابة ! فكل الذى عليك أن تعمله هو أن تعمد إلى إخراج كمية مناسبة من هواء الزفير فى يوم عظيم البرودة لترى سحابة صغيرة قد تكونت فى الهواء . وهناك طريقة أخرى فحواها أن تترك البخار يتصاعد بشدة من غلاية بها ماء يغلى ، لترى أمامك سحابة صغيرة .

ومن أنواع السحب التى تكونها الطبيعة قرب سطح الأرض الضباب بأنواعه ، وليس منا من لم يتواجد داخل الضباب ، فهو كثيراً ما ينتشر فى الصباح المبكر ويشكل خطراً على المواصلات. وسبب تكوينه برودة سطح الأرض والهواء الملامس له بالإشعاع الحرارى أثناء الليل إلى ما دون نقطة الندى مع توفر الرياح الكافية لتقليب الهواء بحيث يتكون الضباب بدلا من الندى ، لأن هذا الأخير يتكون عندما تسكن الرياح وتنخفض درجة الحرارة تحت نقطة الندى .

ومن الضباب ما يتكون بالقرب من الأسطح المائية المتسعة عندما تكون هذه الأسطح أسخن من اليابس ، فعندما ينساب الهواء الرطب إلى الأرض تنخفض درجة حرارة طبقاتهالسطحية بملامستها للأرض الباردة نسبياً ، ويعقب ذلك أن يتكاثف بعض بخار الماء العالق فيها على هيئة ضباب .

ولكن السحب البيضاء التى ترى فى السماء كالوبرالمنفوش فى يوم من أيام الشتاء عندنا أنما يتم تكوينها بطريقة أخرى ، فهى عادة تبدأ كهواء رطب بارد يرتفع إلى أعلى نتيجة التسخين أثناء النهار مثلا . وعندما يصعد الهواء يزداد حجمه ويقل الضغط الواقع عليه وينجم عن ذلك

تبريده ذاتياً (أى منه فيه) على حساب طاقته الداخلية المودعة فيه ، وإذا ما هبطت درجة الحرارة تحت درجة التشبع تكاثف بعض بخار الماء العالق فيه إلى نقط من الماء ثم إلى بلورات من الثلج فى الطبقات العليا . وهذه هى السحب الركامية . وغالباً تكون نقط الماء وبلورات الثلج المتكونة صغيرة الحجم بحيث لا تقوى على التثاقل إلى أسفل والتساقط على هيئة مطر ، فتبقى عالقة فى الهواء ويحملها تيار الهواء الصاعد . وفى الغالب لا يسقط المطر إلا فى حالتين : الأولى إذا ما اتحدت النقط مع بعضها ونمت حجومها ، والثانية إذا ما تساقط الثلج الذى فى أعلى السحابة إلى منطقة النقط المائية ، فإن هذه العملية تتضمن أحداث حالة من فوق * التشبع ينجم عنها نمو المكونات الثلجية نمواً سريعاً بحيث تزداد حجومها وتتساقط إلى أسفل. وبطبيعة الحال يذوب معظمها ويتحول إلى ماء سائل قبل وصولها إلى الأرض . وسوف نعود إلى ذكر هذه التفاصيل عند الكلام عن المطر الصناعى .

وفى واقع الأمر نجد أن للسحب أنواعاً تكاد لا تعد ولا تحصر ، فكما أنه لا تتشابه وجوه البشر ورؤوس الحيوانات والجبال والجزر والطيور والخضر ، فكذلك لا سبيل لتشابه سحابة بأخرى ، هذا بالإضافة إلى أن شكل أى سحابة فى تغير مستمر ، ومع ذلك فقد عمد العلماء إلى تقسيمها تبعاً لارتفاعها عن سطح الأرض إلى سحب منخفضة ومتوسطة الارتفاع وعاليه . ويتضمن كل قسم من هذه الأقسام أنواعاً شتى من

* يعنى أن البخار العالق فى الهواء يكون أكثر مما يلزم ويتم تكاثف جزء منه لتحدث حالة التشبع العادية .

السحب حسب طبيعة تكوينها أو تركيبها الرأسى .

والاسم العلمى للسحب العالية هو (السيرس) وقد سماها العرب السمحاق . أما الاسم العلمى للسحب التى تتراكم طبقاتها بعضها فوق بعض فهو (الكيوميولس)، وهو المعروف عندنا باسم السحاب الركامى وهذه هى السحب الممطرة التى تلازم خطوط الهبوب والعواصف . ويشير إليها القرآن الكريم فى عدة مواضع منها مثلا : « ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » — سورة النور — .

وعادة يظهر من السحب الركامية أكثر من خلية أو وحدة ، ثم يتم التآلف بين كل خليتين أو أكثر لتظهر السحابة الركامية التامية تماماً كما تذكر الآية الكريمة . ومن هذه السحب دون سواها ينزل البرد، لأنه يتكون داخلها ويسمح امتدادها فى الاتجاه الرأسى بهذا التكوين الفريد .

والسمحاق سحاب عال لايقل ارتفاعه فوق سطح الأرض عن أربعة أميال عادة، ونظراً لانخفاض درجة حرارة الهواء على تلك الارتفاعات انخفاضاً كبيراً فإن مكونات هذه السحب من بلورات الثلج . وأحياناً يطلق على هذه السحب اسم « ذيل الفرس » لشبه بينها وبين ذيل الفرس الأبيض . ويظهر سحاب السمحاق غالباً فى مقدمة الأعاصير وقبل حلول موجات الحر ، وخصوصاً فى مقدمة التقلبات الخماسينية فى فصل الربيع وأوائل فصل الصيف عندنا .

أما السحب الركامية فهى تتواجد على ارتفاعات أقل من ذلك بكثير رغم أن قممها قد تمتد رأسياً إلى علو عشرة أميال . وتأخذ هذه السحب فى بادئ أمر تكوينها شكل قباب القطن ذات القواعد المسطحة . ويحدد هذه القواعد مستوى التكاثف بطبيعة الحال . وعندما تنمو كل سحابة تشمخ إلى عنان السماء . وفى العادة يستمر نمو هذه السحب فى الاتجاه الرأسى حتى تكاد تمتلىء بها السماء . وإذا ما عمدت الى النظر إليها خلال الفجوات التى تفصلها بعضها عن بعض أمكنك أن ترى قممها الناصعة البياض وهى لا تزال تنمو رأسياً ، وقد يتساقط منها المطر على هيئة رخات . وما الفجوات التى تفصل بين السحاب الركامى سوى مناطق هبوط الهواء ، أما السحب نفسها فهى مناطق الصعود . وهذه قد يهتم بها الطيار ، خصوصاً إذا كانت التيارات الرأسية شديدة كما يحدث عندنا أحياناً فوق المناطق الشمالية وطورسيناء عندما تهب على البلاد موجه باردة ممطرة مقبلة عبر شرق البحر المتوسط .

وإذاً فإن السحب الركامية قد تصاحب الجو العاصف ، رغم أنها كثيراً ما تتكون فى حالات الطقس غير المضطرب . وأحياناً يؤدى نموها إلى تكوين العواصف ، خصوصاً عواصف الرعد . وعندما تكون السحب العاصفة هذه بعيدة عنا بعداً كافياً يسمح بالنظر إليها من أحد جوانبها فى مثل هذه المرحلة نستطيع بسهولة أن نصف شكل قممها بما يشبه السندان ، وتكون هذه القمم قد وصلت إلى مناطق التجمد فى حين ينهمر المطر الغزير على هيئة رخات شديدة تهطل بين قواعدها المظلمة لوفرة ما يتراكم فيها من نقط الماء النامية . هذا وقد يكون هذا

المطر مصحوباً بالبرد كذلك .

وقديماً تصور الإغريق فيما تصوروا أن الرعد يحدث عندما يطرق الإله زيوس السندان بمطرقته وقد تملكه الغضب ، أما البرق فهو الشرر المتطاير من عظم التصادم ! وحتى عهد قريب كان الناس يتصورون أن الرعد ينتج عن احتكاك السحب ببعضها البعض ، وذلك بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة فحواها شحن السحب بالكهربائية عندما تنساب بجوار بعضها ، تماماً كما نحصل على شحنة كهربائية عندما ندلك قضيباً من الزجاج بقطعة من الحرير ، إلا أن التجارب المعملية أثبتت خطأ ذلك كله وأظهرت أن الشحنة الكهربائية تنتج عن تكوين الجسيمات الثلجية ونموها سريعاً ومنها البرد بالذات .

وتسبق السحب الركامية متوسطة الارتفاع هبوب الهواء البارد ، وخاصة فى الطبقات العليا ولهذا فإنه عندما يشتد الحر فى يوم من أيام الخماسين القاسية تستطيع أن تتبين بنفسك قرب انتهاء موجة الحر عندما ترى السحب الركامية المتوسطة قد انتشرت فى بعض أرجاء السماء . ونصيحتى لك أن تعمد بنفسك إلى استخدام هذه القاعدة ، ولكى نزيدك علماً نقول إن هذه السحب تبدو على شكل كتل كروية تعطى ظلا إذا كانت سميكة ، كما تظهر فى صفوف متراصة أو على شكل متموج يمكن التعرف عليه بسهولة .

وجدير بالذكر أن قصة التكاثف كما سقناها لا تعطينا الصورة كاملة ، إذ يدخل فى تكوين السحب والضباب كذلك عامل آخر هام هو جسيمات سائلة أو صلبة صغيرة تنتشر فى الجو وتسمى نوبات

التكاثف . فمجرد خفض درجة الحرارة فى هواء رطب نقى تماماً من الشوائب لا يكفى فى حد ذاته لحدوث التكاثف ، ولا بد من توفر عامل آخر هو تواجد ما يعمل على تماسك أو تجمع جزيئات بخار الماء العالقة فى الهواء مع بعضها البعض لتكون نقط الماء أو بلورات الثلج . ويلزم لتكوين أصغر نقطة من الماء نحو ١٠٠ جزىء على الأقل . وليس من السهل تراكم مثل هذا العدد مع بقائه متماسكاً على نطاق واسع ما لم توجد الظروف الملائمة وهى انتشار نويات التكاثف فى الجو . وهذه النويات هى غالباً أجسام قابلة للذوبان فى الماء أو هى تمتصه كما هو الحال مع مسحوق ملح الطعام أو كلورور الكلسيوم أو الأحماض . . .

والواقع أنه تنتشر فى الجو ، خصوصاً الطبقات السفلى منه ، كميات وفيرة من الجسيمات الصغيرة ، وهى أشبه ما تكون بالذرات التى نراها تسبح فى حزمة من أشعة الشمس داخل غرفة مقفلة . ومصدر هذه الجسيمات هو ما تذروه الرياح من غبار الأرض وأتربها ، وما يتطاير من أملاح البحار مع رذاذ الأمواج ، وما تقذف به البراكين إلى الجو من أكاسيد وأحماض وأتربة ، وما ينجم عن احتراق الشهب فى أعالى جو الأرض . وكثيراً ما تسبح هذه الشهب فى الفضاء على هيئة أسراب أو أكداس متلاحقة ، وما إن تدخل الأرض فى سرب منها حتى تهوى الشهب فى الجو بلا هوادة مكونة أنواعاً من الأكاسيد هى أجود أنواع نويات التكاثف . وبطبيعة الحال ترسب هذه الأكاسيد كلها إلى جو الأرض السفلى بفعل الجاذبية . ولهذا السبب بالذات يذهب بعض العلماء إلى التكهن بأن السنين المطيرة التى تعم فيها الفيضانات ويهطل المطر

بلا هوادة هى تلك التى تتأتى فى أعقاب دخول الأرض فى سرب سميك من أسراب الشهب السابحة فى الفضاء .

هذا ومن الجائز أن تكون بعض نوى التكاثف من حبوب اللقاح أو البكتيريا أو الحب الدقيق جداً ، وقد يتكون بعضها بفعل البرق أو دخان المصانع أو الانفجارات الذرية . وفى هذه الحالة الأخيرة يكون المطر محملا بإشعاعات ذرية فتاكه لا تبقى ولا تذر إذا ما تواجدت بنسبة عالية . ومن هنا جاء تحريم التجارب الذرية .

ولعلنا نتبين من ذلك أن تلوث الهواء بمثل هذه الشوائب إنما يتوفر داخل المدن وفى المناطق الصناعية ويقل فى الأرياف . فى المدن التى يكثر فيها الدخان — مثل لندن — قد تصل درجة تركيز هذه الجسيمات حدود ١٠٠ ألف جسيم لكل سنتيمتر مربع واحد من الهواء ! أما فى حالات عواصف الرمال المألوفة فى المناطق الصحراوية من أفريقيا وجزيرة العرب مثلا فقلما تصل درجة التركيز إلى هذه الحدود كذلك ، إلا أنها تكون عادة أقل بكثير . ويلاحظ أيضاً أن رمال الصحارى وأتربتها لا تمتص الماء ولا تصلح فى الغالب لأن تكون نوى تكاثف مثالية .

وفى أعقاب النشاط البركانى يمتلىء جو الأرض بكثير من هذه الشوائب . فى عام ١٨٨٣ مثلا عندما نسفت البراكين جزيرة كراكاتوا التى كانت تقع فى جنوبى شرق آسيا ، وصل رمادها إلى علو ٢٥ كيلومتراً ، كما امتد أفقياً فى صورة سحابة سوداء طولها ٢٥٠ كيلومترا . ولقد ظلت الرياح تحمل سحباً رقيقة بنية اللون من رماد كراكاتوا هذه وتنقلها إلى شتى أرجاء الأرض خلال شهور عديدة أعقبت ذلك التاريخ .

٤ ــ العواصف

ليست كل العواصف ضارة كعواصف الرمال ، بل إن منها المفيد كعواصف الرعد . والرعد أكثر العواصف تواجداً على الأرض ، إذ يحدث منه نحو ٤٤ ألف عاصفة كل يوم فى المتوسط . وهو شائع ومألوف فى المناطق الرطبة الحارة ، ويكاد ينعدم فى المناطق القطبية .

وليس عجيباً أن نجد البرق والرعد والصواعق هى أكثر ما يلفت أنظار الناس من بين ظواهر الجو الطبيعية ، فقديماً خاف الناس منها ولا شك . وكما قلنا ذهب الإغريق فيما ذهبوا إليه أن كبير الآلهة الغاضب كان يقذف بالصواعق التى يصهرها له الحداد الأعرج فالكان ، أما اليوم فكل شخص يعرف أن البرق ما هو إلا شرارة كهربية هائلة ناجمة عن التفريغ الكهربائى بين شحنات السحب التى يتكون فيها الثلج وعلى الأخص حبات البرد ، أما الرعد فهو الدوى الذى يصحب تمدد الهواء الفجائى عندما ترتفع درجة حرارته بمرور البرق فيه ثم صدى هذا الدوى من السحب والمرتفعات التى على سطح الأرض . وإذا ما حدث التفريع بين السحابة والأرض سميت الظاهرة صاعقة . وإذا ما أصيب شخص بمس من صاعقة وجبت المبادرة لإجراء التنفس الصناعى له لمدة لا تقل عن ساعة ، فكثيراً ما تفيد هذه العملية . وهناك مانعة الصواعق وهى عبارة عن شاخص من النحاس طرفه العلوى مدبب أو مسنن يثبت على قمم المبانى ويتصل من أسفل بسلك معدنى غليظ ينتهى بلوح من

المعدن مدفون فى باطن الأرض الرطبة لكى يكون ممراً طليقاً تسرى خلاله الشحنات الكهربية إلى باطن الأرض أولا بأول فلا تصيب الصواعق المناطق المجاورة .

وفى العادة تتمخض عاصفة الرعد الواحدة عن عدة آلاف عملية من عمليات التفريغ الكهربى (البرق) . وقد يصل طول الشرارة الواحدة . نحو كيلومترين عندما يتم التفريغ بين السحب والأرض . وعواصف الرعد هى التى تمدنا بالمطر الذى هو مصدر المياه العذبة على الأرض ، كما أن للبرق بعض المزايات منها أن شرارته تحول غازات الجو الذى حوله إلى غازات النوشادر وأكسيد النيتروجين . وقد تذوب النوشادر فى ماء المطر الذى يغذى الأرض . وكذلك تتحول أكاسيد النيتروجين بالماء إلى حامض النيتريك ، وهذا يكون مع مواد الأرض نترات طبيعية أو سماد لا غنى عنه للتربة الزراعية .

وبطبيعة الحال لا يمكن رؤية البرق وسماع الرعد فى لحظة واحدة ، وذلك لأن ضوء البرق ينتقل بسرعة تزيد على سرعة انتقال صوت الرعد بنحو مائة ضعف ، ولهذا السبب يصلناوميض البرق أولا . ويمكن حساب بعد العاصفة عنا بقياس عدد الثوانى التى تمضى بين لحظتى رؤية البرق وسماع الرعد . ولما كان الصوت يستغرق فى قطع الميل الواحد نحو خمس ثوان ، فإننا نجد أنه إذا كانت المدة التى تمضى بين رؤية البرق وسماع الرعد هى ١٥ ثانية تكون العاصفة على بعد نحو ثلاثة أميال منا .

أما الإعصار فهو من العواصف المدمرة التى تألفها بعض مناطق الأرض ، .وهو يقبل كما تقبل نافورة الماء سواء بسواء ، إذ يرى

الناس سحابة سميكة مظلمة تقترب من بعد . وعندما تصير غير بعيد يرى الناس قمعاً يتدلى من السحاب إلى الأرض على هيئة خرطوم الفيل الذى يتلوى متنقلا من هنا إلى هناك ، وكأن هذا الخرطوم يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى ، وحيثما يلاقى سطح الأرض يكتسح معه كل شىء وسط جلبة وضوضاء لا نظير لهما — راجع شكل (٢) .

وعندما يبصر الناس هذا المنظر لا يفكرون إلا فى شىء واحد ألا وهو النجاة ، والنجاة فقط غير مبالين بملك أو متاع . وعندما يسير القمع إلى اليمين أو إلى اليسار فإن الإعصار (التورنادو) غالباً ما يمر فى سلام ، أما اذا بدت التورنادو لا تتحرك فإن معنى ذلك أنها مقبلة لا محالة ، أو أنها تبتعد عنهم . وفى ولاية تكساس وبعض المناطق الأخرى من الولايات المتحدة الأمريكية التى تجتاحها هذه الأعاصير يشيد القوم المخابئ التى يعرف كل مخبأ منها باسم (قبو الإعصار) بالقرب من المساكن الريفية ، وهم يمكثون فيها حتى يمر الإعصار . وفى العادة لا يستغرق مروره مدة طويلة ، فهو يتحرك بسرعة تتراوح بين ٣٠ ، ٦٠ كيلو مترا فى الساعة ، مما يعمل على البت فى أمر مروره على أى مكان ما خلال فترة لا تعدو نصف الدقيقة ، إلا أنه خلال هذه الفترة يكون قد أحدث تلفاً مريعاً . ففى وسع (التورنادو) أن تحصد كل ما تمسه من المنشآت والمبانى وتسويه بسطح الأرض إلا بطبيعة الحال المساكن المسلحة الحديثة المتينة الأساس.

ومن الناس من يطلقون على (التورنادو) اسم البارم ، وذلك لأن الرياح تدور من حوله وتلف بصوت يصم الآذان وسرعة تزيد على ٥٠٠ ميل فى الساعة فى بعض الأحيان ، وكأنما الهواء يسرع متدفقاً إلى المركز

الذى تجتاحه تيارات صاعدة تصل سرعتها إلى ما يربو على ٢٠٠ ميل فى الساعة الواحدة !

وفى العادة يقضى القمع على كل ما يمسه ، وفى الواقع لا يقتصر التلف على ما تطيح به الرياح العاصفة مما يعترض سبيلها ، ولكن الضغط الجوى داخل القمع يكون منخفضاً جداً بالنسبة إلى ما جاوزه ، بحيث تنفجر البيوت والمخازن والصوامع وتتناثر أجزاؤها ومحتوياتها بمجرد مرور القمع بها ، تماماً كما تنفجر البالونات عندما تصعد إلى عنان السماء. والذى يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال هو أن تندفع منبثقة إلى الخارج جدران المبانى وأسقفها عندما يصير الضغط الجوى داخلها أكبر بكثير من الضغط داخل الأعصار أثناء مروره بها أو حفيفه لها . وفى نفس الوقت تعمل تيارات الهواء الصاعد فى قلب الإعصار على التقاط كل ما يصادفها من الأجسام وحملها إلى أعلى حتى الثقيل منها ، كالسيارات والناس والخيل والماشية ، وقد تهبط بهم بعد ذلك عندما تهدأ التيارات الصاعدة ولم يمسسهم ضرر! أليس ذلك من عجائب الأرض والسماء ؟!

والسر فى تكوين الأعاصير هو إلتقاء تيارين من الهواء تختلف خواصهما الطبيعية تماماً : فبينما يهب أحدهما من الجنوب مثلا محملا بالحرارة وأبخرة المياه ، إذا بالآخر يقبل من الشمال وقد تميز بالبرودة والجفاف. وتتولد الطاقة اللازمة لنشاط الإعصار عن الفروق العظيمة بين خواص التيارين ، وكذلك عن عواطف الرعد والبرق التى تلازم المطر الغزير فى الهواء الرطب عندما يزاح إلى أعلى فى شدة وعنف . وتبدأ الدوامة عملها على بعد من سطح الأرض وحيث تتكون السحب ، ومن ثم تدور

الرياح ويشتد د ورانها حول المركز الذى يتولد حتى تصل درجة تفوق حدود الوصف والخيال .

وجدير بالذكر أن مسار هذا الإعصار لا يزيد عرضه على ألف قدم فى المتوسط ، وقلما يزيد طوله على ٢٥ ميلا ، مما يجعل التلف محدودا ، ويحول دون حدوثه على نطاق واسع . أما أعاصير المناطق الاستوائية فهى أشد دماراً وأعمق أثراً ، ولذلك يطلقون « عليها اسم (النكباء) ، إلا أنها أقل جلبة وضوضاء . وهى تغطى مساحات واسعة قد تزيد على عشرة آلاف كيلو متر مربع ، وبدلا من أن يستغرق مرورها نحو نصف دقيقة كما قلنا نجدها تمكث فى المكان الواحد نحو يوم كامل قبل أن تغادره إلى مكان آخر . ومثل هذه العواصف وصفها البحارة العرب عندما اعترضت سبيلهم فى بحار آسيا وأفريقيا وجزرهما .

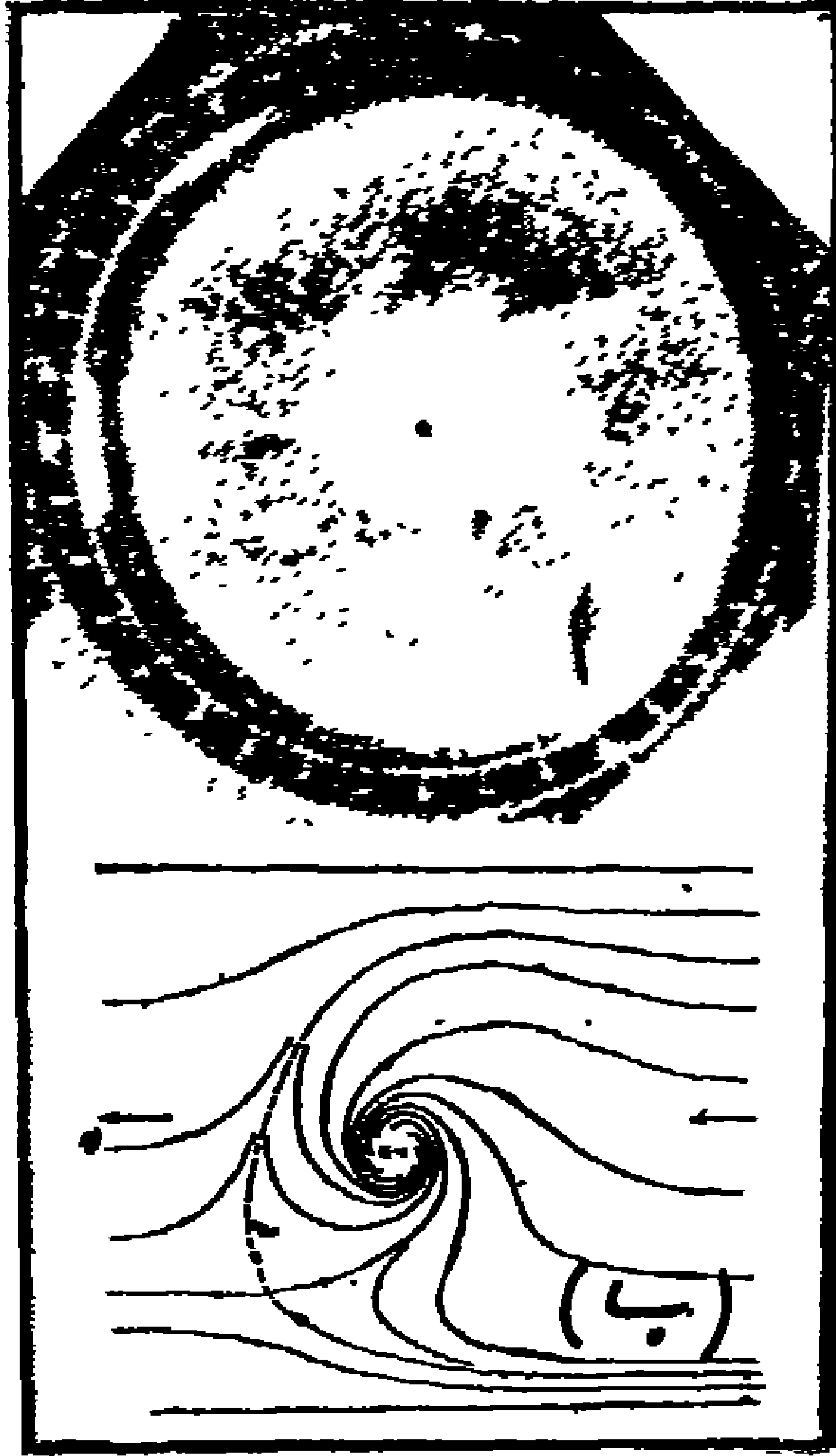
وعادة تتولد الأعاصير الاستوائية على المحيط القريب من خط الاستواء ، وتدور الرياح حول « المركز تماماً كما تدور حول مركز التورنادو ، مع عدم توفر التيارات الصاعدة التى تنشأ فى مركز التورنادو ، ولذلك يسود مركز الأعاصير الاستوائية الهدوء ويعم السلام ، وتعرف هذه المنطقة باسم عين الإعصار ، وعلى القرب منه تهب رياح عاتيه جبارة قد تصل سرعتها ٢٥٠ كيلومترا فى الساعة الواحدة ، وقد تصحب هذه الرياح أنواء تزيد فيها السرعة على ٤٠٠ كيلومترا فى الساعة .

وعندما تعبر سفينة مركز الإعصار الهادئ أو عين الإعصار يمكن سماع أصوات الرياح الصاخبة من حولها بكل وضوح . وعادة تصفو

السماء إلى حد ما فى المركز ، فإذا ما كانت الدنيا نهاراً نفذت أشعة الشمس وظهرت أطراف السحب فى الأفق واضحة جلية ، أما فى الليل فإنه يمكن رؤية النجوم .

ومن حسن الحظ أن الأعاصير الاستوائية قلما تسير فوق اليابس ، فهى عندما تقبل إلى الأرض تحدث تلفاً بالغاً جداً ، إذ تهدم البيوت وتطيح بالأشجار من جذورها . ومن عجيب أمر هذه الأعاصير أن أغلب ما تزهق من أرواح يرجع إلى أمواج البحر العظيمة التى تنساب كجدار ضخم من الماء تدفعه أمامها الرياح العاصفة وتسوقه إلى مناطق السواحل المنخفضة على حين غرة . ومن أمثلة ذلك أمواج البحر التى باغتت إحدى مدن كوبا عام ١٩٣٢ وأغرقت ٢٥٠٠ شخص ، وموجة خليج البنغال التى قضت على ٢٥ ألف شخص ، ثم موجة نفس هذا الخليج التى أزهقت ٣٠٠ ألف شخص . أليس هذا هو الطوفان ؟!

ومهما يكن شىء فإنه لا توجد على الأرض عاصفة تحمل الإنسان على الشعور بضآلته وقلة حيلته مثل العاصفة الاستوائية ، وبديهى أن من صادفها لن ينساها طول حياته . وفى هذا العصر الذى استخدم فيه الإنسان الطاقة الذرية والنووية وأطلق الصواريخ لتصل إلى أعالى الجو نجده يعقد بعض الأمل للسيطرة على خط سير التورنادو ، إلا أن الأمل ضعيف فى السيطرة على الأعاصير الاستوائية ويبين شكل (٦) صورة فوتوغرافية أخذت بالردار لعاصفة من هذا النوع . ويرى مركز الإعصار والسحب المتجمعة من حوله ، علماً بأن العلامات المبينة فى الشكل من حول الإعصار تمثل كل مسافة منها ٥٠ كيلو متراً . أما شكل (٦ب)



شكل (٦) ا ، ب

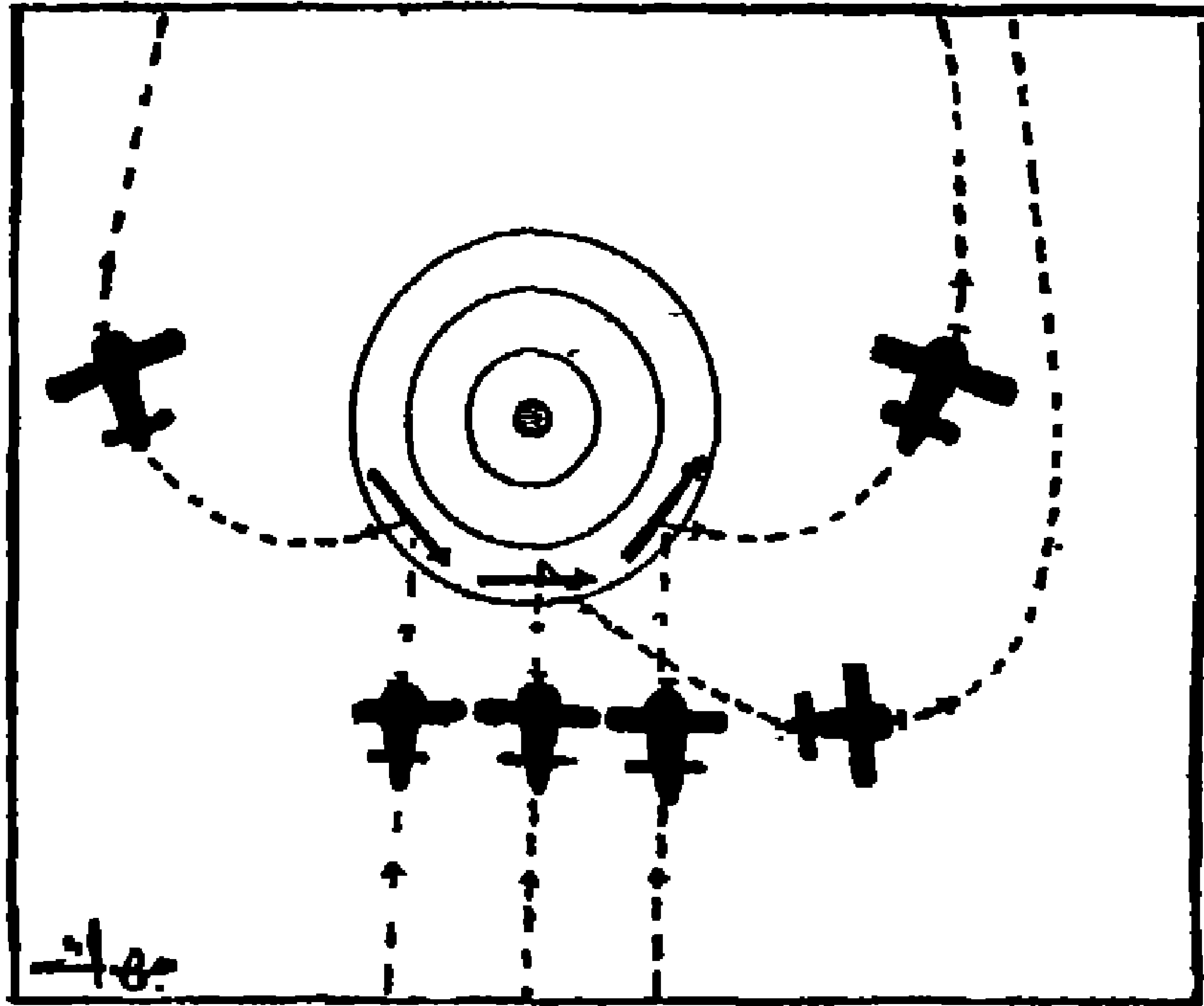
الإعصار الاستوائى

(النكباء)

فهو يبين خطوط انسياب الهواء حول الإعصار .

ومجمل القول أن الطاقات التى تصاحب الإعصار الاستوائى تبلغ من الكبر والضخامة ما يجبر الإنسان على التخاذل أمامها وعدم التفكير فى السيطرة عليها حتى ولو كحلم من الأحلام التى يتصور فيها استخدام مئات القنابل الذرية بل والآلاف منها ! فمثل هذه القوى فوق مستوى البشر اليوم ، وستظل هكذا إلى الأبد . وما علينا إلا أن نكتفى بعمليات

الرصد والتتبع وعمل التنبؤات والإنذارت ونبين كيف نتجنب الدخول فى أعصار كدنا نقع فى قبضته — شكل (٧) .



شكل (٧) تجنب الدخول فى النكباء

أما عواصف الرمال ، فهى من ظواهر الطبيعة فى المناطق الصحراوية ، والسبب الرئيسى فى تكوينها هو أزدياد سرعة الرياح فوق حد معين يعرف علمياً باسم « الرياح الحرجة » . فكلما ارتفعت سرعة الرياح على المناطق الصحراوية كلما قلت قدرة الأتربة والرمال الدقيقة على الاحتفاظ بأوضاعها على سطح الأرض ، حتى إذا وصلت سرعة الريح إلى السرعة الحرجة تطايرت بعض هذه الجسيمات مندفعة إلى الهواء لتسير معه ، وكلما زادت سرعة الريح بعد ذلك تطايرت الرمال بكميات أكبر ، كما تزداد حجومها حتى تصل الريح إلى درجة العاصفة

فيكون الجو قد امتلأ بالأتربة المختلفة الحجوم والصفات .

وتتوقف السرعة الحرجة على حجوم حبات الرمال السائدة وعلى طبيعتها ، ولهذا نجد لكل منطقة سرعتها الحرجة الخاصة بها . وقد تتغير هذه السرعة إذا ما تغيرت حجوم الحبيبات بسبب السيول كما يحدث فى الوديان المنخفضة ، وهى ظاهرة شائعة فى سهول السودان عقب أمطار الصيف أذ تجلب السيول معها الوفير من الحبيبات الدقيقة ذات الألوان المختلفة . فإذا ما جفت هذه الحبيبات أصبحت سهلة التطاير والتناثر بفعل الرياح الشديدة ، وهذا هو منشأ هبوب السودان المعروف عندما تقبل العاصفة الترابية على هيئة جدار سميك يحجب أشعة الشمس. وقد لوحظ فى الخرطوم مثلا أن الترسبات التى تجلبها السيول تؤثر تأثيراً ظاهراً على شدة الهبوب ونوع الجسيمات العالقة فى الهواء العاصف .

وهناك عوامل تؤثر على الرياح الحرجة هى من صنع الإنسان . ومن أمثلة ذلك ما حدث مثلا فى برج العرب قرب الإسكندرية بين عامى ١٩٤١ و ١٩٤٥ عندما نشطت فى تلك المنطقة أعمال الوحدات الميكانيكية الحربية التى تمخضت عنها موقعة العلمين المعروفة . ويبين الجدول المعطى كيف أثر صغر حجم حبيبات الرمال الصحراوية التى طحنتها الوحدات الميكانيكية الحربية فى تلك المنطقة أثناء إعداد العدة لموقعة العلمين على السرعة الحرجة وأدى إلى تناقص متوسط السرعة اللازمة لتولد العواصف الرملية ، وكيف أن مدى الرؤية (وهو مقياس شفافية الهواء) تأثر بهذا العامل فى العامين ١٩٤١ و ١٩٤٢ ثم تحسن بعد ذلك عموماً بانتهاء العمليات الحربية .

السنة	مدى الرؤية من ٢٠٠ إلى ٧٠٠ متر	متوسط سرعة الرياح ستيمتر فى الثانية	مدى الرؤية من ٧٠١ إلى ١٥٠٠ متر	متوسط سرعة الرياح ستيمتر فى الثانية
١٩٤١	٣١	٧٢٠	صفر	—
١٩٤٢	٢٦	٨١٠	صفر	—
١٩٤٣	٠٤	١٢٦٠	صفر	—
١٩٤٤	١٦	١٢١٠	٢٠	٧٤٠
١٩٤٥	٠٢	١٥٧٠	٣	١١٢٠

وتتولد عواصف الرمال عادة نتيجة لازدياد سرعة الرياح مع توفر التيارات الرأسية أو حركة الهواء التى لا ينساب فيها فى اتجاه أفقى فقط ولكن تكون الحركة غير انسيابية . وإذا ما اشتدت الحركة الرأسية تحدث أعنف حالات عواصف الرمال ، ومن أمثلتها هبوب السودان ، إذ تسبب عواصف الرعد تبريد الهواء ، فتتكون كتلة هوائية باردة تعمل على إزاحة الهواء الساخنة بعنف إلى أعلى ويكون الحد الفاصل بين الكتلتين هو خط الهبوب * .

وعلى أية حال فإنه يمكن تقسيم عواصف الرمال إلى نوعين :

١ ــ عواصف الاستقرار الجوى ، وهى التى تحدث من غير أن

* الهواء الساخن الجاف إذا ما أضيف إليه الماء حدثت عمليات البخر على نطاق واسع ، ويمتص الماء الحرارة اللازمة لتبخيره من الهواء ، فيبرد هذا الأخير سريعاً . ولهذا السبب فإن عواصف الرعد التى تعطى مطراً غزيراً هى من أهم العوامل التى تولد الهواء البارد فى المناطق الاستوائية .

تتوفر فى الجو تيارات رأسية عنيفة ومن أمثلة ذلك بعض العواصف المحلية التى تتولد فوق الصحارى عندما تسود الانقلابات الحرارية فى الصيف على أبعاد قريبة من سطح الأرض . والمقصود بالانقلاب الحرارى أن درجة الحرارة بعد مسافة معينة (نحو ٢٠٠ ــ ١٠٠٠ متر) تزداد بازدياد الارتفاع بدلا من أن تتناقص كما هو معهود فى طبقة التروبو سفير راجع شكل (٤) ومن عجيب أمر الانقلاب الحرارى أنه يعمل كغطاء !

وكما تعمل هذه الإنقلابات الحرارية على منع تسرب أبخرة المياه إلى طبقات الجو العليا فهى كذلك تعمل على عدم تسرب الأتربة من الطبقات السطحية إلى أعالى الجو ، وبذلك تحتفظ طبقات الجو السفلى بما يضاف إليها من أتربة الصحارى ورمالها ولا توزع خلال طبقات سميكة فتبدو متربة إلى حد كبير ويزيد هذه الظاهرة وضوحاً ازدياد سرعة الرياح فوق السرعة الحرجة على المناطق الصحراوية . ولهذه الدراسة أهميتها فى أعمال تخطيط المدن والمنشآت ، خصوصاً ما يتعلق منها بالصحة والصناعة .

وكثيراً ما تتلوث الطبقة السطحية بحيث تهبط الرؤية فيها الى أقل من ألف متر من غير أن تتعدى سرعة الريح ٢٥ كيلو متراً فى الساعة .
المتفق عليه دولياً من أجل سلامة الطيران أنه إذا ما انخفضت الرؤية لى أقل من ألف متر سميت الحالة عاصفة رمليه ، مع توفر السرعة الكافة للرياح بطبيعة الحال .

ومن هذه العواصف أيضاً ما تثيره تيارات الهواء القارى الحار التى تهب حول الانخفاضات الجوية الصحراوية فى فصل الربيع . وتأتى هذه

التيارات من قلب الصحارى وتجمع أثناء سيرها الوفير من الرمال والأتربة. وتتوقف درجات تركيز هذه الرمال فى مثل هذه التيارات على سرعة الرياح التى قد تصل أحياناً إلى ٧٠ كيلومترا فى الساعة .

وتنقل عواصف الرمال ملايين الأطنان من الغبار إلى أوربا عبر البحر المتوسط كل عام . وقد تصل أحياناً إلى بحر البلطيق والجزائر البريطانية شمالا . وكثيراً ما تترسب هذه الأتربة مع المطر فتلوثه وتكسبه لون الرمال الأصفر . ويروى لنا التاريخ كثيراً من مآسى هذه العواصف وأهوالها . فمثلا لما أراد قمبيز ملك الفرس فتح سيوه (وكانت عامرة بالحضارة فى ذلك الحين) ثارت رياح الخماسين وعواصفها الرملية عليه وعلى جيشه أياماً متوالية وهم فى قلب الصحراء الغربية فأهلكتهم عن بكرة أبيهم .

٢ ـــ عواصف حالات عدم الاستقرار الجوى . ومن أهم أنواع هذه العواصف وأعمها ما تثيره الجبهات الباردة عند مرورها فوق الصحارى من أتربة ورمال ـــ راجع شكل (١٥) ـــ . ومعنى عدم الاستقرار الجوى نشاط التيارات الرأسية .

ولقد أجريت عدة قياسات لدرجات تركيز وحجوم الحبيبات العالقة فى الأجواء المتربة المختلفة لأول مرة فى جمهوريتنا بمعرفة المؤلف ، وذلك باستخدام أجهزة خاصة . وقد قسمت هذه الأجواء إلى أنوع ثلاثة هى :

١ ـــ الشابورة الترابية (الرياح ساكنة أو خفيفة ومدى الرؤية أكبر من ١٠٠٠ متر)، أى يمكن أن ترى الأشياء بوضوح على مسافات أكبر من ألف متر . وفيها متوسط قطر الحبيبة العالقة نصف ميكرون ودرجة التركيز من ١٥٠ إلى ٢٠٠ حبيبة لكل سنتيمتر مكعب من

الهواء ، علماً بأن الميكرون هو جزء من عشرة آلاف جزء من السنتيمتر الواحد . وتسبق الشابورة عادة اليوم الحار ، أى أنها غالباً من الصفات الطبيعية التى تلازم هواء الصحارى المترب .

٢ — الرمال المثارة (مدى الرؤية فوق ١٠٠٠ متر إلا أن الرياح شديدة) . وفيها يبلغ متوسط قطر الحبيبة ١,٣ ميكرون ، كما تبلغ درجة التركيز من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ حبيبة لكل سنتيمتر مكعب من الهواء فى المتوسط .

٣ — عاصفة ترابية (مدى الرؤية أقل من ألف متر) . وفيها يصل متوسط قطر الحبيبه إلى ٣ ميكرون ، كما تصل درجة التركيز إلى ٥٠٠ حبيبة لكل سنتيمتر مكعب من الهواء الجوى . وتزداد هذه النسبة كثيراً جداً كلما اشتدت العاصفة حتى تبلغ درجة التركيز عشرات آلاف الجسيمات فى بعض الحالات كما هو الحال فى هبوب السودان .

ومن اللازم أن يتم تحديد الاتجاهات التى يقبل منها الهواء المترب فى كل مدينة ، وأن تقام على مشارف المدينة المواجهة لهذه الاتجاهات مرشحات الهواء السطحى التقليدية التى قوامها صفوف متراصة من الأشجار العالية ، مع الحد من الأسباب التى تؤدى إلى طحن رمال الصحارى المحلية التى تقبل منها أغلب الرياح المتربة ، لكى تظل قيمة الرياح الحرجة المحلية عالية قدر المستطاع ، وذلك بتنظيم المواصلات على شبكة من الطرق المرصوفة ، والعمل على تجميع مياه السيول بواسطة قنوات وسدود منظمة حتى لا توجد فرصة لتراكم المساحيق بفعل المياه الجارفة ، هذا بالإضافة إلى استعمال محاليل تثبيت الرمال السطحية على مساحات

واسعة من الصحارى بالقرب من الأماكن السكنية .

وبطبيعة الحال ينساب الهواء المترب على طول الطرق المفتوحة التى تجرى فى اتجاه هبوبه ، ثم يترسب الغبار الجوى بوفرة عندما تقل سرعة الهواء الحامل له داخل القرى والمدن . ولهذا السبب نجد أن أغلب الأتربة فى القاهرة مثلا أنما تترسب فى شرفات المنازل ومداخلها الجنوبية والجنوبية الغربية .

ومن أشهر العواصف كذلك عواصف الثلج التى يعرفها ويألفها أهل المناطق الباردة . وليس الثلج كما يعتقد الناس عبارة عن المطر المتجمد ، فهو لا يمر بحالة السيولة بتاتاً ، وإنما ينتج عن تكاثف بخار الماء العالق فى الهواء على هيئة بلورات من الثلج مباشرة . وعندما نعمد إلى فحص بلورات الثلج تحت المجهر أو (الميكروسكوب) نجد أنها عبارة عن صفائح جميلة المنظر ذات أشكال هندسية رائعة ومن العسير أن تتشابه صفيحتان تشابهاً كاملا ، خصوصاً الكبيرة منها التى تتكون من العديد من البلورات . وعند ابتداء التكاثف تتكون كل صفيحة حول نواة صلبة من نويات التكاثف .

وأحياناً تنمو صفائح الثلج كثيراً . ولعل أكبر كميات رصدت منها الصفائح التى تساقطت عام ١٨٨٦ فى منتانا وكونت بقعاً واسعة بيضاء ، بلغ عرض الواحدة منها ١٥ بوصة وسمكها ٨ بوصات وفى أماكن أخرى متفرقة رصدت صفائح من الثلج كانت الواحدة منها تملأ قدح الشاى .

وفى المناطق الباردة جداً يتساقط ثلج دقيق الحجم أو على هيئة مسحوق تذروه الرياح الباردة الشديدة فيتطاير فى الجو ويملأ رئات الناس

بالحبيبات ويسبب . لها الإختناق . ولهذا يعمد القوم إلى تغطية أنوفهم .

وعلى الرغم من أن الثلج قليل الكثافة فهو قد يتراكم فى المناطق الجبلية ويسد الطرقات مكوناً آكاماً عالية جداً . ويحدث أن تنهار هذه الآكام فى عنف وقوة فتقلع الاشجار وتجرف أمامها المبانى والمنشآت . ولهذا السبب تصرف الحكومات كل عام ملايين الجنيهات فى بناء الحواجز من أجل حماية المدن والطرق . وخطوط السكة الحديد من أخطار هذه الثلوج المنهارة التى تكون أشبه شىء بالثلاجات الزاحفة .

والمعروف علمياً أنه إذا كانت ظروف الأرض الجوية تلائم تراكم الثلوج فوق بعضها البعض كل شتاء مع عدم ذوبانها . تماماً فى الربيع أو الصيف * ، فإن منسوب الماء فى محيطات الأرض يتناقص تدريجياً ، أى أن الماء ينحسر عن كثير من الشواطئ . أما عندما تزداد عمليات ذوبان هذه الثلوج التى تغطى مساحات واسعة من المناطق الباردة فإن العكس يحدث وترتفع مياه البحار على هيئة طوفان .

وفى أوربا يبدأ ظهور الثلوج عادة من ديسمبر ويختقى من مايو ، وهو يبدأ على الأجزاء الشمالية . ويندر سقوط الثلج على شمال أفريقيا فى الشتاء ، ولكن لشدة البرودة فى أعالى الجو تغطى قمم الجبال بالثلوج طول العام . ويسمى الارتفاع الذى تظهر عنده الثلوج الدائمة باسم (حد الثلج الدائم) ، يبلغ ارتفاعه نحو ١٢٠٠ متر فى النرويج ، ونحو ٢٧٠٠ متر فى الألب ، ونحو ٥٥٠٠ متر على جبال الكيمانجارو بأفريقيا ،

---

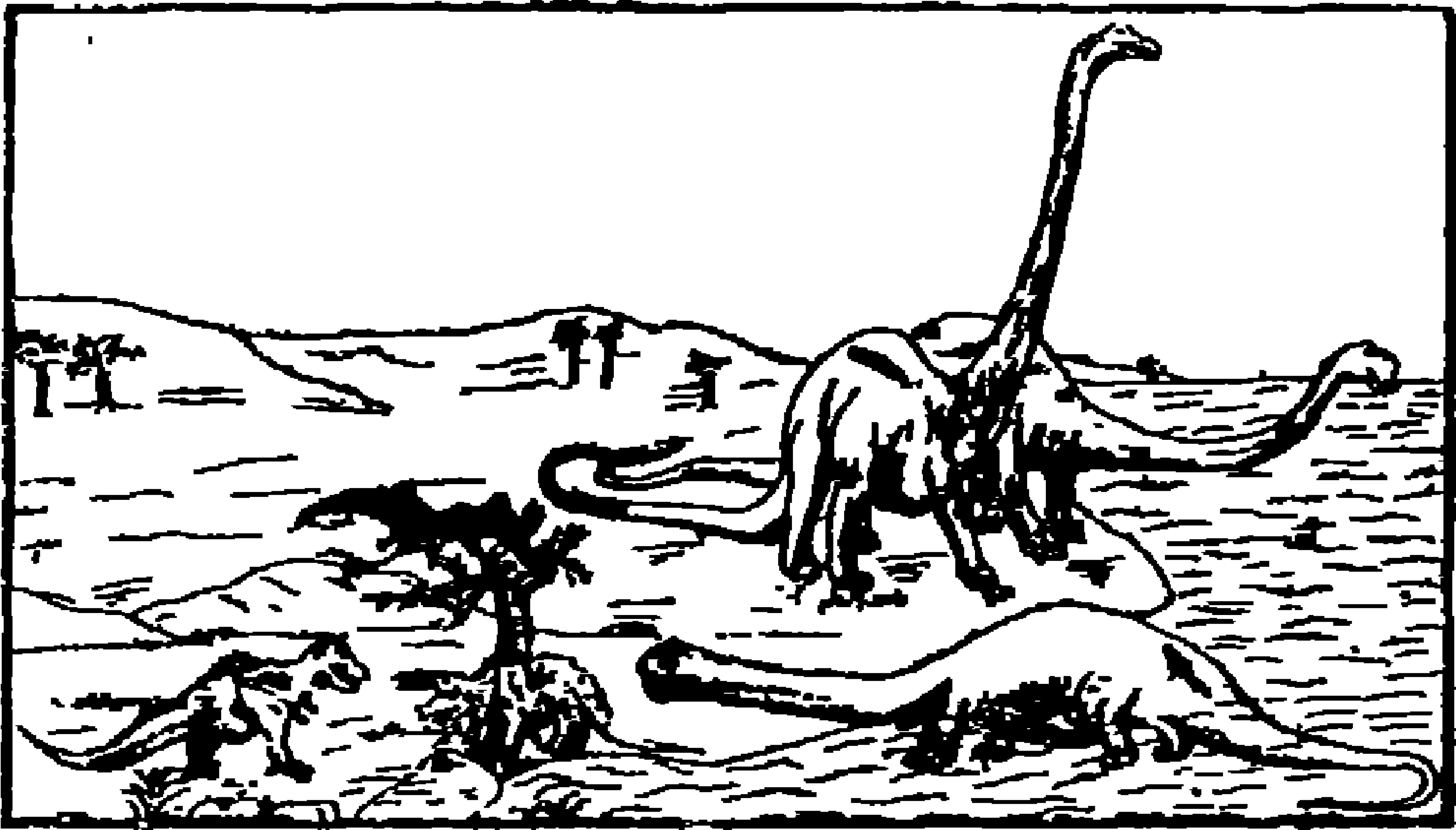
* تكون الثلوج المتراكمة فى المناطق المرتفعة منابع كثير من الأنهار التى تفيض فى الربيع عند ما تذيب حرارة الشمس هذه الثلوج عقب انتهاء الشتاء .

ونحو ٦٥٠٠ متر على جبال مكسيكو . . . وهكذا يتغير ارتفاع هذا الحد الدائم بتغير المكان على سطح الأرض . والمعروف أن كميات الثلج المتراكم طول العام تتغير بتغير نوع وطبيعة الرياح السائدة وكذلك التعرض للأشعاع الشمسي . وقد يتساءل المرء : هل يمكن أن يزحف الثلج تدريجياً من القطبين إلى خط الاستواء حتى يعم الأرض كلها جو قطبي بارد ؟ هذا ما سنتعرض للحديث عنه فيما بعد .

٥ ــ هل نحن مقبلون على جو استوائى عام ؟

المعروف أن الأرض خلال الثلث مليون سنة الأخير من عمرها مرت بعدة عصور جليدية ، كانت هى السبب فى إبادة دولة الزواحف الكبرى ــ شكل (٨) ــ وتثبيت الريش على الأرض ليكون غطاء يقى الجسم ويحفظه من التقلبات الجوية العنيفة . وظهر كذلك الشعر والفراء للتدفئة وحفظ درجة حرارة الجسم أثناء العمل أو القيام بأى نشاط كل ذلك كان احتياطاً من الظاهر أو خارج الجسم فى بادئ الأمر .

والأغلب أنه فى كل عصر جليدى كانت الطبيعة تحاول أن تمد كائنات الأرض بما يبقى على حياة بعضها ،حيث كان ينتاب مناخ



شكل (٨) الزواحف الكبرى

الأرض تغيير شامل تدريجى ينتهى بعصر شديد البرودة يزحف فيه الجليد الشمالى إلى الجنوب ثم يعود فينقشع . وكانت كل فترة كهذه بمثابة امتحان جديد لا هوادة فيه لكافة أنواع الحياة على الأرض . ولم ينج من هذه المحن الكبرى سوى الحيوانات الصغيرة التى هى أسلاف الطيور والثدييات .

والثدييات أعلى مراتب الحيوان . وعنوان رقيها هو الدم الحار الذى يعمل على ثبوت درجة حرارة أجسامها مهما تغير الجو الخارجى ، وكذلك كسوتها الأنيقة الدافئة من الشعر أو الفراء ، بالإضافة إلى غريزة الأمومة فيها والعناية بالصغار ورعايتها لها كما هو معروف .

وحديثاً تمت دراسة أسباب ظهور تلك العصور الجليدية التى لم تكن تعرفها الأرض من قبل خلال عمرها الطويل الممتد إلى أكثر من نحو عدة بلايين سنة منذ نشأتها الأولى . وفى سبيل ذلك ظهرت نظريات عديدة ، تفسر هذه الظاهرة الطبيعية التى تحكمت . فى الحياة على الأرض ، والتى سوف تؤثر على الإنسان بعد أن تربع على عرش الحياة .

فعندما يقبل العصر الجليدى ينخفض منسوب الماء فى البحار والمحيطات ، وذلك نظراً لتحول أبخرة المياه المتصاعدة بين أسطحها إلى جليد يكسو المناطق الباردة أو المرتفعة ، ويزحف من القطبين إلى خط الإستواء على هيئة ثلاجات أو أنهار من الجليد تتدفق وسط العواصف الثلجية والأهوية الباردة المتجمدة . أما عندما يتراجع العصر الجليدى نجد أن البحار تفيض تدريجياً ، ويرتفع منسوب الماء ويغرق السواحل ، وقد يستمر الأمر على هذا الحال حتى يسود أغلب الأرض جو استوائى رطب .

والمعتقد إلى حد كبير أن مثل هذا المناخ الاستوائى هو عين ما نحن مقبلون عليه فى العصر المقبل ، وذلك نظراً لازدياد مقادير غاز ثانى أوكسيد الكربون فى الجو . فنحن منذ ابتداء القرن العشرين رحنا نحرق كميات وفيرة من الفحم وزيت البترول مما صنعته الطبيعة من نفس هذا الغاز الذى كان متوفراً فى جو الأرض الأول منذ أكثر من بليون سنة . فمن المتفق عليه علمياً أن الفحم الحجرى وزيت البترول هما من نتاج عمليات حدثت على مقياس كبير فى عصور الأرض القديمة وسببت ترسيب الكربون بصور مختلفة من غاز ثانى أوكسيد الكربون الذى كان عالقاً فى جو الأرض .

ومن بين النظريات التى ظهرت لتفسر حدوث العصور الجليدية تلك التى تربط هذه العصور بأعقاب الثورات الأرضية ، إثر ما ترسله البراكين من أتربة ودخان يظل عالقاً فى أعالى جو الأرض أجيالا عديدة ويحجب جانباً وفيراً من الإشعاع الشمسى الذى يفد إلى سطح الأرض .

ومن بين النظريات الحديثة كذلك نظرية تذهب إلى أن سبب العصور الجليدية هو فى واقع الأمر ما آلت إليه طبيعة القطب الشمالى للأرض على النحو الذى نعرفه فى هذا العصر .

والمعتقد أن هذا القطب كان قديماً فى المحيط الهادى المفتوح المترامى الأطراف . وبطبيعة الحال لم يسمح هذا المحيط العظيم بزحف الجليد بسهولة من ذلك القطب عبر مياهه ليصل إلى اليابسة خلال شهور الشتاء ، وذلك بسبب طبيعة الماء وخواصه التى تميزه عن اليابس . وعندما أصبح القطب بحراً صغيراً جداً ، يكاد يكون مقفلا ، أى تحيط به الأرض من

كل جانب ، اكتسب بعض الخواص « الجديدة » ، وصار هو المحيط المتجمد الشمالى كما نعرفه اليوم .

وفى مستهل العصر الجليدى يتكون هذا المحيط من الماء السائل الذى يسهل تبخيره ، فيمتلىء الهواء ببخار الماء اللازم لتولد عواصف الثلج أثناء الشتاء ، وتشتد هذه العواصف ويتزايد نشاطها فوق اليابس الفسيح ممثلا فى كندا وسيبيريا ، ومنها يزحف خط الجليد على سطح الأرض تدريجياً صوب الجنوب من شتاء إلى آخر ، حتى يعم الجليد الأرض كلها . وتلك مرحلة تكون فيها إمدادات بخار الماء من القطب والمحيط قد بلغت حدها الأدنى ، فتقل العواصف الثلجية ، ويتراجع خط الجليد على الأرض متجهاً نحو القطب من عام إلى آخر حتى يذوب الثلج ومن ثم يعم المناخ الاستوائى سطح الأرض ، وتبدأ القضية من جديد . ولعل هذا حقيقة هو السر فى تعدد حالات العصور الجليدية خلال الثلاثمائة ألف سنة الأخيرة من عمر الأرض منذ احتل القطب الشمالى موضعه الحالى كما نعهده . أليس هذا من عجائب الأرض !

ومهما يكن من شىء فإن أغلب القرائن إنما تدل على أننا مقبلون فى هذا العصر على مناخ استوائى عام ، يذوب فيه جليد الأرض ، وترتفع درجة حرارة الهواء والماء على السواء . وفى العادة يتم هذا التغير ببطء شديد ، إلا أننا فى واقع الأمر نعمل لقدوم هذا المناخ بسبب وفرة ما نضيعه من غاز ثانى أوكسيد الكربون إلى الجو منذ بدء النهضة الصناعية . ولهذا الغاز كما قدمنا مقدرة خاصة على امتصاص الأشعة الحرارية ، والعمل على تدفئة الجو تدريجياً . ورغم أن معدل التسخين بهذه الطريقة هو .

معدل صغير نسبياً ، إلا أنه يظهر أثره بمضى الوقت الكافى بطبيعة الحال

وتدل البحوث المناخية على تواجد ميل ظاهر لتجنح الطبيعة فى جمهوريتنا مثلا (ج.ع . م.) إلى شحة المطر وارتفاع درجات الحرارة ببطء شديد ، منذ نحو عام ١٩٠٠ ميلادية ، أى منذ راح الناس على الأرض يحرقون المواد التى ينجم عنها غاز ثانى أوكسيد الكربون بوفرة نتيجة للتقدم الصناعى فى القرن العشرين .

ومما لا شك فيه أن هذا التوافق بين دراسات المناخ وما تمخضت عنه البحوث النظرية قد يكون لمجرد الصدفة خلال هذه الفترة من الزمان ، إلا أننا نضع تحت يدى القارئ صورة . واضحة جلية للوضع بأكمله ، ولكن دراسات المناخ مهما كانت براقة لا يمكن الأخذ بها نهائياً إلا بعد فترة طويلة من الزمان . .

٦ – المحيط الذى يفيض منه النيل

المعروف أن فيضان النيل إنما ينجم عن أمطار الصيف الغزيرة التى تهطل على الحبشة ثم تتدفق إلى رافديه النيل الأزرق ونهر العطبرة .

وتقع الحبشة على وجه . التقريب فى شرق أفريقية ، وإلى شمالها البعيد يقع البحر الأبيض المتوسط ، وفى جنوبها الشرقى يجثم المحيط الهندى غير بعيد . وفى غربها النائى يربض المحيط الأطلسى ، وإلى شرقها القريب يقع البحر الأحمر . وكل هذه البقاع مصادر مائية يجوز أن تمد الهواء ببخار الماء اللازم لهطول أمطار الصيف على الحبشة . أما أى هذه المصادر هو الذى يجود علينا بماء الفيضان فهو سؤال ظل يتردد على أذهان كثير من الباحثين فى علم الطبيعة الجوية فى مصر وغير مصر منذ اكتشاف منابع النيل .

ولقد وجد بالبحث والدراسة أن البحر الأبيض المتوسط لا يمكن أن يكون مصدراً لأبخرة مياه الفيضان ، وذلك نظراً لأن تيارات الهواء التى تقبل منه لتغذى الانخفاض الجوى الموسمى الرابض على الحبشة خلال الصيف والذى يسبب أمطار الفيضان يكاد يقتصر مسارها على الصحارى اللافحة ، عابرة خط الاستواء الحرارى * ، مما يرفع من درجة حرارتها إلى حد كبير ، وبالتالى يزداد جفافها . ومثل هذه الرياح هى التى تهب على جنوب

---

* أى منطقة أعلى درجات حرارة على سطح الأرض ، حيثما تتعامد أشعة الشمس على مر العام .

الجمهورية العربية المتحدة وشمال السودان فى الصيف .

أما البحر الأحمر فهو بحر ضيق يكاد يكون مقفلا ، ولا يتعدى تأثير بخار مائه عادة المرتفعات التى تجرى على طول شواطئه ، ولذلك فهو لا يصلح أن يكون مصدراً لأ بخرة المياه الوفيرة التى تعطى أمطار الفيضان بتكاثفها داخل السحب . وبذلك يبقى مصدر أبخرة المياه التى تتدفق إلينا أثناء الفيضان منحصراً فى المحيط الهندى أو فى المحيط الأطلسى أو فيهما معاً .

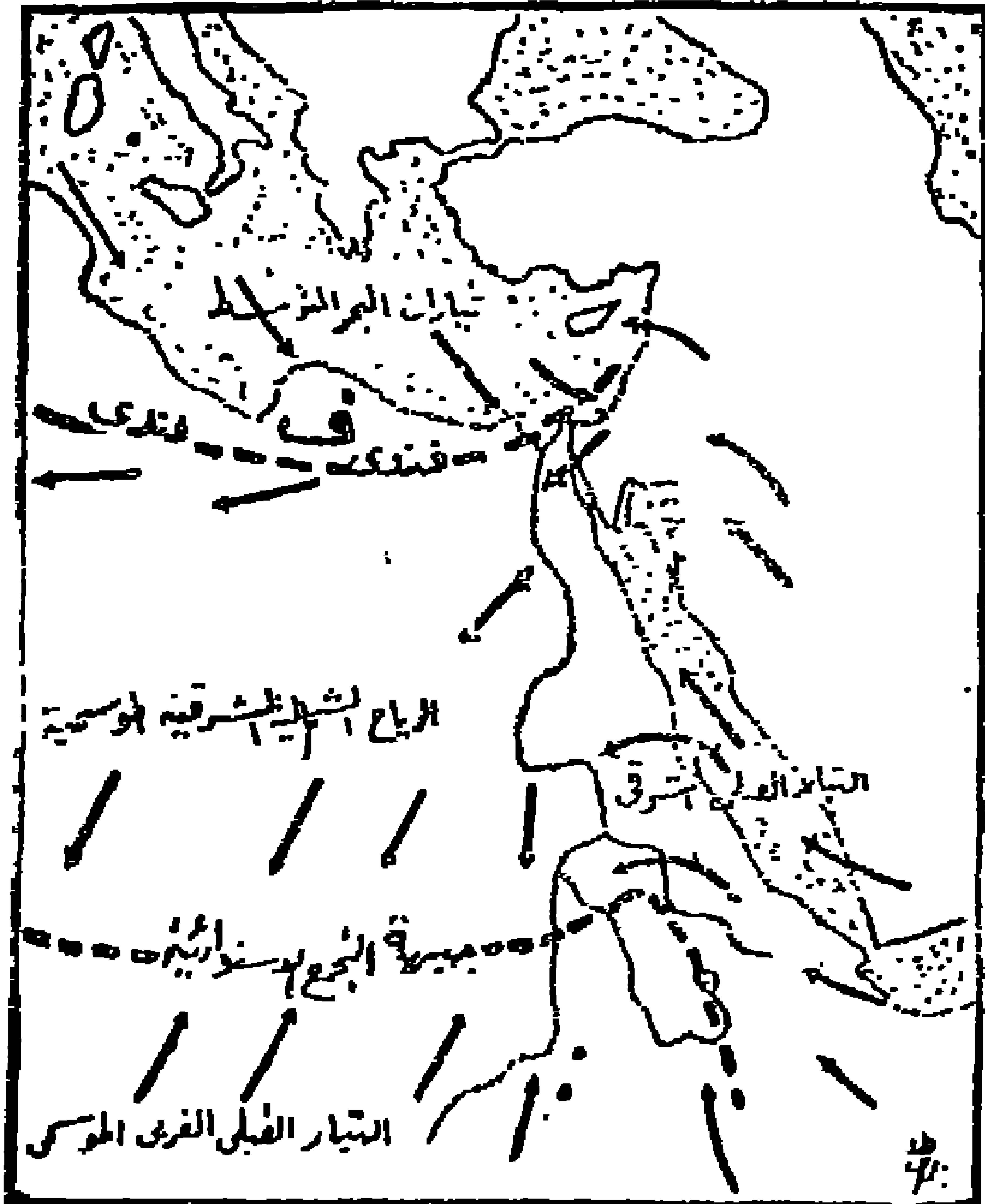
وقد سبق أن عزا أحد علماء الرصد الجوى فى مستهل هذا القرن ، وهو ليونس الإنجليزى ، هطول هذه الأمطار إلى تكاثف بخار الماء الذى تحمله الرياح الموسمية التى تصل من جنوب المحيط الهندى وتدخل أفريقيا قرب خط الاستواء ، وتتوغل فيها كرياح جنوبية شرقيه عظيمة الرطوبة بعد أن تكون قد قطعت آلاف الأميال « فوق المحيط » وتتحول هذه الرياح إلى تيار جنوبى أو جنوبى غربى يغذى سهول السودان والحبشة بعد عبوره خط الاستواء الجغرافى كما هو مبين فى شكل (٩) .

ومن بعد ليونس هذا جاء عالم آخر يقال له كريج وخطأ النظرية السابقة وقرر أن الأمطار إنما تتسبب عن الرياح الجنوبية الغربية المحملة بأبخرة مياه المحيط الأطلسى بعد أن تعبر الكنغو .

ولقد عمد كريج إلى تعزيز نظريته هذه بأدلة وافق عليها بعض علماء الرصد الجوى فى ذلك الوقت مثل شو ، وجلبرت ووكر ، وبروكس الذى رسم خريطة فريدة لمسالك الهواء وتياراته على أفريقيا ، وأكد أن تيار كريج — أو تيار المحيط الأطلسى الذى يعبرالكنغو — هو مصدر أبخرة

مياه الفيضان . هذا كما حاول البرهنة على أن تيار المحيط الهندى لا يتعدى توغله على أفريقيا خط عرض ٥ درجات شمالا ، أى أنه يكاد لا يصل الحبشة .

كل هذه البحوث والنتائج كانت تعتمد على سلسلة من الأرصاد المأخوذة عند سطح الأرض ، أو بالقرب منها . ولم تكن طبقات الجو العلوى قد درست بعد ، وهى الطبقات التى تحدث فيها عواصف الرعد فعلا ، وتحمل أبخرة مياه المطر الذى ينجم عنه الفيضان .

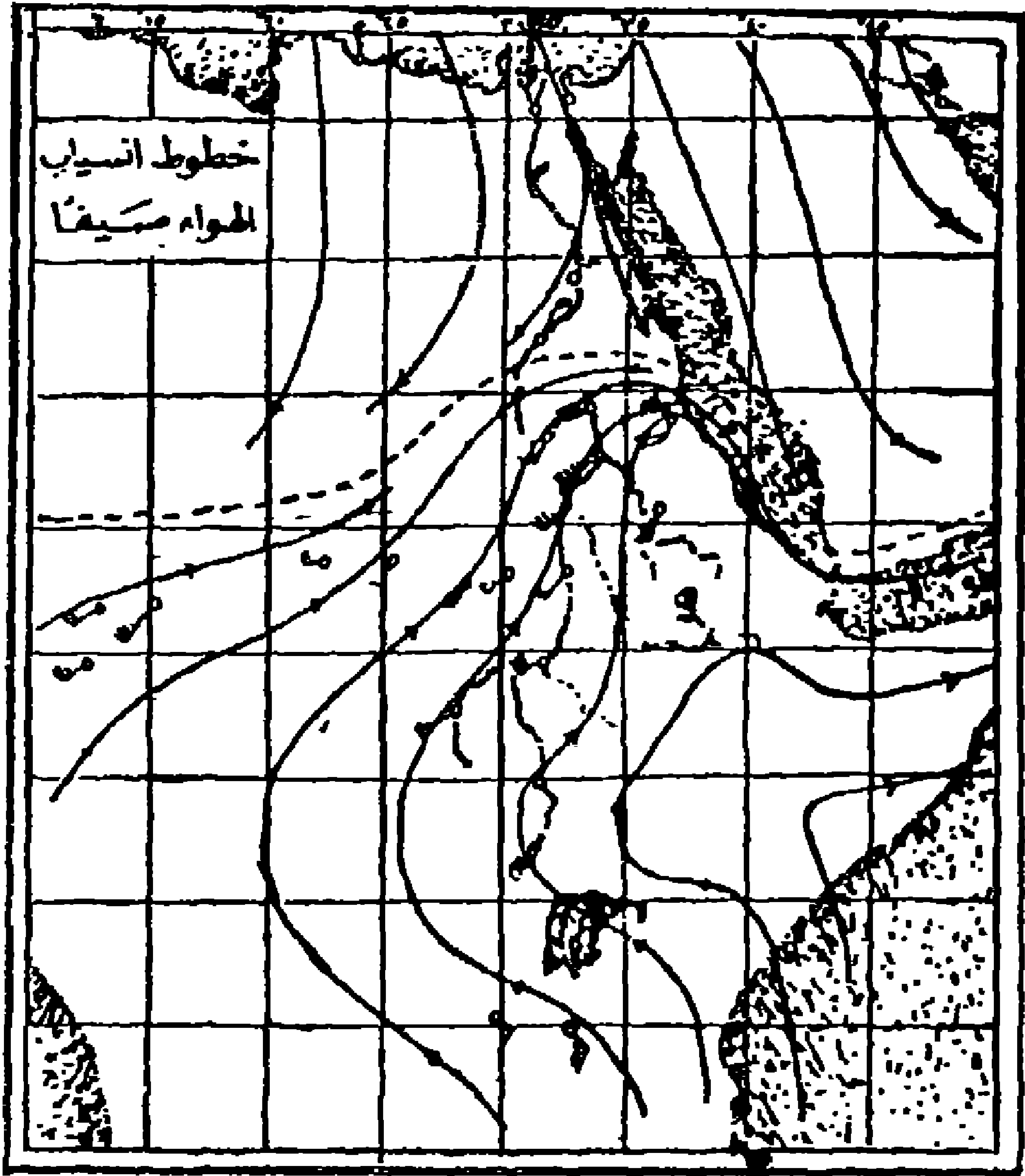


شكل (٩) تيارات الهواء على أفريقيا

ولقد أثبتت الدراسات المستفيضة التى أجريت حديثاً فى الجمهورية العربية المتحدة أن أغلب تلك العواصف إنما يتولد فى الطبقات العليا التى تمتد من نحو كيلومتر واحد إلى نحو عشرين كيلو متراً فوق سطح الأرض (أى أعلى التروبوبوز) .

وخلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها تم إنشاء شبكه من محطات الرصد الجوى فى كثير من بلاد أفريقيا ، وظهرت استخدامات (الراديوسوند) ، وهو جهاز يرصد عناصر الجو فى مختلف الطبقات ويرسلها إلى المحطات الأرضية بواسطة اللاسلكى . وتحمل هذا الجهاز بالونات خاصة تملأ بغاز الأيدروجين الخفيف لتحلق فى السماء حتى تصل إلى ارتفاعات شاهقة وتدخل التروبوبوز .

وبطبيعة الحال ساعد تحليل هذه الأرصاد على وضع حد نهائى لهذه المسألة العلمية الهامة . ولقد كانت أهم النتائج التى توصل إليها الباحثون وخبراء الطبيعة الجوية بكلية العلوم بجامعة القاهرة أن أبخرة المياه التى تتكاثف إلى أمطار مياه الفيضان إنما تحملها طبقات سميكة من الرياح الموسمية التى تصل من جنوب المحيط الهندى ، ثم تعبر خط الاستواء متوغلة فى أفريقيا ، وتنحنى مساراتها فى الطبقات المختلفة نظراً لدوران الأرض حول محورها ، فتبدو فى الطبقات السطحية على هيأة رياح جنوبية أو جنوبية غربية ، إلا أنها تظل فى الطبقات العليا على هيئة رياح شرقية أو جنوبية شرقية . ونظراً لتشبع هذه الرياح ببخار الماء خلال طبقات سميكة تكثر فيها حالات عدم الاستقرار الجوى الذى يولد عواصف الرعد والمطر المختلفة الشدة والمدى — راجع شكل (١٠) — ،



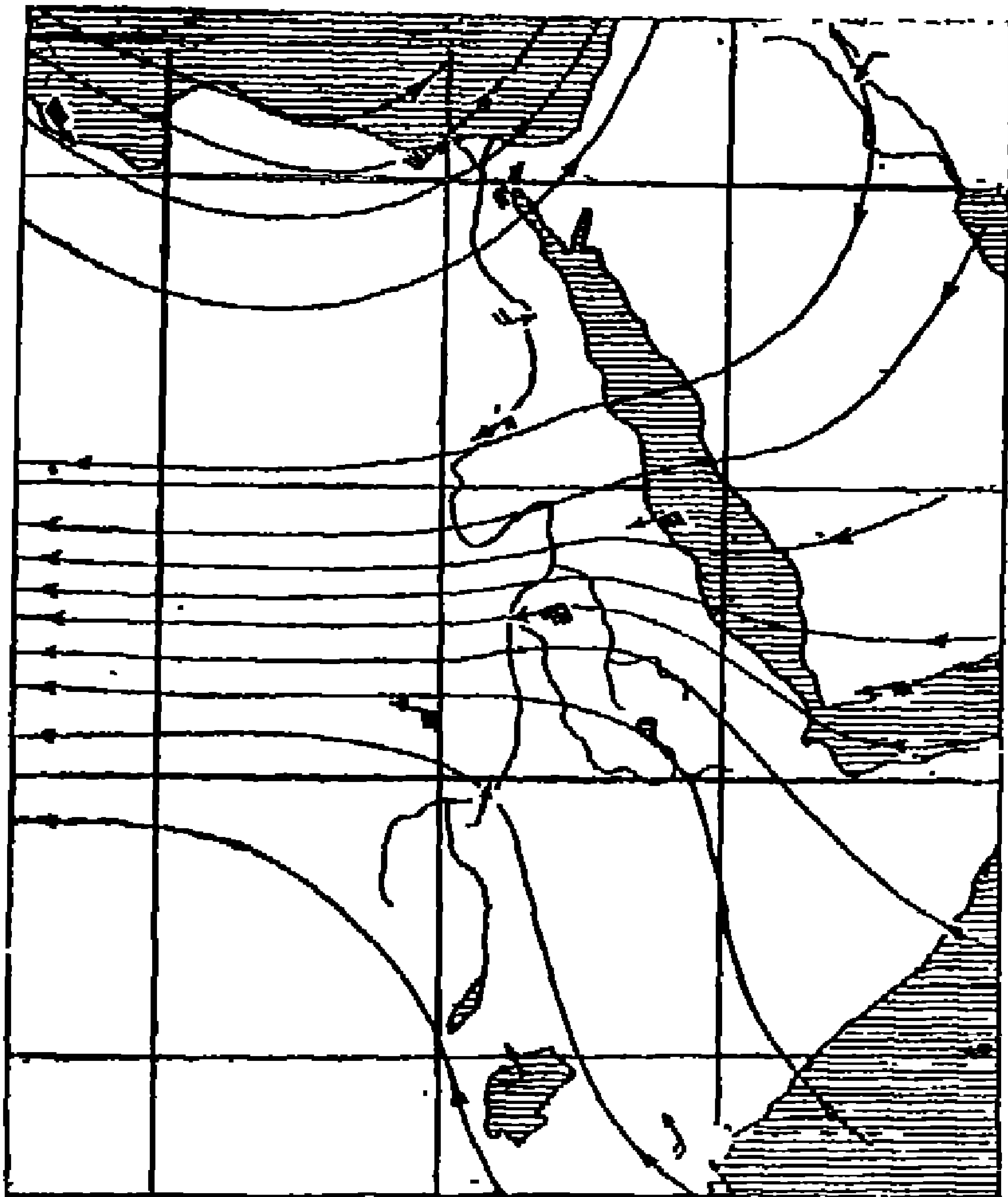
شكل (١٠)   انسياب الهواء على ارتفاع ألف متر

ويمثل شكل (١٠) خطوط انسياب الهواء على ارتفاع ألف متر . وقد تم رسم هذه الخطوط باستخدام الأرصاد الفعلية لشبكة من محطات رصد الجو العلوى بالبالون الطائر .

وقد تزحف هذه التيارات المطيرة شمالا تحت تأثير عوامل جوية

معينة حتى تصل جنوب الجمهورية العربية المتحدة . ويحدث ذلك غالباً فى الفترة الممتدة من يوليو إلى أغسطس ؛ إلا أن مثل تلك الحالات نادر جداً كما قدمنا ، إلا أنها من عجائب ما يحدث عندنا صيفاً !

ومهما يكن من شىء فقد دلت جميع الأرصاد على أن دورة الهواء العلوى فى تلك الأرجاء دورة شرقية ، يكون فيها الهواء إما شمالى شرقى فى أيام الجفاف ، أو جنوبى شرقى فى الأيام المطيرة ، وأن أبخرة مياه أمطار



شكل (١١) خطوط انسياب الهواء على علو أربعة كيلومترات

الفيضان تجلبها طبقات سميكة من الرياح الموسمية ، تقبل من جنوب المحيط الهندى ؛ ثم تعبر خط الاستواء بعد أن تقطع آلاف الكيلومترات فوق ذلك المحيط ، وتتوغل فى القارة الأفريقية — راجع شكل (١١) — .

وهكذا اتضح لنا أخيراً أن النيل إنما يفيض من تكاثف أبخرة مياه المحيط الهندى ، تلك الأبخرة التى يحملها تياره الجنوبى الشرقى الموسمى والذى يتحول فى الطبقات السفلى منه إلى تيار جنوبى غربى عندما يعبر خط الاستواء .

٧ ـ أسباب ارتفاع الرطوبة خلال الصيف وتأثيراتها

إن مسألة ارتفاع درجة الرطوبة فى الجو مع ارتفاع درجة الحرارة خلال أشهر الصيف من أهم المسائل التى تثير اهتمام الناس فى (ج.ع.م.) خصوصاً نظراً لما تسببه نسبه الرطوبة العالية من الشعور بالضيق والملل، وانتشار بعض الحشرات، وظهور حمو النيل وبخاصة لدى الأطفال.

كل هذه الأسباب حملت المختصين فى كلية العلوم بجامعة القاهرة إلى عمل دراسة وافية للموضوع، وقد تصل درجة الرطوبة النسبية* إلى ١٠٠ فى المائة فى أغلب المناطق، خصوصاً أثناء الليل، هذا كما قد يتكرر حدوث التشبع خلال فترات مختلفة من الصيف، يكون فيها الهواء السطحى مكتمل الرطوبة بحيث لا يقوى على حمل كميات إضافية من بخار الماء.وتحت مثل هذه الظروف لا يتبخر العرق من الأجسام وتسبب هذه الظاهرة الشعور بوطأة الحر والضيق. ومن نتائج ارتفاع الرطوبة إلى مثل هذا الحد تولد السحب المنخفضة أو الضباب أثناء الصباح، وهى تشكل خطراً عظيما على أعمال المواصلات فى الصيف.

ويعزو فريق من الناس هذه الحالة إلى فيضان النيل وامتلاء الترع والقنوات بالماء، إلا أن الحقيقة هى أن الفيضان رغم ما يصحبه من

---

* هى النسبة المئوية بين كمية بخار الماء العالق فعلا فى الهواء والكمية اللازمة لتشبعه.

تأثيرات محلية على كل من درجة الحرارة ومقدار الرطوبة ، إلا أنه لا يكفى لتعليل الظاهرة على النحو الذى تشاهد عليه والتى تكاد تعم كافة أرجاء الجمهورية العربية المتحدة .

فمن المعروف أن الرياح فى جمهوريتنا وشمال وادى النيل بصفة عامة تكون شمالية فى أغلب الصيف — راجع شكل (٩) — ، أو شمالية شرقية تهب دون انقطاع ملحوظ حول انخفاض جوى موسمى عظيم يربض فوق جنوب آسيا ويمتد غرباً إلى الحبشة . وقديماً أطلق الإغريق على هذه الرياح المستقرة اسم (إتيزيان) ، ونحن نسميها الهواء البحرى الذى يلطف قيظ الصيف عندنا ويجعل من الممكن مزاولة نشاطنا رغم ارتفاع درجة الحرارة .

ومن أهم صفات هذه الرياح البحرية وخصائصها الطبيعية ما تتميز به من استقرار دائم ، فهى لا يعترض سبيلها ولا يتكون فيها أى انخفاض جوى عرضى ، كما أنها لا تحدث العواصف ، وعلى الأخص عواصف الرعد .

وتدل معادلات الحركة على أن الرياح الشمالية التى من هذا القبيل يحدث فيها تساقط من أعلى ، بمعنى أن الهواء إنما تهبط طبقاته العليا الممتدة إلى علو عدة كيلومترات وتتحرك إلى أسفل ، وهكذا تتحرك تلك الأجزاء من الهواء من طبقات ضغطها منخفض إلى أخرى ضغطها مرتفع ، لأن الضغط الجوى يزداد كلما هبطنا إلى أسفل والعكس بالعكس كما هو معروف .

وبطبيعة الحال يصحب هذا التساقط ارتفاع ملحوظ فى درجة حرارة

الهواء الهابط نظراً لازدياد الضغط الواقع عليه كلما اقترب من سطح الأرض .

وتعمل درجة الحرارة المرتفعة على علو نحو ٥٠٠ إلى ٢٠٠ أمتر من سطح الأرض على منع تسرب أبخرة المياه المتصاعدة من سطح الأرض ، وكذلك الغبار وكافة الشوائب ، والحيلولة دون وصولها إلى أعالى الجو . ولهذا السبب تظل الأبخرة الصاعدة من كافة أسطح المياه حبيسة الطبقات السفلى من الجو ولا تصل إلى أعلى ، فتتراكم هذه الأبخرة مع بعضها البعض حتى تصل درجة الرطوبة إلى ١٠٠ فى المائة قرب سطح الأرض بينما تظل الطبقات العليا كلها جافة . وهذا هو السبب . فى عدم تكون السحب الركامية فى الصيف ولا يظهر إلا الضباب أو السحب الطبقية المنخفضة فى الصباح المبكر ، وسريعاً ما تعمل أشعة الشمس المحرقة بعد الشروق على تبديد الضباب واختفاء السحب الطبقية القريبة من سطح الأرض .

وكما قدمنا تشكل هذه الظاهرة خطراً مباشراً على المواصلات فى الصباح عقب شروق الشمس . أما أثناء النهار فإن السماء تظل صافية والشمس مشرقة رغم ارتفاع الرطوبة عند السطح بشكل ظاهر .

ولا تحدث هذه الظاهرة فى فصل الشتاء بالذات ، إذ تنشط تيارات الحمل فى الهواء السائد وتحمل معها أبخرة المياه إلى الطبقات العليا ، وبذلك تتشبع طبقات سميكة من الجو بأبخرة المياه فتتولد السحب الركامية الممطرة ولا تكون الرطوبة مرتفعة فى الطبقات السطحية كما هو الحال فى الصيف ! ويلاحظ ذلك سكان السواحل كالإسكندرية .

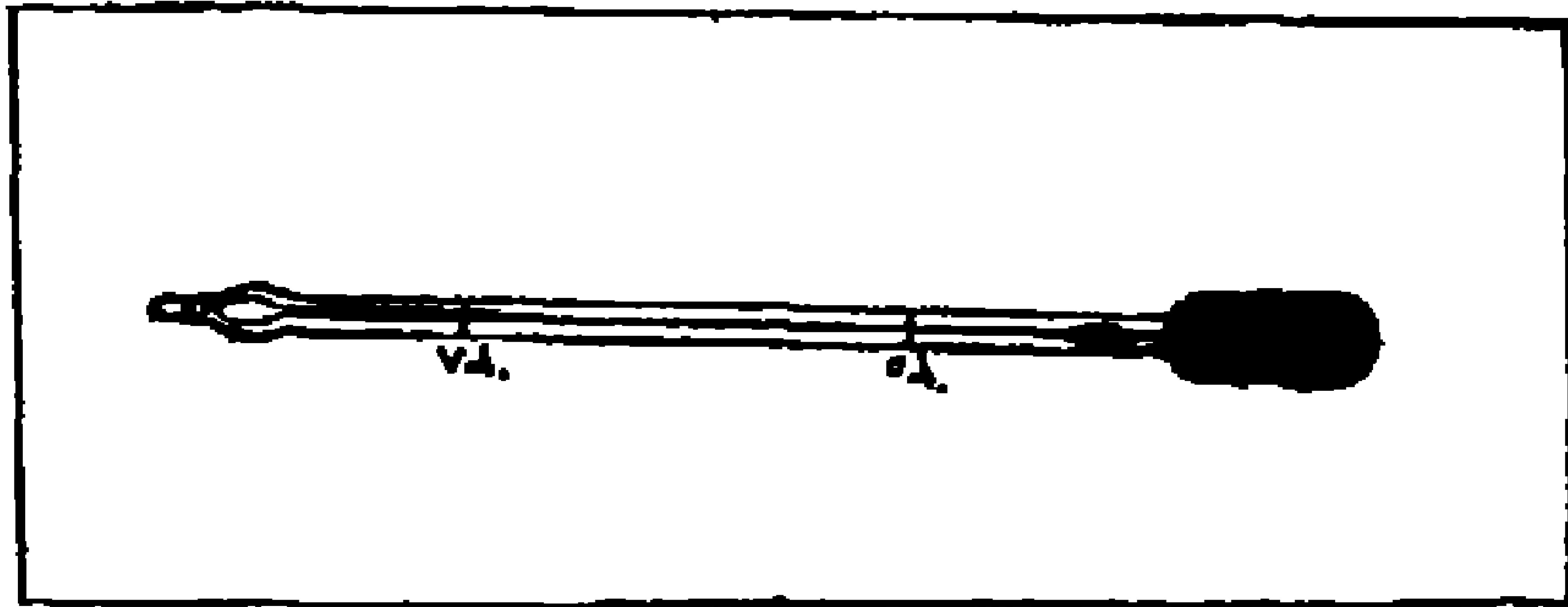
وهكذا يتبين القارئ أن جو الصيف عندنا يكون أكثر رطوبة من جو الشتاء فى الطبقات السطحية ، كما أن هذه الظاهرة الطبيعية التى لها أثرها الكبير على صحة الأجسام ونشاط الأفراد إنما يرجع أساسها إلى تغير فعلى فى طبيعة الهواء السائد وليس إلى النيل أو فيضانه كما كان معتقداً من قبل .

ويبلغ الإنتاج البشرى أقصاه عموماً عندما تتساوى كميات الحرارة المتولدة فى الجسم مع الحرارة التى تفقد عند السطح الخارجى . وعندنا يشعر الجسم العادى بالراحة فى درجات من الرطوبة النسبية متوسطها ٥٠ فى المائة تقريباً إذا كانت درجة حرارة الجو نحو ٢٨ درجة مئوية . وكلما ارتفعت درجة الرطوبة النسبية فوق ٥٠ فى المائة كلما قل الشعور بالراحة ، حتى يصل الملل أقصى حدوده عندما تكون الرطوبة ٨٥ فى المائة .

وليس معنى ذلك أن الجو الجاف على الدوام أحسن حالا ، فإن الفترات القصيرة من الجو الجاف تنشط الإنسان ، إلا أن دوام التعرض للأجواء الجافة يجلب الصداع ويقلل القدرة على العمل كذلك .

ومن العوامل التى تساعد على التبريد وتبخر العرق سرعة الرياح . فالرياح النشطة من عوامل التبريد عموماً . وعادة لا يحصل الانتعاش فى المناطق الاستوائية بسبب ركود الرياح ، كما أنه فى حالات الزمهزير التى يتدثر فيها الإنسان بالأغطية السميكة يقل الانتعاش والإنتاج .

ومجمل القول أن قوة التبريد التى يحدثها الهواء وتسبب نشاط البشر إنما يتوقف على عناصر ثلاثة هى درجة الحرارة ونسبة الرطوبة وسرعة الهواء . ويمكن قياس قوة التبريد هذه بترمومتر خاص يقال له ترمومتر (كاتا) شكل (١٢) — . وهو ترمومتر مدرج من ٣٥ إلى ٣٨ درجة مئوية .



شكل (١٢) ترمومتر كاتا

وعند استعماله يغمر فى ماء حار حتى يقرأ ٣٨ درجة ثم يخرج من الماء ويعرض مباشرة للجو ، فيبرد خزان الترمومتر بتبخير المياه العالقة عليه ويهبط الزئبق تدريجياً ، ثم يعين الزمن الذى يستغرق فى هبوط الزئبق حتى يصل إلى درجة ٣٥ ، ويتناسب هنا الزمن عكسياً مع قوة تبريد الهواء ، بحيث إذا ما قسم معامل خاص بالجهاز عليه يمكن الحصول على قوة تبريد الهواء مقدراً بالسعر فى الثانية لكل سنتيمتر مربع . ويعطى الجدول الآتى قوة التبريد بالسعر فى الثانية لكل سنتيمتر مربع فى مختلف حالات الجو .

قوه التبريد بالسعر	نوع الجو
من ٠٠ إلى ٠,٠٥	حار ولا يحتمل
من ٠,٠٦ إلى ٠,١٠	يبعث على الخمول
من ١١ إلى ٠,٢٠	منعش
من ٢١ إلى ٠,٣٠	بارد ومنشط
من ٣١ إلى ,٤٠	بارد لا يحتمل

٨ — جبهة التجمع المدارية

الجبهة فى علم الطبيعة الجوية سطح وهمى يفصل بين تيارين مختلفين من الهواء ، وهى فى أغلب الحالات تكون على هيئة منطقة انفصال بين هواء ساخن وآخر بارد .

وعلى الجبهات كثيراً ما تتكون مناطق الضغط الخفيف المعروفة باسم الانخفاضات العرضية . وتتولد هذه الانخفاضات فى المناطق المعتدلة فوق مساحات محدودة من سطح الأرض ، وتنمو حتى تبلغ أشدها وتتحرك (من الغرب إلى الشرق فى نصف الكرة الشمالى) ، ثم تضمحل بعد أن تسبب إثارة الأجواء المحلية التى تمر عليها بدرجات متفاوتة حسب شدتها وعمقها . ويدور الهواء من حول هذه الانخفاضات وفى اتجاه يضاد اتجاه عقرب الساعة فى نصف الكرة الشمالى ، ويحدث العكس فى نصف الكرة الجنوبى .

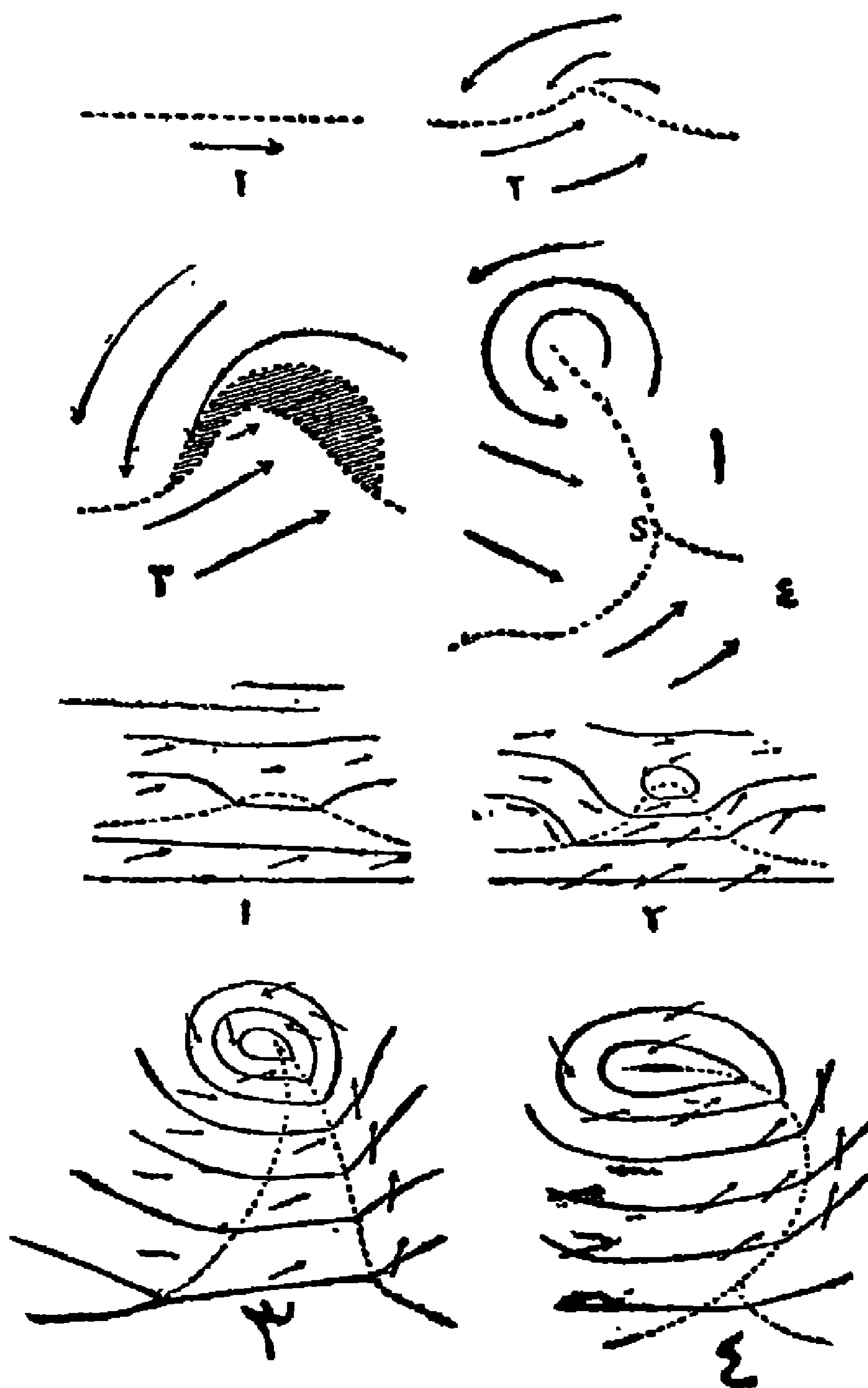
ولقد كانت المدرسة النرويجية فى علم الطبيعة الجوية أولى المدارس التى تعرفت على أسباب تكوين الانخفاضات الجوية على ما أطلقت عليه اسم الجبهة القطبية التى تفصل بين كتل الهواء القطبى الباردة التى تقبل من مناطق القطبين وتكون شرقية عادة ، وبين التيارات المعتدلة الغربية التى تغزو المناطق المعتدلة وتعرف باسم الغربيات السائدة ، وهى جميعها مبينة فى شكل (٣) الذى يمثل دورة الرياح العامة على الأرض .

وكما فى شكل (١٣) تلتوى الجبهة فى صورة موجة يتميز نصفها الأمامى عن نصفها الخلفى بمميزات خاصة ، ويسمى النصف الأمامى

الجبهة الساخنة كما يسمى النصف الخلفى الجبهة الباردة ونقطة تلاقيهما هى مركز الانخفاض الجوى . ويتحرك مركز الانخفاض عادة فى اتجاه الشمال الشرقى كما قدمنا ، إلا أن هذه القاعدة لاتسرى إذا ما أثرت على الانخفاض الجوى عوامل أخرى مثل تواجده ضمن دورة أخرى حول إنخفاض أقوى وأنشط ، فنراه ينجرف حول هذا الأخير . ومثل اعتراض الهضاب أو تيارات الهواء القطبية الباردة . ولعلنا جميعاً قد ألفنا مثل هذه التغييرات الخاصة من النشرات التى تصدرها مصلحة الأرصاد الجوية كل يوم .

وفى العادة تتتابع تغيرات الجو فى أى مكان عند اقتراب الانخفاضات العرضية بصورة تكاد تكون منتظمة : فتبدأ سلسلة التغيرات بظهور السحب العالية مثل سحب السمحاق وهى تتكون من بلورات الثلج ولا ترى ظلا . ويلى ذلك السحب الطبقية المتوسطة الارتفاع بينما يميل الضغط إلى الهبوط التدريجى نظراً لإحلال الهواء الساخن الخفيف محل الهواء البارد الثقيل نسبياً كما هو مبين فى القطاع الرأسى من شكل (١٣) .

وبدخول الجبهة الساخنة يكون الضغط الجوى قد وصل أقل قيمة له تقريباً ، وعندها يتغير اتجاه الرياح إلى الجنوبى الغربى ، وتسوء الرؤية أو تقل شفافية الهواء نوعاً ما بحسب محتوياته من الأتربة ونحوها . وعندما يكون مشبعاً بأبخرة المياه تتكون أيضاً السحب المنخفضة المطرة كما فى شكل (١٣) . أما إذا كان الهواء الساخن غير محمل بأبخرة المياه كما هو الحال فى بلاد العرب بصفة عامة ، حيث يقبل الهواء الساخن من قلب الصحارى فإن الجبهة الساخنة لا تعطى مطراً ، إلا أنها قد تعطى رذاذاً قرب الشاطئ .



شكل (١٢) مراحل تكوين الانخفاض الجوى العرضى

وبعد ذلك كله تظهر السحب الركامية المتوسطة الارتفاع ، وتكون بمثابة الدليل على اقتراب دخول الجبهة الباردة . ثم تظهر السحب الركامية المنخفضة الممطرة . وتثيرها الحركات الرأسية الضعيفة التى تصحب مقدمة هذه الجبهة ، حيث يتدفق الهواء البارد إلى السطح ويدفع الهواء الساخن إلى أعلى . ويكون المطر على هيئة رخات متواصلة أو متقطعة كما يحدث عندنا بالقرب من الشاطئ .

وفى العادة تسير الجبهة الباردة بسرعة أكبر من سرعة سير الجبهة الساخنة التى فى المقدمة ، ولهذا السبب يأخذ القطاع الساخن فى التناقص تدريجياً من الخلف ، وتنطبق أجزاء من الجبهة الباردة على أجزاء من الجبهة الساخنة القريبة من المركز ، ويمتد هذا الانطباق تدريجياً كلما انكمشت مساحة المقطع الساخن مكوناً جبهة واحدة هى جبهة الامتلاء . ولا تزال هذه الجبهة الأخيرة تمتد حتى يختض القطاع الساخن وتنتهى معالم الانخفاض .

ويعطى المسقط الأفقى الذى فى أسفل شكل (١٣) توزيع خطوط الضغط المتساوى (الايسوبارز) حول مركز الانخفاض ، كما يبين تيارات الهواء المختلفة حول الانخفاض الجوى .

ولقد أظهرت بحوث المشتغلين بعلم الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة وجود جبهة انفصال مدارية تقع فى شمال أفريقيا ، وأطلق عليها اسم السطح (ف) — راجع شكل (٩) — . وهى تفصل بين أهوية البحر الأبيض المتوسط المعتدلة والرطبة نسبياً وأهوية شمال أفريقيا القارية الجافة . وعلى هذه الجبهة التى تنشط عادة فى أواخر الشتاء وفى فصلى

الربيع والخريف بسبب عظم تباين درجات الحرارة على جانبيها تتكون الانخفاضات الجوية الصحراوية التى تغزو الشرق الأوسط وتثير الجو فيه . ومن أشهر هذه الانخفاضات الجوية انخفاضات الخماسين .

وللجبهة التجمع المدارية هذه أهمية عظمى فى أعمال التنبؤ الجوى . وهى يمكن إظهارها على خرائط الطقس اليومية وكذلك تحديد معالمها ، حتى إذا ما ظهرت على جانبها الشمالى موجة من الهواء البارد الشرقى مقبلة من ارتفاع جوى على البحر المتوسط ، والهواء الساخن الشرقى فى الجنوب كان احتمال تولد الانخفاض الجوى الصحراوى على الجبهة هو احتمال كبير جداً .

وفى موسم الربيع قد تركب أنت القطار من القاهرة وهى إلى جنوب السطح ف ودرجة الحرارة فيها تقارب الأربعين ثم تمر بطنطا فإذا بدرجة الحرارة تنخفض فجأة وأنت فى طريقك إلى الإسكندرية بمقدار عشرين درجة ، وذلك بمجرد عبورك السطح ف الذى يكون فى هذه الحالة واقعاً بين القاهرة والإسكندرية . أوليس هذا من العجائب !

ويلعب انخفاض السودان الموسمى دوراً هاماً فى إمدادنا بالأهوية الحارة الشرقية التى تسود فى جنوب الجبهة ، ولذلك يمكن أن نعتبر من الوجهة التطبيقية أن ظهور حزام من الضغط المرتفع فى شمال الجبهة مع ذبذبة انخفاض السودان الموسمى إلى الشمال بحيث تظهر منطقة ضغط منخفض فى جنوب الجبهة على الصحراء الكبرى ، هو فى حد ذاته من أكبر علامات تولد الانخفاضات الصحراوية العرضية النشطة .

والانخفاضات الصحراوية من أعجب الانخفاضات فى طبيعتها ،

إذ ينقصها إلى حد كبير وجود بخار الماء اللازم لنشاطها . فالمعروف عادة أن نشاط الانخفاضات العرضية يقوم أساساً على تكاليف أبخرة المياه على الجبهات الساخنة والباردة ، ومن ثم انطلاق الحرارة الكامنة للبخر ، وهي أصلا كمية الحرارة التي استخدمت في تبخير ماء البحر وتحويله إلى بخار ينتشر في الجو * . أما في الانخفاضات الصحراوية فإن الرمال المثارة الساخنة تمد الهواء بجزء كبير من الطاقة اللازمة لنشاط الانخفاض . ومن الملاحظ أن أغلب هذه العواصف تصل فيها سرعة الرياح إلى نهايتها العظمى عندما تبلغ درجة الحرارة نهايتها القصوى كذلك . وثمة مصدر آخر للطاقة هو إحلال الهواء البارد العلوى محل الهواء الساخن الذى قرب السطح .

وهناك حالات من الانخفاضات الجوية العميقة التي أثارت الجو في بلاد العرب وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وامتد أثرها شمالا إلى بحر البلطيق بسبب تولد انخفاضات جوية صحراوية على الجبهة ف هذه .

والحق يقال أن معالم هذه الجبهة تكاد تختفى بدخول الصيف ، إذ يصبح التيار الهوائى متجانساً إلى حد كبير أثناء دورته الشمالية من البحر الأبيض المتوسط إلى أواسط السودان حول انخفاض آسيا الموسمى الذى سبق ذكره . ولقد اهتمت الدول بأمر هذه الجبهة ف وراحت تدرسها دراسة مستفيضة .

---

* تساوى الحرارة الكامنة للبخر نحو ٦٠٠ سعر لكل جرام من الماء .

٩ ــ الجو ونقل الأغذية

من المعلوم أن نقل الأغذية والمنتجات الزراعية بصفة عامة يتطلب عناية أكثر من نقل المنتجات الصناعية ، وذلك نظراً لعدة اعتبارات أهمها أن الحاصلات الزراعية تكون فى الغالب أكثر ضخامة وأعظم حجماً بالنسبة لغيرها من السلع.

ورغم أن بعض المحاصيل الزراعية التى مثل الأرز مثلا يمكن أن تحتفظ بجودتها لمدة طويلة تحت ظروف خاصة ، نجد أن بعض المنتجات الأخرى مثل اللبن والفاكهة والخضر والزهور لا يمكن أن تظل على حالتها العادية الصالحة للاستعمال إلا لوقت قصير ، فهى معرضة للتلف السريع ما بين المنتج والمستهلك .

والمشاهد عادة أنه بمجرد أن يتم جمع المحاصيل الزراعية تتعرض هذه المحاصيل سريعاً لتغيرات فسيولوجية تسببها الأنزيمات التى تؤدى إلى تحلل هذه المحاصيل ، مما قد ينجم عنه فى النهاية تلفها تماماً بمضى الوقت . ومهما يكن من شىء فإننا نجد أن بعض المحاصيل تحتاج إلى هذه العمليات إلى حد كبير لكى تصل إلى حالة نضجها التام وطعمها المستساغ ، ومن أمثلة ذلك ثمار المنجة . والمعروف علمياً أن هذه العمليات كلها تتأثر بدرجات مختلفة تحت وطأة الحرارة أو الرطوبة أو هما معاً ، وعليهما تنصب أبحاث الطبيعة الجوية الخاصة بهذا الموضوع .

ولقد وجد عملياً أنه فى درجات الحرارة التى تزيد على ١٠ درجات

مئوية تتضاعف سرعة عمليات التعفن والتلف كلما ارتفعت درجة الحرارة بمقدار عشر درجات مئوية . ومعنى ذلك أنه إذا كانت الطماطم (القوطة) تظل فى حالة جيدة لمدة ٤٨ ساعة عند درجة حرارة ١٠ درجات مئوية ؛ فإنها لا تظل محتفظة بجودتها إلا لمدة ١٢ ساعة مثلا إذا ما وصلت درجة الحرارة إلى ٣٠ درجة مئوية .

أما تحت درجة ١٠ مئوية نجد أن هذه العمليات تتعطل إلى أن تصل إلى نهاية صغرى بين درجتى الصفر و ١٠ مئوية . وبطبيعة الحال تتوقف درجة الحرارة الصغرى هذه على نوع المحصول فى كل قطر .

والذى يحدث عادة أنه تحت ظروف النهاية الصغرى المثلى لأى محصول يتم التلف كذلك بالبرودة ببطء ، كما تتعقد عمليات التحلل الطبيعية . وعلى ذلك نجد أنه من اللازم أن تنقل المنتجات الزراعية فى درجات من الحرارة النموذجية التى يتم اختيارها بين النهايتين الصغرى والعظمى ، على أن يكون النقل بأسرع ما يكون قدر المستطاع .

وإننا لنجد رغم أن برتقال كاليفورنيا وأسبانيا وأيضاً الموز يتوفران لدى ربات البيوت على بعد آلاف الأميال من مناطق الإنتاج . وبالمثل فإن الزبدة والجبن الهولندى والأسترالى كلها تستعمل فى العديد من القارات . ويؤكل اللحم المنتج من الصين وجنوب أمريكا فى الشرق الأوسط ، كما يؤكل سمك جوينلدة فى كافة أرجاء أوروبا . وبطبيعة الحال يتم شحن هذه الأطعمة كلها تحت ظروف خاصة أو تكييف هوائى معين .

ولقد دلت نتائج البحوث المستفيضة التى أجريت فى هذا الميدان على أنه من اللازم أن يؤخذ فى الاعتبار تأثير العناصر الجوية من اللحظة التى

يكون فيها المحصول فى الحقل أو على الشجر حتى يصل إلى المستهلك ، ولا تقتصر الدراسة على فترة النقل فحسب .

وتتضمن الطرق المستخدمة اليوم لإطالة مدة حفظ الخضروات والفاكهة عدة اعتبارات مثل التهوية ، والتبريد ، والحفظ فى الثلاجات ، والمعالجة ببعض المواد ذات النشاط الإشعاعى .

ولا تكتمل الفائدة من التهوية فى حالة النقل البرى إلا إذا كانت درجة حرارة الهواء قريبة من درجة حرارة الحفظ النموذجية للحاصلات المنقولة . ولكن على أية حال تعمل التهوية على إزالة الغازات المنبثقة من المحصول نفسه . هذا وقد ينجم عن تراكم هذه الغازات عند نقل شحنة كبيرة من التفاح أو الفلفل الأخضر مثلا تلف المحصول .

ويستخدم التبريد عندما تكون درجة الحرارة الخارجية عالية . ويستعمل الثلج المجروش للمسافات القصيرة ، إلا أن لهذا النوع من التبريد مساوئه إذا ما تعرض المحصول للشمس وهو لا يزال مبتلا ، إذ أن ذلك يؤدى إلى التغير السريع فى طبيعة المحصول .

وفى السفن البخارية أماكن مخصصة للشحن . وقد تشحن المحاصيل على ظهر السفينة ، أو تحت مستوى سطح الماء فى غرف التبريد . وفى الحالة الأولى تتأثر المحاصيل بدرجات متفاوتة تحت وطأة التقلبات الجوية ودرجات حرارة سطح البحر وتياراته الأفقية والرأسية . وتؤثر التيارات المائية الرأسية المعروفة باسم مياه الانبثاق على ما تحمل السفن إلى حد كبير ، فتجعلها إما ساخنة أو باردة بالنسبة إلى الهواء المحيط بها . وتميل المواد الجافة أو القليلة الرطوبة إلى امتصاص أبخرة المياه المتصاعدة

من سطح البحر حتى إذا غلفت بالورق .

والجو أحد العوامل الأساسية التى تؤثر على قوارب صيد السمك وعمليات الصيد نفسها . والبحار منذ القدم مصدر من مصادر الثروة المائية ، وينبوع فياض من ينابيع الرحمن ، وعنصر أساسى فى ثراء كثير من الأمم . فهى خزائن للرزق الرغد والغذاء الذى يمكن أن يجلب دون سابق زرع أو رى أو حصاد ، حتى قيل إن من يرى سمكاً فى منامه فإن تفسيره رزق محقق ، وهى إلى جانب كل هذا مصدر للكساء والدواء والحلية . ويبلغ إنتاجنا طول العام لكافة أنواع السمك حول الخمسين ألف طن أو أزيد بقليل ، ولا تخرج أساطيل صيدنا إلى عرض البحر بعيداً عن الشواطئ ، بل تصاد ثلاثة أرباع هذه القيمة أو أكثر من بحيراتنا الممتدة على طول شواطئنا ، وكذلك من بحيرة قارون فى الفيوم .

ولقد كان ولا يزال البحر الأبيض المتوسط مصدراً من مصادر ثراء الأمم التى تقع عليه وللإسفنج الذى يصاد من البحر الأبيض شهرة عالمية ، وهو أكثر ما يصاد من شرق البحر المتوسط ومن أواسطه . ويقال إن مياه مصر من الإسكندرية إلى السلوم تنبت أفخر الإسفنج من حيث رقة النسيج ودقة الشعيرات ومتانة المادة . هذا ويبلغ السردين شواطئنا الشمالية أو هو يقترب منها كل عام فى أعقاب الفيضان ، وذلك فى حشود متتابعة .

ويحدث ارتفاع الماء من الأعماق بانتظام (الانبثاق) بعيداً عن السواحل فى أماكن عديدة فى عرض البحر . وحيثما تحدث هذه الظاهرة

تكون سبباً فى وفرة الحياة . فهناك من المصايد الكبرى ما يكون الأساس فى إنتاجها على صعود المياه العميقة إلى السطح . فشاطئ الجزائر يشتهر بمصايد السردين بسبب تصاعد المياه الباردة من الأعماق وتزويدها السطح بالأملاح اللازمة . وعلى غرار ذلك الساحل الغربى لمراكش .

١٠ — الأرصاد الجوية الزراعية

لكل من الطقس والمناخ تأثيره الخاص على الكائنات الحية ومنها النبات والحشرات المسببة لأمراض النبات . وأهم عوامل الطقس أو المناخ التى تؤثر على النبات عموماً هى درجة الحرارة ودرجة الرطوبة والإشعاع الشمسى ، ثم مدى تغيرها ومدى استمرار موجات الحر والبرد . وتؤثر هذه العوامل كذلك على التربة وما فوقها .

والمناخ هو العامل الأساسى الذى عليه يتوقف توزيع عالم النبات على سطح الأرض . فهناك بون شاسع بين الثلج الدائم الذى يغطى مناطق القطبين والأرض الخضراء المستهدفة لهبوب الرياح الغربية التى تسود المناطق المعتدلة والأرض الجرداء المعروفة بصحارى الرياح التجارية والغابات الكثيفة والأدغال الاستوائية التى تسببها حرارة وأمطار المناطق الحارة المستديمة .

أما الطقس فيرجع إليه نجاح المحاصيل ونموها أو العكس ، فلا يعزب عن البال أن النبات يبذر ثم يراعى بعد ذلك أثناء إنباته ونموه ويحصد بعد ذلك . وجميع هذه العمليات قد يعوقها الطقس غير الملائم . فقد يسبب يوم عاصف أو مطير إتلاف المحصول فى أى مرحلة من مراحله . فنى مصر مثلا يسبب هبوب الرياح الشديدة اقتلاع النباتات النامية كالذرة أو القمح عقب الرى الذى قد تنتج عنه خسائر فادحة كما يحدث فى مزارع الموز . ومن المعروف مثلا أن موجات البرد الشديد

التى تعقب وضع البذور فى التربة قد تسبب تلفها وعدم نموها ، كما أن للبرد الشديد والصقيع تأثير سيئ على المحاصيل النامية ، إذ أن انخفاض درجة الحرارة يؤدى إلى تجمد السوائل الموجودة داخل الخلية وزيادة حجمها مما يسبب انفجارها أو فقد البروتوبلازم لصفاته الحية .

وأهم واجبات الفلاح المحنك أن يستعين قدر المستطاع بما يصادفه من أيام طقسها ملائم ، بينما يحاول الإقلال من أضرار الأيام ذات الطقس الردىء : فمثلا يمتنع عن الرى أثناء الرياح الشديدة ، ويغطى محاصيله بالأحطاب ، أو يطلق دخاناً فى اتجاه الريح ينتشر ويغطى المزارع مكوناً طبقة عازلة تحمى النبات من البرد والصقيع ، وخاصة فى مناطق تكون الصقيع فى مصر .

وتتضمن الأرصاد الجوية الزراعية كافة أوجه النشاط فى جميع أعمال الزراعة منذ الساعة الأولى التى تبذر فيها البذور إلى حين جمع المحصول . ولقد أدرك الإنسان الأول منذ أن هجر الصيد وراح يهتم بالزراعة مدى تحكم الأحوال الجوية فى إنتاج محاصيله ، فهو ولا شك إنما كان يقامر بمحصوله على المطر والرياح والصقيع والزمهرير إلخ . . .

وحتى عهدنا هذا تستخدم بعض الشعوب طرقاً بدائية فى التكهن بالأحوال الجوية لفائدة الزراعة . إلا أن الأرصاد الزراعية تعالج بالطرق العلمية السليمة مختلف المسائل المتعلقة بنمو النبات والبيئة المتحكمة فيه خلال فترة النمو ، ثم تأثير هذه العناصر على انتشار الأمراض والأوبئة التى تنتاب النبات أو تؤثر على نموه ، وكذلك عوامل البيئة التى تتحكم فى التربة التى هى بدورها نتاج مناخ سابق .

ولقد أظهرت التجارب التى أجريت أخيراً تحت إشراف العلماء المختصين الأهمية البالغة التى تكمن وراء التغيرات التى تحدث فى الطقس من عام إلى آخر . هذا كما أن التفاوت المشاهد فى إنتاج أى محصول بسبب الاختلافات التى تطرأ على الأحوال الجوية ما هى فى واقع الأمر سوى المحصلة الفعلية لجميع التغيرات التى تعانيها العوامل المتحكمة فى المحصول ، مثل : السماد ، وكيفية معالجة التربة ، ومقاومة الحشرات ، والتقلبات الجوية ونحوها .

هذا وتتوقف كمية البذور اللازم بذرها من أى نبات معين فى مساحة معينة من الحقل إلى حد كبير على الحالة الجوية قبل عملية البذر وخلاله . ولمثل هذه الاعتبارات كلها أصبح علم الرصد الجوى الزراعى لا يقل أهمية عن علوم الزراعة الأخرى المعروفة كعلم الأراضى والمحاصيل والكيمياء والمبيدات ونحوها . . .

وفى أية بقعة من الحقل يحدث المحصول السائد تغيرات هامة فى البيئة الطبيعية المحيطة به . وفى واقع الأمر نجد أن لكل محصول مميزاته الخاصة التى تصحبه وتسبب انحرافاً ظاهراً فى مناخ المنطقة بالنسبة إلى المناطق المماثلة لها والتى تجاورها من الأرض الجرداء أو المزرعة بمحصول آخر . ومعنى ذلك أن النباتات النامية فى أية بقعة معينة إنما تعكس صورة مباشرة وواضحة لمعالم مناخ تلك البقعة ، وكذلك ما قد ينتشر فيها من أوبئة وآفات زراعية ، ومدى إمكان استمرار هذا الانتشار .

ولقد ظهرت أهمية التعاون الدولى فى هذا الميدان إثر ما بدا من الحاجة الماسة للقيام بأبحاث فيه ، وكان لزاماً أن تقوم منظمات دولية تتعاون

على دراسة علاقة الأحوال الجوية بالمحاصيل الزراعية من كافة الوجوه . ومن هذه المنظمات لجنة الأرصاد الزراعية الدولية التابعة للهيئة العالمية للأرصاد الجوية ، وهى التى تتولى تشجيع وتنظيم هذه الدراسات والبحوث كلها فى مختلف دول العالم . وعن طريق لجنة الأرصاد الزراعية الدولية هذه تم استخدام أحدث النظريات ، كما تم تطبيق آخر النتائج التى توصل إليها الباحثون فى كثير من أقطار العالم .

وإننا لنجد اليوم فى متناول أيدينا دراسات وافية عن تأثير الهضاب وسفوح الجبال وتواجد المدن والغابات . . . وظروف البيئة المختلفة على العناصر الجوية خلال الطبقة الهوائية القريبة من سطح الحقل .

هذا كما أن لدينا نتائج ممتعة حقاً عن الطريقة التى تتغير بها كل من درجة الحرارة والرطوبة النسبية مع الارتفاع عن سطح الأرض داخل الحقل ، وكذلك عن طبيعة هذه التغيرات كلها واختلافها من يوم إلى آخر ، بل ومن ساعة إلى أخرى ، وذلك فوق الأرض الجرداء تارة ثم فوق الأرض المزروعة ببعض النباتات تارة أخرى .

ومن المعروف علمياً أن كلا من التربة والحبة تحمل معها آثار الأجواء السابقة التى تعاقبت عليها . فالتربة التى هى نتاج مناخ سابق إنما تستجيب إلى الأمطار أو الفيضانات ، وأمواج الحر والبرد ، وعواصف الرمل أو الرعد ، التى تعاقبت عليها فى مختلف العصور حتى تم تكوينها ونضجها ، أما الحبة فهى تحمل بين طيات تركيبها الوراثى ما صادف سلالتها من أجواء فى الماضى القريب .

١١ – المطر الصناعى

أهم العناصر الجوية ذات التأثير المباشر على حياة الإنسان وثروته بعد درجة الحرا ة هو المطر . فهو مصدر المياه العذبة على الأرض ، وعليه يتوقف كيان الزراعة التى هى ينبوع الرخاء المستفيض ومورد الثرأوة الدائم منذ القدم .

والمعروف أنه إذا ما قلت كمية المطر عن معدلها فى إقليم ما أجدبت الأراضى وأقحلت المراعى ونفقت الماشية ، وقد لا ينصلح حال الإقليم إلا بعد سنوات . فى صحراوات مصر التى يرتادها الأعراب تبور الأرض ويعم القحط إذا قل المطر عن معدله .

ومهما يكن من شىء فإن أعمال الرى والرعى ، سواء كانت باستخدام المطر مباشرة أو بالأنهر والترع والقنوات ، تتوقف على ما تجود به السماء من مطر كل عام . ومنذ القدم عرف الإنسان البدائى قيمة المطر لحياته وحياة ماشيته ، فكان ولا يزال يعالج قلته وشحته بالسحر والشعوذة ، وفى كثير من الشعوب المتحضرة تستخدم الصلاة – ومنها صلاة الاستسقاء – لتجود السماء بالماء .

ولقد ثبت الاستسقاء بالكتاب والسنة – قال تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً » – . وكان الرسول (ص) يستسقى فيدعو الله تعالى . ومن دعائه : « اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع

والضنك ما لا نشكو إلا إليك ؛ اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع وأنزل علينا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً فأرسل السماء علينا مدراراً » .

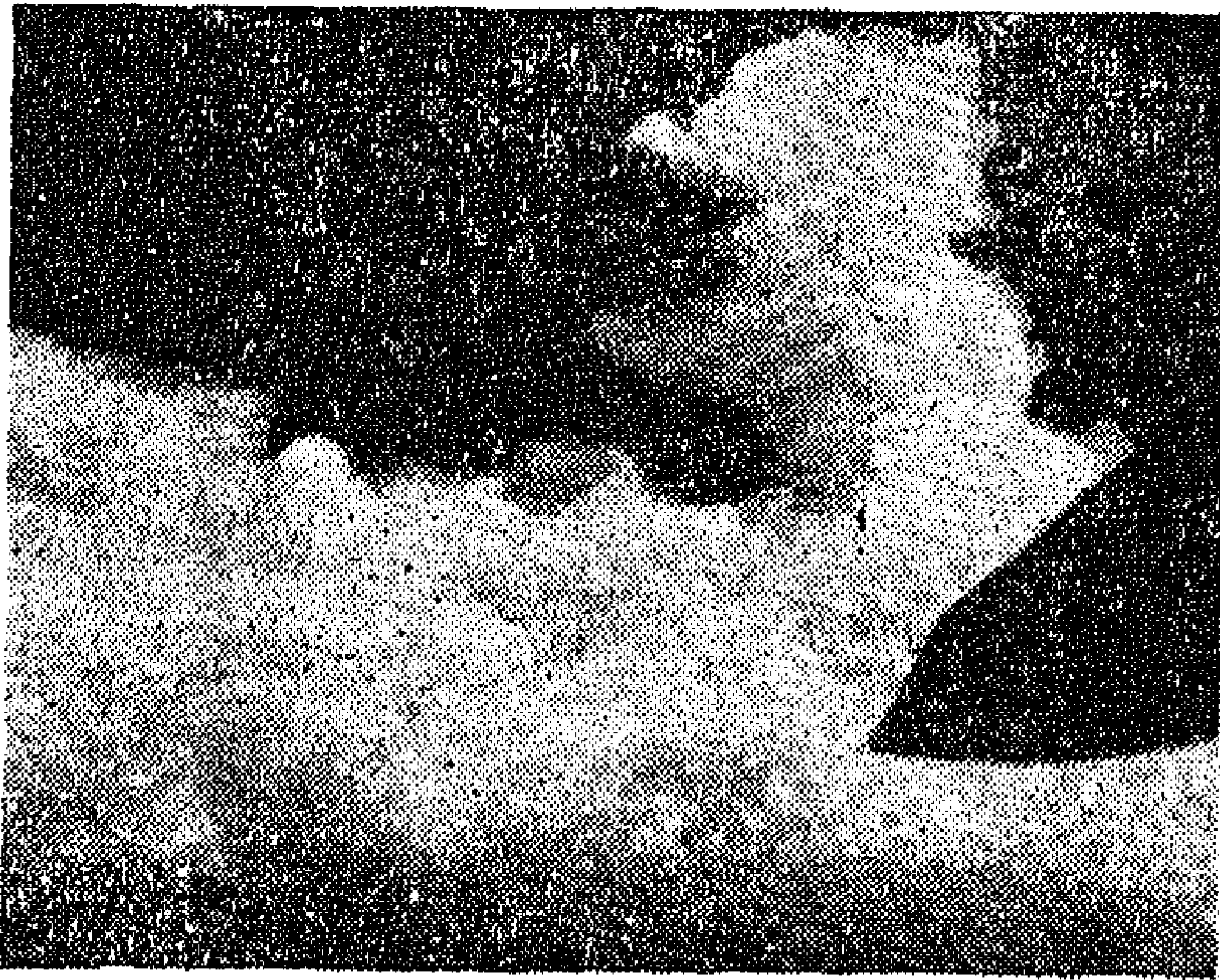
هكذا عالجت أو تعالج الشعوب على اختلاف ما بينها من نزعات فكرية وثقافات علمية جفاف البلاد ، ولكن لأهل العلم الطبيعى مذهباً غير تلك المذاهب ورأياً بنود أن نكشف عنه ، خصوصاً وأن كميات المطر الشتوى فى شمال جمهوريتنا آخذة فى التناقص على النحو الذى سبق شرحه .

وحتى الآن يتلخص المقصود من المطر الصناعى فى محاولة (عصر) السحب العابرة القابلة للإمطار ، وذلك بتوليد حالات من فوق التشبع داخلها بطرق صناعية . والمعروف أن الهواء يحمل كميات متفاوتة القدر من بخار الماء ، ولكل درجة حرارة حد أقصى لكمية بخار الماء التى يمكن أن يحملها الهواء . ويحدث هذا القدر الأقصى حالة التشبع . وكلما انخفضت درجة الحرارة كلما قلت قدرة الهواء على حمل بخار الماء . ومعنى ذلك أن كمية بخار الماء اللازمة لتشبع الهواء إنما تقل كلما انخفضت درجة الحرارة ، ويتحول البخار الفائض عند التبريد إلى نقط من الماء على جسيمات خاصة صغيرة تسمى نويات التكاثف .

والمعروف علمياً كذلك أن بخار الماء اللازم لتشبع الهواء عند درجة حرارة معينة تتوقف على نوع نويات التكاثف المنتشرة فى الهواء . فعندما تكون هذه النويات سائلة يتطلب التشبع درجة من الرطوبة النسبية تساوى

نحو ١٠٠ فى المائة ، أما إذا وجدت فى الجو نويات تكاثف صلبة مثل جسيمات كلورور الصوديوم (ملح الطعام) فإن التكاثف يمكن أن يحدث عندما تكون الرطوبة النسبية ٧٥ فى المائة فقط أى أن الجو المشبع بالنسبة إلى الجسيمات السائلة يكون فى حالة من فوق التشبع إذا تواجدت فيه جسيمات صلبة صالحة للتكاثف . وهذا هو عين ما يحدث فى الإسكندرية مثلا فى الصيف عندما يتم تكاثف بخار الماء العالق فى الجو على الأشياء الصلبة القريبة من رذاذ البحر المتطاير مع الهواء ، فى حين لا تزيد الرطوبة النسبية على ٨٠ فى المائة . وأهم أنواع السحب الصالحة للاستمطار الصناعى هى السحب الركامية النامية ــ شكل (١٤) .ــ

ولما كانت مكونات مثل هذه السحب فى مناطقها السفلى والوسطى



شكل (١٤) سحب ركامية نامية

هى من نقط الماء الذى قد تنخفض درجة حرارته إلى ٣٠ د جة تحت الصفر مع بقائه فى حالة السيولة * . لعدم وجود نويات صلبة نجد أن السحابة وما فيها من بخار الماء تصبح فى حالة فوق التشبع إذا ما قذفت بمجموعة من نويات التكاثف الصلبة ، وعند ذلك يتكاثف قدر وفير من بخار الماء العالق فى جو السحابة ويتحول إلى نقط من الماء أو بلورات من الثلج أو هما معاً ، وهذا هو المقصود من عصر السحابة .

وجدير بالذكر كذلك أن نقط الماء فوق المبرد تكونُ عديمة الاستقرار ، بمعنى أنها تتحول كلها أو بعضها إلى بلورات من الثلج بمجرد ارتطامها بجسم صلب ، وهذا يزيد من حالات فوق التشبع فى المناطق التى تتواجد فيها النقط فوق المبردة داخل السحب الركامية . وأهم الطرق الصناعية المستخدمة لإنجاز ذلك هى :

١ ــ قذف بلورات من الثلج الجاف مباشرة بواسطة الطائرات أعلى السحب الركامية ، فإن هذه البلورات لا تلبث أن تهبط إلى المناطق الوسطى من هذه السحب حيث تتوفر نقط الماء فوق المبرد ، لتبدأ قصة سقوط المطر الصناعى .

وفى حالة المطر الطبيعى يحدث أن تتساقط بلورات من الثلج الموجودة فى أعالى السحب الركامية إلى المناطق الوسطى فيحدث فوق التشبع .

٢ ــ قذف مسحوق أو أبخرة يودور الفضة بدلا من بلورات الثلج ، أو حرقه بحيث يكون سحباً كثيفة ، وذلك إما بالطائرات أو مع التيارات

---

* يطلق عليها كذلك اسم النقط فوق المبردة .

الهوائية الصاعدة إلى مناطق تكون السحب ، ويتم ذلك بواسطة أجهزة خاصة بهذا الغرض أو بواسطة أفران لتوليد الأبخرة تعرف باسم (المولدات الأرضية) . ويودور الفضة من أجود نويات التكاثف الصلبة ، إلا أنه عندما تمر على قذفه (أو على توليد أبخرته فى الجو) أزمنة كبيرة فإنه يفقد كثيراً من خصائصه . ونشاطه كمساعد على التكاثف .

٣ — رش نقط من الماء أسفل السحب أو أعلاها ، فإن هذه النقط الصغيرة لا تلبث أن تنمو وتنقسم فى سلسلة متواصلة يكون من نتائجها حتما زيادة ، كميات النقط المتراكمة فى قاعدة السحابة . ويعقب ذلك نزول المطر . والسحب التى تغذى بهذه الطريقة لا تصل قممها عادة إلى درجات منخفضة أو أقل من الصفر .

ومجمل القول أنه لكل من هذه الطرق ظروفها الخاصة ونتائجها . فمثلا يمكن استخدام طريقة يودور الفضة فى حالة الهواء الصاعد أمام الجبهات الباردة — راجع شكل (١٥) — بواسطة الأجهزة الأرضية إلا أن المسألة إنما تتطلب إلى جانب ذلك تحديد مدى الاستفادة العملية من الطرق الصناعية والجزم بطريقة واضحة بأن المطر المتساقط إنما نجم عن الطريقة الصناعية المستخدمة وليس مما تجود به الطبيعة وحدها . وكل هذا يتطلب أجهزة خاصة ودراسات مستفيضة بدئ بها فعلا فى كثير من الدول .

ولقد أجريت منذ سنين بعض تجارب المطر الصناعى فى الباكستان ، واستخدم فى سبيل ذلك مسحوق ملح الطعام المستخرج من الجبال . وتدل التقارير العلمية على أن التجارب صادفت نجاحاً فى أغلب المناطق

الداخلية ، وهى التى وجد بالقياس أنها تنقصها كميات وفيرة من نويات التكاثف فى موسم الأمطار الموسمية ، وذلك يسبب بعدها عن البحر .



شكل (١٥) الهواء الصاعد أمام الجبهة الباردة

وهناك فى كثير من بقاع الأرض — مثل أمريكا — محترفون يقومون بإسقاط المطر صناعياً ، إلا أن طرقهم هوجمت من الناحية العلمية ، خصوصاً وأن نتائج أعمالهم كانت متضاربة ، مما جعل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تلجأ إلى تكوين لجنة فنية استشارية عام ١٩٥٣ ، الغرض منها دراسة أعمال هؤلاء المحترفين وتقدير مدى صلاحيتها ومبلغ نفعها بالنسبة إلى المزارعين والرعاة وغيرهم ، وكذلك من الناحية العلمية .

ولقد قامت هذه اللجنة بإعداد إحصائيات مطولة لمعظم التجارب التى أجريت فى أمريكا وفى الخارج . وفى الوقت نفسه قامت هيئتان بعمل مماثل بغية الوصول إلى جواب حاسم فى هذا الصدد ، ثم نشرت هذه الجهات الثلاث تقاريرها على الملأ . ولعل أوضح ما فى هذه التقارير

كلها بيان أن الآمال البراقة التى لاحت من بعض تجارب المشتغلين بالمطر الصناعى ، وعلى رأسها تجارب لانجمير وشفر عام ١٩٤٦ — ١٩٤٧ إنما هى مجرد آمال لا تبشر بالوصول إلى نتائج مؤكدة ، وكذلك الجزم بضرورة جمع المزيد من المعلومات المتعلقة بطبيعة السحب والهطول بوجه خاص ، والطرق التى يسلكها الجو فى حالات تلبد السحب بوجه عام .

ويلخص تقرير الهيئة العلمية الأولى ، وهو تقرير المجمع الأمريكى للرصد الجوى الذى صدر عام ١٩٥٢ ، خاصاً بالجهود العلمية التى بذلت فى العشر سنين السابقة ، فى اعتبار جميع المحاولات الخاصة باستمطار السحب حتى الآن مجرد تجارب علمية . هذا كما أمكن الجزم بأن الطرق المستخدمة حالياً تحتاج إلى تطوير ، إذ لا توجد على الأقل أسس قويمة يمكن الاعتماد عليها فى تقدير مدى نجاح كل تجربة على حدة من حيث الكم ، أى أنه يجب أن ترسم تلك التجارب مبدئياً بحيث تعطى أسلم النتائج وأوضحها . ويمضى التقرير فيقول :

إن هناك من الأسباب القوية ما يحملنا على الاعتقاد بأن التحسين الذى ننتظر إدخاله على عمليات بذر السحب إنما يتأتى أو يجيء عن طريق تجارب علمية صحيحة . ولهذا يجب تشجيع عمل مثل هذه التجارب بمؤازرة كل من يهمه الأمر .

أما تقرير الهيئة العلمية الثانية فهو التقرير الخاص بلجنة أرصاد المجمع القومى للعلوم ، ووقد نشر فى يناير عام ١٩٥٨ .

وأهم المسائل التى عالجها هذا التقرير موضوع مدى إمكانيات

البشر فى التحكم فى جو الأرض . ولقد أوصى التقرير بضرورة تدريب عدد وافر من الشبان المؤهلين علمياً للعمل فى الأرصاد وأبحاث طبيعة السحب من أجل خلق جيل ملائم ومدرسة متقدمة فى هذا الميدان تتعاون مع أقسام الجامعة التى تقوم ببحوث أساسية فى علوم الجو .

ونشر التقرير النهائى للجنة الاستشارية التى شكلتها الحكومة بعد ستة أشهر من تاريخ تقرير الهيئة الأولى .

وأهم ما أوصت به اللجنة فى هذا التقرير هو :

١ — ضرورة تشجيع أبحاث الخاصة بالأرصاد الجوية وما يدخل تحت طائلها على أوسع نطاق .

٢ — ضرورة توفر الإشراف العلمى السليم على هذه الأبحاث .

٣ — التوسع فى مجالات تخير الطرق والأهداف ، مع تقديم جميع التسهيلات المطلوبة من الجهات المعنية بالأمر .

ولقد لاحظ نفر من العلماء ممن درسوا التجارب وأحصوها ، أن متوسطات كميات الهطول زادت بما يعادل ٣٠ ٪ فى الأيام التى عولجت فيها السحب صناعياً على كميات الهطول فى الأيام التى لم تعالج فيها السحب صناعياً . وذلك خلال ثلاثة أعوام متوالية .

وسوف يواصل هؤلاء العلماء بحوثهم فى السنين القادمة للوصول إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها على أية حال .

ومهما يكن من شىء فإن القرائن تدل كذلك على أن نتائج تغذية السحب العابرة على السهول والوديان المنبسطة هى نتائج مائعة غير واضحة المعالم تماماً ، أما فى المناطق الجبلية فإن العمليات تكون عادة ناجحة .

وينادى البرنامج الذى تقدمت به اللجنة الاستشارية المذكورة بضرورة زيادة التعمق فى دراسة الأسس العلمية الخاصة بعمليات التحكم فى الجو ، وذلك عن طريق مساعدة العلميين المشتغلين بطبيعة السحب وما يتصل بها . كما تبين اللجنة فى جلاء أنه ليس من شك فى أن النجاح النهائى المنتظر لطرق استمطار السحب صناعياً إنما يتوقف إلى حد كبير على ازدياد معلوماتنا الأساسية بالوسائل التى تتبعها الطبيعة فى تكوين المطر والثلج . وتنظر اللجنة إلى الطرق المستعملة الآن فى استمطار السحب نظرتها لمن يحاول الصيد فى الظلام سواء بسواء . ولكن ليس معنى ذلك أننا لم نتعلم شيئاً من الجهود التى بذلت أو أننا لم نكتسب أى خبرة فى هذا الميدان ، فالركب يسير ، ولكن علينا قبل كل شىء أن نتوصل إلى طريقة ناجحة لرصد الهطول الطبيعى وقياس كميات الهطول الصناعى .

وتتضمن برامج اللجنة كذلك دراسات مستفيضة (نظرية ومعملية وفى الحقل) تحت إشراف علماء الطبيعة الجوية والكيميائية والإحصاء الرياضى والهندسة ، إلى جانب المتخصصين فى الرصد الجوى . ويعقد الأمل على الاستمرار فى زيادة المتخصصين العلميين فى هذه الفروع الذين يعلمون دائبين فى ميدان المطر الصناعى .

وفى أحد المؤتمرات التى عقدت فى فبراير عام ١٩٥٨ خاصة بالمطر الصناعى تبين أن الحاجة لا تزال ماسة إلى :

١ – استنباط أجهزة دقيقة لقياس نوبات التكاثف .

٢ – استنباط أجهزة دقيقة لقياس حجوم نقط المطر .

٣ – استنباط طرق سريعة وبسيطة لقياس الكميات الكلية لمحتويات

السحب من الماء ، وبخاصة السحب الركامية .

٤ — استنباط أجهزة لقياس الشحنات الكهربائية فى السحب ، وكذلك تيارات الهواء داخلها ومن حولها عند نموها .

وأهم ما تتضمنه الأبحاث العملية فى هذا الميدان ، هو دراسة مصادر المياه فى السحب . وتتضمن هذه الدراسة نويات التكاثف وتوزيعها والدور الذى تقوم به ، وكذلك بلورات الثلج والطرق المؤدية إلى تكوينها ونموها . إلى جانب دراسة خصائص كتل الهواء التى تتولد فيها السحب المختلفة الصفات وبخاصة الركامية .

أما بحوث الحقل فهى أكثر مدى من بحوث المعمل وأوسع منها مجالا بدرجة عظيمة ، فهى تشمل مثلا :

١ — نويات التكاثف الطبيعية ، ومصادر الكهرباء فى السحب وديناميكا السحب عامة .

٢ — دراسة أنواع السحب الصغيرة البسيطة فى سبيل معرفة ما يطرأ عليها تحت تأثير عوامل تغير الوقت ودرجة الحرارة والرطوبة وحجوم نويات التكاثف .

٣ — دراسات نظرية على إحداث التكاثف ببلورات الثلج ونقط المياه مع مقارنة هذه الدراسات النظرية بنتائج التجارب التطبيقية فى الحقل فى كل مرة .

٤ — دراسة طبيعة الهبوط تحت عامل البذل الصناعى .

وعمد الأمريكيون فعلا إلى البدء بدراسة طرق الهطول التى تصاحب عواصف شاطئ المحيط الهادئ ، وقد استخدموا فى سبيل ذلك إرصاد

عناصر متعددة مثل :

(ا) كمية المياه التى تحتويها السحب .

(ب) درجة تركيز نويات التكاثف .

(حـ) معدل التغير فى مجال الأرض الكهربى .

(د) عناصر جوية قياسية ، كالضغط ودرجة الحرارة وكميات الهطول المتساقطة على مساحة واسعة ، بها شبكة كثيفة من محطات الرصد ..وبهذه الطريقة أمكن مضاهاة كميات الهطول الطبيعى بكميات المطر التى تتساقط صناعياً .

٥ ــ دراسة تأثيرات تيارات الشهب التى تدخل فيها الأرض من آن لآخر على عمليات الهطول فى الجو .

٦ ــ دراسة التأثيرات الطبيعية لتغذية السحب بأبخرة يودور الفضة من الطائرات ، وكذلك قياس كميات الهطول الصناعى فى مثل هذه الحالات . ولعلنا نهتم فى مثل هذه المرحلة بالذات ، بدراسة النتائج الطبيعية التى تنجم فى السحب بسبب تغذيتها بيودور الفضة من حيث نموها فى الاتجاه الرأسى ونمو مكوناتها . . . ولا ينصب اهتمامنا فى الوقت الحاضر على كميات المطر الصناعى التى تهطل منها . وقد تقودنا هذه الطريقة إلى صوغ نظرية سليمة تفسر التغيرات الطبيعية التى تمر بها السحابة أثناء نموها لتعطى المطر . وقد نعتبر تكون كهرباء السحب من الأسباب التى تعطى الهطول وليست نتيجة طبيعية لعمليات الهطول أو نمو مكونات السحب الثلجية أو المائية كما كنا نظن . ومثل هذه النقطة تحتاج إلى بحث مستفيض على الطبيعة (فى الحقل) .

٧ – استخدام الرادار فى تتبع نتيجة كل خطوة تخطوها أو كل تطور يطرأ داخل السحب . أما الدراسات الإحصائية فنجدها تتطلب استمرار جمع الأرصاد وتحليل عناصر الجو واستنباط العلاقات الطبيعية التى تربطها بعضها ببعض .

ومجمل القول أن معظم التجارب التى أجراها المحترفون أو الهواة على السحب من أجل استمطارها صناعياً لا تعطينا إلى يومنا هذا إلا بصيصاً من الأمل ، ولا تنبئ إلا عن خطوات وئيدة فى سبيل التقدم العلمى فى هذا المضمار إذا هى سارت على هذا المعمل نفسه بالطرق المستخدمة نفسها .

ولا يعنى ذلك قطع الأمل بتاتاً إذ نرى الجهات العلمية المختصة توصى – بعد دراسات مستفيضة – بضرورة الاهتمام بتجارب المطر الصناعى وتوسيع نطاق الخبرة فيها قدر المستطاع ، بتشجيع من الدولة ومؤازرة الجهات التى يهمها الأمر فى كل إقليم . والحق أننا سبق أن نادينا بهذا المبدأ وطالبنا بمسايرة الركب فى هذا المضمار الذى لا نعتبر أنفسنا متخلفين فيه بدرجة تضاهى عشر معشار تلك الدرجات التى تخلفنا فيها فى بعض فروع العلم الأخرى . فعلى الجامعة وغيرها من جهات البحث أن تهتم بهذا الأمر .

١٢ — السراب

السراب من أعجب ظواهر الطبيعة التى حيرت الإنسان منذ القدم . وهو يظهر فى السهول الواسعة الحارة والبحار الساخنة وحقول الجليد ، حيث يسود الهدوء ويشعر الإنسان برهبة الطبيعة .

وقديماً ظن الإغريق أن السراب من عمل إله الخوف لكى يرهب المسافر ، ولقد ذكر السراب فى كثير من الكتب القديمة على أنه شىء لا وجود له كالخيال يظهر فى السماء والجو ، وعند ما غزا نابليون مصر ذهل جنوده وكاد يستحوذ عليهم الجنون عند ما رأوا الواحات تفيض بالماء ثم تصبح أثراً لعين عند اقترابهم منها ، مما حمل علماء الطبيعة الفرنسيين على دراسة هذه الظاهرة بعد أن ظن القوم أن حرارة الجو كانت تذهب بعقولهم . وأظهر العلماء أن الصور التى يرونها لم تكن من ألاعيب الشياطين وحيلهم التى يخيفون بها البشر وإنما انعكاسات ضوئية لأجرام حقيقية . فأى جسم مادى يعكس أشعة الضوء فى كل اتجاه ، وتسير هذه الأشعة فى خطوط مستقيمة إذا كان الوسط متجانس الكثافة . أما إذا كان الوسط غير متجانس من حيث الكثافة مثلا كما هو الحال فى طبقات الجو السفلى الملاصقة لجو الأرض الساخن فإنها تنكسر إلى أعلى أو إلى أسفل أو إلى أى من الجانبين ، بحيث يمكن رؤية الأشياء التى تصدر عنها هذه الأشعة على مسافة غير بعيدة من سطح الأرض . والمعروف علمياً أن كثافة الهواء الساخن أقل من كثافة الهواء البارد ، ومن هنا ينشأ

الاختلاف فى معاملات الإنكسار للضوء وحيوده عن مساراته المستقيمة . وكثيراً ما غرر السراب بالمسافر عبر الصحراء عند ما يتملكه الظمأ فيمم شطر الماء الذى لا وجود له ! ومن أشهر أنواع السراب الذى حير الملاحين قروناً برمتها سراب مضيق مسينا الذى يظهر بأكمل معانيه عند ما يكون الجو حارًّا أو عند ما تسكن الرياح. فى مثل هذه الظروف الجوية الخاصة تظهر مدينة لا وجود لها ، مما حمل القوم على خلق الأساطير من حولها . ومن هذه الأساطير ما يدعى أن المدينة ملك لإحدى ملكات الجن أو السحرة الذين يعيشون تحت الموج !! وهى مدينة تعج بالقصور والممرات . وقد يعمد السحرة أحياناً إلى إخراجها فوق سطح الماء . ومن العجيب أن وصف كثير من المسافرين هذه المدينة بالتفصيل وأدعوا أنهم رأوا فريقاً من الناس يسيرون فى شوارعها !

والتفسير العلمى لهذه الظاهرة الجوية هى أنها مجرد انعكاس لمدينة مسينا المجاورة يحدث فى طبقات الجو السفلى التى تعلوا سطح البحر الساخن أو التى تتراكم فيها أبخرة المياه فى حالة الاستقرار أو الانقلاب. الحرارى ، لأن وفرة أبخرة المياه فى الجو تقلل من كثافته كذلك . وهناك تفسير آخر يقول إن هذه المدينة ما هى إلا حالة من حالات التكبير الجوى غير العادى أو امتداد للشاطىء وصخوره وأعشابه .

وقد يعطى السراب صورة مقلوبة رأساً على عقب كما هو الحال مع برج إيفل . وأكثر ما يتكون مثل هذا السراب فى الماء البارد حيث شاهد البحارة فجأة سفينة أخرى تظهر بالقرب من سفينتهم . وفى هذه الحالة نجد أن أشعة الضوء بدلا من أن تنحى إلى أعلى عند مرورها

خلال حزمة من الهواء الساخن أو الرطب تنخفض إلى أسفل إثر ارتطامها بطبقة من الهواء أعظم كثافة بسبب برودتها النسبية .

وقد يحدث أن ترى الأشياء من وراء الأفق ، كأن ترى الشمس مثلا فى الأفق إثر غروبها أو قبل شروقها بثوانى معدودات ، وتشاهد نفس الظاهرة مع القمر والنجوم عند ما تكون قرب الأفق . وتعليل ذلك أن الأشعة الأفقية تقريباً تنحرف أو تخرج عن مسارها المستقيم بدرجة أكبر من الأشعة العمودية .

ولقد نجم عن هذا السراب الذى يخدع الناس برؤية أشياء بعيدة عن مدى البصر اختلاف الأساطير التى تتحدث عن المدن والبلاد المفقودة . ومن الجائز فى ظل هذا التحليل أن تكون قارة أطلنطى المفقودة التى يقولون إن الطوفان قد غمرها فى القدم ماهى إلا بعض أنواع السحب العابرة التى خدع سرابها الملاحين !

ومن أمثلة ذلك أيضاً بعض أرجاء الأرض التى تم اكتشافها من عرض البحر ثم ظهر أنه لا وجود لها . وقد كان الملاحون يقتفون أثر هذه الأراضى التى تظهر عليها التلال والوديان أو تجرى فيها الأنهر ، إلا أنهم عند ما راحوا يتتبعونها ويقتفون أثرها كانت تتغير وتتبدل أمام أنظارهم حتى تختفى بغروب الشمس . وربما تكون معظم هذه الأراضى من سراب ثلج البحر .

ويعلل بعض العلماء ظاهرة الأطباق الطائرة بأنها من ظواهر السراب كذلك رغم ندارتها ، وأن السبب فى تكوينها انعاكسات الأجسام اللامعة أو المضيئة إما صناعياً أو طبيعياً . وقد يلعب ضوء القمر دوره فى هذا الشأن .

١٣ — من عجائب الفضاء القريب

يستطيع الناس الذين يعيشون غير بعيد عن القطبين ، فيما لا يعدو خطى عرض ٤٥ درجة شمالا وجنوباً ، أن يروا السماء وقد غشتها ضياء أخاذة متلألئة . ويتكرر ذلك نحو عشر أو اثنى عشر مرة خلال العام الواحد . وإذا ما قدر لك أن نعيش خارج نطاق هذه الحدود فإنه لن تتاح لك فرصة رؤيتها بهذه النسبة العالية . ويطلق على هذه الضياء العالية اسم الفجر القطبي أو (الأورورا) كما قدمنا ، وعلة ذلك أن حدوثها يكاد يقتصر على المناطق القطبية ، على أن من العجيب أن قد شوهدت (الأورورا) هذه فى أماكن تمتد جنوباً إلى حيث تقع هافانا عاصمة كوبا . ومن أشهر ما شاهد الناس فى تلك الأرجاء الفجر القطبي الذى تم رصده فى فبراير عام ١٩٥٨ .

ويعرض الفجر القطبي أشكالا متباينة ، فكثيراً ما يرى على هيئة قواس قوس عظيم من الضياء التى تتذبذب ببطء ، وقد تنبثق عن هذه الأبحار هائلة على هيئة الإبر التى تبدو كالأنوار الكاشفة التى تمتد تجاه سمت الرأس . وقد يحدث أن تظهر الأنوار على هيئة ثوب كبير من القماش ينتشر عبر السماء ، ويتدلى كالستائر الملفوفة التى ترنح ببطء فى مهب الريح مغيرة بذلك من شكلها ولونها ! . وأحياناً يملأ نور الفجر القطبي السماء بأكمله ـ راجع شكل (٥) .

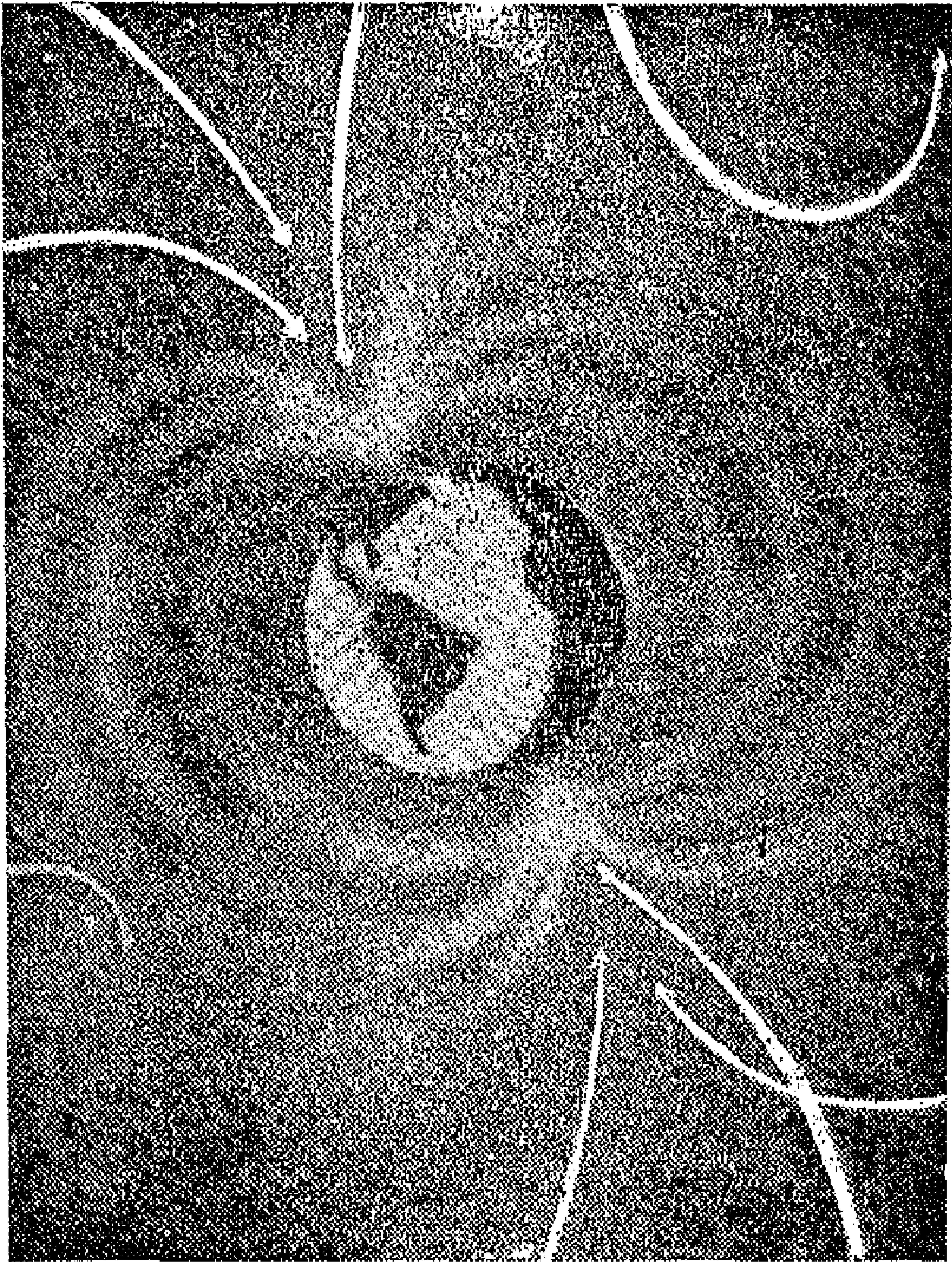
وبطبيعة الحال درس العلماء ظاهرة الفجر القطبي منذ زمن طويل

وتوصلوا إلى أنه عندما تتوهج الشمس خلال الفترات التى تنشط فيها وتكثر البقع الشمسية . (وهى براكين سطح الشمس) تطلق الشمس أكداساً مكدسة من الكهارب (الإلكترونات) ونوى العناصر . وتعبر هذه المجموعات الفضاء الكونى بسرعة تصل إلى عدة مئات الأميال فى الثانية الواحدة ، ويقترب بعضها من الأرض ، إلا أنه لكى تدنو من جوها وتتدلى فيه يجب أن تخترق تلك الكهارب مجال الأرض المغناطيسى .

ونحن لا نعرف تماماً شكل مجال الأرض المغناطيسى ومقدار قوته ، إلا أننا نعمد إلى قياسه بما نرسل من أقمار صناعية وصواريخ ، أو نقدره بالطرق النظرية المبنية على الحساب السليم قدر المستطاع . . والمعتقد على أية حال أن المجال المغناطيسى هذا تمثله حزم الضوء المرسومة فى شكل (١٦) . ويمكن ملاحظة أنه على طول المناطق الاستوائية تتحد خطوط قوى المجال المغناطيسى فى الفضاء القريب مع الأرض نفسها فى مركز واحد ، بينما ينحنى المجال قرب القطبين إلى أسفل حتى يصل إلى السطح . والعجيب أن أرصاد الأقمار الصناعية تشير إلى عدم وجود مجال كهذا من حول القمر .

ولا تستطيع الكهارب التى ترسلها الشمس أن تخترق حزام المجال المغناطيسى هذا بسهولة ما لم تكن طاقاتها عالية . والذى يحدث أن معظم هذه الكهارب يساير خطوط قوى المجال المغناطيسى بدلا من اختراقها ، فتراها تتبع خطوط المجال وتنساب معها . ولهذا السبب نجدها تميل إلى التراكم والتجمع عند القطبين المغناطيسيين للأرض .

والذى يحدث بعد ذلك أن الكهارب لا تصل إلى سطح الأرض ،



شكل (١٦) يمثل مجال الأرض المغناطيسى

وإنما تتصادم مع جزئيات الأيونوسفير وهى الطبقة المتأنية من غلاف الأرض الجوى وقد سبق ذكرها . والمعروف أنه ينجم عن هذا التصادم إعادة ترتيب الكهارب التى تتركب منها (الأيونات) السابحة فى منطقة الأيونوسفير . وعندما يعاد ترتيب الذرات داخل الأيون نجده يطلق بعض

الطاقة . وقد تكون هذه الطاقة المنطلقة على هيئة أشعة (إكس) أو الأشعة السينية ، أو حتى على هيئة ضوء عادى مختلف الألوان ، وهكذا نجد أنه عندما تصطدم الكهارب المنبعثة من الشمس بأيونات الأيونوسفير يعمل بعضها على طرد بعض كهارب الأيونات وزحزحة الباقى عن مكانه وبذلك تنطلق بعض الطاقة فى صورة الضوء المرئى . وتعطى الأيونات المختلفة ألواناً متباينة ، فمثلا ينجم عن جانب من أيونات غاز الأوكسيجين اللون الأخضر ، كما تعطى بعض أيونات الأزوت اللون الأحمر ، وهكذا يتكون الفجر القطبى . ونحن لا نستطيع أن نجزم تماماً بالمدى الذى تنتشر إليه الأيونات متوغلة فى الفضاء الكونى القريب . ومن الجائز أن يتمكن العلماء باستخدام الأقمار الصناعية ومحطات الفضاء من تحديد امتدادات الطبقة المتأنية داخل الفضاء الكونى » . والذى حدث أن معالم تلك الأرجاء درست بالتفصيل عن طريق رصد الفجر القطبى نفسه إلا أن عصر الفضاء غير من طبقة هذه الدراسات وأحالها إلى قياسات مباشرة بالصواريخ والأقمار الصناعية .

ويذهب فريق من الناس (ممن يحاولون فى هذا العصر تفسير ما جاءت به الأديان من خوارق على أنها من سنن الطبيعة وقواميسها النادرة !) إلى أن الفجر القطبى هذا ما هو إلا ليلة القدر . ومثل هذا القول خاطئ بطبيعة الحال كما سبق أن ذكرنا ، فالفجر القطبى ما هو إلا ظاهرة طبيعية من الماجيب جو الأرض العلوى والفضاء القريب المحيط به .

وذهب بعض الناس إلى إمكان محاكاة الطبيعة وتقليدها فيما تصنع بالطرق العلمية ، والذى يدفعهم على ذلك إيمانهم بأن العلم لا يقف عند حد

معين . فلما كان مجال الأرض المغناطيسي تسرى خطوط قواه فى الفضاء المحيط بالأرض وتقترب من سطحها عند خطى طول صفر و ٣٠ درجة غرباً بسبب ميل المحور المغناطيسى للأرض بالنسبة لمحور دورانها ، كان من الطبيعى أن يفترض بعض الناس أن تفجير القنابل الذرية فى أعالى الجو يمكن أن يولد من الجسيمات الأولية المشحونة بالكهربية كميات وفيرة يحتجزها مجال الأرض المغناطيسى [١]. وينجم عن ذلك أن تتكون قشرة رقيقة من الإلكترونات (أو الكهارب) التى تغلف جو الأرض العلوى وتقترب من سطحها فى بعض الجهات .

هذا الرأى الخلاب من وجهات نظر عديدة تقدم به رجل يدعى نيقولا قسطنطين كريستوفيلوس ، وكان يرمى أولا وقبل كل شىء إلى استغلال النظرية الطبيعية المعروفة القائلة بأن الإلكترونات التى لها طاقات مناسبة يمكن أن تختزن بواسطة مجال مغناطيسى قوى ، وبذلك تدخر لاستخدامها عند اللزوم . وقد رأى نيقولا هذا أنه ما دامت الأرض يحيط بها مجال مغناطيسى قوى نسبياً فإن هذا المجال يمكن أن يحتجز الكهارب التى يصنعها البشر فى أعالى جو الأرض .

وكما قدمنا تحدث هذه الظاهرة فعلا فى الطبيعة ، لأن مجال الأرض المغناطيسى يدخر بين ثناياه جانباً من الكهارب التى ترسلها الشمس ضمن الإشعاعات الكونية .

وعندما تتجمع هذه الكهارب وتدخل جو الأرض الخارجى ، أو تدخل

---

(١) من خواص المجالات المغناطيسية احتباس الكهارب سريعة الحركة على طول خطوط القوى .

طبقة الأيونوسفير وخاصة حيث تدنو فتتدلى قرب القطبين ، تحدث ظاهرة الفجر القطبي – راجع شكل (١٦) – التي يلي ظهورها عادة انتشار العواصف المغناطيسية واضطراب الإذاعات اللاسلكية في جو الأرض .

وعلى هذا الأساس تساءل العلماء : هل يستطيع البشر حقاً أن يصنعوا الحالات التي تؤدي إلى مثل ظهور الفجر القطبي ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلابد من محاولة ذلك ضمن برنامج السنة العالمية لطبيعيات الأرض ، ولابد أن ظواهر جديدة وغريبة يمكن أن تشاهد من جراء ذلك ، وعندما أجرت الولايات المتحدة الأمريكية تجارب قنابلها النووية في جنوب الأطلسي ضمن برامج آرجس تضمنت تلك البرامج اختبار مدى صحة آراء اليوناني كريستوفيلوس ، فعمدت إلى تفجير قنابلها من ارتفاع ٣٠ كليومتراً فوق سطح الأرض في ٢٧ من أغسطس ثم ١ في ٣٠ من سبتمبر عام ١٩٥٨ ، حتى يمكن رصد ما ينجم عنها من ظواهر طبيعية في الفضاء القريب أو في جو الأرض على نطاق واسع يشمل سطح الأرض كله خلال السنة العالمية لطبيعيات الأرض . ولقد انبعثت إثر تلك الانفجارات كميات وكميات وفيرة من الكهارب السريعة ظل جانب وفير منها حبيس الفضاء القريب من الأرض على هيئة قشرة (هي قشرة آرجس كما تعرف اليوم) . ورصد العلماء وقدروا مدى الاضطرابات الأثيرية التي نجمت عن ذلك بعد أن لمسوا ما حدث من شذوذ في استقبال أنواع مختلفة من أمواج الأثير ومن بينها أمواج الرادار ، وظهر الفجر القطبي منيراً أعالي الجو ، وامتد إلى أسفل على طول خطوط قوى المجال المغناطيسي المار

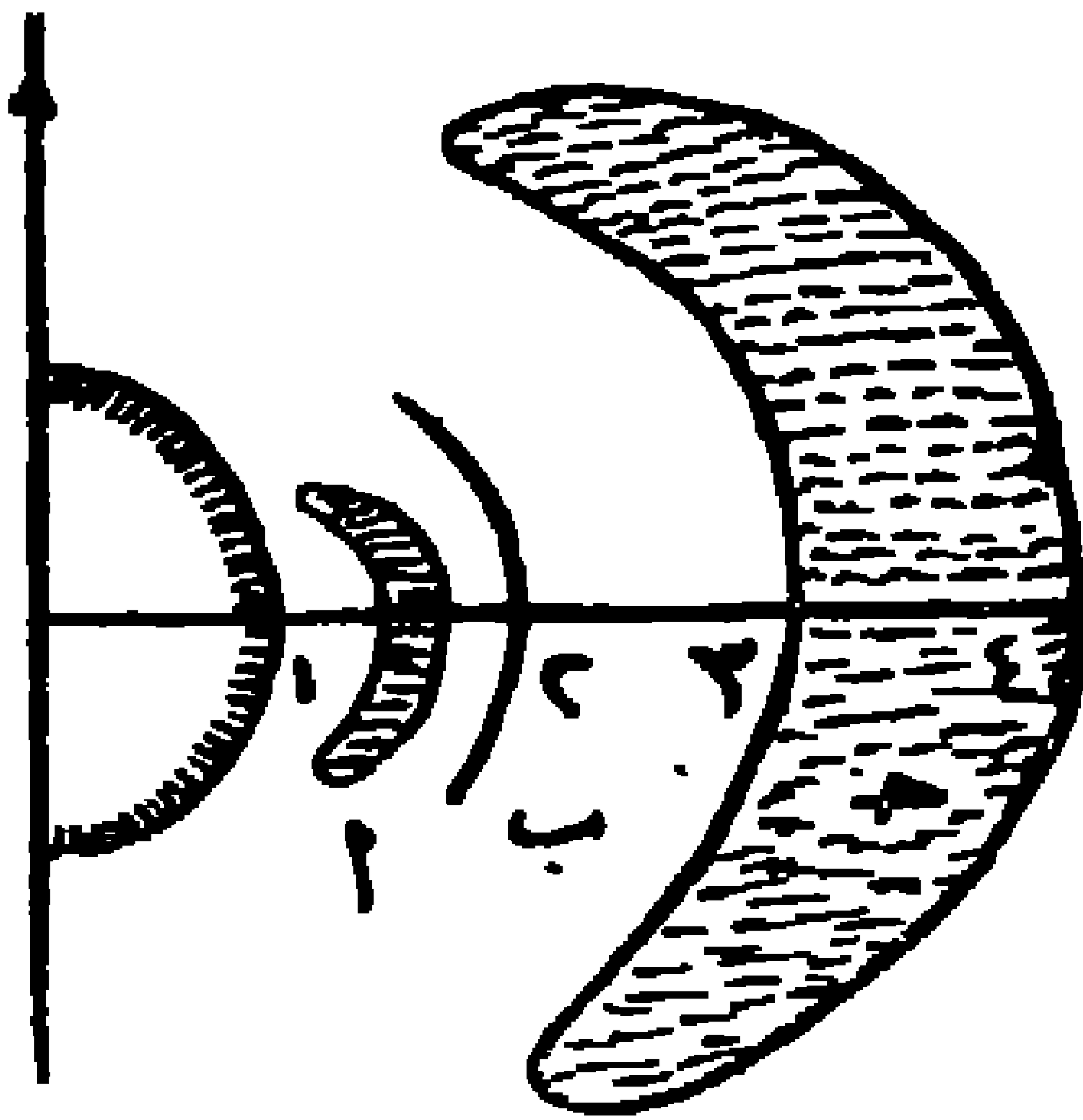
بنقطة الانفجار النووى ، مكوناً ألواناً من ظواهر الضوء . ورصدت الأورورا كذلك فى جزء الآزور حيث يعود خط قوى المجال المغناطيسى سالف الذكر داخلا جو الأرض ومقترباً من سطحها فى نصف الكرة الشمالى . هذا كله إلى جانب ما رصد من عواصف مغناطيسية فى الأماكن القريبة من مكان الانفجار .

ولهذه النتائج العلمية قيمتها العظمى فى الحروب لأنه عندما تفجر قنبلة نووية على ارتفاع مئات الأميال فى مكان يختار اختياراً علمياً ، يمكن أن تعطل أجهزة الراديو والرادار عن أداء وظيفتها فى مكان معين بالذات . فمثلا فيمكن أن يولد الانفجار النووى فى أقاصى المحيط الهندى فجراً قطبياً فوق شرق أوربا كما يعطل أعمال الإذاعة والاستقبال الأثيرى فيها .

وكان ضمن برامج الأقمار الصناعية رصد ما تحتجزه الطبيعة من مكونات الأشعة الكونية حول الأرض ، داخل أحزمة عرفت أخيراً باسم أحزمة فان آلين الإشعاعية ، وقد كشف أمرها القمر المستكشف رقم (١) الذى أطلق فى ٣١ يناير سنة ١٩٥٨ وكان يحمل معه عدداً من عدادات جيجر التى أعدها فان آلين ليقيس بها شدة الأشعة الكونية . واستمر إرسال الأقمار الصناعية حتى أطلق المستكشف السادس فى ٢٧ من يوليو عام ١٩٥٨ ليسبح فى مدار يميل بزاوية قدرها ٥١ درجة على خط الاستواء ، وأمكن الحصول على معلومات قيمة عن طبيعة درجة تركيز وتوزيع الإشعاعات الطبيعية ورصد القمر كذلك نتائج برامج آرجس ، وبذلك أمكن رسم الشكل الطبيعى لأحزمة فان آلين بالنسبة لقشرة آرجس ، كما قيست درجات تركيز الإشعاع فى كل بقعة منها على النحو الموضح فى

شكل (١٧) . ورسم أيضاً شكل المجال المغناطيسى للأرض .

ولقد استخدم فان آلين أجهزة صغيرة معقدة لقياس الأشعة الكونية ، تتكون أجزاؤها الرئيسية من أنابيب دقيقة من عدادات جيجر المعروفة ، مع آلات دقيقة لتعيين عدد الدقات التى تحدث وإرسالها فى صورة إشارات كهربية ، وغلف الرجل بعض هذه الأجهزة بألواح الرصاص حتى يقتصر رصدها على النوى ذات الطاقات الكبرى ، كما غلف



شكل (١٧)

الوضع التقريبى لقشرة آرجس بالنسبة إلى مناطق فان آلين التى تحتبس فيها الطبيعة الأشعة الكونية حيث :

أ — حزام فان آلين الداخلى .

ب — موضع قشرة آرجس .

حـ — حزام فان آلين الخارجى .

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ هى أبعاد متساوية ويساوى كل بعد منها نصف قطر الأرض .

بعضها من ثلاث جهات فقط ، على أن تغذى إشارات كل جهاز منها محطة إرسال لاسلكية صغيرة لكى تلتقط الإشارة على الأرض . وعندما سمعت هذه الإشارات بدت فى جملتها كنغمات من الموسيقى الغربية غير المسلية ! !

وعندما انطلق المستكشف الأول ودرست الأرصاد التى جمعها لوحظ وجود ظاهرة غاية فى العجب : فوق الولايات المتحدة حيث اقترب القمر من سطح الأرض ماراً بالحضيض بلغ عدد الدقات أو الإشارات الكهربية معدلا قدره ٤٠ إشارة فى الثانية الواحدة ، ولكن قرب خط الاستواء حيث كان القمر يبلغ أقصى ارتفاع له ويمر بالأوج وصل المعدل إلى أقل قيمة له ، كما انعدمت الإشارات خلال دقيقتين ، مما حمل على الاعتقاد بوجود خلل فى الجهاز . وكثرت الاقتراحات لشرح تلك الظاهرة ، أى نقص المعدل ثم انعدامه فوق خط الاستواء . ولقد عزا بعضهم الأمر إلى تغير قيمة الإشعاع الشمسى مع خطوط العرض .

وعندما أطلق المستكشف الثانى ، ثم الثالث استنتج فان آلين أن أجهزة رصد الأشعة الكونية إنما تعطى قيماً معقولة طالما كان القمر الصناعى يحلق على ارتفاعات قريبة نسبياً من سطح الأرض (أى فى الحضيض من المسار) . أما عندما يدخل إلى أعماق الفضاء — حيث أوج المسار تزداد معدلات الضربات سريعاً . ثم لعلة لا يمكن التحكم فيها — تصل هذه المعدلات إلى الصفر ، ويظل الأمر على هذه الحال حتى يعود القمر إلى الارتفاعات الصغيرة مرة أخرى . وأخيراً وبعد جهد توصل الرجل إلى حل موفق : أن جهاز القياس عندما يتواجد فى أعماق الفضاء يفيض

بجرعات عظيمة من إشعاع معين — وهذا عيب من عيوب عدادات جيجر التى كانت تستخدم — فلا يستطيع الاستجابة لإنجاز عدد وفير من الدقات فى الثانية ، ويظل معطلا . وكان التفسير الطبيعى لكل ذلك أن الأرض تغلفها أحزمة من الإشعاعات الحادة التى تحتجز فى الفضاء القريب بواسطة المجال الأرضى المغناطيسى وتعترض هذه الأحزمة — راجع شكل (١٧) — طريق سفن الفضاء وتسبب الموت المحقق لمن فيها مالم يتم عزل الأحياء عزلا كافياً .

وفى ضوء هذا الاكتشاف الهام اقترح أن تطلق بعض الأقمار لتسير فى مدارات تنحرف إلى الشمال وإلى الجنوب بالنسبة إلى مدارات الأقمار السابقة لها ، لأنها بذلك إنما تتيح فرصة عظمى لتتبع أرصاد برامج آرجس وجمعها . وأعلن فى صراحة أن الأحياء الذين يعبرون الفضاء الكونى مخترقين أحزمة الإشعاعات فيه لابد أن تتم عزلهم عزلا تاماً (١) ، وفى الأغلب لا يمكنهم البقاء على قيد الحياة أكثر من أيام معدودات وأن تلك الجسيمات الأولية النشطة التى تسبح فى الفضاء من وراء مناطق الفجر القطبى هى التى تفسر لنا ظواهر الفضاء القريب وعجائبه .

وحتى ذلك الحين لم يكن فان آلين قد كشف سوى الطبقات الدنيا

---

(١) درست روسيا هذه الناحية ونواحى أخرى بما أطلقوا من سفن الفضاء التى تحمل بعض الكائنات الحية ، وأهمها سفينة الفضاء التى أطلقت فى أبريل ١٩٦١ ثم أعيدت هذه السفينة إلى الأرض بعد أن أتمت دورة كاملة حولها فى الفضاء الخارجى . وتعتبر هذه الرحلة وما أعقبها بمثابة آخر مرحلة قبل سفر الإنسان فى مركبات الفضاء ومحطاته .

لتلك الأشعة المتجمعة الفتاكة ، فشرع يرسم الخطط لدراسة طبقاتها العليا باستخدام مجموعة الأقمار التى أطلقت فى خريف عام ١٩٥٨ حتى شهر ديسمبر من السنة ذاتها ، ووصلت إلى ارتفاعات تراوحت بين ٧١ ألفاً و ٦٣ ألفاً من الأميال . وعندما تم تحليل أرصاد تلك الأقمار ثبت وجود حزامين من الأشعة المركزة بينهما منطقة من الإشعاعات غير المركزة نسبياً ، كما ثبت أن قوام الحزام الخارجى جسيمات أولية ضعيفة إلى حد ما ، وقد تكون من البروتونات والإلكترونات التى ترسلها الشمس . وينحنى الحزام إلى أسفل ويتدلى عند طرفيه ويدنو من الأرض وجوها فى صورة هى أشبه بقرن الثور الذى يدخل الغلاف الجوى قرب القطبين المغناطيسيين للأرض على النحو الممثل فى شكل (١٧) .

وعندما اقتربت الأقمار الصناعية من القمر الطبيعى ، وعندما أرسلت الكواكب الصناعية لتدور حول الشمس على مسافات ربت على ٤٠٠ ألف ميل من الأرض ، دلت الرسالات الملتقطة منها بصفة قاطعة على أن حزام الأشعة الخارجى لا تنتهى حدوده عند سطح معين من الخارج ، بل هى تمتد إلى مسافات سحيقة فى أعماق الفضاء ، ويأتى من ورائها مناطق أخرى على هيئة أنهر تجرى من الكهارب والنوى الحديثة الانبعاث من الشمس .

مجمل القول أن الفضاء الكونى القريب ليس فراغاً تاماً كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكنه يفيض بالأسرار والغوامض وتحفه الأهوال التى ذكرنا جانباً منها . ويبدو أن أمراً ما يحدث للمشس فترسل أسراباً من الإشعاعات الكونية والطاقات الأثيرية التى تهتز لها أحزمة الإشعاع من حول الأرض ،

وكذلك أحزمة التأين فى الأيونوسفير ، تماماً كما يهتز سطح البحر فى مهب عاصفة هوجاء .

والمعروف علمياً أن عدد البقع الشمسية التى هى دليل النشاط الشمسى إنما يتغير. من عام إلى آخر بطريقة دورية قوام فترتها نحو ١١ سنة على وجه التقريب .

والبقعة الشمسية عبارة عن دوامة عظمى من مواد الشمس لها صفات العاصفة . وعندما يصل عدد هذه البقع إلى النهاية الصغرى تسمى الشمس هادئة . ولقد درست الشمس خلال أوج نشاطها عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، كما رصدت كافة الظواهر التى تبعت هذا النشاط فى جو الأرض (خلال السنين العالمية الأخيرة بطبيعيات الأرض) ، وأعقب ذلك أن فكر العلماء فى عمل دراسات تكميلية ومماثلة إلى حد كبير فى حالة هدوء الشمس وتتضمن هذه الدراسات رصد الشمس ، ورسم خرائط للبقع التى تظهر على سطحها ، ورصد وتصوير معالم الفضاء ، والقمر القطبى ، والأيونوسفير ، وتخصيص بعض الأيام العالمية لقياس عناصر جوية معينة على كل سطح الأرض ، وقياس الجاذبية والمغناطيسية الأرضية ، والأشعة الكونية ، والإشعاع الشمسى عموماً .

وتم الاتفاق على إنجاز هذه البرامج كلها على مقياس عالمى ، بحيث تبدأ من أول يناير عام ١٩٦٤ وتنتهى فى آخر ديسمبر عام ١٩٦٥ ، وأطلق عليها اسم (السنين العالمية للشمس الهادئة) . وتهدف هذه البرامج كذلك إلى الاهتمام بنقط ثلاث هى : (١) توضيح الظواهر التى يقتصر ظهورها على فترات حضيض النشاط الشمسى ، (٢) مقارنة البيانات التى

يتم جمعها بما يماثلها فى فترات أوج النشاط ، (٣) رصد وتسجيل الظواهر الشمسية التى قلما تتأثر بعوامل خارجية .

وعندما استخدم الفلك اللاسلكى لأول مرة اكتشف العلماء وجود تغيرات عظمى فيما ترسله الشمس من أمواج اللاسلكى . وتزداد هذه الأمواج بشكل ظاهر عندما تظهر البقع الشمسية الكبرى على قرص الشمس . ولقد أطلق العلماء على الزيادات الكبرى هذه اسم (الانفجات) وهى ذات أهمية بالغة .

وكذلك شاهد العلماء إلى جانب هذه (الانفجارات) وجود سلسلة متتابعة من الزيادة والنقص البطيئين فيما ترسله الشمس من موجات بين الحدين ٣ و ٥٠ ستيمتراً . وتلازم هذه السلسلة ظهور واختفاء البقع الشمسية .

ودلت التحليلات الإحصائية لقياسات شدة الإشعاع الشمسى على على وجود مركبتين إحداهما مركبة الإشعاع الحرارى من الشمس الهادئة ، والأخرى مركبة بطيئة التغير ترتبط عن كثب بمساحة البقع الشمسية المرصودة

ولقد أثار اكتشاف هذه المركبة البطيئة التغير عدداً من الأسئلة مثل : ما هى طبيعة هذا الإشعاع ؟ هل هو حرارى ناجم عن تصادم الكهارب حسبما اتفق مع النوى المنطلقة فى جو الشمس المستعر ؟ أم هو نتيجة عملية أكبر ، تتضمن حركات منتظمة للكهارب ؟ وهل يصحب أومن الضرورى أن يلازم شيئاً ما نستطيع أن نراه بأعيننا على الشمس ؟

١٤ — أسفار الفضاء

إن وسيلتنا الوحيدة لإنجاز أسفار الفضاء هى المحرك الصاروخى الذى يعمل كما قلنا بمبدأ رد الفعل ويحمل معه الوقود والأوكسيجين اللازمين لتوليد طاقة الحركة ، وهو لا يحتاج إلى وسط خارجى على الإطلاق ، بل العكس صحيح ، فإن انعدام الوسط المادى الخارجى معناه انعدام المقاومة .

ويمكن أن تقارب سرعة الصاروخ سرعة انبثاق الغازات المحترقة من محركه إذا ما استمر هذا الأخير يعمل مدة كافية ، وعندها نقول إن الصاروخ ينجح تماماً فى تحويل الوقود إلى طاقة حركة ، ومن هنا ظهرت فكرة تعدد المراحل فى أسفار الفضاء . وتكاد تنحصر وظيفة الصاروخ الأول — أو المرحلة الأولى — فى إكساب المجموعة سرعة عظيمة ، وبذلك تزيد من درجة نجاحها فى تحويل الطاقة المدخرة كوقود إلى طاقة حركة .

وعندما تنفصل المرحلة يقل الوزن الكلى للمجموعة بالنسبة إلى ما تحمل من وقود ويصبح من اليسير الوصول إلى السرعة النهائية فى فترة قصيرة وبعد جهد قليل .

ونظراً لأن المراحل الأولى فى أسفار الفضاء تتطلب قدراً عظيماً من الوقود للتغلب على قبضة الأرض أو جاذبيتها ، فقد فكر العلماء كذلك فى أن يكون الانطلاق بعيداً عن سطح الأرض وقوة جاذبيتها الكاملة ، وذلك من محطات الفضاء التى سوف يتم تصميمها بحيث تلائم استقبال الصواريخ المرسلة إليها من الأرض وهى محملة بالزاد والعتاد ، وكذلك تلائم

إطلاق سفن الفضاء نحو أجرام السماء المختلفة . وسوف تسبح تلك المحطات على بعد مناسب من سطح الأرض ، أى فوق غلاف الأرض الجوى الكثيف الذى يقاوم الحركة ، هذا كما يلزم أن تكون هذه المحطات على أبعاد أقل من تلك التى تتوفر فيها الأشعة الكونية أو تظهر فيها أحزمة فان آلين الإشعاعية . والمعتقد أن أصلح ارتفاع يمكن أن يحقق الغرضين معاً هو نحو ٢٥٠ كيلومتراً فوق سطح الأرض .

ونحن عندما نتحدث عن أسفار الفضاء لابد أن نذكر موضوعين هامين هما (انعدام الوزن) ،و (إعداد الأفراد للسفر عبر الفضاء) . والحق أن كثيراً منا يسيء فهم هذين الأمرين ، لهذا سوف نشرحهما بالتفصيل .

فقد يتصور البعض أن انعدام الوزن فى رحلات الفضاء معناه الوصول إلى منطقة معينة داخل أو خارج نطاق غلاف الأرض الجوى تختفى فيها معالم جذب الأرض وتصبح صفراً .

ولا يمت هذا التصور إلى الحقيقة بصلة . فقوانين نيوتن التى تعتبر أول ما عبر به علمياً من الجاذبية تقول بأن كل جسم مادى مثل الأرض إنما يجذب أى جسم آخر مثل سفينة الفضاء وما فيها بقوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين (أى كتلة الأرض فى كتلة السفينة)، وعكسياً مع مربع المسافة بينهما .

ومثل هذا التناسب معناه أن الجاذبية ، ومن ثم الوزن لأن الوزن ينتج عن قبضة الجاذبية للأجسام ، لا يمكن أن تكون صفراً إلا على مسافة لا نهائية فى البعد ، أى فى ما لا نهاية بالنسبة إلى مركز الجذب وهو

فى هذه الحالة مركزَ الأرض . أما على أبعاد الكواكب وسائر مجموعتنا الشمسية فلا يمكن أن يكون الوزن صفراً .

والذى يحدث فعلا هو أن تتعادل الجاذبية مهما صغرت (أو الوزن) مع قوىً أخرى هى القوة الطاردة المركزية الناجمة عن الحركة فى مسار مقفل دا رى أو شبه دائرى . وعندما تتعادل القوتان تماماً نكون قد حصلنا على حالة انعدام الوزن ، ولا تتغلب فى هذه الحالة قوة على أخرى رغم وجودهما فعلا معاً .

ويقول نيوتن كذلك إن كل جرم فى الكون يجذب أى جسم آخر كأنما تركز مادة كل منهما بأسرها فى مركزه . وعلى ذلك فبؤرة جذب الأرض هو مركزها ، وكذلك الحال مع القمر وسائر أجرام السماء وتختلف الجاذبية باختلاف البعد عن المركز . ولهذا السبب نجد أن الكواكب نظراً لاختلاف أنصاف أقطارها وتباين كتلها أو المادة التى جمعتها تكون لها جاذبية مختلفة على سطوحها . فجاذبية القمر عند سطحه مثلا سدس الجاذبية عند سطح الأرض . وتكاد تعادل الجاذبية عند سطح الأرض مقدار الجاذبية على سطح زحل رغم عظم الفرق بين حجمى زحل والأرض . والسر فى ذلك أن تأثيرات الكتلة والبعد عن المركز تتعادل فى الحالتين :

ولقد حاول العلماء عمل جاذبية صناعية داخل سفن الفضاء التى تسبح فى أفلاك مقفلة عند انعدام الوزن وذلك بجعلها تدور حول محاورها لتصنع قوة طاردة مركزية على النحو الذى سبق أن شرحناه فى (اقرأ) رقم ١٧٨ بعنوان «الصعود إلى المريخ» ، وعندها يكون تحت السفينة معناه إلى خارجها وفوقها معناه إلى داخلها مثلا ! وذلك بطبيعة الحال بالنسبة

إلى محور الدوران ، ويعوض ذلك ركاب السفينة من البشر ما ألفوه على الأرض من وقوع الأشياء إلى أسفل ، أى نحو مركز الأرض إذا ما تركت حرة طليقة . وهناك حلول أخرى مثل استخدام قوى الجذب المغناطيسية على أن يلبس الركاب أحذية من الحديد . .

وتكاد تتركز نقطة الضعف الحقيقية فى موضوع أسفار الفضاء اليوم فى العنصر الإنسانى ، وذلك لأنه من صعب أن نقدر تماماً كيف يتصرف كل شخص وهو يسبح فى الفضاء الكونى .

وتدرس أغلب المشكلات التى يثيرها السفر بالصواريخ من الوجهة التطبيقية ضمن برامج مدارس طب الفضاء ، حيث تم دراسة تأثير العجلات الكبرى التى يتعرض لها المسافر ، خصوصاً خلال اللحظات الأولى من الانطلاق . وعادة يعرض الأشخاص لقوة طاردة مركزية تزاد إلى ما يعادل أضعاف قوة جذب الأرض . وفى أثناء ذلك يقاس النبض ، والتأثيرات العضلية ، ومعدل التنفس ، وبعض العمليات الأخرى الحيوية .

ويدرب رجال الفضاء على ابتكار التمارين التى تتيح لأجسامهم اللياقة البدنية لكى يتمكنوا من حل مشكلات السفر عبر الفضاء . والمفروض أن يقاوم رجل الفضاء العقبات بشتى الطرق ، وعلى رأسها قوة الإرادة . ومن وسائل الرياضة التى يستعان بها السباحة ، والجرى ، هذه الحالات تقديرات سريعة تتم فى لمح البصر للظرف الطارىء مع أتخاذ ظاهر ، والتعرض للمفاجآت ومن الضرورى تحريم التدخين وشرب الخمور على رجال الفضاء .

وفيما عدا ذلك ليس هناك مظهر غير عادى فى مجرى حياة رجل

الفضاء ، فهو يختار من بين المتوسطين من جيله . وخير الأعمال التى تلائم رجل الفضاء أن يبدأ حياته كطيار ، خصوصاً فى الطائرات المقاتلة ، وذلك حتى يتعود على العجلات العظمى والسرعات الكبرى ، ويكتسب الخبرة الخاصة بالتوجيه الذاتى فى الفضاء ، والتفاعل السريع والدقيق فى نفس الوقت ، وينمى العقل المتنبه الحذر فى المواقف الحرجة . ويدرب على الهبوط بالمظلات .

وكثيراً ما يحدث ما ليس فى الحسبان أثناء التحليق ، وتستلزم مثل القرارات الحاسمة للعمل .

والملاحظ على أية حال أن الطيار المقاتل يكون لنفسه أثناء تمرينه اليومى نوعاً من القياس للتفاعل الذاتى . ويتحد التفكير والتنفيذ ، ويبلغان من الاتحاد والاندماج الدجة التى يحاول معها المرء عبثاً فى أغلب الحالات أن يحدد أيهما بدأ أولا — التنفيذ أم الفكرة الدافعة عليه ؟ — . هذا كما أن هناك أيضاً قدر كبير مشترك بين فنون تصميم سفن الفضاء والطائرات النفاثة الحديثة .

ومن أهم أغراض هذا الإعداد توفير سكان محطات الفضاء المزمع تشييدها فى الفضاء القريب من الأرض ، ليسلكوا فيها حياة طبيعية ، والانزلاق على الجليد ، والغوص فى الماء إلى أعماق يزداد فيها الضغط بشكل ويعقب ذلك خطوة الرحيل إلى العوالم الأخرى القريبة كالقمر والمريخ ، والزهرة بعد أن تكون معالم الطريق قد درست عبر الفضاء الكونى .

١٥ ــ الوصول إلى القمر

هناك عدة نظريات تتعلق بأصل القمر ، فمنها ما يقول بأنه انفصل عن الأرض فى عهدها الأول وأن مكانه هو المحيط الهندى. ومنها مايذهب إلى أنه من بقايا أحد الكواكب القديمة التى كانت ضمن أفراد المجموعة الشمسية ثم انفجر وتناثرت أجزاؤه ، وجمعت الأرض منها مادة القمر تحت تأثير مجال جاذبيتها . والمتفق عليه بين جمهرة العلماء على أية حال أن كثافة مادته تقارب فى المتوسط كثافة الصخور التى تتكون منها قشرة الأرض الصلبة .

ولا تزن الأشياء على القمر إلا سدس وزنها على الأرض ، وذلك بسبب صغر جاذبيته بالنسبة إلى حجمه وكتلته . ونحن لا نرى من القمر إلا وجهاً واحداً فقط لأنه يكمل الدورة الكاملة حول محوره فى نفس الوقت الذى يتم فيه دورانه من حول الأرض .

وعندما نسلط عليه المناظير الفلكية المكبرة تظهر على سطحه بوضوح الوديان الواسعة الداكنة اللون ، وفوهات البراكين القديمة التى لا تشبه فوهات براكين الأرض ، والتى ربما شيدتها النيازك والشهب التى ترتطم بسطح القمر ، كما تظهر الجبال العالية التى تشرق الشمس على قممها أول ما تشرق ، فتضىء بوضوح قبل أن تضىء الأماكن المنخفضة المحيطة بها .

وعندما يصير القمر بدراً نستطيع أن نميز على سطحه خطوطاً لامعة

تمتد من بعض تلك الفوهات ، ويتراوح اتساع الخط منها بين ١٥ و ٢٥ كيلومتراً ، إلا أنها تمتد عبر آلاف الكيلومترات مخترقة الجبال والوديان فى خطوط تكاد تكون مستقيمة .

وفى بادئ الأمر ظن الفلكيون أن وديان القمر الداكنة اللون هى بحار على غرار بحار الأرض ، وراحوا يطلقون عليها أسماء مختلفة ، مثل بحر الرحيق ، وبحر الرغد ، وبحر الصفاء أو الهدوء ، إلا أن المناظير الدقيقة أظهرت هذه البحار على حقيقتها كمساحات واسعة منخفضة قاحلة . وأعلى جبال القمر هو جبل نيوتن الذى تصل قمته إلى علو نحو ٧٥٠٠ متراً .

وبطبيعة الحال تبدو السماء من على سطح القمر بخلاف ما تبدو عليه من على الأرض ، وذلك نظراً لانعدام الغلاف الجوى هناك ؛ إذ تظهر النجوم البعيدة والنجوم الخافتة الضياء ، وبذلك يتضاعف عددها فى السماء للعين المجردة . ولمثل هذه الأسباب يتوقع العلماء أن تكون محطات الرصد على القمر ذات فائدة عظمى تساعد على تقدم علم الفلك بخطى واسعة وتعين على دراسات السماوات دراسة وافية مستفيضة . ومن هنا جاء التسابق على الوصول إلى القمر .

وفى مستهل عصر الفضاء راح العلماء يحاولون تصوير سطح القمر من على بعد صغير جداً باستخدام سفن الفضاء المعدة بآلات التصوير والإرسال ، بحيث تظهر معالم السطح واضحة عليه تمهيداً لإمكان نزول الإنسان عليه سالماً بآلاته ومعداته .

والحق أنه منذ فترة غير قصيرة من الزمان اتجه اهتمام العلماء إلى القمر بوصفه أقرب الأجرام السماوية إلينا ، وراحوا يأخذون الأرصاد

الخاصة بسطحه ومعالمه ، إلا أنها كانت تؤخذ كلها من على سطح الأرض ، ويشرف عليها الاتحاد الفلكي الدولي. ولقد اشتركت في تنفيذ هذا البرنامج كثير من الدول من بينها الجمهورية العربية المتحدة .

وما أن بزغ فجر عصر الفضاء حتى أرسل العلماء الروس في ١٣ سبتمبر عام ١٩٥٩ سفينة (لونيك ٢) إلى القمر ، إلا أنها ارتطمت بسطحه في وادي بحر الهدوء . وفي الرابع من أكتوبر عام ١٩٥٩ نجح لونيك ٣ في تصوير نحو ٧٠ في المائة من الوجه الآخر للقمر من على بعد ٤٠ ألف ميل ، وتم إرسال الصور كلها إلى الأرض حيث التقطتها أجهزة الرصد المعدة لذلك .

وفي صباح يوم ٢ فبراير عام ١٩٦٤ أطلقت أمريكا سفينة الفضاء (رينجر ٦) أو الرجال ٦ لجمع معلومات عن سطح القمر ، إلا أنها ارتطمت به قبل أن ترسل أجهزة التليفيزيون التي بها الصور اللازمة إلى الأرض . وكان المفروض أن ترسل تلك الصور خلال الدقائق العشرة السابقة للارتطام ، كما كان المقدر أن ترسل آخر صورة قبل الارتطام بثانيتين فقط .

وعاود الأمريكيون الكرة بنجاح في ٣١ يوليو من نفس السنة عندما أرسلوا سفينة الفضاء (رينجر ٧) التي بعثت إلى الأرض أول تفاصيل دقيقة لوجه القمر المضيء أو المواجه للشمس من على بعد صغير جداً أثناء الدقائق الأخيرة من رحلتها الناجحة . ولقد التقطت أجهزة التليفيزيون التي بالسفينة نحو ٤٣١٦ صورة قبل أن ترتطم بالسطح . وبديهي أن هذه الصور سوف تؤدي في مجموعها بعد إتمام دراستها إلى تقدم ملحوظ

فيما يختص بمعلوماتنا عن القمر . وتعتبر هذه المعلومات بمثابة أكبر نصر أحرزته البشرية بعد اختراع المنظار الفلكى المكبر على يد غاليلو .

وجدير بالذكر أن هذه الصور قد تم التقاطها من على مسافات يقدر أغلبها بمئات الأميال فقط من سطح القمر ، وذلك بعد أن انطلقت السفينة فى مسارها المرسوم تماماً. ومن المنتظر أن تكون النتائج المترتبة عليها بمثابة الخطوة الأساسية فى الوصول إلى القمر فى المستقبل القريب طبقاً لمشروع (رينجر) الذى رسمته الهيئة القومية للملاحة الجوية وعبر الفضاء بأمريكا .

ويهدف هذا المشروع كذلك إلى إرسال أجهزة علمية باستخدام سفن الفضاء ، وإرسائها على سطح القمر لتقوم بقياس العديد من العناصر ، مثل الضغط الجوى ، وكثافة الإشعاع الشمسى ، ودرجة الحرارة ، وأسراب الشهب ، وهزات القشرة ، والجاذبية ونحوها . . .

ولقد أمكن الجزم حتى الآن بأن البحار المسطحة التى تبدو كأنها مستوية إنما هى فى واقع الأمر تعج بالعديد من فوهات البراكين المختلفة الحجوم من حيث الاتساع والعمق ، كما أن سطح الكوكب الصخرى لا تغطيه طبقات سميكة من الغبار الدقيق الذى تفجر بين طياته الأجسام إذا ما نزلت عليه . ومن المحتمل جداً أن يقتصر سمك تلك الطبقات فى المتوسط على نحو قدم واحد . أما مدى صلابة الصخور فلم يحدد بعد .

ومن المسائل التى تكشفت احتمال وجود نشاط بركانى على سطح القمر ، هذا كما يبدو أن بعض الفوهات هناك إنما نجمت عن انفجار النيازك على السطح لعدم توفر الغلاف الهوائى ، كما أنه لا يوجد أثر ظاهر

لما كان يعتقد أنه بخار كثيف أو حمم بركانية تتحكم فى عمليات الملاحة . ولهذه الأسباب كلها أعلن العلماء أنه من المحتمل جداً أن يكون سطح القمر مناسباً إلى حد بعيد لنزول البشر عليه .

ومن وجهة الملاحة فى الفضاء تتطلب إحدى الطرق المستخدمة للوصول إلى القمر الدخول بقذيفة صاروخية فى مسار من حوله بعد الهروب من جذب الأرض .

والهروب أو الإفلات من أى كوكب معناه التخلص من جاذبية هذا الكوكب ، أو قبضته للأشياء بقوى الجاذبية العالمية ، وذلك عن طريق إكساب الجسم حركة تبعده عن الكوكب بسرعة معينة .

وإذاً فإن مسألة الهروب من الكواكب إنما تنقلنا إلى مسألة الجاذبية . والمعروف علمياً من قوانين نيوتن أن عجلة الجاذبية هذه تتناقص سريعاً بالبعد عن المركز ، كما أنها تتناسب عكسياً مع مربع المسافة المقاسة من مركز الكوكب ، بمعنى أن الكوكب الذى تبلغ عجلة الجاذبية على سطحه نحو ٩٨٠ سنتيمتراً فى الثانية ، أى التى تتزايد فيها سرعة الجسم الساقط بهذا المعدل ، أو تتناقض فيها سرعة الجسم الصاعد بنفس المعدل كذلك ، يمكن أن تصبح عجلة الجاذبية بالنسبة إليه ربع هذه القيمة على بعد يساوى نصف القطر من سطحه ، و $\frac{1}{9}$ هذه القيمة على بعد من سطحه يساوى القطر كله وهكذا . . . ولهذا السبب فإن قوى الجاذبية تقل بازدياد البعد عن المركز ، إلا أنها لا تصبح صفراً إلا فى ما لا نهاية كما سبق أن ذكرنا .

وعندما يسقط جسم من مسافة لا نهائية متجهاً نحو الأرض مثلا تحت تأثير جاذبيتها فقط ، تصل سرعته عندما يمر بسطحها إلى ٦,٩٨

من الأميال فى الثانية .

ولما كانت الجاذبية عند سطح أى جرم سماوى تتوقف على كتلة هذا الجرم السماوى ، وكذلك على نصف قطره ، فإننا نجد أن الجسم الساقط من مسافة عظمى عندما يمر بأسطح الكواكب المختلفة تكون سرعته بالنسبة إليها هى على الترتيب : المشترى ٣٨ ميلا فى الثانية ، وزحل ٢٣ ميلا فى الثانية ، والزُهرة ٦,٤٦ أميال فى الثانية ، وعطارد ٣,٢٠ أميال فى الثانية ، وقمر الأرض ١,٤٩ ميلا فى الثانية . أما بالنسبة إلى الشمس فتكون سرعةُ الجسم عند مروره بسطحها ٣٨٥ ميلا فى الثانية . وعندما يمر الجسم على بعد من الشمس يساوى بعد الأرض عنها ، أى يمر بمسار الأرض حول الشمس ، تحت تأثير جذب الشمس وحدها تكون سرعته هى ٢٦,٤ ميلا فى الثانية .

وهذه هى عينها سرعات الإفلات بالنسبة إلى هذه الإجرام السماوية . وبطبيعة الحال تتوقف سرعةُ إفلات الجسم المنطلق من الأرض يكن يهرب من قبضة الشمس على اتجاه إطلاقه ، وذلك نظراً لأن الأرض ذاتها تتحرك فى الفضاء بسرعة قدرها ١٨,٥ ميلا فى الثانية . ولقد تم تقدير السرعة ٢٦,٤ التى قلنا إنها هى سرعةُ الإفلات من الشمس على بعد منها يساوى بعد الأرض ، أو نحو ٩٣ مليون ميل ، بالنسبة إلى الشمس . أما بالنسبة إلى الأرض فالأمرُ يتوقف على اتجاه إطلاق الجسم فهو إما أن يطلق فى اتجاه حركة الأرض وعندها تركب السرعتان وتلزم للهروب سرعة وقدرُها ٧,٩ أميال فى الثانية ، وإما أن يُطلق فى اتجاه يضاد دوران الأرض وعندها تكون سرعةُ الإفلات ٤٤,٩ ميلا فى الثانية . أما

إذا أطلق الجسم في اتجاه مضاد على اتجاه حركة دوران الأرض حول الشمس تكون سرعة الهروب مقدرة بالنسبة إلى الأرض هي ١٨,٨ ميلا في الثانية .

ولقد تم إرسال أول القذائف الناجحة المستكشفة للقمر عندما كان هذا الأخير في الربع الأخير ، أي كان أمام الأرض مباشرة في يسارها حول الشمس ، وبذلك انطلق ذلك الصاروخ في اتجاه حركة دوران الأرض .

وعندما نطلق القذيفة والقمر في الربع الأول يكون اتجاه إطلاقها مضاداً لحركة الأرض ، وسرعتها أقل من سرعة الأرض ، وبذلك لا تروح متساقطة مباشرة إلى الشمس ولكن تدنو مقتربة منها حتى يكاد يطابق مسارها مسار كواكب الزهرة ، وتصبح القذيفة عند ذلك كوكباً صناعياً من سفن كشف الزهرة كما كان الحال في بيونير الخامس .

أما سفن الكشف عن المريخ فيجب إطلاقها في اتجاه حركة الأرض إذا ما شئنا استغلال حركة كوكبنا إلى أقصى حد ، والادخار في الوقود والحركة معاً .

والاقتراب من القمر ليس بالأمر السهل ، وذلك لسبب رئيسي هام هو أنه جرم صغير ، ومن الصعب الوقوع في قبضة جاذبيته بحيث تصبح هي المسيطرة على الحركة . وفي الحقيقة نجد أن القذائف الباليستيكية ، أو تلك القذائف التي يعمل المختصون على توجيهها أثناء عمل محركاتها الصاروخية في الأجزاء العليا من مسارها ، ثم يتركونها بعد سقوط تلك المراحل لتصبح في حالة من التساقط الحر الطليق ، ليس من السهل إدخالها في مسار من حول القمر .

والمقترح أن تضاف مرحلة صاروخية أخيرة تعمل باللاسلكي لتقليل سرعة القذيفة بالنسبة إلى القمر حتى تصل إلى الحد الذي يجعل

القذيفة تقع فى قبضة القمر . فالمعروف علمياً أن السفينة التى تبتعدُ عن مركز القمر بمسافة قدرها ٥٥٠٠ ميل أو أكثر تحت ظروف الإطلاق المقترحة لا يمكن أن تقع فى قبضة القمر نظراً لصغر سرعة الإفلات ، ولذلك لن تسبح السفينة من حوله بل تنطلق لتدور حول الشمس ، أو تهوى لترتطم بجسم القمر . هذا كما أن القذيفة التى يتم إطلاقها من الأرض بسرعة قدرها ٣٧ و٧ أميال فى الثانية تمر بالقمر بسرعة قدرها ١,٤٧ ميلا فى الثانية وعلى ذلك فهو لن يقوى على إمساكها .

وهكذا يتضح لنا أن حدود النجاح فى الدوران حول القمر هى حدود ضيقة تماماً ، فالسفينة يجب قبل كل شىء أن تنطلق بسرعة لا تقل عن ٦,٩٢ أميال فى الثانية لكى تخرج من الأرض ، كما أنها يجب كذلك أن تنطلق بسرعة أصغر من ٧,٣٧ أميال فى الثانية حتى تقع فى قبضة جذب القمر . وحتى بين هذين الحدين من السرعة يجب أن تقترب السفينة من سطح القمر القرب الكافى الذى لا يتعدى بضعة آلاف من الأميال .

خاتمة

تنقسم الموضوعات التى يتضمنها هذا الكتاب إلى نوعين : نوع يعالج جانباً مما نهتم به محلياً فى عالمنا العربى من مشاكل جوية ، ثم نوع عام يعرض علينا بعض ظواهر الكون العجيبة ، ويرينا كيف اهتم الإنسان منذ القدم بهذه الظواهر وراح يصفها بشتى الطرق ليستخلص لنفسه العلل والأسباب . ولقد كانت الطبيعة ذاتها عوناً له ومعلمه الأول فى كافة مراحل تطوره العلمى ، كما أنها رغم تقلباتها الفجائية وفرت له على الأرض أحسن الظروف الملائمة التى أنجبت الحياة ثم صانتها فى كافة مراحلها المختلفة .

فنحن نمرح هنا على أرضنا الطيبة فى ظل ظروف طبيعية لا تضارعها أية ظروف طبيعية أخرى مماثلة على أجرام السماء التى تعرفها عن كثب — أى داخل نطاق مجموعتنا الشمسية ، لأننا لا نعرف ما يجرى على الكواكب السيارة التى قد تتبع مجاميع النجوم أو الشموس الأخرى ، وليس فى وسع أحد أن يقدر هذه الحقيقة حق قدرها ما دام يجهل ما يحدث خارج نطاق جو الأرض .

فهناك على الشموس مثلا ترتفع درجة الحرارة إلى الآلاف فى أجوائها الخارجية وإلى عشرات الملايين فى الداخل . أما على أفراد الكواكب السيارة التابعة للشمس فهى إما أن ترتفع إلى ما فوق درجة غليان الماء على الأفراد القريبة منها عندما تتساقط عليها أشعتها المحرقة عن كثب أثناء النهار ، وإما أن تنخفض إلى ما يقرب من درجة الصفر المطلق على الكواكب

البعيدة من الشمس . والصفر المطلق الذى يمثل درجة حرارة الفضاء الكونى الخالى من الإشعاعات والنطاقات إنما يمثل أقل درجة حرارة فى الكون على الإطلاق ، وهو ينخفض تحت درجة تجمد الماء كما نعرفها على الأرض بنحو ٢٧٣ درجة مئوية ، ولهذا فإننا على الأرض إنما نعيش غير بعيد عن درجة حرارة الصفر المطلق ، أى قرب الحرارة الدنيا فى هذا الكون . ومن الصفات الطبيعة للصفر المطلق أنه تتجمد عنده كافة الغازات وتكاد تنكمش إلى لا شىء ! !

ولو أن جو الأرض كان معرضاً على الدوام إلى زيادة أو نقص ظاهرين لانعدمت الحياة على مر الأجيال ، إلا أن من عجيب أمر هذا الجو وتركيبه أنه يكاد يحتفظ بنفس المعدلات لدرجة الحرارة فى كل إقليم . هذا بطبيعة الحال بصرف النظر عن الذبذبات الطارئة المنتظمة أو غير المنتظمة أو العصور الجليدية التى اجتاحت الأرض وجوها فى عهودها الأخيرة ، وتعرضت خلالها الحياة لامتحانات قاسية .

ولكى يحتفظ جو الأرض فى كل إقليم بنفس معدلات درجة الحرارة التى تميزه على مر السنين كان لزاماً أن تتساوى مقادير الطاقة التى يكتسبها الجو مع مقادير الطاقة التى يفقدها إلى الفضاء الخارجى بطريق الإشعاع . فلو أن هناك أى نقص أو زيادة لانتشر الجليد أو ارتفعت درجة الحرارة إلى الحد الذى تفنى معه الحياة على الأرض .

ورغم أن درجات الحرارة فى جو الأرض لا تختلف إلا فى حدود ضيقة حقاً ما بين الليل والنهار والصيف والشتاء ، إلا أنه كثيراً ما ترتفع صيحات البشر ويعلو ضجيجهم ويعم السخط إذا ما مرت بهم موجة

جارة ، أو انساب إليهم هواء بارد شديد الزمهرير ، أو إذا قلت كمية المطر ، أو اجتاحت البلاد عاصفة هوجاء . . . إننا عندما نشكو من هذه الظواهر الطبيعية إنما ننسى ما نرتع فيه من رخاء وما نستمتع به من أمان وطمأنينة وفرتهما لنا الطبيعة إلا فيما ندر . . .

وأول الأخطار التى نتعرض لها عند مبارحة سطح الأرض إنما تأتى عن طريق نقص الضغط الجوى ، فكتلة الغلاف الجوى على السنتيمتر المربع عند السطح تعادل نحو كيلوجرام كامل ، وما إن نبرح الأرض ونصعد إلى أعلى حتى يقل هذا الضغط ونصل إلى الحد الذى يغلى فيه الدم فى درجة حرارة إحساسنا العادية على علو نحو عشرين كيلومتراً ، وعندها تتفجر الأوعية الدموية . ويسبق ذلك بطبيعة الحال نقص تام فى الأوكسيجين اللازم للتنفس وتضيق صدورنا تدريجاً . والمعروف علمياً أننا على ارتفاع نحو ٢٠ كيلومتراً نكون قد تخلصنا من نحو ٩٨ ٪ من وزن الغلاف الجوى بأكمله . أما على ارتفاع ٢٠٠ كيلومتر فلا يصل الضغط الجوى إلا إلى أجزاء معدودات من عشرة ملايين جزء من قيمته عند السطح .

.. وقلما تعلو درجة الحرارة على سطح الأرض فوق ٥٥ درجة مئوية ، وذلك فى بعض مناطق المدارين التى يمر بها خط الاستواء الحرارى ، كما أنها قلما تهبط إلى حدود ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر فى أواسط سيبيريا أثناء الشتاء ؛ ولكن بالقرب منا فى طبقات الجو العلوى قد تبلغ درجة الحرارة مئات الدرجات داخل طبقة الأيونوسفير ، كما تهبط إلى أقل من ٧٠ درجة مئوية فى أعالى منطقة التروبوسفير كما رأينا سابقاً .

ويحمينا الغلاف الجوى من أخطار الشهب التى تهوى بلا هوادة إلى جو الأرض ؛ إذ يتساقط فى اليوم الواحد آلاف الملايين من الشهب التى يتكون أغلبها من جسيمات دقيقة من الرمال تجرى فى مسارات لها من حول الشمس بسرعة فلكية لا تختلف كثيراً عن سرعة الكواكب السيارة (أى من نحو ١٠ كيلومترات إلى نحو ٥٠ كيلومترا فى الثانية الواحدة) . وعندما تقترب الأرض منها توقعها تحت طائل جاذبيتها وتجعلها تبدأ الدوران فى مسارات جديدة من حول الأرض تقطع الفلاق الجوى عبر مسافات طويلة ، فتحتك بالهواء وتولد كميات من الحرارة تكفى لتبخير الأتربة . وما الشهب التى نراها تهوى أثناء الليل كالنجوم فى كبد السماء ثم تختفى إلا مسارات تلك الغازات الملتهبة على أبعاد تتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ كيلومتر من سطح الأرض .

وعندما تقدمت عمليات رصد الشهب فى هذه الآونة اتضح أن الشهب التى تنساب خلال جو الأرض العلوى أصلها أجزاء من المجموعة الشمسية تسبح جسيماتها فى أسراب حول الشمس ، شأنها فى ذلك شأن سائر الكواكب السيارة ، إلا أن مساراتها ضيقة ، كما تزداد درجات تركيزها كلما اقتربت من الشمس . ولاختراق الشهب فى الجو الأرض أهمية عظمى من حيث تكوين نويات التكاثف . ولهذا فإنه كما قدمنا يمكن التنبؤ بحالات الفيضانات العالية والأمطار الغزيرة فى أعقاب دخول الأض سرباً سميكاً من أسراب الشهب .

والغلاف الجوى كذلك يحمينا من أخطار الأشعة الكونية التى ترسلها الشمس والتى تقبل كذلك من أعماق الفضاء . ويدخل تحت قائمة هذه

الأشعة كثيراً من نوى ذرات العناصر المختلفة التى تتحرك بسرعة تقارب سرعة الضوء ، أى ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية الواحدة . وتدل هذه الجسيمات على توفر عمليات عظمى تجرى فى بعض أجزاء الكون وتؤدى إلى زيادة طاقة نوى ذرات العناصر . وتبلغ طاقات جسيمات الأشعة الكونية فى كثير من الحالات بضع آلاف الملايين ، بل وربما عشرات آلاف ملايين الإلكترون فولت . ولا يصل سطح الأرض من الأشعة الكونية إلا قدر ضئيل جداً ، فالسنتيمتر المربع الواحد يصله فى المتوسط جسيم واحد من جسيمات هذه الأشعة فى الثانية ، ويمتص الباقى كله فى الجو العلوى

ومن أخطر الإشعاعات أثراً على الخلايا الحية الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس ، إلا أن جانباً وفيراً جداً من هذه الأشعة الفتاكة يمتصه جو الأرض العلوى (الإيونوسفير كما أن جانباً آخر يمتص فى منطقة الستراتوسفير الدنيا (الاوزونوسفير) ، ولا يصل إلى سطح الأرض إلا قدر يلائم الحياة ، ويقل هذا القدر بازدياد تلوث الهواء بالأتربة والدخان ونحوها . . .

وللجزء الذى يصل سطح الأرض من الأشعة فوق البنفسجية أثر فعال فى معالجة كثير من الأمراض كالنزلات الشعبية والسل والكساح . . . ولهذا ينصح الأطباء مرضاهم بعمل حمامات الشمس بعيداً عن المدن وأتربتها ، وذلك فى مصحات الجبال العالية ، أو على سواحل البحار ، حيث يتوفر الهواء النقى الخالى من الأتربة .

والأشعة فوق البنفسجية هى التى تكسب أجسام الناس ذلك اللون

البربرى الجميل الجذاب المعروف بعد أخذ حمامات الشمس على الشواطئ ، ولكن أغلب الناس الذين يأخذ تلك الحمامات يجهلون أنه لولا الغلاف الجوى ما استطاعوا تعريض أجسامهم للإشعاع الشمسى بحال من الأحوال لوفرة ما يتضمن من أشعة فتاكة .

وختاماً فإن الكتاب كما قلنا يجيب كذلك على كثير من المسائل الهامة التى تتعلق بجونا المحلى ، وهى فى مجموعها مما تلوكه الألسن فى كل مناسبة من المناسبات . وقد شجعنى على الإقدام على هذا العمل أننى كنت أسمع كثيراً من الأراجيف والحشو . ولقد أحببت أن أصل حاضرنا المزدهر بماضينا العظيم ، فهى كلها من نتاج بحوث العرب .

المراجع العربية

١ — الدكتور محمد جمال الدين الفندى

طبيعيات الجو وظواهره — الألف كتاب ١٩٥٦ .

٢ — إيفان راى تاينهيل

الجو وتقلباته — ترجمة الدكتور جمال الفندى ١٩٦١
(من مختارات مؤسسة فرانكلين) .

٣ — الدكتور حسين فوزى

المعارف البحرية عند العرب — المؤتمر العربى ١٩٥٣ .

٤ — كيف ترقب السماء

تأليف فرانكلين برانلى — ترجمة الدكتور جمال الفندى ١٩٦٣
(من مختارات مؤسسة فرانكلين) .

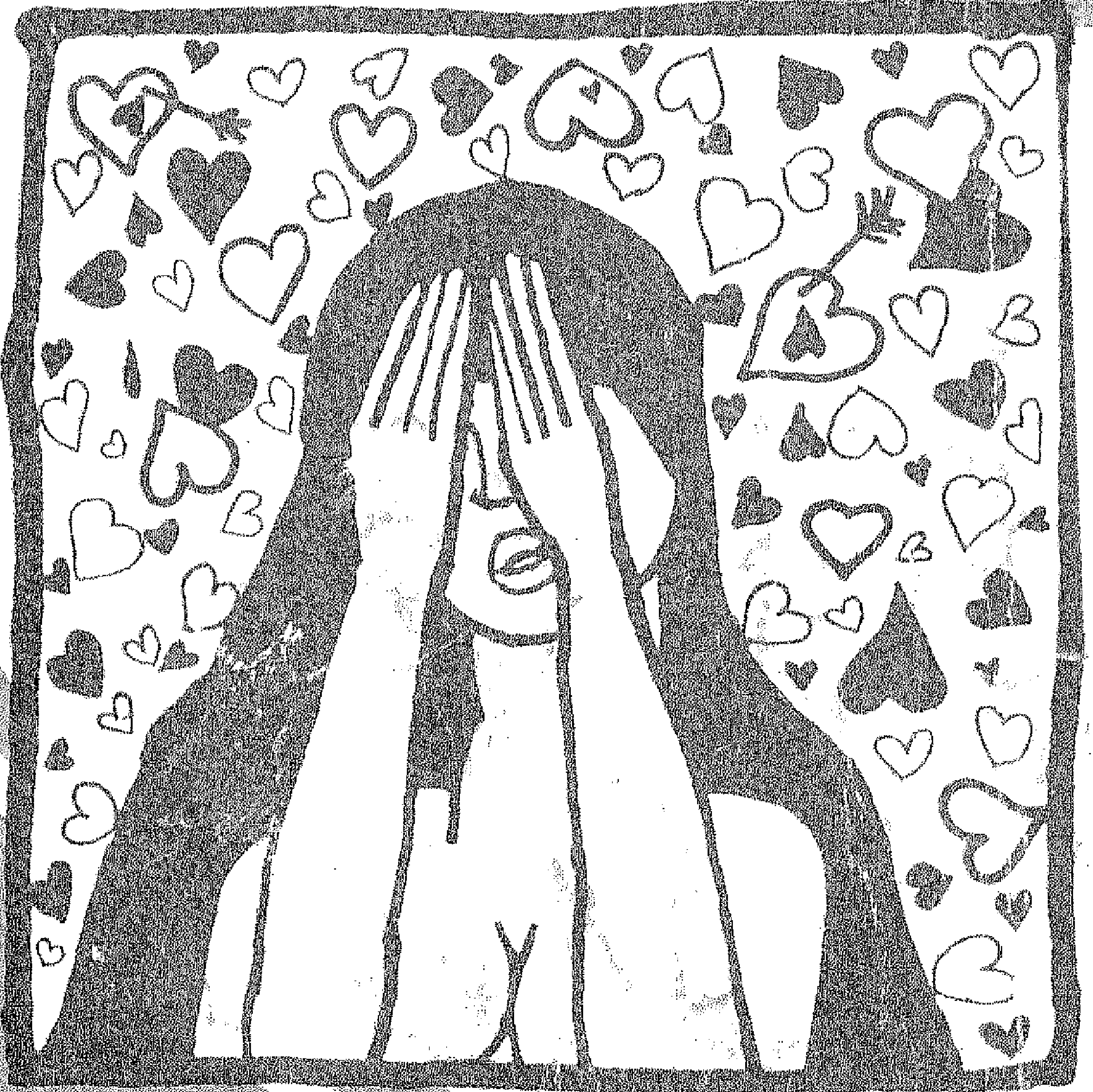
٥ — الدكتور حسين فوزى — حديث السندباد القديم ١٩٤٣ .

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤



اقرأ

٤٥ مشكلة حب



الدكتور مصطفى محمود

دار المعارف بمصر

الغلاف بريشة إيهاب شاكر

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١٫٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

٤٥ مشكلة حُبّ

الدكتور مصطفى محمود

٤٥ مشكلة حب

اقرأ ٢٦٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦٤ – ديسمبر سنة ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

بعض الأمراض يشفيها الكلام . . . مثل أمراض النفس وعذابات الوجدان وجراح القلوب .

وليس الكلام هنا النصائح والعظات والعبر والآراء السعيدة .

ولكنه كلام الإنسان نفسه . . . إفضاؤه . . . ونجواه . . . واعترافه بما يؤرقه .

الإفضاء . . . مجرد الإفضاء . . . والإفشاء . . . والاعتراف ولو للورق .

فض مكنون القلب والتعبير عن مشاعره الحبيسة المخنوقة المذبوحة فى طيات الضلوع . . . يشفى ويريح . . .

الدمعة المسكوبة لا تضيع . . . وإنما هى تفتح نافذة للعاطفة تتنفس منها .

والضحكة المريرة تفك ضائقة الروح .

والآهة تفرج عن القلب .

ومع هذه الدموع والضحكات والآهات تعيش صفحات هذا الكتاب .

إنها رسائل مختارة من مئات الاعترافات التى وصلتنى من قراء

عديدين . . . تعذبوا . . . وسهروا . . . وتألموا . . . وسخروا من الدنيا ومن أنفسهم .

وبعضها طرائف تثير الاستغراب .

وبعضها بلايا تثير الضحك .

وبعضها آلام تبعث على البكاء .

ولكن كلها صادقة . . . واقعية . . . فيها الأرض . . . بأوشابها وترابها وجواهرها الدفينة . . .

مصطفى محمود

الحياة بدون كبت

أنا كما يرانى الناس من الخارج فتاة عادية فى التاسعة عشرة .. مرحة .. منطلقة .. الكثيرون يحسدوننى على انطلاقى .. فأنا أبداً دائماً ضاحكة عابثة .. ولكن قلبى من الداخل يدمى .. ولا أحد يعلم ما أعانيه ..

أحببت منذ ثلاث سنوات .. وكان حباً أكبر من عمرى .. وكان هو فى الثلاثين أكبر منى بأربعة عشر عاماً .. وعلمنى كل شىء .. كنت كتاباً مقفولا وموضوعاً على الرف . وجاء هو وفتحه وقرأ كل سطر فيه .. وكل كلمة فيه .. وكنت سعيدة .. السنة الماضية مثل هذا الوقت كنت أسعد مخلوقة فى الوجود .. فأنا جميلة خفيفة الظل محبوبة من الجميع ومن عائلة غنية أستطيع الحصول على جميع طلباتى.. وأهم من هذا كله .. كان هو بجانبى .. حبيبى ..

كنا شبه مخطوبين أمام الناس وشبه متزوجين أمام أنفسنا وأمام الله عرفت معه كل متع الحب .. وكل مسراته .. وقد حرصنا معاً على ألا يتجاوز عبثنا الحدود .. فظللت عذراء .. ولكنه فى آخر لحظة تركنى .. وهجرنى إلى غير رجعة . قال إنه لا يستطيع أن يعصى أمر والدته .. وقد اختارت له والدته ابنة أختها اليتيمة .. وخطبتها له .. وهو لا يستطيع أن يرفض لها طلباً فهو وحيدها ..

وتعذبت .. ومرضت .. ثلاثة شهور ..

ثم بدأت أضمد جراحى .. وأقاوم عذابى .. وأرسم الضحكة على

شفتى .. وأغتصب الابتسامة .. وبدأت أعود إلى الحياة ..

وعرفت أحد زملائى فى الكلية . وصاحبته ..

ولم يكن حباً هذه المرة .. فأنا أعلم أنى لا أحبه .. وأنه لا يحبنى .

ولكنى كنت أبحث عن سلوى ..

ونحن نذهب إلى السينما حيث نقضى الساعات .. لا نرى الفيلم . ولا نرى ما حولنا .. وإنما نظل نتبادل القبلات والعناق حتى يضىء النور ..

وفى الشباب .. وفى نشوة السن المراهقة التى نمر بها نحن الاثنين يشعر كلانا بأننا نقضى ساعات لذيذة . . .

ولكن بعد ذلك .. وبعد أن تمضى هذه الساعات .. يبدأ عذاب الضمير .. وأرانى أصرخ فى نفسى .. إنى ساقطة .. مجرمة .. بدون أخلاق مذنبة مصيرها جهنم .

ولكنى أعود فأسأل نفسى . وما ذنبنا إذا كانت هذه غرائزنا التى ركبت فينا .. ورغباتنا التى خلقت معنا ..

إنى لو لم أفعل هذه الأشياء .. فسوف أظل مشغولة الذهن طول الوقت أفكر فيها وأتمنى أن أعملها .. وهذا ألعن ..

ما ذنبنا إذا كانت هذه طبيعتنا .

وأبكى .. وأصلى .. وأصوم ، ثم أعود إلى فعل هذه الأشياء .. وأنا أسأل نفسى فى حيرة .. ما الفرق بين ما يفعله المتزوجون وغير المتزوجين .. إنها ورقة .. مجرد ورقة ..

كيف تكون رخصة الفضيلة مجرد ورقة ..

ولماذا يعتبر الناس تلامس اليدين فى المصافحة عملا عادياً لا غبار عليه .. وتلامس الشفاه فى القبلة عملا فاضحاً شائناً .. أليست كلها أجزاء جسم واحد ..

وما معنى الفضيلة هنا ..

وكيف يكون تحريم أشياء هى فى صميم طبيعتنا .. فضيلة ..

لماذا لا نعيش على الطبيعة ، بدون تعقيد .. وبدون كبت .. وبدون تحريم .

* * *

قصدك لماذا لا نعيش كالحيوانات فننطلق مع غرائزنا بلا ضابط .. وبلا نظام .. وبلاهدف سوى هاتف اللحظة .. ولذة الساعة .. مستحيل طبعاً .. فهذا معناه أن نتخلى عن إنسانيتنا تماماً .. ونعود إلى عصر الغابة ..

فالآدمية لا تبدأ إلا من هذه اللحظة .. من اللحظة التى يضبط فيها الإنسان رغبته ويكبح جماحه ويلجم شهواته ويتصرف بمقتضى أهداف سامية كالرحمة والإخاء والشجاعة والتضحية والبذل فى سبيل الآخرين والعمل على إقامة نظام .. والانقطاع للعلم والتحصيل والمعرفة وخدمة الناس .. أما إذا انقلب الوضع وأصبحت لذات الجسد العابرة .. ونزوات الغريزة .. مفضلة على هذه الأغراض السامية فإن الإنسان يفقد إنسانيته وينقلب حيواناً .. والنظام الاجتماعى كله ينهار من أساسه ..

والزواج ليس مجرد ورقة كما تقولين ... الزواج تنظيم اجتماعى للغرائز حتى يكون لكل ابن يولد أب مسئول عنه .. وحتى لا تتحول العلاقات الجنسية إلى فوضى بلا رابط .. وتختلط الأحساب والأنساب .. ولا يعرف ابن أباه . .

والواقع أن الإنسان حينما يضبط رغبته ويكبح شهوته .. فإنه لا يمكن أن يقال إنه يكبت طبيعته . . فإنه فى الحقيقة يخرس صوت الغريزة . ولكنه فى نفس الوقت يطلق صوت العقل .. وهو يشد اللجام على الحيوان الهائج فى نفسه ولكنه يطلق العنان للوجدان والعاطفة والفكر .

ولا يمكن أن يقال فى أمر طبيعتنا إنها مجرد رغبات حيوانية .. فإن العقل أيضاً من طبيعتنا .. والعاطفة والوجدان والروح .. هى صميمنا .. وهى أكثر أصالة فى طبيعتنا من نزوة الجنس وصرخة الحيوان الجائع .

أما حكاية تلامس الشفتين فى القبلة وتلامس اليدين فى المصافحة .. فهى مغالطة واضحة .. ولن أحاول أن أناقشها .. فأنت تعرفين جيداً الفرق بين ما تفعله القبلة وبين ما تفعله المصافحة .. ومفيش داعى نكذب على بعض ..

أما حكايتك مع صاحبك . فهى حكاية يجب أن تنتهى .. فأنت باعترافك لا تحبينه وهو لا يحبك . فالعلاقة إذن علاقة حيوانية لإشباع نزوات عارضة .. وهى علاقة تخلو من عنصر الصدق . . علاقة يهين كل منكما فيها جسمه .. ويهين نفسه .. وهى لهذا يجب أن تتوقف .. لا بسبب الدين . . ولا خوفاً من جهنم . . ولكن بدافع من الإنسانية ومن احترام كل منكما لجسمه ونفسه .

عريان أفندى

أنا شاب فى العشرين .. ما زالت إلى الآن طالباً بالثانوية العامة .. مظهرى محترم ومؤدب جداً . . من يعرفنى لأول مرة يقول عنى إنى خجول وطيب ومهذب . . وهذه فى الحقيقة هى المعاملات الظاهرة التى أبدو بها أمام الناس .. ولكن فى الخفاء حينما أنفرد بنفسى فى غرفتى أتحول إلى شخص آخر تماماً .. ما أكاد أجد نفسى وحدى حتى أغلق باب الغرفة وأحكم إغلاقه .. ثم أفتح الشباك المطل على الجيران .. وأتجرد من ثيابى .. وأروح أتمشى فى الغرفة وأنا عريان .. وأشعر بالسرور إذا أحسست أن هناك امرأة تلمحنى حتى ولو كانت خادمة ..

يحدث أحياناً أن تبصق على المرأة التى ترانى على هذه الحال . وأحياناً تبتسم ..

وحدث أن أنشأت علاقات بهذه الطريقة .. وهى طبعاً علاقات قذرة مع خادمات ونساء ساقطات ..

والمشكلة أن هذه العادة اللعينة تتحكم فى سلوكى وتستعبدنى تماماً وتأمرنى فأطيعها وكأنى عبد .. لا أستطيع لها دفعاً .. ومهما لاقيت من احتقار وازدراء واشمئزاز لا أكف عن التمادى فيها ..

والغريب أنى فى وجودى فى مجتمع أتصرف بأدب وخجل شديد وكأنى شخص آخر ..

حدث أن كانت لى علاقات بفتيات محترمات تعرفت بهن فى أماكن عامة .. وكنت أدعوهن إلى نزهة على النيل أو إلى سينما . .

ولكنى كنت دائماً أخسرهن فى النهاية .. بسبب مسلكى الشاذ فى السينمات . . فى اللحظة التى ينطفىء فيها النور ويسود الظلام . . كان يركبنى ذلك الشيطان... فأتصرف بدناءة... وقذارة.... وتكون النهاية...

وأنا لا أفعل هذه الأشياء بشقاوة .. ولكنى أفعلها وأنا مغلوب على أمرى .. وأنا أشعر بتعاسة لا حد لها ..

أنا مريض .. أنا أعلم أنى مريض ..

وأنا فى دراستى أرسب على الدوام .. وخائب خيبة لا حد لها ، وفى أعماق أحتقر نفسى .. وأشعر أنى ملوث .. ولكن ماذا أفعل ..

هل هناك حل لرجل مثلى ..

* * *

حالتك يسميها فرويد « عقدة الاستعراض » ..

وفرويد يقول إننا كلنا ونحن أطفال نحب أن نتعرى ونخبط على جسمنا العارى ونلهو به .. ولكن هذه الرغبة تتطور إلى الحالة الطبيعية لسوية عند البلوغ فلا نعود نلتمس لذتنا بهذا الأسلوب الطفلى .. وإنما تتجه إلى الجنس الآخر بالغريزة الطبيعيه التى توجهنا إلى الحب والزواج .

ولكن الجمود عند المرحلة الطفلية قد يحدث لسبب أو لآخر بسبب ظرف تربوى شاذ أو حادث أثناء الطفولة .. فتنشأ عقدة الاستعراض .. وتستمر هذه الرغبة الشاذة فى العرى فى سنوات البلوغ وبعده ..

والعلاج فى هذه الحالة يحتاج إلى تحليل نفسانى وإلى استكشاف سنوات الطفولة الأولى وما حدث فيها عن طريق الأحلام .. والتذكر وهذا يحتاج إلى طبيب نفسانى محترف ..

١٣

عقدة التفوق

أنا فتاة أبلغ من العمر الثالثة والعشرين طالبة فى كلية الطب .. متوسطة الجمال .. ظريفة محبوبة .. منذ السنة الأولى وأنا أزامل طالباً .. وأحبه ويحبنى ..

كنا نقضى طول الوقت بالكلية معاً .. ونذهب معاً إلى النادى والملاعب .. ونقضى آخر الأسبوع فى السينما أو فى الحدائق .. ونتحدث فى آمالنا ومستقبلنا ، ونرسم الخطط للسنوات القادمة ..

وتعاهدنا على الزواج بعد التخرج .

قال لى إنه لا يريد أن يأخذ مليماً من أبيه .. وإنه لايريد أن يتزوج وهو يعيش عالة على غيره ..

وهكذا كان انتظارنا طبيعيا ..

ولكن حدثت المفاجأة ..

فى الإجازة الصيفية من العام الأول .. ونحن نعلق الآمال .. ونحلم بالسفر إلى الإسكندرية وقضاء أيام جميلة على الشاطئ ، والاشتراك فى رحلة الكلية إلى سوريا .. تغير فجأة .

فجأة .. وبدون سبب واضح .. اختفى تماماً بعد إعلان نتيجة الامتحان .. وفشلت كل محاولاتى للعثور عليه ..

وعلمت أنه رسب فى الامتحان .. وأنى نجحت .. ولكنى لم أستطع أن أربط بين هذا الرسوب وبين اختفائه من حياتى .

إن الامتحانات حظوظ .. وليس فى رسوبه ما يخجله أو ما يغضبنى

وما ذنب حبنا ..

إن حبنا أبقى وأعظم من أى نجاح أو فشل فى امتحان أو غيره .. وأنا أحبه مهما حدث ..

وتعذبت شهوراً .. وأنا أفكر .. وأتساءل .. ثم كتبت له خطاباً طويلا ألومه .. وأعتب عليه .. وأذرف الدموع من أجل حبنا .. وأستحلفه بالأيام الجميلة أن يعود إلى ..

وعاد إلى .. وتقابلنا .. ولكنه كان ساهماً شارداً متجهماً ..

لم يكن طليقاً بشوشاً مرحاً كعادته .. وحاولت المستحيل لكن أعيد إليه مرحه .. وحاولت أن أفهم سر عذابه .. ولكنه لم ينبس بحرف .. وكان يقول دائماً حينما أشير إلى أمر رسوبه .. إن هذا أمر تافه .. وإنه ليس بالرجل الذى يفقد روحه من أول خذلان ..

ما هو إذن السر فى وجومه .. لا أعرف ..

وتكرر رسوبه .. وتكرر اختفاؤه .. وتكرر نجاحى فى نفس الوقت.. وتكررت محاولاتى للمحافظة عليه واسترجاعه ..

والآن أنا فى امتحان التخرج الأخير .. وهو ما زال فى السنة الأولى يتعثر فى كتب التشريح ..

وبعد شهور أكون قد أصبحت طبيبة .. وأكون فى الظروف التى تسمح لى بمعاونته مالياً .. والإنفاق عليه .. والزواج به برغم كل شىء .

وأنا أحبه ..

ومسألة رسوبه لا تهمنى ..

أريده بأى ثمن .. وهو يتهرب منى وينكمش فى نفسه أكثر وأكثر ،

ويقابل عاطفتى المتأججة بالبرود ..

وأنا أبكى حزناً عليه .. وحزناً على نفسى ..

ماذا أفعل لأسترجعه وأسترجع حبه .. وأتزوجه ..

ماذا أفعل ؟ ساعدنى ..

* * *

ساعديه أنت واتركيه فى حاله .. ولا تحطميه أكثر مما حطمته .

إنك لا تفهمين عقلية الرجل أبداً ..

إن الرجل ورث تقليداً ملعوناً عن آبائه وأجداده .. إنه قوام على المرأة .. ووصى عليها .. ومشرف على بيتها وحياتها .. ومتفوق عليها بحكم كونه رجلا ..

قد تكون هذه التقاليد الموروثة كلاماً فارغاً .. ولكنها فى دمنا .. مهما تكلمنا عن المساواة ..

إن عمرها خمسة آلاف سنة ..

منذ أيام الفراعنة والملوك رجال والأنبياء رجال والعباقرة رجال .. وحتى هذه اللحظة تجدين فى الجمهورية العربية ثلاثين ملحناً كلهم من الرجال .. مع أن فن التلحين لا يحتاج إلى عضلات .. ولا إلى رجولة .. إنه مجرد تفوق فى شىء .

ونحن ورثنا لعنة التفوق فى الواقع وفى التاريخ وفى الماضى القريب والماضى البعيد ..

والكلام عن المساواة لا يزيد عمره عن سنوات ..

ونحن نحاول أن نتطور ونتحرر ، ولكن التاريخ أقوى منا .. لأنه بعيد

قديم طويل ضارب بجذوره فينا ..

ماذا نفعل .. إننا مساكين .. نحن ضحايا هذا الميراث اللعين .. ولا بد أن نتفوق لنشعر أننا طبيعيون .. وأننا رجال .. نثق فى أنفسنا .

إن رسوب زميلك .. ونجاحك باستمرار .. شىء فظيع لا يمكن أن تتصورى أثره لأنك لست رجلا ..

وزواجك به على أساس الإنفاق عليه.. سوف يزيد مشكلته تعقيداً، ويفقده الثقة بنفسه أكثر وأكثر ..

لا يوجد حل .. إن الواقع قد تراكم ضدك ..

إن الزوجة المتفوقة الذكية تدعى دائماً أنها غير متفوقة قليلة الحيلة وعاجزة وفى حاجة إلى نصيحة رجلها لتكسبه .. وتكسب حبه ..

إن أتعس ما فى الرجل أنه محكوم عليه بالغرور ..

حكاية الحب الأول

نحن روح واحدة فى ثلاثة أشخاص .. أنا وهو وهى ..

صديقان هى ثالثتنا .. تعارفنا .. وكنا نتزاور منذ الصغر .. ونلعب معاً .. ونخرج معاً ..

كنا نقول لها أسرارنا ونشكو لها متاعبنا .. وكانت هى تحكى لنا حياتها وتشكو لنا زوجة أبيها القاسية .. وكيف تطهو وتغسل وتكنس الشقة وحدها .. وتبكى بالليل دون أن يشعر بها أحد ..

وكانت جميلة وطيبة ..

وكبرنا .. وكبرت معنا .. وكبرت معنا آلامنا .. وكنا نتكلم فى كل شىء إلا الشىء الوحيد الذى يؤرقنا .. حبنا ..

كنت أحبها ولم يكن يشغلنى غير شعور واحد هو حبى لها .. ولكنى لم أكن أجد القوة لأصرح بهذا الحب .. كنت أخجل منها ومن صديقى، وكنت أسمى هذا الحب صداقة لأخدع نفسى ..

ولكنى لم أستطع أن أستمر فى الكتمان .. وراودتنى نفسى أن أرسل لها خطاباً أشرح لها فيه ما أعانيه من الوجد وكتبت الخطاب ودسسته فى يدها .. ومرت أيام وأنا لا أقابلها وأتجنبها من الخجل والخوف والإحساس بالذنب .. ولكنها سعت إلى بنفسها وجاءتنى وهى تبتسم وفى يدها رد على خطابى ..

وكان رداً حاراً اعترفت فيه أنها تبادلنى الحب .. وليلتها بت طول الليل مسهداً أتقلب على جنبى من الفرح ..

واستمرت بيننا الخطابات أكثر من سنة . .

وفى أحد الأيام لم أستطع أن أكتم السر عن صديقى صارحته بالحقيقة وحدثته عن حكاية الخطابات المتبادلة .. وهنا كانت المفاجأة فقد نظر إلى فى دهشة واستنكار .. ثم دخل غرفته وأخرج حزمة من الخطابات من درج مكتبه .. وكلها بخطها وكلها تذوب حباً ووجدا وهياماً .. وبعض العبارات مكررة فى كلامها .. عبارات مثل :

أنظر إلى نجوم الليل فأتذكر سواد عينيك الجميلتين... القمر مضىء مثل ابتسامتك ..

وبعض العبارات منقولة من خطاباتى لها .. ومن تغزلى فيها .

وأبجمتنا الصدمة .. ولبثنا ننظر إلى بعض فى ذهول ..

كان من الواضح أننا كنا ضحية مهزلة مثلتها علينا نحن الاثنين .. وأننا نبكى ونسهر ونتعذب على لا شىء .. على كلام فاضى ..

وذهبنا إليها لنلقى فى وجهها بالحقيقة .. فبكت واعترفت .. وقالت إنها تحبنا نحن الاثنين .. وإن حبها لنا ينمو معها منذ الصغر .. وإن كل واحد فينا صورة من الآخر .. لا تستطيع أن تفضل أحداً ولا أن تختار أحداً .. ولا أن تستغنى عن أحد .. هذه هى الحقيقة .. وليظن كل منكما ما تشاء له ظنونه .. ولكنى أحبكما .. وهذا حبى الأول والوحيد ..

والمهم الآن أننا نحبها .. بالرغم من هذه الخدعة ..

وأنا لا أدرى ماذا يدور فى قلب صديقى .. ولكنى أعلم بما يدور فى قلبى .. وأعلم أنى أحبها أعبدها .. وأنى أغتفر لها كل ما تفعل .. وأن حبى لها سيكون حبى الأول والأخير فى الدنيا ..

وحلمى الوحيد أن أتزوجها .. وأعيش معها ..

ما رأيك ؟ ..

* * *

لو أن الظروف جمعتكما على أى فتاة أخرى لوقعتما فى شراك حبها تماماً كما حدث مع هذه الفتاة .. وهذه دائماً حكاية الحب الأول فى كل مكان .. خطابات وسهر ودموع ووعود بالإخلاص وخيبة أمل .. مع أية فتاة تلقى بها الصدفة .

وحكايات الحب الأول مادة جيدة للذكرى .. ولكنها لا تصلح لتكون مادة حياة وزواج ..

إنها الحرارة التى تبثها المراهقة .. واللهب الذى يبثه الشباب حوله فى كل مكان ..

احتفظ بالخطابات .. لتقرأها حينما تكبر .. واحتفظ بالقصة كلها فى الدرج معها ..

إنها الآن تثير دموعك .. ولكنها غداً لن تثير فيك إلا ابتسامة لطيفة ..

الحنان

أنا مازلت صغيرة .. اعذرنى فى أسلوبى الضعيف إنى أشعر بالحب نحو كل الناس ونحو أصدقائى وهم يحبوننى ويبادلوننى الإخلاص والتضحية.. وأخى كان مثلى وهو صغير ولكنه فقد الكثير من إخلاصه وحنانه حينما كبر وأصبح جافاً جامداً .. لا يؤمن بالعواطف .

وأبى وأمى أكثر منه جفافاً .. وأقل منه إيماناً بالحب .. وهم يقولون لى إن كل شىء فى الدنيا مصلحة .. وإن كل واحد فى الدنيا يجرى خلف منفعته .

والغريب أن حكايات أمى وهى صغيرة تدل على أنها كانت عاطفية تؤمن بالحب والإخلاص مثلى ..

ماذا يحدث للإنسان حينما يكبر ليفقد حنانه وحبه وإيمانه بالإنسانية..

لماذا يصبح الناس أنانيين حينما يكبرون ما السبب ..

هل هى الظروف ؟

من تجاربى البسيطة أميل إلى أن السبب هو عدم كفاية الحب والحنان

الذى تبذله الناس فى هذه الدنيا ..

أنا مثلا .. عندما أظهرت لأبى — الذى كنت أظنه عصبياً قاسياً — حنانى .. وأبديت له حبى بدلا من خوفى .. وجدته يتحول إلى إنسان رقيق غاية فى الرقة .. ورأيته يفعل المستحيل ليحقق لى رغباتى .. ولاحظت أنه بدأ يضبط أعصابه حتى لا يبدو أمامى قاسياً .

كذلك أمى لما حاولت أن أتفاهم معها بدلا من العناد .. وجدتها تحاول أن تفهمنى وتسمح لى بكثير من الحريات .

وعندما أعددت العشاء لإخوتى الساهرين فى الخارج وكتبت لهم تحية المساء على ورقة .. طبعوا على خدى قبلة وأنا نائمة .. وفى الصباح لم يتعاركوا على المصروف ..

ما رأيك .. أليست المشكلة كلها هى مشكلة حاجتنا إلى الحب .. أم أنى صغيرة كما تقول أمى .. ولا أفهم فى الدنيا .

* * *

أنت لست صغيرة أبداً .. ربما كنت صغيرة فى السن .. ولكنك كبيرة فى القلب والعقل .. أكبر منا كلنا .

لقد استطعت بفطرتك الصافية أن تدركى سراً كبيراً من أسرار الدنيا .

إن الإنسان يبدأ حياته .. يتدفق بالحب والحنان والتفاؤل والثقة .. ثم يجف هذا النبع العاطفى فى قلبه كلما كبر .. ويتحول مع الزمن إلى عجوز أنانى بخيل لا يحس إلا بمصلحته ولا يجرى إلا خلف منفعته ..

والسبب أن أحلامه الصغيرة وعواطفه الصافية تصطدم مرة بعد

مرة بما يخيب أمله .. ويزلزل ثقته فى الدنيا وفى الناس .

حبيبته تهجره وزوجته تكذب عليه .. وصديقه يستغله ولا يجد فى قلبه رصيداً يغطى هذا الفشل.. ويحفظ له ابتسامته وتفاؤله فيفقد النضارة ويجف ويقسو .. ويتحول سخطه إلى سخط على الدنيا كلها ..

والسبب كما قلت أنت .. أنه لم يجد كفايته من الحنان .. لم يجده فى الدنيا .. ولم يجده فى قلبه .. فأفلس ..

والدليل على هذا أن القلب الكبير لا يحدث له هذا الجفاف مهما كبر وشاخ لأنه يجد فى نفسه القدرة على بذل الحنان دائماً مهما حدث له .. ومهما تلقى من صدمات ..

وبهذه القوة وحدها يسترد حب الناس الذى فقده .. ويسترد ثقته فى الدنيا .

وهذا هو ما حدث لك مع أبيك وأمك ..

إن مشكلتنا جميعاً هى كما تقولين فى خطابك .. حاجتنا إلى الحب .

إن اعترافك الصغير البسيط هو أجمل وأصدق ما قرأت منذ بدأت فى كتابة هذا الباب .

تحضير الأرواح

بدأت مشكلتى حينما بدأت أحضر الارواح عن طريق السلة .. وكان نتيجة لتحضيرى هذا أننى أصبحت فردين فى شخص واحد .. فقد تقمصتنى روح من الأرواح تدعى نعيمة .. وسيطرت هذه الروح على تفكيرى للدرجة أنى أصبحت أعلم كل شىء عن نفسى وعن بقية الأشخاص الذين أتعامل معهم دون سؤالهم .. وأصبحت عندى القدرة على التنبؤ عن أشياء كثيرة دون أن أراها ..

ودامت علاقتى بهذه الروح للدرجة أنى عاشرتها معاشرة الأزواج ..

وكنت أحس بأن تفكيرى قد بات مشلولا .. وما فائدة التفكير .. وأنا بإمكانى أن أتنبأ بكل شىء قبل وقوعه .. بالعمل الذى أعمله .. بالطعام الذى آكله .. بالخطوة التى أخطوها .. بكل شىء .. كل شىء .

وكان نتيجة هذا المس الروحى أن انهارت أعصابى وأشرفت على الانتحار والجنون .. وبحثت عن مساعدة فلم يصدقنى أحد .. حتى المشرفون الاجتماعيون فى المدرسة ضحكوا على ..

وأخيراً قادتنى ظروفى إلى جمعية روحية .. اشتركت فيها وأصبحت عضواً مريضاً بها أعالج بالجلسات الروحية ..

وتحسنت صحتى .ولكنى لم أشف تماماً .. وكنت أشعر حينما كنت أذهب هناك أنى لا أستطيع صعود السلم مهما بذلت من مجهود ..

وانقطعت عن الذهاب .. وعدت طبيعياً ..

ولكن منذ شهر بدأت المناوشات بين هذه الروح وبينى من جديد..

والمشكلة أنها تسبب لى متاعب جسمانية لا علاج لها .. والآن وقد بلغت من العمر ٢٢ سنة وأنا بهذه الحال .. لا أستطيع أن أكاشف أحداً بهذه المتاعب .. حتى لا يتهمنى بالجنون .. ولا أعرف ماذا أفعل .

وأخشى أن تعود هذه الروح إلى وأرجو أن تمد لى يد المعونة .

* * *

أولا هذا كلام فارغ ..

تحضير الأرواح بالسلة كلام فارغ .. وحكاية الروح التى اسمها نعيمة التى ركبتك وعاشرتها وعاشرتك معاشرة الأزواج وفتحت لك مغاليق الغيب .. فأصبحت مكشوف الحجاب .. كلام فارغ .. ولو كنت مكشوف الحجاب بصحيح لعرفت أسئلة الامتحان وعرفت الأجوبة ، ولكان فى إمكانك أن تذهب إلى سباق الخيل لتعلب وتكسب مليون جنيه على كل الخيول الرابحة .. ما دمت تعرفها مقدماً .. ولرقصت فرحاً بهذا الزواج الروحى بالست نعيمة بتاعتك فهو زواج مريح جداً لا يحتاج إلى إيجار شقة ولا إلى عفش .. ولا مسئولية بيت وأكل وشرب وأولاد .. إنه لذة صرفه يابلاش بدون تكاليف وعليها بقشيش كمان هو الاطلاع على الغيب مجاناً ..

انزل إلى الشارع وابحث عن ورق اليانصيب الرابح مادمت تعرفه مقدماً .. واشتره .. واكسب ألف جنيه يومياً .. ولا تبك على حظك ولا تذهب لجمعية روحيه لتعالج نفسك .. وليه .. واحد يعالج نفسه من مرض هو الجنة بعينها ..

لكن الحقيقة أن الحكاية كلها كلام فارغ .. وأوهام فى أوهام ..

وخيالات أوحيت بها إلى نفسك وصدقت نفسك.. وإيمان ساذج رحت ضحيته ..

وأؤكد لك أنك ستشفى تماماً فى اللحظة التى تفقد فيها إيمانك بتلك الأرواح الخرافية ..

وسوف تفقد إيمانك فى اللحظة التى تناقش فيها نفسك فى هدوء وثقة وبدون خوف..

وتأكد أنه لا شىء فى هذه الدنيا يستحق أن يخاف منه الإنسان فالإنسان قد أثبت أنه مخيف أكثر من الشيطان نفسه .. فهو قد صنع القنبلة الذرية وطار فى صاروخ إلى القمر .. وركب كوكباً ودار به حول الأرض ..

ومن الذى ركب الكوكب ودار به حول الأرض ؟!

امرأة اسمها فالنتينا ..

يا رجل عيب .. فوق لنفسك مش عيب نبقى فى عصر فالنتينا .. .. أنت فى عصر نعيمة !

عقب السيجارة

بدأت حياتى بزواج فاشل انتهى بخيانة زوجية وطلاق .. أعقبته سنوات من الوحدة والمرارة والخراب والأعصاب التالفة والأرق والمتاعب الجسمية والنفسية من كل نوع ..

كنت أشكو الصداع المزمن وسوء الهضم وأدمن على المنومات والمسكنات.

وكان هناك ما يدمرنى أكثر من هذه المنغصات الجسدية ..

الشك وسوء الظن وفقدان الثقة وفقدان الأمل واليأس من الدنيا .. ومن الوفاء .. ومن جنس النساء على إطلاقهن ..

عشت سنوات وأنا بهذه الحالة النفسية .. أتحرك مذهولا شارداً كشبح .. أعيش فى عزلة مهما خالطت الناس ومهما غشيت السهرات والمنتديات . . وأحياناً كانت هذه السهرات تزيدنى وحدة . . كنت أشعر أنى منفصل عن الضحكات حولى .. منعزل عن القهقهات المرحة .. غائب فى نفسى .. فى التيه المظلم فى داخلى . .

ظللت على هذه الحال حتى عرفتها كانت امرأة فى الأربعين مريضة عليلة ذابلة .. امتص حياتها ثلاثة أزواج لم يتركوا لها سوى أثر باهت من جمال وبقايا من جسد مرهق وبيت خرب .. لا طفل .. ولا طفلة .. ولا ذكرى . .

وبدأ كل منا ينفض همومه إلى الآخر . . .

وتوثقت بيننا مع الزمن رابطة غريبة .. هى رابطة الألم ..

كانت تقول لى .. وعيناها دامعتان ..

ما تفعى .. لقد انتهيت .. لم يعد هناك رجل يمكن أن ينظر إلى ..
ولكنى كنت أنظر إليها وأحتضنها بعينى وقد ذابت شكوكى على وقع كلماتها .

أخيراً . . أحسست أنى أثق فى امرأة من جديد ..

كيف حدث هذا . لست أدرى !

وتطورت الأمور بسرعة .. وعرضت عليها الزواج ..

وثارت العائلة .. وواجهنى الكل بزوبعة من الصراخ والاحتجاج ..

كيف تتزوج من هذه العجوز العليلة الذابلة التى امتصها الرجال..
وأنت رجل فى الثلاثين . فى كمال رجولتك وصحتك . . غنى جميل جذاب .. لا ينقصك شىء ..

إنك تلتقط عقب سيجارة دخنها الكل . ولم تعد تصلح لشىء

وصارحنى خالى الطبيب بأن مرضها لن يمهلها أكثر من سنة ..
وأنها مقضى عليها بالموت لا محالة .. فزاد هذا من تمسكى بها .

وأنا الآن أستعد لإتمام الزواج فى الأيام القليلة القادمة ..

سوف أتزوجها مهما حدث ..

الكل ضدى .. الكل يخذلوننى .. ولكنى أحبها ما رأيك فى هذا الحب ..

* * *

أخشى أن أقول لك إن هذا ليس حباً كما تتصور .. إنه مرضك العصبى الذى وجد دواءه فى هذه المرأة . . إن مشكلتك الحقيقية ..

أنك فقدت الثقة فى كل النساء . . وأصبح ظل الخيانة يحوم حول كل امرأة تنظر إليها . .

ولهذا استحال أن يتجدد حبك . .

ولهذا ظللت تعيش فى وحدة وضياع حتى عثرت على هذه المرأة .

امرأة انتهت على حد تعبيرها هى .. ولم يعد لها نفع .. ولم يعد من الممكن أن ينظر إليها رجل . كانت هذه الكلمات كقطرات الندى التى نزلت على أعصابك .

ها هى ذى امرأة لا يمكن أن تكون موضع شك . . ولا موضع خيانة ..

وشعرت بالراحة .. فى أعماقك .. فى أعماق عقلك الباطن ..

وحينما قال لك خالك الطبيب .. إنها ميتة .. ولن تعيش أكثر من سنة .. شعرت بالاطمئنان أكثر فسوف تتزوج جثة لا يمكن أن تخونك أبداً . .

كانت هذه الأحاسيس تخالجك من الباطن وكان عقلك الواعى يخدعك ويصور لك هذه الأحاسيس والروابط على أنها حب ..

ولكنها ليست حباً .. إنها عقابك لنفسك .. وسوء ظنك الذى تحكم فيك .. ثم حكم عليك بهذا الاختيار المريض ..

انظر إلى حياتك من جديد .. وحاول أن تتخلص من هذه العقدة واترك المريضة لحالها .. وابحث عن امرأة تناسبك ..

إن الدنيا مليئة بالبنات .. وبالإخلاص والحب والخير . .

وما هى النظافة

كانت جارتى . .

تبادلنا النظرات .. ثم الإشارات .. ثم تلاقينا .. لنتبادل الهمس وليضغط كل منا على يد الآخر .. ثم ذهبنا إلى سينما .. وفى الظلام وشوشت فى أذنها بكلمة الحب .. ولثمت يدها . . وخدها . .

وبعد شهور اختليت بها فى بيتى وأعطتنى نفسها .. جسماً . وروحاً

ومنذ أيام .. كنا نتكلم أنا وأبى وأمى .. ولاحظت أن أبى وأمى يتبادلان النظرات والابتسامات .. ثم قالا لى إنهما خطبا لى عروسة .. وذكرا لى اسمها ..

ودار رأسى .. وأظلمت الدنيا فى عينى .. فقد كانت هى نفسها .. جارتى ..

وكان أبى وأمى يتكلمان فى براءة ..

وكانا مسرورين .. وكانا يقولان إنها بنت طيبة وشريفة .. ومن أصل طيب .. ومن المدرسة إلى البيت .. ومن البيت إلى المدرسة .. ولا تعرف مياعة بنات اليومين دول .. ولم تطلع عليها سمعة سيئة مثل غيرها من بنات الجيران . .

وكنت أسبح فى عرقى ..

لقد كنت الوحيد الذى يعلم أمر هذه البنت الشريفة الطيبة التى لا تعرف مياعة بنات اليوم .

كنت أنا الوحيد الذى أعرف مياعتها .. ودلعها .. وخسارتها .

ولأول مرة .. حينما بدأت أتصور أنها زوجتى .. أحسست أنى أكرهها .. بكل ما فى كلمة الكراهية من معنى .. ولا أطيق رؤيتها ..

لقد كان حلمى .. طول حياتى .. أن أعثر على امرأة طاهرة .. وأن أبنى بيتى على حب طاهر نظيف ..

ترى .. هل فات الأوان ..

* * *

كان يجب أن تكره نفسك أولا ..

وكان يجب أن تبحث عن الشىء النظيف فى داخلك أنت أولا ..

إنك باسم الحب استدرجت صاحبتك حتى اختليت بها .. ثم بصقت عليها .. واعتبرتها غير نظيفة ..

غير نظيفة لماذا ؟ لأنها صدقت كلامك .. وطاوعت رغبتك .. لأن فيها نفس الضعف الذى فيك ..

إن الرجال أمثالك هم أسباب محنة البنات وعذابهن ويأسهن ..

إن الرجال أمثالك : يجرون خلف المرأة .. فإذا استسلمت .. تركوها وإذا ردتهم خائبين .. تركوها أيضاً ! ..

والنتيجة أن البنت تقع فى ورطة .. ماذا تفعل لترضى الرجل ؟ إنها إذا قاومته قال عنها رجعية .. وإذا استسلمت له قال عنها غير نظيفة ..

وهو يدعى أنه يبحث عن حب طاهر .. وهو فى الحقيقة يكذب .. لأن الحب الطاهر لا يعنيه بالمرة . .

والنهاية أنه يتزوج فى سن اليأس بعد أن يتعب من نفسه ومن غبائه .. ويترك ذقنه للخاطبة .. أو للصدفة تختار له .. ويدخل على امرأة ليس بينه وبينها تعارف ولا تفاهم .. ويتحول إلى زوج شكاك غيور سخيف .. وتخونه زوجته من أول يوم لأنه لا يحتمل .

وهو فى أحسن الأحوال يكون زوجاً غبيا بليداً ميت الإحساس يائساً من نفسه ومن مثالياته .. ومثل هذا الزوج تخونه زوجته أيضاً .. لأن وجوده مثل عدمه ..

والنهاية أن تتحول حياتنا إلى فشل فى فشل ..

فشل فى الحب .. وفشل فى الزواج .. وفشل فى الأسرة .. والسبب واحد فى كل هذه الحالات .. وهو انعدام الصدق ..

لو كنت صادقاً مع نفسك لما أنكرت على فتاتك أن تكون ضعيفة .. لأنك أنت أيضاً كنت ضعيفاً مثلها .. وقد تبادلتما أنتما الاثنان هذا الضعف ..

والضعف صفة من صفات البشرية .. وليس فى المسألة نظافة أو عدم نظافة .. وإنما توجد غباوة فى رأسك هى التى تصور لك هذه الأشياء ..

والمرأة التى تحب .. تعطى .. وليس فى عطائها قذارة على الإطلاق .. وإنما القذارة فى أن تكذب عليك وتدعى الطهارة لتخدعك وتضحك على عقلك وتدعى الحب لتضحك على عقلها .. وتكون النتيجة أن يتحول المجتمع إلى جماعة من الكذابين المعقدين . .

إن صاحبتك سوف تلعنك .. وسوف تلعن كل رجل تعرفه بعدك ..

وسوف تعذب زوجها .. وسوف تعذب أهلها ..

وأنت السبب .. لأنك أفقدتها الثقة فى نفسها .. وفى الدنيا .. وحيرتها.. وحيرت دليلها ..

ومثلك كثيرون .. ومثلها كثيرات

وياويلنا منكم . . ومنهن . . ومن أنفسنا . .

سجن بدون قضبان

ترددت كثيراً فى الكتابة إليك خوفاً من ألا تفهم موقفى .. وتتهمنى بأنى دلوعة .. ولكن ها أنا ذا أجازف وأكتب لك كل شىء .. . .

أنا شاب فى أوائل العقد الثالث من عمرى .. تخرجت من الجامعة من مدة ليست طويلة .. وحالتى المالية ميسورة ومظهرى حسن .. ولكن مشكلتى أنى أحس بفراغ رهيب مخيف وعدم اهتمام بأى شىء فى الحياة مما يجعل أيامى ولياليّ غير محتملة .. فأنا أستيقظ من النوم حاملا على كاهلى هم وعذاب أنى سأعيش يوماً جديداً كاملا .. ٢٤ ساعة .. ولا أتصور كيف ستمر على كل هذه الساعات فليس لدى أى شىء أهتم بأن أشغل نفسى فيه وأكون سعيداً بانشغالى به .. وإنما على العكس أنظر إلى كل شىء نظرة ازدراء وتجاهل وعدم اهتمام .. ولا أعرف كيف أفسر هذا الشعور المؤلم الذى قلب حياتى إلى جحيم لا يطاق ودفعنى للتفكير فى الانتحار . .

لقد أحببت لأول مرة حباً جارفاً ملأ على كيانى .. ولكن بالرغم من

هذا .. وبالرغم من أنى كنت أغلى كالبركان من الداخل .. لم يكن يظهر على شىء من هذا الشعور .. ولم أصارح حبيبتى بأى شىء .. وإنما كنت أقف لأحادثها بمنتهى البرود ..

وكنت أعبدها .. وأعبد التراب الذى تمشى عليه .. وكان المكان الذى تذهب إليه هو عندى أحسن الأمكنة .. والساعة التى تحضر فيها أجمل الساعات .. وكنت أتمنى أن أذهب وراءها إلى أى مكان تذهب إليه .. وأجلس إليها طوال الوقت أستمع إليها . وأتحدث معها وأنظر إليها .. وكان قلبى يدق حينما أكلمها ولو فى التليفون .. وكان يكفى أن أرى فتاة تشبهها ، حتى يهتز كيانى كله . .

وبالرغم من هذا لم أظهر لها شيئاً . .

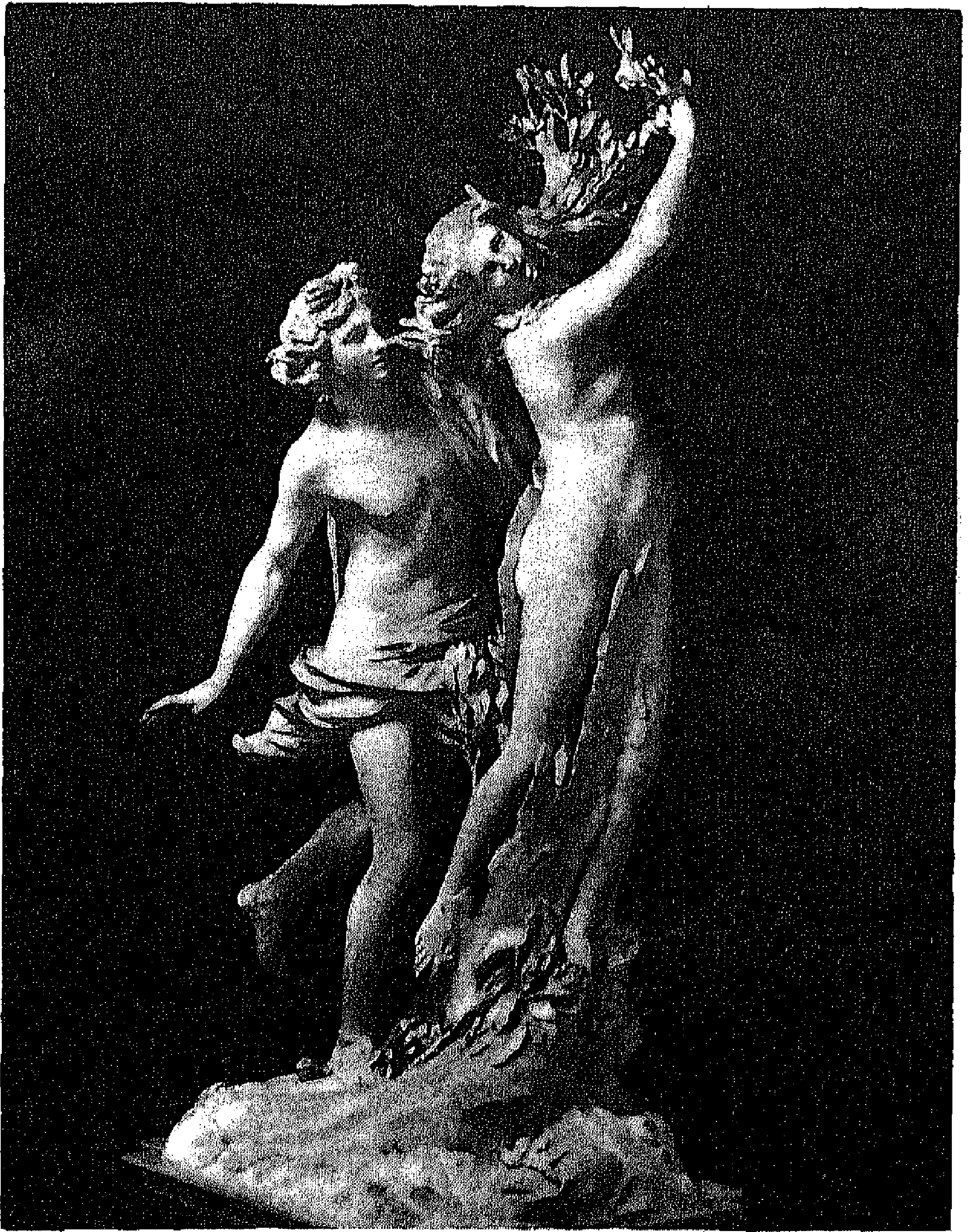
وإذا بدا عليها أنها حزينة تحولت إلى أتعس إنسان فى الدنيا .. وأصبحت مهموماً شارداً وبالطبع لم ينته هذا الحب إلى شىء . . وتزوجت هى وأصبح حبى شيئاً مضحكاً ومزرياً بالنسبة لى . . فطويته فى جانب بعيد قصى من قلبى .. وانهمكت فى دراستى بالكلية لأنساها .. ومرت سنتان ..

وانتهيت من الدراسة وحصلت على الشهادة التى أرى الآن مقدار تفاهتها .. وانتهيت إلى الحالة التى شرحتها لك . .

تمر على أيام . . لا أحس بأنى أرغب فى شىء .. لا أريد أن أقرأ أو أخرج أو أسمع موسيقى ، أو أمارس أى هواية من هواياتى . . وإنما أظل ممدداً على سريرى لا تصدر منى حركة . . ويمر الوقت بطيئاً مملا



پاولينا بونابرت — للفنان كانوڤا بمتحف بورجيز بروما



ابولو ودفنى — للفنان برنيني بمتحف بورجيز بروما

قائلا وأنا كالبركان الثائر من الداخل.. كلى اشمئزاز ونفور من حياتى بهذه الطريقة . .

لم أعد أهتم بأصدقائى .. ولم أعد أهتم بالأشياء الجميلة التى كانت تسعدنى فيما مضى كالموسيقى والقراءة والسينما والنادى . .

وهكذا أعيش وقد عدمت كل شىء حتى الذكريات .. فذكرياتى سخيفة تافهة وحاضرى فارغ ومستقبلى مظلم .

لا أظن أن لديك نصيحة أو حلا .. والحقيقة أنى لم أكتب منتظراً أى حل .. وإنما أردت أن أريك بعض حالات الشقاء والتعاسة التى يمكن أن يعيش فيها الإنسان بالرغم من توفر الفرص والوسائل لديه ليكون سعيداً . .

* * *

إن شخصيتك غريبة . .

إن فيك انطواء يدفعك دائماً إلى أن تمضغ انفعالاتك فى قلبك ولا تنطقها . .

لقد عشت فى بروفة حب .. ولم تحاول أن تمارس هذا الحب أو تجربه .. ولم تفعل هذا على سبيل البرود أو الدلال .. ولكن فعلته جبناً وخجلا وتردداً .. لانطوائك على نفسك وخوفك من الخروج منها ..

وهكذا بدأت قصة حبك فى داخلك .. وانتهت فى داخلك دون أن يسمع بها أحد . .

وها أنت ذا تسلك فى حياتك كما كنت تسلك فى حبك . . تمضغ انفعالاتك . . وتعلق رغباتك على حبال الملل والانتظار . . ثم لا تكتفى

بعدم العمل وإنما تتجاوزه إلى عدم الاهتمام . .

إن شخصيتك تسودها البطالة والتعطل . . كل شيء فيها مضمر . . وممكن . . ولكنه غير واقع . .

شخصيتك تشبه دولة بها جهاز تشريعى وليس بها جهاز تنفيذى.. ومثل هذه الدولة تعيش فى النظريات ولا تفعل شيئاً . .

إن ما ينقصك ليس الحب .. ولكن العمل والبت والإيجابية والفعالية .

افعل شيئاً أى شيء .. وإذا لم تكن لديك الرغبة فاحمل نفسك على فعل شيء .. ومن الحركة تتولد الرغبة .. ويتولد الاهتمام ..

إن نجاتك الوحيدة فى العمل .

أما إذا أسلمت نفسك لهذه البطالة فإنك سوف تختنق يوماً ما بالطاقة التى تفور داخلك ولا تجد لها منفذاً تعمل فيه .. وسوف تنتهى إلى أسوأ النتائج . .

الاختيار

تزوجت فى سن الخامسة عشر رجلا يكبرنى بنحو ٢٠ عاماً تحت ضغط أب عنيد وأم جاهلة كل همها الثراء والمركز والمكانة التى تليق باسم العائلة . .

حاربت هذا الزواج بكل ما أوتيت من قوة صراخ وبكاء . . ولكنى لم أفلح . .

وباعونى كلهم ..

ودخلت وأنا أرتجف بيت رجل لا أحبه .. رجل قبيح الخلقة والخلق .. بخيل .. شاذ الطباع .. شديد المعاملة .. كل كلماته أوامر .. كان لا يعود إلى بيته قبل الثانية صباحاً تفوح منه رائحة الخمر .. يترنح .. ويتكلم .. بفم معوج ..

وتمضي لحظات الفراش ثقيلة .. هو من ناحية جلف غليظ فى مغازلته .. أنانى لا يهمه إلا أن يحصل على متعته . . ثم يدير ظهره ويتركنى . وأنا من ناحيتى أعانى الخجل والاشمئزاز والإحساس بالهوان..

وكان طوال علاقتنا .. ضعيفاً فى هذه المسألة ..

وكنت أشكو لأمى كرهى له وعزمى على النوم وحدى .. وكانت تنهرنى وتقول لى كرهك وحبك لنفسك ضعيه فى قلبك .. أما جسدك فهو ملك له . .

وسمعت كلامها .. وبدأت أترك له جسدى كخرقة بالية لا حراك فيها ولا روح .. وأنجبت أربعة أولاد .. وأنا أتعذب .. وأكتم فى نفسى .. حتى انهارت أعصابى .. وأصابنى ضغط الدم والقلب .. وبدأت تتناوبنى الأمراض

وبدأت أبتعد عنه جسمانياً ..

كان هذا منذ اثنى عشر عاماً . .

أصبحت لا أحتمل مجرد سماع صوته أو رؤيته وكنت حينما أراه يدق قلبي بشدة ويكاد يتوقف وتنتابنى حالات عصبية .

ومنذ أربع سنوات انقطعت عن الكلام معه .. وأصبح لى جناح وحدى فى البيت .. وله جناح وحده ..

وإلى الآن لم يطلقنى .. وهو يقول .. إنه لن يتركنى حتى أصبح غير صالحة له أو لغيره . .

ولكنى لم أعد صالحة له ولا لغيره .. منذ الآن ..

لقد أصبحت بعد عذاب ٢٥ سنة امرأة محطمة أولادى كبروا وأصبحوا شباناً .. وأنا ذبلت وأصبحت مريضة .

والآن أريد أن أستريح ..

أريد الخلاص منه بأى طريقة .. إنه لا يريد أن يطلقنى

وأنا لا أستطيع أن أطلب الطلاق من المحكمة لأن مركزى ومركز أولادى ومركز العائلة لا يسمح .. لا أريد فضائح .

أفكر فى تغيير دينى لأصبح محرمة عليه .. ولكنى أخاف من الله ..

كيف يكون خلاصى .. إنى تعيسة

* * *

إن العجيب فى خطابك هو صبرك هذا العمر الطويل .. هذه السنوات الخمس والعشرين حتى انتهيت إلى هذه الحالة من ضغط الدم والقلب والانهيارات العصبية والمقاطعة الجسدية . ثم فى النهاية إلى عدم تبادل الكلام . .

وأخيراً وبعد خمس وعشرين سنة وبعد دفع كل هذه الضرائب الباهظة أحسست أن الحياة أصبحت لاتحتمل . إنه لابد من خلاص..

وأى خلاص ..؟! خلاص يتم بمعجزة .. بدون أن يطلقك .. أو تطلقيه بالمحكمة حتى بعد الخمس والعشرين سنة ما زلت تخافين .. وتقولين .. أولادى .. عائلتى .. مركز العائلة لا يسمح ..

ولكن أمك حينما زوجتك بالإكراه كانت تقول هذا أيضاً .. مركز العائلة لا يسمح .. اسم العائلة يستدعى .. إلخ .. إلخ ..

كانت أمك أسيرة المظهر المحترم والسمعة فاختارت لك زوجاً ذا لقب وأطيان .

وتعذبت العمر كله لأنك عجزت عن البت فى مصيرك . . كان البت يحتاج إلى إسقاط هذه الاعتبارات .. وأنت مثل أمك تخافين على هذه الاعتبارات !

واتخاذ أى قرار فى الدنيا يحتاج إلى التضحية بشىء ..

نحن نقامر بحريتنا واختيارنا فى كل لحظة . وأنت تطلبين الأمان .. وهذه نتيجة الأمان .

أنا أعرف الشىء الذى يرهقك . . إنه ليس كره زوجك .. ولا ضغط أمك .. إنه ضعفك . ضعفك أمام اللحظة الفاصلة .. لحظة اختيار المصير ..

ولكن ليس أمامك مفر ..

إما الاستشهاد إلى النهاية ودفع الثمن ..

أو الثورة ودفع الثمن . .

اختارى . .

حتى سكوتك اختياراً تدفعين ثمنه . .

حقيقة المشكلة

أنا طبيب حديث التخرج .. ناجح فى عملى كما كنت ناجحاً فى دراستى .. حالتى المالية من عملى ومن إيراد خارجى متيسرة جداً . .

أمتلك سيارة . . وشقة خاصة . . مؤهلاتى الشخصية ممتازة .. رياضى متفوق فى أكثر من لعبة .. صحتى جيدة . . شكلى جميل . . أنيق جذاب . . ذكى . . محبوب من الجميع . . خفيف الروح . . بارع فى اكتساب الصداقات .. وفى استهواء القلوب . .

بدأت تجاربى مع الجنس الآخر من سن مبكرة ، من الخامسة عشرة . . وكانت لى علاقات كاملة منذ تلك السن . .

أنا الآن عضو فى أحد أندية القاهرة . . وملك هذا النادى غير المتوج على قلوب الحسان . . ولكن للأسف الفتاة الوحيدة التى أحببتها هى التى لم أحظ منها بأقل اهتمام .

وقلبي الآن موزع بين ثلاث فتيات . .

فتاة أعبدها ولا تحبنى . .

وفتاة أخرى تعبدنى لدرجة الجنون ومحاولة الانتحار وأنا لا أحبها . .

وثالثة لا أحبها ولا تحبنى ولكننا نتمتع معاً إلى أقصى حدود المتعة ..

إنى أعيش الآن فى يأس . . وقد كفرت بالحب . . وخلت حياتى تماماً من الجانب المضىء . .

ماذا أفعل لأكسب فتاتى التى أحبها . .

* * *

إنك فى اللحظة التى تكسب فيها هذه الفتاة التى تتدعى أنك تعبدها .. سوف تضعها فى خانة .. فتاة تعبدنى ولا أحبها .. ثم تبدأ فى علاقة جديدة. إنك شاب هلامى . . كل همك أن يكون لك عرش . . وأن تكون الملك غير المتوج على قلوب الحسان . .

إن مايعذبك من فتاتك . . ليس حبك لها . . ولكن حبك لنفسك . . وغرورك . . الذى حطمته هذه الفتاة لأول مرة . .

ولن يكون همك هو أن تبادلها الحب أبداً .. وإنما سوف يكون همك هو أن ترد اعتبارك لنفسك . . وتثبت لنفسك أنك ما زلت فارساً .. ولهذا سوف تلفظها بعد لحظة من استسلامها وتبدأ فى البحث عن أخرى . .

إن خطابك الذى يتألف من ثلاث صفحات . . يحتوى على صفحتين كاملتين . تتغزل فيهما فى نفسك : جاذبيتك .. جمالك .. صحتك .. شقتك الخاصة .. عربتك .. حالتك المالية .. ذكائك .. مهارتك فى استهواء القلوب .. نجاحك فى عملك وفى دراستك . .

وفى الوقت الذى تقول فيه إن قلبك يتعذب وعواطفك تحترق . . تسمح لنفسك بأن تبادل امرأة أخرى المتعة بدون حب من ناحيتك ولا من ناحيتها . . ولا يفعل هذا إلا إنسان بلا قلب وبلا عاطفة . . وبلا مشاكل من هذا النوع الرقيق الذى تدعيه .

إن أحسن عقاب لك هو ما أنزلته بك هذه الفتاة .. التى كسرت شوكتك وحطمت غرورك .. وأرغمتك على احترامها وعبادتها .. وحينما تفهم كل فتيات النادى . . كيف يعاملنك ويكسرن أنفك الجميل . . سوف تنصلح حالك وتتأدب .. أيها الملك غير المتوج على دولة الملس . .

التعب

أنا شاب فى الرابعة والعشرين . . تركتنى خطيبتى قبل شهر ونصف بعد حب ملتهب . . وبدون سبب .. لتتزوج من غيرى فى بلد بعيد جداً .

تحملت الصدمة بمرارة .. ثم بدأت أسلك طريقاً سيئاً . .

أصبحت الفتيات الرخيصات كل هوايتي أبدل الواحدة بالأخرى على قدر ما معي من نقود .. ثم تعرفت على امرأة ذات سلوك يسميه الناس بالسلوك السيء . . علمت أنها مطلقة وما زالت على علاقة بمطلقها .. عرضت عليها الزواج فوافقت .. لم أشعر نحوها بما يسميه الناس حباً .. ولا بأي رومانتيكية .. وهي أيضاً علمتها التجارب وعلمها الخداع أنه لا يوجد شيء اسمه حب . .

أصبح الأمر بيننا أشبه بصفقة

أنا أشعر بالحاجة إليها .. ولكني لا أفهمها .. وأحس بأن جميع عواطفها مغلقة أمامي .. ولم أر منها سوى بعض دموع في أول اجتماعي بها .. وهي تشعر بالحاجة إلي .. ولكن ليس لديها حماس .. وأشعر بها باردة خاملة بين يدي . . . ولا يجد أحدنا الشجاعة الكافية ليقول للآخر : .. أحبك .. أعبدك .. أنت حياتي ..

كلانا يشعر أن هذا كلام فارغ ..

وأهلي يرون أن الحكاية كلها فاجعة .. ولا يوافقون .. ويهددون ويتوعدون .. وأنا حائر ..

هل أتزوج الفتاة .. أم أتركها .. وأعيش في أحضان القلق والإسراف والإرهاق . .

وكيف أتزوج كما يتزوج الناس .. وأنا لم أعد أعرف شيئاً اسمه بنت ناس .. وحب .. وانتظار .. وخطوبة .. وشرف وكرامة وسعادة زوجية ..

* * *

إن اليأس هو المأذون الذى سوف يعقد زواجكما .. كلا كما محطم يائس غطى قلبه الصدأ وفقد البريق والنضارة .. وكلا كما يتخبط .. هى مطلقة تعاشر مطلقها وتتزوجك فى نفس الوقت .. وأنت تعاشر شبح امرأة هجرتك وتخبص وتضع يدك فى يدها وأنت لا تعرفها ولا تفهمها وتطلب منها الزواج ..

إن العلاقة بينكما مفقودة تماماً .. وكل منكما يعيش فى عزلة عن الآخر .. مغلق على مأساته .. ومشكلته ..

وما يربط بينكما هو التعب .. والضجر .. والملل .. ومثل هذه العلاقة مقضى عليها بالفشل .. إنها مثل المولود الذى يولد ميتاً . .

اصرف النظر عن هذا الزواج .. واقطع علاقتك بالمرأة .. وبكل النساء .. واقض بضعة شهور فى صوم وتفكير .. حتى تستعيد شهيتك الطبيعية .. وإقبالك على الحياة .. وأشواقك القديمة . .

إن أسوأ ما يفعله المحب بعد صدمة عاطفية أن يمضى فى علاقاته .. إن مرارة الفشل تغير طعم الحياة فى فمه .. وتشوه أحكامه دون أن يدرى فتصبح كل علاقاته مريضة يسكنها الحقد والشر . .

بعد المشوار الطويل الذى يقطعه القلب.. نحتاج إلى راحة طويلة .. تماماً كما نفعل بعد المشوار الطويل الذى نقطعه بأقدامنا .. فالعواطف كالدم واللحم والأنسجة تحتاج إلى وقت لتتجدد ..

عدم الإمكان

أنا سيدة جميلة فى العشرين من عمرى .. بدأت حياتى بطفولة تعيسة .. كان أبى غنياً ولكنه بخيل جداً . . شرس حاد الطبع .. يتهور

لدرجة القسوة . فيضربنا جميعاً ضرباً مبرحاً .. والعجيب أنه كان يضرب أمى .. والأعجب أنه كان يضرب أمه .. وألفاظه جارحة قاسية لأقصى حد .. يدخل المنزل مقطب الحاجبين .. ولا يلقى كلمة تحية .. فينزوى كل من فى البيت فى رعب ..

وكان أبى يضطهدنى أكثر من باقى إخوتى لأنى كنت دائمة الرسوب .. ولم يكن يعلم أنى أرسب بسببه .. وبسبب الرعب الذى وضعه فى قلبى ..

وسافر أبى إلى بلد بعيد فى إحدى السنوات .. فبدأت أنجح فى المدرسة وأتفوق وأطلع الأولى .. وأحببت المدرسة .. ومرت سنتان .. وأنا على تفوقى ونجاحى .. ثم بلغت السادسة عشرة وبدأ الخطاب يتقدمون لى .. وأبى يضغط على لأتزوج .. وكنت أسمعه يقول : إن البنات نكبة على الحياة .. وإن الزواج هو الحل الوحيد للخلاص منهن .. وكان أحياناً يشتمنى .. ومرة يضربنى .. ومرة أخرى هددنى بالقتل إذا لم أتزوج .. وأمى كانت فى هذه الأحداث بين نارين .. فهى تعطف علينا .. ولكن ما باليد حيلة .. وهكذا وجدت نفسى مجبرة على الزواج ..

وصدقنى ، لقد ألقوا بى كما يلقون بكلب فى الشارع ووجدت نفسى مع رجل طيب يحبنى ويعبدنى ويغار على ، ولكنه بخيل وسمج لا يعرف الذوق فى ألفاظه ولا فى معاملته ، دائم النقد لكل الناس .

وبرغم أن زوجى كان أكثر عطفاً من أبى إلا أنى كنت أسعد حالا فى المدرسة .. كانت لى هوايات أمارسها .. وكانت لى شخصية .. وكانت لى أحلام .. كنت أحلم بأن أجرب الحب .. وأذوقه .. ولكنى

كنت أخاف من الحبس فى البيت والضرب والقتل ..

أما الآن فإنى أشعر أن حياتى انتهت .. لم تعد لى هوايات .. ولم أعد أتمتع بالجلوس مع صديقاتى .. ولم أعد أجد لذة فى ثرثرة زمان .. فقدت صبرى .. وفقدت آمالى .. ولم أعد أطيق شيئاً ..

الشيء الوحيد الذى أصبحت أحبه هو الخروج بشرط أن أكون وحدى .. أسير فى الشارع .. ترن فى أذنى الموسيقى .. ولكن زوجى لا يحب الخروج .. ويلازمنى فى كل خطوة ..

إن زوجى عبء .. عبء فظيع .. وأولادى عبء .. وبيتى عبء .. لا تقل لى .. أحبى زوجك .. فهذا مستحيل .. لا تقل لى اشغلى نفسك بهواية .. أو دراسة ..

إنى أشعر بهبوط فى نفسى باستمرار .. وهبوط فى جسدى .. وصداع أليم .. وعجز عن كل شيء ..

لا تبخل على برد سريع أرجوك .

أنا الأخت الصغرى لصاحبة الرسالة.. وقد أعطتنى رسالتها لأقراها قبل إرسالها إليك .. وقالت لى إنها لا تشعر أنها رسالة مقنعة . . ولكنها لا تقوى على الكتابة أكثر من ذلك ..

والواقع أن أختى حالها أفظع بكثير مما وصفت لك . . إنها ساهمة .. شاردة .. منهوكة القوى دائماً كأنها خارجة لتوها من عمل مرهق .. كانت عاطفية .. ولكنها الآن تهرب من العاطفة .. ولا تطيق سماع أغنية فيها عاطفة .. إنها تريد الهروب من كل ما يمت لواقعها بصلة ..

إنى قلقة عليها كثيراً .. وخصوصاً أن صحتها فى تدهور .. لا تنصح لها يا سيدى بالطلاق .. لأن لها أولاداً صغاراً من زوجها .. ووالدى كما وصفته لك .. لا يحب أحداً .. ولا يطيق مجرد إنسان معه فى المنزل حتى ولو كان ابنته أو ابنه ..

وليس لديها الصبر لتكمل دراستها أو لممارسة أية هواية .. لا شىء تفعله الآن سوى الشرود .. والشرود فى لا شىء ..

أتمنى أن تساعدها ..

* * *

سيدتى ..

أنت سجينة فى بيتك .. ولكنك قد سجنتنى أنا أيضاً فى أفكارى .. وكتفت يدى .. وجعلت كل الحلول غير ممكنة .. وغير مقبولة ..

وحينما يحاط الإنسان بعدم الإمكان من كل طريق وتسد عليه المنافذ .. لا تبقى له إلا بطولة واحدة .. هى بطولة الخضوع .. والاحتمال ..

وعزاؤك أننا جميعاً مثلك إلى حد ما .. أبطال قصة مفلسة فاشلة .. نهايتها الموت .. رغم كل أحلامنا وآمالنا .. كلنا نذبل على فروعنا .. ونموت عطشاً .. والماء حولنا .. والشمس فوق رؤوسنا .

اكتبى قصتك على فصول طويلة .. فأسلوبك جميل .. وأنا أحب أن أقرأ شيئاً عن الصعيد .. كيف يعيش هناك الناس .. ويفكرون .. ويحلمون .. ويموتون ..

بالصدفة !

أنا شاب فى العشرين . . . فى كلية الهندسة بالإسكندرية .. مرح .. بسيط .. منطلق .. وإن كنت فى داخلى أعانى فراغاً عاطفياً هائلا .. وليس معنى هذا أنى أعيش فى عزلة .. لا أعرف النساء ولا أقربهن . . فالحقيقة أن لى صولات وجولات فى عالم الغرام . . ولى خبرة بالنساء يحسدنى عليها الكثيرون ..

تعودت هذا الصيف أن أذهب وحدى كل مساء إلى محل عام وأجلس على مائدة لا تتغير .. أتناول عليها قدحاً من الشاى واللبن ..

وفى مساء يوم منذ شهر تقريباً دخلت إلى المحل سيدة سارت بين الموائد واتخذت لها مكاناً .. بالصدفة المحضة .. بجوارى .. وطلبت .. بالصدفة أيضاً .. قدحاً من الشاى واللبن ..

سيدة لم تتجاوز الثلاثين .. كل ما فيها يجبرك على أن تحترمها .. نظراتها الهادئة .. مشيتها المتزنة .. وتصرفاتها الرزينة .. ومظهرها الذى ينم على أنها فاضلة .. جميلة .. وأنيقة .

وكعادتى .. لم أهتم بها .. أو بمعنى أصح تظاهرت بأنى مشغول عنها معتقداً أنها لا بد فى انتظار شخص ما .. رجل أو امرأة .. وبعد حوالى الساعة نادت الجرسون وأعطته ثمن ما تناولت وانصرفت .

فى المساء عند نومى لم أعلق للأمر أهمية .. بل لم أذكره كلية ..

وفى نفس الموعد فى اليوم التالى أقبلت السيدة واتخذت مكانها بجوارى وتناولت الشاى واللبن .. ولم يحضر أحد لمقابلتها ، وبعد ساعة انصرفت ..

وتكرر حضورها يومياً وبدأت نظرتى تفضحنى .. وبدأت السيدة تلاحظ ذلك ..

وبعد أسبوع .. وبعد أن اتخذت مكانها بجوارى ، تقدمت إليها وعرضت عليها أن نتناول الشاى على مائدة واحدة .. ولم أكن أتوقع أن توافق .. ولكنها وافقت فى الحال .. ويومها كنت أسعد مخلوق .. وتبادلنا حديثاً بسيطاً لا أثر فيه للغرام أو عبارات الإعجاب .. وانصرفنا على أن نلتقى غداً ..

وتقابلنا .. وعرفتها .. وعرفتنى .. وتكرر لقاؤنا حول أقداح الشاى نتناول حديثاً كله بساطة . .

ثم بدأنا نتمشى معاً كل ليلة على الكورنيش .. يدها فى يدى .. تهامس وتتحاكى . . وكنت أحياناً ألمس خدها بخدى فيحمر وجهها فى خجل وتنظر إلى فى عتاب ..

وعرفت عنها حينئذ كل شىء . . إنها متزوجة .. تعيسة فى زواجها.. فزوجها يكبرها بعشرين سنة بخيل ومختل العقل يعاملها بقسوة ويضربها ويشتمها بألفاظ مقذعة .. حكت لى هذا وهى تبكى .. وقالت إنها بالرغم من كل هذا لن تخونه .. لأن ضميرها لا يطاوعها .. أن تفعل هذه الفعلة الشنيعة .

ومن يومها وأنا لا أنام . .

طيفها وخيالها يطاردانى فى كل لحظة .. وقلبى يعذبنى .. وضميرى يؤنبنى لأنى أغريها بصداقتى على علاقة لا ترضاها ..

أحس أنى ذئب .. وأنها إنسانة طيبة وديعة .. ألقتها الصدفة بين يدى ..

ماذا أفعل .. إنى أعيش فى قلق دائم .. وعذاب ..

لقد فتحت الكليات أبوابها منذ أيام وسافرت إلى الإسكندرية .. وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء .

ولكنى أعيش فى سرحان وشرود دائم.. أفكر فيها وأتذكر كلماتها وضحكاتها . .

ما نهاية هذا الحب .. الزواج .. وكيف أتزوجها وهى متزوجة ؟

إن الشعور بالإثم يقتلنى .. ووجهها البرىء الفاضل النقى يطاردنى فى كل مكان . .

ماذا أفعل .. وأنا بين نارين .. حبى .. ودراستى ..

* * *

تستطيع أن تريح نفسك من هذا الشعور القاتل بالإثم .. فلا أظن أن الأمر حدث بالصدفة كما ظننت . .

ليست الصدفة هى التى جاءت بها على الكرسى بجوارك .. ولا الصدفة هى التى جعلتها تطلب الشاى باللبن مثلك . .

ولا الصدفة هى التى جعلتها توافق فى الحال على مشاركتك المائدة.. وتؤنسك بحديثها المهذب الرزين . . ووجهها البرىء الفاضل النقى ..

لم تكن ذئباً محنكاً كما ظننت نفسك . . وإنما أنت فى الغالب الصيدة .. وهى الصياد . .

هذا مع احترامى لخبرتك وجولاتك وصولاتك فى عالم الغرام . .

وقصة الزوج الذى يكبرها بعشرين سنة والعقل المخبول .. والقسوة والضرب .. والألفاظ المقذعة .. هى فى الغالب حكاية لاصطياد احترامك وشفقتك .. وإسباغ ثوب من الشرعية على هذه العلاقة .. حتى تنمو وتؤتى أكلها .. وأنت طبعاً آكلها .. يا عزيزى الذئب الغلبان .

وفر شفقتك . . فأنت أحوج إليها . .

واحتفظ بعواطفك لمناسبات أخرى .

وفكر فى مستقبلك ودراستك . . ولا تضيع وقتك . . فهى لا تضيع وقتها مثلك .. وأغلب الظن أنها الآن فى القاهرة تشرب الشاى واللبن مع ذئب آخر خبير فى النساء مثل سيادتك . . . بالصدفة .. طبعاً كالمعتاد .

الأسلوب المناسب

منذ ثلاث سنوات وأنا أحبها وتحبنى .. ونتحادث يومياً بالتليفون .. ونخرج معاً مرة أو مرتين كل شهر فنذهب فى نزهة بريئة إلى إحدى الضواحى . .

لم نتجاوز هذه الحدود أبداً . .

ثلاث أو أربع مرات فقط أوصلتها إلى البيت .. وضغطت على يدها ضغطة خفيفة ، ومرة واحدة أمسكت بيدها وطبعت على ظهرها قبلة .. فردتنى بلطف وأدب وأفهمتنى أنها لا تحب هذا الأسلوب وأنها ليست من ذلك الصنف من البنات الذى تستهويه هذه الأمور . . وأنها إن كانت تخرج معى وتحادثنى فى التليفون فإنما تفعل هذا للمرة الأولى فى حياتها .. وعلى حساب أعصابها ..

ومن يومها لم أكرر هذه المحاولة وصدقتها .. واقتنعت ..

هى آنسة فى العشرين أوجاوزتها قليلا .. خريجةجامعةالقاهرة .. تشغل فى الوقت الحالى وظيفة جامعية .. على درجة كبيرة من الجمال .. تمتاز كباقى أسرتها بالطيبة والهدوء والسمعة الحسنة .. وهى موضع احترام الجميع . .

أما أنا .. فشاب جامعى فى الخامسة والعشرين .. أشغل إحدى المهن الحرة .. عادى فى كل شىء .. عرفت قبلها كثيرات ومارست معهن كل أنواع الهوى والحب .. أعرف فى الوقت الحالى فتاتين غيرها .. أزاول معهن حماقات شبابى بقدر معقول .. وبدون ارتباط مع أيهما بشىء .. أحب صاحبتى جداً .. وأنتوى الزواج بها هذا العام .. فما رأيك ..

ما رأيك فى هذا الحب الذى ظل أفلاطونياً طيلة هذه السنوات الثلاث . .

إن أصدقائى يقولون لى .. أنت عبيط .. خيبة .. مش عارف توصل .. دى عاملة تقيله ومؤدبة عشان تتجوزك ...

وأقرأ فى القصص .. عن القبلات .. والأحضان .. وعن الفتاة التى تحتقر صاحبها لأنه يخاطبها بأسلوب عذرى ..

هل صحيح أن كل المتمنعات كاذبات وممثلات ؟ . .

ألا يجوز أن تكون هذه الفتاة صادقة فعلا . . وعفيفة فعلا . . وتريد فعلا أن تحتفظ بأجمل ما فى الحب لما بعد الزواج . .

أجبنى بصدق أرجوك .. ولا تحاول أن تطيب خاطرى ..

* * *

مارست معهن كل أفانين الهوى والحب .. وأنك حالياً تعرف فتاتين فى وقت واحد تمارس معهما حماقات شبابك . .

ومعنى هذا .. أن الشيء الوحيد الذى رشح صاحبتك للزواج فى نظرك .. أنها رفضت أن تكون مثل الأخريات .. هذه رخصة الزواج الوحيدة فى نظرك . .

وهذا يكشف عن أزمة البنت العصرية .. إن صاحبها يحدثها عن التحرر .. والعقلية العصرية .. وحق التمتع بالحب .. إلخ .. إلخ .. ثم يغدر بها فى النهاية ولا يتزوجها إذا طاوعته فى هذا التحرر . . وينكشف لها فى النهاية عن نصاب رجعى أشد رجعية من جدها .. يطالبها بالعفة إلى آخر حدودها .. ومعنى هذا أن المشكلة بالنسبة للبنت الآن لم تعد مشكلة كذب وصدق . .

وإنما أصبحت مشكلة اختيار السلوك المناسب . .

والسلوك المناسب مع أمثالك هو أن تتصرف صاحبتك بالضبط كما تصرفت .. لأنها لو تهاونت لحظة فى أى شىء .. لضممتها إلى طابور الفتيات اللاتى تمارس معهن حماقات شبابك . .

ليست المشكلة هى مشكلة تمثيل .. أو تصرف على الطبيعة .. لأن ٩٠ ٪ من الرجال محتالون لا يتصرفون على الطبيعة .. وإنما يدعون حريات لا يؤمنون بها فى أعماق نفوسهم .

هناك عملية كذب عام شامل منظم بين الرجال .. لا تجد البنت أمامه مفراً من الاحتيال ومواجهة كل ظرف بالأسلوب الذى يناسبه

تزوج صاحبتك .. ولا تتساءل .. فليس لك الحق فى هذا التساؤل ..

كوبرى السعادة

أنا آنسة فى الستين .. عشت حياتى الطويلة المريرة كالكوبرى الممدود عبر ثلاثة أجيال .. لم أعرف الحب .. ولا الزواج ..

فى العاشرة كنت أحمل أخى الطفل وأغنى له .. وفى الثلاثين كان الطفل قد كبر وتزوج .. فحملت أطفاله .. والآن وقد كبر أطفال الأطفال .. وتزوجوا .. بدأت أستقبل على صدرى الهضيم الضامر .. أبناءهم لأعبر بهم السنين الباقية من حياتى . .

أنت لا تعرف معنى أن تعيش على الشاطئ . . وتقضى فى الحرمان ستين عاماً . . وأنت عطشان .. لا يمكن أن تعرف هذا لأنك لم تجربه.. فأنت رجل . .

وفى صباى كانوا يقولون إن الرجال خلقوا للشارع والمدرسة .. والنساء خلقوا للمطابخ .

وكان أبى المتوسط الحال يحلم بتربية أولاده فى الجامعة .. وكان ثمن هذا الحلم بعد أن ماتت أمى أن أظل فى البيت لا أبرحه . أطبخ وأغسل وأمسح البلاط .. لأوفر ثمن خادمة وطاهية وغسالة .. وأعاون أبى فى تحقيق حلمه الكبير . .

كنت الثمن الذى دفعه جيلنا من لحمه ودمه .. لتدخلوا الجامعة وتتعلموا .. وتقولوا للعالم .. نحن الرجال ..

وقد كنت سعيدة بهذه التضحية ..

كنت أما عذراء لأجيال ثلاثة تربوا على صدرى ...

ولكنى الآن وقد تغيرت من حولى الدنيا .. أحس أنى غريبة فى عالم غريب .. عالم ملىء بالثرثرة والغرور والحب والإلحاد والثورة ..

بناتى وصبيانى الذين ربيتهم ومنحتهم شبابى وعمرى .. ينظرون إلى كأنهم ينظرون إلى تحفة أو أنتيكة .. ويسخرون منى لأنى لا أفهم فى الوجودية والسياسة والحب .. ويضحكون على ..

لقد انتهت دولتى .. ومطبخى الصغير احتله الطاهى .. ولم يبق لى سوى البكاء فى صمت إلى جوار النافذة . .

كنت أطمع فى شىء واحد . . هو التقدير . . ولكن حتى هذا لم أحصل عليه . .

كم أنا تعسة . .

* * *

أيتها الأم الكبيرة . .

إن بناتك اللائى يقرأن فى الوجودية .. والسياسة والحب .. لايفهمن شيئاً من السياسة ولا من الحب .. ولسن جديرات بأن يكن خادماتك ..

أنت الحب يا أماه . . وأنت الشرف والواجب والتضحية والفضيلة ..

لقد ارتضيت أن تكونى الضريبة على الأجيال الجديدة .. الضريبة الفادحة على رأسمالية العلم والثقافة والحرية .. التى تسلمها الرجال خالصة من يديك . .

إن كل هذه الثرثرة والمعارف هى بعض من فتات موائدك . .

فإن كنت وجدت العقوق من أبنائك . . فاغتفريه .. فهذه خلة الأنبياء أمثالك .. وكفاك إحساس المرأة التى خلقت شيئاً عظيماً ..

إنى أنحنى احتراماً لك .. وأقبل يديك .. يا مريم الطاهرة . .

النضج المبكر

أنا فتاة فى السادسة عشرة..فى المرحلة الثانوية.. محبوبة من كل من حولى . . حساسة جداً من الناحية الدينية فأنا مثلا أتمسك بالصلاة وبقراءة كل ما يكتب عن الله والأنبياء وكنت أصاب بحالات من البكاء والعصبية والرعشة بعد ليال أقضيها فى الصلاة والدعاء . . ولكن هذه النوبات قلت الآن كثيراً .

أحب السحاب الأبيض وأبكى عند رؤيته .. وأحب القمر .. والمطر .. وأحلم بالملائكة والآخرة وأقضى الساعات الطويلة فى قراءة القرآن .. ولكنى للأسف الشديد لا أعتقد أنى مؤمنة إطلاقاً فكثيراً ما كنت أفكر وأنا فى وسط صلاتى أنه قد لا يكون هناك إله ..

لا أعرف إن كنت أحب الناس أم لا .. ولكنى أشفق عليهم إلى حد غريب وأخاف على شعورهم لا أكثر . .

أغلب أصدقائى من شبان عائلتنا يفضون إلى بأسرارهم .. ولما كنت من البداية على استعداد للتطبع بطبعهم فقد أصبحت تصرفاتى رجولية إلى أبعد حد .. فمثلا لا أستطيع أن أضحك دون جلجلة .. ومشيتى عسكرية .. وتفكيرى خشن فظ كتفكير الرجال .. ولا مانع عندى من اقتحام أسرار أى شاب دون خجل .. وأغلب وقتى أقضيه منطوية مع الكتب ..

بدأت مشكلتى عندما لاحظت أنى أصبحت أحلم كل ليلة أكثر من عشرة أحلام ملخصها جميعاً .. أنى لست عذراء ..

وتطورت الأحلام فأصبحت أحلم أنى عارية تماماً أمام والدى .. وأن والدى ينظر إلى نظرة حنان غريبة .

وبدأت أتعقد من ناحية والدى .. بدأت أفكر أنى شاذة .. وأخاف من شذوذى ..

وبمرور الوقت ضاعت المشكلةتاركة وراءها شعوراً غريباً ناحيته.. وأقول ضاعت المشكلة لتبدأ غيرها .. فقد بدأت أشعر بنفس الشعور تقريباً ناحية أخى الصغير .. فكنت أخاف من أن ينام جانبى .. وأستيقظ أكثر الليالى فزعة مشمئزة عندما يلمسنى بيده صدفة .. وبدأت أشعر بالنفور منه وأنام فى مكان آخر !

والآن .. أو بالأصدق .. منذ حوالى ثلاثة أيام تقريباً .. انتبهت لنفسى وأنا أفحص زميلاتى فى المدرسة .. وأقول تلك جميلة جداً .. وهذه حلوة .. وهؤلاء مقبولات .. إلخ .. إلخ .

و .. وعادت مشكلتى من جديد .

هل أنا شاذة .. هل من الممكن أن أرتكب هذه القذارات ..

بالأمس كانت ستنام أختى الصغيرة معى .. فهربت من الفراش لأنام على الأرض .. وأمضيت الليل فى خوف ودوار وابتهال إلى الله .

أنا الآن أفكر فى الموضوع وأتساءل .. هل أنا واهمة ؟ .. هل السبب كثرة انطوائى وتفكيرى فى نفسى .. هل لأنى بعدت تماماً عن جو الفتيات أم أن السبب هو شدة خوفى من الخطأ .. أم أنى شاذة حقاً .. ولم ..؟! ولم أفعل أى شر أو أذى لمخلوق .. هل الله يكرهنى لأنى كفرت به ..

وسأحاول مساعدتك .. فأنا لا أعتبر نفسى جميلة .. وأنا خجولة

وحساسة جداً .. وجياشة العاطفة .. وأقول لك حادثة قد تساعدك .. فقد حدث لى وأنا صغيرة جداً أن فعلت معى فتاة كبيرة شيئاً قبيحاً .. مازلت أذكره بالرغم من صغر سنى وقتها وذلك لغرابة الأمر بالنسبة لى ..

هذه مشكلتى .. . وهى مشكلة تتفاقم معى يوماً بعد يوم . .

وأشعر بأنى أكره نفسى . . وبأنى أود تعذيب نفسى .. ولا أعرف لهذه الآلام نهاية . .

أرجوك لا تحتقرنى . .

* * *

أنا لا أحتقرك .. وإنما على العكس .. أنا أشعر أنك إنسانة فاضلة وعلى درجة غير عادية من النضج والوعى بالنسبة لسنك . . فأنت أكبر من سنك بكثير . . ولديك قدرة على استبطان مشاعرك واستجلائها لا يبلغها الكثيرون ممن هم أكبر منك من الرجال أو النساء . .

ومشكلتك الحقيقية كانت فى هذا الوعى والنضج المبكر .. وفى الحساسية المفرطة التى تستقبلين بها كل حدث . . حتى إنك لتبكين لرؤية السحاب الأبيض . . وترتجفين لرؤية القمر .

ومثل هذه الحساسية أمام حادث خشن كالذى حدث لك حينما اعتدت عليك فتاة وأنت صغيرة اعتداء فاضحاً .. مثل هذا الحادث .. كان كفيلا بأن يقلب حياتك .

أنت منذ تلك اللحظة تحاولين أن تكونى رجلا حتى لا يتكرر عليك مثل هذا الاعتداء . . فمشيتك وضحكتك المجلجلة هى ضحكة الرجل..

وبالمثل مصادقتك للرجال والحفاظ على أسرارهم . . وبالمثل نظرتك إلى البنات زميلاتك وملاحظتك أن هذه جميلة جداً .. وهذه حلوة .. وهذه مقبولة .. وهذه شفتاها مليئتان .. إلخ .. إلخ هى نظرة رجل .

وخوفك من أن تنام أختك الصغيرة فى حضنك هو خوف من أن تتكرر هذه الحادثة .. وأحلامك بأنك لست عذراء .. هو خوف آخر نبع من تلك اللحظة المشئومة .. فأنت تخشين أن تكونى قد فقدت عذريتك من تلك اللحظة . .

وأحلام التعلق بالأب والأخ .. قد تكون معناها أن الأب والأخ هو نموذجك للرجل الذى تريدين أن تكونى على مثاله .. وقد تكون هى المرحلة الوجدانية الطبيعية التى قال عنها فرويد .. وهى المرحلة التى تتجه فيها عاطفة البنت إلى أبيها وأخيها .. وهى مرحلة عابرة . . تنطلق بعدها العاطفة حرة لتبحث عن أليفها بين الرجال الآخرين .

أما سر العذاب الذى يطحنك فهو أن جميع هذه الحلول التى لجأ إليها عقلك الباطن هى حلول غير سليمة .. فأنت لست رجلا .. أنت امرأة .. فياضة الأنوثة جياشة العاطفة .

والسلوك الرجولى الذى تخيله عقلك الباطن مرفأ أمان .. كان بالنسبة لك إهداراً لطبيعتك .. وضياعاً لحقيقتك .. وهذا سر عذابك ..

وأيا كانت المشكلة فقد هدتك نظراتك السليمة إلى معرفة السبب .. ووضعت يدك على العلة .

ولهذا فإن شفاءك من هذه الأمراض العصبية أكيد . .

وسوف تستعيدين مرحك وحبك للحياة . . فإن المعرفة هى مفتاح الشفاء النفسى .

دلوع

أنا شاب فى الثالثة والعشرين من عمرى تبدأ مشكلتى منذ عام ١٩٥٦ يوم حصولى على التوجيهية .. وكان حلمى فى ذلك اليوم أن ألتحق بكلية البوليس .. وألبس ضابطا .. ولكن الظروف خيبت أملى .. وألقى بى مكتب تنسيق الجامعات فى كلية نظرية بالإسكندرية ..

وانتقلت إلى المدينة .. واتخذت سكناً إلى جوار الكلية .. وشاركنى فى سكنى زميل من البلد .

وفى الأسبوع الأول من إقامتنا رأيت زميلى يدخل البيت وفى يده امرأة من الطريق . .

وتشاجرت معه .. وحاولت أن أطرد المرأة .. واشتد بيننا الخلاف .. ثم اتفقنا على أن يغلق بابه ويفعل ما يشاء .. على أن تكون هذه أول وآخر مرة .

وشتمته فى ذلك اليوم بأقذر الألفاظ .. قلت إنه سافل وعاهر داعر .. وإنى برىء منه إلى يوم القيامة . .

وأغلقت بابى .. وجلست أغلى من الغيظ . . وأستغفر الله .

ومرت ساعة ..

ثم بدأت أتسمع الأصوات والحركات فى غرفته ..

ومرت ساعة أخرى. قمت بعدها وأنا أتصبب عرقاً .. وطرقت الباب.. ثم دخلت فى خجل لأعتذر له وأطالب بنصيبى فى الغنيمة . .

ومن ذلك اليوم تغيرت حياتى كلها ..

تعلمت التدخين حتى أدمنت بشراهة .. شربت الخمر وعرفت البارات الرخيصة .. دخنت المخدرات .. ذقت كل أنواع الهلس .. مع المومسات .. والخادمات ..

وكانت النتيجة طبعاً أنى رسبت بدرجة ضعيف جداً ..

ولم أخبر أسرتى حتى لا يقطعوا عنى النقود ولكن أمى عرفت وعاتبتنى .. فأجبتها ثائراً .. إنى سوف أترك الدراسة .. وأبحث عن عمل .. وإنى لا أريد منهم مليماً .. وكانت النتيجة أنها بكت .. وقبلت رأسى .. وتوسلت إلى أن أعود إلى دراستى .. وتعهدت لى أن تدفع لى مصروفاتى .. وكل ما أطلبه .. وأقسمت ألا تخبر أبى بشىء ..

وعدت إلى دراستى .. وهذه المرة أجرت شقة لوحدى .. وتوسعت فى الهلس .. وبالطبع رسبت للمرة الثانية .. وكالعادة لم يعرف أبى ..

وفى هذا العام تركت شقتى .. وسكنت فى بنسيون تملكه امرأة إيطالية وحاولت أن أنسى فشلى ورسوبى .. بالإغراق فى الخمر .. وبالإغراق فى معاشرة الإيطالية صاحبة البنسيون التى تعدت سن الأربعين .

والمشكلة الآن أن أبى يعتقد أنى فى السنة الثالثة .. وباقى لى على الليسانس سنة واحدة يتيمة .. وهو يعد العدة ليفرح بى . .

خطب لى بنت رجل غنى جداً .. واشترى لى سيارة ليقدمها هدية لى على شطارتى .. وهو ينتظر يوم السعد .. يوم تخرجى ..

وأبى رجل طيب حج سبع حجات . . وأمى لا تستطيع أن تفجعه فىّ . . وأنا لا أستطيع أن أواجهه بالحقيقة . . الحقيقة لا بد ستظهر ..

وأنا لا أعرف ماذا أفعل . . أنتحر . . أم أهرب من الدنيا كلها . . أم ماذا ؟ !

* * *

ذاكر يا أخى .. إن المذاكرة ليست مخيفة بالدرجة التى تفضل عليها الانتحار . .

إن أكبر خطأ ارتكبته أمك . . أنها بكت .. وقبلت رأسك .. وتوسلت إليك أن تعود إلى دراستك .

كان يجب عليها أن تتركك تنفذ تهديدك .. وتعمل .. وتشرد .. وتجوع على الأبواب .. وتتعلم الأدب .. وتحس بأن الحياة جد . وتفيق من الخلس الذى أنت فيه ..

إن العلاج الوحيد للولد الدلوعة أن يحس بالمرمطة ..

أنت دلوع للدرجة أنك تلجأ إلى صارخاً . . الحقنى .. يا مامى .. الحقنى .. الحقيقة حاتنعرف .. الحقنى يا بابى ..

لا توجد قوة فى الأرض تحميك من الحقيقة .. إن مشكلتك ليست سنواتك التى ضاعت .. ولكن سنواتك القادمة التى ستضيع حتما .. إذا واجهت الدنيا بهذه العقلية .

هناك مصلحة فى أن تظهر الحقيقة .. وأن تصدم .

أنت فى حاجة إلى صدمة .. وقسوة .. وعنف لتفيق .. وإلا فأنت مقضى عليك . .

لن تصبح رجلا إلا حينما يطردك أبوك إلى الشارع ..

لعنة الجمال

أنا فتاة فى العشرين .. من ذلك النوع الذى تفتح فمك حين تراه فى الطريق وتتوقف مأخوذاً . .

شعر يتماوج كالذهب . . وجه أبيض وردى . . عيون زرق .. فم دقيق .. قوام باريسى ..

حينما سرت فى الشارع .. تتبعنى الشهقات والتأوهات .. وكلمات الغزل .. وتلتف الأعناق حول نفسها حتى تكاد تنخلع من أكتافها ..

حياتى كلها كانت كلمة واحدة لاحقتنى من أبى وأمى وعائلتى وممن يعرفوننى وممن لا يعرفوننى .. إيه الحلاوة دى يا بنت.. إيه الجمال ده .. إيه السحر ده . .

لا أحد حاول أن يسمعنى .. لا أحد حاول أن يفهمنى كلهم كانوا يتفرجون على ويقلبوننى بين أيديهم كالدمية ..

لم أشعر فى أى لحظة أنه ينتظر منى شىء أو يطلب منى شىء .. أو أنى إنسانة لى عقل ولى قلب مثلما لى وجه وقوام ..

كان أبى يعنف أختى حينما ترسب ويلاحقها بالمدرسين ويغريها بالمذاكرة .. أما أنا فإنه كان يضحك حينما أرسب كأنه قد حدث شىء يتوقعه . ويربت على كتفى ويقول فى سعادة .. إنتى قمورة .. مدارس إيه ؟! .. إنتى تقعدى فى البيت زى الملكة والدنيا تجرى وراكى .. والعرسان يبوسوا إيديكى ..

وحينما كنا نجتمع كلنا ونتحدث .. كان أبى يتناقش مع إخوتى ويدخل فى معركة كلامية حامية مع كل فرد إلا أنا وكأنما التفكير كلفة غير طبيعية بالنسبة لى . . وحينما كنت أحاول الكلام .. كان يردنى برقة قائلا .. عاوزه تقولى إيه يا ملكة ، إنتى تأمرى بس .. إنما الرغى ده للفراشين اللى زينا ..

وفى اللحظات التى كنت أنطق فيها بملاحظة ذكية .. كانت تفوت على الذى يستمع إلى لأنه كان منهمكاً فى التطلع إلى وجهى وقد نسى كل شىء .

لم يكن أحد ينظر إلى بأكثر من أنى زينة .. مجرد زينة .. ليس لها أن تقوم بأى دور جاد . .

وبدأ يداخلنى شعور بالتفاهة والمياقة فلا أحد يشركنى فى همومه .. ولا أحد يوكل إلى بسر يخشى عليه أو بعمل يحرص عليه .. وإنما أنا بمثابة لحظة التسلية بالنسبة للجميع . .

وكان طبيعياً أن أفشل فى دراستى وأن أترك المدرسة وأبقى فى البيت .. ثم أتزوج وأنا صغيرة . .

وكان زواجاً تعيساً .. أتعس ما فيه جمالى . فزوجى لا يصحبنى فى خروجه لأن جمالى فضيحة تلفت النظر فى كل طريق .. وهو يسجننى فى البيت لأنه يغار على .. وهو يشك فى سلوكى .. وهو يفقد ثقته بنفسه كلما ازداد إحساساً بجمالى وبالتالى يشعر بعجزه عن أن يحكمنى فيزداد فى شكه وغيرته وقسوته .. ويزداد فى إسرافه لكى يرضينى بالملابس الباهرة والجواهر .. وأزداد أنا إحساساً بالتفاهة وأزداد شقاء .

حتى بطاقات الدعوة التى كانت تأتينا فى أفراح الأصدقاء كان ينظر إليها فى شك وريبة وقد خيل إليه أن صديقه يدعوه من أجل أن يرانى لا من أجل أن يراه هو . .

وكان من الطبيعى أن ينتهى مثل هذا الزواج بالفشل والطلاق وأنتهى أنا إلى حالة من اليأس لا ينفع فيها علاج . .

إن جمالى كان لعنة على . .

إنى أتمنى الآن أن أفتح عينى فأجد أنى قبيحة ..

إن إحساسى بجمالى أصبح مثل إحساس الغنى الذى يظن أن كل من يحبه .. يحبه من أجل ثروته لا من أجل شخصيته .. نعم .. أنا أيضاً يخيل إلى أن لا أحد أحبنى لشخصى . وإنما جميعهم أحبوا فى صورتى وهذا يعذبنى .. ويشعرنى بتفاهة شخصيتى ويحرمنى من لذة احترامى لنفسى ..

لقد بدأت أعتقد أنه لا سبيل إلى السعادة .. أبداً .. فالثروة تشقى .. والجمال يشقى .. والحب يشقى .. والعقل يشقى .. أين السعادة إذن .. وأين أجدها ..

* * *

السعادة ليست فى الجمال ولا فى الغنى ولا فى الحب ولا فى القوة ولا فى الصحة ..

السعادة فى استخدامنا العاقل لكل هذه الأشياء . .

إن رؤية عقلك وهو عاطل .. وإحساسك بقلبك وهو عاطل ..

وإدراكك لشخصيتك وقد عطلها جمالك وغباء الذين عرفوك .. هو سبب تعاستك . .

لقد كنت تدركين طوال هذه السنوات أنك تعيشين بسطحك فقط .. بشكلك ومظهرك .

كنت كالفستق الذى نسيه الناس وأكلوا القرطاس لأنه ملون وجميل..

كانت حقيقتك معطلة .. ومواهبك معطلة .. والسعادة هى أن نعيش كل لحظة .. بكل ما فينا . .

ولكنى لا أجد ما يدعو إلى اليأس .. فما زلت فى العشرين .. فى بداية الطريق .. وحياتك ما زالت حافلة بالفرص .. الق بالسنارة مرة أخرى وجربى من جديد . .

جناية المهنة

منذ صغرى وأنا أحلم بأن أكون شيئاً مهماً فى الدنيا .. مخترعاً .. أو فناناً .. أو زعيماً ..

وفى مراهقتى أحببت جارتى التى كنت أراها واقفة فى النافذة . وكنا نقف كلانا بالساعات فى النافذة ننظر إلى بعض ولانتكلم . .

وأرسلت لها أكثر من مائة خطاب كلها شعر .. وكنت أبكى فى فراشى كل ليلة .

ورسبت ثلاث سنوات بسببها .. ومع هذا لم يحدث بيننا شىء .. لم نتكلم .. ولم نخرج إلى أى مكان .

وحينما علمت بنبأ خطوبتها وزواجها .. مرضت ولازمت الفراش شهراً كاملا . .

وحينما قمت من فراشي حاولت أن أغرق همومى فى هواية الموسيقى ، ودخلت معهد الموسيقى الشرقية لأتعلم الكمان فى أوقات فراغى .. ولكنى توقفت فى منتصف الطريق وأصابنى الملل من دراسة النوتة والسولفيج والمقامات .. واكتفيت بالتردد على المعهد كمستمع ومتفرج .

وفرغت من دراستى الجامعية .. وتوظفت . وزوجنى والدى من بنت عمى ..

ولا أستطيع أن أقول إنى أحب زوجتى .. ولا أستطيع أن أقول إنى أكرهها .. ولكنى دائماً أبحث عن سبب للنكد .. أنفجر مرة من الغيرة على سبب تافه .. وأصر مرة أخرى على مطالب بعينها لمجرد الإصرار ولمجرد التحكم .. وأتعلل مرة ثالثة بهفوة بسيطة فأخاصمها وأعتزل وحدى فى غرفتى حزيناً تعيساً .. وأحياناً أبكى وحدى فى موجة هذه التعاسة الوهمية ..

وأنا أعمل الآن محاسباً فى السكة الحديد .. وأعيش نصف يومى فى الأرقام والحسابات والدفاتر .. وقد بدأت هذه الحياة الجافة تؤثر فى أعصابى .. وبدأ الجفاف يتسرب من الدفاتر إلى أيامى كلها .. وجفت عواطفى .. وتحولت الدنيا فى نظرى إلى محاسبات وتبادل منافع ، وماتت أحلامى القديمة .. وماتت أشعارى .

وأنا أتساءل أحياناً فى ألم : أيمكن أن تجنى المهنة على صاحبها بهذه الدرجة ؟ ..

لماذا أنا تعيس إلى هذا الحد .. ماذا أفعل ؟! ..

* * *

تساؤلك فى الحقيقة مضحك .. ومعناه أن الجزار يمكن أن ينظر إلى

الدنيا على أنها جزارة .. وينسى ويقطع ورك زوجته ويعمل منه كستليته ويقول.. أنا تعيس.. ماذا أفعل أيمكن أن تجنى على مهنتى إلى هذا الحد .

والمهنة فى الواقع لا تخنق العاطفة وشعراء المهجر وهم أرق الشعراء عاطفة كانوا كلهم تجاراً ..

ومشكلتك الحقيقية ليست مهنتك ولا زوجتك .. ولا حبك .

مشكلتك هى أحلامك .

كان حلمك منذ البداية أن تكون شيئاً.. أن تكون مخترعاً أو فناناً أو زعيماً.. ولم تستطع أن تحقق هذا الحلم فاكتفيت بأن تخترعه فى خيالك.

قصة حبك كانت وهماً .. اخترعته أنت من طرف واحد .. واخترعت كل ما فيه من أحزان ونكبات .

وقصة الموسيقى بدأتها بحماس الفنان وأنهيتها بخيال المتفرج الذى يكتفى بالوقوف فى قاعة البروفات يحلم .

وكان لابد فى النهاية من أن تخترع لك زعامة وهمية لتحقق بعض أحلامك فبدأت تفتعل الأزمات فى بيتك لتثير الشغب .. ولتصدر الأوامر .. وتحكم .. وتتحكم ..

وفى النهاية اخترعت عذراً تسند إليه كل فشلك .. وهو مهنتك الجافة التى سلبتك عاطفتك .. وقتلت أشعارك العظيمة فى مهدها .

وقصتك تذكرنى ببطل فى إحدى مسرحيات أبسن كان يحلم بأن يكون صياداً خطيراً بصيد السباع فى الغابة وانتهى فى النهاية إلى رجل سكير يربى البط فى غرفة ثم يدخل ليصطاده بالبندقية .

والحل الوحيد .. هو أن تواجه حياتك وتفتح عينك على واقعك ..

حكاية الكرامة

أنا طالب بكلية الآداب .. عمرى تسعة عشر عاماً .. تعرفت بفتاة جميلة جداً وظريفة وصوتها أعذب من صوت شادية ..

من النظرة الأولى قلت لها .. أحبك .. وبينى وبينك قلت هذا لكى أبرر قبلاتى .. ولكنها صدمتنى بقولها .. أنت كذاب وكلامك فاضى .. هو الحب كدة لعبة فى بقك تقوله لكل واحدة .. وفى هذه اللحظة أحسست أنى مجرم وأنى أحتال لأوقع بفتاة بريئة فى شباكى .. وشعرت بفداحة ذنبى .. ومنذ تلك اللحظة بدأت أحبها بحق وحقيق .. وبكل جوارحى ..

ولا أنكر أنه كانت لى علاقات قبلها .. ولكن كلها علاقات على الماشى ..حب بالكلام فقط .. من أجل الوصول إلى لذات مؤقتة .. وأحياناً كنت أنتفع من هذه العلاقات .. كانت إحدى جاراتى تبعث لى بأشهى ما يحضره أبوها من فاكهة .. وأطيب ما تطهيه أمها من طعام .. وكنا نقضى معاً أوقاتاً سعيدة . . ثم أنسى كل شىء بمجرد أن أفارقها . .

أما هذه الفتاة فقد أحببتها جداً .. وانشغلت بها ليلى ونهارى .. وغنت لى أغانى الحب والهيام .. مكسوفة لشادية .. علشانك انت أنكوى بالنار والقح جتى .. ليلى مراد .. أول لقانا كان هنا .. باحلم بيك .. أغانى الحب كلها.. ووعدتها بالجد والمذاكرة حتى أنجح ونتزوج.. وصرت أسهر حتى الثالثة صباحاً يومياً للمذاكرة . . وفجأة انقطعت عن مقابلتى ..ومرت شهور وأنا على نار .. وأرسلت إليها زميلة لى فى الكلية ومعها خطاب منى ..

وعادت الزميلة لتقول إنها ستتزوج .. أبوها مصمم على أن يزوجها من يوزباشي .. وفى يومها حاولت الانتحار بابتلاع زجاجة إسبرين .. ولكنهم أنقذونى . . وزارتنى فى المستشفى .. وطيبت خاطرى .. وقالت لى إنى أخطئ كثيراً بهذه التصرفات .. ونصحتنى بأن أكون عاقلا .. فكل ما بيننا لا يزيد عن صداقة .. وليس هناك داعى لهذا الجنون .

وحينما خرجت من المستشفى تأكدت أنها تحب هذا اليوزباشي .. وتقابله كل يوم .. وتريده زوجاً لها .. ولا دخل لوالدها فى المسألة ..

وشعرت بأنى أنهار . . واتحطم ، وأفقد ثقتى بنفسى وأفقد كرامتى .

مزقت صورها لأستريح .. وأحرقت المنديل الذى أهدته لى وعليه طبع شفتيها .. ولكنى لم أستطع نسيانها ..

وفقدت مرحى وبهجتى .. وفقدت القدرة على المذاكرة .. وعلى النوم وصرت أسرح كثيراً .

كانوا يسموننى مهرج الكلية .. ولكنى الآن أسير كأنى أسير فى جنازة ..

هذه الفتاة طعنتنى فى كرامتى .. وشخصيتى ..

أفكر أحياناً فى أن أضربها علقة ساخنة .. وأضرب اليوزباشي معها وأرسل إلى والدها الخطابات التى أحفظها عندى بخطها .. ثم أعود فأجبن لأنى أحبها ..

حالتى النفسية قلقة .. وأخشى الرسوب هذا العام .

أحياناً أشعر برعدة وقشعريرة وأنا فى فراشى .. من فرط الأرق .. والتعب .. والعذاب النفسى ..

سيدى .. ماذا تسمى مثل تلك الفتاة ..

الفتاة التى تعطى صورها لشاب وتغنى له أغانى الحب والهيام .. وتخرج معه .. ثم تجيء فى النهاية وتقول له .. هذه كانت صداقة .. وتتركه وتحب رجلا آخر وتتزوجه .

ماذا تسمى هذا ؟ !

* * *

وماذا تسمى أنت ما يقوله ولد وغد يغازل جارته ويقول لها أحبك .. ويأكل الفاكهة التى يشتريها أبوها .. ويلهف الأطعمة التى تطهيها أمها .. ثم يذهب بكل بجاحة إلى فتاة أخرى ليقول لها أحبك .. تزوجينى .

أنت ولد عبيط وقد أخذت حقك من الأدب على يد صاحبتك ..

وأنت عبيط لأنك تجعل كرامتك وثقتك بنفسك فى مستوى لعب البنات .. كلما خاصمتك البنت التى تحبها فقدت كرامتك .. وعزتك .. وقعدت تعيط .. وترتعش فى السرير ..

وإذا كنت ناوى تفقد كرامتك مع كل أغنية من أغانى شادية .. يبقى مش حاتخلص ..

كرامتك حاتستحمل إيه .. وإلا إيه يا بنى .. على مهلك شوية ..

الغولة

تزوجت فى سن مبكرة حينما بدأت أقتحم ميدان العمل .. كان هدفى الاستقامة والاستقرار .

تزوجت موظفة .. وفى بحر أسبوع دخلنا .. ولم تكن عندى فكرة عنها .. ومنذ هذا اليوم وأنا أتعس إنسان فى الدنيا .. انهارت آمالى .. لم

أكن أتصور أن أتزوج امرأة بهذه الصفات .. امرأة لا هم لها إلا المشاجرة والسباب بألفاظ فاضحة .. إذا لم تتشاجر معى تشاجرت مع أولادها أو الخدم أو السكان أو أمها أو إخوتها .

البيت الذى أثثته بأفخر الرياش حولته إلى إسطبل ينام فيه الذباب .

عشت معها أكثر من عشر سنوات كانت حياتى معها عبارة عن سباب بألفاظ تجرح العفة .. ومشاجرات .. ومحاضر فى أقسام .. وتحقيقات فى النيابات .. وقضايا فى المحاكم .

حاولت إدخالى السجن بعد سنة من زواجى منها .. ذهبت إلى البوليس وادعت أنى سلبتها مجوهراتها .. وحررت محضراً بهذا .. ثم أفرجت عنى النيابة بعد مبيت ليلة فى السجن .. لا يوجد أحد يطيقها ..

أهلها تبرأوا منها ولم يحاول أحد منهم أن يزورها خوفاً من لسانها والموظفون الذين يعملون معها يتحاشونها لسفاهتها .

ومع هذا عشت معها وصبرت على قرفها .. لأنها .. وإنصافاً للحقيقة، برغم كل عيوبها .. امرأة شريفة .. ليست من ذلك النوع الخليع المتبرج من نساء هذه الأيام . ليست هى الزوجة التى يعيش معها الزوج وعينيه فى وسط رأسه ..

كنت دائماً وبرغم شراستها .. أعيش فى نعمة الاطمئنان على أن عرضى مصون .. ولن يطوله أحد ..

لم يوجد الرجل الذى استطاع أن ينظر إليها نظرة .. كده .. أو كده.

وأنت تعلم ماذا تعنى هذه الراحة بالنسبة للزوج .. وخصوصاً فى هذه الأيام اللى يعلم بها ربنا .. هذه الأيام التى تخرج فيها الزوجات إلى

الخياطة والكوافير وطبيب الأسنان .. والاسم مشاوير .. وهاتك يادواره ومسخرة فى شقق الرجالة العزاب .. والزوج الغلبان قاعد فى البيت بقرنين . نهايته .. كان من الطبيعى أن أحتملها بكل قرفها .. وطبعها الحاد المشاكس وقذارتها فى سبيل راحة بالى ..

حتى جاء يوم ومرضت مرضاً خطيراً ..

ونسيت كل ما سببته لى من آلام .. وفعلت المستحيل من أجل إنقاذها لتعيش لأولادها .

ولم أبخل عليها بالمال ولا بالوقت ولا بالراحة ولا بالرعاية .

كنت أجوب القاهرة باحثاً عن الأدوية التى تلزمها .. وكنت أحياناً أسافر لأبحث لها عن دواء نادر .. حتى شفيت .

ولكن طبعها ازداد حدة وعصبية .. وأصبحت تثور لأتفه الأسباب وتطلب منى أن أطلقها .. فأطيب خاطرها وينتهى كل شىء .. ثم تعود الثورة لسبب تافه آخر ..

وآخر مرة عدت إلى البيت متأخراً بالليل فوجدت الباب مغلقاً من الداخل .. ورفضت أن تفتح لى .. وألقت على موشحاً من النافذة ..

وأنا الآن أفكر فى الطلاق .. ولكنى فى نفس الوقت أشعر بالحيرة واليأس.

كيف أعيش وحدى بعد الطلاق .. أماذا أفعل .. هل أتزوج مرة ثانية .. وكيف أضع عرضى وسمعتى بين يدى واحدة من بنات الشارع اللاتى يسرن كالبلياتشو مدهونات بويه .. بنات اليوم .. إياهم .. وأبقى بالاسم زوج .. وأنا رايح جاى بقرنين .. على رأسى ..

أنا حائر .. دبرنى ..

* * *

إن زوجتك عندها من العيوب ما يكفى لتطليق عشر زوجات من أزواجهن .

ولكن المشكلة الحقيقية هى مشكلتك أنت ..

أنت تشك فى البشرية كلها .. وتسىء الظن بدرجة يستحيل معها أن تطمئن إلا إذا تزوجت غولة ..

وهذا هو الذى حدث بالضبط .. لقد تزوجت غولة .. وكانت شراستها ووحشيتها برداً وسلاماً على قلبك .. كانت بركات وحسنات بالنسبة لك .. ومسكنات ومهدئات لداء الشك الذى يأكل عقلك ..

وأنت تخطئ جداً حينما تتصور أن الخيانة الزوجية شائعة بهذه الدرجة ..

تخلص من عقدتك وتزوج .. وسيبك من حكاية القرون دى ..

أما إذا لم تستطع الخلاص من مشكلتك .. فلا يوجد حل .. استمر فى معاشرة الغولة .. أو تزوج غولة أخرى .

ميلاد صناعى

أنا فى الأربعين .. أعمل بالصحافة المصرية .. متزوج وعندى عشرة أولاد .. أحب زوجتى وأتفانى فى تربية أولادى .. مستقيم .. هوايتى الوحيدة فى دنياى هى إنجاب الأطفال ..

تزوجت قبل زوجتى الحالية بفتاة ولم يعمر زواجنا أكثر من عام لعدم الوفاق بينى وبين عائلتها .. فطلقتها .

وتزوجت هى من بعدى برجل آخر وأنجبت منه تسعة أطفال فى خلال ١٤ عاماً .. كنت سبقتها أنا بالأطفال من زوجتى الحالية ..

والتقينا بعد هذه الأعوام الطويلة ..

جمعتنا الظروف صدفة منذ عامين فى مكان .. فأخذنا نتحدث ونحكى .. روت لى ما حدث لها .. ورويت لها ما حدث لى .. وتذكرنا أيام زمان حينما كنا زوجين .. وكيف كنا نختلف لأتفه الأسباب ونتعارك .. وضحكت ونظرت إلى فى طيبة وحنان .. وقالت لى :

– هل تعرف يافلان .. أنى كنت أحبك .. كنت أحبك جداً .. ولكنى كنت عبيطة .. ولم أعرف كيف أحتفظ بك ..

واعترفت لها بدورى .. كيف كنت أحبها .. ولكن كبريائى كرجل أفسدت على هذا الحب .. وحولت حياتى إلى مشاغبات معها ومع عائلتها .. انتهت بالطلاق ..

وحكيت لها كيف بكيت بعد الطلاق ..

وتندت عيناها بالدموع وأنا أحكى لها قصتى ..

وعشنا مع بعض ساعة جميلة من الزمن .. وتواعدنا على أن نلتقى مرة أخرى ..

والتقينا مرة ثانية وثالثة .. ونشأت بيننا صداقة عميقة ما لبثت أن تسللت إلى قلوبنا وانقلبت حباً جارفاً ..

وتيقظت عواطفى وكأنى لم أر النساء طول عمرى ..

وكنا كلانا ندرك العواقب فحرصنا على ألا يشعر بنا أحد ..

لى قريبة زوجها يعمل بإحدى الدول العربية .. أخبرتها بكل شىء .. فقالت لى إن شقتى تحت أمرك فى أى وقت .. فعلا التقيت بها وذهبنا إلى قريبتى فرحبت بنا وأعطتنا الحرية التامة ..

وأصبح ترددنا على هذه القريبة شيئاً عادياً . . وبمواعيد منتظمة نرسمها معاً وبحرص شديد ..

زادت مقابلاتنا .. ورغم كثرة هذه المقابلات .. فإنى أقسم لك أننا لم نفعل شيئاً ..

كنا نقضى الوقت فى الحديث .. ونتعانق .. ونتبادل القبل .. ولا شيء أكثر من هذا ..

ومع هذا فقد بدأت أحس بعذاب ضميرى .. أشعر أنها تسرق هذا الوقت الذى نقضيه فى الحب من أولادها ومن بيتها ..

قررت أن أضغط على نفسى وأبتعد عنها .. وكتبت لها أقول : إننا غافلان نخوض فى حب يملكه غيرنا .. حب مسروق .. حب بلا هدف .. وبلا نهاية .. عودى إلى زوجك .. وليجمع الله بينكما فى الخير .. وتذكرينى .. فهذا يكفينى .. وسوف أذكرك طول عمرى ..

وبرغم بعدى عنها .. فأنا أعيش فى عذاب .. وأتخيلها معى فى كل لحظة .. وأفكر فى مواصلة ما كنا عليه .. ثم أعود فأتردد ..

والله وحده يعلم ما يكنه قلبى من الحب ..

قل لى بربك ماذا أفعل ؟..

* * *

هذا حب غريب فى نشأته وظروفه

واعتقد أنكما صنعتما هذا الحب صناعة ..

لقاؤكما بعد ١٤ عاماً بعد أن أصبح كل منكما ربا لعشرة عيال يجرجر وراءه خياة مملة متعبة ليست فيها شاعرية ولا أحلام .. هذا اللقاء

وهذه الحياة الجافة المملة هى التى دفعتكما إلى صناعة لعبة تلهوان بها .. لعبه اسمها الحب .. تنعشان بها ما بقى من أيامكما ..

ميلاد هذا الحب ميلاد صناعى .. وليس ميلاداً طبيعياً ..

وقد دخلتما فيه كما تدخلان سينما ..

ونشأت المشكلة من التعود ..

وأعتقد أنه قد جاء الوقت لتفيقا أنتما الاثنان على هذا الوهم الذى تعيشان فيه وتعودوا إلى الواقع . .

ملاك أزرق

أنا شاب خجول .. وربما يكون هذا عيباً كبيراً .. ولكنى لا أستطيع أن أتلافاه .. فقد تطبعت به ما يقرب من عشرين عاماً عشتها فى كنف أسرة أحاطت نفسها بسياج من التقاليد القديمة وجعلتها دستوراً لها .

أعمل فى إحدى الشركات بالإسكندرية .. وهى زميلة لى بالعمل توطدت بيننا صلة الزمالة إلى أن تدرجت من ناحيتى إلى حب جارف ملأ كل قلبى .

وحاولت أن أصارحها بحبى .. ولكنى كنت أعجز عن النطق عندما أرى عينيها أو أسمع صوتها .. فكتمت حبى فى قلبى وانتظرت الفرصة المناسبة .

وكان معى فى العمل زميل آخر . رجل فى الثلاثين متزوج وله ولدان وزوجته تعمل معنا فى الشركة . . وتوطدت صلتى بهما وخصوصاً لأنى سكنت بجوارهما .. وأصبحت لا أفارقهما من الصباح إلى المساء .

وخطر لى أن أشرح لصديقى ما أنا فيه ربما يكون عنده حل.. وأفهمته

شعورى وطلبت منه المساعدة .. فوعدنى أن يساعدنى بشرط ألا أستغل حبى لأتسلى بالبنت .. وبشرط أن أتزوجها .. فأقسمت له أنى لا أهدف من هذه العلاقة سوى الزواج .. وأنى لست بالرجل الذى يلهو بعواطف البنات البريئات ..

وبالفعل ساعدنى .. فخرجنا معاً لأول مرة أنا وهو وزوجته وفتاتى .. ذهبنا إلى السينما وإلى منزله مرات كثيرة .. وفتحت زوجته قلبها لفتاتى واعتبرتها أختاً .. لدرجة أنها كانت تنام فى بعض الأحيان بجوارها وإلى جانبهما زوجها على نفس السرير .. وكثيراً ما تركتهما وذهبت لإسكات الطفل .

كانت إنسانة ذات قلب طيب رقيق .. وكانت تثق فى زوجها ثقة عمياء .. فقد تزوجت به عن حب صادق متبادل بين الطرفين ..

وتعددت مقابلاتنا .. وكنا فى كل مرة نقترب من بعض أكثر ، وكنت دائماً مع صاحبتى فى منتهى الأدب بالرغم من محاولتها إثارتى لأقبلها أكثر من مرة .. ولكنى كنت أجبن فى اللحظة التى تقرب شفتيها منى .. وكنت أخشى أن أدنس حبى ..

وكان دائماً يدهشنى منها أنها كثيرة الهزار مع صديقى .. حتى أمام زوجته .. هزار مشين فى نظرى .. وليس صديقى وحده .. وإنما كل الزملاء فى المكتب بدرجة جعلتنى أنفر منها .. وأعاتبها .. وأنصحها .. وبدون فائدة ..

وتصورت أنها كانت تقصد من هذا إثارة غيرتى .. أو أن هذا الهزار هو الأسلوب الأسبور للحياة .

وفى يوم شاءت الظروف أن نتأخر أنا وهى وصديقى وزوجته فى

الشركة بسبب كثرة العمل .. يومها تحدثت معها حديثاً حلواً .. وصارحتها بحبي وكانت لحظات من أجمل لحظات حياتي .

ثم حدث أن خرج صاحبي .. وغاب بعض الوقت وطلبها .. فذهبت إلى مكتبه وغابت .. فذهبت حاملا بعض الأوراق .. وفتحت باب المكتب لأفاجأ برؤيتها بين ذراعيه غائبة فى قبلة طويلة .

وكانت صدمة عنيفة أفقدتنى رشدى فجريت إلى مكتبي وارتميت عليه وأخذت أبكى ..

ودخل صديقى .. وحاول أن يعتذر .. ثم جاءت هى بوجه زالت منه كل معانى الخجل .. جاءت وكأن شيئاً لم يحدث .. ولكنى طردتها بقسوة .

كان من الواضح أنهما كانا يتخذانى ستاراً لإخفاء علاقتهما الفاضحة عن أعين الزوجة .. وأنى كنت مغفلا طول الوقت ..

وكرهت نفسى .. وكرهت حياتى ..

ومرت أيام ذقت فيها أقسى ألوان العذاب .. وفكرت فى تقديم استقالتى من الشركة لأبعد عن هذا الجو الفاضح .. ولكنى فقدت القدرة على اتخاذ أى قرار .. لقد ذهبت ضحيتها .

أنقذنى .

* * *

أنت لم تذهب ضحيتها .. لقد ذهبت ضحية خيالك وأفكارك .. أنت المذنب من البداية .

إن صاحبتك لم تحاول أن تبدو فى أى وقت على غير حقيقتها .. لم تحاول أن تخدعك ..

لقد أظهرتك على حقيقتها على الدوام فهى على الدوام فى حالة هزار مشين مع كل موظفى المكتب .. وهى تنام مع صاحبك وزوجته على فراش واحد .. وهى تحاول أن تجرك إلى تقبيلها .. وأنت تخشى أن تدنس حبك . . يا سلام . .

وأنت فى حالة خيال مستمر .. أنت مصر على أن تلبسها دوراً غير دورها .. أنت مصر على أن تعاملها كملاك .. وتحبها كملاك . . ملاك إيه يابنى .. دى ملاك أزرق .

والآخر تقولى لى صدمة .. صدمة إيه ؟ .. فين الصدمة دى .. ده نهاية طبيعية جداً وظاهرة ومنطقية ومتوقعة .. واضح أن المكتب كله بيبوسها .. مش صاحبك بس .

فين الصدمة هنا .

أنت أصلك مخبوط فى عقلك .

أنت المذنب .. لقد كنت طول الوقت تضطهدها وتطالبها بصفات ليست فيها .. إنها مخطئة فى حق نفسها صحيح .. ولكنها بريئة من دمك .

امسح دموعك .. وقوم روح شغلك .. وتانى مرة ما تحاولشى تفرض خيالك على الناس .

البكاء لن ينفع

فى ١٩ يونيو ١٩٥٨ كنت قد انتهيت من امتحانى فى الجامعة .. وكنت أشحن عفشى فى عربة العفش التقليدى لكل طالب .. سرير ومكتب وكرسى ودولاب صغير .. وفى جيبى مفتاح أعطاه لى أحد أصدقائى لأقيم بشقته طيلة العطلة الصيفية ..

ودخلت البيت ليلا حتى لا يرانى الجيران مع عفشى الحقير .. وكان من عادتى أن أقوم بكل لوازمى البيتية بالليل .. أغسل وأكنس وأمسح وأنظف الأطباق بالليل .. وفى النهار أقوم بالطبخ .

وفى إحدى الليالى وكنت راجعاً حوالى الثانية عشرة سمعت صوت بكاء ونشيج فى الشقة بجوارنا .. ثم فتح الباب وخرجت منه سيدة .. تجاوزت الثلاثين من عمرها ، ممتلئة الجسم قليلا طويلة بيضاء متوسطة الجمال مثيرة الأنوثة (عرفت بعد ذلك أنها مطلقة منذ أكثر من ثلاث سنوات) .. ونظرت إلى فى استنجاد وانفجرت تبكى .. فقلت لها فى خجل وخوف .. مالك .. فقالت والدتى خرجت من الصبح وماجتش لدلوقت .. وهى واحدة ست كبيرة .. وخايفة يكون جرى لها حاجة .. فاقترحت عليها أن تتصل بأقاربها علها تكون هناك ..

فأعجبتها الفكرة وأبديت استعدادى لمصاحبتها .. ورحنا نلف على بيوت الأقارب واحداً بعد آخر حتى وجدناها بخير . . ورجعنا فى وقت متأخر فى سيارة أجرة ..

وفى اليوم التالى جاءت أمها وبقية العائلة تشكرنى .. فتعرفت عليهم وتبادلنا الشاى فى طهارة وحسن نية .. ولم أشعر أكثر من أنهم جيران طيبون ..

وبعد شهرين ذهبت فى رحلة إلى معسكر صيفى فى الإسكندرية وغبت عشرين يوماً .. ثم رجعت فقابلتنى السيدة فى حرارة ودخلت خلفى فى الشقة وهى تسألنى عن الرحلة وعن الإسكندرية فى تلهف وخجل .. وفى عينيها بريق غريب وهى ترتعد .. وانتهى المشهد بأن خطفت منى قبلة وجرت بعدها إلى شقتها ..

وتعاقبت الأيام والشهور وتطورت القبلة الخاطفة إلى قبلة طويلة .. ثم إلى عناق أطول ثم إلى المصير المحتوم الذى تؤدى إليه خلوة امرأة مطلقة وشاب فى العشرين رياضى ومكتمل الجسم ..

وتكررت المسرحية لمدة أكثر من سنة وعرف الجيران وعرف أهلها بعلاقاتنا . .

وسافرت فى العطلة الصيفية لعام ٥٨ ـ ٥٩ وكنت أتلقى منها رسائل ملتهبة أرد عليها برفق وتعقل .

وعدت من البلد لتقابلنى بحب أكثر ولهفة أكثر ولتحكى لى ما حدث مع أهلها .. وكيف أنهم عرضوا عليها الزواج من رجل غنى .. وكيف رفضت وأصرت على الرفض .. وبكت واشتكت وتشاجرت مع أهلها وهجرتهم وهجروها .. وعرضت على الزواج .. كانت مفاجأة بالنسبة لى .. ارتبكت .. ثم رفضت بحجة أنى فقير .. وبأنى ما زلت طالباً لم أكمل تعليمى .. وصغير السن .. أصغر منها بعشر سنوات .. فقالت وماله . عندى ثروة تكفينى وتكفيك .. وسأضع كل مالى بين يديك .. وأساعدك فى تعليمك وأخدمك أكثر من خدامة .. وقلت لها .. إن هناك أهلى.. وهم لا يوافقون على زواجى. فقالت لا يهم أى شىء ما دمت أحبك وتحبنى .. ولكنى رفضت بشدة .. وانتهى الموضوع ليتجدد بعد ذلك كل يوم ومعه بكاء وصراخ .. وقبلات على يدى ورجلى والأرض التى أمشى عليها .. وأحبك .. أعبدك .. ما أقدرش أعيش من غيرك ..

وفى إحدى الليالى طرق الباب بعنف وفتحت لأراها أمامى متورمة العينين من البكاء .. وارتمت على صدرى تصرخ وتولول .. بأن أهلها

جلبوا لها عريساً آخر وهم يضغطون عليها لتتزوج منه .. وهى لا تريد لأنها لا تحبه ولأنه أكبر منها بعشر سنوات .. وكنت رقيقاً معها هذه المرة ولم أشأ أن أقول لها إنها هى الأخرى أكبر منى بعشر سنوات ..

وراحت تقبلنى وتقول لى أنقذنى .. تزوجنى ولو ليوم واحد .. لأسكت أهلى وأريهم العقد فيبعدوا عنى .. فوافقتها لا أدرى كيف .. ربما كانت طيبة منى .. ذهبنا إلى محام تعرفه .. وكتبنا العقد ..

وكان عقداً عرفياً نظراً لاختلاف دياناتنا فهى مسيحية وأنا مسلم .. ورجعنا إلى البيت .

واستمرت علاقاتنا كما هى .. نلتقى بالليل فقط .. وأنا فى شقتى وهى فى شقتها .

وكنت محافظاً على مبدئى فلم أحاول أن أستغل حبها وكرمها وغناها .. حتى السينما كنت أرفض أن تدفعها .. وأتظاهر بالمرض حينما تنفد نقودى. وكانت هى تغار على حتى من خادمتها التى لم تتجاوز العاشرة .

واليوم وقد أكملت تعليمى وأخذت الشهادة وأصبحت أتطلع للمستقبل ولبناء حياتى .. حاولت أن أفاتحها فى الموضوع لإنهائه ولكنها تشبثت وبكت واشتكت ..

لى عندها خطابات وصور .. والعقد العرفى إياه . . وهى متشبثة بهذه الأوراق كما أنها متشبثة بحبي وتهددنى بأنها ستنتحر وستكتب أنى سبب انتحارها إذا طلقتها ..

وأنا لا أريد أن أكون مجرماً .. ولا أريد أن أكون بقايا حيوان .. ولا أريد أن أثقل ضميرى بأعباء لا يطيقها ..



قبلة الحب الأولى — للفنان فرنسوا جيرار بمتحف اللوفر بباريس



العش　　　　　للفنان فرنسوا بوشيه بمتحف اللوفر بباريس

ولا أريد أن أكون فى نفس الوقت رجلا عبيطاً تضحك عليه امرأة .. ولهذا أشركك فى مشكلتى وأطلب رأيك ..

* * *

إنك لم تترك لى رأياً فى الواقع .. فإن سياق خطابك يشير إلى حقيقة واحدة باستمرار .. إنك لم تحبها فى أى يوم من الأيام .. هى التى اقتحمت شقتك وخطفت منك قبلة .. وهى التى كتبت إليك رسائل ملتهبة .. وهى التى عرضت عليك الزواج وهى التى قبلت قدميك لتحصل على عقد زواج ولو لمدة يوم .. هى .. هى .. هى .. دائماً وأنت ساكت تعطيها فمك لتقبله .. وترد على خطاباتها برفق .. وتعقد عليها عرفياً من باب الشفقة ..

واضح جداً أنك قد كونت رأيك من البداية .. ولست فى انتظار رأيى فأنت قد اعتبرتها سد خانة .. مدة التلمذة .. وخلاص .

والزواج يا عزيزى ليس بالعافية .. والحب لا يمكن إثارته بالإشفاق والتهديد بالانتحار .

أظن أنها ستدفع ثمن عروضها الرخيصة .. ولن يجديها انتحار .. أو صراخ .. أو بكاء . فأنت قد كونت رأيك من زمان .

البحث عن مقياس

أنا فتاة فى العشرين .. أشتغل عاملة فى شركة .. لى أسلوب فى حياتى اخترته واقتنعت به ومشيت عليه طول حياتى .. هو أن ألتزم فى علاقاتى مع زملائى الأدب والاحترام فأكون صديقة للكل دون أن أكون حبيبة

لأحد .. وأحتفظ بعواطفي لنفسي ولا أبتذلها وأعرضها للهوان أمام اللي يسوى واللي ما يسواش .

كانت نظريتي ألا أفتح قلبي إلا للرجل الذي يتزوجني .. وأبتعد عن اللف والجرى . .

وكان رأيي في غراميات البنات زميلاتي .. أنها ليست غراميات في الحقيقة .. وإنما هي مرمطة ..

وكان أسلوبي هذا يلقى السخرية من الجميع .. البنات والرجال على السواء .. البنات يقلن عني شيخة .. والرجال يقولون عني رجعية .. ريفية .. طالعة فيها .. أليطة .. وعلى إيه ده كله .

ولكنهم مع هذا كانوا يحترمونني ويحسبون لي ألف حساب .. وكان أخي يوافقني على رأيي .. ويعيش في حياته الخاصة كما أعيش أنا في حياتي .. وكان هذا يعطيني القوة لأمضي في طريقي ..

ثم حدث شيء ..

أحب أخي جارتنا .. وهي فتاة معروفة بسوء السمعة .. وهو نفسه يعلم بسوء سمعتها وسوء أخلاقها .. وكان يحكي لي أنه رآها تمشي مع فلان على أنه خطيبها .. ثم تستبدل به في اليوم التالي رجلا آخر تقول أيضاً إنه خطيبها ..

ثم يحكي لي أنه رآها تهرب عشيقها من النافذة لأن أخاها دق جرس الباب .. ويقول إنها فتاة سيئة الخلق .. وإن آخرتها حاتكون زي الزفت ..

وهذه الفتاة هي التي أحبها .. وتدله في حبها .. ثم فعل ما هو أدهى وأمر .. تقدم للزواج منها ..

وحينما صرخت فى وجهه وقلت له كيف تتزوج فتاة أنت نفسك تعلم أنها سيئة الخلق ومشيت مع عشرة غيرك .. أجابنى فى برود .. أنه قد اكتشف أن البنت التى لها ماضى أفضل بكثير من التى لها مستقبل .. وأنها أحسن من البنت التى ليست لها تجارب . .

وانهارت مثالياتى كلها دفعة واحدة . .

ماذا جرى لعقولكم يا رجال .. كيف تهون عندكم العفة إلى هذه الدرجة .. وماذا نفعل حينما نسمع مثل هذا الكلام . .

حينما نرى أن الابتذال هو الطريق التى توصل إلى الزواج... والاحترام والعفة والأدب والأخلاق هى الطريق المسدود الذى لا يوصل إلى شىء ..

حاجة تحير . .

هل كل الرجال يقولون هذا الكلام ..

ماذا نفعل لنريح ونستريح . . قولوا لنا لنعرف برنا من بحرنا .

* * *

مشكلة هذا الجيل أن كل واحد فيه يفكر على طريقته ..

المقياس الواحد العام المتفق عليه ذاب وتفتت إلى عدة مقاييس .

هناك الرجل الذى يبحث عن بنت زمان ست البيت التى لا تخرج فى الشارع ولا تعرى صدرها .. ومقياس الصلاحية عنده أن تكون البنت خام . وهناك الرجل الذى تعجبه البنت التى تحمل شهادة وتخرج وتعمل..

وهناك الرجل الذى تعجبه البنت الدايرة ولا يهمه إن كانت خسرانة أو مش خسرانة ..

والخطر كل الخطر أن ينظر كل واحد إلى الآخر ويقلده فى ذوقه.. أن تنظرى أنت إلى أخيك ويسقط فى يدك من الحيرة .. وتشكى فى نفسك وفى سلوكك .. وتنظرى إلى البنت الخسرانة .. وتحاولى أن تقلديها فى خسارتها لتتزوجى .. وأنت غير مقتنعة بأسلوبها .. وأنت تحتقرينها فى نفسك .. وتكون النتيجة هى الفشل المؤكد فى الزواج .. وفى الحبص .. على السواء لأنك عشت فى لون غير لونك . .

لا تقولى ماذا يريده الرجال منا نحن النساء .. وإنما قولى لنفسك .. ماذا أريد أنا ..

إن الرجال ألف لون ولون . . كل رجل له طلب .. وله حلم .. وله نموذج يحلم به غير النموذج الذى يحلم به الرجل الآخر .. الجيل مفكك ليست له راية مذهبية واحدة . .

وإذا حاولت إرضاء كل الرجال . فسوف تعيشين كالحرباء .. كل يوم بلون .. وتخسرين نفسك دون أن تكسبى رجلا واحداً . .

حاولى أن تبحثى فى نفسك أنت عما تريدين . .

أنت مقتنعة بالعفة والأدب .. عيشى عفيفة مؤدبة وستجدين رجلك الذى يتفانى فى حبك .. ويجد فيك أنت نموذجه الذى يحلم به ..

حذار أن تنظرى حولك إلى ما تفعل البنات.. وإلى ما يقوله الرجال.. وإلا فسيكون سقوطك مضاعفاً .. سقوط فى نظر الناس .. وسقوط فى نظر نفسك .. وهذه هى الكارثة ..

إن أخاك واحد من الرجال .. والرجال ليسوا كلهم كأخيك أبداً .. إن كل واحد فيهم يقول كلاماً غير الآخر ..

العقل

أنا فتاة من الشرقية من عائلة طيبة .. تعليمى متوسط .. بدأت حياتى من سن السادسة عشرة.. شاءت الظروف أن أشتغل ممرضة بأحد المستشفيات وكنت فى تلك السن زهرة يانعة جميلة أتدفق بالمرح والحياة والنشاط ..

وأقبلت على عملى رغم ما لاحظت من احتقار الناس لهذا العمل النبيل .. والغريب أن الناس يأخذون منا صحتنا وشبابنا ويبخلون علينا حتى بالتقدير والتشجيع الأدبى فى مقابل عمرنا الذى نبذله مجاناً للمرضى ..

وكان لهذا النكران والهوان والاحتقار الذى أحس به فى كل مكان أثره فى نفسى .. فبدأت أفقد ثقتى بالمثل والأخلاق .. وبدأت أقول لنفسى .. إذا كان هذا رأى الناس فى الممرضة .. أنها فتاة خليعة تمشى على كيفها فلماذا أعذب نفسى بالحرمان وأضيع عمرى خلف تقدير لن أحصل عليه .. ولماذا أجرى خلف الشرف .. والشرف يتبرأ منى ..

وبدأت أسهر .. وأتمتع بكل لحظة فى حياتى .. حتى أفقت فى يوم وقد وصلت إلى السابعة والعشرين من عمرى .. ولم أعثر بعد على حب عظيم أعتز به .. أو رجل نبيل أطمئن إليه ..

كل الرجال الذين عرفتهم كانوا غشاشين .. يبدون الحنان ليحصلوا على المتعة بأى ثمن .. ثم لا شىء بعد هذا .. كل حنانهم يتبخر ..

غش .. وسفالة .. وانحلال .. وكذب .. فى كل مكان .. وكل رجل ..

ورجعت بذاكرتى إلى الوراء .. وندمت حيث لا ينفع الندم ..

ندمت على كل خطوة خرجتها مع رجل .. وكل لحظة ابتذلت فيها نفسى من أجل لذة أى لذة .. ورجل أى رجل ..

ولكن المشكلة الآن أن الإنسان بيكبر .. وفرص الزواج تقل يوماً بعد يوم ..

وأنا تعودت أن يكون معى رجل .. وأشعر أنى عاجزة أن أرجع كما كنت زمان .. وأستغنى عن هذه الحكاية ..

وكلما فكرت فى المستقبل اسودت الدنيا فى وجهى .. ورحت أبكى وأمزق شعرى فى حرقة ومرارة ..

والآن أتوسل إليك .. ساعدنى فى حيرتى .. ماذا أفعل .. لأجد رجلا يحبنى ويتزوجنى ..

* * *

إن السحر الذى يستعبد الرجل ويخلب لبه .. ويجعله يطلع يجرى على المأذون ليتزوج .. هو عقل المرأة .. عقلها أولا .. وعقلها ثانياً .. وعقلها ثالثاً .. وبعد ذلك جمالها وفلوسها وحبها .. إلخ .. إلخ ..

وهذا طبيعى لأن العقل هو أهم شىء فى الزواج .. وأهم ضمان فى نجاح الزواج .. لأن الإخلاص عقل .. والوفاء عقل .. والقيام بمسئولية البيت عقل .. وتربية الأطفال عقل .. وتدبير ميزانية البيت عقل .. ورعاية الرجل فى مرضه وفى فشله وفى إفلاسه .. عقل .. وكفالة المظهر المحترم أمام الناس عقل ..

عملية الزواج كلها عقل فى عقل ..

والزواج الناجح يحتاج من المرأة إلى التعقل .. لأنه يحتم عليها أن

تتنازل عن الكثير من هوس الشباب وطيشه ولذاته .. وتتنازل عن بعض نفسها لتتقاسم الحياة مع رجلها الذى تنازل أيضاً عن طيشه وعينه الفارغة الزايغة .. ليعيش ..

ومهما كانت المرأة جميلة وجذابة وفاتنة .. فهذا لا يكفى ليغرى الرجل بالزواج منها إلا إذا كان مغفلا .

وأنا أذهب إلى أبعد من هذا ..

أنا أخجل حتى بالهلس مع الفتاة السايبة التى تتنقل فى طيش وترخص من رجل إلى رجل .. مهما كانت جميلة وساحرة .. لأنى أشعر أنى أدلق صحتى فى بالوعة يدلق فيها الكل إفرازاتهم .. وأنى أفوز بشىء لا قيمة له إطلاقاً . .

والمرأة حتى ولو كانت .. صيدة .. لا تفوز باهتمام الرجل إلا إذا شعر بقيمتها وغلوها ..

ومعنى هذا أن العقل مطلوب لدوام أى علاقة حتى لو كانت العلاقة .. هلس فى هلس ..

ونصيحتى لك .. أن تبذلى كل عقلك وذكائك .. وإذا استطعت أن تقنعى رجلا واحداً بأنك إنسانة ذكية وعاقلة وأنك يمكن أن تكونى محل ثقة .. فإنك ستتزوجين قبل مضى هذا العام ..

تمنياتى الطيبة .. ولا تنسينى بعلبة الملبس ..

الناس والظروف

بدأت حياتى فى سن الرابعة عشرة حينما بدأت أحس أنى رجل مسئول وأن على أن أساهم فى الكفاح من أجل بلدى .. ويومها انضممت إلى أحد الأحزاب السياسية وبدأت أشتغل بالسياسة وأخطب وأهتف وأنظم المظاهرات فى المدرسة الثانوية التى أتعلم بها .. وكنت حينذاك طالباً فى السنة الثالثة .

وكما يحدث دائماً فى مثل هذه الأمور.. كانت النتيجة هى الغرور.. والإحساس بالعظمة والأهمية .

وبدأت أعامل نفسى على أنى رجل مهم .. وأنظر إلى نفسى على أنى زعيم .. وصاحب رسالة .. ولا يهم أن أرسب فى الجغرافيا أو الكيمياء .. فالزعماء ليسوا فى حاجة إلى كيمياء ..

ورسبت أكثر من سنة فى دراستى الثانوية .. وقضيت سنوات الدراسة دوبل ..

وكان يحدث أثناء موجات الاعتقال .. أن أتوقف عن نشاطى السياسى .. وأبدأ فى شغل فراغى بالاستغراق فى شرب الخمر والعلاقات النسائية .. وكلهن نسوة محترفات بالطبع .. وكانت المسألة تبدو لى جزءاً من الزعامة والباشوية التى أسعى للحصول عليها .. فكهذا يفعل البشوات أيضاً .. يشربون ويسكرون ويعربدون مع النساء فى أوقات الفراغ من الزعامة ..

ودخلت كلية الحقوق .. وتخرجت محامياً .. وفتحت مكتباً فى القاهرة

تعبت فيه كثيراً .. ولم أكسب مليما .. وفكرت فى العودة إلى بلدى لأمارس مهنتى ..

وكان حظى فى البلد أحسن من حظى فى القاهرة بكثير .. ونجحت وكثرت الفلوس فى يدى .. وانهالت القضايا على المكتب ..

وكنت فى هذا الوقت قد بلغت الخامسة والثلاثين .. وكان المكتب على كثرة شغله يترك لى نصف يوم فراغاً لا أعرف كيف أملؤه ..

وكنا نجتمع أنا وطبيب المركز ووكيل النيابة والعمدة لنلعب القمار .. أو نسكر .. أو نذهب إلى بيت مشبوه حيث نجد كفايتنا من النسوة المحترفات .. وحيث نقضى ليالينا حمراء حتى الصباح .

وكنت قد نسيت أحلام الزعامة .. والباشوية .. والسياسة العليا .. واكتفيت بلذات هذا الواقع الرخيص .. أغرق فيه كلما وجدت لحظة فراغ .. ولكنى فى نفس الوقت كنت قد كبرت على هذه اللذات .. وأصبحت لا أشعر بسعادة فى هذا اللون المراهق من الاستهتار .. كنت فى الحقيقة قد كبرت على عاداتى القديمة .. وفى أغلب الحالات التى كنت أصطحب فيها هؤلاء النسوه المحترفات كنت أجزل لهن العطاء آخر الليل دون أن أفكر فى أن أنال منهن شيئاً .

كنت أشعر أنهن نساء بائسات .. وأنى أنا أيضاً رجل بائس مثلهن .

وفى هذه المرحلة الحرجة من حياتى .. قابلتها لأول مرة .. فى بيت من هذه البيوت المشبوهة .. وكانت حاملا فى شهرها الثالث ..

فتاة فى العشرين ذهبية الشعر .. جميلة .. جمالها هادئ طيب برىء حزين .. لاتتكلم إلاقليلاوتعيش فى وسطها الردىء .. وكأنها لاتنتمى إليه ..

وقضيت معها ليلتى .. وتعدد لقاؤنا .. مرة .. ومرات .. وعرفت أنها تعول أما مريضة مشلولة .. وأخوات صغيرات فى المدارس .. وأنها العائل الوحيد لهذه الأسرة بعد وفاة الأب مصدورا . .

وتعرفت على أمها وأخواتها ..

وحدث فى هذه الأثناء أن جرحت فى حادثة تصادم واحتجت إلى عملية نقل دم .. ومثل هذه العملية فى قريتنا تحتاج إلى يومين .. فالقرية تتصل بالمركز والمركز يتصل بمستشفى البندر .. ويطلب عربة إسعاف .. تحمل الدم حتى لا يتلف .. وإلى أن يحضر الدم يكون الجريح فى العادة قد شبع موتاً ..

والذى حدث فى تلك الليلة أنى فتحت عينى فوجدتها جالسة إلى جوارى . . وعرفت أنها تبرعت بلتر من دمها . . من أجلى ..

وهكذا توطدت علاقتنا .. وبدأت تكشف لى الأيام عن روحها الطيبة الشفافة .. ونفسها التواقة إلى حياة العفة .. وكانت تقول لى دائماً إنى أشعر أنى بحبك أنجو من الهوان .. إن حبك هو عذرى الوحيد الذى أتعلل به لأحترم نفسى .. أنا بدونك إنسانة ميتة إنسانة ساقطة تماماً ..

وهكذا مضت الأيام تنسج لنا خيوط حب عميق متين .. وأمل لروحينا الضالتين الوحيدتين ..

واستطعت أن أحس بومضة الشرف فى روحها .. وتطلعها البائس إلى حياة نظيفة .. فيها حب .. ونظام .. ومعنى .. واستطعت أن أفهم ماضيها الطويل المشين الذى يجرر خلفه ظروفاً قاسية لا قدرة لها على مقاومتها .

وأحسست أنى أفهم عذابها .. فأنا أيضاً رجل فاسد أجرر خلفى حياة طويلة مشينة كلها كذب وادعاء .. وأنا مثلها أتطلع بروحى إلى حياة فيها معنى وفيها حب ..

وشعرت أن بيننا رباطاً لا فكاك منه . .

وصارحتها برغبتى فى الزواج منها .. فرفضت بشدة وبكت وقالت إنها لا تقبل أن تسىء إلى سمعتى . . وأن كل ما تطلبه من الدنيا هو أن أحبها ..

أصدقائى كلهم ضد فكرة زواجى بها ويستبعدون على مومس أن تحب وتتوب وتكون زوجة فاضلة .. ولكنى مصر على الزواج بها . .

ما رأيك ؟ . .

* * *

الحب الحقيقى الصادق قد ينتشل المرأة من خطيئتها ويكشف لها وجه الحياة الشريف الجميل النقى . . تماماً كما ينتشل الرجل من فساده واستهتاره . .

وأنا لا أستبعد على مومس أن يردها الحب إلى مشاعرها الإنسانية النبيلة . .

ورأيى أن الزواج مسألة شخصية جداً . .

افعل ما يدلك عليه قلبك وإحساسك .. فحياتك ملكك وحدك ..

تلفيق الحب

أنا فتاة فى السابعة عشرة من عمرى فى الثانوية العامة .. فتاة لم أذق طعم الحب ولم أره فى حياتى .. وهذه هى مشكلتى !

كثيرات من بنات جنسى يروين لى مغامراتهن مع أحبائهن .. وعن جمال الحب وعذابه وسهره وأنينه .. وأجلس أنصت لهن ويدى على خدى ودموعى فى عينى .. ويسألننى فى النهاية عن قصة حبى فلا أجد شيئاً أقوله .. فليست لى مغامرات وليس لى عشاق ولا محبون .

سألت مرة والدى عن معنى كلمة الحب فقال لى إنه ترابط قلبين مخلصين إلى الأبد وهو شعور جميل جداً . .

وسهرت ليالى كثيرة أفكر فى كلامه .. وأسأل نفسى .. هل أنا بلا قلب وبلا إحساس .. هل أنا إنسانة مجردة من الشعور ؟

واخترت شاباً طيباً يسكن بجوارى . . صغير جداً فى السن . . وبدأت أقول لزميلاتى إنى أحب هذا الشاب . . وأزين لنفسى أنى أحبه فعلا . . لأثبت لنفسى أنى فتاة ذات قلب ينبض بالشعور والإحساس . . وأنى فتاة ذكية عرفت كيف تحب وكيف تختار حبيبها . .

ولكن صاحباتى يقلن عنى إنى ساذجة جداً . . وإنى لن أنجح فى الحياة . . هذا مع العلم أنى دائماً من الأوائل فى مدرستى . . .

أظن أنك تضحك الآن . . وتقول عنى فتاة مراهقة . . لا . . أنا لست مراهقة . . أنا بنت ناضجة . . ولكن كل ما فى الأمر أنى لم أحب ولم أجرب الحب مطلقاً . . ولهذا أشعر بنقص شديد . . وضيق . .

وعذاب . . حينما تقول عنى صاحباتى . . إنى ساذجة . .

هل تتصور أنى عندما أدخل فيلماً فى إحدى دور العرض ويكون فيلماً غرامياً مثيراً . . وأرى مناظر الحب والغرام . . أشعر بالبكاء . . وأشعر بغصة الدموع فى حلقى . . وتنتابنى طوال عرض الفيلم مشاعر متفاوتة من اللذة والألم والنقص . . النقص لأنى لم أحب . . ولا أعرف ما هو الحب كما تعرفه زميلاتى . . وأظل طول الليل ساهرة أحاول أن أطرد هذه الكلمة من مخى . . الحب . . الحب . . وتظل الكلمة تطاردنى . . وتأكل مخى . . بلا نهاية . . ماذا أفعل ؟ . .

* * *

أولا أحب إن أقول لك إن هذه السن . . سن السابعة عشرة هى سن الفشر والأوهام والخيالات . . ومعظم الحكايات التى تحكيها لك صاحباتك فشر فى فشر . . فالبنات والأولاد يلذ لهم فى هذه السن أن يتخيلوا وقائع لا أساس لها . . ومغامرات لا أصل لها . . ثم يحكونها لبعض على أنها مآس . . ودرامات حب عنيفة جربها كل منهم واكتوى بنارها وبكى واشتكى . . وسهر الليالى . . وكل مأساة من هذه المآسى لا تزيد فى أصلها عن قصتك أنت وجارك . . قصة لا معنى لها . . يصنع منها الخيال مصيبة وكارثة من كوارث الهوى الخرافى . . ويروح كل واحد يقنع نفسه . . ويقنع أصحابه بأنها حقيقة . . وأحياناً يصدق نفسه ويبكى فعلا . .

أما الحب الحقيقى فهو فى نظرى شعور ناضج عميق . . وهو لا يمكن أن يواتى الرجل أو المرأة قبل العشرين . . لأنه يحتاج إلى درجة كبيرة من النمو العقلى ومن اكتمال الخبرة .

الحب ليس بالشعور الذى نطلبه ونجرى وراءه لمجرد التقليد . . ولمجرد أننا سمعنا أن فلاناً أحب . . نأخذ ذيلنا فى أسناننا وطيران على أول جار واقف فى الشباك . . ونروح نازلين فيه حب . . ده كلام فارغ ودى هى المراهقة فعلا . .

الحب شعور تلقائى يغزو القلب من تلقاء نفسه . . بدون استدعاء . . وبدون أن نرسل له التماساً

وحب السابعة عشرة لا يمكن أن يكون حباً . . إنه فضول . . نزوة شهوة . . لعب . أى شىء إلا أن يكون حباً . .

اشكرى ربك على أنك لم تتورطى فى هذه الحماقات . . وتأكدى أنك لست ناقصة . . وإنما أنت عاقلة . . لا تتعجلى نصيبك . . ولا تلفقى الأكاذيب لترضى بها فضولك . .

اتركى قلبك على سجيته . . وتأكدى أن الحب سيطرق بابك فى حينه .

عدو النساء

أنا عدو النساء رقم واحد . .

واعذرونى إذا كنت أتجرأ وأشتم كل النساء . . فأنا وصلت إلى حالة عصبية فقدت فيها عقلى . . واتزانى . . وسماحتى . . وأدبى . . وأخلاقى .

واسمعوا حكايتى . .

منذ ثلاث سنوات . . فكرت فى أن أتزوج . . وأكمل نصف دينى .

وكأى رجل يدخل السينما ويقرأ المجلات ويختلط بالناس وينظر

بعينيه باليمين وبالشمال . . كان أملى الوحيد هو أن أتزوج امرأة جميلة . .
وشكراً للظروف الطيبة . . فقد وجدت هذه الجميلة . .
وأى جمال . .

جمال صارخ . .

بشرة بيضاء بلّورية . . عود لين ملفوف سرح . . شعر ذهبى يرقص ويتمخطر على الكتفين . . عيون واسعة كعيون الغزلان . . فم أحمر متوهج مثل حبة الكرز . . ساقان مثل السيقان الّتى تزين إعلانات جوارب النيلون . . يدان ناعمتان مترفتان مثل يدى الجيوكندا . . .

جمال صارخ . . بكل معنى كلمة صارخ . .

وفرحت . . وقفزت من الفرح . . ولم أهدأ حتّى كتبت الكتاب . . وانتقلنا إلى بيت الزوجية السعيد . . وبدأنا أيام العسل . .

وبدأت المتاعب . . والتلميحات . . وغمزات الغزل من كل جانب . . ويا حلاوته اللى ماشى على قشر بيض . . أحب السمك الرعاش . . يا ملبن أنت . . يا قشطة . . يا لوز . . يا جوز . . يا مكسرات . . يا كريم شانتيه . .

وعلى باب البيت ينادى العيال الذين يلعبون فى شقاوة . . معسلة أوى يا بطاطة . . والبطاطة هى زوجتى فاطمة طبعاً . .

وتضحك الست فاطمة . . وأغلى أنا من البطاطة ونار البطاطة . .

وأنا ذنبى إيه يا رب بس . . عملت إيه ؟ ! . .

إذا تركتها تخرج وحدها عادت وراءها خمس عربات كاديلاك توصلها للباب . . وكل عربة فيها شاب صايع مسبسب . . يفتح الباب ويهمس . . عيب الحلاوة دى تمشى على رجليها . . عيب الجمال ده . .

يتمرمط فى الشارع . . الجمال ده لازم يتحط فى قصر . . فى جنة . . وأنا أقف عليها خدام . . سفرجى . . شوفير . . تسمحى لى يا مدام أكون شوفيرك . . خدامك . . عبدك مش هاين على تروحى للبهيم ده . . الطعامة والقطقطة دى كلها تنام فى حضن شيخ غفر . . اخص على ذلك !

والبهيم اللى اخص عليه بالطبع هو سيادتى . . شيخ الغفر . . حارس أبعدية الجمال والفتنة اللى حاتودينى فى داهية .

اتخانقت ودخلت القسم أكثر من مرة واشتبكت فى أكثر من معركة بالذراع بسبب دمى الحامى . .

أعمل إيه . . مش طايق . .

وهى مظلومة معى . . فما ذنبها فى أنها جميلة ؟ . .

إنها لا تلبس عريان . . ولا تتمخطر فى مشيتها . . وطباعها مهذبة . . ومسلكها غير ملفت ولا خليع . . ولكن جمالها . . جمالها يصرخ . .

قفلنا علينا البيت . . وأضربنا عن الخروج . . فبدأ التليفون يدق . . آلو . . مين حضرتك . . لا أحد . . رد يا بنى آدم . . البنى آدم اتخرس ومع ذلك فالسماعة مرفوعة على الطرف الآخر والسكة مفتوحة .

فى نص الليل يدق التليفون . . فإذا رفعت زوجتى السماعة رنت طرقعة بوسة . . ثم انقفلت السكة . . وأحياناً تظل السكة مفتوحة . . ويدير صاحبنا تسجيلات لأغنية شادية الأخيرة . . أكمنه يا ناس واحشنى . . وخصامه كمان حايشنى . . كلمته سمعت صوته . . وقفلت السكة تانى . .

وأحياناً يكون صاحبنا مؤدباً فيكتفى بأن يتأوه على الخط . .

صندوق البوسطة . . لا أفتحه مرة إلا وأجد فيه خطاباً للست . . كله أحلام وهيام وغرام . . والإمضاء . . معجب من الجيران . .

وأبدأ فى مراقبة الجيران فى جنون . .

من هو المجرم ابن الحرام . .

أول شيء أقرؤه فى الصحف أخبار جهاز ضبط المعاكسات التليفونية . . ماذا تم فيه . . وكم مبلغ إيجاره . . وما هى أطول مدة لإيجاره ؟ . .

وفى الحق أنى كنت فى حاجة إلى مليون جهاز . . جهاز لضبط المعاكسات التليفونية . . وجهاز لضبط المعاكسات البريدية . . وجهاز لضبط النظرات . . وجهاز لكشف نوايا القلوب . . وأخيراً جهاز لضبط أعصابى وضبط غضبى حتى لا أنفجر . . وأطق . . وأموت . .

ألا يوجد عمل للناس فى الدنيا إلا زوجتى . .

وكرهت الجمال . . وقرفت من الجمال . . وطهقت من الجمال الذى كلفنى دم قلبى . .

وطلقت الجمال . . واسترحت . .

ومرت سنة . . ونسيت ما حدث لى من تحت رأس الزواج . . وعدت أفكر فى تكملة نصف دينى . . وهذه المرة كانت نيتى أن أبحث عن زوجة وحشة مثل غراب البين حتى لا ينظر إليها أحد . . وحتى أستريح من المعاكسات والمطاردات وأنام ملء جفونى . .

واخترتها . . نقاوة . . ليس فيها عضو من أعضائها سليماً . . شعرها أكرت . . وجهها فيه نمش عيناها بهما حول . . قصيرة لا تصل إلى

كتفى . . سمينة مدكوكة كالبرميل . . لا تعرف لها رقبة من وسط من كتف من رجلين . .

امرأة فيها كل العبر . .

واعتبرت نفسى رجلا محظوظاً بكل هذه الوحاشة لأنى سوف أستريح من نظرات الناس . . وسوف أنام لا يدق إلى جوارى تليفون . . ولا تنزل على تلاقيح الغزل . . ولا تطاردنى طوابير العربات حتى الباب .

واندبوا معى حظى التعس . . فهذا ما حدث بالفعل . . لم يفكر أحد فى أن يعاكس زوجتى . . ولم يفكر أحد فى أن يدق لها تليفوناً . . ولم يفكر مجنون فى أن يطاردنا بعربيته . . ولم يفكر مخلوق فى أن يلقى لها بنظرة إعجاب . . ولم يبصبص لها كلب بذنبه . . وكانت النتيجة . . أنها جنت . . أصبحت تقف أمام المرآة ثلاث ساعات لتضع شكارة جبس على وجهها . . وتشد جسمها المدكوك بكورسيه . . وتلبس سوتيان صفيح يلقى بنهديها مترين إلى الأمام . . وتلبس حذاء كعبه عشرة ستتيمترات يرفع بها إلى فوق .. وتمشى تتمخطر . . وتتقصع فى دلع . . منفر . . مقزز . . وتنظر فى تبذل . . تستجدى الالتفات والغزل من كل من هب ودب من طلبة الست عشرة سنة الساقطين فى ثانوى إلى العجائز من أرباب المعاشات مدمنى الكحة .

وأصبحت التعليقات التى تترامى حول أذنى من ماركة . . أعوذ بالله شايف الولية . . يا نهار أزرق . . أوعى تقرب منها . . دى بتعض .. دى تلاقيها ست بيت على كيفك تنضف البيت أحسن من الـ د . د . ت . . ده تلاقى جوزها حاططها فى البيت عشان تأكل الصراصير . .

ودى حاتموت إزاى دى يا خويا . . ده عزرائيل يخاف منها . يا نهار أزرق . .

ولم يعد التليفون يدق بالمعاكسات . . وإنما هى التى أصبحت تدقه وتعاكس وتقفل السكة . . وتتأوه . . وتدير إسطوانات شادية . . وتستجدى مكالمة لله . . آلو لله . .

وأنا أتشنج من الغيظ . . وأخبط رأسى فى الحائط . .

أليس لى حق فى أن أكون عدو النساء رقم واحد . . عدو كل حلوة . . وكل وحشة . .

* * *

لك حق والله العظيم

المثقفة

أنا فتاة فى التاسعة عشرة من عمرى جميلة حاصلة على شهادة الفلسفة من مدرسة فرنسية للراهبات . . غنية . . ومن عائلة غنية . . لى أخت متزوجة . . وأخ أعزب . . بدأ الخطاب يتقدمون إلى وأنا ما زلت فى الثالثة عشرة من عمرى وبالطبع رفض والدى . . وكنت أحزن أحياناً لأنه بذلك يمنعنى من تحقيق أحلامى الصغيرة فى الزواج . . فستان أبيض ملابس . . خروج . . نزهات . . بيت أحكم فيه بأمرى ومشيئتى . .

حدث فى هذه السن أن وجدت كل زميلاتى يتكلمن عن الحب . . والـ « بوى فرند » والقبلات والرقص فأخذت أستمع إليهن مشدوهة خائفة . .

كيف يخرجن مع شبان . . ألا يخفن على سمعتهن ؟

ولكن كثرة الكلام فى هذا الموضوع جعلته فى النهاية يبدو أمراً عادياً ولماذا لا يكون لى «بوى فرند» مثل باقى البنات . . وهل أنا وحشة . . وكان هناك ضابط يسكن بجوارنا أخذ يطاردنى . . واستمر شهوراً بعد شهور يطاردنى بكل الطرق الممكنة . . كان يحوم حولى فى كل مكان . . ويعاكسنى فى التليفون . . ويبكى إذا قفلت فى وجهه السكة . . ولا أطيل عليك . . قلت فى نفسى : أجرب . . ولن أفعل مثل صديقاتى . . لن أخرج معه . . إذا كان يريدنى حقاً فعليه أن يتقدم إلى والدى . . فالحب فى نظرى لا معنى له بدون زواج .

وقبل أن نتخذ أى خطوة . . فكرت أولا أن أصارح أخى بإعجابى بهذا الشاب . .

وأطلعت أخى على كل شىء . . وفرح أخى . . واقترح قبل الخطوبة أن نلتقى نحن الثلاثة عدة مرات لكى نتعارف . . ونختلط بدون كلفة وبدون رسميات الخطوبة حتى نعرف بعضنا بما يكفى . . فإن انسجمنا كان بها . . وإن لم يكن . . قطعنا علاقتنا فى هدوء وبلا ضجة . .

وهكذا خرجنا . . وتكرر خروجنا . . مرة . . ومرات . . لمدة سنة كاملة . . وكان لقاؤنا دائماً بتدبير أخى فى وجوده . . وهكذا أتاح لى أخى فرصة نادرة لا تتاح لأى فتاة . .

وأعجبت بالشاب وأحببته وأصبحت أنا التى أطلب من أخى أن نخرج ونخرج . . وازداد شوقى وحبى . . وألح حبيبى فى الإسراع بإتمام الخطبة . . وتقدم بالفعل ليطلب يدى ووافق أبى ورحبت أمى . .

وباركته العائلة . . وفرحت . وأصبحت أسعد إنسانة فى الوجود . . وفجأة حدث أن وقع الاختيار على خطيبي للسفر فى بعثة سنة إلى أوربا . . وطلب الإسراع بإتمام الزواج ليصحبنى معه . . ولكنى آثرت الانتظار هذه السنة لأكمل تعليمى أنا الأخرى .

وهكذا سافر . . وكنت فى وداعه على المطار . . وتواعدنا على أن نكتب لبعض كل يوم . .

وقد بدأنا نكتب بحماس فعلا خطاباتنا من يوم لآخر – ثم بدأت أنا أهمل الرد . . ولا أدرى ماذا حدث لى بالضبط – ولكن وجدت نفسى أتجاهله . . وشعرت بحبي يبرد ويفتر – وبينما كانت خطاباته تنهال على تسأل . . وتسأل . . كنت أنا . . ولا هنا . .

ولا تتعجب . . فأنا ذاتى متعجبة من نفسى أكثر منك .

لا . . لا يوجد هناك رجل آخر . . ولم أنشغل بأى علاقة أخرى . .

وحينما رجع لم أفكر فى مقابلته . . ولم أرد عليه حينما طلبنى بالتليفون . . ماذا غيرنى إذن . . سأقول لك الحقيقة . . إنه خوف . . خوف شديد . . رعب من شىء اسمه الزواج . . .

أنا أخاف الزواج . . وأرتعد منه . . وكلما سمعت عن صديقة تزوجت أكثرت من زيارتها لأعرف نتيجة الزواج . . فأراها تتندم على أيام زمان . . أيام الحب . . والحرية . . والجرى . لم أر فى حياتى إنسانة سعيدة بزواجها . . أختى أتعس مخلوقات الله مع زوجها البخيل . . أمى هى المسيطرة على البيت وأبى يخشاها . . صديقاتى يتأففن من أعمال

البيت والمسئولية والأولاد والطبيخ . . أغلب الأزواج يخونون زوجاتهم والزوجات يجاوبن بالمثل . . واسألني أنا فقد رأيت كثيراً منهن يحاولن محاولات مستميتة مع أخي . .

أرجوك . لا تقل لى تزوجيه . . فكلما اقترب موعد الزفاف أشعر أنى أكرهه . . أكرهه . .

ماذا أفعل . .

هل سيكون معنى هذا أن أعيش طول عمرى بلا زواج . .

وهل هذا ممكن . . أم أن هناك حلا ؟ ! . .

* * *

الشطة حراقة ولكننا نأكلها ونحبها . . والحياة شاقة وصعبة ولكننا نتمسك بها . .

لا يوجد واحد لم يلعن الحياة . . ولكننا مع هذا نعشق الحياة ونتعلق بها ونستميت فى التعلق بها . .

لا تصدقى ما يقوله المتزوجون . . إن كل شكاوى المتزوجين كذب والمتزوج هو أول من يتزوج مرة ثانية إذا ماتت زوجته .

والخيانة الزوجية نادرة . . وإذا كانت تبدو لك مألوفة ومنتشرة . . فذلك لأن الروائح الكريهة من صفاتها أن تفوح وتنتشر ويكثر حولها الكلام . . أما الزواج الناجح والعلاقات السوية . . والبيوت الشريفة فلا يسمع عنها أحد ولا يتكلم عليها أحد . . ولهذا يخيل لك أنه لا يوجد فى الدنيا شرف .

والإنسان من طبيعته الشكوى وعدم الرضا بالواقع . . ولهذا فإن المتزوجة التى اشتكت من زواجها . . لو أنك قابلتها وهى بنت لاشتكت لك من وحدتها وتعاستها ومن أنها لم تجد ابن الحلال الذى ترتاح إليه وتتزوجه .

ومشكلتك الحقيقية . . أن عندك عقد المثقفات المترفات . . القلق . . والدلع . . والملل . . والضجر من كل شئ بسرعة . .

وأحسن علاج لك هو معاملتك بقسوة . . لو أن خطيبك هجرك . . ولم يسأل فيك . . وكان أقوى منك فى شخصيته وإرادته . . لجريت خلفه تتمسحين به كالقطة .

اشرب

أنا واقع فى مشاكل لا أول لها ولا آخر . . وكلها بسبب تفكيرى فى الزواج . . ولأبدأ من أول القصة . .

أنا موظف مرتبى محدود أساعد به وأمى وأخى العاطل فى معيشتهم . . صارحت أبى برغبتى فى الزواج فتطوع مشكوراً هو وأمى فى البحث عن عروسة . .

وبعد شهور من البحث جاء لى بفتاة قال لى إنها ستكون رفيقة العمر التى ليس قبلها ولا بعدها . .

ونزولا على رأى والدى واختياره خطبت الفتاة وشبكتها . . وبعد شهور من الخطبة بدأت الخلافات تدب . . فوالدى يشترط على الفتاة

أن تعيش معنا فى عيشة واحدة . . فى الغرفتين اللتين تسكنهما العائلة . . ننام نحن فى غرفة . . وتنام بقية العائلة فى الغرفة الثانية . . ولم تقبل الفتاة . . وردت الشبكة ومقدم الصداق . . واعتبرت أنها نجت بنفسها من مصيبة . .

وكعادة والدى . . أشاح بذراعه بلا مبالاة . . وقال لى . . ولا يهمك النسوان على قفا من يشيل . .

وذهب يبحث وينقب . . ويسأل ويستقصى . . ثم عاد ومعه عجوز غنية وارثة وشكلها على قد الحال . . وقال لى . . هى دى اللى حاتريحك . . وحاتريشك . . ولية كبيرة ومجربة وتعرف مزاجك . . وحاتفرح بيك . . شاب صغير وأفندى موظف تملا عليها البيت . . وربنا يتوب عليك م الفقر اللى أنت فيه . . يا لله يا شيخ اتكل على الله . . يعنى حا تاخد إيه م الصغيرة . . ما هو كلهم فى الضلمة زى بعض . .

وهذه المرة خطبت وشبكت وكتبت الكتاب فى نفس اليوم . . واعتبرت أن الأمر غنيمة يحسن التعجيل بها على حد قول السيد الوالد وبدأت المشكلة . .

والمشكلة هذه المرة آثارها الناس . .

الناس اتخذوا من زواجى موضوعاً للتريقة . . ومادة للتلقيح كلما شاهدونى فى طريق أتأبط ذراع الست . .

حلاوتك يا بو طقم سنان . .

سلامتك م الكحة . .

نجيب لك لزقة . .

يا شيخ روح هات لها كفن . .

يا رب خليكي يا جدتي . .

والنتيجة طبعاً أنى بدأت أعانى من حالة عصبية ظلت تتفاقم يوماً بعد يوم حتى وجدت نفسى فى أحد الأيام أرسل لها ورقة الطلاق غيابياً . .

وبالطبع كانت صدمة للزوجة تلقتها فى ذهول . . لم تصدق أن هذا الرجل الجربان الذى تنفق عليه يمكن أن يتجرأ ويطلقها . . هى بنت الناس وصاحبة الجاه . . واشتكتنى فى المحكمة . .

وثار والدى وتبرأ منى . . واعتبرنى نذلا . .

وكانت خصومة استمرت شهوراً . .

واختفيت مدة . . وكنت أتلقى إعلانات الحضور للمحكمة فى خوف وخجل وإحساس بالذنب . . وكنت أقتطع من مرتبى الصغير لأدفع للمحامى ووكيل المحامى . . ووقعت فى أزمة . .

وكالعادة انتهت المشكلة وتصالحت مع أبى لتبدأ القصة من جديد . . فقد راح أبى يبحث لى عن زوجة ثالثة . .

وكانت الزوجة الثالثة طيبة جداً . . لم تشترط مهراً ولا شبكة ولم تسأل أين سنذهب بها . .

وعرفت بعد الزواج . . أنه لم يكن هناك ما يدعو لأن تسأل وتشترط وتطلب . . فهى من عائلة فقيرة دقة . . تسكن فى حارة سد فى غرفة واحدة . . يبقى حا تسأل على إيه . . ؟!

وهى بالطبع قانعة . .

ولكنى غير قانع . . وتعبان . . ولا أفهم كيف تزوجت . . وكيف طاوعت أبى كظله فى هذه الزيجات الثلاث . . وكيف لم يكن لى رأى . .

الشعور بالذنب يطاردنى باستمرار . . وشعور آخر بأنى لا أستطيع المضى فى هذا الزواج . . ولا أستطيع التمثيل على نفسى للنهاية . .

أريدك أن تجد لى مخرجاً علماً بأنى لا أستطيع العودة إلى الزوجة الثانية . . ولا الأولى . . ولا أستطيع أن أمضى فى هذه الورطات إلى ما لا نهاية . .

* * *

لا أفهم ماذا تقصد بهذه الورطات . .

فأنت على حد قولك موظف دخلك محدود تنفق منه على أب وأم وأخ عاطل وتعيش معهما فى غرفتين فأنت إذن من البداية لا تستطيع أن تفتح بيتاً . . وليست لديك مؤهلات الزوج . .

وإذا كانت هناك ورطة فهى ورطة الذين قبلوك وارتضوك على علاتك . .

وأنت فى كل مرة تبرر خطأك بطاعة السيد الوالد أو تريقة الناس . .

والحقيقة أن طمعك وليس والدك هو الذى ورطك فى الزواج بالغنيمة ولكنك تتمحك بالوالد وهى مماحكة لا تعفيك من المسئولية فأنت لست طفلا ولا قاصراً . . ولا فتاة عذراء . . ولا عذر لك فى أن تقول . . وأنا مالى أبويا قال لى اعمل كده ..

متأسف . . ليس لك مخرج عندى . .

من العدل أن تظل موحولا فى أعمالك . .

خبير بالنساء

أنا شاب ، سني ٢٠ سنة ، موظف ولى إيراد غير وظيفتى من أملاك قليلة تدر على إيراداً آخر إضافياً لا بأس به . . . أعيش حياة ميسورة ولى عربة ومشترك فى ناد رياضى . . .

أوازل الرياضة العنيفة . . . وأندمج فى عدة لعبات . . . والواقع أنى فى نفسى أعانى إحساساً شديداً بالوحدة . . . والخجل . . . والتردد . . .

اشتركت فى النادى وهويت الألعاب . . . لأبعد عن نفسى هذا الإحساس ولأندمج فى الناس وأخرج من وحدتى . . . وأكون علاقات . . .

ولكن مع هذا أشعر أنى ما زلت متحفظاً منطوياً بالرغم من كثرة أصدقائى . . . وبالرغم من طول الوقت الذى أقضيه فى حياة اجتماعية . . .

تعرفت على فتاة منذ سنوات .. وكانت فى تلك الأثناء مخطوبة . . .

وأذكر فى ذلك الوقت أنها هى التى شجعتنى على الكلام معها . . . وكانت حينما تلاحظ خجلى . . . تقول إن الفتاة من حقها أن يكون لها صديق ... وكل رجل من حقه أن تكون له صديقة.. وإن الصداقة علاقة رفيعة ... وإن صداقة المرأة لرجل لا يمكن أن تكون فيها خيانة لزوجها ، لأن الصداقة شىء آخر غير الحب . . . وأنها مثلا تحب خطيبها ومع هذا تشعر بشعور الأخوة والصداقة نحوى . . . ولا تجد أن فى هذا الشعور ما يشينها .

والحق . . . لقد أعجبتنى عقليتها جداً . . . وكنت أرى فيها مثال الفتاة العصرية النموذجية . . .

وبحكم اشتراكها فى النادى معنا — فقد كنت ألتقى بها كل يوم . . . حيث نلعب معاً التنس . . . والبنج بنج . . . ونشرب الشاى ونأكل الساندويتشات . . . ونثرثر فى مواضيع لا نهاية لها . . .

ولم أشك يوماً فى طبيعة إحساسى نحوها . . . فقد كنت أكن لها الصداقة والأخوة والود والعاطفة الرفيعة المنزهة من أى غرض . . .

وحدث بعد هذا أن تزوجت . . . وكان زوجها موظفاً فى إحدى البلاد العربية . . . وكان يتغيب معظم وقته عن القاهرة بحكم عمله . . . فاستمرت علاقتنا بعد الزواج كما هى . . .

وظلت على مواظبتها فى الحضور كل يوم للنادى . . .

واستمرت صداقتنا . . .

وكان يحدث أحياناً أن نذهب إلى سينما . . . حيث نقضى الوقت نتناقش فى الفيلم ونعلق على ما نراه .

ولم يكن يتطرق إلى ذهنى فى أى مناسبة أن أغازلها أو أظهر لها الحب، فقد كانت مشاعرنا فوق مستوى الشبهات . . .

ولهذا سرنى كثيراً فى أحد المرات أن رأيتها تطلب منى خمسين جنيهاً سلفة . . . فقد شعرت أنها تعتبرنى بالفعل صديقاً تثق فيه وتحترمه وتلجأ إليه وقت الشدة . . .

وحينما اقترحت بعد هذا أن تقسط لى المبلغ على أقساط رفضت أن أتحدث فى الموضوع . . . واعتبرت أن المسألة منتهية . . . وأن ما تحتاجه لها أن تأخذه من جيبى بدون حساب وكأنى أخوها . . . أو كأنى نفسها . . .

وقلت لها إن هذا سوف يدخل على قلبي السرور . . ويشعرنى باحترامى لنفسي وبثقتى بعلاقتنا . . والواقع أنها لم تتردد بعد هذا فى أن تطلب منى دفعات أخرى من خمسين . . وخمسين . . وعشرين جنيهاً أخيراً . . وكنت أبادر بالدفع بسرور وسعادة .

والحق أنا لا أكذب عليك أنا كنت أشعر بسرور بالفعل وأنا أرى علاقتنا تتوطد . . . وأرى أنها تكاشفنى باحتياجها للمال من وقت لآخر . . . وأنى أنا . . . وأنا بالذات أكون الصديق الذى يسارع إلى مساعدتها . . .

هل هذا حب . . .

لك أن تسميه كما تشاء . . . ولكنى متأكد أن مشاعرى لها لم تتلوث لحظة واحدة . . . وظننت حتى هذه اللحظة أنى أبادلها المشاعر الرفيعة . . . والصداقة الروحية التى لا يدنسها دنس . . .

ولا أنكر أنى أصبحت الآن فى حاجة إليها أكثر مما هى فى حاجة إلى . . . ولهذا أصبحت أشعر بسرور خفى كلما ارتبطت بى برباط الحاجة المادية . . . وأشعر أنها أصبحت ملكى أكثر وأكثر . . . وهو شعور خبيث ... يخجلنى أن أشعر به . . . ولكنها الطبيعة الإنسانية . . . والطبيعة الإنسانية كما تعلم لا تخلو من الشرور . . .

أصدقائى يقولون لى . . . إنها تستغلنى . . . وإنى رجل خيالى . . . ولكنى أعتقد أنى رجل خبير بالطبيعة الإنسانية ... ولو أنها كانت امرأة من إياهم لتهورت فى علاقتها معى لتستغلنى أكثر . . . ولتضمن احتياجى لها أكثر وأكثر . . . ولكنها طوال علاقتنا كانت مثالا للشرف والعفة والأخلاق

الكريمة . . . وهذا ينفى فى نظرى أى شبهة للاستغلال . . . فى حدود فهمى للطبيعة الإنسانية على الأقل وإلا إيه .. ما رأيك أنت ؟

* * *

الحقيقة أن فهمك للطبيعة الإنسانية . . . هو اللى ضيعك . . .

ولو أنك فكرت شوية فى الموضوع . . . وفى الطبيعة الإنسانية اللى مغلباك . . . كنت وجدت أن صورتها التى تظهر بها أمامك . . . وهى صورة المرأة العفيفة الشريفة النظيفة المحترمة التى لا تشعر إلا بالمشاعر الرفيعة والخلجات الروحية الطاهرة . . . الصورة دى هى الصورة الأقرب إلى الاستغلال . . . لأنها الصورة التى رفعت سعرها فى نظرك ... وجعلت المبالغ التى تطلبها خمسين جنيهاً فما فوق . . . أما مهورها . . . فإنه لم يكن ليرفع سعرها بل على العكس يخفضه إلى شلن . . .

والدليل الآخر أنها امرأة متزوجة اختارت للزواج رجلا يعمل فى وظيفة بالبلاد العربية ويتغيب أغلب الوقت عن القاهرة . . . ووظائف البلاد العربية كما هو معروف وظائف مجزية . . . ومرتباتها لا تقل عن مائتى جنيه فى الشهر . . .

ومعنى ذلك أن اختيارها للزوج كان اختياراً مبنياً على نفس العقلية المادية . . .

ومع ذلك فهى تبتز منك مائة وسبعين جنيهاً فى شهور . . . ليه . . .

خلجات روحية . . . ومشاعر رفيعة برده . . .

فى الواقع أنا مش شايف روحية فى الموضوع أيضاً . . .

وخصوصاً أن الصديق الذى اختارته خلجاتها الروحية . . . وهو

سيادتك . . . صديق مليان مادياً . . . وعلى نياته . . . وإلا إيه . . .
وإلا حاترجع تانى لحكاية خبرتك بالطبيعة الإنسانية . . . على كيفك . . .

عذراء اسمها محمد

أنا وحيد والدى ووالدتى . . . عائلتى غنية . . . وكل ما أطلبه أحصل عليه فى الحال . . . وبالرغم من هذا الدلع يعذبنى الإحساس بالمسئولية .. وأشعر بالذنب حينما أرسب . . . وأبكى كثيراً . . .

وأنا أتلقى دروسى فى مدرسة إعدادية خاصة . . . وقد رسبت فى السنة الماضية . . . وبكيت كثيراً وأفضيت لأبى برغبتى فى ترك المدرسة والاشتغال بأى شغلة . . . ولكنه رفض . . . وقال وهو يضحك . . . ولا يهمك . . . اسقط على كيفك . . . أوع تزعل نفسك . . . خد فلوس زى ما انت عايز . . . احنا فلوسنا كتير والحمد لله . . . نشتغل ليه . . . ونتعب نفسنا ليه . . .

وذات يوم سافر والدى إلى بلدنا بالواحات للزيارة وحينما حضر فاجأنى برغبته فى أن أترك الدراسة . . . ليه يا بابا . . . ده السنة فى آخرها والامتحان قرب . . .

ولكنه رفض وقال لى أنت مخطوب من الآن وستتزوج بعد العيد مباشرة .

وكان لهذا الخبر وقع الصاعقة على نفسى فإذا لم أتجاوز الخامسة عشرة بشهور قليلة وطولى ١٥٠ سنتيمتراً . . .

وتعجبت . . . وانعقد لسانى من الدهشة . . . وأخذت عيناى

تتوسلان لأبى بالدموع . . . وأخذت أبكى وأرجوه أن يقلع عن فكرة زواجى . . . فى هذا قضاء على مستقبلى . . . ورحت أستعطفه وأستقدم الوسطاء ليستعطفوه . . . لكنه ظل يرفض بشدة . . . ويقول . . . يابنى أنا عاوز أفرح بيك . . . وأشوفك متجوز ومخلف قدامى . . . وعيالك يلعبوا حواليه . . .

قلت له كيف أعول زوجة وأنا غير قادر على إعالة نفسى . . . فقال وهو يضحك . . .

عيب يا بنى تقول كده . . . أمال أنا فين . . . أنت مالكش دعوة .. اطلب الفلوس اللى انت عايزها . . . أنت وزوجتك وعيالك ملزومين منى أنا . . . فيه حد يلاقى الراحة ويدور على التعب . . . خيرنا كتير يابنى والحمد لله . . . ايه لازمة الشقا . . .

وفشلت كل محاولاتى فى منع الزواج . . . وهو مصر على إتمامه قبل العيد . . .

ماذا أفعل؟ . .

* * *

من الواضح أن أباك يعاملك كالبنت العذراء القليلة الحيلة . . . مش مهم تسقط أو تنجح ما دام آخرتها البيت . . . ومش مهم تشتغل ما دام ربنا يطول عمره بيديها المصروف . . . وما يصحص تقول لا . . . ساعة ما يجيها ابن الحلال . . . عيب . . . بابا عاوز يفرح بيها . . . ويشوف ولادها وولاد ولادها بيجروا حواليه ويملو عليه البيت . . .

والمشكلة ليست فقط مشكلة دلع . . . ولكنها مشكلة إهدار كرامة رجل تماما . . . وإهدار حقه فى أن ينضج ويفلح وينجح ويستقل

بحياته . . . وإهدار حقه فى أن يحب ويختار شريكة حياته . . . ويعيش الحياة كما يحب أن يعيشها . . .

إن أباك يريد أن يعيش حياته ويعيش لك حياتك أيضاً . . .

إنه حريص على أن يفرح بك أكثر من حرصه على أن تفرح أنت بنفسك . . . وهذه أنانية فظيعة وليست حناناً . . . إنه يريد أن يحرمك من إحساساتك بذاتيك . . . فى سبيل إحساسه هو بذاتيه وبأنه رجل غنى قادر على فتح بيوت وبيوت . . .

تمسك بموقفك بدون دموع وبدون توسلات . . . لتكن دماغك ناشفة كالحجر . . . وعزيمتك ماضية كالحديد . . . فأنت رجل . . .

عش حياتك كما تريد أنت أن تعيشها . . . فأنت لا تملك إلا حياة واحدة . . . وإذا أعطيت هذه الحياة لوالدك فلن يبقى لك شىء . . .

حب غريب

أنا أدخل اليوم فى عامى الثامن والعشرين . . .

منذ عشر سنوات وأنا أتعذب بحب صامت أحترق فيه وأذوب وحدى دون أن يعلم بى حبيبى . . .

وحبيبى فى الستين . . . لا تدهش ولا تمصمص شفتيك فى سخرية . ولا تقل عنى مراهقة . . . أو خيالية . . . فهذا الحب هو الحقيقة الوحيدة فى حياتى . الحقيقة التى تملؤنى وتصهرنى معها . . .

هذا الرجل فى الستين . . . الذى تنظر إليه على أنه عجوز فى خريف أيامه . . . هذا الرجل كان دائماً ربيع أيامى . . . كان شبابى . . . وكان

قلبي لا ينبض إلا له . . .

وقد نشأنا فى جيرة واحدة . وكان صديقاً لعائلتنا . وقد تزوج وأنا فى السابعة عشرة وكنت أنظر إلى زوجته بحسد . . . وكنت أعيش على خياله وأنام على خياله . وكنت أتمنى لو ماتت زوجته ليصبح لى من جديد كما كان دائماً . . .

وقد ماتت زوجته فعلا ومات معها طفلها الوحيد . . . وعاد حبيبي يعيش منفرداً فى بيته الكبير . . . يطوى ضلوعه فى حزن دائم . . . وتبلل عينيه دموع حائرة تأبى أن تنزل .

وفهمت أنه يعيش فى ذكرى حب واحد هو حبه لزوجته . . . وأنه يحفظ لها إخلاصاً لا يموت . . .

وكتمت حبي فى نفسى . . . وحاولت أن أنساه . . . ولكنه كان يشتعل ويتأجج فى قلبي كلما رأيته بعينيه الواسعتين الحزينتين . . .

وكان من عادته أن يتجول فى الحديقة فى الصباح ومعه كلاب الصيد التى يقتنيها . . . وهو لا يهوى فى الدنيا إلا أربعة أشياء . . . كلاب صيده والكمان التى يداعب أوتارها فى أوقات فراغه . . . وصور زوجته ومهنة الهندسة التى يزاولها . . . أما أنا فلا مكان لى فى حياته . . . إنه لا يشعر بوجودى . . . لا يرى أنوثتى الفاضحة ولا يحس بجمالى ولا يدرك عاطفتى المتأججة نحوه . . . وأنا فى اليأس الذى أعيش فيه وأمام حبه المتفانى لزوجته الراحلة لا أجد الجرأة على مصارحته . . .

تقدم للزواج بى كثيرون وأتيحت لى فرص للزواج لا تتاح لفتاة فى دمشق رفضتها جميعاً . . . لأنى لا أريد أحداً سواه . . .

أنا زوجته أمام الله وأمام قلبي .. وسأطوى ضلوعي على سرى وأعيش وأموت له . . .

لعلك تقول . . . لا بد أنها قبيحة لا أمل لها فى أن يحبها أحد ولهذا خلقت لنفسها هذا الوهم لتعيش فيه .

ولكن الحقيقة المؤسفة . . . أنى جميلة . . . ومثقفة . . . وأحمل دبلوماً عالياً فى اللغة الفرنسية . . . وأجيد العزف على البيانو . . . ومعشوقة من الجميع . . . وعائلتنا ذات مركز مرموق . . . وأعيش فى مجتمع ينظر إلى فى حب واحترام . . . ولكننى لا أشعر بهذا المجتمع . . . لا أشعر إلا بشىء واحد هو حبيبى . . . بيننا فارق فى العمر يبلغ ٣٢ سنة ولكنى لا أشعر بهذا الفارق . . .

إنه شبابى . . . وطفولتى . . . وحياتى . . .

ماذا أفعل؟ . . . أنا أتعذب . . .

* * *

هذه عاطفة غريبة . . . لو كان سنك ١٦ سنة لقلت هذه هى المراهقة بعينها . . . ولكن سنك ٢٨ سنة ولك خبرة واختلاط بالرجال . . . ومثقفة وحساسة . . . وفنانة . . . وجميلة .

لا شك أن الرجل فيه جاذبية . . . فهو وحيد يعيش مغترباً فى بيته مع كلاب صيده ومع آلة الكمان التى يبثها أشجانه ومع صور زوجته . . . فهو إذن عاطفى حنون رقيق فنان موسيقى القلب مثلك . . .

إن بينكما شيئاً يجمعكما . . .

ولكن ٣٢ سنة تفرقكما وهى كفيلة بأن تسحق أى عاطفة . . . وإذا

كانت عواطفك لم تسحق إلى الآن فالسبب أنك تشغلينها بخيالك على الدوام . . . أشك فى أن هذه عاطفة امرأة لرجل.. ربما كانت صورة من صورة عشقك لأبيك وهو عشق يظل مكبوتاً بحكم كونه محرماً حتى يجد علاقة مشروعة كهذه العلاقة فيظهر فيها . . .

ربما كان حباً . . .

إن الامتحان الوحيد لأمثال هذه العواطف هو الواقع . . .

إن زوجاً فى سن الستين لا يستطيع أن يقوم بوظائف الزوج فى أغلب الأحوال . . . وهو لن يكون أكثر من صديق . . . هل تكفيك هذه الصداقة وأنت كما تقولين ذات أنوثة فاضحة . . .

هل ترتوى الأنوثة الفاضحة بلمسة حب أفلاطونى . . .

أشك فى هذا . . . والزمان بيننا صارحيه وتزوجيه . . .

يشوقنى جداً أن أعرف مصير مثل هذا الحب فى الواقع . . . إنك على الأقل ستفهمين نفسك . . . وهو لن يخسر شيئاً . . . وأنا سأزداد خبرة . . .

معبود الأرامل

أنا شاب فى الخامسة والعشرين من عمرى ربيت فى بيت كله قسوة وشقاء فأنا لم أر أمى بل زوجة أبى فى أبشع صورها . . . وكنت أبدأ يومى بعلقة تنتهى بتمزيق ملابسى وحرق كتبى وأختم يومى بكنس المنزل ومسح السلم . . . وأنام على الضرب والشتم وأصحو على السباب والإهانة . . .

لن أطيل عليك . . . انتهت حياتى التعليمية ولم أستطع الحصول على

الثانوية العامة . . . ليس ذلك لكسل أو غباء منى . . . فالكل يشهد بذكائى ونبوغى وكنت طيلة حياتى الأول . . . ولكن إذلال زوجة أبى وقسوتها كسرا شوكتى وحطما عقلى وذكائى . . .

وعملت فى إحدى الوظائف المحترمة جداً بمرتب أكثر من عشرين جنيهاً . . .

لعلك تتساءل وماذا تريد إذن . . . صبراً . . . فإن تلك الوظيفة لم تكن إلا كالمرهم المسكن . . . مفعولها مؤقت . . . فقد كانت بعقد ستة أشهر . . . وينتهى العقد بانتهاء الستة أشهر . . .

وانتهى العقد وانتهيت أنا أيضاً معه . . . لم يعد لى عمل سوى التسكع فى الشوارع والتطلع إلى الفترينات والأكل كل يوم عند صديق . . . والمبيت عند صديق آخر . . .

وأحياناً كنت أبيت فى الحدائق . . . أو فى محطات سكة الحديد متظاهراً أنى أنتظر قطار الفجر . . .

وأخيراً قررت الرحيل من القاهرة . . . وفى فجر أحد أيام شهر نوفمبر الماضى قررت السفر إلى الإسكندرية . . . وبدأت السير من الطريق الصحراوى . . .

وسرت . . . وظللت أسير حتى شعرت بالتعب . . . فتوقفت وسط الطريق أشير للعربات لتحملنى معها . . . ولكنها كانت تمرق بجوارى دون أن تفكر حتى فى أن تهدئ من سرعتها . . . وساعتها كرهت الدنيا ومن عليها وتمنيت لو تدهمنى سيارة فأستريح . . .

وكان الليل قد حل . . . وكنت قد قطعت أكثر من خمسين كيلومتراً ،

وحل بى الجوع والعطش والتعب . . . فارتميت فى الطريق . . .
وسلمت أمرى لله . . . وفى تلك اللحظة مرت بى عربة فارهة تقودها سيدة .
وتوقفت العربة جوارى . . . ونزلت السيدة وحملتنى معها إلى الإسكندرية
وأخذتنى إلى بيتها . .

ومكثت راقداً ثلاثة أيام مريضاً بالحمى . . . وفى اليوم الرابع شفيت.
وأحضرت لى السيدة طعاماً وشراباً . . . وفى تلك الليلة . . . وتكرر
هذا فى الليلة التالية والليلة التى بعدها . . . وفى اليوم السادس
أعطتنى خمسة جنيهات وقالت لى . . . تيجى كل يوم خميس . . .
فكنت أذهب إليها وأمكث عندها الخميس والجمعة وأتركها يوم السبت...
وتعطينى الخمسة جنيهات . . . وتكرر هذا أسبوعاً بعد أسبوع. إلى أن كان
الخميس الماضى . . . حينما رفضت أن تعطينى نقوداً . . . وقالت لى . . .
إذا كنت عازر فلوس لازم تتجوزنى . . . وبشرط مؤخر صداق ألفين
جنيه . . . تصور ألفين جنيه . . .

نسيت أن أصف لك هذه السيدة .. . إنها فى الخمسين من عمرها ...
شكلها مقبول . . . وغنية جداً جداً . . . وشاذة . . .

هذه مشكلتى . . .

هل أتزوجها وأعيش طرطوراً . . . وماذا يكون مصيرى حينما
أفاجأ . . . وأنا زوجها بوجودها مع رجل آخر . . .

وماذا يكون مصيرى إذا تركتها وعدت إلى تشردى وبطالتى . . .
إنها تنتظرنى . . . انصحنى . . .

* * *

أنصحك يا أبو لمعة . . . أنك تبطل فشر . . . وأن تعالج فشلك بأسلوب آخر غير أن تنام على ظهرك وتحلم بأن مليونيرة غنية شاذة فى الخمسين . . . هبطت عليك من السماء . . . فى عربة فارهة . . . وطلبت منك القرب ونقدتك خمسة جنيهات ثمناً لرجولتك الفذة التى لا مثيل لها . . .

وليس أسهل عليك ولا أمتع لعقلك التعبان من وطأة الفشل أن يحلم أنك مهبط الوحى والفتنة للأرامل من صاحبات الملايين . . . وليس أسهل عليك من اختلاق المشاكل لتحتال بها على عذابك . . . ولكنى لا أجد داعياً لأن تحتال علينا أيضاً . . .

أفق لنفسك وحاول أن تستغل ذراعيك ... وهناك ألف مصنع جديد يفتتح فى عرض البلاد وطولها . . . فى حاجة إلى شبابك . . . ورجولتك . قوم شوف لك شغلة . . .

سر السعادة

أنا شاب فى الخامسة والعشرين . ولا أزال فى الجامعة . . . منظرى وشكلى جميل وهذا هو السبب فى تعاستى ومصائبى . . .

لنا جارة ولديها طفلان . . . زوجها كان متزوجاً بأخرى . وكان بطبيعة الحال يتغيب عنها بين يوم وآخر . . . وفى هذه الأيام كانت تحاول أن تتصل بى ، بالحديث على الباب بالمصادفة ثم بالخطابات . . . ثم بالمقابلة . . . وتكررت مقابلاتنا ثم بدأنا نتردد على دور السينما . ثم بدأت تدعونى إلى شقتها . . . وتسهل على الأمور وتهون على المغامرة .

وضعفت أمام إغرتها . وأمام شبابى وحرمانى ، وأصبح لقاؤنا فى شقتها وفى ليالى غياب زوجها عادة .

ولأعد قليلا إلى الوراء فى سنوات نشأتى . . . فقد كنت ملتهب العاطفة متدفق الحيوية ... وقد بدأت صباى بحب وحيد ملك على كل حواسى . ولكنى لم أستطع المضى فيه إلى نهايته الطبيعية بالزواج لأنى كنت لا أزال طالباً . وأمامى مستقبل .

وهكذا انتهيت إلى حالة من القلق والحرمان واليأس ألقت بى فى أحضان هذه العلاقة السيئة .

وكانت نتيجة هذه العلاقة أزمة من نوع آخر . . . هى الشك . . . الشك فى كل النساء . . . وكل الزوجات .

فأنا أتصور دائماً أنى سوف أتزوج . فتخوننى زوجتى . وأصبح طرطوراً أدخل البيت أشخط وأنطر وألقى أوامرى باليمين والشمال . . . ثم أخرج فترتمى زوجتى فى أحضان رجل آخر .

وتقول له أحبك . . . أعبدك . . . أنقذنى من زوجى . أنا أكرهه . لا أطيقه . هذا الزوج الذى سوف يكون أنا بالطبع .

وكبرت المسألة فى دماغى . فبدأت أتلفت حولى فى أهلى . وأنظر إلى أختى فى شك وريبة . ثم إلى أمى التى يبلغ عمرها خمسين عاماً . أصبحت أشك فيها هى الأخرى ، وأحاسبها حساباً عسيراً على خروجها وغيابها . . . وأسألها أين كنت . ولماذا ذهبت بمفردك . لازم تفهمى أنى مسئول عن العيلة . وخناقات لا تنتهى .

وهكذا تسممت حياتى . . . وتسممت أفكارى . . .

والآن . أنا فى عذاب مستمر . أريد أن أتزوج والشك يقتلنى .

قالت لى صاحبتى مرة . . . وهى معى : ماذا تفعل لو كنت زوجى واكتشفت هذه العلاقة . . . فقلت لها على الفور أقتلك ... والعجيب فى الأمر أنى أحتقرها وأكرهها . . . وأحتقر نفسى لأنى أضعف وأستجيب لإغرائها لمجرد ذلك الشىء الحيوانى الذى فى دمى .

ماذا أفعل . . . كيف أتزوج . وأتصرف كزوج طبيعى . وهل هناك أمل فى أنى سوف أكون فى أحد الأيام زوجاً طبيعيا . وكيف الخلاص من هذه العقدة ؟ . .

* * *

لكل شىء فى الدنيا ثمن . . ولكل خطأ عقابه الفورى . . وأفعال الطيبين لا تذهب عبثاً . إنهم يكافأون عليها مكافأة فورية . . . بسعادة القلب واطمئنان البال .

وأمثالك الذين يعيشون فى تلذذ مسروق مختلس من بيوت الناس . . . يفقدون راحة بالهم ويأكلهم الشك .

إنها ليست عقدة . . . إنها مقابل طبيعى للفعل .

إنه فعل خال من الاطمئنان فى جوهره وطبيعته . فعل يسيطر عليه الخوف والقلق . . . وهو لهذا يلد الشك وسوء الظن .

ليست فى المسألة عقدة .

إن الراحة والاطمئنان والسعادة. لا يمكن أن تنشأ إلا بتحقيق الانسجام بين الإنسان وبين عواطفه وتفكيره . وأفعاله وظروفه .

حاول أن تحقق هذا الانسجام فى حياتك بالبحث عن امرأة تحبها ... بقلبك وعقلك وجسمك ، ولا تمارس معها الحب مع احتقار .

ملانكوليا

نشأت فى مدينة متوسطة من أبوين عصاميين . . . وأنا أصغر أبناء خمسة . . . ثلاث شقيقات متزوجات . . . وأخ فى الدرجة الثانية فى إحدى الوزارات . . .

وأنا فى العشرين من عمرى فى السنة الأولى من دراستى الجامعية ... مشكلتى أن هناك رغبة جنونية تستعبدنى وتذلنى . . . رغبة فى تحطيم أى شىء يقع تحت يدى . . .أحطم الأكواب مهما بلغ سمكها . . . أحطم الأطباق . . . والزهريات . . . أى قلم أمسك به . . . أغرس سنه فى الورقة وأحطمه مهما كان ثمنه . . . وأشعر بلذة وأنا أحطمه . . .

وحينما أقف فى طابور السينما أو الأتوبيس وأرى أمامى شخصاً . . . أشعر برغبة جامحة فى خنقه والانقضاض على رقبته بيدى . . . وفعلا ترتفع يداى فى حركة لاشعورية إلى عنقه . . . ولا أستطيع الخلاص من هذه الرغبة إلا بتحريك رأسى بشدة فى عدة اتجاهات لأبعد عينى عن المنظر كله ... وأحياناً أعمد إلى دفعه بيدى لأبعده عنى ... وقد أوقعه على الأرض ...وتحدث هذه الأشياء كثيراً وأنا مع أصدقائى مما جعلهم يبتعدون عنى . . ويقولون إن هزارى سخيف . . . وهم يظنون ما أفعله هزاراً . . .

أحب السرعة فى كل شىء . . . فى الأكل واللبس والمشى . . . أغير أصدقائى بسرعة . . . ولا أشعر برابطة وجدانية نحو أحد . . .

حاولت كثيراً أن أعرف سبب حالتى وعدت بذاكرتى إلى الوراء لعلى أجد سبباً فى طفولتى . . . ولكن طفولتى عادية . . . اللهم إلا ضخامة هيكلى العظمى التى كانت تخيف الأطفال . . . وضخامة

يدى . . . وضخامة كتفى ، وهم فى المدرسة يسموننى الكتف الحديدى .

وفى العام الماضى حدث أن رفعت مائة كيلوجرام دون علم بوزنها ... وحاول المدرب إغرائى على التدريب . . . ولكنى لم أحفل به . . .

حياتى الجنسية عادية . . . فيما عدا إحساس شديد بالكراهية ينتابنى ونفور حاد من المرأة . . .

ولهذا السبب أرفض الزواج . . .

لى صديقة أحبها وأعبدها وتبادلنى الحب والعبادة . . . وهى صغيرة وجميلة وغنية . . . وأتمنى أن أتزوجها . . . ولكنى لا أجرؤ على اتخاذ هذه الخطوة خوفاً من انقلاب حبى إلى كراهية حينما أعاشرها زوجياً . . .

تنتابنى نوبات فجائية من الانطواء والعزلة والصمت . . . فأدخل غرفتى ولا أخرج منها يومين أو أكثر . . .

وقد يمضى يوم وليلة لا أتحرك من مكانى حتى تدخل أمى وتنتزعنى بالقوة من الكرسى الذى أجلس عليه متجمداً كالتمثال . . . لكى آكل ...

أين كان عقلى . . . وكيف سكنت معدتى لم تصرخ طالبة الطعام. . .

إن حالتى تتدهور بسرعة . . . وأنا الآن أتجنب ركوب التاكسى خوفاً من أن أنقض على السائق وأخنقه دون أن أدرى . . .

ذهبت إلى أطباء نفسانين . . . وحاولوا علاجى بالجلسات والإيحاء بلا فائدة . . .

أرجوك أنقذنى. . .

* * *

إن الطب النفسى لا يكفى لعلاجك . . .

أنت فى حاجة إلى طبيب أمراض عصبية . . . وعلاج منتظم فى مستشفى . . .

إن حالتك . . .حالة مرضية معروفة اسمها الملانكوليا . . . والمريض فى هذه الحالة يعانى من رغبات متسلطة . . . ونوبات حادة من الانطواء والسكون والامتناع عن شىء حتى عن الأكل . . .

وهذه الحالة قابلة للشفاء بشرط المبادرة إلى الذهاب إلى مستشفى مختص . . .

جنون الغيرة

أنا شاب عمرى ٣٠ سنة متزوج من سنتين . . . وزوجتى مدرسة بمدرسة الراهبات . . . والشىء الذى لا يعرفه أحد أنى أعيش فى عذاب الغيرة . . . طوال السنتين وأنا أكتوى بنار الغيرة . . .

زوجتى ليست جميلة . . . ولا خفيفة الدم . . . بل هى عادية جداً جداً . . . وظاهر تصرفاتها يوحى بالثقة . . . وسمعتها حسنة . . . ليس عندى شىء أمسكه عليها . . . ومع ذلك أنا أشك فيها . . . الشك ينهشنى . . . والغيرة تأكل قلبى . . .

إذا ركبنا أتوبيس أقف بجوارها وأحملق فى كل شاب فى ريبة، وإذا رأيتها تنظر حولها هنا أو هناك أغتاظ ويغلى الدم فى رأسى وأشعل سيجارة وأروح أنفخ فيها . . . ولا أجرؤ أن أجاهرها بشكوكى . . . وإذا حضرت من عملى ووجدتها واقفة فى البلكون أغتاظ . . . وإذا رأيتها تلبس فستان ديكوليته مفتوح شوية أصاب بالجنون . . . ولكنى أكتم جنونى وغيظى ولا أصارحها حتى لا تقول لى متأخر ورجعى . . . ولكنى ألاحظ أنها تأخذ بالها . . .

وإذا حضر زوار لإخوتها ، فى البيت وأخذوا يروحون ويجيئون شعرت بالضيق مع أننا وحدنا فى غرفة بعيدة .

وإذا وجدتها سرحانة ومش واخده بالها . . . وكلمتها فنظرت إلى فى شرود . . . أغضب فى نفسى . . . وأنام بلا عشاء . . .

وإذا ذهبنا إلى مكان ما للسهرة . . . وكان حولنا شبان أظل أتململ طول الوقت . . . ولا يعاودنى هدوئى إلا إذا رجعنا إلى البيت . . .

وإذا ضحكت فى الطريق أتلفت حولى لأبحث عن الرجل الذى ضحكت له . . . وإذا عبست تنتابنى الوساوس والظنون . . . ويظل عقلى يختلق الظنون المتعبة . . .

وهى الآن حامل . . . ولكنى أشك أحياناً فى الجنين الذى تحمله ... أشك فى أنه قد يكون من رجل آخر غيرى . . .

أنا أعيش فى عذاب . . .

ولكن ماذا أفعل ؟ . . وأنا أحبها . . . أعبدها .

* * *

أنت لا تحبها . . . أنت تحب نفسك .

أنت تحتقر زوجتك وتعاملها كما لو كانت من ممتلكاتك .. كما لو كانت تابعاً بلا حرية وبلا إرادة . . لاحق لها فى أن تنظر إلى اليمين أو إلى اليسار . . . أو تضحك . . . أو تعبس . . . وأنت لا تكتفى بامتلاك جسمها وإنما تريد امتلاك روحها .

وسبب جنونك هو شعورك بالنقص وبأنك غير كفء وغير قادر على الاحتفاظ بها . . . وأنه لا وسيلة للاحتفاظ إلا بالعنف والتحكم

والضغط واللجوء إلى الحق الشرعى . . . ومواجهتها بصكوك الملكية . . . ولكنك لا تجد حتى الشجاعة فى هذا . . . ولهذا تجن . . . وتكتوى بالنار وتغتاظ . . . وتكتم فى نفسك .

وحينما تراها تضحك فى الطريق ... تتلفت حولك لتبحث عن الرجل الذى ضحكت له ، لأنك لاتتوقع ولاتنتظر أن يكون هذا الرجل هو أنت... أنت فى نظر نفسك تافه . . . لا تستحق أن تحبك حتى زوجتك .

إن العقدة فى نفسك . . . وإذا لم تتغلب على هذا الشعور بالنقص فإن زواجك سيفشل . . .

إن زوجتك لن تحترمك لأنك لا تحترم نفسك . . . ولن تعرف كيف تحبك . . . لأنك لا تعرف كيف تحب نفسك . . .

الحقيقة الخفية

أنا زوجة . . . وأعمل فى إحدى الشركات .

معى فى العمل شاب أعتبره أنا رجلا مثالياً جذبنى إليه بأدبه وذوقه ورقته فحفظت له أعظم تقدير . . . وكانت نظراتى إليه كلها نظرات إعجاب بشخصه حتى إننى كنت أمتدح أخلاقه المثالية أمام زوجى . . . إلى هنا والمشكلة تبدو طبيعية .

ولكن الواقع أن النظرات استمرت وتبعتها نظرات من جهته . . . نظرات طويلة وغير عادية .

وذات مرة سألت نفسى ماذا وراء نظراتى له . . .

إنى أحب زوجى حباً جماً وأقدس حياتى الزوجية ولا ينقصنى شىء

فى الدنيا . . . ورغم اشتغالى نصف يوم خارج بيتى فأنا لم أفكر مطلقاً فى إهمال شيء ببيتى أو زوجى . . .

وزوجى يحفظ لى كل حب ومودة وتقدير . . .

فما معنى هذه النظرات التى لا أستطيع أو أوقفها عند حد .

لماذا تعلقت به عينى إلى هذه الدرجة .

ولم أستطع الإجابة على هذا السؤال . . .

ولكنى كنت كلما نظرت إليه شعرت بالراحة والحنين . . . شعرت بأنه إنسان طيب أستطيع أن أتخذه صديقاً أحكى له مشاكلى وعذابى وآلامى . . .

ولكن هل هو كذلك ؟ . .

لا أعلم . . .

فإلى الآن . . . وبعد مضى حوالى عامين من النظرات الطويلة المتبادلة ... لم يفتح فمه بكلمة ... ولم يصارح أحدنا الآخر ... بدخيلة نفسه.

وفكرت فى معنى نظراته الطويلة نحوى . . . واكتشفت أنى لا أستطيع أن أعيش بعيدة عن هذه النظرات .

ولست أستطيع أن أصف لك هذه النظرات الحلوة ... مهما حاولت. فإنها شيء فوق الوصف ... نظرات كلها حنين وأنين وشجن وهمس وصراخ.

وأنا أحرص دائماً على أن أظهر له فى كل دقيقة أنى لا أهتم به ولا أفكر فى أى رجل سوى زوجى . . . ولكن فى أعماق نفسى أشعر إنى متعلقة به . . . مشتاقة إلى النظر إليه فى كل لحظة .

وقد فكرت فى هذا الوضع . . . وفى كونى زوجة . . . وفى الحرج

الذى أشعر به . . . ويشعر هو الآخر به .

وهو من ناحيته يحاول دائماً أن يبتعد عنى . . . ويتجنب الانفراد بى فى مكان . . . ويحاول أن يهرب . . . وكلما سنحت فرصة لنبقى معاً يشعرنى بأنه مضطرب ثم يسرع بالاستئذان . . . وفى اليوم التالى يحاول أن يظهر إهماله لى . . . ولكن نظراته تعود فتفضحه . . . نظرات كلها شوق ولوعة . . .

وهكذا تستمر المناورات بيننا . . . نقترب ونبتعد فى سلسلة من المحاولات اليائسة للهروب من المصير المحتوم . . . ولكن طول الوقت لا يبدو علينا شىء . . . لا شىء سوى مظهر الزمالة العادلة .. ويعلم الله ما بنفس كل منا . . . والآن أشعر أن مشكلتى تتفاقم بسرعة . . .

وأصبحت أمضى الساعات الطوال أفكر فيه وفى نظراته التى لم أعد أستغنى عنها .

ماذا أفعل وقد أصبحت أحب عملى فقط من أجل أن أراه وأنظر إليه ؟ . .

ما رأيك ؟ . .

* * *

من الواضح أنك لم تتركى لى فرصة للرأى . . . فأنت فى مواضع كثيرة من خطابك . . . تسبقينى . . . وتسبقين نفسك بوضع أحكام نهائية ترفض الجدل . . .

جذبنى أدبه وذوقه ورقته . . .

كلما نظرت إليه شعرت بالراحة والحنين وبأنه إنسان طيب أستطيع أن أتخذه صديقاً أحكى له عذابى وآلامى . . . ليه الآلام دى . . . وليه

العذاب ده كله . . . إنك زوجة وتحبين زوجك وزوجك يحبك وتقلسين حياتك الزوجية ولا شيء ينقصك فى الدنيا . . . كما تقولين .

واضح أنك تفتعلين هذا العذاب لتجعلى من نفسك ضحية مسكينة فى حاجة إلى النظرات الحنونة . . . المشتاقة . . . الولهانة . . . إلخ . . .

إنك تضعين حيثيات وهمية لتستحلى بعد ذلك أى شيء .

وهى نظرات . . . يوه منها . . .

أنا لا أستطيع أن أصف لك هذه النظرات الحلوة مهما حاولت فإنها شيء فوق الوصف . . . يا سلام . . . لا ياشيخة . . . نظرات كلها حنين وشجن وهمس . . . آى .

اكتشفت أنى لا أستطيع أن أعيش بعيدة عن هذه النظرات . . . طبعاً بعد كل هذا الإخراج . . . مش ممكن . . .

ماذا أفعل وقد أصبحت أحب عملى فقط من أجل أن أراه وأنظر إليه .

يعنى بتهدديني كمان . . . بأنك لن تستطيعى الاستمرار فى عملك . . . لو أنك تركتيه لحاله .

ناقص تقوليلى . . . حاترفدنى . . . وتقطع عيشى لو قلت لى سيبيه .

إن المشكلة قطعاً ليست مشكلة شاب فى محل عملك ينظر إليك .

إنك كامرأة متزوجة سوف تجدين فى كل مكان رجلا مستعداً للنظر إليك طول اليوم . . .

إن المشكلة هى مشكلتك أنت . . . ومشكلة رغبة مستبدة تنمو فى قلبك . . . خيانة زوجك . . . رغبة بدون سبب . . . فأنت تحبين زوجك وهو يحبك . . . مجرد تخريب . . . عبث . . .

والنهاية طبعاً معروفة . . .

نظرات طويلة متبادلة فى محل العمل . . . خبص عينى عينك . . . وفضيحة بجلاجل . . . وخراب بيوت . . . وسمعة طين . . .

وفى النهاية بعد أن تخسرى كل شىء . . . لن ينظر إليك حتى الرجل الذى أعطيته نفسك باحترام . . .

سيظل يتخيل نفسه فى مكان زوجك الذى خنته وأنت تحبينه . . . سيظل يشعر دائماً أنك من جنس لا أمان لعاطفته أبداً . . . وهكذا تفقدين كل شىء . . . كل شىء وتنتهين تماماً . . .

التعود

أنا موظف صغير فى الدرجة الثامنة . . . أقوم بمساعدة أهلى فى الريف بجزء من مرتبى وأعيش بالجنيهات القليلة التى تتبقى لى فى القاهرة ... فى غرفة بمفردى . . . وما زلت أعزب إلى الآن . . .

مضت على تعيينى ثلاث سنوات لم أدخر فيها شيئاً للزواج . . . تعرفت على فتاة منذ ثلاث سنوات تعمل حكيمة فى الدرجة السابعة بإحدى المستشفيات الحكومية . . . سمراء . . . ملفوفة . . . تكبرنى سناً بحوالى خمس سنوات . . .

كنت معها مثال الصديق المخلص طوال السنوات الثلاث من تعارفنا .

كنا نتقابل دائماً فى الخارج لنقضى الوقت فى أحد الكازينوهات أو إحدى دور السينما . . .

ثم حدث أخيراً أن دخلنا إحدى حفلات السينما التى تبدأ فى منتصف الليل وتنتهى فى الثالثة . . .

وخرجنا فى الساعة الثالثة لنواجه مشكلة . . . أين نذهب . . .

أنا لم تكن عندى مشكلة لأنى أعيش وحدى وأستطيع أن أعود وحدى فى أى ساعة من الليل . . . أما هى فلم تكن تستطيع العودة إلى بيت الحكيمات فى مثل تلك الساعة المتأخرة . . .

وفكرت . . . وفكرت . . . ولم أجد حلا . . . وأخيراً أخذتها معى إلى مسكنى، لتقضى به بقية الليل . . .

وأصارحك . . . بأننا قضينا هذه الليلة كما نتمنى . وعوضنا الثلاث سنوات التى كنا نلتقى فيها فى الخارج .

وتكررت هذه الأشياء. . . وأصبحت تتردد على منزلى . . . وأصبحنا لا نسأل عن سينما أو كازينو . . . فالمنزل أحسن بكثير . . . وكانت تبيت معى لأن عملها يخول لها ذلك . . . فهى حكيمة وعندها ورديات بالليل ... وأحياناً ورديات بالنهار . . .

وأخيراً فكرت فى الزواج منها وشجعتنى على هذه الفكرة . . . وقالت لى إنها ستساعدنى فى كل شىء . . . ولا داعى لأن أحمل هم التكاليف . .

ولكن عندى فى نفس الوقت أسباب تجعلنى أتردد . . . فهى ليست جميلة . . . وهى أكبر منى سناً . . . وهى فى الدرجة السابعة وأنا فى الدرجة الثامنة . . . وقد يدفعها هذا إلى أن تتصرف معى بغرور واستعلاء ، وأصحابى يقولون عنها إنها حكيمة ولها عمل ولن تكون متفرغة للمنزل ولا للزوجية . . . هذا زيادة على أن طبيعة عملها ومبيتها بالمستشفى تجعلها تفعل مع الأطباء والمرضى كما تفعل معى . . . وسوف تتأخر على كيفها ولن أستطيع أن أقول لها . . . كنت فين ؟

وهم يقولوا أيضاً إنها فى سنها الحالى وبعد أن فاتها قطار الزواج لا يهمها إلا أن تحصل على زوج أى زوج لتكون فى عصمة رجل . . . ثم تعيش بعد ذلك على كيفها . . .

ولكن الحقيقة الأكيدة التى أشعر بها . . . أنها تحبنى وتعبدنى . . . فى الوقت الذى أحبها أنا فيه بعض الحب فقط . . .

وأنا حائر . . . هل أتزوجها ؟

* * *

لا شك أنك بحالتك الراهنة . . . موظف فى الدرجة الثامنة وجزء من مرتبك يذهب إلى أهلك بالريف . . . تعتبر . . . عريس على قد حالك جداً جداً . . .

وسوف تكون فى حاجة إلى زوجة تعمل وتكسب لتعاونك . . . إذا فكرت فى الزواج . . .

وبإيرادك الحالى الذى لا يزيد عن سبعة جنيهات لن تجد من يرضى بك . . . بسهولة . . .

وإنها لنعمة من الله أن تجد امرأة تحبك وتعبدك ... وتحلم بالزواج بك . . . وفى نفس الوقت تحبها . . .

وحكاية الجمال كلام فارغ . . . لأن التعود يقضى على الوحاشة وعلى الجمال . . . والعين حينما تتعود على وجه وتألفه . . . يفقد هذا الوجه ما يثيره فى النفس. . . وتبقى الإنسانية والعشرة والأخلاق والحب والانسجام، وهى أشياء أهم من الجمال فى الزواج . . .

كلام فارغ . . . والذى أعلمه أن النساء العاملات أكثر عفة من بنات البيوت السجينات . . .

ورأيي إذا كانت شخصية صاحبتك تعجبك . . . أن تتزوجها . . .

الجزاء من نفس العمل

أنا ترزى سيدات بالإسكندرية . . .

تعرفت فى أحد الأيام بشاب فلسطينى من اللاجئين يغنى فى أحد الكباريهات . . . ودعانى صديقى لمشاهدة البرنامج . . . حيث عرفنى براقصة من زميلاته . . . وقدمنى إليها على أنى ابن عمه . . .

وأصبحت الراقصة زبونتى . . . وعن طريقها تعرفت بامرأة غنية فى السابعة والثلاثين من عمرها . . .

وقدمت نفسى للغنية الجميلة على أنى لاجئ فلسطينى مقطوع من شجرة وقدمت لى نفسها على أنها أرملة عراقى كبير ومن عائلة معروفة . . .

ونشأ بيننا حب جارف . . . شربنا كاساته حتى الثمالة . . . ونعمنا به جسداً وروحاً . . .

ثم اكتشفت فجأة أنها تكذب على . . . وأنها قواده مستهترة تتجر بالأعراض وليست أرملة عراقى وإنما هى أرملة كل الناس . . .

ولم أستطع مكاشفتها لأن حبى لها كان قد ذهب بى بعيداً . . . وعبر حدود العقل والمنطق . . . ولسبب آخر هو أنى أيضاً كذاب . فلست « لاجئاً فلسطينياً » . . . ولست مقطوعاً من شجرة . . . وإنما أنا مصرى . . وأبواى على قيد الحياة . . .

لقد كان كلانا صعلوكاً مغامراً .

ولا أدرى ماذا أفعل الآن . . .

أنا مخطئ وقد أوغلت فى الخطأ إلى حد تعذرت معه العودة إلى طريق السلامة . . .

* * *

سيدى . . .

اشكر أقدارك على أن ضحيتك ليست فتاة ساذجة . . . وإنما هى امرأة محتالة مثلك نازلتك بنفس سلاحك . . .

إن قصتك تذكرنى بما قاله ميترلنك عن العدالة . . .

إنك لا تقابل إلا نفسك فى طريق القدر . . . كن كاذباً تسرع إليك الأكاذيب . . . كن لصاً تتشبث بك الجرائم . . . فى أى طريق تذهب لن يكون قدرك إلا صورة من نفسك . . .

إن نهر الحياة الدافق ينساب تحت قبة السماء ويجرى بين حيطان السجون . . . وإلى جوار القصور وليس يعنينا حجمه ولا بريقه . . . وإنما كل ما يعنينا هو حجم الكأس التى نغمرها فى مياهه ... وإن هذه الكأس لتأخذ دائماً شكل أفكارنا ورغباتنا ... وتساوى سعة أشداقنا .

إن حظك من الحب عادل يا صديقى الصعلوك . . .والكأس التى تشربها تساوى سعة قلبك ولون ضميرك . . .

كلاكما طائران متشابهان وأسلم لكما وللمجتمع أن تظلا معاً إلى نهاية الطريق . . .

منافسة غير شريفة

توفى زوجى منذ عشرة أعوام . . . وكان عمرى حينذاك ثلاثين عاماً . . . تاركاً لى ثروة كبيرة وثلاث بنات أكبرهن فى العاشرة .

وكرست حياتى لبناتى حتى كبرن وتزوجت اثنتان إحداهما بمدرس فى كلية الهندسة . . . والثانية بدكتور كبير . . . أما الثالثة الصغرى فقد كبرت وأصبحت قمورة فى سن السبعتاشر .

وشاءت الأقدار أن تتعرف على شاب . . . وسرعان ما أحبته وشغلت به . . . وأصبح محور أحاديثها فى كل وقت .

وأنا تعودت دائماً ألا أتدخل فى شئون بناتى من ناحية اختيار الأصدقاء وفى العادة أكتفى بالإشراف من بعيد ولكنى حينما علمت أن هذا الشاب متوسط التعليم وأنه حاصل على التوجيهية فقط فزعت وخفت أن تنتهى هذه العلاقة إلى زواج فاشل غير متكافئ لا يليق بنا . . . وطلبت من ابنتى أن أتعرف عليه .

واجتمعت به فى النادى لأول مرة . . . وتركتنا ابنتى بعد فترة . . . وقضينا فترة نتحدث .

كلمنى عن حياته وآماله ومشاكله . . . وتكلم بصراحة مطلقة لم أعهدها فى شاب . . . تحدث عن ظروفه فى عدم الاستمرار فى التعليم وكيف أنه دخل كلية الآداب ونجح فيها لمدة عامين ثم خرج لأنه كان يحلم بأن يكون مهندساً . . . ولم يجد فى الدراسة الأدبية شفاء لأحلامه . . . وكيف أنه دخل الجيش وقضى فيه سنة ونصف سنة ثم خرج ... وكيف استقر أخيراً فى وظيفة محترمة بمرتب كبير . . . وكيف اقتضت منه

الوظيفة أن يسافر إلى عدة بلدان أجنبية ... وأن يتقن ثلاث لغات ...

وبتعدد مقابلاتى له بالنادى أدركت أنه يمتاز باطلاع واسع فى مختلف الثقافات . . . فى العلم . . . والأدب والفلسفة . . . وأن عنده مكتبة تضم حوالى الخمسمائة كتاب . وعرفت أن له شخصية قوية . . . ولم يكن هذا رأيى وحدى . . . فإن الكل كانوا يهابونه ويحترمونه . . . وأزواج بناتى كانوا يشكرون فى أخلاقه وسلوكه . . . فى الحقيقة اطمأننت إليه . . . وقلت فى نفسى . . . ما دام مركز محترم وصفاته حسنة وشاب مؤدب وفوق ذلك ابنتى تحبه . . . شجعت هذه الصداقة .

وأصبحت ابنتى لا تبتعد عنه . . . وتتصل به كل يوم فى التليفون . . . ويتقابلان كثيراً . . .

وكانت طول الوقت تحدثنى عن كل ما يحدث بينهما . . . ومن حديثها عنه كنت أشعر أنه ذو أخلاق كريمة . . . فهو لم يحدث أن عانقها أو قبلها بالرغم من أن الفرص كانت تواتيه وكان يحب ابنتى ويقدرها ويحترمها . . . ويحدثنى عن علاقة الرجل بالمرأة على أنها علاقة إنسانية قبل أن تكون علاقة جسد .

وبتوالى الأيام وحديث ابنتى عنه . . . كنت أحس باشتياق له وأنتظر موعد حضوره فى النادى أسبوعياً بلهفة شديدة . . . وتحول اشتياقى إلى حب جارف ملتهب . . . وكانت تؤلمنى نظرته لى كأم حيث إنه فقد والدته وهو طفل . . . ومع ذلك كنت أحبه وأعشقه وأتمناه زوجاً لى . . . ولم لا ؟ فهو الرجل الذى يستطيع أن يسد مكان زوجى . . . والشاب القوى الذى

لكن أنا سيدة فقدت زوجي فى الثلاثين والآن أشعر بالوحدة وسأكون وحيدة بعد أن تتركنى ابنتى الثالثة... وأنا أحبه ... وأعشق رجولته وشهامته.

وهكذا بدأت أفرق بينه وبين ابنتى حتى قطع رجله تماماً من البيت... ولكن الذى حدث كان أكثر من هذا . . . فقد قطع رجله من النادى أيضاً ولم أعد أراه . . . ولم يعد يتصل بى ولا بابنتى . . . وكدت أجن من الشوق والتفكير . . . ولازمنى القلق .

وأخيراً تشجعت وطلبته بالتليفون وقلت إنى أريده بالمنزل لمسألة هامة. وأخليت المنزل . .

وحينما دق الجرس ورأيته أمامى . . . فقدت أعصابى وألقيت بنفسى على صدره . . . وعانقته وقبلته قبلات كثيرة . . . كثيرة . . . لم أفق منها إلا على صفعة . . . لطمنى بها على وجهى وهو يبعدنى فى اشمئزاز وإنكار وأدار وجهه وخرج . . . وتركنى ذليلة مكومة على أريكة .

منذ تلك اللحظة وأنا أعيش فى صراع فظيع . . . وأفكر فى الانتحار وأفكر فى أنى حقيرة . . . ولكن ما ذنب ابنتى .

إن ابنتى تبكى ليلا ونهاراً . . . وهو لا يتصل بها . . . وهى تعتقد أنه سيخطب إحدى قريباته .. وهى لا تعلم الحقيقة ... ولا أجد عندى الجرأة لأقول لها الحقيقة . . .

ماذا أفعل ؟ . . .

إنى أتمنى أن يعود إلى ابنتى . . . ولا أمل لى أكثر من أن يعيش الاثنان سعداء معى . . . وأرى سعادتهما من حولى . . .

اكتب له ليعود . . .

إنه لن يعود . . .

إن الشهادة والرجولة والأخلاق . لايمكن أن تعود إلى أمثال هذه البيوت . . . البيوت التى يخليها أصحابها ، ويستدعون الرجال بالتليفون للخدمات المستعجلة .

إن ابنتك بريئة . . . ولكنها تعيش معك فى البيت . . . والبيت ينقل عدواه لمن فيه . . . ولا شك أنك كنت بريئة . . . وأنت فى سنها . . . وهذه البراءة لم تمنعك من السقوط فى سن الخمسين .

وأسوأ ما يخافه زوج شاب أن تختتم حياته الزوجية بشناعة . . . إن شناعة فى سن الخمسين أسوأ ألف مرة من سقوط فى سن العشرين . . . لأنها شناعة بائسة مخجلة ليس لها عزاء فيما تبقى من العمر .

الفريسة والصياد

أنا فتاة فى السادسة عشرة من عمرى . . . جميلة . . . وجذابة .

بدأت مشكلتى منذ حوالى سنة ونصف حينما كنت أعيش مع أمى..

لم يكن ينقصنا شيء فى حياتنا . فأمى امرأة غنية جداً ترك لها والدى قبل وفاته أربع عمارات ذات إيراد كبير وعربة أنيقة جداً . . . وكانت تنفق بإسراف على زينتها وأناقتها ومظهرها . . . وتعرفت أمى فى هذا الوقت على شاب فى السنة النهائية بكلية الآداب . . . وكان شاباً أنيقاً . . . وشرعت فى إغرائه بالفلوس . . . وبالثروة التى فرشتها تحت قدميه .

وكانت أحياناً تصحبه معها إلى البيت الذى نعيش فيه . . وتكرر تردده إلى البيت كثيراً .

وفجأة وجدت أمى تخبرنى بزواجها من هذا الشاب الذى انتقل إلينا وأقام معنا . . . وكان فى هذا الوقت قد تخرج من الكلية والتحق بعمل محترم .

ولاحظت أنه بدأ يتودد إلى وبدأ يعاملنى برفق وغزل .

وفى يوم كانت أمى فى الخارج . . . وجاء هو إلى المنزل وكنت وحدى فأخذ يلاطفنى حتى وجدت نفسى تحت تأثير كلماته المعسولة ملقاة على صدره وقد تلاقت شفتانا فى قبلات حارة ومنذ هذه اللحظة وأنا أحبه حباً كبيراً لا أقوى على مقاومته .

وأصبحت أنتظر اللحظات التى نختلى فيها بأنفسنا وأقسم لك أن علاقتنا لم تتعد القبلات والأحلام الجميلة واتفق معى على كل شىء . . . اتفق على أن يطلق أمى ويتزوجنى . وفعلا تم الطلاق . . .

وحتى هذا الوقت لم تكن أمى تعلم بشىء حتى فاجأتها بأنى سوف أتزوج من هذا الشاب الذى طلقها فجن جنونها وثارت وهددتنى بحرمانى من الميراث ورغم ذلك صممت على الزواج منه . . .

إنى أحبه . أحبه . أحبه . سنة كاملة وعدة شهور ونحن ننعم فى نشوة الحب .

وقد تعقدت المشكلة أخيراً حينما أخبر أهله بنية زواجه فهاجوا جميعاً ووقفوا حائلا ضده بحجة أن الشرع لا يبيح مثل هذا الزواج .

إنى أتعذب .

لم تكن جريمة أن أحب شاباً يقرب سنه من سنى حباً شريفاً خالصاً .

لقد اعترف لى أنه أخطأ بزواجه من أمى . . . وأن حاجته إلى الفلوس ،

فى ذلك الوقت هى السبب .

إننا نتعذب . . . ماذا نفعل ؟

* * *

تأكدى أن الشرع على حق . . .

إن الرجل الذى يشتهى الأم وابنتها فى نفس الوقت لا يمكن أن يؤتمن على كلمته أو على نظرته . . . إنه زائغ الشخصية . . .

وهذه حقيقة رجلك . . . إنه زائغ الشخصية . . . عينه زائغه بين فلوس أمك . . . وشباب ابنتها . . . وتأكدى أن عقله الطماع يرمى إلى مرام بعيدة . . . فهو يعرف جيداً أن أمك لا يمكن أن تحرمك من الميراث . . . وأنها مهما كانت قاسية فإنها سوف تلين فى النهاية وتعطيك حقك . . . وهكذا تقعين له كما تقع الفاكهة المستوية . . . جمال ومال . . .

إنه ينظر إليك بنفس المنطق الذى كان ينظر به إلى أمك . . . على أنك صيدة . . .

إن كل شخصية لها منطق يحكمها . . . والشخصية تغير سلوكها ولكنها لا تملك أن تغير منطقها . . . لأن منطقها هو جوهرها وروحها . . . وهذه روح صاحبك .

إنه رجل سيئ . . . تجنبيه . . . ليس بسبب الشرع فقط . . . وإنما لأنه إنسان كذاب . . . عواطفه كذابة .

دارالمعارف بمصر أصدرت حديثاً : مجموعة كبيرة من الكتب الثقافية ، من بينها :

اسم الكتاب	اسم المجموعة	المؤلف	ثمن النسخة
أبحاث مختارة فى القومية العربية		الأستاذ ساطع الحصرى	١٢٠ قرشاً
رحلة الربيع والخريف		» توفيق الحكيم	٤٠ »
مشكلة الانتحار	علم النفس	» مكرم سمعان	٩٠ »
سيكلوجية الإشاعة	» »	جوردون أولبورت ، ليو بوستمان	٦٠ »
جون لوك	نوابغ الفكر الغربى (١٦)	الأستاذ عزمى إسلام	٤٠ »
تطور النظرية التربوية	دراسات فى التربية	الدكتور صالح عبد العزيز شحاتة	٨٥ »
الأيـــام (جزء أول)	طبعة جديدة	الدكتور طه حسين	٢٢ »
قادة الفـــكر	» »	» » »	٣٠ »
على وبنـــوه	» »	» » »	٦٠ »
حديث الأربعاء (جزء ثان)	» »	» » »	٥٥ »
على هامش السيرة (جزء أول)	» »	» » »	٣٢ »
» » » (جزء ثالث)	» »	» » »	٣٢ »
ســارة	اقرأ (١٠٨)	الأستاذ عباس محمود العقاد	٥ قروش
شاعر الغـــزل	» (٢)	» » » »	٥ »
العودة إلى الإيمان		الدكتور ثروت عكاشة	٣٥ قرشاً
اللورد الصغـــير	شبابنـــا (١)	الأستاذ عادل الغضبان	٢٠ »
ملك الجبـــال	» (٢)	» » »	٢٠ »
قصة الفيزيـــاء		ترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندى	١٠٠ قرش

مؤسسة الأهرام

دار المعارف بمصر

أسست سنة ١٨٩٠

الدار العربية التى أسهمت طوال ٧٥ عاماً فى نشر الفكر العربى وتدعيم الوحدة الثقافية ببلاد العرب .

المركز الرئيسى :

١١١٩ شارع كورنيش النيل / القاهرة تليفون رقم ٧٢١٦٦، ٦٧، ٧٢١٦٨

فرع الفجالة :

٩ شارع كامل صدقى بالفجالة / القاهرة تليفون رقم ٩٠١٧٦٦

فرع شبرا :

١٠٥ شارع شبرا / القاهرة تليفون رقم ٤٩٨٦٦

فرع السيدة :

ميدان السيدة زينب / القاهرة تليفون رقم ٣١٦١٣

فرع الإسكندرية :

٢ ميدان التحرير / بالإسكندرية تليفون رقم ٢٣٥٨٨

٤٢ شارع سعد زغلول / بالإسكندرية تليفون رقم ٢٧٦٤٤

مكتب المنصورة :

شارع سلامة حجازى / المنصورة

فرع أسيوط :

٧ أشارع جلال الدين السيوطى / أسيوط تليفون رقم ٥٠٤

الوكلاء الوحيدون لها فى الخارج

فى جميع بلاد آسيا :

دار المعارف — لبنان

ص . ب رقم ٢٣٢٠ بناية العسيلى / ساحل رياض الصلح — بيروت

وتوكيلاتها فى :

المملكة الأردنية الهاشمية :

وكالة التوزيع الأردنية

تليفون ٩٧ ص . ب (٩٨) بالقدس

تليفون ٥٠٩١ ص . ب (٣٧٥) بعمان

العراق :

مكتبة المثنى لصاحبها قاسم الرجب — بغداد

قطر :

السيد عبد الله عبد الغنى وإخوانه ص . ب ١١١ بالدوحة/قطر / الخليج العربى

الكويت :

وكالة المطبوعات

ص . ب ١٠١٩ بالكويت

لدول شمال أفريقيا :

الجزائر — تونس — المغرب

دار الثقافة — بناية الغزاوى ص . ب ٥٤٣ بيروت / لبنان

ليبيا :

مكتبة الفرجانى

٥٣ شارع عمرو بن العاص / طرابلس / ليبيا

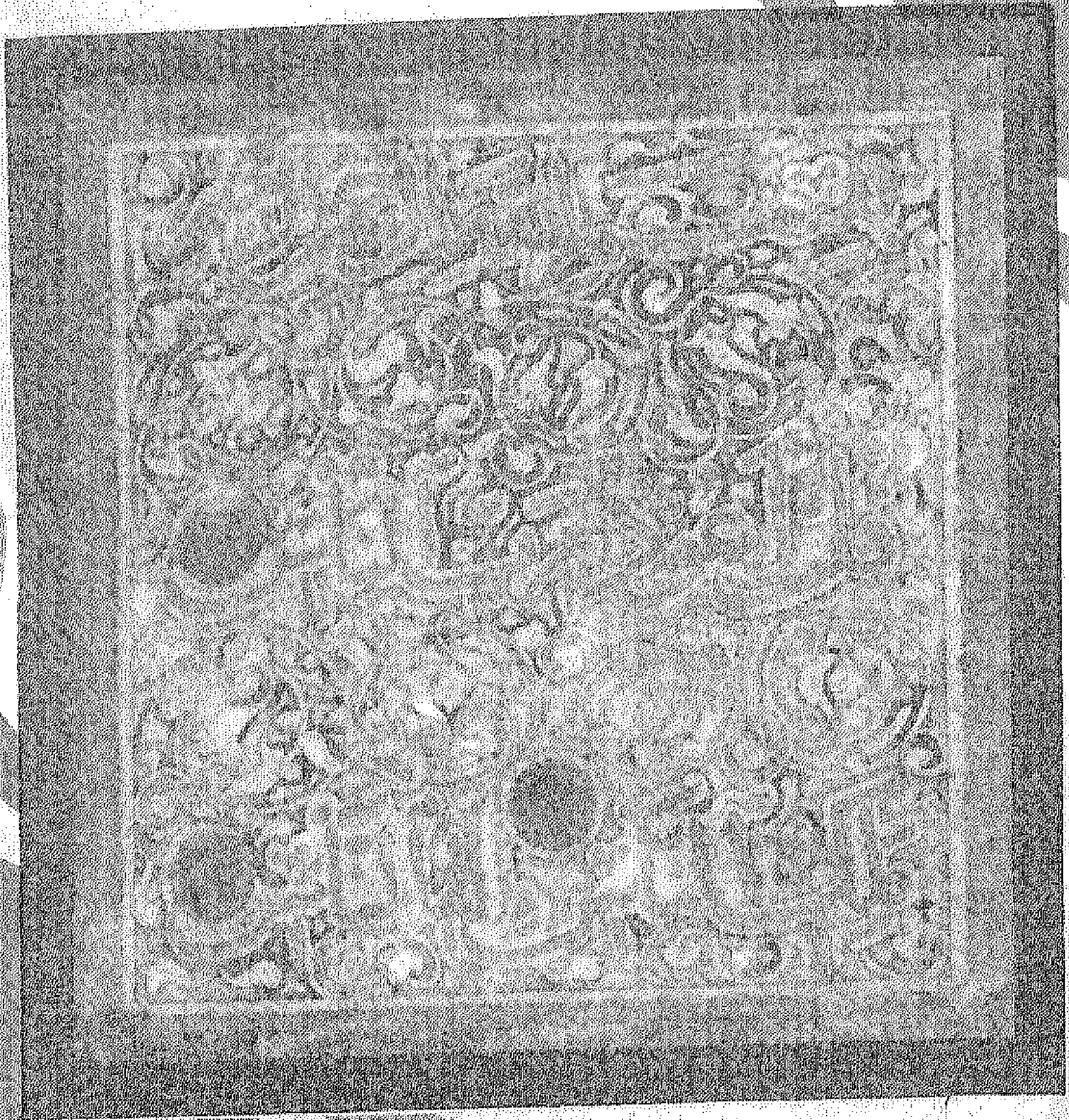
السودان :

شركة عبد المنعم للنشر والإعلان — عمارة عبد المنعم / ميدان الأمم المتحدة

الخرطوم

اقرأ

الأمثال في القرآن



محمود بن الشريف

دار المعارف بمصر

الأمثال فى القرآن

محمود بن الشريف

الأمثال في القرآن

اقرأ ٢٦٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦٥ – الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

« ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن من كلّ مثل »

سورة الإسراء (من آية ٨٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

من سنن الهدى الإسلامى مراعاة النفسيات..

فهناك نفس متينة مكينة ، ونفس هشة قميئة ، وثالثة كافرة فاجرة، وأخرى مارقة ماجنة . . ألوان من نفسيات متباينة متغايرة، لكل منها عند القرآن علاج خاص .

فالنفوس الخيرة المؤمنة ، التى تزيدها الدعوة استمساكاً بعقيدتها، وإيماناً على إيمانها ، وتقريراً لمفاهيم العقيدة وتثبيتاً لمبادئها ، وتوكيداً لتعاليمها . . هذه النفوس يربيها القرآن تربية خاصة ؛ تربية مثالية قوية، تتواءم مع قوتها ، وتتلاءم مع إيجابيتها .

والنفوس الهشة الضحلة الإيمان الضعيفة البنيان يحصنها القرآن بمايقدم لها من بالغ كلمه وبارع حكمه ورائع مثله وجميل إرشاده وجليل توجيهه ، وتظل تتقبل وتزدرد حتى تنفعل وتتشبع .. وحتى يستقيم عودها ويتكامل بنيانها

مزاج من نصح ، وأمشاج من هداية ، ومقادير من أدوية تقدم لكل نفس بمعيار وقدر ، فما يصلح لإحداها لا تنتفع به أخرى ، وما ترغب فيه نفس ترغب عنه أخرى . . وما يقنع نفساً مطمئنة تعافه نفس جامحة شموس .

ومن أجل هذا كانت الأمثال فى القرآن لوناً من ألوان الهداية الإلهية تغرى النفوس على الخير ، أو تحضها على البر ، أو تمنعها من الإثم أو تدفعها إلى فضيلة ، أو تدفع عنها شائبة أو تمنع نقيصة .

ومن أجل هذا أيضاً تناولت الأمثال القرآنية مجالات عدة ؛ فمثلت الإيمان ، ومثلت بالكفر ، وفضحت النفاق وحضت على الإنفاق ونادت بالخير ونددت بالشر ، وصورت الطيب والخبيث والصالح والطالح ، وغير ذلك مما أشادت به ، أو أشارت إليه .

ثم نجد الأمثال قد أبرزت المعقول فى صورة مجسمة ، وألبست المعنوى ثوب المحسوس ، وفصلت المجمل وأوضحت المبهم ؛ لتهذب بذلك الطبائع وتقلم الغرائز الشريرة ، وتخفف من غلواء النفوس ، وتحد من ضراوتها وتطامن من كبريائها وغرورها .

وفى ذلك يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « أسرار البلاغة » :
« . . واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى

أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً ؛ فإن كانت مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزّ للعطف وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعةً للمادح ، وأقضى له بغرر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد ، وحدّه أحد . .

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . .

وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجدّ ، ولسانه ألدّ . .

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ ، ولغرب الغضب أفلّ ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في

التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغيابه ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ويشفى الغليل »

ويقول العلامة أبو السعود فى تفسيره : « . . . والتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي ، وقمع سورة الجامح الأبي ، كيف لا ؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبراز لها فى معرض المحسوسات الجلية ، وإبداء للمنكر فى صورة المعروف ، وإظهار للوحشى فى هيئة المألوف » .

وقال ابن المقفع : إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث .

وقال إبراهيم النظام : يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ؛ فهو نهاية البلاغة .

* * *

وقد راع المعاندين والمكذبين هذا النمط من الأسلوب القرآنى ، وذلك اللون من التربية الإلهية ، واستنكروا أن يضرب الله الأمثال ، زاعمين أن الله أعلى من ذلك وأجل . . ثم تغالوا فى استنكارهم وتساءلوا متعجبين :

أى قدْر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله بها الأمثال ؟ !

وجادلوا ، محتجين بأن الله عظيم ، ولن يتضمن كلامه إلا كل عظيم . .

ويردّ عليهم القرآن بأن المولى سبحانه لا يرى من النقص أن يضرب مثلا بالبعوضة ، أو بأصغر منها حجماً ؛ فالمثل حق يدعو إلى حق يعترف به المؤمنون فيزيدهم تمسكاً بإيمانهم ، وينكره المارقون الجاحدون فيزيدهم غواية على غوايتهم ، « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، ومايضل به إلا الفاسقين . . . »(١)

* * *

وما الصور التى رآها رسولنا الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه فى رحلته الإلهية عند معراجه إلى السموات العلى إلا أمثال محسوسة ملموسة وصور مصغرة جسمت شرائح وقطاعات حادت عن الجادة فى حياتها الأولى ، فكان مآلها هذا المصير المهين القاتم . .

---

(١) آية ٢٦ من سورة البقرة .

وكانت هذه الصور أمثلة حية كرّم الله نبيه برؤيتها، وربّاه بها وأدبه ، وصلى الله على الذى قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

والله الموفق ، وهو المعين .

محمود بن الشريف

من سورة البقرة :

المنافقون

نرى القرآن فى بعض أمثاله يتغلغل إلى الأعماق . . أعماق المنافقين ؛ فيكشف عن منازعهم ونوازعهم ، ويبين خوالجهم ونبضاتهم ، ويميط اللثام عن أدق حالاتهم وأحوالهم ، ويلون سلوكهم ومشاربهم عندما يضرب لذلك أروع التشبيهات وبالغ الصور .

فها هو ذا — فى أول سورة من سوره الطوال سورة البقرة — يحلل اتجاهاتهم ، ويرسم لهم بأسلوبه المشرق الأخاذ صورة تنبض بما يجيش فى أعماقهم ، وتومئ إلى ما حاولوا الحفاظ عليه ، وتفضح ما خفى من نقائصهم ونقائضهم

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم[1] قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون [١٥] الله

---

(١) انفردوا بإخوانهم فى الكفر .

يستهزىء بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون(١) [١٦] أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين [١٧] مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً(٢) ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون [١٨] صمٌ بكم عمى فهم لا يرجعون [١٩]) .

هذا لون من المنافقين أتاهم الله ديناً فيه هداية ، وشريعة فيها صلاح وفلاح ، فآمنوا إيماناً ظاهرياً ، وعطلوا عقولهم ، وألغوا تفكيرهم ، ولم ينتفعوا بما جاءهم ، ولم يقتفوا نهج من سلفهم ، وكانوا أمة وحدهم ؛ فابتكروا لأنفسهم منازع واتجاهات انحرفت بهم عن السنن الظاهر والحجة الواضحة ، ولم يكتشفوا أنفسهم والهدى القائم بينهم والخير السائد فيهم ، والنور الغامر لمن حولهم من المؤمنين الخالصين . . فعموا عن كل ذلك ، وصموا ، وضربوا صفحاً عن هدى الله ، وجعلوا بينهم وبين النور حجاباً منيعاً وسداً صُلباً ؛ فعاشوا بمعزل عن الحق وبمنأى عن الضياء ، يهيمون فى ديجور من الضلال ، وفى متاهة الباطل ، لم ينعموا بما نعم به مخلصو المؤمنين من خير ، ونور ، وهدى .

---

(١) يعمهون : يتحيرون .

(٢) استوقد ناراً : طلب وقودها .

مثل هؤلاء الصم البكم العمى فى نفاقهم كمثل الذى أوقد ناراً لينتفع بها فى ليله الحالك فلما أضاءت النار ما حوله ، فرأى الضياء والسناء ، سرعان ما أطفأها مطر شديد ذو ريح عاصف أخمد أوارها وبدد لهيبها . . فتحير . . وتخبط فى الظلمات لا يدرى ما يتجنبه ولا ما يتقيه !!

(أو كصيب[1] من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين [٢٠] يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير [٢١]).

وهذا صنف آخر من المنافقين ، كان فيهم بقية من رجاء ورمق من حياة . . أصاخوا بحواسهم ومشاعرهم إلى صوت الإيمان الحق ، فاستجابوا له وآمنوا به . . ثم ساروا فى طريق الله ، يقتبسون أحياناً من نور التعاليم الإلهية ، وتضىء سبيلهم معالم الشريعة ونور الحقيقة .. ويسيرون خطوات ثم تتهاوى أقدامهم وتتعثر خطاهم ، وتعشى بصائرهم وتزيغ أبصارهم وينتكسون عندما يحكمون عقولهم ، وتطغى عليهم تقاليد موروثة ،

---

(١) الصيب : المراد به المطر والسحاب .

وتعتلج فى نفوسهم رواسب عفنة فتهيج وتحيد بهم عن الجادة، وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم .

يمثل القرآن حالة هذا الصنف الذى آمن ثم نكص ، والذى انتفع آونة بإسلامه ثم آض إلى ما كان عليه بحال قوم كانوا يسيرون فى مهمه متسع ، وفى فلاة فسيحة يلفهم فيها ظلام الليل الحالك فوقفوا حيث هم يتلمسون النجاة ولا سبيل إليها . . !!

ثم نزل بهم مطر غزير فيه رعد وبرق وصواعق .. وقصف الرعد ولمع البرق ودوّت الصواعق . . وبين دفقات الخوف ودفعات الرجاء يمشون خطوات فى ضوء البرق الخاطف. . ثم يذهب البرق ويذهب معه الضوء ويطبق عليهم الظلام وتحيط بهم العتمة فيقفون فى مكانهم ويقيمون على حيرتهم ومخاوفهم مجترين أوهامهم وضلالاتهم .

وأظهر هذان المثلان للمؤمنين أن المنافقين فى كل عصر وآن متفاوتون، ليسوا على شاكلة واحدة فى الزيغ والمروق والخروج على المحجة والتعاليم ؛ منهم من استقى من نبع الإيمان الصافى ثم ارتد إلى الوحل يعبّ من الماء الراكد الآسن . . ومنهم من ظل هيمان صادياً يسدر فى غوايته ويهيم فى ضلاله بعد أن ازورّ عن المنهل العذب ، وهو منه جدّ قريب . .

وإلى هذا يشير الأستاذ الامام محمد عبده فى تفسيره فيقول :

« ضرب الله تعالى لهذا الصنف في مجموعه (يقصد المنافقين في كل عصر وزمان) مثلين ، ينبئان بانقسامه إلى فريقين ، خلافاً لما عليه أكثر التفاسير في أن المثلين لفريق واحد، وأن معناهما وموضوعهما واحد ..

(الأول) من أتاهم الله ديناً وهدأية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها ، وصلح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحي ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم في الأخذ بها ظاهراً وباطناً ، ولم ينظروا في حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة إنما كان أمراً خصّوا به ، أو خيراً سيق إليهم ، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم ولم تصلح به ضمائرهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع في نفوسهم مجالا لغيرها ؛ ولذلك لم يتفكروا قط في كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ؛ لأن حفظ الموجود أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذي اقتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ونجوم الفرقان ؛ لزعمهم أن فهمه لا يرتقى إليه إلا أفراد من رؤساء الدين يؤخذ بأقوالهم ما وُجدوا ،

---

(١) ص ١٦٨ ج ١ من تفسير المنار .

وبكتبهم إذا فقدوا ؛ فمثل هذا الفريق من الصنف المخذول فى فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية ، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرّة ، وانطماس الآثار دونها عنده مثل من استوقد ناراً . . .

والوجه فى التمثيل : أن من يدعى الإيمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدى بها فى الشبهات ، ويستضىء بها فى ظلمات الريب والمشكلات ، ويبصر على ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الأهواء والشهوات ، فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدى والرشاد ، وكاد بالنظر فيها يمشى على هداية وسداد ، هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث وعصب عينيه شيطان الغرور فذهب عنه ذلك النور وأطبق عليه جوّ الضلالة ، بل طفىء فيه نور الفطرة ، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه ، فهم بمنزلة الأعمى الأصم الذى لا يبصر ولا يسمع .

وأما الفريق الثانى : فقد ضرب الله له المثل فى قوله : أو كصيب من السماء . وهو الذى بقى له بصيص من النور ، فله نظرات ترى إلى ما بين يديه من الهداية أحياناً ، ولمعانى التنزيل لمعانٌ يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة ، ويأتلق فى نظره الحين بعد الحين ، عندما تحركه الفطرة أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ، ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك ، وهو فى تخبطه

يسمع قوارع الإنذار الإلهى ، ويبرق فى عينيه نور الهداية ، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوى سار . . وإذا انصرف عنه بشبه الضلالات الغرارة قام وتحيّر .. لا يدرى أين يذهب !! ثم إنه ليعرض عن سماع نذُر الكتاب ودعاة الحق كمن يضع أصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع إرشاد المرشد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه .

هذا هو شأن فريق هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالا . . »

* * *

وبعد أن عددت آيات سورة الحشر الصفات النفسية للذين نافقوا ، وكشفت موقفهم العدائى من الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وإغراءهم اليهود على قتال المسلمين ، وبعد أن أبانت موقفهم السلبى إزاء نصرة المؤمنين ، ودللت على جبنهم وخورهم وتفرّق قلوبهم ورهبتهم من المسلمين مثّلتهم — فى سوء عاقبتهم ومصيرهم — بكفار بدر الذين ذاقوا وبال أمرهم فى الدنيا والآخرة ؛ فى الدنيا : على يد المسلمين بالتقتيل والتنكيل ، وفى الآخرة : بعذاب الله الأليم الشديد .

ثم مثّلت المنافقين فى خداعهم وإغرائهم اليهود على القتال ، وتنصُّلهم منهم بعد الهزيمة بالشيطان الذى يظل يبذل كل ما فى جعبته

من إغراء للمرء حتى يكفر ثم يتبرأ منه فى النهاية ، ويتركه يجتر حسرته وندامته .

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإن قوتلتم لننصرنكم ،والله يشهد إنهم لكاذبون [١١] لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار(١) ، ثم لا ينصرون [١٢] لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون [١٣] لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة، أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون [١٤] كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم(٢) ولهم عذاب أليم [١٥] كمثل الشيطان إذ قال للإنسان

---

(١) ليولن الأدبار : لينهزمن .

(٢) وبال أمرهم : سوء عاقبتهم .

اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين [١٦] فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين [١٧]) .

المقلِّدون

التقليد : تعطيل لنعمة العقل ، وعقل لموهبة الإدراك !!

والمقلدون الذين ألغوا مداركهم وأفهامهم ؛ فلم يتفكروا فى خلق السموات والأرض ، ولم يتوصلوا ببحثهم واستقرائهم إلى الاعتقاد الجازم والإيمان المكين ، والذين صموا عن سماع دعوة الحق سماع تدبر وتفهم ، هؤلاء هم السلبيون مسلوبو المشيئة والتصرف ، الذين دعاهم داعى الله إلى ما أنزل الله فكان قصاراهم أن قالوا : لنا فى آبائنا قدوة وأسوة ، فلن نحيد عن معتقداتهم ، ولن نخرج عن سننهم !!

هؤلاء المقلدون مثلهم القرآن بالسوائم والبهائم تطيع صيحات راعيها من غير تفكير فى مدلولاتها الوضعية ، لا تفهم أوامره ، ولا تفقه نواهيه ولا تعقل صيحاته ونداءاته ، بل تسمع أصواتاً منه اعتادت عليها... تدعى بصوت فتأتى وتقبل ، وتصرف بآخر فتدبر وتعود وفى ذلك يقول القرآن:

(ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق[1] بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء ، صمٌ بكم عمى فهم لا يعقلون [١٧٢]) .

---

(١) ينعق : يصوت على غنمه .

تربية وتوجيه للمسلمين

الشدائد محك الرجولة ومجال البطولة ، والتجارب بوتقة تصهر خبث النفس وتظهر الشخصية ناضجة مصقولة متكاملة ، والأحداث تربى العزائم الخائرة وتوجه النفسية الهشة الهامشية إلى ما فيه تماسكها وصلابتها وصلاحيتها .

والمؤمنون الصادقون كانوا فى بدء الدعوة الإسلامية قلة مستضعفين تتناوشهم الخطوب ، وتزعزع إيمانهم الحوادث ، ولا سيما حديثو العهد منهم بالإيمان . فاقتضت حكمة الله من أجل هذا أن تقدم لهؤلاء المستضعفين وقوداً يستمدون منه القوة ، وزاداً يستعينون به على تمكين العقيدة وتثبيت مفاهيمها ؛ حتى تجد فى نفوسهم أرضاً خصبة تنبت فيها وتزهر .

من أجل هذا اتجهت بعض آيات القرآن إلى ضرب الأمثلة للمؤمنين ، تخبرهم أن الابتلاء ليس بمقصور عليهم وحدهم ، وأن المؤمنين السابقين أوذوا فى سبيل عقيدتهم ، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ونزل بساحتهم من العناء والإيذاء والمحن والفتن والبأساء والجهد ما كان فوق الطاقة والجهد ؛ وما بذلوا فى سبيل مدافعته ومكافحته الكثير من جهدهم وجهودهم ،

وما زادهم ذلك كله إلا إيماناً فوق إيمانهم وتسليماً بسلامة جهادهم وأهدافهم : « الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »[١] « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[٢] « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »[٣] .

« وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم[٤] »

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ؛ مستهم البأساء[٥] والضراء[٦] ، وزلزلوا[٧] ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب [٢١٥]) .

---

(١) أول سورة العنكبوت .
(٢) آية ١٤٣ من سورة آل عمران .
(٣) آية ١٨٦ من سورة آل عمران .
(٤) آية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٥) البأساء : شدة الفقر . (٦) الضراء : المرض .
(٧) زلزلوا : أزعجوا إزعاجاً شديداً .

آيات وأمثال من تربية وتوجيه تشدّ العزم وتصقل الروح وتقوّى الإرادة ، وتقوّم النفس . . نفس المؤمن الذى علم أن ما يعانيه مؤمنو اليوم لا يقاس بما قاساه المؤمنون السابقون ، وأن الابتلاء تمحيص نهايته فوز ، واختبار عاقبته صلاح وفلاح .

ولا جرم ، فالمؤمنون أصحاب رسالة وأهداف ؛ لذا كانت تبعاتهم أكثر ، ومسئولياتهم أخطر . والحفاظ على ذلك كله يستلزم المزيد من المكابدة والمجاهدة والمجالدة والمغالبة .

القدرة على البعث

قضية البعث قضية قديمة جديدة . . لها أنصارها ولها خصومها فى كل وقت وحين .. خصومها من هؤلاء الذين أنكروا قضية الإيمان ولم يعترفوا بالألوهية ، من هؤلاء الطبيعيين والدهريين الذين قالوا : إنْ هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر !!

ومن هؤلاء الذين قالوا قديماً : « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون[1] » ومن هؤلاء الشيوعيين والوجوديين والماديين فى عصرنا الحاضر الذين لا يعترفون إلا بالمادة ، ولا يحسون إلا وجودها ، والذين يحصمون الروحية ويفتئتون عليها ويتطاولون على أنصارها وأهلها . .

ومن هؤلاء الذين غرّتهم قوتهم وتقدمهم فى ميدان العلم وغزو الفضاء فقالوا ، وهم يجوبون بصواريخهم وقذائفهم فى دنيا السماء ، قالوا ساخرين مستنكرين مستكبرين : أين الله ؟ !

وكان من الطبعى أن يشحذ القرآن أسلحته ليحارب بها المنكرين فى هذا الميدان ، وأن يقدّم من البراهين والأدلة والحيثيات ما يجلو هذه

---

(١) آية ١٦ من سورة الصافات .

القضية ، وما يجعل الحكم فيها حاسماً قاطعاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يرتاب فيه إلا منْ ختّم الله على قلبه وسمعه ، وغطّى على بصره وبصيرته

وهذا مثل قرآني يتضمن حيثية مادية مفحمة مقنعة ، ودليلا ملموساً يناصر قضية البعث ويظاهر دعوى النشور :

(أو كالذى مرّ على قرية ، وهى خاوية على عروشها[١] ، قال : أنّى[٢] يحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه[٣] ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر العظام كيف ننشزها[٤] ثم نكسوها لحماً فلمّا تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير [٢٥٩]) .

---

(١) خاوية على عروشها : ساقطة على سقوفها .
(٢) أنى : كيف .
(٣) لم يتسنه : لم يتغير .
(٤) ننشزها : نركب بعضها فوق بعض .

ويعقب الترمذى على هذا المثل[١] فيقول : « أمر الله هذا الذى تحيرت نفسه أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله ، فأراه بما حضره ما غاب عنه »

(وإذ قال إبراهيم : رب ، أرنى كيف تحيي الموتى ، قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى[٢] ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن[٣] إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن[٤] ، يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم [٢٦٠]) .

ويعلق الفخر الرازى على هذه القصة قائلا : والغرض منها ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة .

---

(١) فى مخطوطته ص ٩٢٧ المجلد الثانى .
(٢) بلى : نعم .
(٣) فصرهن : أملهن .
(٤) أدعهن : نادهن .

الإنفاق

القرآن يعلم حرص النفوس على المال وتكالبها على جمعه وله ، وسعيها فى الحصول عليه بكافة الوسائل والسبل ، ويعلم أيضاً شحها فى الإنفاق على الغير وتقتيرها فى البذل وبخلها فى العطاء فى سبل الخير ، فقدّم لها علاجاً نفسياً تبلور فى أن النفقة فى أوجه الخير والبر والصالح العام تضاعَف يوم القيامة أضعافاً كثيرة ، وأن الإنفاق فى سبيل الله هو قرض لربها الغنى الكريم المحسن يكافئ عليه فى الدنيا ويؤديه أضعافاً مضاعفة يوم الجزاء . فاستل بذلك من النفوس حرصها ، وطمأنها عندما ضاعف لها الأجر الأخروى وأجزل لها العطاء يوم الجزاء ، ودفعها بذلك العوض المغرى المجزى إلى البذل بسماحة وطيب خاطر وأريحية .

ووضع القرآن بهذه الأمثلة الإلهية الحاضة على الإنفاق والحاثة على البذل أول لبنة فى صرح التكامل الاجتماعى والتكافل الإنسانى :

١ ــ الإنفاق فى سبيل الله

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتت

سبع سنابل فى كلّ سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم [٢٦١] الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى(١) لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون [٢٦١] قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم [٢٦٣]) .

ب ـ الرياء يبطل ثواب العمل والأذى يحبط أجر الصدقة

(يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء(٢) الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان(٣) عليه تراب فأصابه وابل(٤) فتركه صلداً(٥)

---

(١) المن : تعداد النعم على من أنعم عليه ، والأذى التطاول عليه بسبب ما أنعم عليه .
(٢) رئاء الناس : مرائياً الناس .
(٣) صفوان : حجر أملس .
(٤) وابل : مطر غزير .
(٥) صلداً : أملس نقياً من التراب .

لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين [٢٦٤]) .

الرياء مرض من أمراض المجتمع يدل على انهيار فى الشخصية وجبن فى الأخلاق ، وبعد عن الوضوح ، وفقر فى الشجاعة الأدبية . وطريق ملتو يسلكه كل متلون مخادع ؛ ليصل بوساطته إلى منفعة ذاتية أو كسب شخصى حتى ولو أهدر إنسانيته وأودى بكرامته وعزته وأنفته .

وتقاليدنا الإسلامية تحفظ على الأناسى كرامتهم وإنسانيتهم ، وها هو ذا القرآن عندما أوصى بتقديم الصدقة إلى مستحقيها أوصى فى الوقت نفسه بأن يحافظ المتصدق على شعور المستحق وإحساسه ، والإبقاء على كرامته وماء وجهه ، فلا تقدم الصدقة إليه مشفوعة بمن ، أو مصحوبة بأذى عاجل أو آجل . . وإلا بطل ثوابها كما يبطل الرياء ثواب العمل .

حـ ـ الإنفاق المثالى

وقد صوره المثل القرآنى الآتى بأنه هو الذى يرتكز على دعائم من الإخلاص والتقرب إلى الله ، وتثبيت النفس على الإيمان ، كما صور أن هذا الإنفاق وإن جل أو قل فثوبته جلى وثوابه دائم

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة (١) بربوة (٢) أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل (٣) والله بما تعملون بصير [٢٦٥]).

يقول صاحب المنار (٤) : « . . ووجه الشبه عندى أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو فى إخلاصه وسخاء نفسه ، وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب فى كثرة برّه وحسنه ؛ فهو يجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر ، فخيره دائم وبرّه لا ينقطع ؛ لأن الباعث عليه ذاتى . لا عرضى كأهل الرياء وأصحاب المنّ والإيذاء . فالوابل والطل عبارة عن سعة الرزق وما دون السعة » .

د ــ عاقبة الرياء والإيذاء

ثم تمضى الآية الشريفة بعد تبيان ذلك كله فتقول :

---

(١) جنة : حديقة .
(٢) بربوة : بمكان مرتفع .
(٣) طل : مطر ضعيف .
(٤) ص ٦٨ جـ ٣ من تفسير المنار .

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر ولـه ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار [١] فيه نار فاحترقت... [٢٦٦]).

وفى تفسير ذلك المثل يقول الطبرى [٢] : «إن صاحب الجنة (البستان) أصابه الكبر (التقدم فى السن) وله ذرية ضعفاء : صغار أطفال ، فأصاب الجنة إعصار فيه نار فاحترقت ، يعنى بذلك : أن جنته تلك أحرقتها الريح التى فيها النار فى حال حاجته إليها وضرورته إلى ثمرتها بكبره وضعفه عن عمارتها . وفى حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها ، فبقى لا شىء له ، أحوج ما كان إلى جنته وثمارها بالآفة التى أصابتها من الإعصار الذى فيه النار .

فكذلك المنفق ماله رئاء الناس أطفأ الله نوره وأذهب بهاء عمله وأحبط أجره حتى لقيه وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله حين لا مستعتب له ولا إقالة من ذنوبه ولا توبة ، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التى وصف – جل ثناؤه – صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوج ما كان إليها فبطلت منافعها عنه .

---

(١) إعصار : ريح شديدة .
(٢) ص ٥٤٣ ج ٥ .

وهذا المثل ضربه الله للمنفقين أموالهم رئاء الناس . . هذا مثل لنفقة الرياء إنه ينفق ما له يرائى الناس به فيذهب ماله وهو يرائى ، فلا يأجره الله فيه فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء فذهبت ، كما أنفق هذا الرجل على جنته حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته ، فلم يجد منها شيئاً ، فكذلك المنفق رياء !! سأل عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فيم ترون أنزلت : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب » ؟ فقالوا : الله أعلم . فغضب عمر . فقال : قولوا « نعلم » أو « لا نعلم » !! فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . قال عمر : أىّ عمل ؟ قال : لعمل !! فقال عمر : رجل غنى يعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله كلها !!

ويكشف صاحب تفسير المنار عن وجه الشبه فى هذا المثل فيقول(١) :

« أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائى ، وقالوا إن المعنى أنه سيكون فى يوم القيامة عند شدة الحاجة إلى ثواب نفقته التى راءى بها كذلك

---

(١) ص ٧٠ ج ٣ .

الشيخ الكبير الذى احترقت جنته التى لا معاش له سواها عند ما كثر عياله الضعفاء وعجز عن العمل ، فلا يملك من ثوابها شيئاً ، ولا يقدر أن يكسب ما يغنيه عنه . وأقول إن المثل ينطبق أيضاً على من أبطل صدقته بالمنّ والأذى ، وأنه ليس خاصاً بالآخرة ؛ فإن باذل المال للفقراء ، وفى المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس ما يشبه تلك الجنة التى وصفها المثل فى رونقها ومنافعها ، ويوشك أن يذهب مال هذا المنفق وتشتد حاجته وتقصر يده حتى لا يكون له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك ، فيحاول أن يجنى منها ، فيحول دون ذلك إعصار من المن والأذى ، أو من ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤتى ثمرتها ، ولا تسر رؤيتها ؛ كذلك تكون عاقبة أهل الرياء ، وذوى المنّ والإيذاء ، ينبذهم الناس عند شدة حاجتهم إلى الناس » .

من سورة آل عمران :

مثل عيسى عند الله

والقرآن يسوق مثلا لهؤلاء الذين أنكروا إنسانية عيسى ورسالته ، متعللين بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية ؛ فقد خلق من غير أب . ويرد الله — سبحانه — عليهم فى هذا المثل بأنه لا غرابة فى ذلك ؛ فإن كان عيسى قد خلق من غير أب فإن آدم عليه السلام قد خلق من غير أب .

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون [٥٩]) .

يقول الطبرى : [١] « . . إن الله عزّ وجلّ أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران ، الذين حاجوه فى عيسى ؛ وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا :

---

(١) ص ٤٦٨ من تفسيره .

عيسى ، تزعم أنه عبد الله !! فقال : هو عبد الله وروحه وكلمته . قالوا : لا ، ولكنه هو الله ، نزل من ملكه فدخل فى جوف مريم ، ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ : (إن مثل عيسى عند الله) .

وسمع بعض المشركين الذين يعبدون الملائكة هذه الآية السالفة المتضمنة ذلك المثل السالف ، فرفعوا عقيرتهم مفاخرين قائلين : نحن أصحُّ نظراً وأسلم عقيدة وأصوب اتجاهاً ومنطقاً من هؤلاء النصارى ؛ فنحن نعبد الملائكة ، أما هم فإنهم يعبدون بشراً . . فنزل قول الله تعالى فى سورة الزخرف :

(ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون[1] [٥٧] وقالوا أآلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون[2] [٥٨] ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً[3] لبنى إسرائيل [٥٩] ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون[٦٠]) .

---

(١) يصدون : يضجون فرحاً .
(٢) خصمون : شديدو المجادلة .
(٣) مثلا : أمراً عجيباً .

وفى تفصيل ذلك يقول الألوسى (١) : « إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى: « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب» قالوا : نحن أهدى من النصارى ؛ لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة . . فنزلت . . فالمثل ما فى قوله تعالى : (إن مثل عيسى ..) الآية والضارب هو المولى تعالى شأنه أى : ولما بين الله سبحانه حالته العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بشراً قد عبد ، فنحن أهدى ، حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين عليه . وهذا هو الذى عنوه بقولهم « أآلهتنا خير أم هو » فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل ، وأنهم فى اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثلكم فى اتخاذ الملائكة — وهم عباد مكرمون — ثم قال تعالى: « ولو نشاء لجعلنا منكم . . . الآية » دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر على أعجب من خلق عيسى عليه السلام ، وأنه لا فرق فى ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً . فلا يصلح القسمان للإلهية » .

---

(١) ص ٩٤ جـ ٢٥ من تفسيره روح المعانى .

إنفاق الكافرين

قد يغرى الله بعض الكافرين فيمد لهم من فضله، ويمنُّ عليهم من سيبه، ويفىء من نعمه عليهم فى الدنيا الشىء الكثير ..ويدلى الكافر الثرى بدلوه فى مشروعات الخير والإنتاج ، ويعطى من ماله ما يسميه « قربات» فيسدُّ خلة فقير ، أو يقيل عثرة محتاج ، أو يقيم منشأة، أو يشيد مؤسسة تمدُّ رواقها فتفيض بالرزق على سواد عظيم من خلق الله . . وقد يخدم الإنسانية بما يقدم إليها من مخترعات نافعة ، أو أدوية ناجعة. وهو مع ذلك مقيم على كفره سادر فى جحوده ونكرانه ، فمثل نفقته هذه كمثل ريح فيها برد شديد أصابت زرع قوم عاصين ظالمين قد أملوا إدراكه ورجوا نفعه فأهلك الريح زرعهم بسبب عصيانهم وكفرهم وتجاوزهم حدود بارئهم ومخالفتهم أمره وإشراكهم به ، وتكذيبهم لرسله :

(إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون [١١٦] مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ[١] أصابت

---

(١) صر : برد شديد .

حرث[1] قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ... [١١٧]) .

والمراد من هذا المثل – كما يقول العلامة أبو السعود فى تفسيره[2] :
« المراد هو تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفعٌ ما بحرث كفار ضربته صرٌ فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعةٌ ما بوجه من الوجوه » .

---

(١) حرث : زرع .
(٢) ص ٤٠٤ ج ١ .

من سورة الأعراف :

المكذّب بآيات الله

وهناك نمط من الكفر ، صاحبه عالم بآيات الله ، عارف مدلولاتها ، قادر على تبيانها بما أوتى من بلاغة فى المنطق وبراعة فى النطق وقوة فى الحجة والإقناع . . . إلا أنه انحرف فلم يعمل بمقتضى علمه ، وكفر بآيات ربه عندما انسلخ منها ولم يعمل بمفهومها ، وعندما جحد نعمة العلم وأذهبها بعدم العمل ، فلا بدع أن ضعفت نفسيته ولم تصمد أمام الغزو الشيطانى ، وصار من الفاسدين المفسدين . ولو اختار لنفسه الرفعة والكمال الإيمانى لرفعه الله بتلك الآيات إلى درجات من الطاعة والهداية ، ولكنه أعرض ونأى وركن إلى الأرض بميله إلى الأمور الأرضية الوضيعة ؛ لذا لم يوجهه الله إلى الحياة العلوية ، حياة التطبيق العملى المثالى لما علم وعرف ؛ حياة الروح التى سداها نور وضياء ولحمتها إشراق وصفاء ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

يقول صاحب تفسير المنار: «[1] . واللهث : التنفس الشديد مع إخراج اللسان . ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو العطش . وأما الكلب فيلهث فى كل حال ، سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته آمناً وادعاً . وهذا الرجل صفته كصفة الكلب فى حالته هذه ، وهى أخس أحواله وأقبحها . والمراد أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه فى أسوأ حال ، خلافاً لما كان يبغى من نعمة العيش وراحة البال ؛ فهو فى همّ دائم مما شأنه أن يهتم به وما شأنه أن لا يهتم به من صغائر الأمور ، وخسائس الشهوات ، كدأب عباد الأهواء وصغار الهمم : تراهم كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنون به ويحملون همه حقيراً لا يتعب ولا يعيي ، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سنعة وقضى أرباً :

فما قضى أحد منها لبانته ... ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا : ذلك الأمر البعيد الشأو فى الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين والمقلدين الجاهلين ، كذّبوا ؛ لظنهم أن الإيمان بها يسلبهم ما يفخرون

---

(١) ص ٤٠٧ جـ ٩ .

به من العزّة والعظمة باتباعهم لغيرهم ، ويحط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدوهم فى ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يشتّهون من لذاتهم ؛ فلهذا الظن الباطل لم ينظروا فى الآيات نظر تفكر واستقلال وتبصرّ واستدلال ، بل نظروا إليها — لا فيها — من جهة واحدة : وهى أن اتباعها يحط من أقدارهم ، ويعد اعترافاً بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ويحرمهم التمتع بحظوظهم وأهوائهم .

فكان مثلهم مثل الذى أوتى الآيات فانسلخ منها ، وذلك لا يعيب الآيات وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من إنسان حرم الانتفاع بمواهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات فى العلم والعمل !! وكأين من إنسان استعمل حواسه فى الضرّ وعقله وذكاءه فى الشر !! وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون : اقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل ، المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات فى مبدأ أمره وغايته ومعناه وصورته ، رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم على التفكر والتأمل ، فإذا هم تفكروا فى ذلك تفكروا فى المخرج منه ، ونظروا فى الآيات وما فيها من البينات بعين العقل والبصيرة لا بعين الهوى والعداوة . ولا طريق لهدايتهم غير هذه .

والآية تدل على تعظيم شأن ضرب الأمثال فى تأثير الكلام ، وكونه

أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة » .

ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فى الأمثال ، وقبحت صفتهم فى الصفات ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الإعراض عن التفكر فى الآيات ، ومن النظر إليها نظر العدو الشانئ يظلمون أحداً ، وإنما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة »

وعن هذا كله تحدثت الآيات التالية من سورة الأعراف فقالت :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ(١) منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين [١٧٥] ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد(٢) إلى الأرض ، واتّبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون [١٧٦] ساء مثلاً القوم الذين كذّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون [١٧٧] .)

ثم تمضى هذه الآيات كاشفة حال أهل النار ومآلهم فتقول :

---

(١) انسلخ : خرج .
(٢) أخلد إلى الأرض : مال إليها .

ولقد ذرأنا(١) لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون [١٧٩] .

تقرر هذه الآيات الشريفة أن الله سبحانه خلق كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة ، فهم (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ولهم أعين لا يبصرون بها طرق الهداية ، ولهم آذان صرفوها عن سماع الحق سماع تدبر وتفكر (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله) .

فلا جرم أن خلقهم الله وقوداً للنار وحطباً لجهنم ، وشبههم بالأنعام (وهى البهائم التى لا تفقه ما يقال لها ولا تفهم ما أبصرته لما يصلح ، ولما لا يصلح ولا تعقل بقلوبها الخير من الشر فتميز بينهما ، فشبههم الله بها ؛ إذ كانوا لا يتذكرون ما يرون بأبصارهم من حججه ولا يتفكرون فيما يسمعون من آى كتابه) (٢) (فهل كالأنعام فى كونهم لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة الدنيا ،

---

(١) ذرأنا : خلقنا .
(٢) ص ٢٨٠ من تفسير الطبرى جـ ١٣ .

بل هم أضل سبيلا من الأنعام ؛ لأن هذه لا تجنى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشربها ونزواتها ، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التى تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية .

وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون فى كل ذلك إسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها (١)

وكذلك يتحدث القرآن عنهم فى موضع آخر فى سورة المدثر فيقول : « فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة »(٢).

ويتحدث صاحب كتاب « من بلاغة القرآن (٣) » عن دقة ذلك التصوير القرآنى فيقول : « ربما بدا أنه يكفى فى تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير ، ولكنه فى دقته لا يكتفى بذلك ، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة وإسراعهم فى إبعاد أنفسهم عنها إسراعاً يمضون فيه على غير هدى فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب ، وتحثها عليه ، يزيد فى هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها ؛ فهى تتفرق فى كل مكان ، وتجرى غير مهتدية فى جريها ، أوَ لا ترى فى

---

(١) ص ٤٢٨ جـ ٩ من تفسير المنار .

(٢) آية ٤٩–٥١ المدثر .

(٣) ص ١٩٩ من كتاب « من بلاغة القرآن » الدكتور أحمد بدوى .

صورة هذه الحمر وهى تجد فى هربها لا تلوى على شىء تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة ، فارين أمام الدعوة لا يلوون على شىء سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية ؟ » .

من سورة يونس :

الحياة الدنيا

تتفتح أعين الأناسيّ الصغيرة أول ما تتفتح على دنياهم المحيطة بهم، فتسحرهم وتبهرهم وتعجبهم وتطربهم بما فيها من نعيم ومتاع ، وضياء وأضواء . . .

وتسير بهم دنياهم فى كل مجال ومكان تعرض عليهم العديد من مباهجها ومفاتنها . . ويخدع أهل الدنيا عندما يرون دنياهم قد أخذت زخرفها وازينت . .

ويركنون إليها مسلمين زمامهم لها ، مغرقين أنفسهم فى أوضارها وأوحالها ، بعد أن ظنوا أنهم قادرون عليها ، متحكمون فيها بما فى جعبتهم من وسائل العلم الحديث ، وألوان التقدّم الحضارى ، وأنواع المخترعات والمكتشفات التى اختزلت المسافات ، وقرّبت البعيد وذللت العسير ، والتى جعلت مملكة الأرض تكاد تتطاول على مملكة السماء عندما غزت فضاءها ، وحاولت جاهدة أن تكشف مساتيرها وأسرارها . وسرت إلى

قلوب أهل الدنيا نشوة تقدمهم العلمى المادىّ فهزّوا أعطافهم صلفاً وكبراً وتمادوا فى غرورهم وخيلاتهم ، وتخيلوا فخالوا أن دنياهم عجينة لدنة بين أصابعهم يشكلونها وفق مشيئاتهم ويكيفونها حسب رغباتهم ورغائبهم .

وسرعان ما يسقط فى أيديهم ، وتدور أعينهم فى محاجرها فزعاً وزمعاً ، وتقف قلوبهم رعباً ورهباً عندما يفجأهم القضاء ويحل بهم الفناء . ويضع العدم — على غير موعد معهم — خاتمة كل الحيوات . ويصبحون فى ضمير الغيب أثراً وذكراً ومثلا وذكرى ، كأن لم يغنوا فى دنياهم عندما عجزت بما فيها ومن فيها عن أن ترد عنهم غائلة قضاء ، أو تمنع ضربة قدر أو تبعد شبح فناء أو وباء .

والقرآن فى أكثر من موضع يحذر هذه العاقبة ، وينعى على أهل الدنيا استكانتهم إليها وخدمتهم لها . وهو فى الوقت نفسه لا يحارب الدنيا محاربة دائمة مطلقة فهى فى نظره مرغوبة مطلوبة أيضاً : مرغوبة ؛ ليتخذها المرء مطية يصل بها إلى النعيم الأخروى ، وسبيلا يعبره ليعمر حياته الأخرى الخالدة ، ومزرعة يبذر فيها صالح العمل وصحيح العقيدة ، وينشر فى أرجائها الهدى والسلام ؛ ليجنى فى آخرته الجزاء الخالص والخير الخالد .

فالعزوف عن الدنيا جريمة فى نظر الإسلام ؛ بدليل أن الله جلّ شأنه يقول « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ويقول « قل من حرّم زينة

الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول الحسن البصرى فى كتابه « أدب الدنيا والدين » : « إن الله جعل الدنيا دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء ، فلزم كذلك أن يصرف الإنسان إلى دنياه حظاً من عنايته ؛ لأنه لا غنى عن التزوّد منها للآخرة ، ويقول الله مخاطباً نبيه عليه السلام (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) أى: إذا فرغت من أمور الدنيا فانصب فى عبادة ربك ، ويقول عليه السلام : "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، لكن خيركم من أخذ من هذه وهذه" كما قال : "نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة" » .

وقد ضرب القرآن الكريم للدنيا أكثر من مثل ، وقد رسم فى هذه الأمثلة بأسلوبه الفنى وظلاله ورسومه أكثر من لوحة تمثل قوة الدنيا الضعيفة ، وعلمها الجاهل ، وخلودها الفانى : لعل ذوى الفطر السليمة والفكر النيرة الصائبة يثوبون إلى بارئهم ويفيئون إلى ظلال الحق فيعملون لأخراهم وأولاهم ، ولدينهم ودنياهم « واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض

زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً[١] كأن لم تغن بالأمس[٢] ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون [٢٤]). من سورة يونس

وفى سورة الكهف مثل ثان :

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً[٣] تذروه[٤] الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً [٤٥]) .

وتسوق لنا سورة الحديد مثلا للحياة أبان الدوافع التى تغرى أهل الدنيا بالاطمئنان إلى حيواتهم ، كما بين المثل سرعة زوال الدنيا وذهابها، بعد أن شبهها بالنبات الذى ارتفع والتف وطال وتطاول حتى أعجب الزارعين والرائين ، ثم سرعان ما اصفرّ بعد نضرة وذوى بعد قوة ، ولم يلبث أن تهشم وتحطم وتهاوى وتلاشى . .

---

(١) حصيداً : محصوداً .
(٢) كأن لم يغن بالأمس : كأن لم يكن موجوداً .
(٣) هشيما : مفتتاً .
(٤) تذروه : تفرقه .

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً[١] وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور [٢٠]).

يقول الألوسى فى تفسيره[٢] : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ، لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها ، روى عن سعيد ابن جبير « الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة » .

وعن بلاغة هذه الأمثلة القرآنية تحدث الدكتور أحمد بدوى فقال[٣] : « ولجأ القرآن إلى التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذى نراه مزدهراً أمامنا ، عامراً بألوان الجمال ، فيخيل إلينا استمراره وخلوده ، فيجد القرآن فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجاً نضراً ، يعجب رائيه ، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر ، ويصبح هشيماً تذروه الرياح — يجد

---

(١) حطاماً : فتاتاً .
(٢) ج ٢٧ ص ١٨٥ روح المعانى .
(٣) ص ٢٠٩ من كتاب من بلاغة القرآن .

القرآن فى ذلك شبهاً لهذه الحياة الدنيا ، ولقد أوجز القرآن مرّة فى هذا التشبيه وأطنب أخرى ؛ ليستقر معناه فى النفس ، ويحدث أثره فى القلب . فقال مرة : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً ».

وقال مرة أخرى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً » وقال مرة ثالثة : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ويقول الفيلسوف العلامة محمد فريد وجدى فى كتابه « مقدمة المصحف المفسر » تحت عنوان « الدنيا فى نظر القرآن » : « ما من فيلسوف أو شاعر أو متأمل فى الوجود إلا وحقر الدنيا واشتكى منها ؛ لتوالى آفاتها وتتابع حسراتها ، فلا لذة فيها إلا وهى مشوبة بألم ، ولا راحة إلا وهى مصحوبة بتعب . ، فلم تصفُ لملك ولا عالم ولا جاهل . ولكن الناس مالكهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم وكافرهم وإن اتحدوا فى

هذا الذم إلا أن طرائقهم فيها على غاية التناقض ؛ اتحدوا كلهم فى المقدمة واختلفوا فى النتيجة ، فنهم المتكالبون عليها ، المتفانون فى جمع حطامها . فكان ذلك التكالب مؤدياً إلى التقاطع والتنابذ وتعمد الشرور التى تزيد دنياهم نقصاً ، وحياتهم تنغيصاً . وهو حال شديد التناقض ، الواقعون فيه أشد الناس قدحاً لأنفسهم وعجباً من حالهم . ومن الناس من عرف للدنيا هذه الحال ، فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها إلا بما يسد الخلة ويقم الأود . ولكن إذا كان القسم الأول شديد التناقض ، فالثانى مفرّط لا يلبث أن يقع تحت سيطرة القسم الأول ؛ لأن الدنيا لمن غلب ، ولا غلب إلا بمادة . . .

جاء الإسلام والناس على هذين المبدأين ، فأتى للأولين من أنواع العبر بما يقتلع حب الدنيا من أنفس المتهورين فى حبها ، ويريهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » .

أتى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ، ولكنه شفعها بما يجب على الحى أن يعمله فى دنياه من سعى وراء الحصول على المادة ، حتى لا يقع أهل

هذا الدين تحت أسر الأمم المادية ، فقال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وسمى المال خيراً ما دام المقصود منه طلب الحق فقال تعالى : « فإن ترك خيراً الوصية » وسماه فضلا فقال تعالى : « فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » . والمال لم يكن خيراً وفضلا من الله إلا لأنه مكتسب من حل ، لا مأخوذ بقطع رحم ، ولا بمنافسة تجر إلى خراب .

بهذه الحكمة العالية أشرب القرآن نفوس أهله خصلتين ساميتين : أولاهما ، ترك الدنيا لعشاقها ، وثانيتهما : أخذ ما يقيمون به أود حياتهم منها ، ويحميهم من الوقوع في أسر عبادها .

ولا نرى ديناً من الأديان حل هذه المسألة على هذا النحو . وقد أيد المسلمون هذه الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم ، وأسسوا على قاعدته مدينة فاضلة قامت على أعدل صرط الفضيلة حتى قال الله فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

من سورة هود :

المكذّبون والمصدّقون

الأعمى لا يبصر الطريق . .

والأصم لا يسمع الدعاء ، ولا يعى النداء . . يضل من قدميه الطريق ، فيتيه فى مهمه ويسير فى شعاب ومسارب تبعد به عن الهدف المرجوّ والغرض الأسمى . .

وفاقد البصر إذا حرم القائد الملهم والموجه المستنير والمرشد الهادى الأمين تنكب الجادّة ، وحاد عن السبيل .

كذلك الكافر الذى نضا عنه ثوب الإيمان ، وأزال عن عاتقه تحمل التكاليف الشرعية الحقة ، والذى آثر الغواية والضلال ، فأصمّ أذنيه عن سماع دعوة الله ، وابتعد بقلبه عن نور الله ؛ فلم يبصر الحق . فمثله كمثل الأعمى . . . الأصم !!

أما المؤمن الذى أشرب قلبه حبّ الله ، وتحمل تعاليم مولاه ، ونشط لها وانفعل بها وعاشها ، منفذاً الأوامر مجتنباً النواهى . . ولم يكن سامعاً

فحسب ، بل بالغ فى سمعه . . وبالغ فى بصره ؛ حتى أبصر المحجة واضحة والمعالم منيرة ، فسار فيها يحفه نور من ربه ، وتوجهه هداية مولاه نحو الحق ، والله هو الحق المبين . .

وهذا المؤمن مثله ، فى تحريه الصواب وسماعه داعى السماء ، مثل السميع البصير . . وما كان للسميع البصير أن يتساوى بالأعمى الأصم..!!

فشتان بين الفريقين . . شتان بين الموت والحياة . . والنور والظلمة . . والكفر والإيمان « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » كمن هو سادر فى غيه وعمايته ! « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » كمن هو آمن لا يعتريه مكروه يومئذ ولا يحتاج إلى تقية ؟ «أم من هو قانت آناء الليل ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » كاللاهى اللاديني المستهتر المارق ؟

« أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ .

ويقول الله سبحانه فى سورة هود ممثلا حالتى المكذبين والمؤمنين مقرراً عدم تساويهما ، موجباً الخسارة يوم الدين للعصاة الظالمين ، والخلود فى النعيم لصالح المؤمنين :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أولئك يعرضون
على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة
الله على الظالمين[١٨] الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا
وهم بالآخرة هم كافرون [١٩] أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض
وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ،
ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون [٢٠] أولئك الذين
خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون [٢١] لا جرم
أنهم فى الآخرة هم الأخسرون [٢٢] أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون [٢٣]
مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان
مثلاً ؟ أفلا تذكرون [٢٤]) .

ثم ضرب الله مثلا للمشرك : فشبهه بالعبد يتولى أمره شركاء متشاكسون لكل منهم رغبة تخالف رغبة الآخر ، واتجاه يتعارض مع اتجاه الآخرين ؛ فلا غرو أن توزع قلب العبد وتشتتت نفسه فى التوفيق بين هاتيك الرغبات المتباينة ..

وضرب مثلا للمؤمن الموحد بالرجل الذى لا يلى أمره إلا شخص واحد

فحسب . . لا شركاء . . ولا شركة . . ولا مشاحنة ولا مشاكسة ، ولا أغراض متباينة أو أهواء متعددة . لا يخضع إلا لواحد فلا تحير ولا اضطراب ولا بلبلة ولا قلق .

(ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون[١] ورجلاً سلماً[٢] لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون [٢٩])[٣] .

. والعبد مسلوب الإرادة والحرية ، مشلول التصرّف والملكية ، معطل القوى ، تابع خاضع لسيده ، كسقط المتاع لا حول له ولا طول . ذلك العبد المملوك الرقيق لا يتساوى بالحر ولا يقارن بكامل الأهلية طليق التصرف فيما منحه ربه من رزق حسن ، وما أغدق عليه من خير .

وكذلك الكافر الذى عطل تفكيره فسيرته أهواء أوليائه .. والذى خضع لمعتقداته الفاسدة البالية ولتقاليده العفنة الموروثة فختمت على إرادته وطبعت على عقليته ، و رانت على قلبه فوجهته وفق هواها وأهوائها .

ذلك الكافر لا يتساوى بالمؤمن المفكر القوى بنصر الله ، الغنى بعقيدته

---

(١) متشاكسون : مختلفون .
(٢) سلما : خالصاً .
(٣) من سورة الزمر .

الصحيحة ، وبما أنعم الله عليه من خير وبر ، وبما أفاء علية من رزق وثراء .

والأبكم الأخرس الذى ماتت فيه حاسة السمع والنطق ، وتعطلت قواه العقلية فغدا مبتور المنفعة ضيق العطن ضحل التفكير ،وأصبح عالة على ولىّ أمره أينما يوجهه لا يأتى بخير ؛ فهو عديم النفع ، ضائع النجح .

لا يستوى ذلك الفاشل المخفق برجل كامل العقلية ذى فهم ناضج وإدراك سليم ، وكفاية وعدالة واستقامة .

فالكافر المشرك كالعبد الأبكم الأعمى . . .

والمؤمن الموحد كالحر العاقل الرشيد ..

وبين الفريقين ما بينهما من بعيد الفرق وشاسع البون .

وعن ذلك تتحدث أمثلة آيات سورة النحل التى تقول :

(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكًا لا يقدر على شىء[1] ، ومن رزقناه منّا رزقًا حسنًا فهو ينفق منه سرًّا وجهراً ، هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون [٧٥] وضرب الله مثلاً

(١) عاجز عن الكسب والتصرف .

رجلين : أحدهما أبكم[١] لا يقدر على شيء ، وهو كَلٌّ[٢] على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط[٣] مستقيم [٧٦]).

---

(١) أبكم : أخرس .
(٢) كل : عالة على غيره لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه .
(٣) صراط : طريق .

من سورة الرعد :

الجنّة

الناس فى حياتهم الدنيا يكافحون وينافحون ، يبغون من مسعاهم حياة أفضل وأعلى ، ومستوى أرفع وأنفع . وكذلك المؤمنون المتقون يكافحون أهواءهم وشهواتهم حتى يمكنوا فى نفوسهم لعقيدتهم . . وحتى يرضى عنهم ربهم ، ويختم بالصالح من الأعمال حياتهم ، ويوفيهم يوم الجزاء أجورهم . مصداقاً لقول الرسول صلوات الله وتسليماته عليه : «ألم تر أن العمال يعملون ، فإذا فرغوا من أعمالهم وُفوا أجورهم ؟ »

لكل أجير أجر ، ولكل عمل جزاء من ثواب أو عتاب أو عقاب ، ولكل عبادة حقة مثوبة وحسن مآب « إن للمتقين لحسن مآب : جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب».

وهناك قلة قليلة استقلت فى جنب الله ما قدّمته من صالح العمل وخالص العبادة ، معتقدة أن ما تقدمه فى سبيل عبادة الله لا يفى ببعض أنعم الله ، فجدوا وجالدوا حتى بلغوا — بعد طول معناة ومجاهدة — درجة

الإحسان فى القول والعمل والعبادة والتقوى ، فاستنارت بصائرهم ، وخلصت قلوبهم ، وصفت أرواحم وسمت أفئدتهم وتوصلت إلى الحق ، وعبدت الله لا رغبة فى ثوابه ولا رهبة من عقابه ، وإنما عبدته لذاته ، لا لشىء إلا لشىء واحد فحسب وهو أنه الرب الحقية بالعبادة ، كما كانت تقول رابعة العدوية .

وفى الجنة نعيم عجيب . . فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولكى يقرّب القرآن بعض متاعها لبعض النفوس التى لا تؤمن إلا بالمحسوس أبان فى كثير من آياته كثيراً من تلك الأجواء الإلهية التى يعيشها أهل الجنة : « هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون »، « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً »، « ودانية عليهم ظلالها » « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين »، « يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق »، « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق »، « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم »، « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين »، « تجرى من تحتهم الأنهار »، « وقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

أجواء مفعمة بالغبطة والرضا ، والمنافع والمتع ، ومع هذه المتع الحسية التى صورها القرآن متع أخرى معنوية من رضا نفسى وسرور برضوان

الله ، ونيل مغفرته ، وتلك لذّة روحية أسمى من النعيم المحسوس .

وإلى هذا الرضا والرضوان أشار القرآن عندما قال : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

نعيم كبير وفوز عظيم وملك كبير وخلود دائم تلك هى الجنة كما وصفها القرآن . وقد رسم القرآن — فى بعض سوره — صوراً محسوسة ، وصفت الجنة وأنهارها الجارية ومياهها المنسابة المتنوعة بين ماء حلو ولبن خالص وخمر شهىّ وعسل صاف .

(مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن[١] وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهارٌ من خمر لذّة[٢] للشاربين ، وأنهارٌ من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم [١٥]) من سورة محمد .

(مثل الجنة التى وُعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها[٣] دائم وظلّها ، تلك عقبى[٤] الذين اتقوا وعقبى

---

(١) غير آسن : غير متغير طعمه .
(٢) لذة : لذيذة . (٣) أكلها : ثمرها .
(٤) عقبى : عاقبة .

الكافرين النار [٣٥]) من سورة الرعد .

وبهذه الأمثلة التى قدمتها هذه الآيات يرعى القرآن الجانب الغريزى. فى الإنسان وهو الذى يدفعه إلى نشدان المادة والتماس اللذة .

ويرعى كذلك الجانب الروحى الذى يهيم بالمغفرة ويشغف بالرضوان؛

الحق والباطل

« إن الله سبحانه وتعالى ضرب مثل الحق فى ثباته وبقائه بالماء الذى ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية فى قدر حاجة الناس، ويمكث بعضه فى الأرض لمصلحتهم ، وبالمعادن التى ينتفع بها فى صنع الحلى والأدوات من حيث دوامها ونفعها .

وشبه الباطل فى عدم ثباته وبقائه بزبد الماء (الريم) وزبد المعادن يهيج ثم يضمحل ويتلاشى (١) » .

ومثلُ الحق والباطل تقدّمه لنا هذه الآيات من سورة الرعد :

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية (٢) بقدرها فاحتمل السيل زبداً (٣) رابياً (٤) ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء أو حلية أو متاع زبد مثلُه ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ؛ فأما الزبد

---

(١) ص ٨٥ من كتاب العظات الدينية فى الأمثال القرآنية والعربية .
(٢) أودية : جمع واد وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة .
(٣) الزبد : الفقاقيع البيضاء التى توجد عند غليان السوائل .
(٤) رابياً : عالياً .

فيذهب جفاء[١] وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال [١٧]).

ويقول الحكيم الترمذى[٢] : « . . ضرب الله مثلاً ليبين الحق من الباطل فقال: أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها . فالحق مثل الماء الذى جرى فى الأودية ، فسالت أودية بقدرها : أى اختلط الحق بالباطل ؛ لأن النفس جاءت بأباطيلها ومناها وشهواتها التى هى إلى فناء فتمنتها فاغترّ بها القلب . والحق لا يفنى ولا يبلى .

فقوله : أنزل من السماء ماءً : أى القرآن ، شبه القرآن بالماء : لأن فيه منفعة الدين من الأحكام والشرائع ، كما أن فى المطر منفعة الدنيا ،

ثم شبه القلوب بالأودية ؛ لأنه وجد النور فى القلب منفذاً ومجازاً كما وجد الماء فى هذه الأودية منفذاً ومجازاً .

ثم شبه القلوب بالسيل . وسيل الباطل بالزبد الذى يعلو فوق الماء ، فكل قلب يتفكر ولم يعتبر ولم يرغب فى الحق خذله الله تعالى ووجد الظلمة والهوى فى قلبهمنفذاً ومجازاً ، كما أن السيل وجد فى الأودية منفذاً

(١) جفاء : الجفاء ما يرمى به القدر من الغثاء .

(٢) ص ٩٢٣ من مخطوطته .

ومجازاً فلما خذل هذا القلب احتمل الباطل كما احتمل السيل الزبد الرابى .

وإذا وجد القلب التوفيق فتفكر واعتبر احتمل الحق كما انتفع الناس من الماء الصافى . ثم وصف الحق والباطل لصاحبهما فقال : فأما الزبد فيذهب جفاء ، يعنى : تذهب منفعته ، كذا الباطل تذهب منفعته لصاحبه فى الدنيا الآخرة .

أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض — هو الماء الصافى — كذلك الحق : شبه الحق بالماء الصافى لأنه تبقى منفعته لصاحبه فى الدنيا والآخرة كما يبقى الماء لمن أخذه . . »

ويقول فريد وجدى — فى تفسيره : « أنزل الله من السماء ماءً فسالت وديان بمقدارها الذى يعلم الله أنه يكفيها ، فاحتمل السيل زبداً طافياً على وجه الماء ، وللمعادن التى توقدون عليها فى النار طلباً لأن تصنعوا منها حلياً ومتاعاً كالأوانى زبدٌ كزبد الماء ، فأما هذا الزبد فيذهب غير مهتم به لحقارته . .

وأما ما ينفع الناس كالماء وخلاصة المعادن فيبقى فى الأرض ،

كذلك يضرب الله الأمثال ؛ لإيضاح الشبهات ، جعل الله تعالى مثل الباطل كمثل الزبد يتكوّن ثم يضمحل ، وجعل مثل الحق كمثل الماء والمعادن التى تنفع الناس وتمكث فى الأرض » .

من سورة إبراهيم :

عمل الكافر

رماد هش أسود حطام نار خبت وهمدت . .
ويوم عاصف عابس قد اكفهر وجهه وتكدر جوه . .
وريح قاصفة تدوى وتزمجر وتدمر وتدمدم . .

وتئن الريح وتئز فى ذلك اليوم العاصف ، وتثور وتفور ، وتلفح وجه الأرض فتقتلع النجم من أصوله وجذوره ، وتهز الأجسام التى تلجأ إلى حمى وملاذ ، وتقذى العيون بما تثيره من حصى وغبار وقتام . . ثم تلتف الريح حول نفسها فى قوة وعنف تعصر فريستها وتهصر عودها وتقذف بأشلائها حيث تشاء . . ثم تتطاول الريح وترتفع ، وتصفع ذرى النخيل والأشجار التى ما تلبث أن تحنى لها هاماتها استسلاماً وخضوعاً .

وما كان للرماد الهش أن يقوى على الصمود فى هذه الأجواء المتقلبة ! وماذا تجدى مقاومته — إن كانت له مقاومة — أمام قوى الرياح العاتية العارمة ؟ !

وقبل أن يـ كن الجوّ وتسكت العاصفة يتحلل الرماد وتتفتت ذراته ويصبح لا شىء فى دنيا العدم .

وأعمال الكافرين ، مهما جلت وكثرت ، كهذا الرماد الذى انعدم وتلاشى فى جوف الريح الهادرة .

وهذه اللوحة الإلهية ترسمها لنا آيات من سورة إبراهيم عندما تقول :

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف[1] لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد [١٨]) .

و[2] وتشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة ، انظر إليه تجد فى السراب ، وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعاً — فيغرهم مرآها ، ويمضون إلى السراب يظنونه ماء ، فيسعون إليه ، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤملون . إنه يجد فى السراب صورة قوية توضح أعمال الفكرة تظن مجدية نافعة — وما هى بشىء فيقول :

---

(١) العصف : اشتداد الريح .

(٢) ص ١٩٦ من كتاب بلاغة القرآن .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة[1] يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً[2] .

« [3] ومن النظر إلى الفكرة من عدة زوايا (نجد القرآن) حيناً ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها ولا نتيجة ، فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ لأنها فى يوم عاصف، ألا ترى هذه الريح كفيلة بتبديد ذرات هذا الغبار شذر مذر ، أنها لا تبقى عليه ولا تذر : كذلك أعمال الكافرين ، لا تلبث أن تهب عليها ريح الكفر حتى تبددها ولا تبق عليها . والتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء » .

وحيناً ينظر إليها من ناحية أنها تغر أصحابها ، فيظنونها نافعة لهم مجدية عليهم ، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئاً ، ألا ترى فى السراب هذا الأمل المطمع ذا النهاية المؤيسة ، ولأداء هذا المعنى قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة : يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . »

---

(١) بقيعة : بأرض مستوية .
(٢) آية ٤٠ سورة النور .
(٣) ص ٢٠٢ من كتاب بلاغة القرآن .

وحيناً ينظر إليها من ناحية ما يلمّ بصاحبها من اضطراب وفزع عندما يجد آماله فى أعماله قد انهارت ،ألا تظلم الدنيا أمام عينيه ويتزلزل كيانه كهذا الذى اكتنفه الظلام فى بحر قد تلاطمت أمواجه ، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج ألا يشعر هذا الرجل بمصيره اليائس وهلاكه المحتوم ، ألا يصوّر لك ذلك صورة هؤلاء الكفار عندما يجيئون إلى أعمالهم فلا يجدون لها ثواباً ولا نفعاً ، ولتصوير ذلك جاء فى قوله سبحانه : « أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . . ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب [٣٩] أو كظلمات فى بحر لجىّ[١] يغشاه[٢] موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور [٤٠] .

---

(١) لجى : عميق .
(٢) يغشاه : يغطيه .

دعاء الكافر

الدعاء صلة روحية بين العبد وبارئه ، واتجاه إلى الرب القادر ، واستعانة بالمولى العزيز ، وابتهال من المخلوق الضعيف إلى الخالق القوي يرجوه المغفرة والعفو ، ويطلب منه الرحمة والنصر ، ويسأله التوفيق والسداد .

ويصعد الدعاء الحارّ يحمل ضراعة المؤمن . . ويحمل فى الوقت نفسه دلائل الإيمان ودلائل العبودية ودلائل الخضوع والانقياد .

والإيمان قطب الرحى ، وركيزة الاستجابة ، ومن تعرّى عن الإيمان وكفر بالألوهية والعبودية فمن يدعو ؟ وأنى يستجاب له ؟ !

هو إن دعا فإنما يدعو صنماً لايضر ولاينفع أو حجراً لا يسمع ولا يشفع . . وإن جأر بطلب فإنما يتوجه به إلى ضعيف لا يملك من أمره شيئاً ، فضلاً عن أن يتصرف فى أمور الآخرين .

يدعو أوهاماً أو أوثاناً من دون الله ، فكيف يستجيب لدعائه الله ؟

فلا بدع أن كان دعاء الكافرين فى ضلال ، ولا عجب إذ كان عمل الكافر ضياعاً وضلالاً أن يكون دعاؤه كذلك هباء وخسراناً .

وقد سجل الفرقان الحكيم ذلك عندما قال في سورة الرعد : « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .ومثلت آيات من هذه السورة الكريمة عدم جدوى دعاء الكافر عندما قالت :

(له دعوةُ الحق[1] والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط[2] كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال [١٦]) .

---

(١) له دعوة الحق : إنه وحده الذى يستحق أن يدعى .
(٢) كباسط : كاد .

الخبيث . . والطيِّب

قد تتكاثف على الحق سحب الباطل وأستاره فتحجبه إلى حين ! وقد ينوء الخير أحياناً تحت لطمات الشرّ ! ! وقد يتوارى الطيب عند سوْرة الخبيث وتطاوله، وقد يضعف صوت الحق أو يهن بين هزيم الباطل وزمجرة الظلم وهدير الغشم ودوى الإفك . .

وتظن الأوهام أن دولة الحق قد دالت ، وسطوته قد زالت ، إلا قلة قليلة من صادق المؤمنين تتمسك بمسكة من أمل وأثارة من رجاء تعمر قلوبهم فتثبتهم أمام الأنواء والأعاصير ويزهى الباطل بغشمه وجبروته ، ويهيج الخبيث فيعيث فى الأرض جوراً وخسراناً . . ويعتكر الأفق . . وتتلبد الغيوم . . وتتكاثف الظلمات . . ومن خلال طبقات الظلام ينبثق النور ويبزغ الضياء ويتكشف السناء ، ثم يتجمع الحق ويتكامل ويشرق بإشعاعاته على أمواج الباطل فيشل قواها ، ويوقف تيارها ويعدّل مجراها . . ويتحلل الجليد وتذوب طبقاته المتراكبة ، وتنقشع السحب وتتبدد الغيوم ويبزغ الفجر . الفجر الصادق على المؤمنين الصادقين .

هذه المعركة الأبدية بين الخبيث والطيب . . بين الشر والخير . . بين

الوهم والحقيقة . . هذه المعركة فى قوتها وإبانها ، وفى نتائجها وخواتيمها ، تصورها لنا آيات من سورة إبراهيم تقول :

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها[1] فى السماء [٢٤] تؤتى أكلها[2] كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون [٢٥] ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت[3] من فوق الأرض ما لها من قرار[4] [٢٦] يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء [٢٧]) .

(١) فرعها : أعلاها .
(٢) أكلها : ثمارها .
(٣) اجتثت : قطعت .
(٤) قرار : استقرار .

نقض العهد

من الفضائل الاجتماعية التى يزرعها الإسلام فى نفوس معتنقيه فضيلة الوفاء بالعهد والحفاظ عليه ، وجعل نقضه نقيصة نعى عليها وحذر عاقبتها ، وعن الوفاء بالعهد ونقضه تسوق لنا سورة النحل هذا المثل القرآنى :

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها[١] ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا[٢] إن الله يعلم ما تفعلون [٩١] ولا تكونوا كالتى نقضت[٣] غزلها من بعد قوة[٤] أنكاثا[٥] تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ...) :

يقول الترمذى فى مخطوطته[٦] : « مثل الذى نقض العهد كمثل الغزل

---

(١) توكيدها : تقويتها .
(٢) كفيلا : ضامناً .
(٣) نقضت : حلت .
(٤) قوة : إحكام .
(٥) أنكاثاً : طاقات وقطعاً محلولة .
(٦) ص ٩٢٧ من المجلد الثانى .

الذى نقضته تلك المرأة الحمقاء أنكاثاً : نقضاً ؛ فلا هو غزل ينتفع به ولا هو صوف ينتفع به ؛ فكذا الذى يعطى العهد ثم ينقضه لا هو وفىّ بالعهد إذا أعطاه ، ولا هو ترك العهد فلم يعطه .

وضرب مثلاً آخر لناقض العهد فقال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً(١) بينكم) أى عهودكم بالمكر والخديعة (فتزل قدم بعد ثبوتها) يقول : إن ناقض العهد يزل فى دينه عن الطاعة ، كما تزل قدم الرجل بعد الاستقامة » .

---

(١) دخلا : مفسدة .

من سورة الكهف :

مؤمن فقير . . وكافر غني

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين[١] من أعناب وحففناهما[٢] بنخل وجعلنا بينهما زرعاً [٣٢] كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا[٣] خلالهما نهراً [٣٣] وكان له ثمر[٤] ، فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً[٥] [٣٤] ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد[٦] هذه أبداً [٣٥] وما أظن الساعة قائمة ولئن رُددت إلى ربي لأجدن خيراً منها مُنقلباً[٧] [٣٦] قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة[٨] ثم

(١) جنتين : حديقتين . (٢) حففناهما : أحطناهما .
(٣) فجرنا : أنبعنا . (٤) ثمر : أنواع أخرى من المال .
(٥) أعز نفرا : أقوى أعوانا . (٦) تبيد : تفنى .
(٧) منقلباً : مرجعاً . (٨) نطفة : ماء الرجل .

سوّاك رجلاً [٣٧] لكنا[1] هوالله ربى ولا أشرك بربى أحداً [٣٨] ولولا إذا دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترَنِ أنا أقل منك مالاً وولداً [٣٩] فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً[2] من السماء فتصبح صعيداً[3] زلقا[4] [٤٠] أو يصبح ماؤها غوراً[5] فلن تستطيع له طلباً [٤١] وأحيط بثمره[6] فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً [٤٢])

«[7] وهذا المثل الذى ضربه الله تعالى فى وصف حال الكافر الغنى ، وما يجزّه إليه البطر من كفران حق المنعم . وحال المؤمن الذى ملأ الإيمان والثقة بالله صدره ، فلا ينظر للمال والحطام إلا نظره للأمور المتنقلة والأعراض الزائلة المتحولة ؛ فلو منحها شكر ، ولو حرمها صبر ، وهو فى كل ذلك كبير الفؤاد عزيز النفس ، بعيد من الدنايا وارتكاب الخطايا.

وما سرده الله من تحاورهما يصوّر للإنسان بأجلى بيان كيف ينفخ

---

(١) لكنا : لكن أنا . (٢) حسباناً : صواعق .
(٣ ، ٤) صعيداً زلقاً : أرضاً ملساء لا شىء عليها .
(٥) غوراً : غائراً . ٦) أحيط بثمره : أهلكت أمواله
(٧) ص ٧٨ من كتاب العظات الدينية فى الأمثال القرآنية والنبوية .

الشيطان فى أنوف أصحاب المال ويطغيهم حتى يدهورهم فى مهاوى العدم . وكيف يعلو الإيمان بنفس صاحبه ويهبه أعظم العلم بالحياة ، وتكاليفها ، والأمور وتصاريفها ، فيجعله مؤيداً بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويجعل له حسن العاقبة فى الدارين ؛ فإن العالم لا يقوده إلا العقل والعلم . والثروة مسخّرة لهما » .

من سورة الحج :

ضعف الآلهة . . وعجز الشركاء

عن ضعف الشركاء ، ومهانة الآلهة المدّعاة ، وعجز الأصنام ، تنطق بذلك كله تلك الصورة القرآنية التى مثّلت الضعف فى أقوى صورة ، وجسّمت المهانة تجسيماً صادقاً واقعياً ، وأبرزت عجز هؤلاء الذين ادّعى المشركون أنهم آلهة قادرون يمنحون ويمنعون :

(يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً — ولو اجتمعوا له — وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعُف الطالب والمطلوب [٧٣] ما قدروا الله حقّ قدره[١] إن الله لقوىّ عزيز [٧٤]) .

---

(١) ما قدروا الله حق قدره : ما عرفوه حق معرفته .

من سورة النور :

نور الله

الله ينير السموات والأرض بنور وحيه السماوى وعقيدته الهادية ودينه ذى التعاليم المضيئة التى يهتدى بنورها ويسير فى ضوئها وضيائها من أراد الله له سعادة الدارين وحسن الختم .

(الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم [٣٥]).

« الله منوّر الوجود ومجليه . صفة نوره الذى يفيضه على قلب المؤمن ويبعثه له فى سويداء سرائره فيملؤه علماً وهدى كمثل مصباح فى مشكاة ، وعلى المصباح قنديل من زجاج ، وفيه زيت نقى يزيد ضوء المصباح نوراً .

فكما ينير المصباح البيت ويملؤه نوراً وظهوراً كذلك نور المؤمن يكسبه علماً وهدًى ويخرجه من الظلمات إلى النور »[١] .

ويقول الحكيم الترمذى :[٢] « . . ضرب الله هذا المثل لنوره فى قلب المؤمن ليعلمه قدره ومنزلته ، فدله بالحاضر على ما أعدّ له فى الآجل ، فنفس المؤمن مثل بيت ، وقلبه مثل قنديل ، ومعرفته مثل السراج ، وفمه مثل الباب ، ولسانه مثل المفتاح . والقنديل معلق فيه دهنها من النفس والفتيلة من الزهد وزجاجها من الرضا وعلائقها من العقل ، إذا فتح المؤمن لسانه بإقرار ما فى قلبه واستضاء المصباح من كوّته إلى عرش الله تعالى ، فكلامه نور وعمله نور وظاهره نور وباطنه نور ومدخله فى الأعمال نور ومخرجه منها نور ومصيره يوم القيامة إلى النور » ويقول الدكتور بدوى[٣] « . . ولكن نظرة إلى الآية الكريمة ترى أن النور المراد هنا هو النور الذى يغمر القلب ، ويشرق على الضمير ، فيهدى إلى سواء السبيل ، أو لا ترى أن القلب ليس فى حاجة إلى أكثر من هذا المصباح ، يلقى عليه ضوءه فيهتدى إلى الحق وأقوم السبل ، ثم ألا ترى فى اختيار هذا التشبيه إيحاءً بحالة القلب وقد لفه ظلام الشك ، فهو متردد قلق خائف ، ثم لا يلبث

---

(١) التفسير المختصر لوجدى .
(٢) ص ٩٣٧ من المجلد الثانى لمخطوطة رسائل الترمذى .
(٣) بلاغة القرآن ص ١٩٥ .

نور اليقين أن يشرق عليه ، فيجد الراحة والأمن والاستقرار ، فهو كسارى الليل يخبط فى الظلام على غير هدى ، حتى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح فى المشكاة وجد الأمنُ سبيله إلى قلبه واستقرت الطمأنينة فى نفسه وشعر بالسرور يغمر فؤاده .

وإذا تأملت الآية الكريمة رأيتها قد مضت تصف ضوء هذا المصباح وتتأنق فى وصفه ، بما يصوّر لك قوّته وصفاءه ، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة ، تجعله يتلألأ كأنه كوكب له بريق الدرّ ولمعانه . أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس بأوفى نصيب ، فصفا لذلك زيتها حتى ليكاد يضىء ولو لم تمسسه نار . . ألا ترى أن هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل . ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك ويمزّق دجى الكفر والنفاق » .

من سورة العنكبوت :

قوّة الخلق . . وقوى الخالق

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت اتخذت بيتـًا وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون [٤١] إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم [٤٢] وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون [٤٣]) .

يقول صاحب كتاب «من بلاغة القرآن» (١) : «وكثر فى القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة الضوء تغمرها ، فتصبح شديدة الأثر ، وها هو ذا يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله ، وهذا لن يفيدهم فائدة ما ؛ فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدى ، فوجد فى العنكبوت ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه فى البناء ، ويبذل جهده فى التنظيم ، وهو لا يبنى سوى

---

(١) ص ١٩٣ .

أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوى فزادته وضوحاً وتأثيراً » .

وبعد هذا المثل الإلهى مضت الآية الشريفة تقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » : اجتمع الكفر وتكتل النفاق وقام بحملة بلبلة وتشكيك يزرع بها فى النفوس الغضّة الإيمان بذور الشرك والتّردد والارتداد والنكوص .

واتخذ من ضرب الله الأمثال بالذباب والعنكبوت قوام حملته ومادة تشهيره وسلاح تفرقته وظلت أبواق الحملة تنادى بأن الله لا تصدر عنه هذه الأمثال زاعمة أنه ما كان لكلام العظيم أن يتضمن هذه الأشياء الحقيرة الصغيرة ، فهى إذن ليست من عند الله ! ! وهى بالتالى من عنديات محمد ومن افتراءاته . . ونزل قول الله : إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها . . الله ربّ الناس وخالق الكون بما فيه وبمن فيه . . الله القادر العظيم . . ومن دلائل قدرته وسرّ عظمته أن يخلق الجرم الصغير والجسم القمىء ذا الجزئيات الدقيقة الرقيقة ، والشعيرات المرهفة الحساسة ؛ لينبئ عن قدرته وتفرده بالخلق والإيجاد والتكوين .

فردّت الآية بذلك كيد الكافرين ودفعت افتراءاتهم وغسلت من نفوس المؤمنين بوادر الريب ، وصفتها وهيأتها للقبول فقطعت بذلك على الكافرين كلّ طريق .

من سورة الفتح :

صحابة محمد

شدّة ورحمة .. ورقة وغلظة ..

شدّة وغلظة على أعداء الدين ، ورأفة ورحمة بإخوانهم المؤمنين ، هؤلاء هم صحابة محمد . .

فى الحرب أرواحهم على أكفهم ، يسبقون الموت إلى ملاقاة الأعداء .

وفى السلام حبّ وذعة ، ورقة حاشية ، ودماثة خلق ، وخشوع وخضوع ، وركوع مسجود ، وابتهال ودعاء ، وعبادة وإخلاص ، وإشراق وصفاء .

ذلك مثلهم فى التوراة ووصفهم فيها ومثلهم كذلك فى الإنجيل كزرع أثمر وأينع ، ثم قوى وغلظ ، ثم استوى واستقام حتى أعجب الخاصة من الزرّاع والعامة من الناظرين :

(محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء

بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم[١] فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه[٢] فآزره[٣] ، فاستغلظ[٤] فاستوى على سوقه[٥] ، يُعجب الزارع . . . [٢٩]) .

يقول المحقق الألوسى[٦] : « يعجب الزرّاع بقوّته ، وكثافته ، وغلظه ، وحسن منظره . وخصّهم الله تعالى بالذكر ؛ لأنه إذا أعجب الزرّاع ، وهم يعرفون عيوب الزرع ، فهو أحرى أن يعجب غيرهم . وهنا تمّ المثل .

وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للصحابة رضى الله تعالى عنهم : قلوا فى بدء الإسلام ، ثم كثروا ، واستحكموا ، فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس .

---

(١) سيماهم : علامتهم .
(٢) شطأه : فروعه فى الجانبين .
(٣) آزره : أعانه .
(٤) استغلظ : تحول من الدقة إلى الغلظة .
(٥) استوى على سوقه : استقام على ساقه .
(٦) ص ١٢٧ ج ٢٦ من تفسيره « روح المعانى » .

ثم يتابع الألوسى كلامه فيقول : « وفى الكشاف : هو مثل ضربه الله تعالى لبدء ملة الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قام وحده ، ثم قوّاه الله تعالى بمن معه كما يقوّى الطاقةَ الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها . وظاهره أن الزرع هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والشطء أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، فيكون مثلاً له عليه السلام وأصحابه ، لا لأصحابه فقط » .

من سورة الروم :

مثل من أنفسهم

فى مطلع سورة الروم تتحدث آيات عن قوة الله وآيات قدرته ، من خلق الإنسان والأرض والسموات ، وخلق الكون بما فيه وبمن فيه ، وبدء الخلق ثم إعادته .

وفى هذا دعوة للمفكرين لأن يتأملوا هذه الظواهر الكونية ؛ ليصلوا ن هذا الطريق التأملى إلى الله .

والنتيجة المنطقية لهذه المقدمات — بالنسبة للخارجين عن حظيرة الدين — كانت يجب أن تكون الإيمان بالقوى وقوته ، والإذعان للقادر وقدرته . . غير أن الخارجين عن حظيرة الدين — وكثير ما هم — لم يؤمنوا بهذه النتيجة ولم يعترفوا بها وأقاموا على شركهم ! !

وكان أن تدرج الهدى الإلهى معهم ؛ فلجأ المنطق القرآنى إلى مثل واقعى يعيشه هؤلاء الظالمون المشركون .. مثل من واقع حياتهم ، ومن ذاتيتهم ومن أنفسهم :

(ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء[١] تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون [٢٨] .

إن ما تملكونه لم تمنحه لكم أصنامكم ، ولا أوثانكم ، ولا الشركاء الذين اتخذتموهم من دون الله .

إنما الذى رزقكم بها هو الرزاق القدير ، والذى منحكم إياها هو الواحد الأحد على رغم كفركم وإبائكم ، وعلى رغم شرككم ونفوركم .

هؤلاء الموالى هل يشارككم أحد فيها ؟

وهل ترضون أن يتصرف أجنبى معكم فى توجيهها ، أو القيام على شئونها ، أو التحكم فيها ؟ وهل ترضون أن يشارككم أحد من عبيدكم فى شىء من أرزاقكم وأموالكم ؟ !

إذا كنتم أنتم لا ترضون الشركة على أى وجه فيما تملكون ، فكيف تجيزونها لمالك الملك . . الواحد الأحد . . الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؟ !

---

(١) فأنتم فيه سواء : أنتم وهم متساوون فى التصرف .

عجباً ! ! تجعلون لله الخالق الرزاق شركاءَ من عبيده ومخلوقاته وتأنفون أن يشارككم الشركاء فى عبيدكم وإمائكم وأموالكم ومواليكم؟ إن المنطق والعقل يحتّم عليكم لو كنتم تعقلون أن توّحدوا . .

وكذلك يفصّل الله الآيات لقوم يعقلون ، ويضرب الأمثلة لمن يعقلها ويتدبرها . .

من سورة يس :

قرية ظالمة ؟؟

رُسلٌ ترسل وتعزّز إلى كفرة فجرة ، ينفرون ويجادلون . . ومؤمن منهم ينصح لهم . . ويخلص فى نصحه ، ويوجههم إلى صائب العقيدة ، ويستنكر عبادة ما سوى الله . .

ثم نهاية الإيمان ، وعاقبة الإشراك .

كل هذه المشاهد تجلوها لنا تلك القصة الآتية التى ساقها ذلك المثل القرآنى :

(واضرب لهم مثلاً : أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون [١٣] إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون [١٤] قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون [١٥] قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون [١٦] وما علينا إلا البلاغ المبين [١٧] قالوا : إنا تطيرنا(١)

(١) تطيرنا : تشاءمنا .

بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم (١) ، وليمسنكم منا عذاب أليم [١٨]
قالوا : طائركم (٢) معكم أئن ذكرتم (٣) ، بل أنتم قوم مسرفون [١٩]
وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا قوم اتبعوا
المرسلين [٢٠] اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون [٢١] وما لى
لا أعبد الذى فطرنى (٤) وإليه ترجعون [٢٢] أتخذ من دونه آلهة إن
يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون [٢٣]
إنى إذاً لفى ضلال مبين [٢٤] إنى آمنت بربكم فاسمعون [٢٥]
قيل ادخل الجنة قال : يا ليت قومى يعلمون [٢٦] بما غفر لى
ربى وجعلنى من المكرمين [٢٧] وما أنزلنا على قومه من بعده من
جند من السماء وما كنا منزلين [٢٨] إن كانت إلا صيحة (٥)
واحدة فإذا هم خامدون [٢٩]) .

والإيمان بحرصه على الصلاح ، وسعيه فى الهداية والإصلاح ، ودعوته

---

(١) لنرجمنكم : لنقتلنكم رمياً بالحجارة .
(٢) طائركم : شؤمكم .
(٣) أئن ذكرتم : أئن ذكرناكم بالله ورسالة رسله تؤذوننا .
(٤) فطرنى : خلقنى .
(٥) صيحة : صرخة .

إلى العقيدة الصحيحة ، ومنطقه فى التدليل عليها ، واستنكاره الضلالات والأوهام وثباته على خالص المبادئ واستشهاده فى سبيلها وحسن خاتمته وموفور جزائه كل ذلك تمثله شخصية ذلك الرجل المؤمن الذى تحدثت عنه آيات هذا المثل .

والكفر بلجاجته وعناده وإصراره وتكذيبه ، وتطاوله وتهديده ، وتعطشه إلى الدماء ، واغتياله أرواح الهداة ، وسرعة انتقام الله منه وأخذه أخذ عزيز مقتدر . .

والرسل بهديهم ووحيهم وجهادهم ومنطقهم .

كل هذه المشاهد عرضها علينا ذلك المثل الإلهى داعياً رسول الإسلام محمداً عليه الصلاة والسلام ، وداعياً كل شخصية إسلامية محمدية أن تذكر بهذا المثل وبما يحمل من هدى جليل وتوجيه جميل وتبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

من سورة النحل :

نهاية الكفر . . ومصير التكذيب

قرية من قرى الأولين تنام على دعة ، وتستيقظ على أمن ، وتعيش في رغد ورفاهية ونعمة ونعيم .

جاءها منذر من أهلها ، وهاد من أنفسهم، وموجه من جلدتهم . . دعاهم إلى شكر المنعم بعبادته وتوحيده ، فأعرضوا عن الدعوة ، وكفروا بالرسول المرسل وبالمنعم المرسل !

ومن يسر في طريق الكفر فلن يصل في النهاية إلا إلى الهاوية ، ولن يسلمه الطريق إلا إلى سوء المصير ! !

(وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً[1] من كل مكان ، فكفرت بأنعم[2] الله، فأذاقها الله لباس[3] الجوع والخوف بما كانوا يصنعون [١١٢]) .

---

(١) رغداً : واسعاً . (٢) أنعم الله : نعمه .
(٣) لباس : آلام .

ينبثق من هذا المثل إنذار يشير إلى سوء المنقلب وتعاسة المرجع والعاقبة لا لقرية بعينها ، ولا لفرد بذاته ، بل لجميع الأفراد والجماعات والدول والمجتمعات إن كفرت وتولت .. وأعرضت وعارضت وحاربت داعى الله ذهبت ريحها ونكصت على عقبها وحلت بها النقمة محل النعمة .

يقول الزمخشرى : (١) « .. إن الله جعل القرية التى هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، أو يجوز أن تكون قرية من قرى الأولين كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة ، إنذاراً من مثل عاقبتها » .

---

(١) فى تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٧٧ .

من سورة الجمعة :

مثل اليهود

اليهود ، كلفهم المولى العمل بالتوراة لتضمنها عقيدة الله وشريعته ، فلم يعملوا بها ، ولم يقدروها حق قدرها ، ولم ينتفعوا بما تضمنته من عقيدة وشريعة ؛ فمثلهم كمثل الحمار يحمل فوق ظهره كتباً قيمة وأسفاراً نافعة يستفيد بها الغير ، وهو جاهل بما يحمل لا يستفيد منه ولا ينتفع به .

(مثل الذين حُملوا[1] التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً[2] بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين [٥]).

« ومن خصائص التشبيه القرآنى دقته ؛ فهو يصف ويقيد ، حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، وخذ مثلاً لذلك قوله تعالى : (مثل

(١) حملوا التوراة : كلفوا العمل بها .
(٢) أسفاراً : كتباً .

الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً . .) فقد يتراءى أنه يكفى فى التشبيه أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل ؛ ولكن الصورة تزداد قوّة والتصاقاً والتحاماً حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدرى مما ضمته شيئاً ، فتمام الصورتين يأتى من هذا القيد الذى جعل الصلة بينهما قوية[1] » .

---

(١) ص ١٩٩ من كتاب من بلاغة القرآن .

من سورة التحريم :

المسئولية الفردية

« يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

بهذا التحذير المحمدى لأقرب المقربين إليه ، لفلذة كبده فاطمة ، يقرر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام مبدأ من أهم المبادئ الإسلامية ، وأساساً من أسس العقيدة الإلهية (كل امرئ بما كسب رهين) لا يغنى أحد عن أحد شيئاً ، لا معول إلا على العقيدة الشخصية ولا اعتماد إلا على السلوك الفردى ، لا محاباة ، ولا محسوبية ، ولا استثناء .

خائن العقيدة له ميقات لا تنفعه فيه قرابة ، ولا تشفع له صلة ، ولا يجديه نسب ولا تغنى عنه صلات قرباه لأقرب الأشخاص إليه ، ولو كان رسولا من عند الله (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) .

كل فرد مسئول عن ذاتيته وعقيدته وسلوكه الفردى ، وهذا المبدأ الإسلامى قد قرره القرآن بادئ ذى بدء عندما عرض لنا شرائح للإيمان الذى نبت وسط أشواك الكفر وحسك الشرك ، وشرائح للكفر الذى وُلد

فى محيط العقيدة السليمة الصحيحة .

فامرأة نوح خانت زوجها الرسول الصالح خيانة عقيدة لا خيانة فحشاء وظاهرت أعداءه وناصرت شانئيه وأسهمت مع خصومه فى السخرية والاستهزاء به . وامرأة لوط كانت تدل قوم لوط على ضيوف لوط وهى تعلم صنيعهم مع هؤلاء الضيوف !

لم تشفع هذه الآصرة التى تربط كلّ واحدة من هاتين المرأتين بزوجها فكان مسيرهما إلى النار . . ومصيرهما أسوأ مصير ، فلا شفاعة ولا استثناء فى شأن الكفر والإيمان .

وامرأة فرعون التى فرّت إلى ربها . وهى تتقلب فى أعطاف النعيم الحسىّ — لم تعشُ ناظريها أبهة الملك ومظاهر العظمة وألوان الترف الذى أعدّ لها وأضفى عليها باعتبارها المرأة الأولى فى المملكة الفرعونية .

نبذت ذلك كله ، وطرحته وراءها ظهريا . وولت وجهها شطر السماء تسأل من فى السماء أن ينجيها من فرعون وعمله ومن شره وأشره ومن عقيدته وحاشيته .

ومريم ابنة عمران البتول الطاهرة ، المحصنة . العفيفة الشريفة التى حافظت على طهارتها فى البيئة الفاجرة . وحافظت على إيمانها فى البيئة الكافرة ، فصدّقت بربها وكلماته وكتبه .

وكانت من أجل ذلك قانتة عابدة متبتلة شاكرة فى ذاك الوقت الذى عزّ فيه العابد الشاكر .

آسيا امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران نموذجان للمرأة المؤمنة المتطهرة القانتة يقدمهما الهدى الإلهى لزوجات النبي ، وللنساء فى كل جيل ليتحملن التبعة ، التى لا يعفيهن منها أنهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين .

عن هذه الزوايا المظلمة والمضيئة . . وعن هذه المسئولية الفردية وعن هذا الإيمان الذى لم تزعزعه ريح الكفر تحدثنا هذه الآيات الموحية .

(ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين [١٠] وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين [١١] ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين [١٢]).

الأمثال فى ظلال اللغة

الأمثال :

جمع مثل ، والمثل : قول فى شىء يشبه قولاً فى شىء آخر بينهما مشابهة ؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوّره .

وقال المبرّد : المثل مأخوذ من المثال ، وهو : قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول . والأصل فيه التشبيه .

وقد يطلق المثل ويراد به الصفة الموضحة الكاشفة عن الحقيقة أو الحالة ، كقوله تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون أى صفتها وقوله (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى صفة السوء .

وقد يراد به النظير ، كما فى قوله تعالى فى سورة يس : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه) أى ضرب لنا ذلك المنكر نظيراً من الخلق قاس قدرتنا على قدرته .

وقد يراد به العظة والعبرة كقوله تعالى : (فلما آسفونا انتقمنا منهم فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) .

وقد يراد به الأمر العجيب ، كقوله سبحانه فى شأن عيسى عليه السلام :

(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) . .

أما الند فإنه يقال فيما يشارك فى الجوهر فقط .

وأما الشبه فإنه يقال فيما يشارك فى الكيفية فقط .

وأما المساوى فإنه يقال فيما يشارك فى الكمية فقط .

وأما الشكل فإنه يقال فيما يشارك فى القدر والمساحة فقط

والمثل : عام فى جميع ذلك .

ومن دقائق التعابير القرآنية أن القرآن حينما أراد نفى التشبيه عن المولى سبحانه من كل وجه قال : (ليس كمثله شىء) فالتعبير بمثل أعم وأشمل لكل معانى المشاركة .

الله المثل الأعلى

الصفات المحمودة كلها تسند لله ، ولا يجوز أن نصفه بصفة مما يوصف بها البشر إلا بما وصف به نفسه .

وقد صوّر القرآن الله المثل الأعلى فى جميع صفات الجمال والجلال والكمال ، فهو الله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، الأول والآخر والظاهر والباطن والصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، السميع الخبير ، على كل شىء قدير غفور رحيم ، حىّ قيوم ، واسع عليم ، بصير بالعباد يحب المحسنين والصابرين لا يحب الظالمين يمحق الكافرين ، غنى حميد ، واحد قهار نور السموات والأرض قوى خالق شديد ، على كل شىء شهيد عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم سريع الحساب غنى عن العالمين ، عليم بذات الصدور بكل شىء محيط علىّ كبير شاكر حليم ليس بظلام للعبيد . . إلخ .

ومن كانت هذه الصفات المثالية صفاته فلا يجوز أن نصفه بغيرها .

نهى

لذا نهى الله سبحانه عن أن نضرب له الأمثال ، فقال « فلا تضربوا لله الأمثال » هو يضرب لنفسه الأمثال ، ولا يجوز لنا أن نقتدى به ؛ لأنه يعلم ، ونحن لا نعلم .

يقول ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » (١) « فلا تضربوا لله الأمثال : فلا تصفوه بصفات غيره ، ولا تشبهوه به » .

والطبرى يقول : « فلا تمثلوا لله الأمثال ولا تشبهوا له الأشباه ؛ فإنه لا مثيل له ولا شبيه » تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

وقال الإمام محمد بن على الترمذى (٢) : « إن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء ، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال ؛ إذ قد خفيت عليهم الأشياء ، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ؛ ليدركوا ما غاب عنهم .

فأما من لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء فلا يحتاج إلى

---

(١) ص ٢٧٩ .

(٢) ص ٩٣٠ من مخطوطة .

الأمثال ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فلا جرم ، ما ضرب الأمثال من نفسه لنفسه ، وكيف ، ولا مثل له ، ولا شبيه له ، فلذلك قال جل ذكره (فلا تضربوا لله الأمثال) .

فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار ، لتهدى النفوس بما أدركت عياناً . فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ، ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة . فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى فى كتابه عالماً لقوله تعالى :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

وبعد . . .

فهذه هي الأمثال القرآنية بهديها ووحيها ، وبمنهجها وهدفها ، عرضتها ما وسعني الجهد في هذا الكتاب .

ولعلي أكون بما قمت قد وفقت في إبرازها أو إبراز جانب منها ملأ فراغاً كان شاغراً في المكتبة القرآنية . .

محمود بن الشريف

مراجع البحث ومصادره

تفسير أبى السعود :	
« الطبرى	
« روح المعانى	لمحمود الألوسى
التفسير المختصر	لمحمد فريد وجدى
تفسير المنار	للأستاذ الإمام محمد عبده
مقدمة المصحف المفسر	لمحمد فريد وجدى
أدب الدنيا والدين	للحسن البصرى
رسائل الحكيم الترمذى	(مخطوطة فى مجلدين)
العظات الدينية	لعلى فكرى
من بلاغة القرآن	للدكتور أحمد بدوى

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

